جامعة القدّيس يوسف
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة
معهد الآداب الشرقيّة
بيـــروت

الحجّ إلى الحجاز في العصر المملوكي

(٦٤٨/١٢٥٠- ٩٢٣/١٥١٧)

أطروحة دكتوراه في العلوم الإنسانيّة (التاريخ)

أعدّتهـــا

هيام علي عيسى

وأشرف عليها
الدكتور أحمد حطيط

٢٠١٠/١٤٣١

الإهــداء

إلى روح والدتي...

وروح والدي...

بــرّا وتقديــرًا ووفـــــاء

المقدمـــة

تتضمّن هذه الأطروحة موضوعًا يُعَدُّ من بين الموضوعات المهمّة في التاريخ الإســـلامي التي تجذب أنظار المسلم بخاصّة، وهو **الحجّ إلى الحجاز في العصــر المملــوكي (٦٤٨/١٢٥٠-٩٢٣/١٥١٧)**، والمعروف أن الحجّ هو الركن الخامس من أركان العبادات في الإسلام، فرض في العمر مرة على كل مسلم ومسلمة بشروطه الشرعيّة: من إسلام، وبلوغ، وحرية، وعقل، واستطاعة ماديّة وصحيّة.

الحجّ إلى الكعبة هو فرض إلهي قديم يمارس منذ أن قام إبراهيم وابنه إسماعيل ببناء الكعبة أول بيت وضع للنّاس... وفي القرآن آيات تدل على أن الحجّ كان مفروضًا قبل الإسلام وتشير إلى مناسكه ومنافعه... فالنّاس كانوا يأتون من كل فج عميق مشاة وركابًا، رجالاً ونساءً ليطوفوا بالبيت العتيق... والآية الّتي وردت في القرآن لقوله تعالى﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ فقد تضمنت مشـــروعيّة الحجّ، والرحلة إليه، يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ كما تضمنت طرق الحجّ، يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾[1]. تؤيد ما ذكرته الروايات من أنّ موسم الحجّ لم يكن قاصرًا على أهل مكّة أو الحجاز، بـــل كان الحجّاج يأتون من اليمن والشام والعراق ومنهم، كان الحنفاء والصابئون واليهود والنصـــارى، ومنهم، من كان يأتي للدعوة لدينه أو للاتجار أو للمفاخرة والخطابة وإنشاد الشعر.

وقد ظلّ الحنفاء والصابئون واليهود والنصارى يأمّون المسجد الحرام، ويقومون بمناســـك الحجّ إلى ما بعد فتح مكّة حتى حرم الإسلام على هؤلاء الحجّاج بدءًا من السنة التاسعة الهجرية أن يقربوا المسجد الحرام.

وعُد الحجّ من الشعائر الإلهيّة الّتي أنعم الله بها على المسلمين خصوصًا، وذلك لاشـتمال هذه الشعيرة على الكثير من الفوائد الدينيّة والاقتصاديّة والتربويّة والسياسيّة والاجتماعيّة.

وعمل الحجّ على توحيد المسلمين باجتماعهم في مكان واحد وزمان واحد، يلبّـــون تلبيـــة واحدة ويلبسون لباسًا واحدًا يجتهدون على تزكية نفوسهم، بتركهم شهوات الدنيا وملـــذاتها، فهـــم يتوجّهون إلى الله بصالح أعمالهم آملين أن يكفر عنهم سيئاتهم، لعلهم يعودون كيوم ولدتهم أمهاتهم بغير ذنوب ولا معاص فتصفوا نفوسهم ويتجدد إيمانهم ويزداد.

والرسول الأكرم أوّل الحجّاج إلى الكعبة في الإسلام أتى إليها في السنة العاشرة للهجـــرة، بصحبة جمع غفير من المسلمين، فألقى فيها خطبة الوداع. أصبح الحجّ من الثوابـــت الإســـلاميّة، فشهد بعد ذلك رحلات متواصلة سنويًا إلى الحجاز، وقد تطوّرت بســـبب الفتوحـــات الإســـلاميّة،

---

(١) سورة الحجّ، ٢٢/٢٧.

وأصبحت مكّة مقصد المسلمين من الأمصار كافة، يأمّونها فرادى وجماعات، في موسم الحجّ وغيره.

أولاً- تحديد الموضوع

لقد اخترت عنوانًا لموضوع الأطروحة: "**الحجّ إلى بلاد الحجاز في العصر المملوكي**" والمعروف أنّ الحجّاج كانوا آنذاك يخرجون على شكل قوافل من مناطق جغرافيّة محددة مثل: بلاد المغرب، مصر، الشام والعراق؛ إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحجّ، تحت حراسة مسلّحة لدفع أي عدوان قد تتعرّض له القافلة من قبل قطّاع الطرق واللصوص، وتجنُّب ما أمكن مخاطر الطريق.

أما تحديد الموضوع الزمني، فهو يبدأ من قيام سلطنة المماليك في مصر والشام والحجاز سنة ١٢٥٠/٦٤٨، وينتهي بسقوط هذه السلطنة على أيدي العثمانيين في سنة ١٥١٧/٩٢٣، والمعروف أنّ العصر المملوكي ينقسم إلى عهدين، على الرغم من عدم وجود انقطاع بينهما: عهد المماليك البحرية (١٢٥٠/٦٤٨- ١٣٨٢/٧٨٤)، وعهد المماليك البرجيّة (١٣٨٢/٧٨٤- ١٥١٧/٩٢٣). وقد شهد هذا العصر أحداثًا مهمّة، في مقدمتها وقف الزحف المغولي الذي أسقط الخلافة العباسيّة في بغداد، كما شهد أيضًا إخراج الصليبيين من الساحل الشامي.

وعلى الرغم من أهميّة موضوع "**الحجّ إلى الحجاز في العصر المملوكي**"، فإنّ الدراسات المتكاملة حوله قليلة، ولم يرد إلاّ عرضًا في الدراسات والبحوث الخاصّة بتاريخ المماليك، أمثال العصر المماليكي لسعيد عبد الفتاح عاشور، وتاريخ دولة المماليك في مصر، للسيد وليم موير(Muir William)، وجان سوفاجيه[1] (J. Sauvaget)، وكلود كاهين[2] (Cl. Cahen) وغيرهم، وبالتالي لم ينل حقه الكامل من البحث العلمي. ولما كانت الدراسات الحديثة عن الحجّ في العصر المملوكي غير كافية، كما أن المكتبة العربيّة تفتقر إلى دراسة

---

(١) جان سوفاجيه J. Sauvaget ١٩٠١/١٣١٨- ١٩٥٠/١٣٦٩. ولد في نيور Niort، وتخرّج من مدرسة اللُغات الشرقيّة متقنًا العربيّة والفارسيّة، ثم أحرز من كلية الآداب في جامعة باريس ليسانس اللُغة العربيّة فالدكتوراه، واختير عضوًا في المعهد الفرنسي بدمشق، ثم أمينًا عامًا، ومديرًا لدراسات تاريخ الشرق الإسلامي في مدرسة الدراسات العليا، وأستاذًا بالإنابة في مدرسة اللُغات الشرقيّة، وقام برحلات إلى تركيا وفلسطين والعراق وإيران. وله تآليف وبحوث كثيرة بالفرنسيّة، منها الآثار التاريخيّة في دمشق، وكتابات تدمر، والآثار الإسلاميّة في حلب، والعمارة الإسلاميّة في سورية، وخيول بريد المماليك، والآثار الأمويّة في قصور الشام. نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ج١، ص٣١٢.

(٢) كلود كاهين C. Cahen (المولود ١٩٠٩/١٣٢٥)، تخرج باللغات الشرقيّة من السوربون، ومدرسة اللغات الشرقيّة، ومدرسة المعلمين العليا، وعيّن محاضرًا في مدرسة اللغات الشرقيّة في باريس، وأستاذًا لتاريخ الإسلام في كلية الآداب بجامعة ستراسبورج، ثم في جامعة باريس. آثاره: المغول في البلقان، ووطنيون وصليبيون. نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ج١، ص٣٤٢.

علميّة شاملة تعالج هذا الموضوع؛ فإني قد تصدّيت له بصبر وأناة، وآمل بما أقدمت عليه أن يسدّ فراغًا في هذا المجال. فمكّة لها مكانة خاصّة تتميّز بها عن جميع مدن العالم الإسلامي من عدة نواحٍ، أهمّها ديني وثقافي وسياسي.

فمن الناحية الدينيّة: تحتوي مكّة على الكعبة المشرّفة، وفيها مقام إبراهيم، وهي مهبط الوحي ومنبع الهدى، ما أكسبها قدسيةً في قلوب المسلمين، وإليها تشغف أفئدتهم، وتتجه أبصارهم وقلوبهم. ففي الحجّ ومناسكه يتجرد الإنسان عن مألوف العادات، وفي الإحرام يترك الحاج المخيَّط من اللباس ليظهر بمظهر الفطرة، و مظهر التقشف، والتساوي بين الحجيج، فلا شريف ولا وضيع ولا غني ولا فقير، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم وأشدهم تمسكًا بما أمر الله به وما نهى عنه، وترتقي هذه الرحلة إلى مرحلة أرقى سالكة طريقها إلى الطواف حول الكعبة الّتي هي أوّل بيت وضع للنّاس وهو البيت المبارك الذي جعله هداية للنّاس وأمنًا.

ومن الناحية الثقافيّة: تعدُّ مكّة مجمع المسلمين بعامّة على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وتمايز تقاليدهم وأعرافهم من شتى بقاع الأرض، يتعارفون في جوّ من التلاقح الفكري الفريد، قلّما يوجد له مثيل في الأرض. وقد دأب المسلمون، منذ عهد النبيّ محمّد، أن يكون الحرم المكي في موسم الحجّ موطنًا للالتقاء بين العالم والمتعلّم، وذلك إضافة إلى مراكز التعليم الأخرى، كذلك الأمر كان بالنسبة للمسجد النبوي، حيث كانت تعقد عند أبوابه، وفي الحجرة النبويّة، وعند المنبر حلقات علميّة. فرحلة الحجّ توفر فرصة ثمينة تمتزج فيها أفكار علماء المغرب والمشرق، ويتمّ من خلالها تعرّف العلماء الشخصي على بعضهم البعض بعد ما كانوا يتعارفون عن طريق المراسلات والمؤلفات، ولاسيّما في العصر المملوكي.

ومن الناحية السياسيّة والاجتماعيّة: بالرغم من أن مكّة لم تكن عاصمة الدولة الإسلاميّة إلا أن مكانتها السياسيّة والاجتماعيّة شهدت تطوُّرًا متسارعًا، كان له طابع خاص بسبب ارتباطها بالحجّ، ولو عدنا بالمخيلة إلى الوراء، فنرى الرسول يطوف حول الكعبة وحيدًا. فكان للإسلام تابع واحد في العالم كله، ولكن في ما بعد زاد العدد فصار جموعًا غفيرة تطوف كل يوم حول الكعبة، ثم نسمع عن طوفان بشريّ يتقاطر سنويًا من كل أنحاء العالم في أيام الحجّ، لدرجة أن المسجد الحرام يضيق بهم كل سنة على الرغم من توسعته المستمرّة، فكيف تحقّقت هذه الأكثريّة؟ والرد هو أن هذا تحقّق بالدعوة إلى أداء الفريضة. وإن كانت خدمات حكّام المسلمين من خلفاء راشدين وأمويين وعباسيين، قد تنوعت فشملت السّقاية والرّفادة وكسوة الكعبة، والتوسعة والبناء والترميم وفرض النظام والأمن. إلا أنّ ذلك العمل استمرّ من خلال الملوك والسلاطين الذين تعاقبوا على الحكم نظرًا لسمو مكانة مكّة وعلوّ شأنها، ما جعلها محطّ أنظار

الحكّام والأمراء والمسلمين الّذين سعوا لتثبيت زعامتهم عليها أو تولي منصب الإمارة فيهـا. وخصوصًا في العصر المملوكي، محور المعالجة. تعدّ فترة حكم الشريف أبي نمي محمّد بـن أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة أطول فترة في حكم هذه الأسرة، حيث امتدت خمسين سـنة ٦٥٢/١٢٥٤- ٧٠١/١٣٠١ واستطاع بفضل قوة شخصيّته وحنكته السياسيّة أن يحافظ علـى استقلال مكّة في وجه مطامع الدولتين المملوكيّة والرسوليّة. هذا من ناحية ومن ناحية أخـرى اتّصفت العلاقات بين أمراء مكّة من الأشراف والسلطنة المملوكيّة بالتذبذب وعدم الاسـتقرار؛ فتارة تكون العلاقات جيدة، وتارة تصبح سيئة. كما استغلّ سلاطين المماليـك الصـراع بـين الأشراف للتدخل في شؤونهم، وتوطيد نفوذهم في مكّة. فالأشراف يمثّلون الطبقـة الحاكمـة، إضافة إلى القواد وسكّان مكّة الأصليين والمجاورين.

ومن الناحية الاقتصاديّة: ففي حين كان التعامل الاقتصادي بكافة ألوانه محظورًا فـي موسـم الحجّ قبل الإسلام، جاءت النصوص الإسلاميّة لتلغي هذا العرف، وأباحت التعامل الاقتصـاديّ والتجاريّ في موسم الحجّ، وأوضحت أنّ سفر المسلمين من كل فجّ عميق إلى بيت الله الحرام لعقد مؤتمر الحجّ العظيم بإمكانه أن يشكّل منطلقًا لتحرك اقتصـاديّ عـام فـي المجتمعـات الإسلاميّة، فمكّة تقع بواد غير ذي زرع، إلا أن التجارة تشكّل أهميّـة كبيـرة فـي حياتهـا الاقتصاديّة، حيث اعتمدت على ميناء جدّة في تجارتها في العصر المملوكي موضوع دراستنا.

ثانيًا- الإشكاليّـــة

كان الحجّاج عبر قرون العصور الإسلاميّة يفدون إلى الحجاز بواسطة قوافل الإبل، وكثيرًا ما كانت قوافل الحجيج تتعرّض لغارات اللصوص الأمر الذي دفع الحجّاج القادمين من بـلاد بعيدة إلى تنظيم قوافلهم وإعدادها إعدادًا يقيهم الحاجة إلى الطعام والشراب. وبذلك فـإنّ أمـن الطريق يشكّل أحد العناصر المهمّة في تدفق أعداد الحجّاج الذين يفدون من مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ، ويرتبط بمفهوم أمن الطريق أن يكون وصول الحجّاج من بلادهم إلى الدّيار المقدّسة وعودتهم منها إلى بلادهم أمرًا سهلاً، ولكن إذا اضطربت الأحوال في جـزء مـن الطريـق الواصل بين مواطن الحجّاج والدّيار المقدّسة، أو إذا تعطل الأمن بسبب أي نزاع أو نشوء فتن في الحرمين الشريفين ذاتهما أو بقربهما بما يحول دون الوصول إلى منطقـة شـعائر الحـجّ باطمئنان، وبمعنى آخر، إذا نشبت حروب محليّة أو حصل شغب، فإن ذلك يعطل مسيرة الحجّ ويهدّد طريقه، وقد شهدت عصور وأعوام كثيرة مثل تلك الأحوال الّتي ترتّب عليهـا تعطيـل الحجّ من بعض الجهات أو من معظم الأنحاء حينًا آخر. وكانت قوافل الحجّاج من كـل بلـد تخضع لنظام يكفل لها الأمن، بأن تكون في حراسة، وأن يقوم بالأمر مسؤول كبير عن حفـظ الأمن والنظام طوال مراحل سفر القافلة ثمّ في أثناء إقامتها بمنطقة المشاعر المقدّسة ومن ثـمّ

في العودة إلى البلاد ويساهم في أمنهم وأمانهم عبر الطريق الطويلة، وكان ذلك المسؤول يعيّن من قبل الحاكم أو السلطان في كل بلد، ويحمل صفة أمير الحجّ، ومن هذه القوافل كانت القوافل المصريّة والشاميّة والعراقيّة.

ولما كانت الدراسة تتمحور حول أمرين، هما الحجّ والمماليك، فقد حاولنا معالجة مقدّمات الحجّ وطرقه في العصر المملوكي، وبالمقابل عمدنا إلى إلقاء الضوء على موسم الحجّ من خلال المدينتين المقدّستين مكّة والمدينة.

من هذا المنظور، لا بدّ من طرح بعض التساؤلات حول رحلة الحجّ في العصر المملوكي، ومنها:

- ما الطرق الرئيسيّة الّتي كانت معتمدة للحجّ؟ وهل اختلفت هذه الطرق عن طرق التجارة؟
- هل اختلفت قوافل الحجّ إلى الحجاز في العصر المملوكي عمّا كانت عليه في العصور السابقة واللاحقة؟
- هل كانت قوافل الحجّ إلى الحجاز تضم جماعات من أعراق وإثنيات مختلفة، أم اقتصرت على سكان المنطقة التي كانت تنطلق منها؟
- ما الصعوبات التي اعترضت قوافل الحجّ؟ وهل نجح المماليك في تذليلها؟
- هل كان ثمة تنسيق وتعاون رعائي واجتماعي وثقافي بين قوافل الحجّ وأمراء مكّة والمدينة؟
- هل كان لاختلاف العوامل الطبيعيّة والاجتماعيّة تأثير على قوافل الحجيج؟
- هل الحياة الاجتماعيّة كان لها طابع خاص في موسم الحجّ؟
- هل كان ثمّة أغراض أخرى للحجّ إلى مكّة؟

هذه الأسئلة سأحاول الإجابة عنها من خلال الدراسة، بغية الوصول إلى مقاربة الحقائق التاريخية المتصلة بموضوع البحث، ملقيةً الضوء على أهم المشكلات التي كانت تتعرض لها قوافل الحجّ وكيفيّة التصدّي لها من خلال سلاطين المماليك وأشراف الحجاز.

ثالثًا- منهج الدراسة

أما بالنسبة إلى منهج الدراسة، فعلينا أوّلاً أن نجمع كل ما يمكن جمعه من الوثائق المتعلّقة بالعصر المملوكي أيا كان نوعها. فعلينا إذن كخطوة أولى أن نضمّ كل الوثائق المتعلّقة بالأحداث التاريخيّة أو أي شيء يراد استرداده تاريخيًّا، وإذا تمّت هذه الخطوة الأوّليّة بدأت الخطوة الحقيقيّة في المنهج التاريخي وهي خطوة النقد [1]. واعتماد المنهج التاريخي من قبلي يستلزم بالضرورة

---

(١) عبد الرحمن البدوي، **مناهج البحث العلمي**، ص ١٨٥.

تبنّي المنهج التحليلي للاستدلال وتحليل المعلومات بالعودة إلى أمهات المصادر، ووجمع ما كتسب من مواضيع ذات صلة بمجال الحجّ في العصر المملوكي، ومقاربة تلك الأفكار والتدقيق في تفاصيلها ودراستها بعمق، للردّ على مجمل التساؤلات المطروحة، والوصول إلى الهدف المنشود في فترة تعتبر من العهود المهمّة في التاريخ الإسلامي. أما التحلّي بالموضوعيّة والدقّة العلميّة، فأمر مفروغ منه. ومن هذا المنطلق، قمت بخطوات منهجيّة ضروريّة أخرى، كشرح بعض المفردات الواردة في النصوص التاريخيّة، ووضعت تراجم لبعض الأعلام، وسعيت قدر المستطاع إلى تحديد مواضع بعض البلدان والمدن الجغرافيّة الّتي وردت في هذه الدّراسة، فأتيت على ذكر ذلك في الحواشي، مع الإشارة إلى المصادر والمراجع الّتي استندت عليها. واعتمدت المنهج التحليليّ للروايات التاريخيّة الأصليّة بعد التحقّق من صحة معلوماتها الخاصّة بموضوع البحث لما لذلك من أهميّة في تفسيرها وتحليلها وتوضيحها من خلال عرض المعلومات المستقاة من المصادر بغية تحديد الإطار التاريخي لقوافل الحجّ ومراسم الاحتفال بالمحامل وطرائقها، ثمّ درست المعالم الطبيعيّة وجغرافيّتها من خلال كتب الرحّالة، مع عرض للمراكز الدينيّة والتاريخيّة في بلاد الحجاز لا سيّما منها مكّة والمدينة. ثمّ تحولت إلى المنهج الاستقرائي، من خلال الحديث عن تجديد المسجد الحرام في العصر المملوكي، وتجديد الكعبة، ودور أشراف مكّة والمدينة في موسم الحجّ، وتأثير الصراع السياسيّ والكوارث الطبيعيّة على الموسم، وموقف السلطنة من تلك الوقائع وعلاقتها مع حكّام الحجاز. وقد اتّخذت العبرة من أقوال المؤرخين والرحّالة وبعضهم شهود عيان ومعاصرين للفترة المملوكيّة الأمر الّذي شكّل دعمًا لما توصلت إليه من مقاربات ونتائج.

رابعًا- الخطوط الكبرى للدراسة

تشتمل هذه الدراسة على مدخل وتمهيد وبابين يحتويان على سبعة فصول.

عرضت في المدخل ظاهرة حركة الحجّ إلى الحجاز قبل العصر المملوكي، ووضّحت فاعليّة دور الخلفاء والحكام في ذلك. ثمّ ألقيت الضوء في التمهيد على سلطنة المماليك، وكيفيّة وصول السلاطين إلى الحكم، وشرحت أصل كل من المماليك البحريّة والبرجيّة. وعالجت في الباب الأوّل المحتوي على ثلاثة فصول العادات والتقاليد الّتي كانت شائعة آنذاك، والّتي ترتبط برباط وثيق بالحجّ من تنظيم مراسم مواكب المحمل الشامي ووضع السنجق، إلى الحديث عن مراسم دوران المحمل المصري ومدى استمراره، وأهدافه، والأسباب الّتي ساعدت على بقائه، وتعرّضت أيضًا إلى خياطة كسوة الكعبة ووصف مكوناتها وفنون زركشتها كمظهر لسيادة المماليك على الحجاز، في محاولة لإظهار الطابع المملوكي وبصماته، لأن مصر آنذاك هي التي كانت تحوز شرف إعداد كسوة الكعبة، وإرسالها إلى الدّيار المقدّسة مع ركب االحجّاج على هودج يتقدّم القافلة يعرف باسم المحمل وكان يرأسه أمير الحجّ المعيّن من قبل الحاكم أو السلطان، ويعهد إليه بقيادة القافلة إلى

الحرمين، وتأمين عودتها وتوفير الحراسة الكافية لها، والإشراف على تجهيزها من الجمال والبغال والخيام، وسائر الاحتياجات واللوازم الضروريّة خلال الرحلة. وحدّدت الإطارين الجغرافي والسكّاني لقوافل الحجّ للإحاطة بدور سلاطين المماليك والوقوف على نشاطاتهم الّتي قد تنعكس على الأوضاع سواء في القاهرة مقر السلطنة أو في الحرمين الشريفين، وتبيان خصائص كل قافلة لمعرفة الركب الّذي نال اهتمام سلاطين المماليك مع ذكر مشوار كسوة الكعبة عبر التاريخ والفرمان السلطانيّ والخطبة. وقمت بذكر طرق الحجّ المعتمدة إلى الحرمين الشريفين، وتوضيح مسالك الدروب لجهة تحديد اختلافها عن طرق التجارة، وإبراز مدى نسبة التحسينات الّتي أدخلت على منازل دروب الحجّ ومحطّاتها من قبل سلاطين المماليك.

أما الباب الثّاني الّذي امتدّ على أربعة فصول، فأبرزت فيه الأهميّة الدينيّة لمكّة والمدينة وأحوالهما وخصوصًا الكعبة الّتي تشكّل المحور الأساسيّ لأداء فريضة الحجّ، وأخبار الكوارث والصراعات السياسيّة وانعكاساتها على حركة الحجّ، والإجراءات المتّخذة من قبل المماليك. وحاولت إعطاء صورة واضحة عن تأدية مناسك الحجّ بإشراف أمراء الحجاز المقيمين على أرض المناسك، وذلك ما كان يضعهم في موقع المراقبة والمحاسبة لأنهم كانوا يمثّلون الطبقة الحاكمة في الحجاز مع الإشارة إلى الكعبة في موسم الحجّ. ورصد مدى نجاح سلاطين المماليك في توطيد نفوذهم في الحرمين الشريفين. إضافة إلى انتشار السكّان وتحديد مناطقهم الجغرافيّة، وتناولت الناحية الثقافيّة، ولا سيما مسألة التعليم فألمحت إلى أن هناك أهداف دينيّة ودنيويّة وراء اهتمام المماليك ببناء المنشآت الدينيّة، وخصوصًا الجوامع والمساجد والمدارس ودور العلم الأخرى، ما جعل إقامة هذه المنشآت عملاً عظيمًا في الحرمين الشريفين. وتوقفت عند أهم المؤسسات التعليميّة الّتي شيّدت بمكّة والمدينة أو أعيد ترميمها في عهد المماليك.

وبيّنت في هذا الباب أيضًا أثر الوضع الاجتماعيّ في العصر المملوكي، وما كان سائدًا آنذاك من عادات وتقاليد واحتفالات، وما سعى إليه السلاطين من أفعال وخدمات للمجاورين ولحجّاج بيت الله الحرام في المدينتين المقدّستين ولطلاب العلم. إضافةً إلى النشاط التجاريّ الّذي عزّزته قوافل الحجّ من مصر والمغرب، والشام، والعراق إلى الحجاز، ومدى تأثيره على موسم الحجّ من خلال المنشآت التجاريّة على طريق الحجّ والأسواق.

وبعد، فإنّ الكلمات لا تستطيع أن تفي بالشكر والعرفان مني، لكل من ساعدني على إخراج هذه الأطروحة إلى حيّز الوجود، وفي مقدّمتهم الأستاذ المشرف الدكتور أحمد حطيط، فكان لحسن إشرافه وصواب توجيهاته وصدق متابعته، أبلغ الأثر في إنجاز دراستي هذه، فضلاً عن ملاحظاته القيّمة الّتي أرجو أن أكون قد وفّقت في الالتزام بها، ما يجعلني أحفظ له كل التقدير والاحترام.

وأخصُّ أيضًا بالشكر الأساتذة المشاركين في لجنة القراءة على الملاحظات القيّمة الّتي أبدوها لإخراج هذه الأطروحة على الصورة الّتي وصلت إليها، ولا سيّما الأب كميل حشيمة بصفته قارئًا ثانيًا، والبروفسور أهيف سنو بصفته قارئًا ثالثًا، والدكتور إفرام البعلبكي بصفته قارئًا رابعًا، كما أتقدّم بالشكر إلى معهد الآداب الشرقيّة في جامعة القدّيس يوسف، مديرًا وأساتذةً وموظفين.

وأشكر أيضًا أصحاب المكتبات، خصوصًا المكتبة الشرقيّة، ومكتبة كليّة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلاميّة، ومكتبة معهد الدراسات الإسلاميّة (المقاصد)، ومكتبة الجامعة الأميركيّة، كما أتقدم بالشكر إلى كل من ساعدني وشجّعني لإخراج هذه الدراسة على النحو الّذي وصلت إليه. وأخيرًا، أشكر أخي أكرم الّذي درّبني على الحاسوب لإنجاز هذا العمل.

- تقويم المصادر والمراجع

تقتضي الدراسة تقويم بعض المصادر والمراجع العائدة إلى فترتها الزمنية الممتدة من سنة ١٢٥٠/٦٤٨، إلى سنة ١٥١٧/٩٢٣. والهدف من هذا التقويم بيان أهمية تلك المصادر والمراجع بالنسبة إلى موضوع الدراسة، مع بيان قيمة المصادر والمراجع العلميّة. وقد صنِّفت هذه المصادر بحسب تسلسلها الزمني من الأقدم إلى الأحدث. أما المراجع فرتِّبت ترتيبًا ألفبائيًا بحسب المؤلفين.

أولاً- المصادر

- كتاب **رحلة ابن جبير** لابن جبير، محمَّد بن أحمد (١٢١٧/٦١٤).

تُعَدُّ رحلة ابن جبير من المصادر المهمّة الّتي اعتمدت عليها في الدراسة، خصوصًا في ما يتعلّق بالأوضاع الاقتصاديّة، وأثرها في الحياة الاجتماعيّة، فضلاً عن النواحي الدينيّة، وما يخصّ المراكز الدينيّة في مكّة والمدينة. فيكشف أسلوب ابن جبير في رحلاته عن سهولة وعذوبة جعلت من الرحلات لوحات رائعة في تصويره للمدن التي نزلها وزار أسواقها ومبانيها وشوارعها. ومن أجمل هذه اللوحات لوحة المسجد الحرام، ومسجد الرسول، وتلك الأوصاف الدقيقة لفن البناء في المسجدين. وتبقى رحلة ابن جبير من الوثائق المهمّة. وإن كانت في مجملها تخص أحوال القرن السادس الهجري/الثّاني عشر الميلادي، فالمعلومات التي أوردها ابن جبير ثقة لأنها تشبه كثيرًا ما دونه ابن بطُوطة في كتابه "**تحفة النظّار**"، ما يدلُّ على بطء التغيّر في التحوّلات الّتي خضعت لها الحياة الاجتماعيّة، ولاسيما تلك الّتي لها علاقة بالمواكب والاحتفالات والأعياد. وقد زوّدني الكتاب بمعلومات قيّمة عن الحجّاج والمحطّات الّتي اجتازوها.

- كتاب **معجم البلدان** لياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله (١٢٢٩/٦٢٦).

هو معجم جغرافي كبير، قسَّمه المؤلف إلى ثمانية وعشرين كتابًا، ثمّ قسّم كل كتاب إلى ثمانية وعشرين بابًا ورتّبه على حروف الهجاء. فياقوت الحموي في كتابه **معجم البلدان**، هو عالم محقق يحاول أن يعرض موضوع علمه، وأن يستبعد كل ما يراه بعيدًا عن الحق والعقل. قدم ياقوت الحموي في مؤلفه أسماء كثيرة من البلدان الّتي درست وبخاصّة في شبه الجزيرة العربيّة، كما أنه أضاف معلومات تاريخيّة قيمة لا تقل عن المعلومات الجغرافيّة. فكان مصدرًا مهمًا شكّل قاعدة مميزة في عصره في القرن السادس الهجري/الثّاني عشر الميلادي، ساعد على الإسهام في إغناء الدراسات الّتي انتشرت بعده، والإستعانة به.

وقد تجلّت إفادة الدراسة من هذا المعجم في التعرّف إلى أحوال المسالك الّتي تعبرها قوافل الحجّاج في كل من العراق والشام، وهي في طريقها إلى بلاد الحجاز، فضلاً عن المحطّات المفصليّة لمواكب الحجّ.

- كتاب **آثار البلاد وأخبار العباد** للقزويني، زكريا بن محمد بن محمود (٦٨٢/١٢٨٣).

تطرّق فيه المؤلف إلى أحوال البلدان الّتي زارها، وأشار إلى خصائصها التاريخيّة والجغرافيّة، ومن ثم تحدّث عن ناسها وبيّن أنّ لكل بقعة أرض منها ميزةً لا توجد في غيرها. وهو مصدر مهم في التاريخ والعمران البشريّ.

وقد ساعدني هذا الكتاب في التعرّف على طبيعة المعطيات الجغرافيّة والتاريخيّة لبلاد الحجاز، وما يرافقها من وصف للمواضع والمسالك الّتي مرّ بها الركب العراقي إلى الدّيار المباركة.

- كتاب **رحلة العبدري** للعبدري، محمد بن محمد بن سعود (٧٠٠/١٣٠٠).

لا تقل رحلة العبدري أهميّة عن رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، فالعبدري صاحب الرحلة كان أديبًا عالمًا من علماء المغرب في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. صرف كل اهتمامه في رحلته إلى الناحية العلميّة في البلاد التي قطعها برًا من المغرب الأقصى إلى البلاد الحجازية. كما حوت رحلته على معلومات جغرافيّة وتاريخيّة وأدبيّة واجتماعيّة إضافة إلى المعلومات الفقهية. أما المشاهدة فقد ظهر أثرها واضحًا في المعلومات الجغرافية عن المناطق والبلاد التي مرّ بها، وخصائصها العمرانية. وما يزيد في أهميّة الرحلة أنها تعدُّ وثيقة مهمّة عن الحياة الثقافيّة في البلاد التي مر بها العبدري، والتقى علماءها، فقد أعطانا صاحب الرحلة فكرة موسّعة عن المستوى الثقافيّ في هذه البلاد، وعرّفنا بأعلام العلماء، وطرائق التدريس المتبعة في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي. وكانت أوصافه وأحكامه تتصف بالدقّة لأنها صادرة عن شاهد عيان.

تزوّدت منه بمعلومات قيّمة عن فريضة الحجّ، وبيان المواقع الجغرافيّة، وذكر المعالم الأثريّة، ودراسة العادات في البلاد التي مرّ بها، خصوصًا مكّة والمدينة، فضلاً عن اهتمامه بأعلام الفقهاء المسلمين في عصره.

- كتاب **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة** لابن رُشيد، محمد بن عمر (٧٢١/١٣٢١).

يعد كتاب **ملء العيبة** من أنفس ماكتبه ابن رُشيد لما تضمنه هذا الكتاب من فوائد علميّة كثيرة، وفيه يذكر ابن رُشيد مراحل سفره، ويصف تنقلاته ومحاوراته مع الأصحاب، ويطنب في الحديث عن مناسك الحجّ، ولا يغفل ما التزمه في رحلته في التعريف بمن لقيه من الرجال، فترجم في الحرمين الشريفين لستة عشر شيخًا، وكان ابن رُشيد حريصًا على الاتصال بالعلماء والشيوخ، والأخذ عنهم في كل مدينة كان يحلّ بها، ووقف على أمّهات التصانيف الحديثيّة وكتب العربيّة، وكان يزور قبور أئمّة الحديث الّذين يتصل بهم السند أو ينتهي إليهم. وتميّز كتاب **ملء العيبة** بأنّ

مؤلّفه كان شاهد عيان في رحلة قام بها إلى الحرمين الشريفين، في الربـع الأخيـر مـن القـرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بصحبة الركب الشاميّ. أمدّني هذا المصدر بمعلومات عـن أحوال الركب الشاميّ إلى الحجاز ومسالكه، فضلاً عن أخبار مناسك الحجّ والحياة العلميّة في مكّة والمدينة.

- كتاب **الوافي بالوفيات** للصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (١٣٦٣/٧٦٤).

هو كتاب تراجم الملوك والأعيان والقضاة والأطباء والحكماء. نقل الصفدي معلوماته عن الشهاب محمود وابن سيد الناس، وابن نباتة وأبي حيّان ويونس الدبوسي والمزّي وغيرهم.

وقد أفدت من هذا الكتاب في معرفة تراجم الأعيان والسلاطين والفقهاء، وسائر الذين أمّوا مكّة خلال العصر المملوكي الأوّل، والاطلاع على أحوال الركب المصري، وقافلة الحجّ الشامي.

- كتاب **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق** للبلوي، خالد بن عيسى (١٣٦٧/٧٦٨).

كانت تجربة البلوي الشخصيّة ووقوفه بنفسه على المشاهد والآثار هـي المصـدر الحـق لرحلته، كما أن ملاحظاته الأدبيّة وانطباعاته الشخصيّة هي جزء أساسي من تعبير ذلـك العصـر المملوكي وأفكاره، وقد سلك البلوي الطريق نفسها التي سلكها ابن بطّوطة، وهما يتفقان معًـا فـي وصف كل الأماكن المقدّسة، وما رحلة البلوي إلاّ حلقة من سلسلة الـرحلات الّتـي عـرف بهـا المغاربة والأندلسيون، وهي لا تقلّ شأنًا عن رحلة ابن رُشيد في جوانبها الجغرافيّـة والتاريخيّـة والأدبيّة والاجتماعيّة.

زوّدني هذا الكتاب بمعلومات عن قافلة الحجّ الشامي، إذ رافق البلوي ركب الحجّ الشـامي إلى بلاد الحجاز، كما وفّر لي أخبارًا عن مواضع ومسالك طرق الحجّ الأندلسي والشامي إلى الدّيار المقدّسة، فضلاً عن طبقات العلماء الّذين اجتمع بهم أثناء الطريق أو فـي الحـرمين الشـريفين، ووصفه للمراكز الدينيّة وميزاتها في كلّ من مكّة والمدينة.

- كتاب **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** لابن بطّوطة، شـمس الـدين محمد بن عبد الله (١٣٧٧/٧٧٩).

وقد عُرِف مؤلف هذا الكتاب بتجواله في الأرض، واختراقه الأقاليم بالطول والعرض.

تميَّز هذا الكتاب بثقة معلوماته؛ فالمؤلف يروي ما شاهده في رحلته من الأمصـار، ومـا سجّل في ذهنه من نوادر الأخبار، لم يترك ابن بطّوطة كبيرةً أو صغيرةً إلا وذكرها في كتابه، إذ ينقل لنا صورةً طبق الأصل عن المدن أو البلدان الّتي كان يزورها، فيبدو للقارىء كأنـه يراهـا أمامه وتعيش في داخله، ويترك صورًا حيّةً ورائعةً عن أحوال تلك البلدان الّتـي زارهـا، وعـن عاداتها وتقاليدها ولغاتها وأقوامها. وقد أمدّني كتابه بمعلومات عن فريضة الحجّ، ووصف مناسكها،

إضافةً إلى عادات الحجازيين وأحوالهم الاجتماعيّة، كما زوّدني بمعلومات جغرافيّة عن معالم المواضع والأماكن والمسالك الّتي كان يعبرها الركب المغربي والأندلسي.

- كتاب **تاريخ ابن الفرات** لابن الفرات، ناصر الدين محمّد بن عبد الرحيم (١٤٠٥/٨٠٧).

قدّم لي هذا الكتاب أخبارًا عن أحوال طرق الحجّ إلى الحجاز،علاوةً عن معلومات تتعلّق بالحياة الاجتماعيّة في مكّة، ولا سيّما الكلام على الرخص والغلاء خلال الموسم.

- كتاب **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية** للخزرجي، علي بن الحسن (١٤٠٩/٨١٢).

هذا الكتاب من المصادر الّتي استقيت منها معلومات تخصُّ النواحي الاجتماعيّة في بلاد الحجاز، ولا سيّما الصدقات الّتي كان يرسلها سلاطين المماليك إلى مكّة، وكذلك علاقة حكّام اليمن بمكّة، إذ يتناول كتاب العقود تاريخ الدولة الرسوليّة منذ إنشائها حتّى سنة ١٤٠٠/٨٠٣، فهو معاصر للفترة الّتي تتناولها الدراسة، وعلاقة الرسوليين بمكّة غير خافية.

- **كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام** للفاسي، تقي الدين محمّد بن أحمد الحسين (١٤٢٨/٨٣٢).

للمؤلف عناية خاصّة بالتأريخ لمكّة المشرّفة، وترجمة أعلامها، ومن حلّ بها من أهل العلم والفضل، مستكملاً ما بدأه عمدة مؤرخي البلد الحرام أبو الوليد الأزرقي، المتوفّى نحو سنة ٨٦٥/٢٥٠، في كتابه أخبار مكّة، وأبو عبد الله الفاكهي المتوفّى سنة ٨٩٣/٢٨٠ في كتابه **تاريخ مكّة**، فقد استفاد محمّد بن أحمد الفاسي من جميع هؤلاء المؤرّخين وما تلقّاه من الأخبارعن الثقات، وما شاهده مسجّلاً على الرخام والأخشاب وغير ذلك. يشتمل كتاب شفاء الغرام على معلومات قيّمة من النواحي الدينيّة والثقافيّة والعمرانيّة والسياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة لمكّة، ولا سيما خلال فترة مهمّة من تاريخها، وهي الفترة الّتي خضعت فيها الحجاز خضوعًا مباشرًا لسلاطين المماليك في مصر. وقد اعتمدت على هذا الكتاب في استقاء المعلومات المتعلّقة بالنواحي والظروف الّتي تعرّضت لها مكّة، كالأمطار، وأخبار الغلاء، والرخص، والأوبئة وما إلى ذلك، مما كان له تأثير في أحوالها الاجتماعيّة خلال الفترة الّتي تتناولها الدراسة.

- كتاب **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**.

صوّر الفاسي في كتابه معلومات وافية عن تراجم أعيان أهل مكّة، ومن سكنها أو مات فيها من الرواة والعلماء والفقهاء، والقضاة، والكتّاب، والولاة، فقد استقيت منه جانبًا كبيرًا من المعلومات المتعلّقة بموضوع الدراسة، ولا سيّما في ما يتعلق بالنواحي السياسيّة، والحياة العلميّة، وأخبار المؤسسات العلميّة، والأربطة والمدارس والمدرّسين والمعيدين في المسجد الحرام، وفي غيره من

المؤسسات التعليميّة، والدروس الخاصة، ودروس المنازل والطلبة، ومن ضمنهم أولئك الّذين رحلوا من أجل طلب العلم، وكذلك في ما يتعلّق بدور المرأة في الحركة العلميّة.

وأفادني كتاب العقد الثمين بمعلومات عن المؤسسات الخيريّـة والاجتماعيّـة، كالأربطـة والأوقاف، الّتي لها علاقة بالمنشآت والآبار المخصّصة لسقاية الحجّاج وما إلى ذلك.

- كتاب **السلوك لمعرفة دول الملوك** للمقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (١٤٤٢/٨٤٥).

احتلّ المقريزي مركزًا عاليًا بين المؤرّخين المصريين في النـصف الأول مـن القـرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، حيث إنّ معظم المؤرّخين الكبار كانوا تلاميذ المقريـزي، مثل السخاوي وأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي مؤلف كتاب **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**. وقد استحقّ كتاب المقريزي **السلوك لمعرفة دول الملوك** المكانة الأولى بين كتب التاريخ في عصره. لقد عاش المقريزي جانبًا من حياته معاصرًا لسلطنة المماليك البحريّـة، كمـا عـاش جانبها الآخر في عهد المماليك البرجيّة. وقد انتفعت بهذا الكتاب في استقاء المعلومات، في ما خصّ الأوبئة الّتي انتشرت في مكّة، والصدقات الواردة إليها. وتطرّق الكتاب إلى دراسة تـاريخ مكّـة السياسيّ والاقتصاديّ منذ بداية العصر الأيوبيّ حتّى سنة ١٤٤٠/٨٤٤-١٤٤١، ويعدُّ المقريـزي شاهد عيان لبعض فترات حكم السلطنة المملوكيّة، لذلك فمعلوماته على جانب لا يستهان بـه مـن الأهميّة.

-كتاب **إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ** لابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بـن علي (١٤٤٩/٨٥٢).

تفرّد ابن حجر من بين أهل عصره في علم الحديث مطالعةً وقراءةً وتصنيفًا وإفتاءً، وشهد له بالحفظ والإتقان القريب والبعيد، حتّى كان إطلاق لفظ الحافظ عليه كلمة إجماع بـين العلمـاء. كتابه، مؤلّف ضخم يقع في حوالى ألف صفحة، وهو يتبع نظام الحوليات والشهور والأيّـام فـي تدوين الحوادث. ثم يتبع حوادث كل سنة بأعيان الوفيات، وقد أفاض في ذكر ما يتعلّق بمصر من هذه الحوادث. وهو يتناول الأحداث الّتي وقعت بين سـنوات ١٣٧١/٧٧٣ -١٤٤٦/٨٥٠. وقـد أمدّني بمعلومات مهمّة عن المدرّسين والمفتين في الحرم المكّي، والعلوم في مكّة ومن برع فيها.

-كتاب **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**.

يُعَدُّ هذا الكتاب من كتب التاريخ المهمّة، فهو يتضمن تراجم رجـال القـرن الثـامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وأحوالهم، وقد جمع فيه المؤلـف تـراجم العلمـاء، والمحـدثين، والفقهاء، والمؤرخين، والوزراء والسلاطين.

زوّدني كتاب الدرر بمعلومات مفيدة عن الأئمّـة، والمدرسـين، والمجـاورين والعلـوم والإجازات في مكّة، حيـث تطرّق إلى ذهنيّة الأعيـان والأمـراء والـسلاطين خـلال القـرن

الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وقد ظهر ذلك من خلال التأثير في قوافل الحجّ الآتية من مصر والمغرب والأندلس وسائر المناطق.

- كتاب **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** لابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (١٤٧٠/٨٧٤).

يؤرّخ الكتاب لسلطنة المماليك حتى عصر المؤلِّف، وتكمن أهميّته في أن مؤلفه ينتمي إلى أصل مملوكي، ما جعله شاهد عيان للأحداث، قريبًا منها، معاصرًا لسلاطينها. ومعلوماته ثقة للمؤرّخين الذين أرّخوا بعده. وقد أمدّني هذا المصدر بمعلومات عن أحوال الركب المصريّ والأندلسيّ والمغربيّ.

- كتاب **الرّوض المعطار في خبر الأقطار** للحميري، محمد بن عبد المنعم (١٤٩٥/٩٠٠).

تكمن أهميّة الكتاب بثقة معلوماته للذين أرّخوا من بعده، ولقد ساعدني هذا الكتاب في تعرّف أحوال المواضع، والأماكن والمسالك الّتي كان يعبرها الحجّاج من بلاد المغرب، والأندلس، وهم في طريقهم إلى الحجاز.

- كتاب **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** للسخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (١٤٩٧/٩٠٢).

حفل الكتاب بتراجم العديد من العلماء، والقضاة، والخلفاء، والملوك، والأمراء، أفدت منه في دراسة الحياة الاجتماعيّة، فوجدت فيه معلومات تختصُّ بطبقات المجتمع والأوقاف، ومشاركة المرأة ومساهمتها في الأعمال الخيريّة.

- كتاب **بدائع الزهور في وقائع الدهور** لابن إياس، محمد بن أحمد (١٥٢٤/٩٣٠).

يعدّ كتاب **بدائع الزهور** أهم كتاب تاريخي كتب عن نهايات الدولة المملوكيّة المصريّة المستقلة، وبدايات الاحتلال التركي العثماني. وابن إياس كتب عن هذه الفترة بطريقة الحوليات، حيث برزت قدراته التاريخيّة المميّزة.

زوّدني هذا الكتاب بمعلوماتٍ تفيد الدراسة في نهاية دولة المماليك، ولا سيّما الوقائع التاريخيّة ومشاهدة الأخبار، خصوصًا في ما يتعلّق بالمحمل المصريّ.

- كتاب درر **الفرائد المنظّمة في أخبار الحج وطريق مكّة المعظّمة** للجزيري، عبد القادر بن محمّد (١٥٤٦/٩٥٣).

هو كتاب تاريخ حوى أخبارًا مستفيضةً عن رحلة الحجّ إلى بلاد الحجاز، وتظهر أهميّته بأنّ مؤلّفه كان على اتصال دائم بأمراء الحجّ ومعرفة أعيانهم، فكان على صلة وثيقة بشيوخ الأسر البدويّة الّتي أنيط بها حراسة موكب الحجّ. ومعلوماته ثقة للذين أرّخوا بعده. أفدت من هذا الكتاب بأخبار عن إمارة الحجّ في آخر عهد المماليك الجراكسة.

وكذلك تعرّض الجزيري لأرباب المناصب التابعة لإمــرة الحــج، كمــا أعطــى وصــفًا تفصيليًّاعن محطّات طريق الحجّ المصريّ الّتي شاهدها بنفسه، وما كان يحدث فيها مــن حــوادث البدو، هذا إضافةً إلى وصفه خروج القافلة وكيفيّة ترتيبها، والموظفين المصاحبين لها. كما أمــدّني بمعلومات عن جوانب مهمّة من تاريخ مكّة والمدينة، كما عرض لصور الكثير من المآسي الّتــي كانت تقع في الحجاز وعلى الطرقات، خلال موسم الحجّ.

يمكننا أن نستخلص من خلال تقويمنا لأهم المصادر أنّ كتب الرحالة شكّلت ركنًا غزيــرًا بالمعلومات الوثيقة والقيّمة غذّت جوانب متعدّدة من الدراسة. كذلك الأمر بالنســبة إلــى مؤلفــات المقريزي وابن تغري بردي وابن الفرات والفاسي وابن حجر والسخاوي وابن إياس هؤلاء جميعًا زودوا الدراسة بإنتاجهم العلميّ والمعرفيّ معلومات ذات فائدة كانت سببًا رئيسيًّا في ظهورها إلــى حيز الوجود.

ثانيًــا- المراجــع

- كتاب **الرحلة الحجازية** للبتنوني، محمد لبيب.

هو كتاب عن رحلة الحجّ الحجازية، تناول بصورة تفصيليّة أوصاف جغرافيّة مدن الحجاز، كجدّة، ومكّة، والمدينة، من جهة تجارتها وعمرانها وعلومها وسكّانها ومقابرها ومزاراتها، وألقــى الضوء على جوانب عديدة من أداء الفريضة، وطرق الحجّ إلى الحجاز، أفادت منها هذه الدراسة.

- كتاب **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج** لبكر، سيد عبد المجيد.

يتناول المؤلف في كتابه دروب الحجّ بين الكوفة ومكّة، وبين دمشق ومكّة، وبين القــاهرة ومكّة، وأشار أيضًا إلى معالم وملامح وجغرافيّة الأماكن والمدن والقرى والمســالك والمحطّــات الرئيسيّة الّتي تعبرها قوافل الحجّ العراقي والشامي والمصري. أفادت الدراسة في التعــرّف إلــى جغرافيّة الطرقات، الّتي كانت قوافل الحجّ تسلكها إلى الحجاز.

- كتاب **المعجم الجغرافي للبلاد العربيّة السعوديّة** لجاسر، حمد.

تكمن أهميّة هذا الكتاب بأنّ مؤلفه من أبرز العلماء الباحثين في الحجاز والعالم العربــيّ، أسهم إسهامه الأكبر في ثقافة وطنه كعلاّمة ومؤرخ وجغرافيّ، وخلف العديــد مــن المصــوّرات الجغرافيّة والتاريخيّة إلى أدب الرحلات وكتب السيرة وطبعات نقديّة للنصوص التراثيّة المهمّــة. وقد ضمن معجمه الجغرافيّ بيانًا بأسماء المدن والقرى، مرتّب ترتيبًا ألفبائيًا، ومصــادره بيانــات رسميّة وكتب وصحف ورحلات قام بها المؤلف، لجمع أكبر عدد ممكن من أسماء تلك المواضــع والأماكن. ساعد البحث في التعرّف إلى جغرافيّة بلاد الحجاز الّتي تطرّق إليها المؤلــف بمنهجيّــة منتظمة.

- كتاب **المحمل** لحلمي، إبراهيم.

عالج المؤلف في كتابه هيئة المحمل، وخصائصه وكسوته وبيرقه واحتفالاته والعادات والمعتقدات الشعبيّة في موكبه، وركّز على ذهاب محامل الدول العربيّة من مصر والشام والعراق إلى الحجاز. أفدت منه في مسائل منهجيّة تخصّ الدراسة، ولا سيما ما يتعلّق منها بمحمل الحجّ المصري والشامي والعراقي، إضافةً إلى طرق الحجّ ومحطّاته.

- كتاب **العصر المماليكي في مصر والشام** لعاشور، سعيد عبد الفتاح.

تناول المؤرخ في كتابه تاريخ مصر والشام في العهد المملوكي، وتطرّق إلى خصائص سلطنة المماليك والمجتمع الشامي، وثرواته وموقفه من الركب الشامي. أضاء لي جوانب متعدّدة، منها، موقف البدو من قوافل الحجّ الشامي في طريقها إلى بلاد الحجاز.

- كتاب **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحجّ ومشاعره الدينيّة** لرفعت باشا، إبراهيم.

يقع الكتاب في جزئين كبيرين، تناول أداء الفريضة وأخبار مكّة ومراكزها الدينيّة وأمرائها بصورة مفصّلة، إضافةً إلى مدينة الرسول، وإمرة الحجّ. وقد أفاد كتاب مرآة الحرمين منهجيّة البحث في جوانب متعدّدة، لجهة تصنيفها وتنسيقها وتحليلها المسائل الخاصّة بالمراكز الدينيّة والتاريخيّة في الحرمين الشريفين.

- كتاب **إمارة الحجّ في مصر العثمانية** لعمر، سميرة فهمي علي.

تناولت الباحثة إمارة الحجّ في مصر، وتصارع المماليك على هذا المنصب، ومراسم تعيين أمير الحجّ، واختصاصاته، إضافةً إلى تكوين قافلة الحجّ، كما تطرقت إلى طريق الحجّ إلى الحجاز، وما به من محطّات تخدم الحجّاج. كشفت جوانب متعدّدة تتعلّق بأمور الحجّ ساهمت في إعداد هذه الدراسة.

تُعَد هذه الدراسة التقويميّة لأهم المراجع الّتي استعنت بها لاكمال موضوع البحث محوراً أساسيًا منهجيًا للانطلاق منها إلى جوانب أخرى ظهرت في محطّات طرق الحجّ، وتجهيز المحامل بالعناصر البشريّة وتنظيم شؤون الحجّ والحجّاج وغيرها من المسائل المتعلّقة برحلة الحجّ إلى الحجاز أيام المماليك.

ثالثـاً- المراجـع بالفرنسية

- Demombynes, M.G., *Le Pèlerinage à la Mekke* .

صاحب هذا الكتاب كان أستاذ اللغة العربيّة في مدرسة اللُغات الشرقيّة بباريس، ومن أعضاء مجمع الكتابات والآداب، استعان بابن خلدون وغيره من المؤرخين العرب، تطرّق المؤلف في كتابه إلى أهميّة الحجّ لدى المسلمين في كافة بلدان العالم، وبعد ذلك تحدّث عن رحلة الحجّ

بأسلوب مميّز من خلال تناوله مناسكه وشعائره خطوةً خطوةً، وقد أضفى على هذه الدراسة أسلوبًا ومنهجًا جديدين استعملهما لمعالجة مادّته وتبويبها.

-Jomier, J., *Le Maḥmal et la caravane Égyptienne des pèlerins de la Mecque.*

تعلّم مؤلف هذا الكتاب العربيّة في السوربون، ثم قصد مصر سنة ١٣٦٤/١٩٤٥، ونال الدكتوراه في الآداب من السوربون، تحدثُ Jomier في هذا الكتاب عن المحمل وقافلة الحجّ المصري منذ العصر الإسلاميّ حتى القرن العشرين. وقد اعتمد Jomier في كتابه على ابن إياس والجزيري. تناول الكتاب قافلة الحجّ المصريّ في إعدادها وتجهيزها، ودور سلاطين المماليك وإشرافهم على أمور الحجّ والحجّاج، ما فتح مجالاً للإفادة منه في قضايا ومسائل منهجيّة خاصّة بالدراسة، ولا سيما شؤون ركب الحجّ المصريّ في جميع مراحله، ومعرفة ذهنيّة السلاطين والأعيان والقيّمين على الجسم البشريّ في قافلة الحجّ، إضافةً إلى طرق الحجّ المغربي والمصري ومسالكه.

-Zadeh, H. K., *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque.*

شغل مؤلف الكتاب منصب نائب مفتش مالي في القنصليّة الفارسيّة العامّة في جدّة في بداية القرن الرابع عشر الهجري/العشرين الميلادي، ما جعله ذات صلة وارتباط بأمور الحجّ والحجيج. فجاء كتابه صورة واضحةً عن الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة لبلاد الحجاز أثناء موسم الحجّ، كما أشار المؤلف إلى دور أمراء مكّة والمدينة في رعاية الحجيج والاهتمام بأمورهم، وقد ساعد البحث في معرفة أحوال الحجّاج الأصليّين والوافدين وأخبارهم.

-Sauvaget, J., *La Poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks.*

تناول هذا الكتاب في جزء منه طرق البريد، وما كانت عليه من تنظيم تقنيّ وعناية فائقة من قبل السلطان الظاهر بيبرس الّذي أولاها عنايةً خاصّةً. أما في ما يتعلّق بدروب الحجّ ومسالكه إلى كل من مكّة والمدينة، فإنها كانت على اتصال مع القاهرة مركز السلطنة، لكن ذلك لم يتم بامتطاء الخيل، بل بركوب الجمال. أفادني هذا المرجع في تعرّف طبيعة أحوال طرق الحجّ.

-Tresse, R., *Le Pèlerinage Syrien aux villes Saintes de l'Islam .*

تناول الكتاب فريضة الحجّ عند المسلمين بصورة تفصيلية، وفي عصوره الإسلاميّة، أفاد البحث بمعالجته مسائل وقضايا خاصة بالرّكب الشامي خلال حكم المماليك، في ما يتعلّق بتجهيز مواكب قافلة الحجّ الشامي خطوةً خطوةً، وكشفه أمورًا تدخل في إطار قوافل الحجّ، ولا سيّما نشاطات السلاطين الخارجيّة الّتي تهدف إلى تعزيز حراسة مواكب الحجّاج في طريقها إلى الحجاز.

– Turk, A.M., Souami, H. R., *Récits de Pèlerinage à la Mekke* .

صدر هذا الكتاب سنة ١٣٩٣/١٩٧٣، وهي الفترة الّتي تميّزت بذهاب عدد كبير من حجّاج الجزائر وتونس ومصر إلى الحجاز لتأدية المناسك، وقد عاش مؤلفا الكتاب حركة الحجّاج ونشاطهم بأرض المناسك، فكان الكتاب صورة واضحة عن مزاولة الحجّاج شعائرهم الدينيّة بأرض الحجاز، من خلال وصف دقيق لأعمالهم وشؤونهم، ولا سيّما الركب المغربي، وقد أفاد الدراسة في تحليل مسائل وقضايا خاصّة برحلة الحجّ ومناسكه.

وكان للموسوعة الإسلاميّة، باللغة الفرنسيّة، دورها في إغناء هذه الدراسة بمجموعة كبيرة من المقالات.

كانت هذه صورة تقويميّة لأهم المصادر والمراجع الّتي انتفعت منها في زوايا متعدّدة من البحث، بل شكّلت أرضيّة خصبة تحركنا من خلالها في رصد أركان العمل الأساسيّة. وكان الهدف من هذا التقويم إظهار أهميّة تلك المصادر والمراجع بالنسبة إلى موضوع البحث، مع بيان قيمة المصدر العلميّة، أما بالنسبة إلى المصادر والمراجع والدراسات الحديثة الأخرى، فكانت الإفادة منها تأخذ وجوه مختلفة، لكنها لم تعالج لب الموضوع أو نواحي رئيسيّة. وتجدر الإشارة إلى أن ما تم بحثه من موضوعات تتعلّق برحلة الحجّ ومستلزماتها في العصر المملوكي كان التركيز فيه منصبًا على بيان جوانب لا تفي بالغرض، وكان ينحو منحًا بعيدًا غير الّذي انتحيته في هذا البحث. فلعل القارئ بنباهته يستطيع معرفة الجديد في هذه الدراسة.

مدخل

تطوّر رحلة الحجّ إلى الحجاز حتّى عشيّة العصر المملوكي

الحجّ ركن أساسي من أركان الإسلام، له فوائد دينيّة ودنيوية: فمن فوائده الدينيّة أنّ جزاءه الجنّة إن كان حجّه مبرورًا، وقد ورد ذلك في حديث الرسول لقوله:"الحجّ المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنّة"[١]، كما أنّ الحجّ يساعد في الالتزام بالأخلاق الكريمة، ويحقّق طهارة النّفس بالابتعاد عن الفواحش في القول والفعل، ويجنّب ارتكاب الذّنوب والمعاصي. وهو يعوّد المسلم على الصّبر وتحمّل المتاعب والمصاعب، والبذل والعطاء.

تتمثّل منافع الحجّ الدنيويّة في الأسواق التي يقيمها أهل مكّة في أثناء موسم الحجّ، حيث يتوافد التجّار المكّيون ومعهم آخرون من مناطق إسلاميّة مختلفة لتسويق بضائعهم وسلعهم، آملين الحصول على الربح الوفير لتحسين أوضاعهم المعيشيّة والاقتصاديّة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾[٢].

والحجّ موسم علمي وثقافي، فهو يتيح للمسلمين الالتقاء والتجمع في حلقات المساجد الّتي كانت تقام على دروب الحجّ، بدءًا من دمشق في بلاد الشام، مرورًا بالقدس والكوفة والبصرة وبغداد، وطرابلس الغرب والقاهرة، وكان موسم الحجّ ملتقى الزوار لتدارس أمور الدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ. وتختم الرحلة إلى الديّار المقدّسة بلقاء الحجيج مع أمراء بلاد الحجاز للتداول في القضايا المستجدة، والمشكلات الّتي قد تنشأ خلال تأدية المناسك لفضّها، وترتيب أوضاع الحجّاج وإرشادهم إلى الطريق القويم والعمل الصحيح، ما يسبب فائدة تنظيميّةً اجتماعيّةً وعمرانيّةً في الوقت نفسه. كما أسهمت طرق الحجّ في ترسيخ عمليّة التلاقح الثقافي بين العديد ممن رافقوا قوافل الحجيج وعملوا على نقلها إلى ديارهم.

ويؤكد الحجّ المساواة بين المسلمين، ويزيل الفوارق الاجتماعيّة والطبقيّة بينهم، فالغني والفقير، والقوي والضعيف، والحاكم والمحكوم، والسيد والمسود، يقفون جميعًا في صعيد واحد،

---

(١) ابن حنبل، **مسند ابن حنبل**،ج٣، ص٣٣٤.

(٢) سورة الحجّ، ٢٢/٢٦- ٢٨.

يؤدون المناسك نفسها، مرتدين ملابس موحّدة، وهم يتوجهون إلى إله واحد مشتركين في طلب العفو والمغفرة والعافية.

أما موعد أداء فريضة الحجّ، فهو في الأيام العشرة الأوائل من شهر ذي الحجّة، حيث يصل حجّاج بيت الله الحرام إلى مكّة المكرّمة من مختلف المناطق الإسلاميّة. وجدير ذكره، أن الفقهاء قد اختلفوا في تاريخ البدء بفريضة الحجّ؛ فبعضهم يقول: إنّه فرض سنة الحديبية أي سنة ست للهجرة باتفاق الناس. ويرى آخرون: أنه كان متأخرًا، فقيل: سنة تسع، وقيل: سنة عشر للهجرة. وما يؤكد الأمر الأوّل، أنّ محمدًا بعث أبا بكر الصدّيق في سنة تسع هجريّة ليحجّ بالنّاس ومعه ثلاثمائة رجل[1]. ونتيجة التوسّع الإسلامي شرقًا وغربًا، وانتشار الإسلام بين شعوب البلاد المفتوحة، توافدت قوافل الحجّ إلى الحجاز من سائر بلاد المسلمين.

وأوّل الحجيج إلى الكعبة في الإسلام رسول الله الذي قدم إليها في السنة العاشرة للهجرة، ومعه جمع غفير من المسلمين، وفيها ألقى خطبة الوداع.

وفي العصر الراشدي، تزايد الاهتمام بأمور الحجّ ومنشآته وطرقاته، وأصبح المسجد الحرام مزدحمًا بحلقات رجال الحديث والقراء والمفتين، وتمت أول توسعة للمسجد الحرام في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، حيث جدّد أنصاب الحرم سنة ٦٢٩/١٧ [2]. ثم جدّد الخليفة الراشدي عثمان بن عفّان المسجد الحرام، فعمل على توسعته، وأحدث فيه رواقًا مسقوفًا وكسا الكعبة بالقباطي[3].

وبتحوّل دمشق مقرًا للخلافة، ومركزًا للثقل السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العصر الأموي، وجّه الأمويون اهتمامهم إلى شق الطرق وتحسينها، وتشييد الخانات على درب الحجّ، لتسهيل سفر الحجّاج إلى الحجاز، بعد أن كان الأمر محصورًا بطريق الكوفة- مكّة أثناء الفتح الإسلامي، كما اعتنوا بالأمور الدينيّة والعلميّة، وجدّدوا المسجد الحرام، ووسّعوه وجعلوا أعمدته من الرخام[4].

ثم جاء العصر العباسي، حيث كان اهتمام الخلفاء بأمور الحجّ كبيرًا، فالخليفة كان إمام المسلمين، وعليه تقع مسؤولية رعاية الحجّ وتسيير قوافله. وإذا تعذّر خروجه مع الحجّ، أناط هذه المهمة بأحد أفراد البيت العباسي نيابةً عنه. وكان على أمير الحجّ واجبان: أحدهما يتمثّل في

---

(١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٢، ص٢٩١.

(٢) ابن الأثير، م. ن.، ج٢، ص٥٣٧.

(٣) القباطي: مفردها القبطية، ثياب كتان بيض رقاق تعمل بمصر. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص ١٥، "القبط".

(٤) سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ١٦٩.

الإشراف على مسار الحجيج، ويتمثل الآخر في إقامة مناسك الحجّ. وقد حجّ داود بن علي، عم أبي العباس السفاح بالنّاس سنة ١٣٢/٧٥٠، لتكون أوّل حجّة حجّها بنو العباس[١].

ومنذ ذلك الحين، تسابق الخلفاء العباسيون في توفير الأمن، وتقديم الخدمات والمساعدات للحجّاج عند مغادرتهم إلى مكّة لأداء مناسك الحجّ. وأقيمت المعالم والمناور الشاهقة، من أجل إرشادهم وتسهيل أمورهم وتخفيف عذابهم ومتاعبهم، وجددت المباني، ووسعت على طول طريق الحجّ العراقي من القادسية[٢] إلى زبالة[٣] الّتي تقع على طريق الحجّ الكوفي، رغبةً في تقليص عدد المرضى والموتى خلال الموسم، كما وفّرت السِقاية من جرّاء حفر الآبار ووضع الصهاريج وخزّانات المياه لحل أزمة العطش وقلة الماء[٤].

وتجدر الإشارة إلى أنّ درب الحجّ العراقي كان آهلاً بأعمال الخلفاء العباسيين، فعند كل مفترق طريق آثار للخلفاء وزوجاتهم، أبرزها منجزات السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد على درب الحجّ العراقي وفي الدّيار المقدّسة وأرض المناسك، فعين زبيدة [٥] على طريق الصاعد من مكّة إلى عرفة خير دليل على أعمال البر والخير والصدقات الّتي قامت بها[٦].

وخلال هذه الفترة، تعرّض موسم الحجّ لنكبات عدّة، على الرغم من تنظيم أعمال الحجّ وحمايته، إلا أن كثرة دخول القبائل والشعوب والأمم في الإسلام عبر التاريخ، أوجد مشكلاتٍ عديدةً، كان من أهمّها أمن الحجّ، وأمن الكعبة المعظّمة، ففي سنة ٣١٧/٩٢٩، قدم إلى الحجّ أبو طاهر القرمطي[٧] الّذي كان يحكم البحرين آنذاك ومعه تسعماية نفر من أصحابه، فتمكّنوا من

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٢٠٩.

(٢) القادسية: موضع بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً، وبينها وبين العذيب أربعة أميال، قيل: سميت القادسية بقادس هراة. وبهذا الموضع كان يوم القادسية بين سعد بن أبي وقاص والمسلمين والفرس في أيام عمر بن الخطاب سنة ١٦/٦٢٨. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٢٩١.

(٣) زبالة: منزل معروف بطريق مكة من الكوفة، وهي قرية عامرة بها أسواق بين واقصة والثعلبيّة. ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣، ص١٢٩.

(٤) سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ١٨– ١٩.

(٥) عين زبيدة: هي العين التي أجرتها زبيدة زوجة هارون الرشيد. آثارها باقية مشتملة على عمارة عظيمة عجيبة على يمين الذاهب إلى منى من مكّة ذات بنيان محكم في الجبال. اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٢، ص٦٣.

(٦) سيد بكر، م. س.، ص ٢٧.

(٧) أبو طاهر القرمطي: كان رئيس القرامطة، ويعرف بأبي طاهر الجنّابي، وأصله من هجر، وكان مقيمًا بسواد الكوفة، ومن ذلك أن أبا طاهر أظهر العبادة والزهد والنسك، توفي سنة ٣٢٢/٩٣٤. ابن الحريري، **كتاب منتخب الزمان**، ج١، ص٢٠٠.

أما القرامطة، فهم جماعة من غلاة الشيعة الإسماعيلية، نشأت بالعراق، تنسب إلى حمدان قرمط المعروف باسم الفرج بن عثمان أو الفرج بن يحيى٢٩٣/٩٠٦، تميزت حركتهم بالتنظيم الدقيق، فكان لها شكل ديني وجوهر سياسي، تمكنوا من إنشاء

الاستيلاء على مكّة واقتلاع الحجر الأسود من مكانه ونقله إلى البحرين[1]. وفي العصر الفاطمي[2]، انتهز المعزّ لدين الله[3] فرصة النزاع الذي نشب بين بني الحسن وبني جعفر بن أبي طالب، فتدخّل في شؤون الحجاز، وبسط نفوذه وسلطانه على الحرمين، وثبّت السيادة الفاطميّة على العالم الإسلامي. فأقيمت الخطبة له بالمدينة، وأسقط اسم الخليفة العباسي منها. وقد انعكس هذا الأمر على طريق المواصلات إلى الحجّ، فتحوّل خط الكوفة- مكّة إلى مدينة القاهرة، التي أصبحت ملتقى قوافل الحجّاج، وخصوصًا الركب المغربي- الأندلسي، وسائر المناطق المصريّة، حيث أصبحت قوافل الحجّاج تجتاز قوص التي تقع جنوب قنا، وهي من منازل الحجّ المصري مرورًا بعيذاب، فالبحر الأحمر[4].

أما في العصر الأيوبي[5]، فبرز نشاط الأيوبيين بأمور الحجّ ومهماته عندما تولى الصالح نجم الدين أيوب[6] إمارة الحجّ الشامي سنة ٥٥١/١١٥٦ في عهد نورالدين زنكي[7]، ومن ثم ورث

دولة في البحرين بعد فشل حركة الزنج. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٧، ص٤٩٣؛ راجع مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص٣٥٠.

(١) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ٧٣؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٢٣٦.

(٢) العصر الفاطمي، أو الفاطميون، هم الأسرة الحاكمة في شمال أفريقيا، وبعد ذلك في مصر في الفترة الممتدة من سنة ٢٩٧/٩٠٩ حتى سنة ٥٦٧/١١٧١.

M.Canard, "Fāṭimides", *Encyclopédie de l'Islam* (*EI₂*) (nouvelle édition), vol.II, p.870.

(٣) المعز لدين الله (٣١٩/٩٣١- ٣٦٥/ ٩٧٥)، أبو تميم معد بن إسماعيل بن القائم بن المهدي عبيد الله الفاطمي، صاحب مصر وأفريقيا، وأحد الخلفاء في هذه الدولة. ولد بالمهدية سنة ٣١٩/٩٣١، وبويع له بالخلافة في المنصورية بعد وفاة أبيه سنة ٣٤١/٩٥٢. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٦٦٣؛ الزركلي، **الأعلام**، ج٧، ٢٦٥.

(٤) الجزيري، م. س.، ص ٢٥٦.

(٥) العصر الأيوبي، الأيوبيون: اسم الدولة التي أسسها صلاح الدين بن أيوب، وحكمت مصر وبلاد الشام الإسلاميّة والجانب الأكبر من شمالي بلاد الجزيرة واليمن، في نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي والنصف الأوّل من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الملادي. Cl.Cahen, "Ayyûbides", *EI₂*, vol.I, p.820.

(٦) نجم الدين أيوب (٥٦٨/١١٧٢)، أبو سعيد أيوب بن شاذي يعقوب بن مروان، والد صلاح الدين الأيوبي، وإليه نسبة الأيوبيين. أصله من دوين، عندما انتقل إلى دمشق أقام في خدمة نور الدين محمود بن زنكي، فلما تولى صلاح الدين سلطنة مصر بعد وفاة الخليفة العاضد، أقطع أباه نجم الدين الإسكندرية والبحيرة إلى أن مات بالقاهرة سنة ٥٦٨ /١١٧٢ من سقطة عن ظهر فرسه خارج باب النصر، ثم نقل إلى المدينة المنوّرة. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٣١٩؛ علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية**، ج٦، ص١٣٥.

(٧) نورالدين زنكي (٥١١/ ١١١٨- ٥٦٩/ ١١٧٤)، نور الدين محمود بن زنكي بن آقسنقر ، الملقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه وأجلهم وأفضلهم. ابن تغري بردي، م. س.، ج٦، ص ٧١.

هذا المنصب أسد الدين شيركوه [١] الّذي أنفق أموالاً ضخمةً في سبيل إقامة العمائر الدينيّة والخيريّة بالحرمين[٢].وبعد ذلك، تابع صلاح الدين الأيوبي مسيرة نور الدين زنكي في تأمين طريق الحجّ ورعاية الحجّاج، فأمر في سنة ٥٧٢/١١٧٦، بإبطال الغرامة الّتي كانت تؤخذ من الحجّاج بجدّة للمسافرين عن طريق البحر، وبنقل القيمة ذاتها ليتمّ توزيعها على أهل البيمارستان بمكّة[٣].

كما سهّل صلاح الدين الأيوبي طريق الحجّ، بعد أن كاد ينقطع بسبب عجز الحجّاج عن أداء الفريضة، فأنشأ الخوانق[٤] والربط [٥] والزوايا [٦]، رغبةً منه في تسهيل أمور الحجّاج، وتزويد المنقطعين منهم والفقراء بالزاد والمال والكسوة، والسماح للمسلمين الغرباء الوافدين إلى الحجّ بالإقامة في هذه الخوانق[٧].

ولم تقتصر أعمال بني أيوب على بذل العطايا والتقديمات، وتحسين طرق الحجّ، وحفر الآبار وتشييد الفنادق لراحة المسافرين من الحجّاج، بل اتسعت مشاركتهم ومساهمتهم إلى التدخّل في إخماد الفتن الّتي كانت تحصل أثناء تأدية المناسك، أو إرسال التجريدات العسكريّة لمواكبة ركب الحجيج، وحفظ أمن الطريق وصيانتها من اعتداء البدو وقطّاع الطرق المتواجدين بكثرة على معابر الحجّ ومنازله لنهب الحجّاج وسرقتهم وقتلهم أثناء سفرهم ذهابًا وإيابًا.

فكلُّ هذه الأيادي البيضاء الّتي أسداها صلاح الدين وخلفاؤه من بني أيوب لحجّاج بيت الله الحرام، جعلت من السلطان المصري الأيوبي، حامي حمى الحرمين الشريفين، وساعدت على تعزيز موقفه في الحجاز.

أما إمرة ركب الحجّ المصري، فلم تعرف إلا سنة ٥٩١/١١٩٤، أي قبل وفاة صلاح الدين بسنة واحدة، فنودي في القاهرة بأنّ الشريف ابن الثعلب مقدّم على الحجّ، وخيّم على سقاية ريدان

---

(١) أسد الدين شيركوه، شيركوه: لفظ فارسي مركّب من شير: معناه أسد، وكوه، معناه: جبل، جرى مجرى الاسم في العصر الأيوبي، وبه عرف جماعة من أبرز شخصيات هذا العصر، منهم: شيركوه الأول أبو الحارث الملك المنصور إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن أسد الدين أخو أيوب وعم صلاح الدين الأيوبي. كان المنصور هذا شجاعًا متواضعًا للملك الصالح إسماعيل ومصاهرًا له. مات بدمشق سنة ٦٤٤/١٢٤٦. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٥٦؛ راجع مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص٢٨٠.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٢٦١.

(٣) الجزيري، م.ن.، ص ٢٦٤- ٢٦٥.

(٤) الخوانق: مفردها خانقاه لفظ فارسي، معناه: بيت. مصطفى الخطيب، م. س.، ص ١٥٨.

(٥) الربط: مفردها رباط، الرباط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو. ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٥، ص١١٢، "ربط".

(٦) الزوايا: مفردها زاوية، لفظ مأخوذ من الانزواء، الزاوية مكان يتخذ للاعتكاف والعبادة والمطالعة، وهو على شكل خلوة، ولكل زاوية شيخ يكون منقطعًا لها فتعرف به. ابن منظور، م. ن.، ج٦، ص١١٩، "زوي"؛ راجع مصطفى الخطيب، م. س.، ص٢١٧.

(٧) ابن تغري بردي، م. س.، ج٦، ص ٧٨.

بمنطقة العباسيّة اليوم، حيث رحل الحجيج، متّخذين الطريق المعهود الّذي يبدأ من مدينة السويس، مخترقًا صحراء سيناء[١].

ولا شك في أنّ عدم وجود هذه الوظيفة في مصر أيام صلاح الدين، يعود إلى تعطّل طريق الحجّ عبر سيناء، قبل استرداد صلاح الدين للقدس والساحل، وتوقيعه صلح الرملة مع ملوك أوروبا سنة ١١٩٢/٥٨٨. لذلك كان حجّاج الأندلس والمغرب ومصر يسلكون طريقًا طويلاً يبدأ، بعد وصولهم إلى الإسكندرية بحرًا أو برًا، من الإسكندرية إلى الفسطاط، ثم إلى صعيد مصر بمحاذاة النيل، حيث يستريحون بمدينة قوص الّتي أصبحت مركزًا تجاريًا وثقافيًا مهمًّا في العصر الأيوبي، لوفود الحجّاج إليها من الأندلس والمغرب، والتجّار من اليمن والهند، كما أصبحت مركزًا عسكريًّا مهمًّا، إذ أسند إلى واليها مهمّة قيادة الأسطول المصري في البحر الأحمر[٢].

فكان الحجّاج يغادرون قوص، قاطعين صحراء عيذاب، حتّى يصلوا إلى ثغر عيذاب، حيث كانوا يعبرون من الشاطئ المصري إلى البحر الأحمر، حتّى الشاطئ الحجازي، ليرسوا في ميناء جدّة على مراكب صغيرة الحجم تعرف بالجلاب، كان يشحنها أصحابها بالحجّاج بعضهم فوق بعض لتحقيق ربح أكبر. ولهذا نصح الرحالة ابن جبير[٣] الحجّاج بعد أن عانى الأمرين في عيذاب وسماها بالعذاب وخصوصًا حجّاج الأندلس والمغرب والإسكندرية ومصر، بمصاحبة أمير ركب الحجّ العراقي عند العودة والذهاب من العراق إلى ميناء عكا، تلافيًا للعودة عن طريق ميناء عيذاب[٤].

وكان بعض قادة العصر الأيوبيّ يتولّون بأنفسهم نيابةً عن سلطان مصر، وظيفة إمارة الحجّ المصري في حين يتولّى ركب الحجّ العراقي، المرسل من قبل الخليفة، الزعامة على جميع قوافل الحجّ الأخرى المرسلة من قبل الأيوبيّين، سواء من مصر أو الشام أو اليمن. فلم يكن من حق أحد أمراء هذه القوافل رفع أية راية غير راية الخليفة على جبل عرفات، كما جرى سنة ١١٩٧/٥٨٣[٥] وقد يدل ذلك على خضوع أمير ركب الحجّ العراقي خضوعًا مباشرًا للخليفة وتنفيذ أوامره، وذلك لأن وظيفة إمرة الحجّ، عند أوّل ظهورها في الإسلام زمن النبي محمّد، كانت تناط

---

(١) أحمد فؤاد سيد، **تاريخ مصر الإسلاميّة**، ص٢١٦.

(٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص ٤٨.

(٣) ابن جبير، محمد بن أحمد (١٢١٧/٦١٤) رحالة أندلسي، ولد في بلنسية، ونزل بشاطبة وبرع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، خرج للحجّ، فزار سردينيا ومصر وجزيرة العرب والعراق والشام وصقلية، ثم قام برحلتين أخريين إلى المشرق. وصف رحلاته في كتابه رحلة ابن جبير توفي بالإسكندرية. ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج ٥، ص٦٠؛ راجع محمد عوض، **الجغرافيون والرحالة المسلمون**، ص٢٨٣– ٢٨٤.

(٤) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ٤٨.

(٥) الفاسي، **العقد الثمين**، ص ١٨٩؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٢٦٥– ٢٦٦.

بكبار الصحابة نيابةً عنه، لحماية الحجيج ومرافقتهم أثناء فريضة الحجّ، وذلك لأن الحجّ بالنّاس هو من مهام الرسول في الأصل، ثم أصبح من مهام الخليفة من بعده.

ونشير في هذا السياق إلى أن أحدًا من سلاطين مصر الأيوبيّة، لم يحجّ بنفسه، لانشغالهم بجهاد الصليبيين، فيما حجّ من أيوبيّي اليمن، الملك المعظم شمس الدولة توران شاه[١]، أخو صلاح الدين، ثم الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر صاحب دمشق سنة ١٢١٥/٦١١ وتصدّق فيها بالحرمين صدقة كبيرة، ثم حجّ الملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك[٢].

إنّ الظروف السياسيّة والحربيّة الّتي عاشتها البلاد الإسلاميّة والدّيار المقدّسة، عطّلت موسم الحجّ مرات عديدة، ولا سيّما ركب الحجّ العراقي الّذي انقطع سنوات متتالية، فمنع سنة ١٢٣٦/٦٣٤ بسبب تحرّك المغول، وانشغال الخليفة في بغداد، وملوك بني أيوب بالشام ومصر، بجمع العسكر لمواجهتهم، ما جرّأ البدو في بادية الشام والحجاز على نهب ركب الحجّاج[٣].

جدير ذكره أنّ المبادرة الّتي قام بها الخليفة العباسي المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين ببغداد سنة ١٢٤٢/٦٤٠، كانت تتناول أمور الحجّ من تأمين طرقه، وتعيين أمير ذي كفاءة ومهارة لإمرة الحجّ، كفء بتحمّل مسؤوليّاته، ومن ثم تجديد عمارة "الأسبلة"[٤] الّتي أنشأها من قبل خلفاء بني العباس في طريق الحجّ، لسقاية الحجّاج، وتعيين "السبلدارية"[٥] المخصّصين لحفظها ورعايتها، إلى جانب إصلاح الآبار بطريق الحجّ[٦].

والواقع أن حماية سبيل الحجّاج، وتيسير أسباب الحجّ للمسلمين، كان الشغل الشاغل للخلفاء، نظرًا إلى ما عاناه الحجّاج من مصاعب ومشكلات، أهمّها نقص الماء، وصعوبة المسالك وخطورتها، فضلاً عن الكوارث الطبيعيّة والمناخيّة، ما دفع الحجّاج القادمين من بلاد بعيدة شرقًا أو غربًا إلى تنظيم قوافلهم وإعدادها إعدادًا جيدًا، بوفر ما يحتاجون إليه من طعام وشراب، ويقيهم عوارض الأمراض والأوبئة، ويضمن أمنهم وأمانهم عبر الطريق الطويلة في رحلتهم إلى الحجاز.

---

(١) توران شاه، تولى الملك المعظّم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب الحكم سنة ١٢٤٩/٦٤٧، وكان فيه نوع خفّة، وكان كثير الاحتجاب عن الناس، وناقص السياسة، ويسمي مماليك أبيه بأسمائهم، توفي سنة ١٢٥٠/٦٤٨. ابن الحريري، **كتاب منتخب الزمان**، ج٢، ص٣٤١.

(٢) الفاسي، **العقد الثمين**، ص ١٨٩؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٢٧٢.

(٣) الجزيري، م.ن.، ص ٢٧٧.

(٤) الأسبلة: مفردها السبيل، والسبيل في الاصطلاح: مكان عام للشرب، جعل ماؤه لسقاية عابري السبيل من قبيل أعمال الصدقة. مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص٢٣٨.

(٥) السبلدارية: الذين معهم جمال السبيل يحملون عليها المنقطعين. R. Dozy, *Supplément auxDictionnaires Arabes*, vol.II, p.629.

(٦) أحمد فؤاد سيد، **تاريخ مصر الإسلاميّة**، ص ٢٢٧- ٢٢٨.

على أنّ مرحلة جديدة في مسيرة درب الحجّ بدأت منذ سنة ١٢٤٧/٦٤٥، حيث سلكت قافلة الحجّ المصري طريقًا جديدًا يبدأ من بركة الحجّ مرورًا بنخل، وعقبة أيلة وينبع، وصولاً إلى مكّة، وكانت أول قافلة لافتتاح هذه المرحلة، هي مسيرة قافلة شجر الدر[١] للحجّ في سنة ١٢٤٧/٦٤٥، حيث ركبت هودجها واحتفل بسفرها احتفالاً عظيمًا[٢].

ومما لا شك فيه أن أداء فريضة الحجّ كان ينطوي على مصاعب جمّة، حملت أبا العلاء المعري إلى القول:

أقيمي لا أعدُّ الحجّ فرضًا ... على عُجُزِ النساء ولا العذارى

ففي بطحاءَ مكّة سرُّ قومٍ ... وليسوا بالحُماةِ والغيارى[٣]

فقد أعفى أبو العلاء المرأة العجوز والفتاة من الحجّ لعظيم المشقّة، وهذا يدخل في الضرورات.

تلك كانت حركة الحجّ والحجيج حتى بداية عصر المماليك الذين عاهدوا أنفسهم على حماية طريق الحجّ والحجّاج، وتسهيل أداء الفريضة، وحفظ حرمة الحرمين الشريفين.

---

(١) شجر الدر، أم خليل الصالحية، وجارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وأم ولده خليل؛ كان الملك الصالح يحبها حبّا عظيمًا، ويعتمد عليها في أموره ومهمّاته، وكانت بديعة الجمال ذات رأي وتدبير ودهاء وعقل، ونالت من السعادة ما لم ينله أحد في زمانها. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٣٧٤؛ ابن الحريري، **كتاب منتخب الزمان**، ج٢، ص٣٤١.

(٢) سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ٨٦.

(٣) أبو العلاء المعري، **اللزوميّات**، ج١، ص ٥٥.

تمهيـــــد

السلطنة المملوكيّة: لمحة تاريخيّة

أولاً- المماليــك البحرية (٦٤٨/١٢٥٠- ٧٨٤/١٣٨٢).

المماليك هم أرقّاء يشترون ويباعون بين السلع استقدموا إلى مصر في العصر الفاطمي، ثمّ في عهد صلاح الدين الأيّوبي، حيث كانوا يباعون في أسواق النخاسة وهم في مقتبل العمـــر، ثـمّ صار المملوك الأداة الحربيّة الوحيدة في بعض الدول، مثل دولة المماليــك فـــي مصـــر والشـــام والحجاز[١].

وقد بدأ نجم المماليك بالظّهور خلال تولّي الملك الصالح نجم الدين أيّوب سلطنة مصر سنة ٦٣٦/١٢٣٩، فاستكثر من شرائهم، ودعاهم بالحلقة،[٢] وأسكنهم جزيرة الرّوضة، وكـــان عـــددهم وقتئذٍ نحو ألف مملوك، فعُرِفوا بالمماليك البحريّة لإقامتهم في هذه الجزيرة. فلمّا توفّي الصالح سنة ٦٤٧/١٢٤٩ بالمنصورة أثناء مقاومته حملة لويس التاسع الّتي عزّزت مكانة فرســان المماليـك، ورفعت من شأنهم، لصدّهم اندفاع المغول القادمين من الشرق، ومنعهم خطر الصليبيين المتسلّط في بلاد الشام، عمدت شجر الدر إلى كتم خبر وفاته خشية وقوع الفرقة بين قواده إذا ما علموا بوفاته، فأعلنت البيعة لابنه الملك المعظّم غياث الدين توران شاه، واستقدمته من بلاد الشام، فحضر إلـــى مصر، وحارب الفرنج الّذين كانوا بقيادة لويس التاسع ودحرهم[٣].

إلاّ أن توران شاه سبب أذيّة إلى المماليك البحريّة، وإلى شجر الدر، فأتفق جميع الأطراف على التخلّص منه، فقتلوه سنة ٦٤٨/١٢٥٠، وبمقتله انتهت الدولة الأيوبيّة وبدأ الاســتعداد لقيـــام سلطنة المماليك البحريّة. ثمّ اتفق أمراء المماليك البحريّة على إقامة شجر الدر في الحكم ســلطانة، ولم تلبث أن تزوجت عزالدين أيبك التركماني[٤]، وتنازلت له عن الحكم ظاهريًّا، وسعت إلى إبعاده عن الحكم حين تخلّصت منه سنة ٦٥٥/١٢٥٧. ولكن شجر الدر لم تسلم، إذ لما تسلطن نور الدين

---

(١) أحمد مختار العبادي، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، ص١١.

(٢) الحلقة: هناك اختلاف في مصدر كلمة حلقة، فكاترومير Qautremère يقول: إنّ الجيش المملوكي سمي بأجناد الحلقة لأنه كان يحيط بالسلطان، وبولياك يعتبر أنّ الاسم جاء من نظام الفروسية التركي، بحيث أن الأجناد كانوا يحيطون بالأعداء.والمهم أجناد الحلقة كانوا يعتبرون قلب الجيش المملوكي. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ١٦؛ P. M. Holt, "Mamlûks", *EI*₂, vol. VI, p.305.

(٣) المقريزي، **السلوك**،ج١، قسم٢، ص ٣٥٨- ٣٥٩.

(٤) عز الدين أيبك، أصله من مماليك السلطان الملك نجم الدين أيوب، اشتراه في حياة والده الملك الكامل محمد، وتنقلت بــه الأحوال عنده، واستمر على ذلك إلى أن قتل المعظم توران شاه وملكت شجر الدر بعده، تولى الســلطنة ســنة ٦٤٨/١٢٥٠، وركب بالسناجق السلطانية، توفي سنة ٦٥٥/١٢٥٧. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص٤؛ راجع ابــن الحريــري، **كتاب منتخب الزمان**، ج٢، ص٣٤٣.

علي بن أيبك، وأصبح قطز[١] أتابكًا له، أمر بقتل شجر الدر قاتلة أبيه، وذلك بعد ثلاثة أيام من قتل أيبك[٢].

وقد تمكن سلاطين المماليك من ترسيخ حكمهم عندما قاموا بتحقيق أوّل نصر مؤزر على التتار إذ ألحق السلطان قطز بهم الهزيمة النكراء في موقعة عين جالوت[٣] سنة ٦٥٨/١٢٦٠، والّتي تعد أوّل معركة هزم فيها التتار منذ خروجهم من بلادهم، فكانت بنتائجها الحاسمة تأكيدًا للدور الّذي اضطلعت فيه سلطنة المماليك البحريّة منذ بداية تكوينها. وقد اتسعت دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري فقضى على الدويلات الأيوبيّة في بلاد الشام وضمها إلى دولة المماليك في مصر وتوالى الملك بعده خمسة وعشرون ملكًا، واستمرّ السلاطين المماليك إثر ذلك في إرساء دعائم دولتهم، الّتي ظلت مائة واثنتين وعشرين سنة، ثمّ انتقلت السلطنة إلى المماليك البرجيّة أو الجركسيّة.

ثانيًا- المماليك البرجيّة (١٣٨٢/٧٨٤- ٩٢٣ /١٥١٧).

بدأت مرحلة سلطنة المماليك البرجيّة، الّذين سموا بهذا الاسم لأنهم سكنوا الأبراج، عندما اعتلى الظاهر برقوق عرش السلطنة سنة ١٣٨٢/٧٨٤[٤].

وقد اختلفت سلطنة المماليك البرجيّة عن البحريّة في عدّة أمور، منها: أن سلاطين المماليك الجراكسة كانوا جميعًا من أصل جركسي، ما عدا اثنين منهم يرجعان إلى أصل رومي، هما الظاهر سيف الدين خشقدم والظاهر تمربغا. كما أن مبدأ الحكم الوراثي الّذي سعى إليه بعض سلاطين المماليك البحريّة في عناد وإصرار، ولا سيما أسرة قلاوون، انمحى أثره في عصر سلطنة المماليك الثّانية (البرجيّة).

واللافت في هذا السياق، أن سلطنة المماليك البرجيّة في سنوات حكمها الأولى، لم تسلم من تهديدات تيمورلنك، فضلاً عن تهديد الظاهر بيبرس[٥] لها في أواخر القرن

---

(١) قطز، السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله الثالث من ملوك الترك بالدّيار المصريّة. وقطز بضم القاف والطاء المهملة وسكون الزاي. تسلطن سنة ١٢٥٩/٦٥٧، وذلك بعد أن عظمت الأراجيف بتحريك التتار نحو البلاد الشاميّة وقطعهم الفرات وهجومهم بالغارات على البلاد الحلبيّة. ابن تغري بردي، م. س.، ج٧، ص٧٢.

(٢) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٩، ص٣٦٢.

(٣) عين جالوت: بلدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص١٧٧.

(٤) P.M. Holt, "Mamlûks", *EI₂*, vol. VI, p.308.

(٥) الظاهر بيبرس، ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري، سلطان الدّيار المصريّة والبلاد الشاميّة والأقطار الحجازيّة، تركي من قبائل التتر، خطفه تجار الرقيق وانتقل من تاجر إلى آخر حتى وصل إلى حماه ببلاد الشام، حيث انتقل بيبرس إلى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب الّذي لم يلبث أن منحه حريته، ثمّ انتقل إلى خدمة ابنه توران شاه بعد وفاته،

السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، لكن خفّت حدّتها بعد سنة ٨٠٣/١٤٠٠=١٤٠١ خلال عهد فرج بن برقوق الذي اضطر إلى إخلاء الشام بعد أن احتلّها تيمورلنك وخربها[1].

وبوفاة فرج، تسلّم سنة ٨١٨/١٤١٥ مقاليد الحكم المؤيد [2]، فأعاد إلى الدولة هيبتها وسلطتها. ثمّ انتقلت السلطنة بالتوالي إلى أحمد بن شيخ [3]، وسيف الدين ططر[4]، ومحمّد بن ططر[5]، فالأشرف سيف الدين برسباي [6] الّذي وضع حدًا لتهديد ملك قبرص للسواحل المصريّة، وقلّص من نشاط التجارة الكارمية[7] الّتي ازدهرت في فترة

فصار من زعماء البحرية بعد مصرع توران شاه. ساهم في انتصار عين جالوت. وفي طريق العودة، اغتال قطز وأعلن نفسه سلطاناً سنة ٦٥٨/١٢٦٠. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص ١٩٤ راجع قاسم عبده قاسم، **عصر سلاطين المماليك**، ص٨٦.

(١) P.M. Holt,"Mamlûks",*EI*$_2$, vol,VI, p.308.

(٢) المؤيد، أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبد اللّه المحمودي الظاهري، وهو السلطان الثامن والعشرون من سلاطين الترك بالديار المصريّة، والرابع من الجراكسة وأولادهم. أصله من مماليك السلطان الظاهر برقوق، أنعم عليه بإمرة عشرة، ثم نقله إلى طبلخانه، ثم خلع عليه باستقراره أمير حاج المحمل سنة ٨٠١/ ١٣٩٨، فسار بالحجّ، وعاد، وقد مات أستاذه الظاهر برقوق، ولا زال شيخ المذكور يدبّر والأقدار تساعده إلى أن استولى على الحكم بعد القبض على الناصر فرج وقتله. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص ١- ٢.

(٣) أحمد بن شيخ، أبو السعادات أحمد ابن السلطان المؤيد أبي النصر شيخ المحمودي الظاهري الجركسيّ الجنس، تسلطن يوم مات أبوه المؤيد شيخ سنة ٨٢٤/ ١٤٢١، كان عمره سبعة أيام، وهو السلطان التاسع والعشرون من سلاطين الترك وأولادهم، والخامس من الجراكسة، وأمه خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش، أحد أمراء دمشق. ابن تغري بردي، م. ن. ، ج ١٣، ص ١٦٧.

(٤) سيف الدين ططر. تسلطن أبو الفتح ططر بعد خلع السلطان أحمد بن المؤيد شيخ سنة ٨٢٤/ ١٤٢١ بقلعة دمشق، ولبس خلعة السلطنة من قصر قلعة دمشق، وركب بشعار السلطنة، ولقّب بالظاهر ططر، وذلك بعد أن ثبت خلع السلطان المظفر، وحضر الخليفة المعتضد بالله داود، والقضاة بقلعة دمشق. والظاهر ططر هو السلطان الثلاثون من ملوك الترك بالديار المصريّة، والسادس من الجراكسة وأولادهم. ابن تغري بردي، م.ن.، ج١٣، ص ١٩٨.

(٥) محمّد بن ططر، ناصر الدين محمد ابن السلطان الظاهر سيف الدين أبي الفتح ططر بن عبد الله الظاهري، تسلطن بعد موت أبيه بعهد منه إليه سنة ٨٢٤/١٤٢١، ومحمد هذا هو السلطان الحادي والثلاثون من سلاطين للترك، والسابع من الجراكسة وأولادهم. ابن تغري بردي، م. ن.، ج ١٣، ص ٢١١.

(٦) برسباي، تولّى السلطنة السلطان سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي سنة ٨٢٥/١٤٢٢، لقّب بالملك الأشرف، وبولايته سكنت الفتن، واستقرت الأحوال. بنى مدرسة بخانقاه سرياقوس، وله عمارات كثيرة بمصر ومكّة والشام. أقام الأشرف برسباي في السلطنة ست عشرة سنةً، وكان ذا سكينة ووقار ومهابة، كثير البر والصدقات، لكنه كان كثير الطمع في تحصيل الأموال. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية**، ج١، ص١٢٠.

(٧) التجارة الكارمية، فئة من التجّار كان بيدهم تجارة البهار مما يجلب من الهند عن طريق ثغور اليمن، فعرف ذلك بهم. وكان معظمهم في الأصل من بلاد الكانم الإسلامية الّتي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد في السودان الغربي، فنسبوا إلى

المماليك البحرية[١]. أما عصر الأشرف سيف الدين قايتباي[٢]، أحد أهم الحكام الجراكسة، فشهد استقرارًا سياسيًا إلى جانب حملاته التأديبيّة ضد الصليبيين في جزر البحر الأبيض المتوسط[٣]. وخلال سلطنة خشقدم، احتدم النزاع بين المماليك والعثمانيين[٤]. وفي بداية حكم قانصوه الغوري[٥] (١٥٠١/٩٠٦- ١٥١٦/٩٢٢)، حوصرت سلطنة المماليك البرجيّة من ثلاث جهات بقوى كبرى؛ ففي الشمال، كانت دولة العثمانيين الّتي جابهت دولة الشاه إسماعيل الصفويّة[٦] في إيران من ناحية الشرق. وفي الجنوب، كان الأسطول البرتغالي يهدّد البحر الأحمر بعد إحكام سيطرته على المحيط الهندي، وكان المماليك يفتقرون إلى الخبرة في القتال عبر البحر[٧].

أصلهم الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٣٣.

(١) أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص ٢٠٧.

(٢) قايتباي، تولى أبو النصر قايتباي الظاهري المحمودي السلطنة سنة ١٤٦٧/٨٧٢، ولقّب بالملك الأشرف، وهو من خيار هذه الطائفة، له مبرات وعمارات شتى، في مصر والمدينة المنورة ومكّة المشرفة وغيرها. وفي سنة ١٤٧٩/٨٨٤ حجّ السلطان، ولم يحجّ من السلاطين الجراكسة غيره، ورتب لأهل الحرمين ثمانية آلاف إردب قمحًا، لتعمّ الغني والفقير. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية**، ج١، ص١٢٥.

(٣) P. M. Holt,"Mamlûks", *EI₂*, vol. VI, p.308.

(٤) العثمانيين: ينتسب العثمانيون (٦٩٩/ ١٢٩٩- ١٣٤٢/ ١٩٢٤) إلى عثمان بن أرطغرل بن سليمان الّذي يعدّ مؤسس الدولة التي نشأت في آسيا الصغرى (شمال غربي الأناضول سنة ١٢٩٩/٦٩٩)، والّتي اتسعت بعد ذلك لتضم الأناضول والبلقان والبلاد العربيّة: العراق والشام ومصر والجزيرة العربيّة والجزائر وتونس وليبيا، وقد استمرّت الدولة العثمانيّة حتّى إلغاء السلطنة سنة ١٣٤١/ ١٩٢٣ على يد مصطفى كمال. عبد الرحمن البيطار، "العثمانيون"، **الموسوعة العربيّة**، ج١٢، ص٩٠٧.

(٥) قانصوه الغوري، تولّى السلطان أبو النصر قانصوه الغوري السلطنة سنة ١٥٠١/٩٠٦، ولقّب بالملك الأشرف، فأقام بها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر. وكان جبارًا، كثير القتل والسفك، وله عدة مبان، وبنى دائرة الحجر الشريف، وبعض أروقة المسجد الحرام، وباب إبراهيم، وجعل علوّه قصرًا شاهقًا وتحته ميضأة، وبنى في طريق الحجّ المصري عدة خانات وآبار. علي باشا مبارك، م. س.، ج١، ص١٣٠.

(٦) الصفويّة: الصفويّون أشهر وأمجد الأسر الوطنية التي حكمت فارس منذ دخول الإسلام في هذه البلاد، والصفويّة نسبة إلى الشيخ صفي الدين إسحاق، ومؤسسها إسماعيل الصفوي. R. M. Savory,"Ṣafawides", *EI₂*, vol. VIII, p.308.

(٧) P. M. Holt,"Mamlûks", *EI₂*, vol. VI, p.309.

وتجدر الإشارة إلى أن سلطنة المماليك البرجيّة على الرّغم من استمرارها كقوة عظمى، خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كانت تعاني من تدهور اقتصادي وعسكريّ منذ أمد طويل[1].

تلك كانت الحياة السياسيّة في فترتي حكم المماليك البحريّة والبرجيّة. أما الحالة الإداريّة الّتي سادت آنذاك، فتميّزت بتطوّرها، ولا سيّما نظم البريد والقضاء والمظالم، كما برزت رعاية المماليك لأمور الحجّ والحجيج.

(١) P.M.Holt, "Mamlūks", EI_2, vol.VI, p.308.

الباب الأوّل

مُقدّمات الحجّ إلى الحجاز وطرُقه في العصر المملوكي

الفصل الأوّل: تنظيم رحلة الحجّ في العصر المملوكي

الفصل الثّاني: قوافل الحجّ في العصر المـــــــــلوكي

الفصل الثالث: طرق الحجّ في العصر المـــــــــلوكي

الحجّ هو الركن الخامس من أركان الإسلام الأساسيّة، ومعناه في الاصطلاح الشرعي: زيارة أماكن مخصوصة في أوقات مخصوصة بأفعال مخصوصة. ومن الأفعال الّتي يقوم بها الحاج قبل سفره، الإنابة، أي الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة من الذنوب كلها، ردّ المظالم والحقوق إلى أصحابها، تأمين نفقات الحجّ من الرزق الحلال، التماس رفيق صالح محبّ للخير ومعين عليه، عدم ارتكاب المعاصي، التفرّغ والانقطاع للعبادة، وعدم الجدل والمخاصمة والشجار والانشغال بالنّاس. من هذا المنظور، أطرح الأسئلة التي أحاول الإجابة عنها في هذا الباب، ومنها، هل نجح المماليك في إجراء الاستعدادات اللازمة لرحلة الحجّ، ولاسيّما في ما خص محمل الحجّ؟ هل يعدُّ أمير الحجّ الرئيس الفعلي للركب؟ هل احتوت قافلة الحجّ موظفين مختصين بشؤون الحجّاج وآخرين لخدمة القافلة؟ هل تميّزت كسوة الكعبة في العصر المملوكي عن العصور السابقة؟ هل أثّرت العوامل السياسيّة والطبيعيّة والبشريّة في مسير قافلة الحجّ العراقي؟ ما هي التدابير المتّخذة من قبل المماليك في تنظيم طرق الحجّ إلى الحجاز؟

بعد طرح الأسئلة وللإجابة عنها، يستدعي ذلك معالجة **مقدّمات الحجّ إلى الحجاز وطرقه في العصر المملوكي** في ثلاثة فصول هي:

الفصل الأوّل: تنظيم رحلة الحجّ في العصر المملوكي وتهيئة الظروف وتحديد زمان الانطلاق ومكانه، والعمل على تأمين طاقم القافلة من مسؤولين وموظفين. وتناولت في الفصل الثّاني: قوافل الحجّ إلى الحجاز في العصر المملوكي وفقًا لتوزيعها الجغرافي، ووصفت قوافل الحجّ الثلاث: قافلة الحج المصري والمغربي، قافلة الحجّ الشامي والحلبي، ثم قافلة الحجّ العراقي. وحدّدت في الفصل الثالث: طرق الحج ومحطّات كل ركب ومدى توفيرها راحة الحجّاج وضمان سلامتهم.

الفصـــل الأوّل

تنظيــم رحلـــة الحجّ فـــي العصر المملوكي

نتناول في هذا الفصل تنظيم رحلة الحجّ في العصر المملـوكي، ولا سـيّما أنّ العصـور الإسلاميّة كانت مميزة بالنسبة إلى موسم الحجّ وما انبثق من اهتمام الخلفاء الراشدين، والأمـويين، والعباسيين، والفاطميين، والأيوبيين بأمور الحجّ وتنظيم رحلاته ومنشآته وتحسين سبله وطرقاتـه. من هذا المنطلق سنعالج رحلة الحجّ في العصر المملوكي، فكيف بدت صورته وتنظيماته من خلال الأعمال الرئيسيّة الّتي كانت تتولاها السلطنة في هذا المنحى؟ وهو ما سنتطرق إليـه مـن خـلال المباحث الثلاثة بدءًا من الإعلان عن موسم الحجّ وهو ما أتناوله في المبحث الأوّل، ثم أنتقل إلـى المبحث الثاني المخصّص لإعداد قافلة الحجّ في العصر المملوكي، وأتناول في المبحث الثالث نقاط تجمّع الحجيج.

أولاً- الإعلان عن موسم الحجّ في العصر المملوكي

إنّ الإعلان عن موسم الحجّ يُعَدّ من الثوابت الأساسيّة الّتي كانت تنجزها السلطنة المملوكيّة قبل رحيل الحجيج، من أجل إعلام الناس بأن الطريق من الأقطار الإسلاميّة إلى الحجاز آمن، ومن أراد الحجّ فلا يتأخّر عن الموعد المعلن عنه.

وقد خضعت قافلة الحجّ في العصر المملوكي لتقاليد وعادات ثابتة تتعلق بدوران المحمـل وتجهيزه للسفر إلى الدّيار المقدّسة. واقتصر خروج المحمل على القاهرة ودمشق فقط، أقوى دولتان إسلاميتان آنذاك، وصاحبتا الحماية على مكّة والمدينة. إلا أننا قد نسمع أحيانًا كثيرةً عـن خـروج المحمل العراقي واليمني والمغربي بصورة استثنائيّة. وفي المقابل، واظبت القاهرة ودمشق علـى الاحتفال بدوران المحمل وتجهيزه، وتنافستا في السيطرة على الحرمين الشريفين. وانطلاقًـا مـن ذلك، نودُّ التعرّف إلى مراسم الاحتفال المرتبطة بموعد الحجّ في هاتين المدينتين.

أ- مراسم الاحتفال بمواكب المحمل الشامي

كانت الدولة المملوكيّة تتحمل نفقات الحجّ، وتعهد بإمارته لواحد من كبار العسكريّين فـي دمشق، أو من زعماء العشائر العربيّة، ويهيأ هذا الأمير للخروج بالحجّ، قبل حلول الموسم بثلاثـة أشهر، فيقوم أولاً بالدورة أي زيارة المناطق الجنوبيّة من دمشق لجمع المال اللازم، وقـد يكـون الوالي نفسه أمير الحجّ وهي مهمة صعبة وخطيرة لأن من واجباته أن يدفع عن الحجّاج اعتداءات القبائل الّتي تنوي بهم شرًا[1]. نقل عن المحمل الشامي العديد من العادات والاحتفالات الشعبيّة الّتي

---

(١) R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.30.

كان لها دور كبير في سلوك الحجّاج والسكان وتصرّفاتهم، على مدار سنين كثيرة غادر فيها ركب المحمل الشامي إلى الحجاز.

وأهمّ هذه الاحتفالات، تكريم مواكب عدة قبل المغادرة إلى بيت الله الحرام، منها: موكب السنجق[١]. الّذي يتصدّر أوليّة الحفل المعدّ لموسم الحجّ، وموكب الزيت والشمع، وموكب المحمل.

١- موكب السنجق

أوّل أعمال الحجّ وضع السنجق (العلم السلطاني) على الباب الأوسط من أبواب الجامع الأموي بدمشق، اعتبارًا من شهر جمادى الثانية إيذانًا للنّاس بالتّهيؤ لأمر الحجّ، وبأن القافلة ستتوجّه هذا العام إلى مكّة. وكان تعليق السنجق يتم باحتفال كبير ترافقه النقارات[٢] والمشاعل [٣]، والسنجق المملوكي مصنوع من حرير أصفر مزركش، وهلاله من ذهب[٤].

٢ – موكب الزيت والشمع

كانت مراسم موكب الزيت والشمع تبدأ في العصر المملوكي في اليوم الأوّل لعيد الفطر، وتسمى (مراسم الزيت والشمع والمحمل)، حيث تصطفّ الفرق العسكريّة أمام المسجد الأموي، وتؤدي التحيّة لنائب المدينة وقائدها العسكري، وبعض كبار الموظفين، وبعد الانتهاء تجري حفلة إخراج الشمع والزيت المهيّأة لإرسالها مع موكب الحجّ إلى الحرمين الشريفين. وفي يوم الزيت وهو الثّاني من شهر شوال كل سنة، يتم الاحتفال بنقل الزيت من كفر سوسة[٥]إحدى ضواحي دمشق آنذاك، على ظهور الإبل إلى المستودع الخاص بأدوات محمل الحجّ[٦].

أما في اليوم الثالث من شهر شوال (يوم الشمع)، فينقل الشمع باحتفال رسمي أيضًا، من الدار الّتي سكب فيها في كفر سوسة إلى محلة البازورية بدمشق، ووزنه ثلاثة قناطير، وماء الورد ووزنه حوالى قنطار، والملبس ووزنه عشرة أرطال، ويحمل الشمع على أعناق الرجال إلى المخزن المعدّ لحفظ المواد لاهدائه إلى الحرمين الشريفين[٧].

---

(١) السنجق: راية النبي، وقد انتقلت إلى العصر الراشدي فالعصور اللاحقة، وبقي يواكب ركب الحجّ سنويًا. R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.92.

(٢) النقارات: مفردها نقارة، معناها النقاش. ابن منظور، لسان العرب، ج١٤، ص٢٥٧، "نقر".

(٣) المشاعل: مفردها مشعل، والمشعل القنديل. ابن منظور، م. ن.، ج٧، ص١٤١، "شعل".

(٤) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج١، ص٢٨٩.

(٥) كفر سوسة: هي من قرى دمشق. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٤٦٩.

(٦) R. Tresse, *Op.Cit*, p. 92.

(٧) R. Tresse, *Ibid*, p. 164- 165.

هكذا كان يجري الاحتفال بموكب الزيت والشمع في قرية كفر سوسة استعدادًا للرحيل إلى مكّة، مصحوبًا بموادّ وأدوات وأغراض ممّا يحتاج إليه الحجّاج في رحلة الحجّ.

٣- موكب المحمل

بعد نصب السنجق وتكريم موكب الزيت والشمع، كانت عمليّة دوران المحمل تبدأ في اليوم الرابع من احتفالات هذه المراسم، فهو يوم المحمل، حيث يخرج موكب الحجّ الشريف مع المحمل والسنجق إلى حي الميدان، ويوضع المحمل على ظهر جمل جميل الشكل قوي لا يستعمل لأي عمل سوى الحجّ، ونقل الأشخاص، خصوصًا نساء النبلاء، إلى مكّة. والمحمل هو نوعٌ من المحفّات ذات الزخارف المزركشة تثبت على جمل، وقد أصبحت هذه المحفّات رمزًا سياسيًا بدءًا من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حيث كان الحكّام يرسلونها مع قوافل الحجّ إلى مكّة إظهارًا لهيبتهم، ودعمًا لمكانتهم[١].

ويبدو أنّ موكب المحمل كان يتمتّع بأهميّة عظيمة ومكانة مرموقة عند الحكام والسياسيين والسكّان المحليين، فكانوا يقيمون له الاحتفالات الرسميّة والشعبيّة في أوقات مخصوصة من السنة. ومن هذه المراسم، احتفال شهر شوّال.

وقد أشار ابن كنان[٢] إلى هذا الحفل العظيم فقال: تدوير المحمل والسنجق بعساكر الشام ودولتها، حتى أولاد الجربجية الصغار يشاركون فيه، فأول ما تجتمع العساكر من طلوع الفجر، يخرج من باب السراي السّليمانية والأرنوطية، وأكابر الدولة، وقاضي المحمل، وكاتب المحمل، وتكسو الجمال الزينة والأطالس... ثم يخرج أمير الحجّ متعيّنًا على هذا الجمع الكثيف[٣].

إنّ التكريم العظيم الّذي حظي به المحمل الشامي ومواكبه، يدلُّ على اشتياق النّاس ومحبتهم واندفاعهم ولهفتهم لزيارة الكعبة المعظّمة وأداء الفريضة. وقد برع المؤلّفون في وصف المحمل وإبراز صورته البهيّة، ما يكشف عن مدى قيمة الأموال المصروفة على تجهيزه.

وبعد أن وقفنا على طريقة الاحتفال بمراسم المحمل الشامي في دمشق رسميًا وشعبيًا استعدادًا للذهاب إلى الحجاز، سوف ننتقل للحديث عن المحمل المصري الّذي فاق كلّ أمثاله من

---

(١) F. R. Blh, J. Jomier, "Maḥmal", EI_2, Vol.VI, p.43.
R.Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.169.

(٢) ابن كنان، محمد بن عيسى بن كنان (١١٥٣/١٧٤٠)، مؤرخ، حنبلي من علماء دمشق. له كتب منها الحوادث اليومية والمواكب الإسلامية في وصف الشام. المرادي ، سلك الدرر، مج٤، ص ٨٥.

(٣) ابن كنان، **المواكب الإسلامية**،ج٢، ص ١٤٥– ١٤٦، ١٤٨.

محامل الدول العربيّة أو الإسلاميّة، في تجهيزه وإعداده ونظامه واحتفالاته وعاداته وتقاليده ومعتقداته. فكانت سلطنة المماليك تقيم كلّ سنة احتفالاً ضخمًا للمحمل يتم على دورتين في السنة.

أ- مراسم الاحتفال بمواكب المحمل المصري

كان الإعداد لرحلة الحجّ بمصر يأخذ طابعًا خاصًا، ربما لأن مصر هي التي كانت آنذاك تحوز شرف إعداد كسوة الكعبة وإرسالها هي والفرمان[1] السلطاني إلى مكّة، مع قافلة الحجيج على هودج يتقدم القافلة يعرف باسم "المحمل"، وقد أولت السلطنة المملوكيّة عناية كبيرةً لخروج المحمل كل سنة، إذ كانت تقيم له احتفالاً ضخمًا يتمّ على دورتين في السنة. وكان يعين له أمير يسمى أمير المحمل يكون من كبار أفراد الدولة، ويعهد إليه بقيادة قافلة الحجّاج إلى مكّة، وتأمين عودتها وتوفير الحراسة الكافية لها، والإشراف على تجهيزها من الجمال والبغال والخيام، وسائر الاحتياجات واللوازم الضروريّة في أثناء الرحلة. وكان من اختصاصه تحصيل ضريبة من التجار والميسورين لتغطية نفقات تصنيع الكسوة وتجهيز الأموال.

أما صورة المحمل وشكله، فعبارة عن هيكل مربّع من الخشب، هرمي القمة، له سترة من الديباج الأسود، وعلى دوائره هدبة حريرية وشراريب[2]. وقد حمل المحمل على جمل طويل جميل، حيث صنع بيرقه من القماش المزركش، وكتب على وجهيه آيات قرآنيّة ، كما حوى المحمل مصحفين صغيرين وضعا داخل صندوقين من الفضة[3].

يدلّ هذا التقليد على المكانة العظيمة الّتي كانت لكتاب الله تعالى، وعلى القيمة المعنويّة والماديّة للديباجة السوداء المنمّقة والمزخرفة بدقّة رائعة، وهي تغطي المحمل. ونتحدّث في الفقرات التالية عن نشأة المحمل المصري والاحتفال به.

١- نشأة المحمل المصري

ذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ تاريخ نشوء المحمل ابتدأ من سنة ١٢٤٧/٦٤٥. وقالوا: إنه الهودج الّذي ركبت فيه شجر الدر سلطانة مصر في حجّها في تلك السنة، وصار بعد ذلك يسير سنويًا أمام قافلة الحجّ وليس فيه أحد، لأنّ مكان الملوك والسلاطين لا يجلس فيه غيرهم.

---

(١) الفرمان: جمع فرمانات، وهي كلمة فارسية معناها عهد السلطان للولاة. محمد التونجي، **المعجم الذهبي**، ص ٤٩٢؛ راجع مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص٣٣٨؛ أما دوزي فأشار إلى أن الفرمان كلمة تركية.
R. Dozy, *Supplément aux DictionnairesArabes*, vol.I, p.26.

(٢) شراريب: مفردها شرابة، أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير. R. Dozy, *Ibid*, vol.I, p.741.

(٣) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ١١٦. J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.13.

وتجدر الإشارة إلى أنّ المحمل قديم العهد استعمله بدو الصحراء في حروبهم كونه رمـزًا مميّزًا، حيث كان يرفع على أفضل جمل، وتجلس فيه امرأة أو فتاة من سيدات القوم، فتكون محـطّ أنظار الرجال. كما أنّ الرسول سيّر محملاً إلى مكّة بهداياه إلى البيت المعظّم[١].

وأصبح محمل شجر الدر الّذي كان يسير أمامها حاملاً الهدايا التي أخذتها معها إلى البيـت العتيق، عادةً يقوم بها سلاطين مصر سنويًا. وما زالوا يبالغون في زينته من سنة إلى أخرى، حتّى صار المحمل لا يستطيع حمل شيء غير الكسوة. أما الهدايا والهبات فصارت تنقل فـي صـناديق على جمال أخرى تسير مع الركب. وكان يعمل للمحمل يوم خروجه من مصر احتفال كبير وبقـي هذا الاحتفال قائمًا طوال عهد المماليك.

وكان خروج المحمل من المناسبات الجليلة القدر الّتي اختصّت بهـا مصـر الإسـلاميّة، واستمرّ المصريّون في الاحتفال بتكريم محمل الحجّ، وعرض كسوة الكعبة، في مهرجان صـاخب رائع الملامح والمناظر، طوال عصر المماليك، حيث كان الاحتفال يتمُّ وفـق عـادات ومعتقـدات شعبيّة اختلفت أساليبها، وتعدّدت أنماطها، وذلك بحسب توافر الإمكانات الماليّة، ومشاركة العناصر البشريّة الّتي ترغب في إبراز صورة المحمل المصري بأبّهته وحليته وزخرفته على أكملها، وهـو ما انعكس إيجابًا على العلاقة السائدة بين مصر والحجاز.

أما من الناحيتين الماليّة والاقتصاديّة، فقد كانت مصر تسعى على الدوام لتـأمين نفقـات المحمل والصرّة، ودفع أجور جميع الأفراد والموظّفين التابعين لإمرة الحجّ، تفاديًا للخسائر الّتي قد تلحق بالركب من جرّاء التقصير.

٢- الدورة الأولى للاحتفال بالمحمل المصري

رسم في عصر المماليك خروج المحمل مرتين في ما يعرف بدوران المحمل مرّة في شهر رجب والثّانية في شوال، وكان الغرض الظاهري في هذا التجديد الّذي تمّ في عهد الظاهر بيبـرس إعلان أن الطريق آمن إلى الحجاز حتّى يتأهب كل من يرغب في الذهاب إلى الحجّ.

وكان دوران المحمل يتمّ يومي الاثنين والخميس ويرافقه العديد من المظـاهر الاحتفاليّـة كتزيين الحوانيت واللعب بالرماح فوق الخيول، ويوم دورانه يوم مشـهود، يركـب فيـه القضـاة الأربعة، ووكيل بيت المال، والمحتسب، والشهود، وناظر الكسوة وغيرهم، ويقصدون جميعًا بـاب القلعة، ثم يطوفون بالمحمل بمدينة القاهرة والحداة يحدون أمامهم، فعند ذلك تهيج العزمات، وتتبعث

---

(١) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص١٩٢- ١٩٣؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ٤٨٦؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.21.

الأشواق، وتتحرّك البواعث، ويلقي الله تعالى العزيمة على الحجّ في قلب من يشاء من عباده، فيأخذون في التأهّب لذلك والاستعداد(١).

تجدر الإشارة إلى أنّ المحمل لم يكن فقط عبارة عن جمل يحمل كسوة الكعبة، وإنما كان رمزًا لسيادة مصر على الحجاز، تلك السيادة الّتي تمثلت في تقليد إرسال الكسوة المصريّة للكعبة ومخصّصات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات للأشراف، وأموال لفقراء الحرمين، كما أن مرسوم تعيين شريفي مكّة والمدينة كان يبعث من مصر برفقة ركب المحمل، كما يمثّل المحمل ظاهرة إنسانيّة حضاريّة، انعكست آثارها على حياة المصريين، مثلما انعكست على حياة الحجازيين أيضًا، وتمثل ذلك في الإزدهار التجاري الكبير الّذي كان يواكب فترة الحجّ وما ترتب عليه من هجرة الكثير من جنسيّات مختلفة إلى مصر كالشاميين والمغاربة والحجازيين.

٣- الدورة الثّانية للاحتفال بالمحمل المصري ووصف ديباجة كسوة الكعبة

الظاهر أن نظام المحمل المصري كان نظامًا دقيقًا في تكوينه وتقسيمه فقد كان أشبه بجيش عسكري في وقته وصرامة نظامه، لأنه رمز لعظمة وهيبة السلطان، وسفير فوق العادة، يمثّل مصر في مكّة وقت الحجّ حيث يجتمع المسلمون من كل مكان.

ويبدو أنّ مراسم تكريم المحمل المصريّ لم تقتصرعلى القاهرة فقط، بل كان يقام احتفال آخر له في مكّة، ما يفسّر موقعه الديني عند السلاطين إضافةً إلى أنّ بدء دورانه كان يعطي الحجّاج زخمًا واندفاعًا كبيرين لقصد الحرمين.

كان العرض الثّاني لدوران المحمل يجري في الخامس عشر من شهر شوّال، عندما ينتهي العمل في كسوة الكعبة الشريفة، الّتي هي عبارة عن كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطّنة بالكتّان، ومطرزة في أعلاها بآيات من القرآن،(٢) ويوجد سجلٌ يبيّن أن الكسوة كانت تصنع في دار الطراز بالإسكندريّة، وعند مشهد الحسين أيضًا، وكان يشرف عليها ناظر الكسوة (٣).

ولم يكن المشهد الحسيني هو المكان الوحيد الّذي تُنسج فيه وتُعمل كسوة الكعبة. بل كانت هناك (دار الطّراز بثغر الإسكندرية) وعن هذه الدار قال القلقشندي ضمن ما سجل عن سنة ٧٤١/١٣٤١: "فليباشر هذه الوظيفة الّتي كانت في سالف الزمان إلى الحكّام تضاف، وللعلماء

---

(١) ابن بطّوطة، **تحفة النظار**،ج١، ص ٢٦؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٩ ٥- ٦٠؛ نظير حسان سعداوي، **صور ومظالم من عصر المماليك**، ص٨٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي**، ص٣٢١- ٣٢٢؛ **مصر في عصر دولة المماليك البحرية**، ص١٧٣؛

F. R. Buhl, J.Jomier, "Maḥmal", *EI₂*, vol. VI, p.43. ؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.21.

(٢) ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص١٠٦؛ القلقشندي، م. س.، ج٤، ص ٨ ٥ .

(٣) عبد المنعم ماجد، **نظم دولة سلاطين المماليك**، مج٢ ، ص ١٤٤- ١٤٥.

الأعلام عليها نظر وإشراف... وتسربل الكعبة البيت الحرام في كل عام بجلبابها المحكم النسيج المعلم الأطراف[1].

وعن وجود دار لعمل كسوة الكعبة في ثغر الإسكندرية ذكر المقريزي[2] أن السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون إبان الفترة الثالثة لسلطنته في سنة ١٣١٩/٧١٩ عندما تجهّز للحجّ أمر ناظر الخاص كريم الدين بن عبد الله بن السديد بتجهيزه والسفر إلى الإسكندرية لعمل ثياب أطلس برسم الكعبة[3].

والرّاجح أنّ العصر المملوكي طبع كسوته المرسلة إلى الحجاز بنمط معيّن وشكلٍ مختلف عن السابق، ما يدل على حرص السلاطين الشديد على التميّز ورعاية أمور الحرمين الشريفين.

وكان من أبرز المظاهر الاحتفاليّة للمحمل الاحتفال بكسوة الكعبة الّذي كان يسبق سفره إلى الدّيار المقدّسة، حيث يقام حفل رسمي كبير في ميدان القلعة، ويحرص على مشاهدته جميع سكّان القاهرة وزوّارها، وفيه يتسلّم أمير الحجّ الكسوة الجديدة التي تضمّ السجادة الّتي تزيّن بها الكعبة، وكسوة المقام الإبراهيمي، وستارة باب التوبة من مسؤول دار الكسوة الموجودة بحي الخرنفش بالجمالية، وذلك بحضور كبار مسؤولي الدولة وأمير المحمل. ويرسل مع هذه الكسوة غلأيتان من النحاس مملوءتان بماء الورد النقيّ لغسيل الكعبة المعظّمة[4].

وبعد ذلك يتحرّك الجميع في موكب رسمي كبير يتقدمه أمير المحمل وخلفه الجمل الّذي يحمل الكسوة، وقد نقشت على قماش الهودج آيات قرآنية ورسوم زخرفية مطرّزة بخيوط من الحرير الذهبي، ثم تتبعه الجمال التي تحمل أموال الصرة الشريفة، وخلفها يسير قضاة المذاهب الأربعة، ومشايخ الطرق الصوفيّة بأعلامهم وبيارقهم الملوّنة، وجماعات الدراويش، ويطوف الموكب شوارع القاهرة من ميدان الرميلة حيث مكان الاحتفال، ويتجه إلى الفسطاط حتى جامع

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١١، ص٤٢٥.

(٢) المقريزي، أحمد بن علي تقي الدين المقريزي، مؤرخ مصري، ولد ونشأ ومات في القاهرة، وولي فيها الحسبة والخطابة والإمامة مرّات، واتصل بالسلطان الظاهر برقوق، من تآليفه كتاب **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار** ويعرف بخطط المقريزي، **والسلوك في معرفة دول الملوك**، وتاريخ الأقباط، **والبيان والإعراب عما في أرض مصر من الأعراب**. الزركلي، **الأعلام**، ج١، ص ١٧٧- ١٧٨.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم١، ص ١٩٥.

(٤) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص١٩٠- ١٩٢؛ إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٢٩١؛
J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.42.
R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.93.

الحاكم بأمر الله بالقرب من باب النصر، وقد عمّت الفرحة والبهجة الجميع، وتحوّل هذا اليوم إلى عيد كبير. ويظلّ المحمل في جامع الحاكم بأمر الله حتّى يوم الرحيل إلى بلاد الحجاز[١].

ومما أشار إلى تجهيز المحمل مصحوبًا بالكسوة في سنة ١٢٨٦/٦٨٥ ابن عبد الظاهر فقال:"رسم السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بتجهيز جمالِ السبيل وهي مائة جمل، وجُهزت جميع الأمور على اختلافها، وعين أمير الركب سيف الدين بلبان الحبشي، وهُيأت التشاريف لأمراء الحرمين على العادة، وعُدت الرسوم، وزيّنت القاهرة، وطيف بالمحمل والكسوة في يوم الثلاثاء منتصف شوال"[٢].

وحينما طاف موكب المحمل بهذه الكسوة قبل إرسالها إلى مكّة لفتت إليها الأنظار في القاهرة في زمن السلطان الأشرف سيف الدين برسباي وفي وصف ذلك المشهد الّذي احتشدت من أجله كثير من العامّة والخاصّة قال المقريزي:"وفي يوم الاثنين سادس عشر من شهر رجب سنة ١٤٢٢/٨٢٥ أدير محمل الحجّ بالقاهرة على ما جرت العادة. وقد كثر الاعتناء بأمره وعملت كسوة الكعبة في غاية الحسن"[٣].

حرص المماليك على بعث كسوة الكعبة سنويًا إلى مكّة، فأرسل السلطان قايتباي سنة ١٤٩١/٨٩٦ كسوة للكعبة وكسوة لمقام إبراهيم، وأقام لذلك احتفالاً عظيمًا في شهر رجب، وكان حاضرًا رسول سلطان بني عثمان ذلك الموكب[٤].

وقد جرت العادة أن يُكتَبَ إشهادٌ شرعيٌّ بتسليم الكسوة من مأمور تشغيلها إلى المحمليّ (من في عهدته المحمل والكسوة) ليوصلها إلى البيت الحرام حيث يتوجه بصحبة الحجّ المصري، وكان هذا الإشهاد بمنزلة أثر تاريخي يذكر فيه أجزاء الكسوة ومادّتها وأوصافها، ويعد هذا الإشهاد، تنقل الكسوة إلى قراميدان لتسلم إلى أمير الحجّ مع المحمل، وذلك في احتفال عظيم، وتحمل على جمل المحمل، حيث توضع في صندوق مغطى بأقمشة فاخرة مطرّزة، ثمّ تأتي الكسوة إلى نهاية طريقها، حيث تصل مكّة وتسلّم إلى سدنة الكعبة بمقتضى إشهاد يحضره العلماء وتحفظ هناك حتّى صباح يوم النحر والحجّ بمنى، فتخلع على الكعبة، وتثبّت عليها بواسطة حلقات من النحاس الأصفر[٥].

---

(١) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص١٠؛ محمود سليم، **عصر سلاطين المماليك**، مج٢، ص١٤٣؛
J. Jomier, *Le Maḥmal*, p.37.

(٢) ابن عبد الظاهر، **تشريف الأيام**، ص ١٤٥.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص ٦١٤.

(٤) إبراهيم حلمي، **كسوة الكعبة**، ص ٧٩- ٨٠.

(٥) إبراهيم رفعت باشا، م. س.، ج١، ص٢٩٦؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص١٧٦ – ١٧٧.

هكذا يتمّ تصنيع كسوة الكعبة وعرضها، وبعد الانتهاء من ذلك، يقام في موسم الحجّ كـل سنة احتفال سنويّ تُسلَّم فيه كسوة الكعبة إلى كبير سدنة بيت الله الحرام. وعلى الرغم من اعتمـاد أسلوب الإنتاج اليدوي، فإنّ التصنيع كان يحظى بالإتقان والجمال الباهر؛ ويتفوّق في الدقّة والمهارة واللمسات الفنيّة المرهفة والخطوط الإسلاميّة الرائعة. لقد كان عمل كسوة الكعبة يتطلب مالاً كثيرًا، علاوةً على عمال فنيين وحرفيين، ما يكشف عقليّة وذهنيّة سلاطين المماليك لإرضاء القيّمين على الدّيار المباركة.

ثانيـاً- إعـداد قافلـة الحـجّ

أولت السلطنة المملوكيّة اهتمامًا خاصًّا بتنظيم قوافل الحجّ ورعايتها، وبقدر ما كان هنـاك اهتمام مادّيّ لإعداد المحمل وتجهيزه، وكذلك الكسوة الشريفة ونفقات الرحلة، فإن الحـرص كـان شديدًا أيضًا لحسن اختيار أصحاب الوظائف المسؤولين عن قافلة الحجّ والملتزمين أمور الحجّاج.

كان اختيار العناصر البشريّة المواكبة لرحلة الحجّ يتمّ بعناية فائقة من بـين الشخصـيّات المعروفة بالتقوى والصلاح. ولم يقتصر ذلك على العلماء والفقهاء وأمراء الحـجّ والقضـاة، بـل تجاوزه إلى تعيين موظفين أكفاء وأصحاب نزاهة ومعرفة في أمـور قوافـل الحـجّ والحجـيج ومستلزماتها، منها: كاتب الديوان، ومباشر الصرّة، ومبشّر المحمـل، وأميـر آخـور[1] المحمـل وسواهم. فالمناصب والوظائف الخاصّة والتابعة لقوافل الحجّ كانت كثيرةً ومتعدّدةً، وكان لكلّ منها شروط لتولّيها، وأهمها:

أ- العلمـاء المواكبـون لرحلـة الحـجّ

١- أميـر الحـجّ

أمير الحجّ هو قائد ركب الحجّ إلى مكّة. وقد كان الخليفة أبو بكر الصـدّيق أوّل مـن تولّى إمارة الحجّ عندما اختاره النبيّ محمّد سنة ٩/٦٣١ ليقود قافلة الحجّ من المدينة[2]، كمـا تولى الخلفاء الراشدون من بعده إمارة الحجّ حتّى صار تقليدًا ثابتًا.

وقد كان أصحاب الأمر يلزمون بالبحث عن المستحقين والأكفاء للولايات، خصوصـًا ولاية إمرة الحجّ، فإنه منصب جليل ونبيل، يجتمع فيه العلماء والفقهاء، والأولياء والصـلحاء، والقويّ والضعيف، والنساء والرجال. لذلك وجب اختيار من ثبت استقامة أحواله واختبر فـي

---

(١) آخور: لفظ فارسي معناه، الإسطبل، وآخور سالار رئيس الإسطبل. أمير الآخور وهو المتكلم على أربـاب الإسـطبلات والمناخات الشريفة وما يرد إليها وما يصدر منها. ابن كنان، **حدائق الياسمين**، ص١١٥؛ راجع محمـد التـونجي، "آخـال"، **المعجم الذهبي**، ص٣١؛ مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص٩.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٧٣؛ J.Jomier, "Amîr al-Ḥâdjdj", *EI₂*, vol.I, p.456.

دينه وأفعاله[١]. في عصر سلاطين المماليك، كان اختيار أمير الحجّ يتمّ عادةً من بين رجال السيف ذوي الرتب العسكريّة الرفيعة: أمير مائة، قائد ألف، أمير طبلخانه[٢]، حاجب الحجاب[٣]، أمير مجلس[٤]، نائب القلعة[٥]. وكان أمير الحجّ المصري يسمى من قبل سلاطين المماليك. واستعمل هذا اللقب لقادة حملات أخرى من دمشق والعراق والمغرب.

وقد انقسمت إمارة الحجّ في العصر المملوكي إلى أمير أوّل، وأمير ثان، ويعرف الأوّل بأمير الركب الأوّل، ويعرف الثّاني بالأمير الّذي ينوب عن الأوّل[٦].

٢- تعيين أمير الحجّ

كان السّلطان ليلة المولد النبويّ يقيم سماطًا حافلاً [٧] وتقدّم فيه المشروبات. فكان السلطان يشرب بعضًا من قدح شرابه، محتفظًا بالباقي إلى من اختاره ليكون أميرًا للحجّ. فإذا ما أعطي الّذي اختاره الكوب، عرف أنه الأمير، قام إلى السّلطان شاكرًا، وعلم الحاضرون بذلك، فسارعوا إلى تهنئته. وكان السّلطان يقدّم إليه "الخلعة زيّ التشريفة"، كما يخلع على الحاضرين الخلع، ويفرّق الصرر. ويبدأ أمير الحجّ، فور تعيينه، الإعداد للرّحلة، وترتيب موظّفي الإدارة والقضاء والمال والعسكر[٨].

---

(١) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج٢، ص ٢٩٦.

(٢) أمير طبلخانه: الطبلخانه ومعناه بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات، ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ١٣.

(٣) حاجب الحجاب: الحجوبية وموضوعها أن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب، وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، والذي جرت به العادة خمسة حجّاب، اثنان من مقدمي الألوف: وهما حاجب الحجاب والقائم مقام النائب في كثير من الأمور. القلقشندي، م. ن.، ج٤، ص ٢٠.

(٤) أمير مجلس: إمرة مجلس وموضوعها يتحدث عن الأطباء والكحالين، ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحدًا. القلقشندي، م. ن.، ج٤، ص١٩.

(٥) نائب القلعة: النيابة ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل، وكافل الممالك الإسلاميّة يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلّم في التقاليد والتواقيع والمناشير، ولا يعلم الرجل منهم إلا على ما يتعلق بخاصة نيابته. القلقشندي، م. ن.، ج٤ ص١٧ .

(٦) سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة**، ص ٦٨؛ عرفة عبده علي، " الوظائف الرسمية بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧٠.

(٧) سماط: جمع أسمطة، كل ما يمد تحت أواني الطعام في المآدب، تردد ذكر هذا الاسم في كتب الأدب عند العرب للدلالة على الموائد الكبيرة التي كان الخلفاء والسلاطين يأمرون بمدها في المناسبات المختلفة كرأس السنة الهجرية والمولد النبوي وعيدي الأضحى والفطر، بهدف إبراز الصورة التي كانت عليها حياة البذخ عند العباسيين والفاطميين بشكل خاص. مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص ٢٥٨.

(٨) الجزيري، درر **الفرائد**، ص١٢٥؛ سميرة عمر، م. س.، ص١٠٣؛ عرفة عبده علي، م. س.، ص٧٠.

والرّاجح أنّ مراسم تعيين أمير الحجّ كانت من الحفلات الأساسيّة في عصر المماليك، وكان اختياره يتمُّ في حفلٍ رسمي كبير من قبل السلطان الّذي يخلع عليه الإمرة. وقد كان تكليفه ينطوي على أمرين: أحدهما سياسي بإضفاء الصفة الشرعيّة، فهو يمثّل السلطان في الحجاز، والآخر ديني، فهو قائد ركب الحجّ المصري. ويجب عليه التحلّي بالصفات الحسنة، من دراية وعلم واسعين وجدّية، من أجل التواصل الدائم مع الحجّاج لنشر الانضباط، وتأمين السلامة، وحل المنازعات، وفضّ المشكلات.

وكان للأمير أعوان يساعدونه على القيام بما عهد إليه؛ فمنهم الدوادار"[1] ووظيفته تبليغ الرسائل عن الأمير وإبلاغها إليه وتقديم الأوراق ليوقّع عليها، وكان يعيَّن لهذه الوظيفة من يصلح للقيام بها، كالشجعان من العسكر الّذين عرفوا بالعقل والمروءة والسياسة. ومنهم "كاتب ديوان إمرة الحجّ"، ويعيَّن بأمر السلطنة، وتنحصر وظيفته بقيد ما يرد على أمير الحجّ من الهدايا وغيرها؛ ومنهم "العسس" الذين يطوفون ليلاً مع الحجيج، يتعرّفون الأخبار، ويمنعون ما عساه يقع من الشجار[2].

وفي ما خصّ أمير الركب الشامي، كان يجري الاحتفال بتعيينه في دار السعادة، حيث يلبس الأمير "خلعة إمرة الحجّ" من قبل النائب، ولكن كثيرًا ما كان يستبدل به أمير آخر. وظلّت هذه الوظيفة طوال العهد المملوكي منوطةً بالأمراء والمماليك الّذين هم دون النائب في الرتبة[3]. وكان على أمير الحجّ القيام بعدة مهام إداريّة وقضائيّة ودينيّة واجتماعيّة وعسكريّة. سنتحدّث عنها بشكل مفصّل.

(١)- المهام الإداريّة والماليّة والقضائيّة

كان لأمير الحجّ أربع مهام رئيسيَّة تتعلق بإدارة القافلة بحكم وظيفته كقائد أعلى لها، هذا بجانب ترتيب عمليات شراء ونقل المؤن المرسلة مع القافلة، أو الّتي ترسل قبل رحيل القافلة إلى الحصون الواقعة على طول طريق الحجّ، والإشراف على توزيعها أثناء الرحلة، وفضّ النزاعات بين الحجّاج والنظر في شؤونهم الاجتماعيّة وإقامة الشعائر الدينيّة، وضمان حماية القافلة والحجيج.

---

(١) الدوادار: الدوادارية وفي هذه الوظيفة عدد من الأمراء والجند، وقد كانت في أيام الناصر محمد بن قلاوون وما تلاها ليس فيها أمير مقدم ألف، ثم آل الأمر إلى أن صار الأعلى منهم مقدّم ألف، ونائبه طبلخانه، وأوّل من استقر في وظيفة الدوادرية من الأمراء الألوف طغيتمر النجميّ في سلطنة الناصر حسن، ثم صار غالب من يليها ألوف. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٢٠.

(٢) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج٢، ص٣٠٠- ٣٠١.

(٣) R. tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.75.

وكان عليه تسلّم ونقل الإعانات النقديّة والعينيّة المرسلة سنويًّا من الخزانة المصريّة إلى أهالي الحرمين، والعمل على ترتيبها وتوزيعها أثناء إقامة القافلة في مكّة والمدينة. وكان عليه أيضًا توزيع الأتاوات النقديّة والعينيّة على شيوخ وأمراء البدو القاطنين على طول طريق الحجّ لتأمين الحماية للقافلة.

كما اضطلع أمير الحجّ بمهمّة فضّ المنازعات بين الحجّاج، حيث كان ينزل في كل محطّة من محطّات الحجّ، ويتعرّف على شكوى الحجّاج وما وقع بينهم من خلافات، فيصلح بينهم، وإن كانت الخصومة شرعيّةً أحال المتخاصمين إلى قاضي المحمل، وكان إذا دخل الحجّاج محطّةً ما أو منطقةً معينةً، ووقعت بينهم منازعات، جاز في هذه الحالة لأمير الحجّ أو حاكم المنطقة أن يحكم بين المتشاجرين، أما إذا كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد، فلا يحكم بينهم إلا حاكم البلد أو المنطقة.

(٢)- المهام الاجتماعيّة والدينيّة

كان على أمير الحجّ النظر في أمر الفقراء في القافلة، خصوصًا المشاة والمرضى، وتفقّد أحوالهم، والرفق بالحجّاج، فإن كان الوقت حارًا أو باردًا، صبر عن الرحيل حتى يعتدل الطقس، ويسلك بهم أوضح الطرق والمسالك، ولا يسير مرحلتين في مرحلة.

كما كان يجب عليه أن يلزم الحجّاج بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها، ولو بالجمع بين الصلاتين المجموعتين في وقت واحد، ولا يسمح لأحد أن يصلي صلاة الليل بالنهار وصلاة النهار بالليل[١].

(٣)- المهام العسكريّة

كانت من أهم اختصاصات أمير الحجّ، ضمان الحماية للحجّاج أثناء الرحلة، ويساعده في ذلك فرقة عسكريّة. فقد كان الحجّ المصري دائمًا بحاجة إلى حماية من القبائل العربيّة المنتشرة على طول الطريق من القاهرة إلى السويس من ناحية، ومن القبائل المعادية الضاربة في إقليم الحجاز من ناحية أخرى، ومن القراصنة المنتشرين في البحر الأحمر من ناحية ثالثة.

وعلاوةً على هذه الاختصاصات وتلك المسؤوليّة الّتي كان يتحمّلها أمير الحجّ تجاه الحجّاج، كانت هناك مسؤوليّة أخرى تنتظره في الحجاز، حيث النزاعات والخصومات لا تهدأ بين شريف مكّة ومنافسيه من الأشراف، وكانت السلطنة تتدخل عن طريق أمير الحجّ المصري في المشاحنات

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٨٩،٩١، ١٠٠،١٠٤؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة**، ص١٠٦-١٠٧؛ J. Jomier, "Amir al-Ḥādjdj", *EI*$_2$, vol.I, p.456.

بين أشراف مكّة، وذلك لأنّ الأمراء يهابون أمير الحجّ المصري ويقدّرونه؛ لأنه كان يقود معه إلى الحجاز قوةً عسكريّةً كبيرةً، كفيلةً بترجيح الجانب الّذي تنحاز إليه[١].

وكان أمير الحجّ المصريّ يمارس السيادة السياسيّة على بلاد الحجاز عن طريق عــاملين اثنين: هما، المحمل، وكسوة الكعبة الّتي كانت القاهرة ترسلهما سنويًا إلى الحرمين الشريفين، فضلاً عن توزيع الهدايا وتسليم الصرّة والفرمان السلطاني إلى شريف مكــة. وكــان أمــراء المماليــك يتسابقون في الحصول على هذه الوظيفة، لما كانت تدرّه عليهم من أموال، بالإضافة إلى ما كــان يجمع من السكان من أجل الركب[٢].

٣- إيرادات أميــر الحــجّ وعوائــده

كان لا بد لأمير الحجّ من إيرادات ماديّة تعينه على القيام بعمله، نذكر منها:

(١)- إيرادات من الخزينة المصرية

في عصر المماليك الجراكسة كان أمير الحجّ يحصل من الديوان السلطاني على أحد عشر ألف دينار، وكان له من الجمال الشعارة مائتان، ومن القمح ألف أردب، ومن الفول اثنا عشر ألف أردب ومن التشاريف أربع عشرة.

وفي سنة ١٤٦٦/٨٧١، زمن أمير الحجّ خاير بيك، جعل الحجيج ركبًا، وجعل عليه كذلك أميرًا واحدًا، وكانت المرتبات في زمنه ثمانية عشر ألفًا ومئتا دينار، منهــا ثمــن الجمــال، وقــد استمرت هذه المخصّصات لأمير الحجّ حتى منتصف القرن العاشــر الهجــري/الســادس عشــر الميلادي، وذلك حتى سنة ١٥٣٨/٩٥٤ [٣].

وكان أمير الحجّ كواحد من أمراء الطبلخانه يتسلّم من الخزينة المصــريّة راتبًــا ســنويًّا، بالإضافة إلى مدفوعات أخرى تسمى تسليمات، وتعطى له من الخزينة أيضًا لسدّ نفقــات المهــام المكلّف بها. وقد خصّص في ميزانية الخزينة ثلاثة أبواب لتمويل دخل أمراء الحجّ، وهي:

---

(١) سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص ١٠٨؛ C.Orhonlu, "Kārwān"(caravane), *EI*$_2$, vol.IV, p. 705 --707.

(٢) J.Jomier, "Amîr al- Ḥādjdj", *EI*$_2$, vol.I, p.456.

(٣) محمد بيومي، **مخصصات الحرمين الشريفين**، ص١٨٧- ١٨٨.

- **المساعدة القديمة**

لقد بلغ دخل أمير الحجّ من هذه المساعدة الّتي تتحملها الخزينة المصريّة بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي مائةً وخمسين ألف دينار، وذلك لازدياد مصروفات الرسوم الّتي كانت تدفع للبدو على طول طريق الحجّ[١].

- **المساعدات الجديدة (ضريبة المضاف)**

المضاف ضريبة إضافيّة كانت تفرض في بعض السنوات لسدّ العجز الّذي يحدث في الخزينة، وكان هناك نوعان من المضاف، مضاف مؤقت يفرض لظروف طارئة تستدعي فرضه، ثمّ يلغى بزوال هذه الظروف، ومضاف ثابت يضاف إلى دخل الخزينة ويصبح جزءًا منها. والمضاف الّذي زوّد به أمير الحجّ مضاف ثابت، أضيف، إلى الخزينة لتوفير مبالغ إضافيّة لمساعدة أمراء الحجّ في سدّ كل ما يستجدّ من احتياجات.

- **مساعدة الأوقاف**

كانت المبالغ الّتي تأتي من هذه المساعدة عبارة عن تسهيلات تقوم بها الخزينة بضمان وقف بعض القرى وتحصيل التزامها لحساب الخزينة، ثمّ تحويل مداخيل هذه الأوقاف إلى أمراء الحجّ[٢].

(٢)-ايرادات عينيّة

علاوة على هذه الإيرادات النقديّة الّتي خصّصت لأمير الحجّ من الخزينة المصريّة، كان له أيضاً إيرادات عينيّة من الخزينة، بلغ مقدارها من الغلال ستة آلاف "أردب" (وهو مكيال ضخم يستعمل في مصر لتقدير الحبوب)، من القمح ألفا أردب، ومن الفول أربعة آلاف أردب، وكانت له أيضًا التشاريف الخاصّة، وعددها خمس تشاريف كل سنة، وكذلك التشاريف الّتي كان ملزمًا بها للعربان كأمير حجّ، وهي مائة وسبع وعشرون جوخة، ومائة وخمس ملاليط [٣] [٤]. ففي بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، خصّ لإعانة أمير الحجّ المصري ثمانية عشر ألفًا ومئتا دينار منها ثمن الجمال، ثمّ تضاءلت المخصّصات النقديّة إلى أربعة عشر ألف دينار ابتداءً من سنة ٩٥٤/١٥٤٧[٥].

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٤٣٣.

(٢) سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة**، ص١١٠.

(٣) ملوطة: جمع ملاليط، وهي لباس مثل العباءة، غالبًا ما تكون غير مزررة، كان يلبسها الرجال والنساء في العصر العباسي. مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص٤٠٨؛ R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.II, p.613.

(٤) سميرة عمر، م. س.، ص ١١٢– ١١٣.

(٥) محمد بيومي، **مخصّصات الحرمين الشريفين**، ص ١٨٨.

(٣)- إيردات من ضريبة الحماية على البن والبهارات

فرض أمراء الحجّ ضريبة عُرفت بضريبة الحماية على البن والبهارات الّتي كانت تمرّ في الطريق بين السويس والقاهرة، بلغت قيمتها قطعة ذهب واحدة على كل فردة من البن والتوابل[١]. وهكذا أصبح دخل أمير الحجّ من الخزينة المصريّة، وكذلك من الالتزامات الأخرى، في ازدياد مستمر، نظرًا إلى ازدياد متطلبّاته.

(٤)- ايرادات مقرّرة على أمير مكّة وينبع

كان لأمير الحجّ عوائد نقديّة على أمير مكّة وينبع[٢]، تقدّر بمبلغ ألفي دينار في السنة، منها على أمير ينبع أربعمائة دينار، والباقي ألف وستمائة دينار على أمير مكّة، وقد بلغت مقرّرات مكّة سنة ١٤٩٠/٨٩٦ خمسة آلاف دينار، وكذلك كان له عليهما عوائد عينيّة، فكان له على أمير مكّة من الأغنام مئتان واثنان وسبعون رأسًا، وعلى أمير ينبع من الأغنام مئتان واثنان وثلاثون رأسًا، وقد ظلت هذه المخصّصات لأمير الحجّ حتى سنة١٥٤٧/٩٥٤[٣].

(٥) – إيرادات من موارد متنوّعة

وعلاوةً على هذه الإيرادات السابقة التي كان أمير الحجّ يحصل عليها، فقد نال إيرادات أخرى أيضًا من موارد متنوّعة، وتلك الإيرادات الأخيرة كانت تعود عليه بالفائدة الشخصيّة دون غيره من الحجّاج؛ فكان يستفيد ممن يدفع إليه مقابل تقديمه الأغذية للجمال التي تحمل مختلف البضائع في طريق العودة، والأغذية الّتي تكون قد شحنت قبل سفر القافلة بمعرفته إلى مكّة عن طريق البحر، وكان يحصل على مبالغ ضخمة من التجار أيضًا نظير تأجيره الجمال لهم لتحمل بضائعهم[٤].

وكذلك كان أمير الحجّ يستولي على كل ما يتركه الحجّاج الّذين يتوفّون في طريق الذهاب والإياب دون وجود وريث لهم، ويستحوذ على عُشْرِ ما يتركه الحجّاج الّذين يتوفّون ولهم وريث شرعي، وكان التجّار من الحجّاج في مكّة الّذين يرغبون في البقاء بضعة أيّام زيادة عن الأيّام المحدّدة للبقاء هناك، يقدّمون الهدايا لأمير الحجّ لكي يؤخر سفر القافلة حتى يتمكّنوا من إنهاء أعمالهم التجاريّة[٥].

---

(١) فؤاد الماوي، **العلاقات الاقتصادية**، ص١٣ – ١٤ ، ٢٧ .

(٢) ينبع: موضع بين مكّة والمدينة، وهي قريبة من طريق الحجّ الشامي. ياقوت الحموي ، **معجم البلدان** ، مج٥ ، ص٤٥٠.

(٣) الجزيري، درر الفرائد، ص ٤٤٣؛ محمد بيومي، **مخصّصات الحرمين**، ص ١٩٢– ١٩٣.

(٤) J.Jomier, *Le Mahmal*, p.129-130.

(٥) J.Jomier , *Ibid*, p. 130 -131 .

ورغم ضخامة الإيرادات الّتي كان أمير الحجّ يحصل عليها من مصادر مختلفة، فقد كانت لا تعود عليه بنفع كبير، إذ كان ملزمًا باكتراء المماليك والمغاربة الّذين يشتركون في حراسة القافلة، كما كان عليه تقديم المكوس للقبائل[١].

هكذا كانت مهمّة أمير الحجّ مسؤوليّةً كبيرةً نحو القافلة والحجّاج، وهي من أخطر المهام، إذ كان مصيره يتوقف على نجاحه أو فشله في النهوض بتلك المسؤوليّة. والراجح أنّ منصب إمارة الحجّ كان من المناصب المهمّة والمقدّرة زمن المماليك.

ب- موظفو قافلة الحجّ

اشتملت قافلة الحجّ على العديد من الموظفين، للقيام بالمهام المتنوعة المتعلقة بالقافلة، منهم من اختصّ بمعاونة أمير الحجّ، ومنهم من اختصّ بتأدية الخدمات للقافلة، واختصّ آخرون بأمور الجمال. وهم هؤلاء الموظفون:

١- الدوادار أو معاون أمير الحجّ

كان بمقام نائب أمير الحجّ ومستشاره، وللدوادار الحق في أنه إذا رأى من الأمير خللاً في أقواله وأفعاله، أن يراجعه في ذلك.

وكان تعيين الدوادار يتمّ من العسكر، وذلك طبقًا لشروط وصفات معيّنة، منها: الرويّة، والسياسة في الأمور، والشجاعة، والفروسيّة، والمعرفة. وهناك من الدوادارية من تخلّى عن تلك الصفات، فقد أخذ بعضهم الرشوة، واعتبروا ذلك من أعظم منافعهم الوظيفيّة، ومنهم من اشترك مع اللصوص والمختلسين في إلحاق الأذى بالقافلة، كما لجأ بعضهم إلى نهب صرر العربان المقرّرة لهم من الميرة[٢].

وكان للدوادار عوائد على أمير الحجّ، وهي قفطان مذهّب عند وفائه بخدمته، كما كان له عوائد على أمير مكّة وأمير ينبع، فكان له على أمير مكّة من النقد ما قدره مائة دينار، وبعض الأغنام حسب حسن قيامه بوظيفته، وله على أمير ينبع ما قدره ثلاثون دينارًا، وقد تصل إلى خمسين دينارًا في بعض الأحيان، وكذلك عشرة أغنام[٣].

٢- قاضي المحمل

كان أمير الحجّ يتولّى تعيينه من بين قضاة المذاهب الأربعة. وكان بمثابة حاكم شرعي يقضي بين الحجّاج في ما يختلفون فيه، ويضطلع بمهمّة إرشاد الحجيج في ما يتعلّق بالإحرام

---

(١) J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.133.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص١١٨؛ عرفة عبده علي، "الوظائف الرسمية بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧١.

(٣) الجزيري، م. س.، ص١٢١.

والمناسك، وفرض العقوبة الشرعيّة على من يرتكب أي عمل مخالف. لقد كان بمقام حاكم شرعي يتعاطى الأحكام الدينيّة. ويذكر ابن إياس[١] أنه سنة ١٥١٧/٩٢٣، حجّ من الأعيان قاضي القضاة المالكي محيي الدين بن الدميري، فألبسه خاير بيك قفطان مخمل مزهرًا، وقرره قاضي المحمل[٢].

وعن عوائد قاضي المحمل، فقد بلغت من الديوان الشريف ما قدره أربعمائة ونصف مثقال من الفضة، وقفطان يسلّم إليه يوم خروج القافلة من القاهرة، وكان له على أمير الحجّ من الطعام اليومي عليقة لبغلته، وله ببركة الحجّ ثلاثة قوالب سكر أو أربعة ومن الحلوى كذلك[٣].

ويبدو أنّ القضاة كانوا يمثلون طبقة الحكام الشرعيين للأحكام الدينيّة في قافلة الحجّ، وكانوا ملزمين بأن يراعوا مبادىء النزاهة وقواعد العدل والمساواة في فرض العقوبات الّتي يستحقّها مرتكبو الجرائم على الدرب وفي أرض المناسك، خوفًا من التعرض للمحاكمة من قبل السلطان المملوكي بعد العودة من مكّة.

٣- شهود المحمل

وهما اثنان من أهل الخبرة والعدالة، يتم تعيينهما من قبل قاضي المحمل، وعليهما أن يشهدا على العقود الموقّعة تحت إشراف القاضي، ولا يعزلان إلا بمرض أو موت لأجل حفظ الوقائع على تعاقب السنين، ليكون سجلّ الحكم مضبوطًا ومحفوظًا لما يرد من الكشف والتحرير، لئلا تضيع أمور المسلمين. وأشهر من تولّى أمر شهادة المحمل لأكثر من عشرين سنة، الشيخ الجزيري الأنصاري[٤].

٤- الإمام والمؤذّن

كان يفضّل أن يكون الإمام عالمًا بالوقت، ميقاتيًا، وله معرفة بتحديد القبلة في بعض المراحل، وضبط مسير الركب. أما المؤذن، فيرفع الأذان في أوقات الصلوات الخمس. وكان الإمام والمؤذن يقومان بواجباتهما الدينيّة طوال طريق الرحلة، وفي عرفات والمزدلفة ومنى، أما في مكّة والمدينة، فكانا يتخلّيان عن مهمتهما للأئمّة والمؤذّنين المحلّيين .

---

(١) ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، (٩٣٠/١٥٢٤)، مؤرخ وباحث مصري من المماليك. كان أبوه أحمد متصلاً بالأمراء ورجال الدولة، وكان صاحب الترجمة من تلاميذ جلال الدين السيوطي، له تاريخ ابن إياس المسمى **بدائع الزهور في وقائع الدهور**. ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص ٢٦٣.

(٢) ابن إياس، م. ن.، ج٥، ص٢١٩؛ عرفة عبده علي، "الوظائف الرسمية بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧١.

(٣) الجزيري، درر الفرائد، ص١٢٣.

(٤) الجزيري، م. ن.، ص ١١٧، ١٢١، ١٢٤؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص ١٧٨- ١٧٩؛ J.Jomier, *Le Mahmal*, p. 108, 110-111.

ومن المؤكّد أنّ وجود الإمام والمؤذن كان ضروريًا على طريــق الحــجّ، وداخــل بــلاد الحجاز. فدورهما الديني كبير لإرشاد الحجّاج وتوعيتهم وتوجيههم للقيام بالواجبات الدينيّة وتأديــة الصلاة في أوقاتها؛ وكان الواجب يقتضي توافر المواصفات الدينيّة والأخلاقيّة والنفسيّة في ســلوك الإمام والمؤذن، لإدارة القافلة وطاقمها البشري المتنوّع الجنسيّات والفئات. وهنا تكمن المســؤوليّة المطلوبة والوعي والإدراك، لتلافي الخلافات الّتي قد تنشب نتيجة جهل بعــض الحجــيج خــلال ممارسات واجبهم الديني[1].

٥- ناظر المواريث الشرعيّة

كان ناظر المواريث الشرعيّة مسؤولاً رسميًا عن ممتلكات الحجيج الّذين تــوافيهم المنيّــة أثناء الرحلة أو في مكّة والمدينة، يحتفظ بسجلّ للوفيات. ويعود ارتفاع نسبة الوفيات إلى الكوارث الطبيعيّة، كالفيضانات، وارتفاع درجة الحرارة، والجفاف، والعطش، والطاعون، كما يعــود إلــى أسباب أخرى، مثل غارات العربان، وقطّاع الطرق، وكبر السن.

وتظهر صورة ناظر المواريث الشرعيّة بشكل واضح، إذا عرفنا أنه المسؤول الرسمي عن أموال الحجّاج وممتلكاتهم، ولديه سجلّ خاص بالوفيات، وهنا تبدو أهميّته ودوره، وكيفيّة معالجتــه للأمور المستجدة، ولا سيّما الوفاة[2].

٦- ناظر السبيــل

كان كثير من الحجّاج يسافرون مع القافلة دون أن يكون عندهم القدرة على توفير حاجاتهم. ولمساعدة مثل هؤلاء، كان سلاطين المماليك يزوّدون القافلة بالاحتياجات والمــؤن الخاصّــة مــن الأموال الخيريّة الّتي كان يطلق عليها "السبيل". لذلك كان لزامًا اختيار مسؤول رسمي ليتولّى هــذه المهمّة. ومثلما كان متّبعًا بالنسبة إلى القاضي، فقد كان اختيار ناظر السبيل يتمّ من بــين القضــاة الأربعة في القاهرة. ويصدر مرسوم من ديوان الإنشاء بتعيينه، وكان من مهامه تقديم الطعام والماء والأدوية لفقراء القافلة[3].

وتبدو مهمّة ناظر السبيل اجتماعيّةً وإنسانيّةً على مستوى المحتاجين والمعوزين والفقــراء المنقطعين الّذين لا حول لهم ولا قوة، على اعتبار أن انتخاب القاضي وتصنيفه يتمّ بمرسوم رسميّ وفقًا للشرع؛ فللقاضي مكانة رفيعة، وقد أسندت إليه وظيفة، من مواصــفاتها الشــهامة والمــروءة والأخلاق السامية والضمير الحي والعقل المنير والقلب الرؤوف؛ لأن أي خلل قد يحصل، يمكن أن

---

(١) الجزيري، درر الفرائد، ص١٥٧.

(٢) عرفة عبده علي، "الوظائف الرسمية بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧٢.

(٣) عرفة عبده علي، م. ن.، ص٧٢.

يترك وراءه آثارًا سلبيّة قد تؤدي إلى التسبب بوفاة عدد من الحجّاج، الّذين قد يكونون بحاجة ماسة إلى دواء أو ماء. فالأخلاق الحسنة تساعد على حلّ المشكلات، بينما القهر والحقد والضغينة تزيد في تفاقم الأمور وصعوبة فضّها. وهذا ما يجب أن يتحلى به ناظر السبيل من حسن تصرف وشجاعة، فيكون على أتمّ الاستعداد لنصرة المظلوم، وتقديم العون إلى المعوزين دون تباطؤ أو تهرّب من أداء الواجب الإنساني والديني.

٧- التجريدة العسكريّة

يصحب الركب المصري خمسمائة من فرسان المماليك، يرأسهم أربعة عشر سنجقًا أو قائدًا، وهؤلاء القادة يرأسهم أمير الحجّ، وكانت فرقة المماليك هذه تتولّى حراسة المحمل والقافلة وتأمينها طوال الطريق، وعند وصولهم إلى الحجاز، يتولّون قيادة قلعة المدينة.

وقد تتعرّض التّجريدة العسكريّة الّتي تتولّى حراسة القافلة لهجوم من قبل البدو المرابطين على محطّات الحجّ، فيصبح هؤلاء العساكر متطوعين للدفاع عن شؤون الركب وتأمين السلامة للحجّاج، إذ تقع على عاتقهم مسؤوليّة تضرر أي فرد من الجهاز البشري الخاص بالقافلة. فهم العين الساهرة واليقظة على حماية الركب من تسلل اللصوص خلال الليل للسرقة والنهب والتسبب بموت الغفير والبعير[١].

٨- المحتسب المالي

يختصُ بالشؤون المالية، كدفع مخصّصات الحرمين، ورواتب الأشراف، وأرباب الوظائف الدينيّة والإداريّة بمكّة والمدينة، والمجاورين، ومخصّصات الحاميات بالقلاع والحصون على درب الحجّ، فضلاً عن نفقات الرحلة نفسها.

وكان المحتسب المالي يتولّى دفع نفقات الرحلة ومخصّصاتها، وكثيرًا ما كانت حياته تتعرّض للخطر خلال الطريق، وكان يشرف على صرف الأموال، كما كانت المستحقات تُدفَع بناء على تعليماته، وهذا ما كان يسبّب له حرجًا أحيانًا نتيجة طمع بعض المنافسين وجشعهم، أو كانوا يسلبونه ما في حوزته. وغالبًا ما تعرّض صاحب الوظيفة الماليّة للهجوم والسرقة والقتل[٢].

٩- كاتب ديوان إمارة الحجّ

يتولى كاتب ديوان إمارة الحجّ تدوين رسائل أمير الحجّ وأوامره. وصاحب هذه الوظيفة يتغيَّر بعزل أمير الحجّ عن وظيفته.

---

(١) عرفة عبده علي،"الوظائف الرسميّة بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧٢.

(٢) عرفة عبده علي، م. ن.، ص٧٢.

والراجح أن كاتب رسائل أمير الحجّ يتأرجح مركزه ويهتزُّ أمام أي خطر يتعرَّض له الأمير، سواء عند عزله، أو في نهاية إمرته، وهذا أمر طبيعي، لأنّ الكاتب يكون على اطّلاع واسع على الشؤون السياسيّة والإداريّة كافةً، وعلى علم تام بأمور البلاد وأسرارها، وربما أدى استمرازه في وظيفته إلى تقصير في الواجبات، وافتعال نزاعات واضطرابات قد تعكّر صفو حكم الأمير الجديد.

١٠- كاتب الصرّة

هو المسؤول الثّاني بعد أمير الحجّ أمام السلطان في ما خصّ صرّة الحرمين، وكان يتحتَّم عليه تقديمها إلى مستحقيها، موقّعًا عليها من أمير الحجّ. وكان يشترط عليه أن يشتهر بالأمانة والنزاهة، وحسن التدبير في كتاباته، ومباشرته وظيفته، وتنظيمه الحسابات، كما كان يجب عليه أيضًا حضور الجلسات المنعقدة سنويًا ببركة الحجّ، كصراف الصرّة، للإشهاد على ما كان يتسلّمه أمير الحجّ من صرر عينيّة ونقديّة[١].

والرّاجح أنّ كاتب الصرّة كان مشهورًا بالأمانة، وحسن الإدارة، وتنظيم الجداول والبيانات والحسابات، ذلك أنّ رحلة الحجّ كانت تقتضي مصاريف ضخمةً، ومن المفترض أن يكون المسؤول عنها متمتّعًا بالشفافية والوضوح والصدق. أمّا رتبته، فتأتي بعد أمير الحجّ مباشرةً. وتجدر الإشارة إلى أنّه كان هناك قوانين وقواعد مالية على كاتب الصرّة أن يصونها ويحافظ عليها من العبث، ويبدو أنّ هذه الوظيفة كانت في بعض الأحيان تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء.

١١- صرّاف الصرّة

تولّى هذه الوظيفة عدد من العلماء والأعيان، وصاحبها مسؤول عن صرف الأموال المقرَّرة لأصحابها؛ فيقوم بتوزيعها كما ورد بالحجج والوثائق. وكان من أهم اختصاصات الصرّاف، صرف الصرر المقررة للعربان، ولأهالي مكّة والمدينة، وكذلك صرف ما يلزم شراؤه لمؤونة العساكر والجمال والبغال، كما يجب عليه أن يحضر الجلسة المنعقدة سنويًا ببركة الحجّ، والخاصّة بتسليم صرّة الحرمين الشريفين لأمير الحجّ، وذلك للإشهاد والاطّلاع على ما يتسلّمه أمير الحجّ من صرر والاعتراف الشرعي بذلك[٢]. ومن المحتمل أن يكون صرّاف الصرّة على علم بشؤون المال وتنظيمه، كي يستطيع القيام بمهامه خير قيام؛ لأنّ عدم دفع المستحقّات في أوقاتها يعرِّض المسؤول عنها للمحاكمة والعقاب عند التقصير أو الإهمال.

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ١٢٦؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص١٨٣؛ عرفة عبده علي،"الوظائف الرسميّة بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، ص ٧٢ .

(٢) سميرة عمر، م. س.، ص ١٨٢؛ عرفة عبده علي، م. س.، ص ٧٢.

١٢- الفريـق الطبـي

كان الفريق الطبّي يتكوّن من طبيبٍ وجرّاح واختصاصيّ عيون، وطبيب بيطري، ومغسّلين للأموات. وكان يحمل نوعياتٍ مختلفةً من العقاقير والأدوية لعلاج الحجّاج بالمجّان. وكانت جميـع المصاريف على أمير الحجّ، ويقتصر طلب أمير الركب علـى شـيء مـن وقـف البيمارسـتان المنصوري من بعض الأكحال والأشيافات[1] والدرياق[2] والسفوفات[3] بقدر الحاجة[4].

ويبدو أنّ القيّمين على تنظيم القافلة وتجهيزها كانوا على مستوى عالٍ من المعرفة والدراية لتأهيلها وتزويدها بالعلاجات اللازمة والضروريّة لمرضى الحجّ والمعوزين الّذين يحتـاجون إلـى أدوية لأمراض قد تكون خطيرةً، علاوةً على إعداد مغسّلين للأموات. هذا الأمـر عكـس عنايـة المماليك واهتمامهم بالحجّ، ولا سيّما من الناحية الطبيّة، وساهم في نشر الطمأنينة بـين الحجّـاج المرضى والمحتاجين، ودبّ الحماسة في قلوبهم لأداء الفريضة.

١٣- المبشّـرون بالـدار

كان للمبشّرين بالدار معرفةٌ دقيقةٌ بالطرق، وكانوا يعلمون الحجّاج مسبقًا عن وصولهم إلى المحطّات المختلفة على طول الطريق .

وكان المبشرون بالدار على دراية بدرب الحجّ ومعالمه، وهم بمقام أدلاّء يخبرون الحجّاج قبل وصولهم عن مراكز التجمع .

١٤- مبشّـر الحـجّ مـن جبـل عرفـات

كان المبشّر يغادر مكّة دائمًا في العاشر من ذي الحجّة، ليصل القاهرة خلال خمسة عشـر يومًا. ويشتمل التقرير الّذي يعدّه عادة على معلومات عن الحالة العامّة بمكّة، وحال الطقـس بهـا، وأسعار السوق، ومعاملة الشرفاء لأمير الحجّ المصري، وأماكن القوافل اليمنيّة والعراقيّة، والحالـة العامّة للحجّاج المصريين. ويختار المبشّر كقاعدة عامّة من بين كتائب المماليك الّذين يعملون فـي خدمة أمير الحجّ، وفي سنة ١٤٥٢/٨٥٦ اختار أمير الحجّ الدوادار الأوّل، الّذي كان هو نفسه قائد قافلة المقدمة مبشّرًا.

ويبدو أن مبشّر الحجّ كان يقوم بدور رئيسي وفعّال زمن المماليك، ومنه تتوضّح صـورة الحجّ وحالته، وبشارته تختلف قيمتها نتيجة الأخبار الّتي يرويها عن الحجيج وأوضاعهم. ومهمـا

---

(١) الأشيافات: مفردها شيف وهي نوع من التحاميل. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص١٥٤، " شف".

(٢) الدرياق أو ترياق: دواء مركب يدفع السموم. ابن منظور، م. ن.، ج٤، ص٣٣٣، "ترق".

(٣) السفوفات: مفردها سفوف كل دواء يؤخذ غير ملتوت ولا معجون. ابن منظور، م. ن.، ج٦، ص ٢٨٢، "سفف".

(٤) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ١٥٨.

يكن من أمر، فرسالته تبعث الاطمئنان عند الأهل والأقارب والأصحاب، وعلى قدر نجاحه في مهمّته تتحدّد مكافأته.

١٥- الأدلاّء

كان يسافر على رأس قوافل الحجّاج المصريّة، مجموعة من المرشدين من الّذين على دراية ومعرفة دقيقتين بالطرق الصحراويّة، وقد انحصر واجبهم في قيادة القوافل على طول الطريق من القاهرة إلى الدّيار المباركة وعلى العودة منها، وكان هذا المنصب وراثيًا [١].

ولعلّ الأدلاء شكّلوا فريقًا متجانسًا من أهل الخبرة بالطرق الصحراويّة، فعملهم صعب ودقيق، بحيث إن إعطاء أية إشارة خاطئة أو معلومة مغلوطة عن وجهة ما، قد تؤدي إلى مخاطر لا تحمد عقباها.

ج- الموظفون المختصّون بخدمة القافلة

١- أمير آخور المحمل

ثمّة أربعة موظفين على الأقل يحملون لقب أمير آخور في القافلة؛ الأوّل يشرف على عليق الخيول وسقيهم وأحوالهم ونعالاتهم في إسطبل أمير الحجّ، وفي الغالب يكون منفردًا، وأما إمرة آخورية الجمال، فتنقسم إلى جمال النفر، والمشرف عليها يكون أمير آخور الكبير، وعلى سائر الجمال الحاملة، لينظر في حال برك جمل أو نفق، ويقف عليه حتى ينقل حمله إلى غيره ويعلم أثر داغه [٢]، بينما الآخرون مسؤولون بصفة عامّة عن الجمال الّتي تنقل المؤونة والمعدات الّتي تصاحب أمير الحجّ[٣]. ويبدو أنّ عمل المماليك شمل القائمين على خدمة القافلة أيضًا، حرصًا على توفير الراحة للحجّاج، والاهتمام بالدوابّ والجمال طيلة الرحلة إلى مكّة.

٢- شاد السنيح

هو ما يسمى في اللغة التركية بالكلارجي[٤]. ويتم اختياره من مماليك الأمراء أو الجند، ممن يعتقد فيهم الأمانة والنصيحة وحسن الدراية والسياسة، ولا بدّ من ألا يكون مبذّرًا، فيضيّع مأكولات السنيح وهو الأمين عليها، وألا يكون ممسكًا فلا يوفّي النّاس حسابهم وحقوقهم المقرّرة

---

(١) الجزيري، درر الفرائد، ص١٧٢- ١٧٣؛ عرفة عبده علي، " الوظائف الرسمية بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، مجلة الحجّ والعمرة، العدد الثالث، ص٧٢.

(٢) الداغ: الدغمة والدغم من ألوان الخيل، أن يضرب وجهه وجحافله إلى السواد مخالفًا للون سائر جسده، ويكون وجهه ما يلي جحافله أشدّ سوادًا من سائر جسده. ابن منظور، لسان العرب، ج٤، ص ٣٦٦، "دغم".

(٣) الجزيري، م. س.، ص١٢٣؛ سميرة عمر، إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة، ص٢١١- ٢١٢.

(٤) الكلارجي: نسبة إلى الكلار، والكلار في اللغة العثمانية، بيت صغير يشبه بيت المؤونة، وكلارجي هو محافظ مخزن المؤونة. محمد بيومي، مخصّصات الحرمين الشريفين، ص٢١٠.

عن الديوان، ولا يختلس أشياء لنفسه على الحرام والخيانة؛ خصوصًا إذا لم يكن هناك من يرقبه. ويعمل تحت رئاسة شاد السنيح وكيل وموظفون[١].

٣- الطبّاخون

يدعى كبيرهم المعلم، وكانوا يختصون بطهي الطعام وتوزيعه على الحجيج، وهم كثيرو التحمل للمشاق، ويرتدون الثياب الرديئة، ويعرفون بدماثة أخلاقهم، يسيرون مع النفير، وإذا قصد الركب الراحة، قاموا في جمع الطعام وتفرقته على النّاس، فهم أكثر أهل الركب تعبًا، وأقلهم من الدنيا أربًا.

ويبدو أن الطبّاخ كان قنوعًا وصبورًا على تحمّل الصعاب ومهالك الطريق لتأدية مهمّته، وهذا أمر بديهيّ؛ فكلّما تدنّت رتبة موظف القافلة، صعب عمله من الناحية الجسديّة.

٤- شاد السقّائين

هو من الأتراك عادةً، يكون مشرفًا على ملء القرب في المناهل[٢]، والدفاع عن السقّائين في الزحام. يتبعه السقّاؤون، وهم الذين يحملون المياه العذبة ويتصدرون موكب المحمل، ومنهم من كان يسبق قافلة الحجّ، لملء الأحواض وإقامة الخيام حيث يقومون بحمايتها، وتوزيع الماء على الحجّاج[٣].

وكان شاد السقائين مسؤولاً عن المناهل الّتي على طريق الحجّ، ودوره ينحصر في مساعدة الحجّاج على ملء القرب.

٥- شاد المحمل

يختصُّ بتنظيم الطريق للمحمل في المضايق وتسهيلها عند الازدحام والاصطدام، وكان يشترط فيمن يتولّى هذه الوظيفة أن يكون من أهل الكفاءة والمهابة، لكي يقوم بواجبه نحو المحمل على أكمل وجه. والمرجح أنّ شاد المحمل كان بمقام الدليل والمرشد لتذليل الصعاب عند الازدحام.

٦- مقدّم المشاعلية

كان مقدّم المشاعلية يشرف على حملة المشاعل، إنهم حملة المشاعل في المواكب، يضيئون الطريق أثناء السفر في الليالي المظلمة بمشاعلهم. ويعرف القائمون بهذه المهمّة بالضوئية أو

---

(١) الجزيري، درر **الفرائد**، ص ١٣٥؛ محمد بيومي، م. س.، ص ٢١١؛ عرفة عبده علي، "الوظائف الرسميّة بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧٢.

(٢) المناهل: الموضع الذي فيه المشرب. ابن منظور، م. س.، ج١٤، ص ٣١٠، " نهل".

(٣) الجزيري، م. س.، ص ١٣٦- ١٣٧، ١٦٣؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص ١٨٥-١٨٧؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.114, 119.

المشاعلية، وكانوا يستعملون بصفة رسميّة أربعة وعشرين مشعلاً للقافلة، منها خمسة مشاعل تضاء بالزيت والباقي بالخشب. ومن بين أتباع المقدم السيّاف والمبيت، وكانت واجبات الأخير تنحصر في نشر تعليمات الأمير بين الحجّاج، والتنبيه المنتظم أثناء الليل عند توقف القافلة بالمحطّات على طول الطريق، لإبلاغ الحجّاج عن الحالة العامّة للمحطّة، وعما إذا كان هناك ضرورة لاتخاذ احتياطات إضافيّة لحماية جمالهم وممتلكاتهم الشخصيّة(١).

وكانت مسؤوليّة المشاعلي كبيرةً في العصر المملوكي، فعليه تجميع الخشب وتحضيره في المطبخ لإيقاده عند اللزوم تنبيهًا لخطر قد يتعرض له الحجيج، ولا سيّما أثناء الليل. أما المشقّة والصعوبة في عمله، فتبرز إذا كان الطقس شديد البرودة شتاءً، أو شديد الحرارة صيفًا.

٧- مهتار الطشتخانه(٢)

كانت هذه الوظيفة من الوظائف المهمّة أثناء حكم المماليك الشراكسة، يختص عمل صاحبها بإحضار الماء للوضوء وغسل الأيدي عند الاحتياج، كما كان مهتار الطشتخانه مسؤولاً عن الملابس الرسميّة والعباءات، والأثواب الّتي يحملها أمير الحجّ لإهدائها إلى رؤساء بعض القبائل على طول طريق الرحلة، وإلى أمراء مكّة والمدينة وقضاتها، وإلى أمير ينبع، وهكذا، حتى يصل الركب إلى أبواب الحرمين، وإضافة على ذلك كان للمهتار الطشتخانه عادة عرفيّة على جوخ العربان بلغ مقدارها نصفين على كل جوخة ثمّ تمادى الأمر بالمهتار وأتباعه فصاروا يأخذون على الجوخة عشرة أنصاف فضة(٣).

٨- مهتار الشرابخانه(٤)

كان مهتار الشرابخانه يتولّى الإشراف على أمر المشروب، فكان عليه تبريد الماء في أوقات الحر، ومزجه بالسكّر وتقديمه إلى الحجّاج، كما كان عليه الإشراف على الأوعية الفضيّة

---

(١) الجزيري ، **درر الفرائد**، ص١٤٨- ١٤٩؛ عرفة عبده علي، "الوظائف الرسميّة بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧٣.

(٢) المهتار: معناه بالفارسية الكبير، وهو لقب يطلق على كبير كل طائفة من غلمان البيوت، كمهتار الشرابخانه، ومهتار الطشتخانه، ومهتار الركابخانه. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٥، ص٤٧٠ .

أما الطشتخانه، فمعناه بيت الطشت، سميّت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذي تغسل فيه الأيدي، والطشت الذي يغسل منه القماش. وفي الطشتخانه يكون ما يلبسه السلطان من الأقبية وسائر الثياب والسيف والخف والسرموزه وغير ذلك. القلقشندي، م. ن.، ج٤، ص١٠.

(٣) الجزيري، م. س.، ص ١٥٨- ١٥٩؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص١٨٨؛ عرفة عبده علي، م. س. ص٧٣.

(٤) الشرابخانه: معناها بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان، والمشروب الخاص من السكّر. القلقشندي، م. س.، ج٤، ص١٠.

والخزفيّة الخاصّة بالشراب، وكان نصيبه من العوائد خمسة وعشرين دينارًا. ولكن لا ندري على وجه الدقّة، هل اقتصرت وظيفة مهتار الشرابخانه على أمير الحجّ وأعوانه والحجّاج الذين يدفعون مالاً لقاء ذلك، أم شمل عمله الحجيج جميعًا؟

٩- مهتار الفراشخانه [١]

كان مهتار الفراشخانه وأتباعه من الفرّاشين من البيوتات المهمّة بديوان إمرة الحجّ، لأنه يشتمل على أنواع الخيام الخاصّة بقافلة الحجّ. وللفراشين دراية عظيمة في نصب الخيام وطيّها، ولهم معرفة تامّة بشد الأحمال الّتي تحمل في المواكب على ظهور البغال. وقد جرت العادة أن يتقدّم الفراشون وأتباعهم من حرس القافلة، وذلك بغرض الوصول في وقت مبكر، ونصب الخيام قبل وصول الحجيج. وكان من هذه الخيام ما هو خاص بأمير الحجّ.

ويبدو أنّ ديوان إمرة الحجّ في عصر المماليك كان منظّمًا، بحيث شمل وظيفة المهتار فراشخانه أيضًا، وهو ملزَمٌ بإعداد الخيم وطيّها وفرشها، بطريقة منظّمة ومرتّبة، حتى يترك المجال لأحمال أخرى.

١٠- الزردكاش[٢]

الزردكاش هو المسؤول عن الأسلحة في القافلة، وما تحتاج إليه من آلات الحرب، وله من العوائد ما قدره ثلاثمائة نصف فضة كل سنة، وكان تحت إشرافه مسؤول يسمى النفطي أو البارودي، الذي كان واجبه إعداد الأسلحة الناريّة لتوزيعها في محطات معيّنة على طول الطريق إلى منى[٣].

كان الزردكاش يتولّى الدفاع عن أمن القافلة، ويجهّز الأسلحة الأساسيّة لتفريقها على مراكز محدّدة، للتصدي لأيّ خطر محتمل، ويبدو أن وظيفة الزردكاش كانت في غاية الصعوبة إذا لم يكن من يقوم بها يتقن شؤون فن الحرب.

---

(١) الفراشخانه: معناها بيت الفراش، تشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام ، ولها مهتار يعرف بمهتار الفرا شخانه. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص١٠ .

(٢) الزردكاش: يقال له أيضًا الجبة جي من التركية "جبة"، أي الدرع المكوّن من أكثر من جزء. وقد وسع الانكشارية معنى الجبة جي، فأطلقوها على صناع الأسلحة والذخائر والقائمين على حفظها وإصلاحها. القلقشندي، م. ن.، ج٤، ص١١ .

(٣) الجزيري، **درر الفرائد** ، ص ١٣٧، ١٤٨، ١٥٨، ١٦٤؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص ١٨٨- ١٨٩، ١٩٢- ١٩٤؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p. 116,120.

١١- شعراء الربابة

يصحب أمير الحجّ اثنان من الشعراء المترفين، وكانا يرحلان وراءه لتسليته بمصاحبة الربابة.

ولعل وجود شعراء الربابة بصحبة أمير الحجّ، يخفّف من عنائه وتعبه والأعباء الملقاة على عاتقه، ويلطِّف جوّ الرحلة ويجعلها مريحةً إلى حدّ ما.

١٢- المخبـزي

يصنع المخبزي الخبز الطازج خلال رحلة الحجّ. وكان خصّص هذا الخبز للعساكر فقط، ولا سيّما ركاب الهجن[١] وأتباع أمير الحجّ ومعاونيه كالدوادار، وقاضي المحمل، وكاتب المحمل، وكاتب أمير الحجّ، ويتراوح معدّل الخبز ما بين مائة وعشرين إلى مائة وأربعين رغيفًا. أما عن عوائد المخبزي، فكانت عبارة عن جامكية[٢] صغيرة تقدّر بثلاثين دينارًا.

١٣- الكيّالـون والسمسار

يشترط في أصحاب هذه الوظيفة، الخبرة بالغلال، وكان السمسار يرأس الكيّالين. ولأهل هذا الفن دسائس خفية في أصل عمل الكيلات وعيارها، فقد تزيد إحداهما عن الأخرى، كما يكون التفاوت في القبض أو الصرف[٣].

١٤- نجّـار السنيـح

وهو النجار الّذي يسافر مع القافلة لرعاية الصناديق الّتي تنقل فيها المواد الغذائيّة الخاصّة بالقافلة، ويصلح ما يحتاج منها إلى ترميم في حالة السقوط أو الاصطدام ذهابًا وإيابًا، وله الركوب والجراية في الأرباع ونصف عليقة، ومن العوائد عشرون دينارًا.

١٥- النفطـي

يختصُّ بعمل الإحراقات من القلاع والصواريخ وغير ذلك، وقد وجد بطريق الحجّ أربع إحراقات؛ الأولى ببركة الحجّ، تقام بمناسبة اجتماع المودعين قبل رحيل القافلة، أما الثّانية فكانت تقام بينبع عند العودة، وقد أبطلت بعد ذلك، أما الثالثة ـ وهي الكبرى ـ فكانت بمنى، وكانت تقام بمناسبة رحيل القافلة من منى إلى مكّة، بينما كانت الرابعة في عقبة أيلة أثناء العودة. وللنفطي

---

(١) الهجن: مفردها هجين، والهجان من الإبل البيضاء الخالصة اللون. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٥، ص ٤٢، "هجن".

(٢) جامكية: لفظ فارسي معناه: مرتّب الجندي أو الخادم، أطلق في العصر العثماني على الأعطيات والمرتبات الشهرية أو السنوية التي كان يتقاضاها الجند. مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص ١١٩.

(٣) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ١٦٧، ١٦٩- ١٧٠؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة**، ص١٨٦، ١٩٣.

وأتباعه عوائد كثيرة، منها: جامكية مقدارها كل سنة ثلاثمائة نصف فضة، هذا إضافةً إلى الجرايات والجمال في الأرباع[١].

يبدو أنّ كل هذه الوظائف الملحقة بإمرة الحجّ تهدف إلى توزيـــع المســـؤوليّة وتحديـــدها، وضبط مسيرة ركب الحجّاج بذهابه وإيابه.

د- الموظّفون المختّصون بأمور الجمال

١- أمير آخور الكبيــر

هو مقدّم ألف الذي يكون ساكنًا بإسطبل السلطان[٢]. وكان يتولى الإشـــراف علـــى عليـــق الجمال وسقايتها، ويشرف على جمال النفر، وكذلك جمال أمير الحجّ. كما كان عليه النظر في أمر ما نفق أو برك من الجمال، ويقف عليه حتى ينقل حمله إلى غيره. أمّا جمال الشعّارة، فتتعدّد أمراء آخورتها. ومن الّذين تولّوا وظيفة إمرة الآخورية الكبرى في العصر المملوكي سنة ١٤٠٥/٨٠٨، الأمير جرباش الشّيخي الذي كان يشغل وظيفة رئيس نوبة ثانٍ، فعيّن أميرًا آخورًا كبيرًا بدلاً مـــن إينال باي[٣]. أما في سنة ١٤٤٧/٨٥١، فقد تولى تمراز القرمشي إمرة الآخورية أشهرًا، ثم تسلّمها بعده قراخجا الحسني إلى أن مات بطاعون سنة ١٤٤٩/٨٥٣[٤]

٢-المقدّمون على جمال النفر

يوجد اثنان من المقدّمين؛ مقدّم جمال النفر، ومقدّم جمال الشعّارة. ومقدّم جمال النفر هـــو كبير الجمّالة الذي يقوم بخدمة جمال نفر[٥] أمير الحجّ، وكان لأمير الحجّ حق اختياره وعزله، أمـــا مقدّم جمال الشعّارة والهجّانة، فكان يشترط فيه أن يكون أمينًا وخبيرًا بأحوال الجمال، ضابطًا لمـــا يتسلّمه من الجمال، وهو مطالَب بما يفقد من الجمال وغيرها[٦].

٣- مقدّم الهجّانـــة والشعّـــارة

كان مقدّم جمال الهجانة والشعّارة، هو المسؤول عن السروج والألجمة وملحقاتها خصوصًا جمال إسطبل أمير الحجّ، كما كان يشرف على الرجال المسؤولين عن الأعـــلاف والجمـــال الّتـــي تحملها.

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص١٦٥، ١٧١؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة**، ص١٩٤.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص١٩.

(٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص ٣٢٤.

(٤) ابن تغري بردي، م. ن.، ج١٤، ص ٣٩١.

(٥) نفر: التفرق. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٤، ص٢٣١، " نفر".

(٦) سميرة عمر، م. س.، ص٢١١ – ٢١٢؛ عرفة عبده علي، "الوظائف الرسميّة بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧٢– ٧٣.

٤- مهتار الركابخانه

هو المتسلّم لحواصل الركابخاناه من السروج وآلاتها من العبي[1] والركاب واللجام وغير ذلك، وكان يصحب قافلة الحجّ كل سنة ما عدّته خمسة وثلاثون سرجًا بآلاتها، وكان مسؤولاً عن سروج الخيول والألجمة وأكسية الخيول المزركشة في إسطبل أمير الحجّ.

٥- نجّار الكور

كانت البعثة الرسميّة لأمير الحجّ تضم نجارًا مسؤولاً عن سروج الجمال المعروفة باسم الكور، وهو يصلح ما ينكسر أو يصطدم من الأكوار، وله الركوب من الجراية، ونصف عليقة، وخمسة وعشرون دينارًا.

٦- خولي الأغنام

كان خولي الأغنام مسؤولاً عن قطيع الأغنام المرافق للقافلة، لتزويد مطبخ أمير الحجّ بما يلزمه من لحوم خلال الرحلة[2].

٧- قائد الجمال

كان قائد الجمال يعقب المحمل كل سنة، ويمتطي جملاً يتمايل به تارةً إلى الخلف وأخرى إلى الأمام، وذلك للاطمئنان إلى أحوال الجمال، وقد بلغ عدد جمال المحمل المصري في عهد المماليك البرجيّة ثمانية وعشرون جملاً[3].

هـ- موظّفو الأحمال

١- جاويش الحمل

هو قائد الجماعة القائمة على الأحمال، وقد جرت العادة أن يعيّن جاويش واحد للشحن والسفر.

٢- مقدّمو القوّاسة

وكان عددهم يبلغ العشرة، تتمثّل وظيفتهم بإحضار عربان الحمل للاهتمام بالأحمال المجهّزة برًا وبحرًا، وكان من يخرج من عربان الحمل عن طاعتهم، ينكّلون به ويحمّلونه من الأحمال أضعاف ما كان له.

---

(١) العبي: مفردها العباية، ضرب من الأكسية واسع فيه خطوط سوداء كبيرة. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٩، ص٢٧، "عبا".

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ١٦٦، ١٧١؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص ١٩٥؛ عبده عرفة علي، "الوظائف الرسمية بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثالث، ص٧٣.

(٣) الجزيري، م. س.، ص ١٣٩.

٣- الشــاتُون

يتمُّ اختيارهم من مماليك أمير الحجّ، أو من نفر العسكر، وعددهم أربعة، يتوجه نفران مع الجاويش إلى بندر جدة، ويسير نفران إلى بندر ينبع، يتلقى هؤلاء الأنفار كل ما يــرد إلــيهم مــن الأحمال بالبندرين.

٤- الكُتّــاب

عددهم أربعة أفراد، لكل بندر اثنان.

٥ – الكيّــالون

كان عددهم أربعة أفراد، ثم اكتفي باثنين يلتزمان مع الكتّاب ضبط الكيل.

٦- العتّالــون

عددهم ثمانية أفراد، وكانوا يختصُّون بحمل الأحمال ببندر السويس عند تسلّمها من العربان وعند الشحن.

٧- الخفــراء

وهما اثنان من القواسة مهمتهما حراسة الحمل بالسويس إلى أن يشحن[1].

٨- الجمَّالــة

وهم يتمثّلون بالعربان المختصين بنقل الأمتعة والبضائع، ومن الجمَّالة عرب العائد، وكانوا يختصون بحمل ثلثي أحمال السويس تقريبًا [2].

و- إرشادات عامة للحجّاج

كان هناك توجيهات وإرشادات عامة للحجّاج يجب عليهم تنفيذها والتقيُّد بها، منها:

١- القيام بعدّة إجراءات قبل السفر إلى الحجاز: الحصول على الموافقة وتأشــيرة الدخول إلى الحرمين الشريفين.

٢- إعداد الأغراض والمواد الضروريّة الخاصَّة بأداء الفريضة فقط.

٣- زيارة مكتب الصحة في المنطقة السكنيّة القريبة من المركــز لأخــذ الحقــن اللازمة قبل السفر بحسب الأصول الصحيّة الّتي كانت متّبعةً آنذاك.

٤- التجُّمع في المكان المعيَّن للمغادرة إلى الدِّيار المقدّسة.

٥- التأكُّد من جميع الأوراق الثبوتيّة قبل مغادرة المنزل.

---

(١) الجزيري، درر الفرائد، ص١٤١٣؛ سميرة عمر، إمارة الحج في مصر العثمانية، ص ٢٠١- ٢٠٢.

(٢) الجزيري، م. س.، ص٤١٧- ١٤١٨؛ سميرة عمر، م. س.، ص ٢٠٩- ٢١٠.

٦- حسن اختيار الحملة الّتي يسافر بها، ولا سيّما إذا كان يجهل كيـف يمـارس العبـادة المفروضة عليه، وخصوصًا ما يتعلّق بمناسك الحجّ وواجباته وأركانه.

وقد كانت مجالات التوعية كثيرة ومتعدّدة، منها: العبادات المتمثّلة بأداء الصلوات الخمس الّتي تكون عادةً مفهومةً لدى الغالبيّة من الحجّاج، ولكن هذا لا يمنع من توعيتهم بها، وخصوصًا ما يتعلّق بالقصر والجمع في الصلاة إبان مشاعر منى وعرفة ومزدلفة.

وقد أشار السراج[1] إلى فوائد السفر وخصالها، فقال: أحدها تجديد الرزق، والثّانية رؤية العبر. فينبغي للحاج إذا خرج من بيته أن ينوي السياحة في أرض الله تعالى... وينبغي له ألا يرافق في سفره إلا من هو من أهل العلم والصلاح والخلق الحسن... واكتساب الفوائد[2].

إنّ هذه الإرشادات اللاّزمة للحجّاج، والقواعد السلوكيّة الّتي أشار إليها السراج، كانت بمثابة مشعل يهتدي به الحجيج .

ويضاف إلى ما تقدّم، أن من يريد أداء الفريضة، كان عليه أن يجتهد في تحصيل أمور، منها: أن يوصي بما يحتاج إلى الوصيّة، وأن يستحلّ كل من كان بينه وبين الآخرين من معاملة أو مصاحبة، ويطلب من الله المعونة على سفره، ويطّلع على مناسك الحجّ أو يصحب معه كتابًا عنها، ويبادر إلى قضاء ما عليه من الحقوق إن كان عليه شيء، أو استرضاء أربابها والتوبة إلى الله من كل ذنب وقع فيه، ولو مرةً. وهذا كله مطلوب كل وقت، لكن من باب أولى أن يعنى بهذه النصائح عند استحضار النية للحجّ وإرادة النسك[3].

ثالثًا- نقاط تجمُّع الحجيج

كان التقليد المتبع أن تغادر قوافل الحجّ إلى الدّيار المقدّسة بعد الانتهاء من إعدادها وتجهيزها، واتّخاذ السلطة التدابير اللازمة لحفظ أمن الطريق، ورعاية سلامة الحجيج، حيث صارت المواكب تنطلق من سائر المناطق عبر الخطوط والنقاط الّتي رسمت لهذه الغاية لراحة الحجيج، وذلك للتزوّد بالموادّ الغذائيّة اللازمة، وكذلك لانتظار الوافدين المتأخّرين عن الركب. ولم تقتصر هذه المحطّات على أماكن للاستراحة، بل كانت تلبّي رغبة الوفود والتجّار والعمّال الملحقين

---

(١) السراج، محمّد بن أحمد بن عبد العزيز القيسي الشهير بالسراج الملقب بابن مليح (١٠٤٢/١٦٣٢)، رحالة من أهل مراكش عرف برحلته المسمّاة **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والأعارب**، أورد فيها ارتحاله من مراكش، ورافق الركب المصري إلى عقبة أيلة، حيث التقى ومن معه بركب الشام، ومنها إلى مكّة، وعاد مع الركب التونسي فدخل مصر. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ص٨- ٩؛ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، ج٣، ص٩٢.

(٢) السراج، **أنس الساري والسارب**، ص٧- ٩؛ علي فكري، **خلاصة الكلام**، ص٣٠١.

(٣) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٤٨- ٤٩؛

R.Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.155, A.M. Turki, H. R. Souami, *Récits de Pèlerinage à la Mekke*, p. 47- 48.

بالحجيج، فضلاً عن أنها محطّات تجمع الأمراء والقادة والعسكريين والأهل والأصحاب والأحباب، الّذين كانوا يأتون مرافقين وموذعين لضيوف الرحمن، آملين أداء الفريضة والعودة سالمين. وسوف نتحدّث عن المحطّات الّتي كانت شائعةً في العصر المملوكي.

أ- محطّات تجمّع الحجّ الشامي

كان الحجّ الشامي يتجمع في مكان يسمّى العسال جنوب دمشق، وذلك بعد الخروج من باب الجابية.

وكانت مسيرة الدّرب تبدأ من جنوبي دمشق بانحراف قليل نحو شرقي الجنوب الغربي عبر منطقة منبسطة، ثم تتّجه المسيرة إلى الشرق من جبل الضيع، وتمرُّ عبر أرض الحميمات فمنطقة البيادرة. ويصل الطريق إلى الكسوة التي تبعد عن مدينة دمشق نحو اثني عشر ميلاً ونصف. والكسوة هي أولى محطّات الطريق بعد دمشق، وبها يلتئم شمل الرّكب(١).

إلاّ أن الرحّالة ابن رُشيد(٢) عيّن سنة ٦٨٤/١٢٨٥ خلال رحلته الحجازيّة مركزًا آخر لتجمّع الحجيج وانطلاقتهم، فقال:

وكان سفرنا من ظاهر دمشق من الموضع المعروف بميدان الحصى(٣). وعاينا في ذلك اليوم عند خروج النّاس للوداع ما يسيل الدموع... فبتنا تلك الليلة بالموضع المعروف بالقيسارية على ضفّة النهر، ونزلنا منازل بالطريق سالكين إلى بصرى، وهي مدينة حوران، فأقمنا هناك ليتجهّز النّاس(٤).

ويتّضح أن ابن رّشيد حدّد بصرى محطةً للاستراحة لتلاحق الناس بالرّكب، وهذا يدلُّ على أن نقاط التجمّع قد كانت تختلف باختلاف الرحلات، ومستوى القيمين ونشاطهم على الركب وتنظيمه.

---

(١) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٦٧؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص١٨٢.

(٢) ابن رُشيد، محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله، رحالة، وعالم بالأدب، وعارف بالتفسير والتاريخ. ولد بسبتة، وولي الخطابة بجامع غرناطة. ثمّ رحل إلى مصر والشام والحرمين سنة ٦٨٣/١٢٨٤، وصنّف رحلةً سماها **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكّة وطيبة**. توفي بفاس سنة ٧٢١/١٣٢١. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٤، ص٢٨٤؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج ٤، ص١١١، ١١٣.

(٣) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج ٥، ص ١- ٢.

(٤) ابن رُشيد، م. ن.، ج ٥، ص ٢- ٣.

كما وصف الجزيري[١] مراكز تجمّع الحجّ الشامي فقال: إن الركب يخرج من دمشق فيشقُّ قرى الشام إلى أن ينزل الكسوة ثم يرحل إلى الصنمين[٢].

والرّاجح أنّ أولى محطّات تجمع الحجّ الشامي كسوة [٣]، فينضم إليها الحجّاج الذين تخلّفوا عن الالتحاق بالركب، حيث تتّجه القافلة نحو المرحلة الأولى من هذا الطريق، وتسمّى خان ذي النون. وقد أعطى الشاعر شهاب أحمد بن أبي حجلة صورةً واقعيةً عن وداع الحجّاج، في جوٍّ تختلط فيه مشاعر الحزن والفرح، فتنهمر الدموع، وينصرف المودّعون، بينما ينطلق الحجّاج إلى الدّيار المقدّسة، فقال:

ولي في ثنيّات الوداع ودائعٌ   من الدّمع فيها للوفودِ ورودُ
أتنكرُما أودعتُها من مدامعي   وحادي المطايا سائقٌ وشهيدُ[٤].

ب – محطّات تجمّع الحجّ العراقي

كانت بداية الحجّ العراقي من الكوفة إلى النجف فالقادسيّة[٥] من ثم إلى العذيب.

وبعد ذلك، أصبح الركب العراقي يخرج من بغداد إلى صرصر، ثم يرحل إلى فراشة، ومنها يرحل إلى الحلة فبئر سلامة، ويقيم فيها حتى يتكامل النّاس، حيث يخرج الحجّاج إلى الكوفة جماعات ومثنى وفرادى، وفيها تجتمع رفقتهم، وتلتئم فرقتهم، ثم يرحلون من الكوفة، ومنهم من ينزل في القادسيّة، ويقيم الركب بها يومًا ثم يرحل إلى العذيب، وهي أول منازل هذا الطريق من البر[٦].

وفي سنة ٥٨٠/١١٨٤، صحب ابن جبير موكب الحجّ العراقي في عودته من مكّة إلى المدينة إلى الكوفة، وأشار إلى منازل الطريق في ما بين النقرة والكوفة، وهي على النحو الآتي: النقرة (القارورة)- الحاجر- سميراء- وادي الكروش- فيد الأجفر- زرود- الثعلبيّة- بركة المرجسوم-

---

(١) الجزيري، عبد القادر بن محمّد بن عبد القادر بن محمّد الأنصاري الجزيري، باحث حنبلي مصري، له **درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكّة المعظمة**، و**خلاصة الذهب في فضل العرب**، و**عمدة الصفوة في حلّ القهوة**، توفي سنة ٩٥٣/١٥٤٦. الزركلي، **الأعلام**، ج٤، ص ٤٤.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٤٥٣.

(٣) كسوة: هي قرية وأول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٤٦١.

(٤) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٤٥٣– ٤٥٥.

(٥) القادسيّة: موضع بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخًا. ياقوت الحموي ، **معجم البلدان** ، مج٤ ، ص ٢٩١ .

(٦) الجزيري، م. س.، ص٤٦٥– ٤٦٦؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ٥٥.

الشقوق- التنانير-الهيثمين- العقبة- واقصة- لورة- القرعاء- منارة القـرون- العـذيب- القادسـيّة- الكوفة[1].

وفي النصف الأوّل من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، عاد ابن بطُوطـة [2] مع ركب الحجّ العراقي كما فعل ابن جبير من قبل، وذكر المحطّات نفسها الّتي أشار إليها ابن جبير على النحو المذكور آنفًا[3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ ركب الحجّ العراقي لم يخرج إلى مكّة في السنوات ١٢٤١/٦٣٩- ١٢٤٦/٦٤٤، وهي السنوات الّتي ثار فيها الجند على الخليفة المستنصر العبـاسي مـن سـنة ١٢٢٦/٦٢٣، وبقيت الفوضى حتى جاء الخليفة المستعصم سنة ١٢٤٢/٦٣٩.

ج- محطّات تجمُّع الحجّ اليمني

كان ركب الحجّ اليمني يتوجّه إلى مكّة من تعز، فينزل البئر، وهي في نيـل الجبـل، ثـمّ يرحل إلى وادي الحنّاء، ثمّ إلى وادي الموز، فإلى زبيد، وإنما يجيء إلى زبيد قصـدًا؛ لأنهـا دار الملك، وبها يجتمع شُذّاذ الركب ويتكامل[4].

د- محطّات تجمُّع الحجّ المصري والحجّ المغربي

كانت طرابلس الغرب والقاهرة تمثّلان أكبر محطّتين في رحلة الحجّ المغربيّة، الّتي كانت تستغرق تقريبًا ثمانية أشهر. ولم يكن للمحمل المغربي هيكلٌ خشبيٌّ وكسوةٌ مثل سـائر المحامـل العربيّة كشعار، وإنما كان عبارةً عن عدة قوافل تلحق بركب المحمل المصري لمن كـان يسـلك طريق البرّ من المغاربة، وتصبُّ قوافل الحجّ المغربي في القاهرة قبل أن تصل إلى بلاد الحجاز[5].

وكان حجّاج الأندلس يأتون بحرًا من الشواطئ المغربيّة، والبعض يسـلك طريـق البـرّ الموازي للساحل. وكانت الرحلة البحريّة تستغرق شهرًا من الساحل المغربي إلى الإسكندريّة.

---

(١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص ١٩٠-١٩٢.

(٢) ابن بطُوطة، هو أعظم الرحّالة المسلمين قاطبةً، وأكثرهم طوافًا في الآفاق، وأوفرهم نشاطًا واستيعابًا للأخبار، وأشـدهم عنايةً بالتحدث عن الحالة الاجتماعيّة في البلاد التي تجوّل فيها. ولد محمد بن بطُوطة في مدينة طنجة سنة ١٣٠٤/٧٠٣ مـن أسرة عالية، غادر وطنه سنة ١٣٢٥/٧٢٥ لأداء فريضة الحجّ؛ لكنه ظل ثمانية وعشرين سنةً في أسـفار متصـلة ورحـلات متعاقبة. من كتبه **تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. زكي حسـن، **الرحالـة المسـلمون**، ج٨، ص ١٣٦-١٣٧؛ A. Miquel, "Ibn Baṭṭūṭa", *EI₂*, vol.III, p.758.

(٣) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ١٣٧، ١٣٩.

(٤) الجزيري، درر الفرائد، ص ٤٦٩؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص٧٣.

(٥) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص ٧٥.

وحجّ بهذا الطريق ابن جبير الّذي انفصل عن غرناطة بتاريخ ٨ شوال سنة ١١٨٢/٥٧٨، فكانت المرحلة الأولى الّتي انطلق منها حصن القبذاق- حصن قبرة- إستجة- أشونة- شلبر- أركش- سبتة، وكان الطريق في البحر محاذيًا لبرّ الأندلس، ثم جزيرة ميورقة، حيث تعرّض المركب لأهوال البحر وخطورته- فسردينيا، ثم صقلية، فالوصول إلى الإسكندريّة برّ الأمان ومحطّ الترحال[١].

تلك كانت الصورة أثناء رحلة ابن جبير إلى الحجاز.

وكانت القاهرة ولا تزال، طريق المسلمين إلى حجّ بيت الله الحرام؛ فالأندلسي الّذي كان يسكن في غرب أوروبا، والمغربي الذي يقطن في غرب أفريقيا، كان إذا قصد الحجّ إلى بلاد الحجاز، سافر من بلاده إلى مصر بحرًا أو برًا، وكذلك كان يقصدها كثيرٌ من أهالي الشام والترك والقوقاز[٢].

هـ ـ وسائل وآلات نقل سفر الحجّاج (الإبل)

كانت الإبل الوسيلة الرئيسيّة لسفر الحجّاج عبر العصور المختلفة، حتى قبيل النصف الأوّل من القرن الرابع عشر الهجري/القرن العشرين الميلادي. والإبل ثلاثة أصناف: يماني، وعرابي، وبختي. فاليماني هو النجيب، وينزل بمنزلة العتيق من الخيل. والعرابي كالبرذون. والبختي كالبغل. وقيل: المطيّة اسم جامع لكلٍّ ما يمتطى من الإبل، فإذا اختارها الرجل لمركبه لتمام خلقتها ونجابتها فهي راحلة. وفي الحديث النبويّ الشريف: "النّاس كإبل مائة لا يكاد يوجد فيها راحلة"[٣]. فإذا استظهر صاحبها بها وحمل عليها فهي زاملة[٤].

والإبل في الجمع، والذكر منها جمل، والأنثى ناقة، والبعير يقع عليهما. والإبل من منن الله الجسيمة على خلقه، ومما منحهم به من إرفاقه ورزقه[٥].

وقد اتّخذ الحجّاج من الإبل وسيلةً تنقلهم إلى الدّيار المقدّسة لأداء الفريضة وقطع المسافات الطويلة. وعدّ الجمل وسيلةً مريحةً من وسائل النقل عبر دروب الحجّ المتعدّدة .

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص٧- ٩، ١١- ١٢.

(٢) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ١٠٥؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ٨٣؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة**، ص٢١٢؛ J.Jomier, *Le Mahmal*, p.172.

(٣) رواه ابن حنبل، **مسند أحمد بن حنبل**، باب٧٠، رقم الحديث٤٤، مج٢، ص٧؛ مسلم، **صحيح مسلم**، باب٦٠، رقم الحديث٢٣٢، مج٤، ص١٩٧٣، ومعنى الحديث أنّ النّاس متساوون ليس لأحد منهم فضل في النسب بل هم أشباه كالإبل المائة.

(٤) النويري، **نهاية الأرب**، ج١٠، ص ١٠٥- ١٠٦، ١٠٩.

(٥) النويري ، م. ن.، ج١٠، ص ١٠٣.

وقبل الحديث عن وسائل نقل الحجيج الأخرى إلى الدّيار المقدّسة، لا بدّ من التطرق إلى خصائص الجمل، لما كان له من أهميّة كوسيلة من أهمّ وسائل النقل في ذلك الحين.

١- الجمل

الجمل هو سفينة الأسفار في القفار، وله قدرة على احتمال مشقات الحياة الصحراويّة. ونظرًا إلى ضخامة عدد الجمال الّتي كانت ترافق القافلة، كان يتبع في سيره النظام الّذي تتبعه القافلة في سيرها وهو نظام التقطير، حيث تسير الجمال بعضها خلف بعض، بعد تقسيمها إلى مجموعات مستقلّة، كل أربعة جمال تمثل مجموعةً واحدةً مربوطةً ذيولها بعضها ببعض، ولذا كان يطلق عليها القطار[١].

وكانت هذه الجمال تنقسم من حيث تخصّصها إلى جمال النفر، وجمال الشعّارة وجمال المحمل، وجمال السحابة.

(١)- جمال النفر

اختصّت بالأحمال الخاصّة بالسنيح والسقائين والبيوتات، وبالنسبة إلى جمال السنيح، فقد اختصّت بحمل المأكولات ولوازم المطبخ. أما جمال السقائين، فكانت تختص بحمل قرب الماء، وقد حملت ألفًا وستمائة قربة، سنة ٩٢٣/١٥١٧[٢].

(٢)- جمال الشعّارة

الشعّارة هم العربان المختصّون بحمل الفول، وقد عرفت جمالهم بجمال الشعارة نسبةً إليهم، ومن هذه الجمال ما كان يعرف بالهجن الّتي كانت تصحب قافلة الحجّ أثناء سيرها[٣].

(٣)- جمال المحمل

تختص بأحمال المحمل وما يتعلّق به[٤].

(٤)- جمال السحابة

خصّصت جمال السحابة لخدمة عدة أغراض، منها حمل مأكولات الفقراء وسقايتهم، وحمل المرضى والمنقطعين والعاجزين، ونقل الموتى[٥]. هذا وقد كانت المحامل الّتي توضع على ظهور الجمال تصنع بأشكال مختلفة، من هنا كانت تختلف وظائفها تبعًا لاختلافها، ومنها:

---

(١) سميرة عمر، **إمارة الحج في مصر العثمانية**، ص٢٠٢، ٢٠٤.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٤٢٢ – ٤٢٣؛ سميرة عمر، م. س.، ص٢٠٢– ٢٠٦.

(٣) الجزيري، م. س.، ص٤٢٤؛ سميرة عمر، م. س.، ص٢٠٦ – ٢٠٧.

(٤) سميرة عمر ، م. ن.، ص٢٠٧– ٢٠٨.

(٥) سميرة عمر، م. ن.، ص ٢٠٨.

٢- الهــودج

الهودج وسيلة من وسائل النقل، وقد عرف الهودج في العصر الجاهلي، واستمرّ اســعماله في الإسلام، فحين حجّ الرسول حجّة الوداع سنة ٦٣١/١٠، حجّ بنسائه جميعًا في الهوادج.

وفي العصر الأموي، حجّت النساء في هوادج عليها كساء من الطيالسة.

وفي أيام العباسيين، أقبل أهل بغداد إلى باب الكوفة، حيث اجتمع هناك النافرون إلى الحجّ من العراقيين والخراسانيين والفرس وغيرهم، وكلهم مجهّز إبله وكسوته، وفي طليعـستهم هـوادج تظللها قباب من الديباج المطرّز بالذهب.

وفي سنة ١٢٤٧/٦٤٥، خرجت شجر الدر زوجة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين من مصر متوجهة إلى الحجّ، وقد أعدّ لها هودج عظيم[١].

وقد تطرّق ابن بطُوطة سنة ١٣٢٦/٧٢٦ إلى وصف مهم للهوادج أثناء احتفال أهل مكّـة بعمرة رجب، فقال: شاهدتهم في ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكّة قد غصّت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتّان الرفيع، كل أحد يفعل بقدر استطاعته، والجمال مزيّنة مقلّدة بقلائد الحريـر، وأستار الهوادج ضافية تكاد تمسُّ الأرض، فهي كالقباب المضــروبة، ويخرجــون إلــى ميقــات التنعيم[٢].

٣-الحــدج

جمعه أحداج، وحدوج، وهو مركب من مراكب السفر كالهودج والمحفّة.

٤-الظعينــة

جمعها ظعائن، أظعان، وهي الهودج، تكون فيه المرأة؛ وقيل هو الهودج؛ سواء كانت فيــه المرأة أو لم تكن. فالظعينة تعني: الجمل الّذي يظعن أو يركب عليه، والظعن يدلُّ على التّرحال أو السفر[٣].

٥-الحمــولة والحمــول

الحمولة والحمول تعني: الهودج، كما أنها تعني أيضًا: الجمال حاملة الهوادج، أو بمعنــى آخر: الجمال وما عليها من هوادج[٤].

---

(١) عبد الناصر ياسين، **وسائل السفر**، قسم ١، ص ٣٤، ٤٣، ٤٧، ٤٩، ٥٦، ٨١.

(٢) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ١٠١.

(٣) عبد الناصر ياسين، م. س.، قسم١، ص ٩٥، ١٤٩.

(٤) عبد الناصر ياسين، م. ن.، قسم١، ص ٢١١.

٦-المحمـــل

عرّف الفيروز آبادي[١] المحمل، فذكر أنه شقاف على البعير يحمـــل فيهمـــا العـــديلان[٢]. وهناك نوعان من هذه المحامل: أحدهما المحمل الّذي يمثّل شعار قافلة الحجّ. وثانيهمـــا، المحمـــل الّذي يوضع على الجمل، ويحمّل بالجهاز، والمؤن[٣].

٧- المحفّـــة

المحفّة جمعها محافّ، وهناك نوعان منها:

النوع الأوّل: كان يحمل بواسطة الرجال، والمحافّ المحمولة بواسطة الرجـــال لا يســـافر عليها، بل تستعمل للتنقّل بين أمكنة قريبة بعضها من بعض.

النوع الثّاني: المحفّات الّتي تحمل على الحيوانات، وهي الإبل والبغال. والمحـــافّ كانـــت مستعملةً في الحجاز زمن الرسول، وذلك أنّ امرأةً رفعت له صبيًا وهي في محفّتها، وقالت: ألهـــذا حجّ؟ قال: نعم، ولك أجره. وكان ذلك الحدث أثناء حجة الوداع سنة ١٠/٦٣١[٤].

وأشار القلقشندي[٥] إلى المحفّة بأنّها: محملٌ على أعلاه قبّة وله أربعة ســـواعد: ســـاعدان أمامها وساعدان خلفها، تكون مغطاة بالجوخ تارة، وبالحرير تارة أخرى، تحمل علـــى بغلـــين أو بعيرين يكون أحدهما في مقدّمتها، والآخر في آخرها[٦].

٨- المحـــارة

جمعها محارات ومحاير، قيل: إنها محامل صغيرة توضع على الإبل، وذكر بعض العلماء أنّ المحارة: شبه الهودج، وقوامها صندوقان يشدّان إلى جانبي الرحل كالهودج، وكان يركب فيهـــا اثنان من كل ناحية، والواحد يسمى عديلاً [٧].

---

(١) الفيروز آبادي، محمّد بن يعقوب بن محمّد مجد الدين الشيرازي، من أئمّة اللّغة والأدب ولد بكارزين من أعمال شـــيراز. وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. أشهر كتبه **القاموس المحيط** أربعة أجـــزاء، **والمغـــانم المطابة في معالم طابة**. الزركلي، **الأعلام**، ج٧، ص١٤٦.

(٢) الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ج ١، ص ٤٩٥.

(٣) القلقشندي، **صبح الأعشى**،ج٢ ص ١٤٥.

(٤) سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ٩٢؛ عبد الناصر ياسين، **وسائل السفر**، قسم ١، ص ٣٣٥- ٣٣٦.

(٥) القلقشندي، أحمد بن علي الفزاري القلقشندي: المؤرخ الأديب البحاثة. ولد في قلقشندة من قرى القليوبية، بقرب القـــاهرة، سماها ياقوت قرقشندة، ونشأ وناب في الحكم، توفي في القاهرة. وهو من دار علم، وفي أبنائه وأجداده علماء أجلاء. أفضـــل تصانيفه **صبح الأعشى في قوانين الإنشا**، وله **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، **ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**. السخاوي، **الضوء اللامع**، ج٨ ، ص ٨ .

(٦) القلقشندي، م. س.، ج٢ ، ص ١٤٥؛ محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ٢٦٨.

(٧) عبد الناصر ياسين، م. س.، قسم١، ص٣٦٣ .

وأشار الرحّالة ابن بطّوطة كذلك إلى هذه المحارات، وذلك عند حديثه عن ركب حجّ العراق (١٣٢٦/٧٢٧) الذي خرج في صحبته من مكّة بعد أدائه فريضة الحجّ، ووصف أنّ في هذا الركب أسواق حافلة مرافق عظيمة وأنواع من الأطعمة والفواكه، وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام الركب والمحارات، فترى الأرض تتلألأ نوراً[١].

٩-الشقدف

جمعه الشقاديف، وهو نوعٌ من المراكب أو وسائل السفر أقرب إلى المحارات الّتي وردت سابقًا[٢].

وأشار محمد لبيب البتنوني إلى أنّ الشقدف عبارة عن سريرين من الخشب، وقاعدتهما من الحبال. والشقدف يتّسع لشخصين، كما يمكن أن يجلس فيه الراكب على راحته بواسطة مخدّات صغيرة خفيفة[٣].

١٠- الكجاوة

كجاوة: كلمة فارسيّة عبارة عن صندوق أو حجرة صغيرة لجلوس المسافرين تكون مسقوفةً بمظلّة، أو تكون بلا سقف أو غطاء، وقد تكون مفتوحةً من الأمام.

١١- الشّجار أو المشّجر

الشّجار أو المشّجر:عرف بأنّه مركب من مراكب النساء، وهو شبه الهودج، إلا أنه مكشوف من الأعلى.

١٢- الفئام

الفئام نوعٌ من وسائل النقل كالهودج يتميز باتساع أسفله.

١٣- الأجلح

هو هودج أجلح لا رأس له.

١٤-الرجّاز

مركب أصغر من الهودج، والرجّاز كالوسادة توضع على الرّحل[٤].

١٥-المحفوف

المحفوف كالهودج، وهو يذكر بالمحفّة، الّتي سميت بذلك؛ لأن الخشب يحفّ القاعدة به من جميع جوانبه.

---

(١) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١ ص ١٠٧.

(٢) عبد الناصر ياسين، **وسائل السفر**، قسم١ ، ص ٣٧١.

(٣) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ٢٦٧- ٢٦٨؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ٩٢.

(٤) عبد الناصر ياسين ، م. س.، قسم ١، ص ٣٧٧، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٦ .

١٦-الغبيط

نوع خاصٌ من الرحل، يشدُّ عليه الهودج، وهو من مراكب النساء[1].

١٧-الخيمة

مفرد خيام، ويقال لها: الفسطاط والقبّة أيضًا؛ وهي بيوت تتخذ من خرق القطن الغليظ ونحوه، تحمل في السفر للوقاية من الحرّ والبرد[2].

كما عرفت أيضًا وسائل نقل لها صفة الهودج، كالفودج، والعريش، والمفشل، والقعش، والكتر، والخدب، والأللة، والحوف.

١٨- السحلية

مركبة، وهي عبارة عن سرير من أسرة الشقدف، يشد على ظهر الجمل مستعرضًا، ويجلس فيه نفران، وهو في الغالب من غير مظلة، ويركبه الفقراء من النّاس، وخصوصًا من الهنود الّذين يحتملون حرارة الشمس.

١٩-العصم

هو جمل الحمل، يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان إن كان المتاع قليلاً، ويكون من الجمال المتينة القويّة، حتى يتيسّر له حمل ما فوقه.

٢٠-البوجة

البوجة كالهودج، وهي مصطلح مغربي.

٢١- الحلال

مركب من مراكب النساء[3]. وهو من آلات سفر الحجّاج التي اشتهرت وعرفت واستعملت.

٢٢- الكدن

للكدن معان كثيرة، منها السنام، وثوبٌ للخدر، ومركبٌ للنساء والرحل وغير ذلك.

٢٣- الحويّة

عرفت بأنها كساء يلفُّ حول سنام البعير ثم يركب[4].

---

(١) عبد الناصر ياسين، **وسائل السفر**، قسم١، ص ٣٩٠.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**،ج٢، ص ١٤٦.

(٣) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ٢٦٨؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ٩٣.

(٤) عبد الناصر ياسين، م. س.، قسم ١، ص ٤٠٤- ٤٠٥.

٢٤- القشاوة

جمع قشاوات، وأشار ابن جبير أثناء وصفه ركب الحجّ العراقي حين وفد إلى الحجاز سنة ١١٨٣/٥٧٩، أنه كان لهم في مراكبهم على الإبل قباب تظلّلهم، قد نصبت على محامل من الأعواد يسمّونها القشاوات، وهي كالتوابيت المجوفة[١].

٢٥-المحـــراب

هو الغرفة، وصدر البيت، وأكرم مواضعه، ومقام الإمام من المسجد، والموضع ينفرد بــه الملك فيتباعد عن النّاس.

٢٦- الأســرّة المظلّلــة

وهي عبارة عن أسرّة تتميز بأن لها أسقفًا[٢].

٢٧- التختــروان

التختروان لفظ فارسي الأصل مركّب من كلمتين، أولاهما، تخت بمعنى السرير، وثانيهمـــا روان بمعنى المحفّة. أي تخت محمول[٣] .

٢٨- الحــرج

مركب للنساء والرجال ليس له رأس[٤].

واللافت في هذا السياق، أنّ وسائل النقل في العصر المملوكي، ولا سيّما المحاف، كانـــت موشحةً بالذهب والحرير، ومكللةً بالجواهر. واستعمل اللون الأصفر في كسوتها، وبصورة خاصة محفّات بنات سلاطين المماليك ونسائهم. وكان اللون الأصفر سائدًا في أوساط السلاطين، فقد كانت مظلتهم الرسميّة الّتي سميت "القبّة والطير" من الحرير الأصفر، ورجّح أن هذا الرسم عند هــؤلاء السلاطين كان عادةً موروثة من أجدادهم[٥].

كما أنّ الهوادج كانت تكسى بالثياب المطرّزة والمزركشة والمزخرفــة بـــالألوان البهيّــة الجميلة المنظر والشكل.

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ١٥٤- ١٥٥.

(٢) عبد الناصر ياسين، **وسائل السفر**، قسم ١، ص ٤٠٧، ٤٠٩.

(٣) H.K. Zadeh , *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque* , p.7.

(٤) عبد الناصر ياسين، م. س.، قسم ١، ص ٤١٠- ٤١١ .

(٥) عبد الناصر ياسين، م. ن.، قسم ٢، ص٥٣٠.

و- سوق الخيل والجمال

ظهرت أهميّة الخيول في الدور الكبير الّذي تقوم به خلال موسم الحجّ، خصوصًا في نقل البريد وتسليمه إلى أصحابه، عبر أقاليم المناطق الإسلاميّة والدّيار المقدّسة. وفي أيام المماليك، تمّ ترتيب دور الخيول وتنظيمها.

ولخيل البريد رجال يعرفون بالسوّاقين، يركبون مع البريدي ويسوقون فرسه، ويخدمونه أثناء مسيره، ويشترط لركوب الخيل مرسوم سلطاني.

وكان التقليد المتبع في العهد المملوكي أن يخصّص لكل سلعة سوق، ولذلك أنشئ سوق للخيل تباع فيه وتشترى. ويتم البيع والشراء بواسطة المنادي والدلاّل، حيث كان دور المنادي أن يعرّف المشتري على البضاعة[١].

ولقد كانت الجمال متميّزة بخصائصها وملامحها ما جعلها مختلفة عن غيرها؛ لذلك أنشأ المماليك سوقًا للجمال والخيل، تسهيلاً لرحلة الحجّ التي تتطلّب إراحة الجمال في محطّاتها أو استبدالها بغيرها، منعًا لأيّ تأخير قد يطرأ من جراء تقصيرها في المسير.

ولمّا كانت مسيرة الحاج عبر رمال مفاوز الصحراء شاقةً، فهو يمتطي جمله ليجتازها معرّضًا حياته لخطر الموت ووحشة الطريق، فقد استوجب هذا الوضع الذي عاشه الحاج وجود فنّ في الغناء هو فنُّ الحداء.

ز- الحداء

هو من الفنون التي كانت تصاحب المحامل فنّ الحداء، ويقال: إنّ أوّل من توصل إلى هذا الفن هو مضر بن نزار، حيث سقط من فوق بعيره، فاندقّت يده وتفرّقت إبله، فجعل يصيح: يا يداه يا يداه، وكان حسن الصوت، فاجتمعت إبله، فحدت العرب على هذا المثال. والحداء هو نوع من الرجز، قد يكون من الشعر الخفيف، عرفه العرب منذ القدم، يتغنّى به لحثّ الإبل على مواصلة السير أو لقطع ملل السفر. وقد استعمل في قوافل الحجيج. تغني به الجمّالة والحجّاج للتغلّب على تعب السفر ومشقة المسير[٢].

وقد تنسى الإبل نفسها مع أغاني الحادي ونغماته، حتّى يكاد يقتلها جهد المسير المضني، ولذا طلب الرسول الكريم الرحمة للإبل، خوفًا من استمرار سماعها لحدو الحادي في الصحراء، فينسيها ذلك ألم المسير. وقد برز أنجشة وهو غلام أسود في الحداء، وكان يضرب المثل به، إلى

---

(١) آمال العمري، "دراسة لبعض وثائق تتعلق ببيع وشراء خيول من العصر المملوكي"، **مجلة معهد المخطوطات العربيّة**، مج١٠، ج٢، ص ٢٢٤- ٢٢٥.

(٢) سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ٩٤.

أن يهلك الإبل بحسن صوته. اشتهر أنجشة زمن النبي محمد، فقال له رسول الله: يا أنجشة رويدك، سوقًا بالقوارير .[(١)]، أي سق سوقًا رويدًا، ومعناه الأمر بالرفق بهن. وسميت النساء قوارير لضعف عزائمهن.

وكان غناء العامّة وأناشيدهم في موكب المحمل المصري يشكّل عنصرًا مهمًّا أثناء الاحتفال بهذه المناسبة؛ فمنهم طائفة الدراويش، الذين كانوا يحرّكون رؤوسهم من جانب إلى آخر، ويردّدون اسم الله، وكان مع هؤلاء عدة حمّالين وسقّائين وكنّاسين وغيرهم[(٢)].

وأشار البتنوني إلى فن الحداء عند البدو في الأراضي الحجازيّة، فقال: وللجمّالة أغنية يتغنّون بها في طريقهم، وهي في الغالب على النغمة العراقيّة والروميّة الّتي أخذوها عن حجّاج الأتراك والشوام[(٣)].

هكذا كان الحداء في رحلة الحجيج، لعله يخفف عبء الرحلة الطويلة، ويداوي عناء الضعفاء والفقراء ولو قليلاً.

* * *

نستنتج مما تقدّم الأمور التالية:

برز نشاط المماليك في رعايتهم لأمور البلاد، حيث حظيت قوافل الحجّ باهتمامهم، وتمحور عملهم في عدّة نقاط، منها: تحديد موعد الحجّ قبل انطلاق القافلة، لكي يتسنى لمن يريد أداء الفريضة تجهيز نفسه حتى لا تفوته الرحلة الحجازيّة، كما شارك المماليك في الاحتفالات الرسميّة والشعبيّة عشيّة ذهاب الركب، وتعيين العناصر البشريّة القيّمة على قيادة القافلة، وتكليف موظّفين للعمل، كلٌّ ضمن اختصاصه ومهامه، سواء في ما خصّ الحجيج أو في ما خصّ الإشراف على الجمال والدواب، وتأمين المستلزمات الضروريّة.

وعمد المماليك إلى توجيه الحجّاج وتحضيرهم نفسيًّا وذهنيًّا لحسن أداء شعائر الفريضة، من حيث تعريفهم بما يجهلون من المسائل الدينيّة، كالجمع في الصلاة وسواها، وبثّ الحماس الديني في نفوسهم، وإبراز مآثر زيارة الدِّيار المقدّسة وفضائلها، وأداء مناسك الحجّ بمعيّة ضيوف الرحمن.

وقد استعمل المماليك الإبل وسيلةً أساسيّةً لنقل الحجّاج، ولاسيّما المحفّات والهوادج، وبرعوا في اختيار أصناف الجمال تبعًا لأوصافها وقوتها وقدرتها على الأحمال الثقيلة، رغبةً منهم في تخفيف عذاب الرحلة الحجازيّة.

---

(١) رواه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الفضائل، رقم الحديث ٢٣٢٣، مج٤، ص ١٨١١.

(٢) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ٢٧١، ٢٨٩.

(٣) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ٢٧٦، ٢٧٨.

وقد أثبت المماليك مقدرةً وكفايةً في إعداد مختلف الحملات الّتي كانت تشدّ رحالهـا إلـى الدّيار المقدّسة، وذلك حرصًا منهم على سلامة الحجّاج، وتمهيدًا لنشر نفوذهم على الحجاز.

هذه أهم النقاط التي عالجناها في الفصل الأوّل، استعدادًا للانتقال إلى الفصل الثّاني، والّذي سنحاول فيه الوقوف على الحالة الّتي كانت عليها قوافل الحجّ في العصر المملوكي، فعلى بركة الله.

الفصـــل الثّانـــي

قوافل الحجّ إلى الحجاز في العصر المملوكي حسب توزيعها الجغرافي

انطلقت قوافل الحجّ في العصر المملوكي من البلاد الإسلاميّة إلى البيت العتيق في رحلات رسميّة وشعبيّة. إلاّ أن ثمّة خصائص اختصّت بها كل قافلة عن سواها. وأتحدث في هذا الفصل عن ثلاث قوافل هي: قافلة الحجّ المصري والمغربي، وقافلة الحجّ الشامي والحلبي، وقافلة الحجّ العراقي.

أولاً- قافلة الحجّ المصري والمغربي

أ- قافلـــة الحـــجّ المصـــري

١- الاحتفال بالمحمل المصري

حمل العصر المملوكي طابعًا خاصًا للركب المصري، من حيث الدقّة والنظام وفنون الاحتفالات المختلفة، ما دفعنا إلى معرفة المراسم التي كانت تقام للقافلة المصريّة قبل خروجها إلى الحجاز، حيث برز نشاط سلاطين المماليك في تكريم مواكب دوران المحملين المصري والشامي؛ لأنّ مراسم الاحتفال اقتصرت على القاهرة ودمشق، إلا أننا قد نسمع أحيانًا عن ذهاب المحمل العراقي والمغربي والحلبي واليمني إلى مكّة لأداء الفريضة.

كان المماليك يحتفلون سنويًا بدوران المحمل المصري، وهذا تقليد متبع من قبلهم عند الفاطميين، فيدعو المنادي النّاس قبل موعده بثلاثة أيّام لتزيين حوانيتهم ودورهم، ويأتي أهل الريف من كل مكان لحضور الاحتفال. ولعلّ حرص النّاس على مشاهدة الاحتفالات بدوران المحمل، يرجع إلى ما أحدثه المماليك من عجائب ولطائف وألعاب بالرمح وإحراق النفط لا عهد لهم بها من قبل، فيركب جماعة من المماليك السلطانيّة الرمّاحة وهم في ملابس الحرب وبأيديهم الرماح، حين يبدأ الموكب من مخيم أمير الحجّ خارج باب النصر، وأمامه كبار مسؤولي الدولة والقضاة وسواهم، وقد ازدحمت الشوارع بالنّاس الذين جاؤوا من كل مكان لمشاهدة الموكب[1].

---

(١) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار** ، ج١، ص٢٦؛ نظير حسان سعداوي، **صور ومظالم من عصر المماليك** ، ص٧٩، ٨٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **مصر في عصر دولة المماليك البحرية**، ص١٧٣؛ عبد المنعم ماجد، **نظم دولة سلاطين المماليك**، ج٢، ص ١٤٣- ١٤٤؛ M. G. Demombynes, *Le Pèlerinage à la Mekke*, p.157.

أمّا بالنسبة إلى وصف دوران المحمل، فقد أشار القلقشندي متحدثًا: ويسير خلفهم جمل الكسوة، وهو في هيئة لطيفة من "خركاه"، وعليه غشاء من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قبة من فضة مطليّة بالذهب[١].

ويظلُّ الموكب يتهادى في طريقه حتّى يصل إلى ميدان الرميلة تحت القلعة، حيث يلعب المماليك برماحهم أمام السلطان، ثم ينصرف المحمل بعد ذلك إلى الفسطاط.

والرّاجح أنّ المماليك اقتبسوا عادة الاحتفال بالمحمل المصري عن الفاطميّين، ولكنهم وصلوا إلى مرحلة كبيرة من المبالغة في تزيينه، ودفع الأموال الطائلة لتحسين صورته وشكله، كما أنشأوا فرقة الرمّاحة الّتي قامت بدور أساس خلال مراسم الحفل.

ويبدو أنّ دوران المحمل قد نال قسطًا كبيرًا من كتابة المؤرّخين، الذين وصفوه بدقّة رائعة تبرز محاسنه ودوره الفعّال في رحلة الحجّ .

ليس هذا ما يثير الدهشة والعجب فقط، بل إنّ سلاطين المماليك خصّصوا مدرسةً عاليةً لتعليم الطلبة فنّ إدارة المحمل ولعب الرمّاحة أسموها "معلميّة المحمل"، يتولى إدارتها أحد المعلمين الكبار من ذوي الخبرة الفنيّة[٢].

ومنذ اليوم الأوّل لمغادرة المحمل، يبدأ النّاس بالاستعداد والتحضير للسفر واتخاذ الزاد وشراء الإبل[٣].

تلك كانت أفعال سلاطين المماليك، التي تجلّت بصورة واضحة في إدارة المحمل وفرقة الرمّاحة.

٢- محظورات المحمل المصري

عمدت سلطنة المماليك إلى اتّخاذ إجراءات محظورة على دوران المحمل نتيجة الممارسات المؤذية التي كانت تقوم بها عناصر شاذة عند إدارة المحمل الرجبي (نسبة إلى شهر رجب)، ولا سيّما سنة ١٤٢٢/٨٢٥، الّتي أصدر فيها المحتسب صدر الدين أحمد بن العجمي أمرًا منع بموجبه النساء من الجلوس على حوانيت الباعة، وتشدّد في ذلك، فامتنعن[٤].

وقد زادت هذه الأفعال القبيحة بصورة عنيفة في التاسع من شهر رجب سنة ١٤٢٨/٨٣٢، عندما دار المحمل خلال الموسم المعهود، فكان فيه من استحلال الأمور القبيحة ما لا يوصف،

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى** ، ج٤، ص٤٥٩ J. Jomier, *Le Maḥmal*, p.37.

(٢) نظير حسان سعداوي ، **صور ومظالم من عصر المماليك** ، ص٨٠.

(٣) سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة**، ص١٦٦- ١٦٧.

(٤) المقريزي ، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص ٦١٤.

وذلك أن المماليك السلطانية نهبوا المطاعم وتعرّضوا للنساء والشباب في ليالي الزينـة بشـناعات عظيمة، وأدّى ذلك إلى تجمع النّاس لقتال المماليك السلطانيّة، فقتل منهم اثنان[١].

ويبدو أنّ الممارسات الشاذّة والتعرّض للنساء بأبشع الأعمال، واستباحة المحرّمات، حصلت نتيجة استخفاف سلطنة المماليك باتّخاذ التدابير الصارمة بحق المعتدين، إضافة إلى فشل أهل الـدين والعلم من منع الممارسات الشنيعة المستباحة آنذاك.

وبالرغم من ذلك تحرّك المحمل في دورانه يوم الثّاني عشـر مـن شـهر رجـب سنة ١٤٣٢/٨٣٦، ووُضع تحت القلعة ثمّ أعيد، ولم يغادر إلى مصر، وهذا شيء لم يعهد بمثله، بسبب تهيّأ السلطان برسباي للسفر، وتوقّفت حركة الرمّاحة عن ممارسة نشاطها الموسمي، نتيجة الأعمال الشاذّة الّتي كانت تصدر عن بعض المماليك[٢].

ومع عدم مراعاة توقف نشاط الرمّاحة تكرّر دوران المحمل في الخامس والعشـرين مـن شهر رجب سنة ١٤٣٥/٨٣٩، بعد أن صدر مرسوم سلطاني يقضي بذهاب القضاة الأربعة أمامـه إلى مدرسة شيخو، حيث رافق الفقراء المحمل إلى تحت قلعة الجبل [٣].

وممّا لا شك فيه، أنّ إبطال ممارسة فنّ الرمّاحة كان ناتجًا من صدور تصـرفات شـنيعة سبّبت أضرارًا بالغةً بالحضور، ما أوجب إيقافها، منعاً للمضاعفات الّتي قد تحصل وتلحـق الأذى بالنّاس والممتلكات.

وتجدر الإشارة إلى أن تاريخ دوران المحمل لم يثبت على حاله، فأدير بالقاهرة في الثالث من رجب سنة ١٤٣٧/٨٤٠، بينما كان النهج أن لا يتحرّك المحمل إلا في نصف رجب، وفي أثناء الحفل حصل بلاء هائل على المسلمين ليلة إدارته؛ بسبب صفع المماليك السلطانيّة أقفية المارّة فـي الشارع، وحرق لحى الرجال وخطف عمائمهم[٤].

والراجح أنّ عمليّة دوران المحمل لم تستمّر على وتيرة واحدة، بل دخلت عليها تغييـرات وتعديلات فرضتها طبيعة الحفل، والأمور الناتجة منه. ففي سـنة ١٤٣٨/٨٤٢ أعـاد السـلطان

---

(١) ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص ١٥٥.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص ٨٨٩؛ ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر**، ج٨، ص٢٧٣؛ ابن تغري بردي ، **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٣٧٢؛ ابن الصيرفي، م. س.، ج٣، ص٢٥٧.

(٣) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٢، ص١٠٠٦؛ ابن الصيرفي، م. س.، ج٣، ص٣٨٠-٣٨١ ؛ ابن إياس، **بـدائع الزهـور**، ج٢، ص ١٧٤.

(٤) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٢، ص١٠٢٦؛ ابن الصيرفي ، م. س.، ج٣ ص٣٩٩- ٤٠٠.

جقمق[١] إحياء فن الرمّاحة من جديد، وأرجع التوقيت السابق إلى دوران المحمل. وتـوّج جقمـق عمله في الرابع عشر من شهر رجب سنة ١٤٣٩/٨٤٣، عندما أدير محمل الحجّ بالقاهرة، ثـم زاد السلطان في عدة المماليك الصغار الذين يلعبون بالرماح، وأنفق على الفرسان الذين ركبـوا أمـام المحمل مالاً كثيرًا، وساد الأمن والاستقرار في هذا الحفل[٢].

وقد ترجّح عمل فن الرمّاحة بين الإبطال والعودة تبعًا للحوادث المؤلمة، الّتي قد تنشأ حين اللعب، وهذا ما استجدّ بعد خمس سنوات من إنعاشه، فأهمد السلطان جقمق نشاط الرمّاحـة سـنة ١٤٤٥/٨٤٨، بسبب وقوع عدد من الوفيات في صفوف المماليك خلال الاحتفال بدوران المحمـل، حيث أدير المحمل في القاهرة، ونصبت له الزينة، ومنع الرمّاحة من المشاركة في الاحتفال [٣].

وهكذا نجد أن الفوضى الّتي لازمت هذه الاحتفالات، وعرّضت النّاس إلى الأذى، دفعـت السلطان جقمق إلى إلغاء لعب الرمّاحة لتأمين السلامة العامّة.

هذا مع العلم أنّ الأشرف إينال[٤] أعاد فن الرمّاحة الّذي لم ينقطع بصـورة نهائيـة عـن الظهور، خلال دوران المحمل في يوم الاثنين الرابع عشر من شهر رجب سنة ١٤٥٣/٨٥٧، بعد أن تم إلغائه من قبل السلطان جقمق كما ذكرنا سابقًا، وقد أدّى لعب الرمّاحة إلى سـرور النّـاس وانشراحهم[٥].

واتّخذت خطوات تنظيميّة ومشاركة رسميّة سنة ١٤٥٨/٨٦٢، بسبب دوران المحمل يـوم الأربعاء في السابع من شهر رجب، وطلب إلى المماليك عدم حمل سلاحهم، كما لعـب الرمّاحـة وكان معلمهم الأمير قايتباي المحمودي الظاهري شاد الشرابخانه، وقد انتهى الاحتفال يوم الاثنـين الثاني عشر من الشهر المذكور، على أفضل صورة وأحسنها [٦]. تلك صورةٌ نموذجيّةٌ عن الاحتفال بالمحمل المصري وقيام الرمّاحين بواجباتهم على أكمل وجه.

---

(١) جقمق، الأتابك أبو سعيد أحد مماليك الظاهر برقوق ، لقب بالملك الظاهر سيف الدين، عمّر في سلطنته مساجد وقنـاطر وغيرها، وكانت مدة سلطنته أربع عشرة سنة، وكان ملكًا جليلاً، فصيح اللسـان بالعربيّة، وعـنده حدّة زائدة، توفي سـنة ١٤٥٣/٨٥٧. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية**، ج١، ص١٢١– ١٢٢.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٣، ص١١٧٧؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٤، ص ١٦٥-١٦٦.

(٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣٦٦؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٤٣.

(٤) إينال، السلطان أبو النصر العلائي الظاهري، تولى السلطنة سنة ١٤٥٣/٨٥٧، لقّب بالملك الأشرف، وهو جركسي، كـان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، ثم صار بعد وفاته إلى ابنه الناصر فرج، فأعتقه، وأخرج له خيلاً وقماشًـا، وجعلـه حمدارًا، وفي مدة الظاهر جقمق صار أتابكيًا، وكانت مماليكه قد ساءت سيرتهم عند الناس، ولولا ذلـك لكـان خيـر ملـوك الجراكسة، فإنه كان لينًا هينًا، توفي سنة ١٤٦١/٨٦٥. علي باشا مبارك ، م. س.، ج١ ، ص١٢٢ – ١٢٣.

(٥) ابن تغري بردي ، م. س.، ج١٦، ص ٦٨.

(٦) ابن تغري بردي ، م. ن.، ج١٦، ص٢٦٨؛ ابن إياس، م. س.، ج٢، ص٣٩٣.

غير أن مآسي النّاس تجدّدت من المماليك في سنوات ٨٦٩/ ١٤٦٤ - ١٤٦٦/٨٧١، حيث أشار إلى ذلك ابن إياس، فقال: في رجب، أدير المحمل، وزيّنت الشوارع، وكانت تلك الأيّام مشهودة، ولكن المماليك الأجلاب أفسدوا في حق النّاس غاية الفساد، واعتدوا على الحرمات، وخطفوا النساء[١].

وجدير ذكره أنّ دوران المحمل المصري قد ألغي في نهاية سلطنة خشقدم سنة ١٤٦٧/٨٧٢، لكن السلطان قانصوه الغوري أعاد التقليد المتّبع لدوران المحمل، بعد تسلّمه الحكم، فأصدر أمرًا منه بدورانه في القاهرة يوم الثامن من شهر رجب سنة ١٥٠٣/٩٠٩، وجعله تقليدًا متبعًا في سلطنة المماليك، وظلّ الحال كذلك إلى نهاية حكم المماليك[٢].

استمرّ تأرجح الاحتفال بالمحمل المصري في العصر المملوكي بين أمرين:

- **أولّهما**: الاستعداد والتأهّب والتنظيم والنداء للحجّ، وحثّ النّاس على السفر لأداء الفريضة.

- **ثانيهما**: الإبطال في أيام المحن الشديدة الناتجة من تغيير السلاطين وما يرافق ذلك من حوادث أثناء الاحتفال بالمحمل، ولعب الرمّاحة الّذي تسبب بأذية النّاس والممتلكات.

٣- المحمل الرجبي

إنّ السلطان الظاهر بيبرس هو أوّل من قرر الحجّ الرجبي سنة ١٢٧٧/٦٧٥، كما ذكر ابن إياس، فقال: وفي هذه السنة، أدير المحمل الشريف، وكسوة الكعبة بالقاهرة في رجب، وكان يومًا مشهودًا، وأذن للنّاس في الحجّ في شهر رجب، فسمّي الحجّ الرجبي من يومئذٍ، واستمرّ ذلك في كل سنة، تارةً يبطل وتارةً يعمل [٣].

وأعيد دوران المحمل الرجبي أيضًا في شهر رجب سنة ١٣٨١/٧٨٣، وخرجت أثقال الحجّاج الرجبيّة يوم سوق المحمل إلى بركة الحجّ، وكان الأمير بهادر الجمالي بصحبة المحمل، ثمّ رحلوا من البركة في يوم الأحد الثالث والعشرين من رجب[٤].

وقد اقترن المحمل الرجبي بفن الرمّاحة القتالي أمام المشاهدين من النّاس، وكان ممن يقودون هذا الفن الأمير جاني بك الظريف والأمير قايتباي المحمودي، والأمير تمرا الحسني

---

(١) ابن إياس ، **بدائع الزهور** ،ج٢، ص٤٢٧- ٤٢٨، ٤٤٧ .

(٢) ابن إياس ، م. ن.، ج٤، ص ٥٩- ٦١؛ محمود رزق سليم ، **عصر سلاطين المماليك** ، مج١ ، ص١٧٠؛ J.Jomier, *LeMahmal*, p.41.

(٣) ابن إياس ، م. س.، ج١، قسم١، ص ٣٣٦.

(٤) ابن إياس، م. ن.، ج١، قسم٢، ص٢٩٠؛ المقريزي، **السلوك**، ج٣، قسم٢، ص ٤٤٧.

المعروف باسم الزردكاش. وحينما بطل هذا الفن في أواخر العصر المملوكي، أعاده السلطان قانصوه الغوري من جديد ليمتع النّاس مع قدوم طلعة المحمل الرجبي[1] كما ذكرنا سابقًا.

٤- عفاريت المحمل المصري

هناك ظاهرة كانت تصاحب المحمل المصري، حيث صار يظهر بعض العساكر وقد ارتدوا ملابس تنكريّة مخيفة ليطلبوا المال من النّاس، وأصبح هؤلاء يسمّون شياطين المحمل، واستمرّوا يرتكبون كثيرًا من الحماقات، حتّى إنّ السلطنة قرّرت منع هذه العروض.

ونادرًا ما كانت تمرُّ مناسبة دوران المحمل المصري بما تبعثه في النفوس من بهجة وانشراح من دون أن يُكدِّر صفوها عبث العابثين.

هؤلاء العابثون أطلق عليهم اسم "عفاريت المحمل"، وعفاريت المحمل في الأصل ممثلون يخرجون في احتفالات المحمل، كما صاروا يظهرون وهم يؤدون أدوارهم التمثيلية أمام النّاس، وأصبح يسير معهم المصارعون.

وكان النّاس يتسابقون لمشاهدتهم، ويغدقون عليهم النقود، ويظهر أنّ جماعة المماليك في عصورهم المتأخّرة طمعوا في الحصول على هذه الأموال، فأرادوا أن يقوموا هم بدور "عفاريت المحمل"؛ فتنكروا وصبغوا وجوههم، ولبسوا ثياب المهرّجين، وقاموا بحركات بهلوانيّة على الخيل، ولكن الجمهور رفض منهم هذه الحركات، ولم يغدق عليهم الأموال، بل جعلوها لعفاريت المحمل دون المماليك، فغضب المماليك، وقاموا بأعمال وحشيّة ضد النّاس، فسلبوهم نقودهم، واختطفوا ملابسهم[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ العصر المملوكي حفل بمثل هذه الأعمال الوحشيّة الّتي قام بها المماليك الأجلاب، ولم يسلم منها أي احتفال للمحمل المصري، بل امتد ذلك إلى المحمل السلطاني الذي كان يقل حريم السلطان المملوكي "الأشرف شعبان بن قلاوون" سنة ١٣٧٦/٧٧٨[3].

وقد تطرّق ابن تغري بردي إلى سوء تصرف عفاريت المحمل المريب فقال: وفي شهر رجب سنة ١٤٥٨/٨٦٢، نشرت الزينة بالقاهرة بسبب دوران المحمل، ونهى السلطان المماليك الأجلاب عن القيام بدور عفاريت المحمل، لأنهم أفحشوا بالنّاس، وكانوا يكلّفونهم الكلفة الزائدة،

---

(١) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ١٧٧.

(٢) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص ١٧٨- ١٧٩؛ J.Jomier, *Le Mahmal*, p.39.

(٣) إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٧٩.

قصر ذلك بحال النّاس كثيرًا، وتركوا فرجة المحمل، بل صاروا يترقبون فراغ المحمل، ليستريحوا من مشاهدة هذه الأعمال القبيحة(١).

ورغم أهميّة الاحتفال الديني للمحمل المصري، ومكانته العظيمة في الأوساط الرسميّة والشعبيّة، إلا أنه لم يثبت على وتيرة واحدة من الخير والسلامة المتوخّاة للنّاس، بل تعرّض لشوائب كثيرة قلّصت من قيمته، وأدّت إلى إبطاله أحيانًا.

٥- كسوة الكعبة والفرمان السلطاني والخطبة

(١)- كسوة الكعبة

الكسوة الشريفة من أهمّ مظاهر التبجيل والتشريف لبيت الله الحرام، ويرتبط تاريخ الكسوة بتاريخ الكعبة نفسها الّتي زادها الله شرفًا وتعظيمًا، ولها أعظم الأثر عند المسلمين عامّةً تاريخًا وعقيدةً. ولقد اختلف المؤرّخون في أوّل من كسا الكعبة في الجاهلية، إلا أنهم أجمعوا بأنّ الكعبة كانت تكسى بالعديد من الكسوات، منها ثياب حمر مخطّطة يمانية تعرف بالوصائل. ويروى أنّ أوّل من كسا الكعبة كسوةً كاملةً هو "حسان بن تبع الحميري" كساها العصب، وقد رأى في المنام أن يكسوها، فكساها الأنطاع، ثم كساها الوصائل ثياب حبرة من عصب اليمن، وهو الّذي جعل للكعبة باباً ثم أسدل عليه سترًا وأنشد شعرًا:

وكسونا البيتَ الذي حرّمَ اللهُ	مُلاءً معضّدًا وبرودا
ونطاعًا منَ الخصافِ فرشْنَا	وجعلْنا لبابِهِ إقليدا (٢)

وأوّل من قام بإكساء الكعبة في الإسلام الرسول الكريم، حيث يروي المؤرخون أنه كسا الكعبة ثيابًا يمنيّةً، وأنفق عليها من بيت مال المسلمين، وحرص من جاء بعد النبيّ محمّد على إرسال الكسوة إلى الكعبة(٣).

أما في العصر الأموي، فقد كان معاوية يكسو الكعبة مرّتين في السنة: الأولى من نسيج القباطي في نهاية شهر رمضان، والثّانية من الديباج في اليوم العاشر من محرّم(٤).

وفي أيام العباسيين، كان لعادة إرسال كسوة الكعبة الفضل الكبير في تطوير بعض المنسوجات العراقيّة، فكساها المأمون بثلاث كسوات؛ الأولى من نسيج الديباج الأحمر في يوم

---

(١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص١٢٣- ١٢٤؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص٣٤٨؛ J. Jomier, *Le Maḥmal*, p.39.

(٢) ابن هشام، **السيرة النبويّة**، ج١، ص١٤٧؛ الأزرقي، **أخبار مكّة**، ج١، ص١٣٤؛ العسكري، **الأوائل**، ص٣٥.

(٣) الأزرقي، م. س.، ج١، ص٢٥٢؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٢٨٢؛ عرفة عبده علي، " كسوة الكعبة "، **مجلة الحجّ والعمرة** ، العدد الثالث ، ص ٥٥.

(٤) الأزرقي ، م. س.، ج١، ص٢٥٤؛ القلقشندي، م. س.، ج٤، ص ٢٨٤.

التروية، ثم القباطي في بداية شهر رجب، والثالثة في يوم السابع والعشرين من شهر رمضان تكون من نسيج الديباج الأبيض[١].

ويتّضح مما تقدّم الدور السياسي الذي أدته كسوة الكعبة، فضلاً عن دورها الفني؛ فاهتمام الخلفاء العباسيين بإرسال الكسوة كل شهرين أو ثلاثة، يدل دلالةً واضحةً على مدى قوة مركزهم واهتمامهم بكسب رضا النّاس عن طريق العناية بالكعبة.

وحين تمركز الفاطميون، سنة ٩٦٩/٣٥٨، في القاهرة، حدث التنافس بينهم وبين العباسيين في معظم المجالات السياسيّة والاجتماعيّة، حيث استولى الفاطميّون على الحجاز، فأرسلوا كسوة بيضاء للكعبة، ثمّ استبدلوها بكسوة سوداء سنة ٩٩٢/٣٨١[٢].

بعد ذلك، كسيت الكعبة في سنة ١٠٧٤/٤٦٦ بالديباج الأصفر، بأمر من السلطان محمود بن سبكتكين، وفي سنة ١٢٤٧/٦٤٤، هبّت عاصفة شديدة على مكّة أدّت إلى تمزيق كسوتها، وبقيت الكعبة بدون كسوة لمدّة واحد وعشرين يومًا، فكساها شيخ الحرم العفيف منصور بن منعة البغدادي بنسيج القطن المصبوغ باللون الأسود[٣].

لم يذكر المؤرّخون لأحد من سلاطين الدولة الأيوبيّة، وهي الدولة الّتي تلت عصر الفاطميين، وسبقت عصر سلاطين المماليك، أنه قام بكساء بيت الله الحرام. وقد يقال أن الدولة الأيوبيّة انشغلت بأمور معاركها الّتي كانت من أجل طرد الغزاة الصليبيين[٤].

ومع بداية السلطنة المملوكية، كانت أوّل كسوة مصريّة للكعبة سنة ١٢٦٢/٦٦١ أرسلها السلطان الظاهر بيبرس، وظلت تكسى من مصر طوال العصر المملوكي باستثناء سنوات قليلة، حيث تشبث المماليك بما اعتبروه حقهم في كسوة الكعبة رافضين أن ينال أحد غيرهم هذا الشرف، حتى وإن اقتضى ذلك التصدّي لأي طامع في نيل شرف كسوة الكعبة بالسلاح[٥]. ومع الأنفاس الأولى للعصر المملوكي قصد ملك اليمن المظفر يوسف بن المنصور سنة ١٢٦٠/٦٥٩ الكعبة بحرًا، لأداء الفريضة، وقام بكساء الكعبة من داخلها، ونثر عليها الذهب والفضة، وعمل لها بابًا وقفلاً[٦].

---

(١) الأزرقي، **أخبار مكّة**، ج١، ص ٢٥٥- ٢٥٦؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٢٨٥- ٢٨٦.

(٢) القلقشندي، م. ن.، ج٤، ص ٢٨٧.

(٣) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ٥٨.

(٤) إبراهيم حلمي، **كسوة الكعبة**، ص ١٠٨، الحاشية رقم ٥٥.

(٥) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص٦٦.

(٦) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص ٦٧.

كانت هذه الكسوة هي الأولى والأخيرة الّتي يرسلها أحد من غير مصر في عصر سلاطين المماليك. كانت الرؤوس كلها تتطلع إلى الظفر بكساء بيت الله الحرام، من اليمن والعراق، بل ومن بلاد فارس، لكن هذا التطلع يعدّ شيئًا والواقع شيء آخر. فلم تكن مصر لترضى أن ينال أحد هذا الشرف سواها.

وتعدّدت محاولات بعض ملوك وأمراء الأقاليم الإسلاميّة الأخرى في القيام بكسوة الكعبة، مستعينين في ذلك بالقوة تارة وبالحيلة تارة أخرى، إلا أن كل ذلك لم يجد نفعًا مع المصريين. ففي سنة ١٣٥٠/٧٥١ أراد ملك اليمن المجاهد أن ينزع كسوة الكعبة المصريّة ويكسوها كسوة من عنده باسمه، فلما علم بذلك أمير مكّة أخبر المصريين فقبضوا عليه، وأرسل مصفدًا في الغلال إلى القاهرة[١]، وبعد مرور نحو نصف قرن على هذه الحادثة، تجدّدت محاولات اليمنيين. مرة أخرى لكسوة الكعبة، إلا أن مصير تطلعات اليمنيين لكسوة الكعبة لم تكن أحسن حالاً من مصير المحاولة السابقة، حيث منع أمير الحجّ المصري دخول حجّاج اليمن ومعهم الكسوة اليمنيّة الّتي جهزها ملك اليمن إسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد سنة ١٣٧٩/٧٨١ وعادت الكسوة اليمنيّة إلى جبال اليمن، وماتت تطلعات اليمنيين في كسوة الكعبة[٢].

ولم يكن اليمنيون وحدهم من سعوا إلى منافسة المصريين شرف كسوة الكعبة، بل حدث الأمر نفسه من العراقيين والفرس أيضًا إلا أن هذه المحاولات كان مصيرها الفشل أمام تمسك سلاطين المماليك بشرف كسوة الكعبة الذي كان في حقيقته يحمل أهدافًا سياسيّةً، حيث إن كسوة الكعبة دليل على القوة والنفوذ في العالم الإسلامي وقد انعكس حرص السلاطين المماليك ورعايتهم للكسوة الشريفة في أوقفيات الّتي خصّصت للكسوة[٣].

ففي سنة ١٣٥٠/٧٥١ أوقف الملك الصالح إسماعيل بن محمّد بن قلاوون ملك مصر وقفًا خاصًا لكسوة الكعبة الخارجية السوداء مرة كل سنة، وكان هذا الوقف عبارة عن قريتين من قرى القليوبية هما بيسوس وأبو الغيث، وكان المتحصل منهما سنويًّا ثمانية آلاف وتسعمائة درهم، وبذلك تم تأسيس نظام الوقف على الكسوة وغيرها، ما أعطى لها الاستمرار والاستقرار، وظلّ هذا النظام قائمًا إلى عهد السلطان العثماني سليمان القانوني[٤].

وقد كساها الناصر حسن كسوة من حرير مذهّب. وكان ذلك في سنة ١٣٦٠/٧٦١.

---

(١) إبراهيم رفعت باشا، مرآة الحرمين، ج١، ص ٢٨٣.

(٢) الجزيري، درر الفرائد، ص ٣١٢.

(٣) إبراهيم حلمي، كسوة الكعبة، ص ٧٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، قسم١، ص٥٠٥.

ثمّ أزيلت كسوة الكعبة بجوفها التي عملها الناصر حسن، وعوّضت بكسوة حرير أحمر أنفذها السلطان الملك الأشرف برسباي صاحب مصر والشام، علي يد عبد الباسط، ناظر الجيوش في سنة ١٤٢٣/٨٢٦، وجعلت في جوف الكعبة موسم هذه السنة[١].

(٢)- الفرمان السلطاني

الفرمان: كلمة فارسيّة الأصل بمعنى أمر أو حكم أو مرسوم، يصدر عن السلطان إلى كل فرد داخل حدود السلطنة، أما إذا صدر عن صاحب منصب كبير إلى من هو أدنى منه فإنه لا يسمى فرمانًا، ولكي يسمى فرمانًا، لا بد له من توافر بعض العناصر، وهي على النحو الآتي:

- يبدأ الفرمان عادةً بما يسمى بالتمهيد أو التمجيد، وهو ذكر أسماء الله تبارك وتعالى.
- الطغراء، هو ختم السلطان الّذي يوضع في وسط الفرمان أو المرسوم الصادر عن السلطان مهما اختلفت أسماؤه وأنواعه[٢].
- الألقاب التي تعطى لأمراء العشائر والقبائل وشرفاء مكّة؛ فاللقب الذي منح لسادات مكّة صيغ وفق النّمط الآتي: جناب إمارة مآب، سادت انتساب، دولت اكتساب، سلالة السلسلة المحمديّة، وهناك أيضًا ألقاب أرباب المناصب العلميّة والدينيّة: كألقاب نقيب الأشراف، وألقاب السادة[٣].
- الدعاء بعد ذكر ألقاب الشخص المرسل إليه المرسوم.
- الإبلاغ أو الإعلام، وهو أهم فقرات الوثيقة، وتقوم هذه الفقرة بعرض الموضوع. وهذه الفقرة هي التي دعت إلى إصدار الفرمان أو المرسوم.
- الحكم، وهو الّذي يوضح ردود السلطان لما ورد إلى السلطنة المملوكيّة، سواء أكانت رسالةً أم رسولاً أم معلومات.
- التنبيه والتأكيد، وهي توضح أهميّة الموضوع.

التاريخ، إذ يذكر السلطان في آخر الرقعة تاريخ تحرير المرسوم الصادر.

- يكتب مكان تحرير المرسوم أو الخطاب بعد ذكر التاريخ، وتكتب الكلمة "بمقام"، ويضاف إليها اسم المدينة[٤]. وهكذا نرى أن توافر العناصر كان ضروريًا لإصدار المرسوم أو الفرمان.

---

(١) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ٤٥٩؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.35.

(٢) فيصل عبد الله الكندري، "الفرمانات السلطانية"، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية**، الحولية الحادي والعشرون، ص٢٦- ٢٧.

(٣) فيصل عبد الله الكندري، م. ن.، ص٤٢- ٤٥.

(٤) فيصل عبد الله الكندري، م. ن.، ص ٤٦- ٥٢.

(٣)- الخطبـــة

أوّل خطبة خطبها الرسول خلال موسم الحجّ كانت في حجّة الوداع، واستمرّت بعد ذلـــك طوال العصور الإسلاميّة اقتداءً بالرسول، تخطب للخليفة أو الســـلطان، وإن اختلـــف مضـــمونها بالدعاء، فكثيرًا ما قطع الكلام أثناء إلقائها أو منع الخطيب من أداء عمله نتيجة خلافات تحصل بين أمراء الحج وشريف مكّة بسبب الهدايا والهبات، أو من أجل رفع الراية على جبل عرفات، علـــى نحو ما جرى في سنة ٩٧٠/٣٥٨، حين خُطِبَ بالحرمين واليمن لخليفة مصر المعـــز الفـــاطمي، وقطعت خطبة بني العباس. أما في سنة ٩٧٦/٣٦٥، فخُطِبَ بالحرمين لخليفة مصر العزيـــز بـــن المعزّ الفاطمي، وضيّق جيشه بالحصار فيها على أهل مكّة، ودامت الخطبة له ولولده ولولد ولـــده، نحو مائة سنة. وفي سنة ١٠٧١/٤٦٢، أعيدت الخطبة العباسيّة بمكّة، وخطب بها للقائم عبـــد الله العباسي[1].

وإنّ دلّ هذا الوضع على شيء، فإنّما يدلّ على أهمية الحجاز الدينيّـــة، وتنـــافس الملـــوك والخلفاء وأمراء الحرمين الشريفين على بسط سلطانهم عليها.

وممن خُطِبَ له بمكّة من سلاطين مصر في العصر المملوكي، الظاهر بيبرس، عندما ذكر اسمه في الصلاة الرسميّة في مكّة سنة ١٢٦٢/٦٦٠[2].

وفي سنة ١٢٨٢/٦٨١، عقد السلطان المنصور قلاوون الصالحي مع شريف مكّة أبي نمي اتفاقًا حلف فيه شريف مكّة على صفاء الطويّة والطاعة للسلطان المنصور، واشترط عليه السلطان أن تقدم كسوة الكعبة الواصلة من مصر على غيرها في كلّ موسم، ويتقدّم علمه بعرفات على غيره من الأعلام.

وكان للناصر محمّد بن قلاوون من نفوذ الكلمة بمكّة، واستبداده بأمر الولاية فيها، ما لـــم يكن لمن قبله من ملوك الترك بمصر، واستبدّ من بعده سلاطين المماليك بالولاية بمكّة[3] .

لكنّ الحال تبدل سنة ١٣١٩/٧١٩ عندما حجّ الناصر حجته الثانية، فأشار المؤرّخون إلـــى أنّ خطبته قطعت من مكّة، وخطب عوضًا عنها لأبي سعيد بن خرابنده ملك العراق، بأمر حميضة ابن أبي نمي، بعد أن رجع من العراق في آخر سنة ١٣١٧/٧١٦، إلى مكّة.

وفي سنة ١٣٦٩/٧٧٠، خطب بمكّة للسلطان شيخ أويس ابن الشيخ حسن الكبيـــر مـــــلك بغداد وغيرها، بعد أن وصلت منه قناديل حســـنة للكعبة وهديّة طائلة إلى أمير مكّة عجلان، وهـــو

---

(١) الفاسي، العقد الثمين، ج١ ص ١٨٥- ١٨٧.

(٢) الجزيري، درر الفرائد، ص ٢٨٠، ٢٨٥؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p. 31-32.

(٣) الفاسي، م.س.،ج١، ص ١٩١.

وهو الأمر خطيب مكّة بالخطبة له، ثمّ تركت الخطبة لصاحب العراق[١]. ومن الّذين خطب لهم على منبر مكّة، المستعين بالله أبو الفضل العباس بن المتوكل محمّد بن المعتضد سنة ١٤١٣/٨١٥، بعد قتل الناصر فرج بن برقوق سلطان مصر... ودام الدعاء له بمصر إلى أن وصل الخبر بأن السلطان المؤيّد بويع بالسلطنة بالدّيار المصريّة في مستهل شعبان سنة ١٤١٣/٨١٥، فدعي للملك المؤيّد في الخطبة... أما السلطان الأشرف برسباي، فانفرد بالخطبة بمكّة أشهرًا، ولم يخطب معه لملك اليمن ولا لغيره من الملوك، مثل ما حصل في الخطبة بمكّة في موسم الحجّ سنة ١٤٢٣/٨٢٦، وكانت العادة جاريةً بالخطبة بعد السلطان المملوكي لملك اليمن[٢].

ومن هنا ندرك أنّ الخطبة على منابر الحرمين الشريفين، كان لها قيمتها الدينيّة والمعنويّة، وإن كانت قد خضعت لظروف سياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة متنوعة، من الخليط الحاصل بين المقيمين والزائرين في الدّيار المباركة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الخطبة أيّام المماليك، لم تستقر على وتيرة واحدة بل أصبحت سراجًا لمن يريد الانتشار والتوسّع وإعلاء كلمة بلاده، وجعلها رفيعة الشأن من خلال الدعاء في مكّة ورفع الراية على عرفة.

٦- خلعة إمرة الحجّ المصري

منذ بدأ النّاس يعتنقون دين الإسلام، وجدت ضرورةٌ لإرسال من يتولّى شؤونهم، ويفقّههم في الدين، ويبصّرهم بالحلال والحرام، ويفضّ ما قد يقع بينهم من الخلافات، ويؤدّي ما لهم من حقوق، وكان الرسول يبعث أمراءه إلى الأقاليم بحسب مقتضيات الضرورة، واحدًا تلو الآخر.

وقد ترد كلمة إمرة أو إمارة بمعنى الولاية، وتطلق أيضًا على منصب الأمير، وهو من يتولى الإمارة، أو من يتولى أمر قوم وإمرتهم[٣].

أما الأمراء الذين تولّوا إمرة ركب الحجّ المصري في العصر المملوكي، فهذه طائفة منهم

اسم الأمير	تاريخ التعيين	معلومات
جمال الدين	سنة ١٢٦٦/٦٦٤	نائب دار العدل[٤]

(١) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ١٩٣، ١٩٦؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.46.

(٢) الفاسي، م. ن.، ج١ ص ١٩٩، ٢٠٢.

(٣) ابن جماعة، **تحرير الأحكام**، ١٠ورقة؛ يوسف الأمير علي، "الإمارة"، **الموسوعة العربيّة**، ج٣ ، ص٤٣٦.

(٤) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص٢٤٧؛ ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، ج٦، قسم٢، ١٠٧ ورقة.

عز الدين أيدمر	سنة ١٢٦٨/٦٦٦	حجّ بالنّاس
عز الدين أيدمر	سنة ١٢٦٨/٦٦٧	تـولى إمـارة الركـب المصري[١]
التنيسي	سنة ١٢٧٠/٦٦٨	جاء بكسوة الكعبة مـن قبل الظاهر بيبرس
علم الدين المشيخي الخياط	سنة ١٢٧٩/٦٧٧	حجّ بالناس[٢]
ناصـر الـدين الطنبغـا الخوارزمي	سنة ١٢٨٢/٦٨١	حجّ بالناس ومعه كسوة الكعبة[٣]
ركن الدين بيبرس الجالقي الصالحي	سنة ١٢٩٠/٦٨٨	حجّ بالناس[٤]
عز الدين أيبك الخازنـدار المنصوري	سنة ١٢٩٧/٦٩٥	حجّ بالناس[٥]
بيبرس الدوادار المنصوري	سنة ١٣٠١/٧٠١	حجّ بالناس[٦]
بهادر الإبراهيمي	سنة ١٣١٧/٧١٦	حجّ بالناس[٧]
مغلطاي الجمالي	سنة ١٣١٨/٧١٨	حجّ بالناس[٨]

(١) ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، ج٦، قسم٢، ١٧٧ورقة؛ العيني، **عقد الجمان**، ج٢، ص ٣٤.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٢٨٤.

(٣) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، ج٧ ، ص٢٥٢؛ الجزيري، م. س.، ص٢٨٥.

(٤) العيني، م. س.، ص٣٨٦.

(٥) العيني، م. ن.، ص٤٧٢.

(٦) العيني، م. ن.، ص٤٣٤.

(٧) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٢٣٣.

(٨) ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج٤، ص ٣٥٤.

ركن الدين عمر شاه الحاجب	سنة ١٣٥٣/٧٥٤	أمير الحجّ(١)
بهادر الجمالي	سنة ١٣٧٧/٧٧٨	حجّ بالناس(٢)
محمَّد بن أيتمش	سنة ١٣٩٥/٧٩٧	تولى إمرة الحجّ عدة مرات(٣)
الزيني خشقدم الظاهري الزمّام	سنة١٤٣٢/٨٣٤	أمير الركب الأول(٤)
صلاح الدين بن نصر الله	سنة ١٤٣٤/٨٣٨	أمير المحمل(٥)
تمرباي	سنة ١٤٤٠/٨٤٤	أمير الحجّ(٦)
محمد ابن الأمير جرباش	سنة ١٤٥٥/٨٥٩	أمير الحجّ المصري
تنبك الجمالي	سنة ١٤٩٤/٩٠٠	أمير المحمل
مغلباي الزردكاش الأشرفي قايتباي	سنة ١٥٠٩/٩١٥	أمير الحج المصري
علان الأشرفي	سنة ١٥١٥/٩٢١	أمير المحمل(٧)

هذا يسير من هؤلاء الأمراء الّذين كانوا أرباب قوافل الحجّ، والقيّمين عليها، والمسؤولين عن الحجيج أثناء الطريق، وعلى الدّيار المقدّسة في الحجاز في تلك الفترة

(١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٠، ص٢٨٥؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٣٠٩.

(٢) ابن خلدون، **كتاب العبر**، مج٥، قسم٥، ص٩٩٧.

(٣) ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، قسم٥، ص٩٩٧.

(٤) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص ٨٥٨؛ ابن تغري بردي، م. س.، ج١٤، ص ٣٥٤؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٣٩.

(٥) المقريزي، م. س.، قسم٢، ص ٩٤٦- ٩٤٧؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٨، ص٣٥٤.

(٦) المقريزي، م. س.، قسم٣، ص ١٢٢٥؛ ابن تغري بردي، م. س.، ج١٥، ص ٣٤٦- ٣٤٧.

(٧) الجزيري، م. س.، ص٣٣٣، ٣٤٧، ٣٥٧، ٣٦٠.

٧- انطلاق ركب الحجّ المصري

بعد الانتهاء من مراسم الاحتفال بتكريم المحمل المصري، يخرج الرّكب من مصر بالمحمل السلطاني وبصحبته الأطبّاء والكحّالون، والأدلاء، والأئمّة والمؤذّنون، والأمراء والجند، والقضاة والشهود، والدواوين والأمناء، ومغسل الموتى، في أكمل زيّ وأتم أبّهة، مزوّدين بالماء والزاد والأشربة والأدوية والعقاقير للفقراء والضعفاء والمنقطعين، وإذا نزلوا منزلاً أو رحلوا مرحلاً، تدقُّ الكؤوسات وينفر النفير[١].

(١)- محامل سلاطين المماليك

برز محمل السّلطان الظاهر بيبرس بما له من سمات البساطة الّتي تتناسب مع شخصيّة السّلطان المحارب والزاهد في سنة ١٢٦٩/٦٦٧، عندما خرج إلى الحجّ، إذ كان في المحمل نحو ثلاثمائة مملوك وأجناد الحلقة، ولم يصحب السّلطان معه غلماناً ولا عكامةً إلا الأمراء الذين معه، وقال لكل هؤلاء الصغير يخدم الكبير، وكل من يعرف صنعةً يفعلها في السفر. وقدم السلطان في المنازل مؤونةً وإبلاً وخيلاً يركبونها، فإذا وصلوا إلى المنزل الآخر، تركوا ذلك وركبوا الموجود لهم في المنزل الذي وصلوا إليه وكان السلطان يسأل قاضي القضاة (صدر الدين) عن أمور دينه، وكان أمير ركب هذا المحمل السلطاني هو ولد السلطان نفسه الملك السعيد (بركة خان)[٢].

والرّاجح أنّ عمل السلطان بيبرس واهتمامه قد كشف أمورًا مهمّةً في ما خصّ سفر الحجّاج إلى الدّيار المقدّسة، ومستلزماته الماديّة والبشريّة والعسكريّة والصحيّة، لتخفيف الصعوبات والمشكلات الّتي قد تنشأ أحياناً من جرّاء اللصوص والمفسدين.

وقد تواصلت رعاية المحامل وتجهيزها من قبل السلاطين في العصر المملوكي؛ ففي سنة ١٣٠٨/٧٠٨، ضمّ محمل السلطان الناصر محمد بن قلاوون خزائن مال، وجنائب، وعصبًا سلطانيّةً، وهجنًا، وكنابيش زركش، ومطبخًا أو سنيحًا، وقد أعاد السلطان كل ذلك إلى القاهرة بعد أن وصل إلى العقبة، ولم يحجّ، واختار التنحّي عن الحكم والإقامة بحصن الكرك، عندما أحس بأنّه لا حول له ولا قوة في السلطنة[٣]، وتكرّر عمله من حيث إعداد المحمل وتجهيزه في حجّته الثانية سنة ١٣١٩/٧١٩[٤].

وتُرجمت عناية المماليك أيضًا بالمحامل عندما خرج السلطان الناصر محمّد بن قلاوون إلى الحجاز، لأداء الفريضة في سنة ١٣٣٢/٧٣٢ (وهي حجّته الثالثة)، في موكب عظيم فريد من

---

(١) محمود سليم، **عصر سلاطين المماليك**، مج٧، ص ٣٣٣- ٣٣٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص ٣٥٤- ٣٥٥؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٢٥٤.

(٣) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج١، ص٢٨٦.

(٤) ابن حبيب، **درة الأسلاك**، ج١، ١٦٣، ١٨٤ورقة.

نوعه، تميّز عن محمليه السابقين في الأبّهة والفخامة بمناسبة عمله بابًا جديدًا من الخشب السنط الأحمر للكعبة المشرّفة، صفّحه بالفضّة عوضًا عن الحديد، فكانت زنة تلك الصفائح ثلاثين ألف درهم، فلمّا قلع الباب العتيق الذي كان بها، وزنوا ما عليه من الفضة، فكانت زنتها ستين رطلاً، فأنعم السلطان بتلك الفضة على بني شيبة، سدنة البيت الحرام، فتقاسموه[١]. وكان المحمل السلطاني المصري في العصر المملوكي يخرج وبرفقته بنات السّلاطين وزوجاتهم. وخير مثال على ذلك عندما حجّت زوجة السلطان الناصرالسلطانة (خوند طغاي) سنة ٧٢١/١٣٢١، فكانت المحفّة الّتي تركبها مزركشةً، وصحبتها الكوسات[٢] والعصائب السلطانيّة[٣].

ولم ينحصر الأمر في نساء سلاطين المماليك، بل قدمت الحرة بنت السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني صاحب فاس سنة ٧٣٨/ ١٣٣٨ تريد الحجّ، وبصحبتها جمع كبير وهديّة جليلة، نزل لحملها من الإسطبل السلطاني ثلاثون قنطارًا من بغال النقل عدا عن الجمال، وكان من جملتها أربعمائة فرس، وفيها ستمائة كساء[٤].

ولقد تجاوزت النذور والهبات والهدايا المرسلة إلى الحجرة الشريفة مع المحمل المصريّ حجمها؛ ففي سنة ٧٩٢/١٣٩١، جهّزت أخت الملك الظاهر برقوق كسوةً نفيسةً للحجرة الشريفة، وستارةً قيّمةً لبابها، وكانت قد نذرت أن تصنع ذلك إن عاد أخوها برقوق إلى السلطنة، وأرسلت الكسوة والستارة في موكب حافل[٥].

وقد تواصلت مظاهر البذخ والترف للمحمل المصريّ أثناء خروجه إلى الدّيار المقدّسة، في يوم الاثنين الحادي والعشرين من شوّال سنة ٨٣٤/١٤٣٢، عندما حجّت زوجة السلطان الأشرف برسباي خوند جلبان الجاركسيّة بتجمّل كبير إلى الغاية، وفي خدمتها الزيني خشقدم الظاهري الزمّام، وهو أمير الرّكب الأوّل، والزيني عبد الباسط ناظر الجيش[٦].

---

(١) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٤، ص٣٦٩؛ ابن حبيب، **درة الأسلاك**، ج٢، ٢٢٨ ورقة؛ المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم٢، ص٤٧٢؛ ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج٤، ص ١٤٨؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص ٢٨٢.

(٢) الكوسات: كلمة فارسية، معناها خشبة مثلّثة تكون مع النجار يقيس بها تربيع الخشب. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٢، ص ١٨٧، "كوز".

(٣) النويري، **نهاية الأرب**، ج٣٢، ص ٢٩؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، قسم٢، ص ٤٧٢.

(٤) المقريزي، م. س.، ج٢، قسم، ص ٤٤٧.

(٥) المقريزي، م. ن.، ج٣، قسم٣، ص ٩٦١؛ ابن شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج٤، ج٤، ص ٢٠؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص ١٧٢.

(٦) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٢، ص ٨٥٨؛ ابن تغري بردي، م. س.، ج١٤، ص٣٥٤؛ ابن إياس، م. س.، ج٢، ص ١٣٩.

واختصّت قافلة الحجّ المصري بارتداء أمير المحمل لباسًا خاصًا، وحدث هذا الأمر عندما خرج ركب الحجّ من القاهرة يوم الثامن عشر من شهر شوّال سنة ١٤٣٤/٨٣٨، وأمير المحمل صلاح الدين بن نصر الله، وكان يومئذٍ أمير طبلخانه، وهو في زيّ الأتراك، وأمير الركب الأوّل تمرباي الدوادار الثّاني، وحجّت خوند بنت ططر زوجة السلطان جقمق [(١)].

وصفت قافلة الحجّ المصري بقافلة أمراء الألوف والعشرات، عندما انطلق محمل الحجّ يوم الاثنين التاسع عشر من شهر شوّال سنة ١٤٤٠/٨٤٤، مع الأمير تمرباي رأس نوبة، وبرفقته للحجّ ثلاثة من أمراء الألوف: تمرباي، وطوخ، وتمراز أمير سلاح، وسبعة أمراء ما بين عشرات وطبلخانات. يقول ابن الصيرفي: كنت في هذه السنة مع الأمير تمرباي مسافرًا للحجّ، فإن والدي كان من أخصائه، وكان بيدي وظيفة نظر المحمل وحسبته ونظر المواريث. ورسم السلطان جقمق لأمير الحجّ وأمراء الركب الأوّل ألا يكلفوا أمير مكّة وأمير المدينة وأمير ينبع بدرهم واحد، وكتب إليهم بذلك، وأكّد السلطان ذلك علىالأمراء عند وداعهم له[(٢)].

وما أحسن هذا الطلب لو عملوا به ودام !...

لقد تميّز خروج الرّكب المصريّ إلى الحجاز بتجمّله الزائد، وترفّهه الباهر سنة ١٥٠٧/٩١٣، فحجّ في هذه السنة من النّاس ما لا يحصى. وكان أمير ركب المحمل طراباي رأس نوبة، وحجّ من الأعيان جماعة كثيرة منهم القاضي صلاح الدين بن الجيعان، والقاضي شمس الدين التتاي وكان قاضي المحمل، وحجّت خوند سرية الأشرف قايتباي، وحجّت خوند جان كلدي زوجة الظاهر قانصوه[(٣)].

على مثل هذه الصورة، كان خروج محمل السلطنة المملوكيّة من القاهرة إلى الحرمين الشريفين، في أجمل حليةٍ وأروعها، وقد استمر اهتمام سلاطين المماليك بخروج المحمل المصري طوال حكمهم.

وجدير ذكره أن الظاهر بيبرس والناصر قلاوون كان لهما شأن عظيم في ذلك. وشاركت المرأة أيضًا في حمل الهدايا والنذور إلى الحرمين، ما يظهر أنّ رحلة الحجّ نالت اهتمام السلاطين والأمراء والنساء، وهذا كان كافيًا ليكشف حرص المماليك على رعايتهم أمور الحجّ والحجّاج.

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص٩٤٦- ٩٤٧؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج ٨، ص ٣٥٤؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ١٥، ص٦٠؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص ٣١٨؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص ١٦٢.

(٢) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٣، ص ١٢٢٥؛ ابن تغري بردي، م. س.، ج١٥، ص ٣٤٦- ٣٤٧؛ ابن الصيرفي، م. س.، ص ٢١٢- ٢١٣؛ ابن إياس، م. س.، ج٢، ص ٤٢١.

(٣) ابن إياس، م. ن.، ج٤، ص١٢٨.

واللافت في هذا السياق، أنّ الأتراك العثمانيين بدأ ظهورهم في ركب الحجّ المصريّ سنة ١٥٠٩/٩١٥، يوم غادرت القافلة القاهرة، وخرج في صحبتها أحد أمراء بني عثمان حاملاً نحو أربعين ألف دينار أرسلها ملك العثمانيين لتفريقها على فقراء مكّة والمدينة[١].

وإن دلّ تصرف بني عثمان على شيء، فإنما يدلُّ على السعي إلى التوسّع والسيطرة على الحجاز.

أمّا خروج المحمل المصريّ للمرّة الأخيرة في العصر المملوكي، فقد كان سنة ١٥١٦/٩٢٢ الّتي خلع فيها السلطان قانصوه الغوري على الأمير أرزمك الناشف أحد المقدّمين، خلعة الإمارة، وعيّنه في إمارة ركب المحمل، وخلع على الأمير "برسباي الفيل" أحد أمراء الطبلخانات خلعةً، وعيّنه أميرًا للركب الأوّل، وبعد مدة، خرج الغوري لقتال العثمانيين، فكان هذا التعيين آخر ما وقّع باسم السلطان المذكور. وكان هذان الأميران آخر أميرين عيّنا للحجّ في العصر المملوكي[٢].

في ضوء ما تقدّم، نرى أنّ قافلة الحجّ المصري في دورانها وتجهيزها وخروجها، كانت تظهر في أجمل صورة وأعظمها، إذ بذل سلاطين المماليك ما في وسعهم، لكي يتفوّق المحمل المصريّ على غيره من المحامل، ولا سيّما المغربي والشامي والعراقي واليمني.

أ- **قافلة الحجّ المغربي**

تنوّعت العلاقات مع بلاد المغرب ومع بني زيان في تلمسان، بينها وبين مصر في العصر المملوكي، والذي ظهر على أشده بعد انتصارات مصر على المغول، والتتتار، والصليبيين؛ فقد كانت رابطة الإسلام والتبادل الثقافي؛ ثم رابطة الحجّ باعتبار مصر مجاز الحجّاج المغاربة إلى الديّار الحجازية[٣].

ظهر اعتناء ملوك بني زيان بركن الحجّ، وبذلوا في سبيل إنجاح كل موسم ما يستطيعونه من المال لتمهيد الطرق وتأمينها وإقامة دليل لركب الحجيج المغاربة، وكذلك بالمراسلات مع سلاطين المماليك وشكرهم على ما كانوا يبذلونه لإنجاح مواسم حجّ المغاربة إلى البقاع المقدّسة. وكان ملوك المغرب عامّةً قد اعتادوا بعث الربعات الشريفة والمصاحف وحبسها على الحرمين وكانوا يكلفون كبار الشخصيّات والعلماء للقيام بهذا الدور الجليل[٤].

---

(١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٤، ص١٦٨؛ محمود رزق سليم، **عصر سلاطين المماليك**، مج٢، ص١٧٣– ١٧٤.

(٢) محمود رزق سليم، م. ن.، ج٢، ص ١٧٨.

(٣) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، ج٥، ص ١٥٩.

(٤) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، م. ن.، ج٥، ص ١٦٠.

لما كانت مصر طريقًا للحجّاج الوافدين من بلاد المغرب، انتهز الحجّاج المغاربة فرصة الحجّ ليحطوا الرحال بمصر فترة طويلة أو قصيرة يغترفون خلالها العلم والمعرفة من الأزهر[١].

لم يكن للمحمل المغربي هيكل خشبي وكسوة مثل سائر المحامل العربيّة، بل كان عبارة عن عدة قوافل تلحق بركب المحمل المصري في القاهرة، لتصاحبه في الذهاب والإياب وقد جعل ذلك العلاقات بين مصر والمغرب وطيدة على مر العصور. يعود تاريخ نشأة ركب الحجّ المغربي إلى أواسط العهد الموحّدي[٢]، ومؤسسه الإمام أبو محمّد صالح الماجري المتوفّى سنة ١٢٣٤/٦٣١م، فكان نداءه إلى أداء الفريضة وزيارة المسجد النبويّ في المدينة المنوّرة، من أهم مسؤوليّاته الدينيّة، وسار على نهجه من خلفه من تلاميذه.

وقد أولى أبو محمّد صالح هذا الركب شيئًا كثيرًا من عنايته، فأسس الأربطة العديدة لينزلها الحجّ المغربي في ذهابه وإيابه من آسفي في المغرب الأقصى إلى الحجاز[٣]. وقد دعي الركب المغربي بالركب الصالحي نسبة إلى مؤسسه صالح. وكان لتأسيس الرّكب الصالحي وما لاقاه من الاهتمام، ثمراته المفيدة ونتائجه الطيّبة؛ فقد فتح الطريق أمام الحجّ المغربي، وكثر القاصدون للأراضي المقدّسة، وقد ظهر أثره الكبير في اتساع نطاق الركب المغربي، حيث نشأت على مر الزمن خمسة ركاب لحجّ المغرب، وهي: الركب الفاسي- الركب السجلماسي- الركب المراكشي- الركب الشنجيطي والركب البحري. وفيما يلي، نستعرض الركب الفاسي لمقامه الممتاز بين سائر الركاب الأخرى.

١ – الركب الفاسي أو ركب السلطنة المغربيّة

انقطع سفر الركب الفاسي أو ركب السلطنة المغربيّة من المغرب الأقصى إلى الحجاز لفترة طويلة، بسبب فساد الطريق، وعبث بني زيان بالركب الواردة من المغرب الأقصى إلى الحرمين الشريفين، وتأزمت الأمور بين ملوك تلمسان والمرينيين في النصف الثّاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، إلى أن استولى السلطان يوسف بن يعقوب المريني على المغرب الأوسط بعد حكم بنو زيان الّذين كانوا يعوقون تقدم القوافل نحو مصر والمشرق العربي

---

(١) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، ج٥، ص ١٦١- ١٦٢.

(٢) العهد الموحّدي: الموحّدون اسم أطلق على أتباع حركة نادت بالتجديد والإصلاح الإسلامي، حكموا خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/الثّاني عشر والثالث عشر الميلاديين في دولة أقاموها في شمال أفريقيا وفي إسبانيا. ولقد أدركت دولة الموحدين ذروة نجاحها المادي والثقافي زمن ثلاثة من الحكّام الّذين خلفوا عبد المؤمن، الذي توفي سنة ١١٦٣/٥٥٨، وهؤلاء الحكام هم أبو يعقوب يوسف ١١٦٣/٥٥٨- ١١٨٤/٥٨٠، وأبو يوسف يعقوب المنصور ١١٨٤/٥٨٠- ١١٩٩/٥٩٥، ومحمد الناصر ١١٩٩/٥٩٥- ١٢١٣/٦١٠. G.Yver, "Al-Maġrib", *EI*2, vol.V, p.1179.

(٣) محمد المنوني، **من حديث الركب المغربي**، ص ٨.

فاستأنف الركب المغربي خروجه سنة ١٣٠٣/٧٠٣، حيث جهّزه السلطان يوسف بن يعقوب المريني[١]، وبعثه إلى الأراضي المقدّسة، وأصبح يضاهي ركب مصر والشام. وممّا يذكر من اهتمام المغاربة بهذا الركب، أنهم كانوا يهيّأون لهم الإعانات المادّية الوفيرة؛ ومن ذلك ما فعله السلطان أبو الحسن المريني سنة ١٣٣٨/٧٣٨عندما حجّت الأميرة مريم المرينية، إذ زوّد الركب بثلاثمائة كسوة، وقائده أربعمائة كسوة، وشيخ الركب خمسمائة كسوة، وجماعة الضعفاء من الحجّ ستمائة كسوة[٢].

والرّاجح أنّ المغاربة اهتموا أيضًا بتجهيز ركب الحجّ، ولا سيّما النسوة، ومنهن الحرة بنت السلطان أبي الحسن المريني. وكان لهنّ دور مميّز في حمل الهدايا إلى الحرمين الشريفين.

وكان لملوك المغرب دور أساسي في توطيد العلاقة مع أمراء الحجاز، وذلك رغبةً منهم بحماية الحجيج والسهر على مصالحهم. وقد توضّح هذا الأمر من جرّاء المراسلات التي بعثها المغاربة إلى أمراء الحرمين؛ إذ قام بعض ملوك المغرب منهم يوسف المريني وأبو الحسن وغيرهما، بكتابة رسائل إلى أمراء الحرمين، يوصون فيها بالحجّ المغربي. وبلغ من اهتمامهم بركب الحجّ أن أوقفوا أرضًا بضاحية فاس[٣].

كما أسّس المغاربة ببعض المدن زوايا ليجتمع فيها الحجّاج حتى يخرجوا منها للالتحاق بالركب، منها: زاوية الحجّاج التي كانت قائمةً بمكناس خلال عهد بني مرين[٤].

تلك بعض الأمثلة من اهتمام ملوك المغرب بالركب الفاسي، وهي تدلّ دلالةً واضحةً على مدى اهتمامهم بأمور الحجّ.

(١)- هيئة الركب الفاسي

تألفت هيئة الركب الفاسي العليا من رئيس يسمى شيخ الرّكب وأمير الركب يختاره الملك من علية القوم ومن قاض ومن قائد ودليل، كان هؤلاء يوجهون مسار الركب وينظّمون شؤون الحجّاج. وتذهب مع الركب حامية لحراسته كانت في عهد يوسف المريني تناهز خمسمائة فارس من الأبطال [٥].

---

(١) المريني: المرينية، المتحدّرة من قبيلة بربرية بدوية، حكمت في المغرب الأقصى، ٦٠٦/١١٩٥- ٨٧٥/١٤٧٠. يتّسم حكمها بالعظمة والقوة والحضارة، برز منهم يعقوب بن عبد الحق، وابنه يوسف. G.Yver, "Al-Mağrib", *EI₂*, vol.V, p. 1180.

(٢) المقري، **نفح الطيب**، ج٢، ص٧١٠- ٧١١؛ محمد المنوني، **من حديث الركب المغربي**، ص ٩- ١١.

(٣) العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٤٠؛ عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، ج٥، ص ٢٩١.

(٤) محمد المنوني، م. س.، ص١١.

(٥) محمد المنوني، م. ن.، ص١٢.

وقد رافق الرّكب المغربي في ذهابه إلى الحجّ كثير من صلحاء المغرب، وجماعة من أعلامه، وكان كبيرهم أبو عبد الله القصار، وأبو عبد الله البقوري، وذلك سنة ١٣٣٠/٧٣٠. أما خلال السنوات ١٣٣٨/٧٣٨-٧٤٠/ ١٣٤٠- ١٣٤٥/٧٤٥، فتميّز خروج الرّكب المغربي إلى الحجاز بمظاهر البذخ والترف، لاشتماله على نساء وبنات وأخوات ملوك المغرب، منهن: الأميرة الحُرّة (١٣٣٨/٧٣٨) الّتي حجّت تصحبها خيرة الأميرات ووجوه الدولة من أعيان بني مرين والعرب (سنة٧٤٠/ ١٣٤٠)، والأميرة أخت أبي الحسن حجّت في ركب سنة ١٣٤٥/٧٤٥[١].

واصل الحجّاج المغاربة سفرهم بصحبة الركب المصري إلى بلاد الحجاز، ففي سنة ١٤٢٢/٨٢٥ كان قاضي الركب المحدث زين الدين عبد الرحمن بن محمّد العدناني(١٤٣٥/٨٣٩)[٢]. استمر سفر الحجّاج المغاربة برفقة قافلة الحجّ المصري، فحج ركب كبير من المغاربة والتكاررة سنة ١٤٥١/٨٥٠[٣]. كما قدم إلى القاهرة الشيخ عبد اللطيف، قائد ركب المغاربة سنة ١٤٨٤/٨٨٩، صحبة الركب التونسي، وفي عديده نحوًا من ألف وخمسمائة شخص من المغاربة[٤].

(٢) - شارات الرّكب الفاسي

من شارات الرّكب الفاسي، رايته الّتي كان يحملها بين يديه بعض أفراد رجاله، وطبل كبير من نحاس يضرب فيه وقت نهوض الرّكب ووقت جلوسه ضربة الإعلام بالتأهب، إشارةً للانطلاق أو الاستراحة أثناء المسير[٥].

ويبدو أنّه كان للرّكب الفاسي شارات تميّز فيها عند خروجه إلى الدّيار المباركة، وذلك لرصد تحرّكاته في المسير، وأثناء التوقّف والانطلاق.

(٣) - الاحتفال والاستعداد للسفر إلى الحجاز

يبدأ الاستعداد من دنوّ وقت سفر الرّكب، فيقوم خطباء المساجد بالدّعوة إلى الحجّ والحضّ عليه، والتشويق لزيارة الأماكن المقدّسة وفي أواخر ربيع الأوّل يعلن في فاس بواسطة المنادي عن يوم خروج الرّكب، وفي أوائل جمادى الأوّل من العام التالي تكون العودة إلى بلاد المغرب[٦].

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٨، ص ٩٩؛ محمد المنوني، **من حديث الركب المغربي**، ص١٣.

(٢) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٣، ص ٢٨١.

(٣) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٣٣١.

(٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص ٢١١.

(٥) محمد المنوني، م. س.، ص ١٤.

(٦) محمد المنوني، م. ن.، ص ١٤- ١٥.

وكما نرى إذًا، أن الاستعدادات والاحتفالات للخروج إلى الحجاز كانت لحثّ همم الحجّاج واستنهاضهم لأداء الفريضة قبل فوات الأوان.

(٤)- إمرة الحجّ المغربي

كانت خلعة الإمرة تُخلَعُ على من يستحقّها من أصحاب الألقاب وفق معايير معيَّنة، ومن هؤلاء الأمراء الذين تولّوا الإمارة نذكر: الشيخ أبو زيد الغفاري، عقد له السلطان يوسف المريني على السير بركب سنة ٧٠٤/١٣٠٤. أما الشيخ الجليل أبو العباس أحمد بن يوسف حفيد أبي محمّد صالح المتوفّى أواخر القرن الثامن، فقد قاد الركب مرات عديدةً. وفي سنة ٧٣٨/ ١٣٣٨ تولّى الحسن بن عمران إمرة الحجّ، ثم قاد أبو الحجّاج يوسف بن الحسن بن أبي بكر التسولي الورتناجي ركب سنة ٧٤٠/١٣٤٠[١].

والرّاجح أن خلعة إمرة الحجّ المغربي، كان ينالها من يستحقّها من أصحاب الألقاب وفق شروط محدَّدة، وذلك على نسق خلعة إمرة الحجّ المصري، من حيث الألقاب والرتب، وتختلف عنها، أنّ السلطان المملوكي كان يخلع الخلعة على أمير الحجّ في احتفال رسمي كبير.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن الركب المغربي لاقى في بعض حجاته احتفالاتٍ فخمةً، خلّدت صداه، من ذلك أنّ الركب الذي حجّت فيه الأميرة مريم المرينيّة، كان يوم وفادته على مصر يومًا مشهودًا، تحدَّث النّاس به دهرًا، وخرج للقائهم والسلام عليهم أحد أهم الشخصيّات من رجال سلطان مصر الناصر بن قلاوون، حيث بالغ السلطان بالاحتفال بالرّكب المغربي، والاهتمام به من يوم دخل مصر إلى أن قضى مناسكه[٢].

ويتّضح أنّ الرّكب المغربي لاقى اهتمامًا من سلاطين مصر بسبب الهدايا الّتي حملها، وهي بمعظمها كانت ثمينةً وغاليةً من حيث النوعية والجودة.

(٥)- هدايا وصرّة الرّكب الفاسي

اختصَّ المغاربة بكرم وإحسان فائقين، ومن مظاهر ذلك: الهدايا النقديّة الّتي كان يحملها كثير من ملوك المغرب للرّكب الفاسي، حيث توزَّع على أهل الحرمين الشريفين وغيرهما، وهذه الهدايا اهتمت بالصرّة المغربيّة وأهمها هدايا الملوك الّتي كانت في بعض السنوات تصل إلى مبالغ طائلة. وأوّل ما يذكر في هذا الصدد أنّ السلطان يوسف المريني أرسل مع الرّكب المغربي أموالاً

(١) محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، ص٣٠- ٣١.

(٢) محمد المنوني، م. ن.، ص ١٩.

كثيرةً، بقصد تفريقها على أهل مكّة والمدينة، وبعث السلطان أبو الحسن المريني مع ركب الأميرة مريم ثلاثة آلاف وثمانمائة دينار ذهبًا برسم العطاء للعرب[١].

وزيادةً على الصرّة المغربيّة، فقد كان الوفد الفاسي يحمل هدايا أخرى للحرمين الشريفين تتألّف من مصاحف مهمّة، وكتبٍ قيّمةٍ وجواهرَ فاخرةٍ. كما كان يحمل هدايا ثمينةً إلى أمراء الحرمين الشريفين، من تلك الهدايا الملكيّة أهدى يوسف المريني مصحفًا بخطٍّ يده بغاية الضبط والإتقان، وبالغ في تنميقه بالأصباغ والألوان، وبعث أبو الحسن المريني مع هذه الذخيرة المغربيّة هديّةً إلى السلطان الناصر عظيمةً جدًا، زادت قيمتها على مائة ألف دينار مصري[٢].

وهكذا، تواصلت هدايا الدولة المغربيّة، إذ إنّ المولى إسماعيل بعث إلى الرّوضة النبويّة ياقوتةً عظيمةً، وصفها بعض الرحّالة بأنه ما رأى مثلها في الصفاء والكبر، وزنها رطل وستّ أواق، وعليها شباك من ذهب مرصّع بالياقوت [٣]. وجدير ذكره أنّ بعض أميرات بني مرين كن يقدّمن وهنّ في المغرب تحفًا عديدةً هدايا إلى المشاعر الكريمة.

وقد تبادل ملوك المغرب وأمراء الحرمين الهدايا، فكان الرّكب المغربي يستجلب طرائف يبعثها معه أمراء الحرمين. كما أرسل أشراف مكّة ثوبًا من كسوة الكعبة للسلطان المريني يوسف حيث أعجب به. والغالب أنّ الناصر محمّد بن قلاوون بعث كذلك لأبي الحسن المريني كسوةً كاملةً[٤].

إنّ رحلة الحجّ هكذا كانت بالروح والبدن يهفو إليها المسلم، وتتوق إليها روحه. وكما كانت الدافع الأوّل لخروج الرحّالة الكبار أمثال ابن جبير وابن بطُوطة وغيرهما، فمنذ أن خرج ابن جبير من غرناطة حاجًّا سنة ٥٧٨/١١٨٣، لم يفارقه شغفه بالترحال، وقام برحلتين أخريين إلى المشرق؛ الأولى عند فتح القدس، والثّانية في أواخر حياته. ولم يعد ابن جبير إلى موطنه مرة أخرى، وقضى ما تبقّى من حياته بين مكّة والقدس والقاهرة والإسكندرية، مشتغلاً بالحديث والعبادة، تاركًا تراثًا رائعًا من أدب الرحلات[٥].

أمّا ابن بطُوطة سيّد الرحّالة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فقد خرج من طنجة للحجّ وهو في الثّانية والعشرين من عمره، واجتاز في طريقه شمال أفريقيا ومصر والشام،

---

(١) محمد المنوني، **من حديث الركب المغربي**، ص٢٢- ٢٣.

(٢) محمد المنوني، م. ن.، ص٢٥- ٢٦.

(٣) ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج٥، قسم٤، ص٩٠٣- ٩٠٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة**، ج١، ص٤٢٥.

(٥) صلاح محمد أبوزيد، "رحلة الحجّ المباركة ودورها في تطور أدب الرحلات"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثّاني، ص٥٥.

وبعد أن أدّى الفريضة، لم يعد إلى دياره، فاتجه شرقًا إلى فارس والقرم والقسطنطينية، ثم اتّجه إلى خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند، فكان يحجّ ويدرس ويرتحل ويشتغل بالعلم ويتولى القضاء، ويقيم ما يشبه الحياة الاجتماعيّة المتكاملة في كل مكان تحطُّ فيه رحاله، ثم يعاوده الحنين إلى الرحلة المباركة، فيذهب إلى مكّة، مستعملاً كل وسائل النقل البدائيّة المتاحة آنذاك، من السير على قدميه، إلى ركوب الجمل والسفينة والحصان والعربات[١].

ولعلّ ابن جبير وابن بطُوطة يمثّلان نموذجًا صادقًا للرحّالة العاشق للسفر والمغامرة.

واللافت في هذا السياق، حرص ملوك المغرب على توطيد علاقتهم بالشّرق، ولا سيّما أنّ مصر كانت طريق حجّهم، فكان حكام المغرب يداومون الكتابة إلى سلاطين مصر يطلبون الإذن لحجّ بعض رجالهم وخصوصًا نساء دولتهم من أمهات الملوك وزوجاتهم. ولم يكن سلاطين مصر يتردّدون في منحهم الأمان والحرية خلال رحلتهم الطويلة، فكانوا دائمًا يستقبلون موكب حجّاجهم ويحافظون عليه، سواء داخل الحدود المصريّة أو في بلاد الحجاز. وهناك الكثير من الرسائل الّتي تبادلها ملوك المغرب مع سلاطين المماليك، ومنهم المنصور سيف الدين قلاوون، من أجل إقامة صداقة دائمة. وهذه الرسائل كانت مقرونة دائمًا بكثير من الهدايا التي يقابلها سلاطين المماليك بهدايا مماثلة[٢].

جدير ذكره أن دور قوافل الحجّ لم يقتصر على دعم العلاقات الدينيّة السياسيّة بين مصر والمرينيين، بل أدى إلى تنشيط الحركة التجاريّة في بلاد المشرق، حيث كان الحجّ المغربي وسيلة لتصدير السلع المغربيّة إلى مصر وبلاد المشرق، كما أنها أدت إلى انتعاش الصناعات المغربيّة الّتي كانت تحملها القوافل، وكانت الخيول لها حظ كبير في هذه التجارة لحاجة مصر الشديدة إليها، حتى كان يدفعهم إلى إرسال الرسل لطلبها فقد بعث السلطان برقوق برسائله وهداياه إلى سلطان فاس أبي العباس بن أبي سالم لشراء أعداد من الخيول المغربيّة[٣].

ثانيًا- قافلة الحجّ الشامي والحلبي

الواقع أنّ المحمل الشامي كان أسبق من المحمل الحلبيّ من ناحية النشأة والبداية، والرّاجح أن بداياته كانت في عصر دولة بني أميّة بالشام، حيث كانت تفد منها قوافل الحجّ تباعًا منذ استقرارها هناك.

أمّا المحمل الحلبيّ، فعرف في الزمن الأخير من عصر المماليك.

---

(١) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٥، ٢٤؛ صلاح محمد أبوزيد، "رحلة الحجّ المباركة ودرها في تطور أدب الرحلات"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثّاني، ص ٥٥.

(٢) ابن عبد الظاهر، **تشريف الأيام**، ص٥٠.

(٣) عبد الفتاح مقلد الغنيمي، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، ج٥، ص ٢٩٣.

أ- محمل الحجّ الشامي في العصر المملوكي

جرت العادة قبل سفر قافلة الحجّ من دمشق إلى الدّيار المقدّسة، أن يحتفل بها في موكب عظيم، يحضره نائب السلطنة والأمراء وأهل المذاهب والأعيان والفقهاء، وتعزف موسيقى الطبول والمزامير.

وقد وصف الجزري احتفال سنة ٧٢٦/١٣٢٦ فقال: في يوم الخميس الثالث من رجب، أخرج المحمل السلطاني من قلعة دمشق إلى سوق الخيل، وحضر الحفل نائب السلطان والقضاة والأعيان والقرّاء والأئمّة، وتهيأ الحجّاج لشراء ما يحتاجون إليه(١).

وجديرٌ ذكره، أنّه كان هناك قومٌ يحملون الحجّاج، ويوفرون لهم الطعام والشراب، على أن يؤدّوا إليهم قدرًا معلومًا للراكب والفرس والجمل والأكل والمحمل والمحرات(٢)، وكان هؤلاء يسمُّون مقوّمين، لأنهم كانوا يقومون بأمر الحجّاج في جميع ما ذكر، حتى الخيام كانوا ينصبونها لهم، فلا تجد أحدًا في هذا الركب الشامي يطبخ أو ينصب خيمة، إلا إذ أراد أن يطبخ شيئًا زائدًا على ما يأتي به القوم(٣). لكن الاستعداد لدوران المحمل في دمشق كثيرًا ما تعرّض لنكسات متنوّعة بمقتضى الظروف؛ وهذا ما حصل سنة ٧٩٢/١٣٩٠، بعد الانتهاء من سوق المحمل حيث خرج العسكر، والنواب والأمراء، وذلك أن منطاش ونعير اتفقا على محاربة نواب الشام، فالتقوا بالقرب من حمص، فقتل في الحادثة خلق من النواب والأمراء وغيرهم(٤).

ب- بطلان دوران المحمل

حصلت فتنة في دمشق سنة ٧٩٣/١٣٩١، فتوقّف دوران المحمل، وكثرت القتلى في الشوارع، ولم يكن أحد يقدر أن ينام من أصوات المدافع(٥).

وإن دلّ هذا الأمر على شيء، فإنما يدلّ على شراسة المفسدين والعابثين بأمن النّاس، ما لم يكن هناك من سبيل لوضع حدّ له إلاّ بقوة الحاكم.

ج- إحياء دوران المحمل

أعيد العمل بدوران المحمل على عادته، فأدير في شهر رجب ٧٩٦/أيار ١٣٩٤، وتهافت الناس لينظروا إليه(٦). حرصت سلطنة المماليك على الاهتمام بالمحمل الشامي، وبدا البذخ والترف

---

(١) الجزري، **تاريخ حوادث الزمان**، ج٢، ص١١٠.

(٢) المحرات: محر، المحارة دابة في الصدفين. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٣، ص٣٥، "محح".

(٣) R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.144.

(٤) ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج١، ج٣، ص٣٤٢.

(٥) ابن صصرى، **الدرة المضيئة**، ص ٨٤.

(٦) ابن صصرى، م. ن.، ص ١٥٨، ١٦٩.

في تجهيزه، سنة ١٤٠٣/٨٠٦، فهيّأه نائب الشام[1] للذهاب إلى مكّة، وكان قد تعطّل الحجّ من طريق دمشق إلى مكّة، ونودي بخروج الحجّ على طريق المدينة، فاهتمّ النائب بأمره، فبلغ مصروف ثوب المحمل، وهو حرير أصفر مذهّب، نحو خمسة وثلاثين ألف درهم فضّة[2].

وقد استمرّ دوران المحمل الشامي على العادة طيلة القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ولم يشر المؤرّخون إلى مستجدّات حصلت في هذه الفترة في ما يخص دوران المحمل الشامي، وظلّ يحتفل به كالعادة كما حصل في سنة ١٤١١/٨١٣، حيث أدير محمل الحجّ في دمشق[3].

وفي سنة ١٤٣٢/٨٣٥، أدير فيها المحمل في الثالث من رجب[4]. وظلّ دوران المحمل على نمطه السابق فأدير في اليوم الرابع عشر من رجب سنة ١٤٣٩/٨٤٣ وكان حافلاً.

أما في سنة ١٤٤٠/٨٤٤، فأدير المحمل في الثالث عشر من شهر رجب وكان حافلاً، إلاّ أنه أبطل النفط الّذي كان يعمل بالرميلة[5] [6].

مع بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، جرى تكريم المحمل الشامي على غير عادته المألوفة؛ فبعد الاحتفال بدوران محمل الحجّ الشامي في شهر رجب بحسب العادات والتقاليد الّتي كانت متّبعة في عمليّة طواف المحمل، جرى خرق هذا النمط الموروث، وأشار ابن طولون[7] إلى ذلك فقال: في يوم السبت مستهلّ رمضان سنة ١٥٠٣/٩٠٩، أدير المحمل على العادة القديمة خارج سور دمشق، وفي يوم الخميس أيضًا رابع شوّال منها، أدير المحمل المذكور أيضًا، ومن المدهش أن يدار المحمل في دمشق في نحو شهر وأيّام مرّتين[8].

---

(١) نائب الشام، جمع نواب، ولا تصدر عنهم ولاية في جليل ولا حقير، بل التولية والعزل منوطان بالسلطان، ونواب السلطنة بالممالك الشامية، هم نائب السلطنة بالشام، ونائب السلطنة بحلب، ونائب السلطنة بطرابلس، ونائب السلطنة بحماه، ونائب السلطنة بصفد، ونائب السلطنة بغزة. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص٢٧٥.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ج٣، قسم٣، ص١١٢١؛ ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي** شهبة، مج٤، ج٤، ص٣٥٢؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٥، ص١٥٢؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، قسم٢، ص٦٨٦- ٦٨٧.

(٣) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم١، ص ١٤٦.

(٤) ابن حجر، م. س.،ج٨، ص ٢٥٧.

(٥) الرميلة: تصغير رملة، تقع تحت قلعة الجبل، كانت ميدان أحمد بن طولون، وبها كانت قصوره وبساتينه. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٤، ص ٤٩.

(٦) ابن حجر، م. س.، ج٩، ص١٠٦، ١٣٥.

(٧) ابن طولون، شمس الدين محمد بن أحمد، مؤرخ، عالم بالتراجم والفقه. من أهل الصالحية بدمشق، ونسبته إليها. من كتبه **إعلام الورى، ومفاكهة الخلان في حوادث الزمان**. الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ص ٢٩١.

(٨) ابن طولون، **أعلام الورى**، قسم٢، ص١٧٣.

لكنَّ الحدث البارز في عمليَّة دوران المحمل، تمثَّل في بقائه حتى بداية مجيءِ العثمانيين، حيث احتفل سنة ١٥١٨/٩٢٤ بدوران المحمل في دمشق، ومعه خيول ملبَّسة، وهجن مكوَّرة، وجمال مرحَّلة، ورجَّالة مدرَّعة، في نمط عظيم، وخرج من دار السعادة، وعاد إليها ومعه السنجق، وهما على هيئتهما الَّتي كانا عليها في أيَّام الجراكسة، وجلس نائب الشام جان بردي الغزالي في الشباك الكبير، من شبابيك خرم جامع يلبغا، وجيء بجمل المحمل إلى قدَّامه، فبرك على ركبتيه، ثمَّ نهض كأنه يقبّل الأرض له [١].

لقد أصبحت دمشق الممرَّ الرئيسي إلى مكَّة بالنسبة إلى المسلمين من قوقاز الفرس في الغرب وأنطاكية خلال القرون الثلاثة من سيطرة المماليك؛ لكنَّ القاهرة كانت وحدها تجهِّز محمل السلطان الديني.

د- نفقات الركب الشامي

اشتملت نفقات الركب الشامي إلى مكَّة على الهدايا المخصَّصة للدِّيار المقدَّسة، ودفع المكوس إلى عرب البدو لتأمين سلامة الركب، ونفقات القيِّمين على الركب ورواتب الموظفين. أمَّا الأموال، فكانت تجبى عن طريق فرض الضرائب على النَّاس، سواء أكانت عينيَّةً أم ماديَّةً، ما أدَّى إلى التذمُّر والخوف ممَّا هو أعظم، إلى درجة أن النَّاس طالبوا بإلغاء موسم الحجّ لشدة الرسوم والضرائب المفروضة[٢].

هـ- خلعة إمرة الحجّ الشامي

كان يتولَّى أمور قافلة الحجّ قائد الركب أو أمير الحجّ، فيخلع عليه السلطان خلعة إمرة الحجّ، وغالبًا ما يكون نائب الولاية هو أمير الحجّ.

أما أبرز الذين عُيِّنوا لإمرة الحجّ في العصر المملوكي، فكانوا على النحو التالي:

اسم الأمير	سنة التعيين	معلومات
عماد الدين يوسف بن الشقاري	سنة ١٢٧٩/٦٧٨	أمير الحجّ[٣]
سيف سنقر الإبراهيمي	سنة ١٣١٤/٧١٤	أمير الحجّ

(١) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج٢، ص ٨٦.

(٢) R.Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.94.

(٣) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج١٢، ص٤١.

لوكنجار المحمدي	سنة ١٣٢٤/٧٢٤	حجّ بالناس[١]
ناصر الدين بن البدري الحاجب	سنة ١٣٣٨/٧٣٨	حجّ بالناس[٢]
فيروز الأرمني	سنة ١٣٥٠/٧٥٠	حجّ بالناس[٣]
الطنبغا العثماني	سنة ١٣٩٦/٨٠٠	أمير الحجّ[٤]
آق بغا التركماني	سنة ١٤٣٨/٨٤١	أمير الحجّ[٥]
خليل بن شاهين الشيخي	سنة١٤٤٧/٨٥١	أمير الحجّ[٦]
تمرباي	سنة ١٥٠٤/٩١٠	أمير الحجّ
صنطباي	سنة ١٥١٣/٩١٩	أمير الحجّ[٧]
أصباي	سنة ١٥١٤/٩٢٠ وسنة ١٥١٥/٩٢١	أمير الحجّ[٨]
أصلان	سنة ١٥١٨/٩٢٤	أمير الحجّ[٩]

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص ٩٧، ١١٣.

(٢) الجزري، **تاريخ حوادث الزمان**، ج٣، ص١٠٢٥.

(٣) ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج١، ج٣، ص٦٧٣.

(٤) ابن قاضي شهبة، م. ن.، مج١، ج٣، ص ٦٦١.

(٥) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٩، ص٩.

(٦) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣٧٣.

(٧) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج١، ص٣٧٨، ٢٩٨.

(٨) ابن طولون، **أعلام الورى**، قسم٢، ص٢٣٧.

(٩) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص٥٨٠.

تلك طائفة من الأمراء الّذين تولّوا إمرة الحجّ في العصر المملوكي ولكن هل كانوا علـى قدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم، من أجل رعاية الحجيج وتأمين سلامة الطريق، وإرشاد عبـاد الرّحمن إلى أداء مناسك الفريضة بحسب الأصول؟!

و- مغادرة ركب الحجّ الشامي إلى الحجاز

بعد استكمال تجهيز المحمل، وتزويده بالعناصر البشريّة اللازمة، من تعيين أمير الحـجّ، وتكليف قاضي الرّكب، وإلحاق الموظّفين والعمال المختصين للإشـراف علـى شـؤون الحجـيج والدواب، كان ركب الحجّ الشامي يستعدّ للخروج من قلعة دمشق تأهّبًا للتجمع في المركز المحـدّد، كي ينضمّ الحجّاج المتأخّرون عن القافلة.

لقد كانت بداية مسير الرّكب الشامي إلى الـدّيار المقدّسـة فـي زمـن المماليـك سـنة ١٢٦٩/٦٦٧، عندما سافر الطواشي جمال الدين محسن الصالحي شيخ خدام الحجرة النبويّة إلـى الحرمين الشريفين بصحبة قافلة الحجّ الشامي(١).

تواصل خروج الركب الشامي إلى الحجاز باحتفال رسمي وشعبي واهتمام نائب السـلطنة والأمراء. وأثار مسيره سنة ١٣٢٠/٧٢٠ دهشةً وإعجابًا، لشموله على مجموعة نيّرة من القضـاة والعلماء الذين رافقوه إلى الحرمين الشريفين؛ فخرج الرّكب في الحادي عشر من شـهر شـوّال، وأميره صلاح الدين بن الأوحد، وفيه زين الدين كتبغا الحاجب، وكمال الدين الزملكاني، والقاضي شمس الدين بن المعزّ، وقاضي حماه شرف الدين البازري، وقطب الدين ابن شـيخ السلامـية، وبدرالدين بن العطار، وعلاء الدين بن غانم، ونورالدين السخاوي وهو قاضي الرّكب الشامي، ومن المصريين، قاضي الحنفية ابن الحريري، ومجد الدين حرمي وعيسى المالكي، وهو قاضي الركب المصري.

وفي سنة ١٣٢١/٧٢١، ضمّ ركب الحجّ الشامي مجموعةً من العلماء والقضاة والخطبـاء والفقهاء، منهم: أمير الحجّ شمس الدين حمزة التركماني، وقاضيه نجم الدين الدمشقي، وتنكز نائب الشـام، وفي صحبته جماعة من أهله. وكان في عداد هذا الركب الخطيب جلال الدين القزوينـي وعزالدين حمزة بن القلانسي(٢).

هذه صورةً واضحةً الملامح عن الطاقم البشري لقافلة الحجّ الشامي إلى الحرمين الشريفين، وقد يظهر منها مدى قوّة هؤلاء وخبرتهم الدينيّة والمسلكيّة لفضّ النزاعات الّتي قد تنشأ بين الحجّاج أنفسهم، وبينهم وبين البدو وقطاع الطرق والمجرمين المتربصين في الطريق إلى الدّيار المقدّسة.

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص٥٨٠.

(٢) أبو الفداء، **المختصر في أخبار البشر**، مج٢، ج٤، ص٩٠- ٩١؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص ٩٧، ٩٩- ١٠٠.

ولقد تميَّز خروج ركب الحجّ الشامي سنة ١٣٢٣/٧٢٣ بانضمام جماعة من حجّاج الشرق، من بينهم: بنت الملك أباقا بن هولاكو، وعمة قازان وخرابنده، فأكرمت وأنزلت بالقصر الأبلق، وأمير الركب قطلجا، وقاضي الركب شمس الدين، وقاضي القضاة ابن مسلم الحنبلي، وحجّ معهم جمال الدين المزي، ومن جملة من كان في الرّكب الشامي من المصريين، قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وولده عز الدين وفخر الدين كاتب المماليك، وشمس الدين الحارثي، وشهاب الدين الأذرعي، وعلاء الدين الفارسي[1].

وممّا لا شك فيه، أنّ العناصر البشريّة الموجودة برفقة الحجّ الشامي، تظهر أهميّة القافلة وعظمتها مقابل الركب المصري وغيره في مكّة. من هنا كان ينشأ التنافس والصراع من أجل السيطرة وفرض النفوذ على الحجاز.

لقد أعطى رحيل ركب الحجّ الشامي إلى الحجاز انطباعًا مهمًّا عن أفراده الذين واكبوه في مسيره سنة ١٣٣١/٧٣١، وكان أميره عزّ الدين أيبك، وقاضيه شهاب الدين الظاهري. وممن حجّ فيه، شهاب الدين بن جهيل، وابن جملة فخر الدين المصري، وقد صوَّر ذلك الشيخ بدر الدين بقوله: اجتمع في ركبنا هذا أربعمائة فقيه، وأربع مدارس وخانقاه، ودار حديث، وقد كان معنا من المفتين ثلاثة عشر نفسًا، وكان في المصريين جماعة من الفقهاء، منهم قاضي المالكية تقي الدين الأخنائي، وفخر الدين النويري، وفي ركب العراق الشيخ أحمد السروجي[2].

وإن دلّ ذهاب ركب الحجّ الشامي إلى الحجاز على شيء فإنما يدلّ على عظمته الزائدة.

واظب الركب الشامي على خروجه إلى الحجاز في تجمل زائد طوال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وفي عداده القضاة وبعض الأمراء والحجّاب والأئمة والقرّاء والمؤذنين، تاركين بصماتٍ وآثارًا مهمةً في مختلف النواحي الدينيّة والثقافيّة، وتوارث العادات الاجتماعيّة من جراء الاختلاط بجماعات متنوّعة الجنسيّات، جاءت لأداء الفريضة أو للتجارة والمجاورة في الحرم.

وهكذا صار رحيل ركب الحجّ الشامي إلى الدِّيار المقدّسة تقليدًا متّبعًا تمارسه الهيئات الرسميّة والشعبيّة قبل السفر، ويرافقه العديد من الشخصيّات المرموقة والممثلة في مناصب ووظائف البلاد. وحافظ الحجّاج على ذلك ذهابًا وإيابًا، إلا إذا حصلت بعض النكسات الّتي تؤدي إلى تأخيره أو إبطاله. كما حدث سنة ١٥١٧/٩٢٣، عندما أعلن توقف الحجّ الشامي. وتحقّق ذلك بعدم طلوع السنجق إلى الجامع الأموي على العادة[3].

---

(١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص ١٠٥- ١٠٦.

(٢) الجزري، **تاريخ حوادث الزمان**، ج٢، ص٤٦٩؛ ابن كثير، م. س.، ج١٤، ص ١٥٤.

(٣) ابن طولون، **أعلام الورى**، قسم٢، ص٢٥١.

بعد ذلك، نودي بدمشق بأنّ القفول والمسافرين يستمرّون على عادتهم من غير اعتــراض عليهم، وكان قبل ذلك قد نشر الخبر بإبطال الحجّ من الطريق الشامي[١].

وقد اتّسمت حركة سفر الركب الشامي إلى الدّيار المقدّسة بالانتعاش والنشاط، وفي بعــض الأحيان بالركود نتيجة الوضع السياسي المتأزّم، أو نتيجة لانتشار البدو وعرب الشام عند بدء موسم الحجّ، خصوصًا عند معاناتهم لأي أزمةً معيشيّة واقتصاديّة.

ز- ركــب الحــجّ الحلبــي

حلّ ركب الحجّ الحلبي في بعض السنين محل القافلة الشاميّة، عندما كانت تحــدث بعــض القلاقل والمناوشات بين أهل الشـــام الطامعين في ملك دمشـــق، وكانت بــدايته في أواخر القــرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي .

١- مرسوم إمـــارة الركب الحلبي

نظرًا للأهميّة المقدّرة للركب الحلبي الّذي كان يتوجّه إلى الحجاز، فقد أورد القلقشندي في "صبح الأعشى" ما نصه:

مرسوم إمارة الركب الحلبي لشهاب الدين "أحمد بن الطنبغا" سنة ١٣٨٥/٧٨٧.

رسم بالأمر العالي... أن يستقر فلان من أعيان الموالي الأمراء الطبلخانات بحلب... أميرًا على ركب الحجّ الحلبي... على أجمل العوائد... ويدخل به حرمًا آمنًا يتخطف الناس مــن حولــه، ويفتح به إلى المقام بابًا من الأمن إلى يوم القيامة مقيم، ويذكر وقوفه بعرفات... وليجعل تقوى الله إمامه في القول والعمل[٢].

يحدّد المرسوم صفات أمير ركب الحجّ الحلبي ومكانته ورتبته ومقامه، فضلاً عن مهامــه ومسؤوليّاته تجاه الحجّاج. فشروط تعيين الأمير ليست ميسّرةً لأيِّ شخص كان، بل قــد يتعــرّض منصب الإمرة للاهتزاز نتيجة سوء تصرف الأمير في ممارسة عمله أونتيجة جشعه فــي قــبض المال.

٢- قدوم الرّكــب الحلبــي

أتى المؤرّخون على ذكر بداية قدوم الركب الحلبي سنة ١٣٨٦/٧٨٧، وأشار إلى ذلك ابن قاضي شهبة فقال: وفي شهر شوّال سنة ١٣٨٦/٧٨٧ قدم الركب الحلبي ومعهم محمل ســلطاني،

---

(١) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج٢، ص٧١.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص٤٣٤- ٤٣٥.

وهذا شيء لم يعهد من قبل، وفيهم جماعة من الأمراء الكبار، منهم آق بغا الجوهري، ومأمور نائب حماه وغيرهما [١].

علمًا بأنّ المحمل الحلبي لم يستمر كثيرًا بديلاً من المحمل الشامي إلاّ في الأوقات الحرجة، فقد كان المحمل الحلبي يخرج مع المحمل الشامي، كما حدث في سنة ١٣٩٠/٧٩٢، فبعد البداية بعشر سنوات، وفي سنة ١٣٩٥/٧٩٧ في عهد السلطان المملوكي الظاهر سيف الدين برقوق، قدم إلى مكّة مع الحجّاج الشاميين ركبٌ حلبي، وهذا لم يعهد من قبل، وهو محملٌ صغير وثوبه أصفر [٢].

وقد ثابر الركب الحلبي على خروجه إلى الحجاز؛ ففي شهر شوّال سنة ١٣٩٦/٧٩٨، غادر المحمل الحلبي على أثر المحمل الشامي، ولم يحجّ في تلك السنة أحدٌ من الفقهاء سوى الشيخ شهاب الدين بن الحباب [٣].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الحلبيين كانوا يغادرون إلى الحجّ بأعداد كبيرة مقارنةً مع الشاميين، وقد أشار ابن طولون إلى ذلك فقال: في يوم الأحد الخامس عشر من شهر شوّال سنة ١٤٨١/٨٨٥، سافر الحجّ الشامي ونزل القبّة، وأميرهم يلباي دوادار، وهو قليل جدًا، لكن الحلبيين كثر، وقاضيهم شمس الدين الكفرسوسي الشافعي [٤].

وعشيّة الجمعة في السابع عشر من شهر شوال سنة ١٤٨٥/٨٨٩، انطلق الرّكب الحلبي إلى الدّيار المقدّسة، حيث توجّه الوفد الحلبي إلى قبّة يلبغا، والكسوة، وخان ذي النون، وفيهم مفتي حلب العلامة عثمان الكردي وجماعته. وقدّرت عدّة الركب الحلبي بأربعين مملوكًا [٥].

يتّضح أنّ خروج الركب الحلبي إلى الحجاز، ورغم نشأته المتأخرة أواخر العهد المملوكي، استطاع أن يضاهي المحمل الشامي، وأحيانًا حلّ محله عندما كان الركب الشامي يتعطّل بسبب الفتن.

ثالثًا- قافلة الحجّ العراقي

تعطّل ركب الحجّ العراقيّ فترات طويلةً عن المسير إلى الحجاز، ولا سيّما في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، والثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، والتاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. وتراوحت مرحلة انقطاعه بين عشر سنوات وإحدى

---

(١) ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج١، ج٣، ص١٦٣؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٣١٣.

(٢) ابن قاضي شهبة، م. س.، مج١، ج٣، ص٥٥٣.

(٣) ابن قاضي شهبة، م. ن.، مج١، ج٣، ص ٥٨٧.

(٤) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج١، ص٢٩.

(٥) ابن طولون، م. ن.، ج١، ص٨٠.

عشرة سنةً، فقد توقّف سنة ٦٣٩/١٢٤١، ليعود من جديد إلى مكّة سنة ٦٥٠/١٢٥٢. وتكرّر توقّفه سنة ٧٣٦/١٣٣٥ فترة إحدى عشرة سنة، لينطلق هذا الركب مجددًا سنة ٧٤٨/١٣٤٧، وانقطع ركب الحجّ العراقي أيضًا سنة ٨٢١/١٤١٨، ليعاود مسيره إلى الدّيار المقدّسة سنة ٨٣١/١٤٢٧[١].

وجدير ذكره أنّ التعطيل الذي تعرّض له ركب الحجّ العراقي لفترات متتابعة من الزمن، نتج من عدة عوامل سياسيّة، وطبيعيّة، وبشريّة.

أ- العوامل السياسيّة

تتعلّق العوامل السياسيّة بالإمارت السلطانيّة التي تعاقبت على حكم العراق بين الغزو المغولي والغزو العثماني، وأهمها الإيلخانيون والجلائريون:

١- الإيلخانيون

الإيلخانيون أسرة مغولية استوطنت فارس سنة ٦٦٣/١٢٦٥- ٧٥٦/١٣٥٥ بعد وفاة هولاكو، فرشّحت زوجته دوقوز خاتون نتيجة التشاور مع فارتان الجايليقي الأرمني ابنها أباقا خان لخلافته. يعرف أباقا وغيره من خلفاء هولاكو ممّن حكموا فارس منذ ذلك الوقت وحتّى زوال هذه الأسرة، بسلاطين المغول أو الإيلخانيين[٢]. وقد امتاز العصر الممتد من الغزو المغولي سنة ٦٥٦/١٢٥٨ حتّى ضمّ العثمانيون العراق سنة ٩٤٠/١٥٣٤ بتبدل سريع في تعاقب الأسر الحاكمة بشكل سريع، ما أسفر عن تدهور سياسي استمرّ إلى ما بعد القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وشهدت هذه الحقبة تفاقم الانحطاط الاقتصادي الّذي بلغ ذروته في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[٣].

وبعد القضاء على العباسيين، ودخول المغول بقيادة هولاكو بن تولوي بن جنكيزخان، مدينة بغداد سنة ٦٥٦/١٢٥٨، والفتك بأهلها، تحوّل العراق إلى الحكم الإيلخاني، فوجد المستعصم (٦٤٠/١٢٤٢- ٦٥٦/١٢٥٨) نفسه مضطرًا إلى التسليم دون قيد ولا شرط، وقتل بعد ذلك، بينما نهبت المدينة وأحرقت[٤].

وقد تميّزت سلطة الإيلخانيين، بأنها لم تكن محدودةً. ومن أهمّ سمات حكومة العراق في هذا العهد، عدم الاستقرار والفساد؛ حيث لم يطل حكم الإيلخانيين أكثر من قرن، وكان ذلك متوقعًا

---

(١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٩، ص٦٧؛ أبو الفدا، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٨٢؛ العيني، **عقد الجمان**، ج١، ص٧١؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص٢٥؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٢٧٧، ٣٠٥-٣٠٦.

(٢) عباس إقبال، **تاريخ المغول منذ حملة جنكيز خان حتى قيام الدولة التيمورية**، ص ٢١٧.

(٣) J.Aubin , "ʿIrāk", *EI*$_2$, vol.III, p.1288.

(٤) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص ٣٠٧- ٣٠٨؛ صالح العلي، **العراق في التاريخ**، ص ٥٤٧، ياسين الموصلي، **غاية المرام**، ص ١٦٦.

لكيان لم يقم إلا على القوة والبطش. ومن أبرز أسباب ضعفهم، الصراع على السلطة بين أمراء البيت الحاكم بعد موت الإيلخان الثاني أباقا بن هولاكو سنة ١٢٨٢/٦٨٠. ولما مات أبو سعيد (١٣١٦/٧١١- ١٣٣٥/٧٣٦) دون وريث شرعي، تسابق الطامعون إلى استغلال الفرصة للوصول إلى الحكم، ونتيجة ذلك، اندلعت حرب أهليّة عمّت أرجاء البلاد، وانتهست عندما تسلّم الحكم الجلائريون سنة ١٣٣٧/٧٣٨[١].

٢- الجلائريـون

الجلائريون، نسبة إلى قبيلة جلائر Jalayir المغولية. وهم سلالة حاكمة بسطت سلطتها على العراق وأذربيجان[٢] وخوزستان[٣]، منذ منتصف القرن الثامن الهجري/منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، عندما بدأت الدولة الإيلخانية بالتداعي والسقوط. ويعدّ حسن بن حسين بن آق بوغا بن إيلكان (٧٤٠/ ١٣٠٨-١٣٥٦/٧٥٧) من مؤسسي الدولة الجلائرية، وقد اشتهر باسم الشيخ حسن الكبير[٤]، وبدأ حياته السياسيّة واحدًا من رجال الإدارة في عهد أبي سعيد آخر الإيلخانات الأقوياء[٥].

أما عن علاقة الجلائريين بالسلطنة المملوكيّة، فإنّ حسن الكبير استفاد من موقف العداء التقليدي بين الدولة المملوكيّة والإيلخانيين، الذين كانوا قد استولوا على بغداد وقضوا على الخلافة العباسيّة، فبدأ اتصالاته بالسلطان الناصر محمّد منذ تنافسه على السلطة مع الطامعين الآخرين، ودأب على تزويد القاهرة بأخبار انتصاراته، وبرغبته في تسليم السلطة في بغداد لأحد أبناء الناصر، إذا وافقه على ذلك، لكن الناصر اعتذر عن تلبية الطلب لصغر سن أولاده. ثمّ خلف أويس معز الدين (١٣٥٦/٧٥٧- ١٣٧٤/٧٧٦) أباه في الحكم، فعمل على توسيع نفوذه، واستولى على أذربيجان من المظفريين حكام فارس سنة ١٣٥٩/٧٦٠[٦].

أخذ أويس حذره من السلطنة المملوكيّة، حين أقرّ المظفريون تبعيتهم للسلطان المملوكي، ولكنّ المبادلات التجاريّة استمرّت بين الطرفين، ونشطت العلاقات مع القاهرة بعد وفاة أويس في

---

(١) صالح العلي، **العراق في التاريخ**، ص٥٥٢.

(٢) أذربيجان: حد أذربيجان من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم، والجبل، والطرم، وهو إقليم واسع. ومن مشهور مدائنها: تبريز، وهي اليوم قصبتها وأكبر مدنها، وكانت قصبتها قديمًا المراغة. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج١، ص ١٢٨.

(٣) خوزستان: بلدة قريبة من أصبهان وجنديسابور وإيذج، وليس بها جبال ولا رمال إلا شيء يسير. ياقوت الحموي، م. ن.، مج٢، ص ٤٠٥.

(٤) حسن الكبير: حسن بزرك بالفارسية. مظهر شهاب، **الموسوعة العربيّة**، ج٧، ص٦٣٧.

(٥) مظهر شهاب، م. ن.، ج٧، ص٦٣٧.

(٦) مظهر شهاب، م. ن.، ج٧، ص ٦٣٨- ٦٣٩.

عهد ابنه حسين جلال الدين (٧٧٦/ ١٣٧٤- ١٣٨٢/٧٨٤)، الذي أرسل وفدًا إلى القاهرة سنة ١٣٨٢/٧٨٤ لتهنئة السلطان برقوق بارتقائه العرش، وأعلن السلطان المملوكي موقفًا صريحًا بتأييده أحمد الجلائري، الذي خلف أخاه حسين في الحكم بعد مقتله سنة ١٣٨٢/٧٨٤[1].

كان تيمورلنك المغولي فاتحًا من الطراز الأوّل. استطاع في سنوات معدودة أن يؤسّس دولةً واسعة الأرجاء تمتدُّ من سهوب سمرقند إلى بلاد الأفغان والهند وإيران حتى بلاد الكرج وأرمينيا وكردستان[2]، وبذلك أدرك تيمورلنك أحقّيته في وراثة الإيلخانيين، فسعى إلى الانتقام من أحمد، وسيّر حملةً جديدةً على بغداد بقيادة أحد أحفاده سنة ١٤٠٠/٨٠٢، ما أدى إلى فرار أحمد إلى حلب، لاجئًا إلى بايزيد الأول (١٣٨٩/٧٩١- ١٤٠١/٨٠٤) العثماني في الأناضول. فلما انسحبت الحملة التيمورية بعد حصار دام شهرين عاد أحمد إلى بغداد. وبمقتله سنة ١٤١٠/٨١٣، انتهى دور الحكام الجلائريين الأقوياء ليبدأ دور الحكام الضعفاء [3].

وعرفت هذه الحقبة بالفترة المظلمة، ولا سيّما فيما خصّ أخبار الحجّ العراقي.

ب- العوامل الطبيعيّة

الكوارث الطبيعيّة، هي ابتلاء أو دمار كبير يحدث بسبب حدث طبيعي منطوي على مخاطر مثل ثورة البراكين، الزلازل، الأعاصير وغيرها من الظواهر الطبيعيّة الّتي تسبّب دمار كبير للممتلكات والبشر.

تعتبر الفيضانات من العوامل الطبيعيّة الّتي تؤدي إلى حصول أزمات اجتماعيّة خطيرة، وقد تعرّض العراق لنكبات طبيعيّة ناجمة عن كوارث الفيضانات الّتي أدّت إلى خراب مدنه وسكّانه وهلاكهم، وأهمها فيضان سنة ١٢٥٥/٦٥٣، عندما هطلت أمطار كثيرة بالموصل وبغداد، وغرقت عانة والحديثة وهيت والحلة، وأحاط الماء بمسجد الكوفة حتى بلغ النجف[4].

واللافت في هذا السياق، أنّ حكام العراق الإيلخانيين لم يهتمّوا بتنظيف الأنهار والقنوات، ولا بفتح قنوات جديدة، ونتيجة هذا الإهمال، تسبّبت الفيضانات بدمار كبير، ولا سيّما سنة ١٢٨٤/٦٨٣ وسنة ١٣٢٥/٧٢٥، ما أدّى إلى غرق نواح عدة من بغداد[5].

ويذكر أنّ الفيضانات الخطيرة الّتي حصلت في العهد الجلائري خصوصًا بين سنتي ١٣٥٦/٧٥٧- ١٣٧٣/٧٧٥، قد أسفرت عن هلاك نحو أربعين ألفًا من أهل المدينة[6].

---

(١) مظهر شهاب، **الموسوعة العربيّة**، ج٧، ص٦٣٩.

(٢) محمد سهيل طقوش، **العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**، ص ٥٤.

(٣) صالح العلي، **العراق في التاريخ**، ص ٥٥٤.

(٤) أحمد سوسة، **فيضانات بغداد**، قسم١، ص٣٣٣.

(٥) صالح العلي، م. س.، ص٥٥١.

إنّ طغيان الفيضانات بصورة قاتلة بلغ ذروته بين سنتي ٨٨٩/١٤٨٤– ٨٩٠/١٤٨٥، بشكل لا سابق له، وقد غمرت المياه مدينة بغداد، فوصل علوّها في الأزقّة ذراعًا واحدًا، كما تعذّر السير على الأقدام في الطريق(٢).

ولقد تزايدت مصائب الفيضانات واشتدّ خطرها، وفاض نهرا دجلة والفرات سنة٩٠١/١٤٩٥ بغزارة لم تكن مألوفة في السنين السابقة، وغاصت بغداد، وتعاظم الضيق على الأهالي، فلم يجدوا لهم محلاً تقرُّ فيه أقدامهم؛ فإن أقاموا في بيوتهم شمُّوا الروائح الكريهة، ما يردهم حياض الموت(٣).

وتجدر الإشارة إلى أنّ انتشار الأمراض الناجمة عن التعفن، كأمراض الحلق والحمّى والتهاب الأمعاء ونحوها، قد تسبّبت بوفاة عدد هائل من السكّان، نتيجة الفيضانات التي أصابت البشر والحجر. فلم يستطع أهل بغداد أن يخلدوا إلى الراحة إلا بعد نضوب المياه بالتمام(٤).

ويتّضح مما تقدم، أنّ العوامل الطبيعيّة كان لها دور جذري في عمليّة تعطيل رحلة الحجّ العراقي إلى الحجاز، وتوهين الحضارة، وتدعيم "المدّ البدوي" في البلاد، إذ هي تكون عادة أقوى تأثيرًا في سكّان المدن منها في أهل البادية أو الريف. وكلما كانت المدن أكبر وأكثر ازدحامًا بالسكّان، يصبح تأثير الوباء فيها أفظع(٥).

ج– العوامل البشريّة

تشكّل الأنشطة الزراعيّة لدى المجتمعات البشريّة ركيزةً تقود إلى تأسيس الدولة، وحماية الإنسان لشؤون الزراعة كنشاط اقتصادي، يؤدي إلى وجود وفرة في المواد الغذائيّة، وهكذا تكون العوامل البشريّة قد ساعدت في استقرار الشعوب، حيث يتوفر الغذاء والمسكن، فالمجتمع العراقي عرف بأنه عرضة لمدّ البداوة وجزرها على توالي العصور، يأتيه المد البدوي تارة، وينحسر عنه تارةً أخرى بحسب تفاوت الظروف؛ فالبدو يعيشون على شكل قبائل وعشائر تنتقل من مكان إلى آخر في تلك المنبسطات داخل بلاد ما بين النهرين، حيث توجد مواقع رعي صيفيّة وشتويّة محدّدة. ويكون الترحال الدائم سببًا في الاحتكاكات، والصدامات الحربيّة، والغزوات المتواصلة بين البدو(٦).

---

(١) أحمد سوسة، **فيضانات بغداد**، قسم٢، ص٣٥٧– ٣٥٩.

(٢) أحمد سوسة، م. ن.، قسم٢، ص ٣٦٠.

(٣) أحمد سوسة، م. ن.، قسم٢، ص٣٦٠– ٣٦١.

(٤) أحمد سوسة، م. ن.، قسم٢، ص٣٦١– ٣٦٢.

(٥) محمد القزاز، **الحياة السياسية في العراق**، ص ٢٣٧.

(٦) ماكس فرايهيرفون أوبنهايم (Max Freiherr von Oppenheim) ، **البدو ما بين النهرين العراق الشمالي وسورية**، ص٧٥.

ويخضع سكّان العراق للنظام العشائري، وتسيطر عليهم القيم العصـبية والغـزو والثـأر والدخالة وغسل العار، أما أهل المدن، فيختلفون عن العشائر في بعض الأمور الظاهريَّة، كالمسكن والملبس وطرق كسب العيش، ولكن تعصب ابن المدينة لمحلته كتعصب الرجل البدوي لعشيرته[١].

وتتوزع قبائل العراق في عدة أماكن، منها:

١- القبائل العربيَّة الشماليَّة الّتي تسكن ضفاف دجلة والفرات، وأهمهـا: شـمر، جربـة، زوبع، عنزة.

٢- القبائل العربيَّة الجنوبيَّة الّتي تقطن الأراضي الزراعيَّة حول نهري دجلـة والفـرات، منها:

- قبائل المنتفق، وهي مكوَّنة من عدة عشائر، منهم: بنو ركاب، الفزي، خفاجة، بنو أسد.

٣- قبائل الفرات الأوسط، وهي تمتدُّ شمالي المنتفق، وأهمها: آل فتلة، الخزاعل، آل شبل، بنو عارض، الظوالم، بنو حسن.

- قبائل دجلة، وتنبسط على ضفافه بين بغداد والقرنة، منها: بنـو ربيعـة، بنـو لام، آل أزيرج.

٤- قبائل قريبة من بغداد، وأهمها: بنو تميم والعزة والجبور والعبيد.

وهناك القبائل الكرديَّة الشماليَّة المستقرة في أقضية الموصل والقبائل الكرديَّـة الجنوبيَّـة، وهي الّتي تسكن في لواء السليمانية وأربيل وكركوك[٢].

أما القبائل العراقيَّة الرُحَّل، فأهمها: قبيلة شمر وعنزة والضفير[٣].

تلك العناصر المتواجدة على أرض العراق تكوِّن تركيبة سكّانه.

والواقع أنّ أطول فترة سيطر فيها المدُّ البدوي على العراق، هي الفترة الّتـي بـدأت مـع سقوط الدولة العباسيَّة، وغزو المغول للعالم الإسلامي، واستمرَّت ما يزيد على ستة قرون. وقد كثر الوجود البدوي في تلك الفترة، وضعفت سلطة الدولة، واختل نظام الأمن، ما جعل الحضارة تذوي في العراق وتنتشر القيم البدويَّة فيه.

وبالرغم من حصول عراقيل وصعوبات وتفاقم الأزمات الاقتصاديَّة، وانتشار الأمـراض وهلاك النّاس وخراب البلاد بعد الغزو المغولي وزوال الحكم العباسي، إلاّ أنّ اهتم العراقيون بأمور

---

(١) ماكس فرايهيرفون أوبنهايم (Max Freiherr von Oppenheim)، **البدو ما بين النهرين العراق الشمالي وسورية**، ص٧٦.

(٢) مكي الجميل، **البدو والقبائل الرّحالة في العراق**، ص ٣٥- ٣٦؛ M. Al-Rasheed, "Shammar", *EI*$_2$, vol.IX, p.298.

(٣) مكي الجميل، م. س.، ص ٣٦.

الحجّ ومساره، نظرًا إلى أهميّته الدينيّة عند المسلمين، وكونه واجبًا وركنًا من أركان الإسلام فرض على من استطاع إليه سبيلاً. فكيف بدا الحجّ العراقي؟

كان العراقيون يستعدّون للذهاب إلى الحجاز لدى سماعهم النداء للحجّ، الّذي يعلنه كالعادة ملك العراق، فيتسارعون لتجهيز أنفسهم تأهّبًا للالتحاق بقافلة الحجّ العراقيّ بكل اندفاع وشوق لرؤية الكعبة المعظّمة، وزيارة الروضة النبويّة. أشار إلى ذلك المقريزي في حوادث سنة ١٣٢٠/٧٢٠، فقال: وفيها قدم البريد من حلب، بأنّ أبا سعيد خدابنده الإيلخاني نادى في مملكته (أي العراق) بالحجّ، فتجهّز حشد عظيم[١].

د- خلعة إمرة الحجّ العراقي

كان ملك العراق يخلع خلعة الإمرة على من يستحقّها من كبار رجال الدولة، كما كان يعهد أحيانًا بوظيفة إمرة الحجّ إلى نقيب الأشراف، الّذي يعدُّ من الأشخاص المرموقين، ومنزلته رفيعة الشأن، وله ترتيب الأمراء الكبار في سفره[٢].

أما مهام أمير الحجّ العراقي، فتتجلّى في قيادة موكب الحجّ من بغداد إلى الدّيار المقدّسة والعودة به سالمًا، كما يتولّى الإشراف على الحجّاج وحمايتهم وترتيبهم، ويرتاد بهم أسهل الطرق وأوضحها، والنظر في الخصومات التي تقع في ما بينهم، ويتصدّرهم أثناء تأدية شعائر الحجّ في مكّة وعرفات، يساعده في ذلك عدد من الموظفين والأعوان.

ومن الشروط الّتي كان يجب توفرها في أمير الحجّ: الشجاعة، والشهامة، والمعرفة بمراحل الطريق ومنازل الأعراب ومكامن اللصوص وقطّاع الطرق. وكان يوضع تحت إمرته عدد من العسكريين، وكان لقب البهلوان يطلق على كل أمير حجّ تتوفر فيه هذه الشروط[٣].

أما الذين تولّوا إمرة الحجّ العراقي، فقد عرف منهم: الأمير فلك الدين التركي، الذي حجّ بالناس من العراق في سنة ١٢٥٢/٦٥٠. وكان الحجّ العراقي قد انقطع من سنة ١٢٤٦/٦٤٤ إلى سنة ١٢٥٢/٦٥٠[٤].

وفي سنة ١٢٦٨/٦٦٦، حجّ العراقيون من بغداد إلى مكّة، وهي أول حجّة حجّوها من بغداد بعد غلبة التتار عليهم سنة ١٢٥٨/٦٥٦.

وفي سنة ١٣٣٣/٧٣٣، حجّ بالنّاس من العراق ناسور أحد عظماء القان، وقتل وقت رمي الجمار بمواطأة من أبي سعيد خدابنده.

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، قسم١، ص٢١١.

(٢) نوري العاني، العراق في العهد الجلائري، ص١١٢.

(٣) نوري العاني، م. ن.، ص١١٤.

(٤) الجزيري، درر الفرائد، ص ٢٧٧- ٢٧٨.

وفي سنة ١٣٤٧/٧٤٨، حجّ العراقيون بعد انقطاع فترة إحدى عشرة سنة عن الذهاب إلى الحجّ[١].

وفي سنة ١٤١٤/٨١٦، حجّ الناس من بغداد بمحمل على العادة، جهّزه صاحبها ابن قـره يوسف. ثم واظب المحمل العراقي على خروجه كالمعتاد حتى سنة ١٤١٨/٨٢١، إذ توقّف بعـدها عن الذهاب إلى مكّة مدةً تزيد على عشر سنين.

أما في سنة ١٤٢٨/٨٣١، فقد جهّز محمل العراق سلطانُ الحلّة حسين بن علي بن أويس.

ثم انقطع الحجّ العراقي عن المسير إلى الدّيار المقدّسة، من سنة ١٤٥٠/٨٥٤ إلـى سـنة ١٤٦٦/٨٧١[٢].

وفي سنة ١٤٨١/٨٧٦ عاود الرّكب العراقي المسير، وكان أمير الحـجّ يـدعى رسـتم، وبصحبته قاض يعرف باسم أحمد بن دجية [٣].

وفي سنة ١٤٩١/٨٩٦، توقّف الحجّ العراقي عن الرحيل إلى الحجاز[٤].

وجدير ذكره أنّ المسؤوليّة الملقاة على عاتق أمير الحجّ كانت كبيرة، وكان يحاسَب ويعاقَب إذا أخلّ بأحدى واجباته أو قصّر أو نسي أو أخطأ عند العودة إلى بلاده.

هـ مغادرة الركب العراقي إلى الحجاز

كان الركب العراقي، وبعد الانتهاء من الاستعدادات، ينطلق إلى مكّة لأداء الفريضة، وقيل: إنّ أوّل رحلة انطلقت من بغداد إلى الحرمين الشريفين كانت سنة ١٢٦٨/٦٦٦[٥] .

وقد واظب الحجّ العراقي على خروجه إلى الحجاز إلاّ في الفترات الّتي كانت تنشـأ فيهـا ظروفٌ وعوامل سياسيّة وطبيعيّة واجتماعيّة، تؤدي إلى تعطيله عن الذهاب إلى مكّة. وقد أشـرنا سابقًا إلى الأوقات الّتي لم يغادر فيها الركب العراقي إلى الدّيار المقدّسة.

أما السنوات الّتي شهدت مغادرة الحجّ العراقي، فأهمها: سنة ١٢٧١/٦٦٩ [٦]. وبعد ذلك، أشار المقريزي، في حوادث سنة ١٣١٧/٧١٨ إلى اهتمام العراقيين في العصر المملوكي بالمحمل

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٢٨١، ٢٨٥، ٣٠٥ ، ٣٠٨.

(٢) الجزيري، م. ن.، ص٣٢٠، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٣٥.

(٣) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ٥١.

(٤) الجزيري، م. س.، ص٣٤٤.

(٥) الجزيري، م. ن.، ص ٢٨١.

(٦) الجزيري، م. ن.، ص٢٨٢.

العراقي على غير المعتاد، من ذلك أن السلطان أبا سعيد كان يعوّض على ركب القافلة ما يُسلَبُ منهم[١].

وقد أراد من خلال هذا التدبير أن يظهر للعيون المتطلّعة إليه وإلى محمله العراقي، أن مثل هذه الاعتداءات الخطيرة لا تضرُّه.

وحظي الركب العراقيّ أيضًا بالاهتمام والرعاية، ففي سنة ١٣١٩/٧١٩، وصل هذا الركب إلى الحجاز للحجّ، وفيه جماعة من التتار أخفوا أنفسهم خوفًا من القبض عليهم، فأمر السلطان الناصر، (وكان قد حجّ في هذه السنة) بإحضارهم فأتوا، فأحسن إليهم، وخلع عليهم الخلع السنيّة وأطلقهم[٢].

وبدا واضحًا أنّ الناصر كان يسعى إلى استقطاب أكبر عدد ممكن من المؤيّدين له، رغبةً منه في زيادة مناصريه، والرّاجح أنّ تصرف الناصر محمَّد هو سياسي وليس الاعتناء والرعاية بالركب العراقي.

دأب الإيلخاني أبو سعيد على الاعتناء بأمور الحجّ. فقام وزيره غياث الدين محمد مقامه في مباشرة الإصلاح، وتقوية شعائر الإسلام، فرعى مواكب الحجّ، واعتمد على شيوخ العرب لحماية الطريق[٣].

وظلّ أبو سعيد يزيد من أبّهة المحمل العراقي غير عابئ بتلك العيون المترصِّدة للنهب والسلب؛ فاعتنى سنة ١٣٢٠/٧٢٠، بأمر حجّ العراق عنايةً تامَّةً، فغطى المحمل بالحرير، ورصَّعه باللؤلؤ والياقوت وأنواع الجواهر، فلما مرّ ركب العراق بعرب البحرين، خرج عليهم ألف فارس يريدون أخذهم، فتوسَّط النّاس بينهم على أن يأخذوا من أمير الركب ثلاثة آلاف دينار، فلما قيل لهم إنما جئنا من العراق بأمرالناصر محمَّد بن قلاوون سلطان مصر وكتابه إلينا بالمسير إلى الحجاز، أعادوا المال وقالوا: لأجل الملك الناصر نعفيكم من الشروط المفروضة عادة[٤].

وفي هذا دلالة واضحة على ذكاء عرب البحرين، ولست أدري إذا كان تصرفهم هذا يعبّر عن حب صادق للسلطان المملوكي، أو هو طمع في عطاياه؟

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم١، ص ١٩٠؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص٦٩.

(٢) عباس العزاوي، **تاريخ العراق**، ج١، ص ٤٦٢.

(٣) المقريزي، م. س.، ج٢، قسم ٢، ص ٣٨٩- ٣٩٠؛ محمد القزاز، **الحياة السياسية**، ص١٩٣- ١٩٤.

(٤) ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، ج٢٧، ص ٤٠٠؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٢٩٨- ٢٩٩؛ عباس العزاوي، م. س.، ج١، ص ٤٦٦.

وممّا يُذكَر أنّ خروج ركب الحجّ العراقي إلى مكّة ضمّ في عداده نساءً وبناتٍ من التتــار، وخير مثال على ذلك سنة ١٣٢٣/٧٢٣، عندما حجّت قطلو، ابنة السلطان أباقا، فرســم الســلطان، ورتّب لها، في الطرقات الإقامات الوافرة[١].

ومن الطبيعي أن يقصد الحجّاج بيت الله الحرام على ظهور الجمال ويكون المحمل من فوق الجمل، لكن أن يكون في المحمل العراقي فيل، فهذا شيء لم يكن مألوفًا. ففــي ســنة ١٣٢٩/٧٣٠ فوجئ أهل مكّة بأن المحمل العراقي قد استعان بدلاً من الجمل بفيل، ركبه أمير المحمل العراقي في أداء المناسك كلها، وسار به بعد ذلك إلى المدينة إلا أن الفيل أبى أن يدخل المدينة، فكان كلما أكره أن يتقدم إلى المدينة تأخر إلى الوراء، وظلوا يضربونه ويتأخر إلى أن سقط ميتًا في يــوم الأحــد، الرابع عشر من ذي الحجة. ويقال: إنّ المصروف على هذا الفيل من حين خروجه من العراق إلى أن هلك زيادة على ثلاثين ألف درهم، ولم يعرف مقصد أبي سعيد خدابنده ملك العراق فــي بعثــه الفيل إلى مكّة[٢] [٣].

تضاعفت مساعي أبي سعيد واهتــماماته بالركب العراقي وحجّاجه، وكان آخرهــا ســنة ١٣٣٧/٧٣٧ الّتي توفّي فيها. وقبل موته بسنة، أرسل الركب العراقي إلى مكّة، فسلم الركب، فلمــا كان في السنة المقبلة، جهّزهم أيضًا، فنهبهم العرب، فسأل عن السبب في ذلك فقيل له: إنّ هــؤلاء الأعراب يقيمون في البراري ليس لهم رزق إلا ما يتخطّفونه، فأجاب: نحن نجعل لهم مــن بيــت المال مقدارًا يكفيهم ويكفّون عن الحجّ، ورتّب ذلك وأمر به فمات في تلك السنة[٤].

تعدّ أعمال أبي سعيد العظيمة وصدقاته الكثيرة صورةً صادقةً ترسم عمق مشاعره تجــاه الإسلام والمسلمين، وتعكس مدى اهتمامه بهذه الشعيرة العظيمة.

---

(١) عباس العزاوي، **تاريخ العراق**، ج١، ص٤٨٠.

(٢) ابن حبيب، **درة الأسلاك**، ج١، ٢٢١ورقة؛ المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم ٢، ص٣٢٥؛ ابن إياس، **بدائع الزهــور**، ج١، قسم ١، ص٤٦٢.

(٣) يكمن موضع الغرابة في هذه الحادثة في أمرين: أوّلهما: أن الفيل حيوان ليس من الشائع ركوبه في بلاد العرب؛ فــالبلاد العربيّة ليست بلادًا تركب الأفيال، بل مطيتها الجمال، لما لها من مقدرة على تحمل وعثاء الطريق القفر ومشاقه وندرة المــاء فيه.

ثانيهما: أنّ الفيل مرتبط في الأذهان بحادثة عام الفيل، قبل بعثة الرسول، وهذا ما جعل أهل مكّة يتطيّرون من ذلك؛ لأنه لــم يدخل مكّة على امتداد تاريخها الطويل فيل من قبل، سوى فيل (أبرهة) الذي رام هدم بيت الله الحرام، فهلك ومن معه بحجارة من سجّيل رمتها عليهم الطير الأبابيل. تعد هذه الحادثة من عجائب المحمل العراقي أيام أبي سعيد الإيلخاني.

(٤) ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج١، ص٥٠١.

وفي سنة ١٣٥٧/٧٥٨، كان مع الحجّاج العراقيين محملان، واحد من بغداد وآخر من شيراز[1].

أما في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، فتأرجح المحمل العراقي بين التوجه إلى الحجاز والانقطاع عنها:

ففي سنة ١٤٠٤/٨٠٧، حجّ العراقيون من بغداد بمحمل على العادة بعد انقطاعهم عن الحجّ تسع سنين، بسبب ضعف سلطة الجلائريين ونقص الأمن في الصحراء العراقية، والّذي جهّزهم في هذه السنة متوليها من قبل تيمورلنك[2].

كذلك حجّوا في سنة ١٤٠٩/٨١٢، فتوجّه ركب العراق إلى الحجّ.

ثم تعطّل الركب العراقي عن المسير إلى الحجاز من سنة ١٤١٠/٨١٣ إلى سنة ١٤١٣/٨١٥، بسبب الوضع السياسي الّذي أدّى إلى انتهاء حكم الجلائريين، ثمّ تابع رحلاته إلى مكةّ بدءًا من سنة ١٤١٤/٨١٦، ليتوقّف مجددًا سنة ١٤١٨/٨٢١ نتيجة التدهور الأمني، ثمّ يعود بعد انقطاعه ليستأنف نشاطه الديني إلى مكّة من أجل الفريضة. وتكرّر الأمر سنة ١٤٦٦/٨٧١، فحجّ العراقيّون بمحمل على العادة بعد انقطاعهم سبع عشرة سنة[3].

واستمرّ وضع الركب العراقي حتّى نهاية العصر المملوكي، يخضع لعوامل وظروف مختلفة، تتفاوت بين الاستقرار الأمني والتهدئة، وأحياناً كثيرة تسود الفوضى والاضطرابات.

و- حجّ السلاطين والملوك أيام المماليك

إن كانت خدمات سلاطين المماليك إزاء الحرمين قد تنوعت فشملت السّقاية والرّفادة وكسوة الكعبة، والتوسعة والبناء والترميم وفرض النظام والأمن، وجميعها، بلا شك، خدمات جليلة، رغبة منهم في فرض السيادة السياسيّة على الحجاز، أما أدائهم فريضة الحجّ، فهي مناسبة تمثل أبرز ركائز السيادة الدينيّة على الحجاز ينتهزونها لتذليل المشاكل المعيشيّة الّتي يتخبّط بها السكّان، إضافة إلىالصدقات الّتي يبذلونها، والمؤونات والأموال التي يحملونها لكي يجري توزيعها على المجاورين والمحتاجين والفقراء، سعيًا إلى تثبيت النفوذ السياسي والديني على الحرمين الشريفين. وخير مثال على ذلك ما فعله في سنة ١٢٦١/٦٥٩، المظفّر يوسف بن المنصور ملك اليمن، عندما حجّ وغسل الكعبة بنفسه وطيّبها، وما كساها بعد انقضاء الخلافة من بغداد ملك قبله. وقام أيضًا بمصالح الحرم وأهله، وأوسع في الصدقة حين حجّ. ومن أفعاله الجميلة بمكّة، أنه نثر على الكعبة

---

(١) الفاسي، **العقد الثمين** ج١، ص١٩٥.

(٢) الفاسي، م. ن.، ج١، ص ١٩٨.

(٣) الجزيري، درر الفرائد، ص٣١٩- ٣٢١، ٣٣٥.

الذهب والفضة. وكان يخطب له بمكّة في غالب سلطنته، وخطب من بعده لملوك اليمن من ذريته بعد الخطبة لسلطان مصر[1].

وكان الظاهر بيبرس، سلطان مصر، أول من حجّ من سلاطين المماليك سنة ١٢٦٩/٦٦٧، وغسل الكعبة وأمر بتسبيلها في كل سنة، وأحسن كثيرًا إلى أميري مكّة والمدينة وأدى صدقات جليلة في الحرمين[2].

وحذا حذوه الخليفة بهادر، الملقَّب بالحاكم أحمد العباسي، فحجّ من مصر سنة ١٢٩٩/٦٩٧، وهو ثاني خليفة عباسي بويع بعد المستعصم، وأول خليفة عباسيّ سكن مصر، وأول خليفة عباسيّ حجّ منها وأعطاه لاجين المنصوري سلطان مصر سبعمائة ألف درهم لأجل حجّه، وشكرت سيرته وتصدّق وأطعم العيش وحمل المنقطعين[3].

أما الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر فحجّ سنة ١٣١٢/٧١٢، ومعه نحو أربعين أميرًا، وستة آلاف مملوك على الهجن، ومائة فرس[4]. وكرر عمله أيضًا في حجّته الثّانية سنة ١٣١٩/٧١٩، وكان معه لما حجّ نحو خمسين أميرًا، وأكثر فيها من فعل المعروف في الحرمين، وفيها غسل الكعبة بيده[5]. كما حجّ للمرة الثالثة سنة ١٣٣٢/٧٣٢، وفي خدمته جماعة من أعيان

---

(١) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص١٩١– ١٩٢.

(٢) ابن شداد الحلبي، **تاريخ الملك الظاهر**، ص ٣٠٢– ٣٠٣؛ ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص٣٥٥؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**،ج٢، ص٤٠٩؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٣، ص١٦٧؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، ج٢٧، ص ٣٣٦؛ ابن شاكر الكتبي، **عيون التواريخ**، ج٢٠، ص ٣٧٩– ٣٨٠؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٢٥٥؛ ابن حبيب، **درة الأسلاك**، ج١، ٣٨ ورقة؛ ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، ج٦، قسم٢، ١٧٦ ورقة؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج٥، قسم٤، ص٨٣٩– ٨٤٠؛ الفاسي، م. س.، ج١، ص ١٩٢؛ المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص ٥٨١؛ العيني، **عقد الجمان**، ج٢، ص ٤٨؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص١٤٦– ١٤٧؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، قسم ١، ص ٣٣١؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص ٢٧١؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي**، ص ٢٣١.

(٣) الفاسي، م. س.، ج١، ص١٩٣؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٢٨٩.

(٤) أبو الفدا، **المختصرفي أخبار البشر**، مج٢، ج٤، ص٧٠؛ النويري، م. س.، ج٣٢، ص٢٠١؛ ابن فضل الله العمري، م. س.، ج٢٧، ص ٣٩٣؛ اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٤، ص ٢٥١– ٢٥٢؛ ابن حبيب، م. س.، ج١، ١٦٣ ورقة؛ **تذكرة النبيه**، ج٢، ص٤٥؛ الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص ٣٢٩– ٣٣٠؛ الفاسي، م. س.، ج١، ص١٩٣؛ المقريزي، م. س.، ج٢، قسم١، ص١١٩؛ دحلان، **خلاصة الكلام**، ص ٢٩.

(٥) أبو الفدا، م. س.، مج٢، ج٤، ص ٨٥– ٨٦؛ النويري، م. س.، ج٣٢، ص ٣٠١– ٣٠٢؛ ابن حبيب، م. س.، ج٢، ١٨٤ ورقة؛ المقريزي، م. س.، ج٢، قسم١، ص١٩٥– ١٩٦؛ القرماني، م. س.، ج٢، ص ٢٨٢؛ دحلان، م. س.، ص ٣٠.

أمرائه، فحجّ بيت الله الحرام، وزار قبر سيد البشر وخير الأنام، وأحسن إلى البادي والعاكف، وتصدّق على المجاورين[١].

وأوّل من مرّ بمصر في طريقه إلى الحجاز من ملوك مالي والتكرو[٢]، منساولي الّذي حجّ أيّام السلطان الظاهر بيبرس[٣].

وواصل الحكام حجّهم ففي سنة ١٣٢٤/٧٢٤، حجّ ملك التكرور موسى بن أبي بكر سالم، وحضر معه للحجّ أكثر من خمسة عشر ألف تكروري[٤].

وأعاد ملوك اليمن الكرّة في سنة ١٣٤٢/٧٤٢، حيث حجّ الملك المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر، فرفع علمه على جبل عرفات، وكان بنو حسن في خدمته حتّى انقضى الحجّ، ومن مصر حجّ السلطان الأشرف برسباي سنة ١٤١٤/٨١٦[٥].

وفي سنة ١٤٣٣/٨٣٦، حجّ صاحب التكرور في جمع كثير، فلما رجع من الحجّ، سار إلى الطور ليركب البحر، فمات ودفن بالطور[٦].

* * *

نستنتج مما تقدّم النقاط التالية:

اقتصر احتفال المماليك بمراسم محمل الحجّ على القاهرة ودمشق فقط، علمًا بأنّ ثمّة محامل عدة كانت تخرج إلى الحجاز لأداء الفريضة، منها: العراقي والمغربي واليمني. اتسم الركب المصري بطابع ميّز خلال العصر المملوكي من حيث الاحتفال الرسمي والشعبي بالمحمل ودورانه في شهر رجب، استعدادًا للتأهب والتجهيز والنداء للحجّ. وكان الاحتفال الثّاني يجري في شوّال إيذانًا بالمغادرة إلى الدّيار المقدّسة. أما الاحتفال الأخير فكان في شهرمحرّم يوم العودة واستقبال

---

(١) الجزري، **تاريخ حوادث الزمان**، ج٢، ص ٥٣٢؛ ابن حبيب، **درة الأسلاك**، ج٢، ٢٢٨ورقة؛ أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، مج٢، ج٤، ص١٠٦؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٤، ص ٣٦٩؛ الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ١٩٣؛ المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم٢، ص٣٥٠؛ ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج٤، ص ١٤٨.

(٢) التكرور: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص ٣٨.

(٣) ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج٥، قسم٤، ص٩٣١؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي**، ص ٢٤٢.

(٤) اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٤، ص ٢٧١؛ ابن الوردي، **تتمة المختصر**، ج٢، ص٢٧٥؛ ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج٢، ص١٤٢؛ الفاسي، م. س.، ج١، ص١٩٤؛ المقريزي، م. س.، ج٢، قسم١، ص ٢٥٥؛ ابن حجر، م. س.، ج٤، ص٣٨٣؛ دحلان، م. س.، ص٣٠.

(٥) الفاسي، م. س.، ج١، ص ١٩٥، ٢٠٤.

(٦) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٢، ص ٨٧٦؛ ابن حجر، م. س.، ج ٨، ص ٢٧٣.

الحجيج، وكانت تشارك في إحيائه فرقة الرمّاحة وعفاريت المحمل أثناء دوران المحمل، بهدف نشر البهجة والسرور في نفوس الحاضرين .

وأصبحت الكسوة في العصر المملوكي ترسل من مصر، وأوّل من كساها من ملوك الترك الظاهر بيبرس، وصارت الخطبة في مكّة أيّام الحجّ إلى السلطان المملوكي، كما انفردت مصر في تجهيز محامل السلطنة، منها: محمل السلطان بيبرس والناصر محمَّد بن قلاوون. وكان منصب أمير الحجّ من الوظائف المقدَّرة والمهمَّة، وكان المسؤول عن القافلة، وعليه يترتَّب مدى نجاحه أو فشله بعد العودة، وكثيرًا ما كان يعزل نتيجة الإخلال أو التقصير بمهامه. وكانت تسير برفقة الرَّكب المصري قافلة الحجّ المغربيّ الّتي تميَّزت بحملها الهدايا الثمينة إلى الحرمين الشريفين.

أما الرَّكب الشامي، فكان الاحتفال بمحمله يجري رسميًا وشعبيًا، ويشارك به نائب السلطنة ويتمّ أثناء الاحتفال تلاوة مرسوم تكليف أمير الحجّ المرسل من مصر، وكثيراً ما يكون نائب الولاية أميرًا للحجّ.

ولطالما تنافس الركبان المصري والشامي في أرض المناسك، وقد تميَّزت قافلة الحجّ الشامي بتجمّلها وترفها. وفي نهاية العصر المملوكي، حلّ الركب الحلبي في بعض الأوقات مكان الركب الشامي، نتيجة حصول مناوشات وفتن بين أهل الشام والطامعين في ولاية دمشق.

وفي ما يتعلّق بالركب العراقي، فقد تسبَّب الغزو المغولي بتعطيله عدّة سنوات عن الذهاب إلى الحجاز، وساهمت العوامل الطبيعيّة، كالفيضانات والكوارث الاجتماعيّة (الأمراض، الجراد، المجاعات) ووجود القبائل وسط المجتمع العراقي، في توقفه عن التوجه إلى مكّة لأداء الفريضة. وعلى الرغم من كل هذه العوامل والمعوقات، فقد شارك الركب العراقي بشكل فعَّال في مسيرة الحجّ أيام المماليك، وتميَّز خروجه بمظاهر الترف والأبهة، ولا سيّما في عهد الإيلخان أبي سعيد خدابنده، واستمرّت قافلة الحجّ العراقي تتأرجح بين الانطلاق والانقطاع حتّى نهاية العصر المملوكي، وذلك بمقتضى الظروف الّتي كانت تطرأ على البلاد .

وقد طبع العصر المملوكي بطابع فريد، نتج عنه حجّ السلاطين والملوك، ودفع الصدقات، وذلك لراحة الحجيج وتسهيل الطريق، وتخفيف تعب المسير، ومساعدة الضعيف والمسكين.

لكن ما الطرق الرئيسيّة الّتي كانت معتمدة للحجّ؟ وهل كانت آمنةً لجهة سلامة الحجيج؟

هذا الأمر سنعالجه في الفصل الثالث، من خلال تحديد الأماكن والمحطّات والمنازل الّتي كان الحجّاج ينزلون بها طلبًا للراحة.

الفصــــل الثالـــث

طــرق الحـــجّ إلى الحجاز فــي العصـــر المملوكي

نعالج في هذا الفصل طرق الحجّ إلى الحجاز في العصر المملوكي، لم تكن طرق الحجّ من اليسر والسهولة، فقد كان الحجّاج يواجهون في سبلهم من الشدائد ما كان يفتك بهم في الطرق الّتي كانوا يسلكونها، سواء من حرّ الصيف أو برد الشتاء أو جفاف الماء في الصحاري الّتي يجتازونها، إلى جانب ما قد يداهمهم فيها من السيول أو اللصوص وقطاع الطرق. كل ذلك كان يحدث لحجّاج بيت الله الحرام على مر العصور الإسلاميّة، ومع ذلك فالنّاس لا يمنعهم عن الحجّ مانع، ولم نسمع أنهم انقطعوا عنه من أنفسهم سنة من السنين، حيث ازدادت شهرة الطرق البرّيّة والبحريّــة الّتــي تصل إلى بلاد الحجاز في العصور الوسطى، من هذا المنطلق نتساءل ما هي الطرق المعتمدة فــي العصر المملوكي؟ فالجواب عليها سيكون من خلال المباحث الثلاثة للفصل، بدءًا بالمبحــث الأوّل الّذي أتناول فيه طريق الحجّ المصري والمغربي، ثم أنتقل إلى المبحث الثاني المخصّص لطريــق الحجّ الشامي، والمبحث الثالث أتناول فيه طريق الحجّ العراقي.

أولاً- طريــق الحـــجّ المصـــري والمغربـــي

أ- طريق الحجّ المغربي إلى مصر

تبدأ قافلة حجّاج بلاد المغرب الإسلامي بالانطلاق من مدن المغرب، كمراكش وفاس، وبعد تجمع الحجّاج تتحرك القافلة سالكة إما الطريق البرّي المحاذي للبحر الأبيض المتوسط أو الطريق البحري عبر البحر المتوسط واعتادت هذه القافلة أن تكون على موعد مع غيرها من قوافل الحـــجّ للحجّاج الجزائريين والتونسيين وذلك لمرور طريق الحجّ بمدن صفاقس وسوسة وطرابلس الغرب وبرقة وطبرق، ثمّ تعبر هذه القوافل مجتمعة الأراضي المصريّة بمحاذاة الساحل حتى تصل إلـــى ميناء الإسكندرية، إلى أن تصل جميعها إلى القاهرة وتلتقي مع قافلة الحجّ المصريّة عنــد مكــان شمال القاهرة كان يعرف آنذاك ببركة الحجّ (١).

وممن رافق الركب المصري من المغاربة والأندلسيين زمن المماليك، العبــدري(٢) ســنة ١٢٨٩/٦٨٨، فانطلق من حاحة وأشار إلى خصائص بعض المدن والقرى الّتي مرّ بها وشاهدهــا

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ٧- ١٢؛ ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٤- ٩؛ السراج، **أنس الساري والسارب**، ص ٢- ٤٣.

(٢) العبدري، محمد بن علي بن أحمد، أبو عبد الله الحاحي العبدري: صاحب "رحلة العبدري" المعروفة باسمه. أصــله مــن بلنسية. ونسبته إلى بني عــبد الدار. كان من ســكان بلدة "حاحة في المــغرب، بعد أزمور، تــوجّه منهــا حـــاجًا ســـنة ١٢٨٩/٦٨٨، فدخل باجة وتونس والقيروان، ومر بالإسكندرية في ذهابه وإيابه. واستقر في بلده، حيث أنجز الرحلـــة. زكـــي حسن، **الرحالة المسلمون**، ج ٨، ص ١٣٢.

عن قرب في رحلته إلى الحجاز[١].

وقد تابع العبدري وصفه لكل ناحية من النواحي الّتي رآها وصولاً إلى تلمسان الّتي تشكّل مركز تجمع الحجّاج الوافدين من مختلف أنحاء بلاد المغرب، فينتظرون بها ريثما يتمّ تجهيز الركب للسفر، فيجتاز مليانة، وهي محطة استراحة الحجيج، فالجزائر الّتي حازت ميزتي الطريق البرّي والبحري بين المغرب والمشرق، ثم بجاية مبدأ الاتفاق والنهاية، وهي مدينة بريّة بحريّة في ما خصّ طريق الحجّ[٢]. فالقسنطينة الّتي تمكّن الركب من عبورها بالرغم من فساد الطريق، ثمّ بونة، فخولان الّتي أظمات أهلها وهم شرع في الماء الرّوى، مرورًا بسوسة الّتي تعد من محطّات الحجّ الرئيسيَّة وكان فيها آنذاك رباط ينزله الحجيج، ثم تونس وهي أهم محطّات طريق الحجّ البرّي والبحري بين المغرب والمشرق[٣]، ثمّ مرّ الركب بالقيروان فليس لها برّ ولا بحر، ولا ماء بها ولا مرعى فهي مسلك الحجيج من الداخل. ثمّ طرابلس الغرب وهي محطّة لعبور الحجّاج الطريق البرّي أو البحري، وصولاً إلى برقة محطّة مهمّة لاستراحة الحجّاج وتجمعهم، فمنهم من يتابع سيره برًّا، والآخر يمخر بحرًا، وتقام على أرض برقة سوقًا كبيرة يتبادل الحجّاج عمليتي البيع والشراء مع الأعراب، ثمّ الإسكندرية الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فالقاهرة نقطة تجمّع الحجيج[٤].

تلك كانت أهمّ محطّات طريق الحجّ المغربي، الّتي سلكها الركب إلى بلاد الحجاز، فينزل بها لأيّام قليلة للراحة، أو لتأمين حوائج الحجّاج.

ب- طريق الحجّ المصري

بقي حجّاج مصر والمغرب زيادةً على قرنين من الزمن من سنة ١٠٨٢/٤٦٠ إلى سنة ١٢٦٦/٦٦٥، يتوجّهون من القاهرة عبر الطريق النهري من الفسطاط بواسطة النيل، أو عن طريق البرّ إلى قوص، ثمّ يعبرون الصحراء الشرقيَّة من قوص إلى عيذاب قرب الحدود المصريَّة السودانيَّة، ومن ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر إلى جدّة على الشاطئ المقابل، وكانت المسافة من القاهرة إلى مكّة تستغرق تقريبًا أربعين يومًا[٥]. ثم تأخذ القافلة طريقها إلى المبرز، حيث تعدُّ الإبل لشد الرحال إلى عيذاب عبر الصحراء الشرقيَّة لمدّة خمسة عشر يومًا.

---

(١) العبدري، **رحلة العبدري**، ص٤٠، ٤٢- ٤٣ ، ٤٥، ٤٧.

(٢) العبدري، م. ن.، ص ٤٨، ٧٨، ٨٢

(٣) العبدري، م. ن.، ص ٩٦، ١٠٤، ١٠٨، ٤٨٧؛ ابن بطُوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص ٦.

(٤) العبدري، م. س.، ص ٢٠٣- ٢٠٤، ٢١٠، ٢٧٤؛ ابن بطُوطة، م. س.، ج١، ص ٨، ١٩.

(٥) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج١، ص٢٠٢.

وكان الحجّاج يقيمون في عيذاب نحو شهر أو أكثر في انتظار المراكب الّتي تحملهم إلـــى جدّة [١].

وفي أيّام المماليك، كانت أوّل قافلة أخرجها السلطان الظاهر بيبرس البندقداري إلى الحــجّ من البرّ في سنة ١٢٦٧/٦٦٦، وكان من الطبيعي أن تتغيّر أسماء بعض المواضع، وتبرز أمــاكن جديدة، فلقد تبدّل اسم جب عميرة إلى بركة الحجّ، وبرزت محطّة نخل في قلب سيناء، واندثر ميناء الجار، وظهرت ينبع كميناء وريث للجار [٢].

وأصبح الحجّاج المصريون والمغاربة في العصر المملوكي يسلكون أحد طريقين للــذهاب إلى الحرمين الشريفين:

١- الطريــق الأوّل

يتّجه من القاهرة شمالاً عبر سيناء، ثم الأراضي الحجازيّة، وقــد كــان الأكثــر شــهرةً واستعمالاً عند قوافل الحجّ المصريّة عبر السنين. ويمرُّ عبر الأماكن التالية:

(١)- بركــة الحجّ أو بركــة الجب

كانت تمثّل أولى محطّات طريق الحجّ من شمال القاهرة. تقع هذه البركة في الجهة البحريّة من القاهرة على نحو بريد منه- أي مسافة مرحلة واحدة كان يقطعها حامل البريد- عرفت أوّلاً بجب عميرة، ثم قيل لها أرض الجب، وعرفت إلى اليوم ببركة الحجّ، بسبب نزول حجّاج البرّ بها عنــد مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم. كما صارت مكاناً لبيع الأغنام في العصر المملوكي.

وكانت تقام بها احتفالات خروج المحمل المصري سنويًّا، باعتبارها أوّل محطّة للحجّــاج، ويتمُّ فيها أيضًا الإستفتاء على أمير الحجّ عند العودة. وتستغرق إقامة الحجّاج ببركة الحجّ خمســة أيّام لكي تتم قافلة الحجّ استعدادها التام قبل السفر والرحيل [٣] وقد أشار العبدري إلى بركــة الحــجّ بأنها محطّة تلاقي الحجّاج وتجمُّعهم وبداية الرحلة الحجازيّة لأداء المناسك الدينيّة [٤]

(٢)- الدار الحمــراء

يصل ركب المحمل إلى الدار الحمراء، وهي محطّة تقع شرقي جبل الجيوشي، وهي خالية من الماء سوى المطر. وكان الحجّاج يتعرّضون أحياناً لأزمة عطش كبيرة بســبب فقدان الآبــار

---

(١) عرفة عبده علي، "طريق الحجّ المصري"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثّاني، ص ٧٨.

(٢) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج١، ص ٢٠٢؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ٧٩.

(٣) الجزيري، درر **الفرائد**، ص ٤٤٩؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ١٣٠- ١٣٢؛ البتنوني، **الرحلة الحجازيــة**، ص١٠٩؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص ٢٤٧؛ سيد بكر، م. س.، ص١٠٤؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.137.

(٤) العبدري، **رحلة العبدري**، ص٣٣٠.

والعيون إذا مرّوا على موضع صحراوي خال من الماء[١].

(٣)- عجـرود

وهي إحدى المحطّات القديمة بين القاهرة والسويس، ومن هناك يرجع المرضى والمنقطعون عن جماعات الحجّ، والذين تاهوا عنهم ومن بقي من المودّعين. وعجرود صحراء واسعة الأطراف، بها قلعة حصينة شهيرة، وحتى لا يتيه فيها ركب الحجّاج، فقد أنشئت أعمدة حجرية بها لاسترشاد الحجّاج في الطريق بالقرب من السويس. وكان يقام بها سنويًا أثناء موسم الحجّ سوق كبيرة يأتي التجّار إليها من بلبيس والسويس والأماكن الأخرى القريبة من عجرود[٢].

والرّاجح أنّ محطّة عجرود، كانت محطّةً مهمّةً في تزويد الحجّاج بالحاجات الأساسيّة، خوفًا من نقص موادّ التموين في الطريق.

(٤)- السويـس

يتّجه الركب إلى مدينة السويس، وقبل دخولها، يتمّ تنظيم الموكب مع إلباس المحمل كسوته المزركشة، وجاء العبدري على ذكر السويس أثناء سفره إلى مكّة متحدثًا: فمن البركة إلى السويس ثلاثة أيّام، وهي بئر غزيرة واسعة، وهنالك بحر الشرق، فيدور السالك من ورائه ويتركه يمينًا ولا يزال محاذيًا له إلى مكّة، وثمّة كانت مدينة القلزم[٣].

وعلى ما يبدو أنّ الحجيج قد يعمدون للاستراحة في مدينة السويس تأهّبًا لاستئناف الرحلة بنشاط واندفاع.

(٥)- القلـزم

المسافة بين مدينة القلزم وبين مصر ثلاثة أيّام، وليس فيها زرع ولاشجر ولا ماء، ومنها تحمل حمولات مصر والشام إلى الحجاز واليمن، وهي خزانة مصر وفرضة الحجاز ومغوثة الحجّاج[٤].

وتعد القلزم مركزًا لمساعدة الحجّاج على نقل أمتعتهم وأغراضهم من مصر والشام إلى الحجاز، فهي تشكّل نقطة التقاء الركبين الشامي والمصري، وتقابل فئات الحجيج بعضهم مع بعض والتعارف في ما بينهم.

---

(١) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ١٣٤.

(٢) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص ١٣٤؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ١٠٦.

(٣) العبدري، **رحلة العبدري**، ص٣٣٥؛ إبراهيم حلمي، م. س.، ص١٣٤؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، ص٢٤٨- ٢٤٩؛ سيد بكر، م. س.، ص١٠٦؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p.179-181.

(٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٣٨٨؛ العياشي، **ماء الموائد** (الرحلة العياشية)، ص٣٣.

(٦)- الثّغــار

وهو مكان ممتد في الصحراء بلا ماء، ويقع بين الجبال والتلال، ويتّجه المحمل المصري إلى سيناء من الثّغار، وقد اشتهرت باسم صحراء التيه. وكان المحمل المصري يقطع هذا المكــان في مدة يوم واحد. وقد اشتهر هذا الطريق بتجارة الإبل والأغنام بين البلاد الحجازيّة ومصر[١].

ويتبادر إلى الأذهان من خلال هذا الوصف القاتم لموقع الثّغار، أنّ الحجّاج كانوا متّعرضين للتيه في الصحراء المقفرة، لذا كانوا يقطعونها في يوم واحد، حيث يكمن دور السلطنة المملوكيّة في حفظ الطريق وتأمين أمن الحجّاج وسلامتهم، وتجنيبهم المخاطر والهلاك .

(٧)- نخــل

أهمّ محطّة في طريق الحجّ المصري سيناء، وكانت عاصمة بلاد التيه. وشهدت نخل عناية حكّام مصر منذ عودة طريق الحجّ إلى سيناء، ولا سيّما في عصر المماليك، فحفرت بها الآبار في عهد الناصر محمّد بن قلاوون، وبنيت فيها البرك (خزّانات المياه)، وكان بها ساقية لــتملأ بركهــا يرسل إليها الثيران والنجّارون قبل موسم الحجّ، وبنى قلعتها قانصوه الغوري ســنة ١٥٠٩/٩١٥، كما سبق ورتّب لها الحرس من الجنود[٢].

ولا شكّ في أن محطّة نخل، كانت من منازل الحجّ المهمّة في عصر المماليك.

(٨)- القريــص

كان يطلق على هذه المحطّة اسم نخل أيضًا، وعندما بنيت في منطقة نخل الحاليّة قلعتهــا الشهيرة، أطلق اسم نخل على المكان الحالي، ثم أطلق اسم القريص عليها بدلاً من نخل[٣] .

وعلى ما يبدو، أنّ هذا الموقع كان يمثل مكانًا آمنًا للحجّاج؛ لأنه يحوي قلعــة يقــيم بهــا الجنود لنشر الأمن في تلك المنطقة.

(٩) – السطــح

هذه المحطّة كانت في مناخها على النقيض من نخل، إذ كانت تمتاز بالدفء في الشتاء[٤].

وتبدو محطّة السطح كأنها منفذ لراحة الحجّاج، ولا سيّما في فصل الشتاء.

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص٧٩.

(٢) ياقوت الحموي، م. ن.، مج ٥، ص ٢٧٦؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ١٣٥– ١٣٦؛ سميرة عمر، **إمارة الحجّ في مصر العثمانيّة**، ص٢٥٠؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ١٠٨، ١١١؛ J. Jomier, *Le Mahmal*, p.184.

(٣) ياقوت الحموي، م. س.، مج ٥، ص٢٧٧.

(٤) إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٣٨؛ سيد بكر، م. س.، ص١١٢.

(١٠)- **العقبة أو أيلـــة**

وهي أخطر قسم في طريق الحجّ من القاهرة إلى مدينة العقبة، ويطلق على هذه المنطقـــة رأس العقبة. ومن خلال التسمية فقط، يتّضح لنا أن هذه المحطّة كانت صعبة المسلك علـــى مـــن يرتادها من العابرين لها وكذلك الحجّاج[١].

وظلّت العقبة على هذه الحال حتى أرسل السلطان المملوكي الناصر محمّد بـــن قـــلاوون أميره أيتمش إليها ومعه مائة رجل من الحجّارين لتوسيعها وإزالة وعورتها، ومـــن يومهـــا ســـهل صعودها[٢].

(١١) – **حقـــل**

يكثر في هذه المحطّة النخيل، وكان بها ماء عذب، وبها طريق وعر يسمى ظهر الحمار، كان محصورًا بين الجبل والبحر[٣].

(١٢)- **الشرف أو شرفـــة بنـــي عطيـــة**

هذه المحطّة كانت سوقًا كبيرةً للتجارة، وأرضها صلبة ووعرة، وهي منطقة جبليّة عاليـــة في جنوب شرق حقل على الطريق الممهّد بين حقل وتبو. ومن أقوال العامّة: لا حـــجّ إلاّ بعرفـــة، ولاجمل إلاّ بعد الشرفة[٤].

وتبدو محطّة الشرف مهمّةً للحجّاج والتجّار، لكن قد تعتـــرض القوافـــل متاعـــب جمـــة ومصاعب شاقة نتيجة الأحوال الطبيعيّة والمناخيّة.

(١٣) – **الرجـــم**

أطلق الاسم على هذا المكان؛ لأن به أحد الرجوم الّتي اشتهر بإقامتها البدو عندما يعظّمون أحدًا أو يحقّرونه، وكان يسير منه الركب المصري إلى واد اسمه "وادي عفال"، وهو واد غير ذي زرع ولا ماء[٥].

ولعلّ هذا المكان من الأمكنة القليلة الّتي كانت تثير اشمئزاز الحجّاج، نتيجة ممارسات البدو الحقيرة الّتي كانوا يقومون بها.

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص ٤٤٤؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ١٣٨؛ H. Seyrig, "Postes romains sur la route de Médine", *Syria*, vol. XXII, p.218.

(٢) إبراهيم حلمي، م. س.، ص١٤٠؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ١١٥.

(٣) إبراهيم حلمي، م. س.، ص١٤٠؛ سيد بكر، م. س.، ص ١٢١.

(٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٣، ص ٣٣٦.

(٥) إبراهيم حلمي، م. س.، ١٤٠– ١٤١.

(١٤) – مغايـر شعيب أو مديـن أو البـدع

اسم مدين، هو الاسم القديم لتلك القرية الّتي كان يسكن فيها النبيّ شعيب، وأما اسم البـدع، فقد أطلقه البدو بأنفسهم على المكان، وكانت المسافة من الرجم إلى مغارة شـعيب يـومين. وقـد اشتهرت محطّة مغاير شعيب بالمياه العذبة والنخل الجيد، وكانت فواكه بساتينها تباع للحجّاج[١].

والرّاجح أنّ هذه المحطّة كانت تُعَدُّ مركز أمان للحجّاج، نظرًا إلى وفرة الطعام والماء فيها، فضلاً عن قدسيّتها، فهي مأوى النبيّ شعيب.

(١٥)- عيـون القصـب

هذه المحطّة على ساحل البحر الأحمر مباشرةً، وكان بها عين ماء كبيرة جارية على وجه الأرض كالنهر يشرب منها الحجّاج، وبها نخل كثير، وكانت فيها زراعة الشعير[٢].

ويبدو أنّ محطّة عيون القصب تشكل محلاً لاستراحة الحجّاج من عناء السفر الطويل.

(١٦)- المويلـح أو النبـك

تقع محطّة المويلح على الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر من جهة شبه الجزيـرة العربيّـة، جنوبي العقبة، وماؤها مالح رديء، وبأرضها بساتين ونخيل، كما كان بها سوق، وكـان الحجّـاج يتركون أمتعتهم في هذه المحطّة عند الذهاب حتى حين عودتهم[٣].

(١٧)- ظبـأ أو مـرزوق الكفافـي

سمّيت هذه المحطّة باسم "مرزوق الكفافي" نسبةً إلى ضريح رجل يحمل هذا الاسم، ويقال: إنه كان من أهل المغرب من التجّار، وإنه مرض في طريق الحجّ، فأمر بحفر البئر وعمارتها فـي منزل ظبا[٤].

ومن الواضح أنّ بعض الحجّاج المرضى والعجّز كانوا يلاقون مصرعهم في الطريق، كما حصل للتاجر المذكور من أهل المغرب.

(١٨) – الأزلـم

اشتهرت هذه المحطّة بقلعتها الحصينة، وكان بها خان تخرّب في عهد السـلطان قانصـوه الغوري، وكان قد بناه السلطان الناصر محمّد بن قلاوون، ثم أعيد البناء في سنة ٩١٦/١٥١٠على

---

(١) العبدري، **رحلة العبدري**، ص٣٤٠؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص١٤٠- ١٤١؛ حمد الجاسر، **المعجم الجغرافـي (شـمال المملكة)**، ج٢، ص٧١٥.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص١٨٠.

(٣) العبدري، م. س.، ص٣٤٢؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٤٥؛ سميرة عمـر، **إمـارة الحـجّ فـي مصـر العثمانيـة**، ص٢٥٤؛ J. Jomier, *Le Maḥmal*, p.193- 195.

(٤) ياقوت الحموي، م. س.، مج٤، ص ٥٧.

يد الأمير (خوش قدم) في أواخر العصر المملوكي وكان بها أربع آبار للمياه، غير أنهـا كانـت مالحة. وكان بخان الأزلم طائفة من الترك والقواسة وغيرهم، وفيه كانت تحفـظ ودائـع حجّـاج المحمل المصري إلى حين العودة إلى الأهل[١].

(١٩) – إسطبـل عنتـر

كانت هذه المحطّة عبارة عن صحراء واسعة بين جبال محيطة بها، وكان بها خمس آبـار ماؤها حلو طيب، وبركة كبيرة كان يتجمّع الماء فيها أيّام الحجّ.

وقد كانت هذه المحطّة المنقذ للحجيج من العطش واللهيب في الطريق، حيث كانت تحتوي على آبار وبرك يتجمع فيها الماء في الموسم[٢].

(٢٠) – الوجـه

كان في هذه المحطّة قلعة عامرة بين جبال، وتحتوي القلعة على أربعة أبراج، وفيها منارة، وعندها آبار من المياه الّتي تغلب عليها الملوحة، وبركة كبيرة تمتلئ بالماء أيّام الحجّ[٣].

(٢١) – مثينة العجلة

كانت هذه المحطّة على ساحل البحر الأحمر، وفي مكان مرتفع من شرق البحر[٤]. ولعـلّ القوافل لم تكن لتتوقّف في هذه المحطّة، لأنها كانت مقفرة، لا شيء فيها يستفيد منه الحجيج.

(٢٢)– الحـوراء

ميناء كان له شهرة تاريخيّة قديمًا، يقع على بحر القلزم (البحر الأحمـر) شـمال ينبـع، وجنوب الوجه، وكان معروفًا حتّى أوّل هذا القرن (العشرين)، وقد حـلّ محلـه مينـاء أم لـج. والمعروف أنّ الحوراء منزلة بطريق حجّاج مصر، ولعلّها على القرب منها. وبالحوراء يتلقى أهل ينبع الركب بالتمر[٥].

(٢٣)– النبـط

كان بهذه المحطّة ثلاث آبار من الماء الحلو يشرب منهـا الحجّـاج، واشـتهرت النـبط بمغارتها[٦].

---

(١) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص١٤٣ .

(٢) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص ١٤٣ – ١٤٤؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص١٣١– ١٣٢.

(٣) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٤٥٠؛ إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٤٤.

(٤) الجزيري، م. س.، ٤٥؛ إبراهيم حلمي، م. س.، ص١٤٣– ١٤٤؛ حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي** (شمال المملكة)، ج٢، ص٨٤٣.

(٥) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٥، ص ٢٥٨.

(٦) ياقوت الحموي، م. ن.، مج ٥، ص ٢٥٨.

ويبدو أنّ رحلة الحجّ كان يصادفها الخير والشر على الدرب، فبعد الجفاف ينتظر الحجــيج الماء في النبط.

(٢٤)- الخضراء

هذه المحطّة كانت خاليةً من الماء، وبالخضراء وعرات كثيرة بلغت سبعًا، وكان يكثر بها الشجر على الرغم من ندرة الماء، وقيل: إنّ أهل ينبع كانوا يجمعون حطبهم منها[١].

ويبدو أنّ الحجّاج، بوصولهم إلى ينبع أو ينبع النّخل، يكونون قد اجتازوا مسافاتٍ طويلةً من رحلتهم، وأصبحوا على مشارف الحجاز تقريبًا.

(٢٥)- ينبع أو ينبع النخل

هذه المحطّة تميَّزت باسم ينبع النخل للتفرقة عن اسم ينبع البحر الواقعة على ساحل البحر الأحمر. وينبع النخل، كان يكثر بها النخيل إلى درجة غير عادية، وكان بها من عيون الماء الحلو ما يبلغ مائة وسبعين عينًا ينبع منها الماء، لذا سميت بهذا الاسم[٢].

(٢٦)- ينبع البحــر

توجد ينبع في غربي المدينة بانحراف قليل نحو الجنوب الغربي، وتبعد عنها اثنين وخمسين فرسخًا[٣]، ما يعادل ثلاثمائة واثني عشر كيلو مترًا. وينبع ميناء المدينة، والميناء الثّاني في الحجاز. وميناء ينبع ظهر في النصف الأوّل من القرن السابع الهجري/الثالث عشر المــيلادي إبّــان حكــم الأيوبيين. وشهدت نهضةً في عهد حكم المماليك بعد زوال الاحتلال الفرنجي من بلاد الشام وعودة طريق الحجّ المصري إلى مساره الأوّل إلى ميناء العقبة. ومن ينبع البحر يتّجه طريق الحجّ إلـــى المدينة أو إلى مكّة[٤] .

(٢٧)- بــدر

هذه المحطّة للحجّاج، تحمل اسم أوّل موقعة حربيّة في تاريخ الإســلام بــين المشــركين والمسلمين في عهد الرسول، و كان لحجّاج المحمل المصري منذ العصر المملــوكي فيهــا عــادة شائعة، وهي تتمثل في إيقاد الشموع، ووضعها موقدةً في الرحـــالات والمحامل. وقد أمر السلطان قانصوه الغوري ببناء قبة وفسقية كبيرة عند عين ماء تجري هناك. وبدر قرية ذات نخيل ومـــاء

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص٣٧٦.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٤٥١؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلســيين والمغاربــة**، ص١٣١- ١٣٢؛ إبــراهيم حلمي، **المحمل**، ١٤٥- ١٤٦؛ حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي (شمال المملكة)**، ج١، ص٤٦٣- ٤٦٤.

(٣) فرسخًا: الفرسخ يساوي ستة كليو مترات. السويدي، **النفحة المسكية**، ص ٤٨.

(٤) ياقوت الحموي، م. س.، مج ٥، ص٤٥٠.

عذب، كان يخزّن فيها ما يحتاج إليه الحجّاج من طعام وعلف وعليق وشمع حتّى وقت العودة[١].

(٢٨)- القاع

كانت الجمال ترتجف وتضطرب عند هذا المكان، نظرًا إلى الميل الكبير في تضاريس الأرض، ما كان يدفع الحجّاج إلى أخذ الاحتياط وحمل الأحمال بدلاً من حمل الدوابّ لها خوفًا من السقوط. والقاع منطقة لا ماء فيها، وإن اشتهرت بسوق تجاريّة كبيرة للحجّاج[٢].

(٢٩)- رابغ

وهي قرية صغيرة، بها الكثير من المزارع والنخيل والماء، وتعتمد على مياه السيول، وكان بها سوق عظيمة، وهي موضع ميقات الحجّ المصري ومن يأتي معهم، فيحرم الحجيج هناك في موضع يقال له الجحفة[٣]. وكان لديها سوق عظيمة يتسوّق منها الحجيج.

(٣٠)- قديد

هذه المحطّة كانت إحدى القرى التابعة لمكّة، وكان أهلها يقومون ببيع الرطب والبطيخ للحجّاج الّذين كانوا يتّجهون منها إلى خليص لأخذ قسط من الراحة[٤] .

(٣١)- عسفان

وهي قرية على نحو يومين من مكّة، وبها مياه عذبة وكان يقام بها سوق، ولكن بطريقها ممر ضيّق يمرّ فيه الركب المصري جملاً جملاً حتى يدخلها، وقد سميت باسم عسفان لعسف السيول بها، وكان بها آبار وبرك وعين تعرف بالعولاء[٥].

(٣٢)- وادي فاطمة

وهو من أودية الحجاز في الشمال من مكّة في طريق حجّاج مصر والشام. اشتهرت هذه المحطّة بشجر السنط والنخيل والحبوب والخضر الّتي كانت تزرع في أرضها، ويكون يوم الإقامة بها يومًا عظيمًا، حيث تحضر فيه طائفة من أهل مكّة يكرّمون الحجّاج بالهدايا للتبرك بهم، ثمّ يتّجه الركب منها إلى أم القرى مكّة[٦].

---

(١) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ١٤٧؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ١٤١- ١٤٢.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص ٢٩٨.

(٣) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣، ص ١١.

(٤) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٤، ص ٣١٣.

(٥) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٤، ص ١٢٢.

(٦) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٤٥١؛ إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٤٧- ١٤٨؛ سميرة عمر، **إمارة الحج في مصر العثمانيّة**، ص ٢٥٨- ٢٥٩؛ J. Jomier, *Le Mahmal*, p.203.

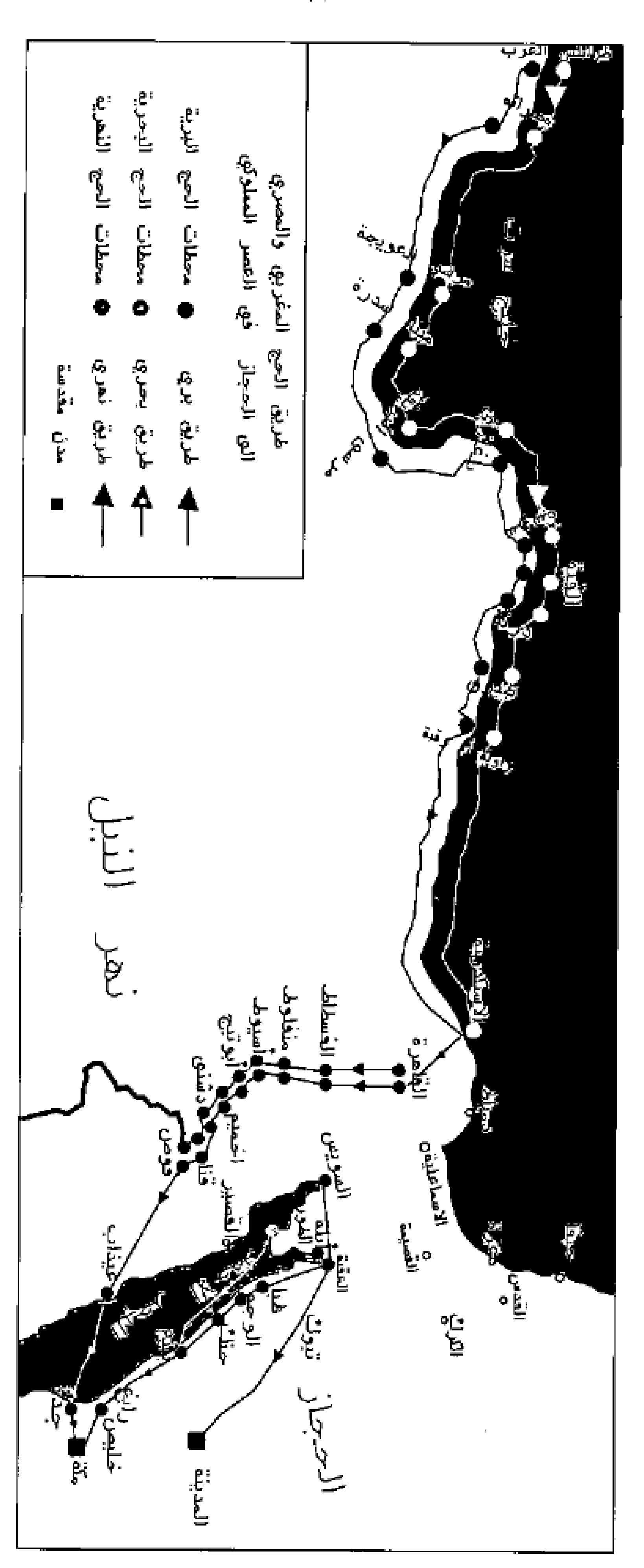
وقد حدّد حمد الجاسر طريق الحجّ المصري البرّي عبر سيناء على الشكل التالي:

برزخ السويس، فصحراء التيه حتى العقبة، ومنها إلى شرف بني عطية ويسمى الشرفة.

ثمَّ إلى مدين (عينونا)، ومنها إلى المصلّى (الشرمة)، ثمَّ إلى النبك وهو المويلح، ومن المويلح إلى ظبة أو ظبأ البلدة المعروفة، ثمَّ إلى العويند، ومن العويند إلى الوجه، ثمَّ إلى منخوس، ومن منخوس إلى الحوراء، ثمَّ إلى ينبع، ينبع النخل.

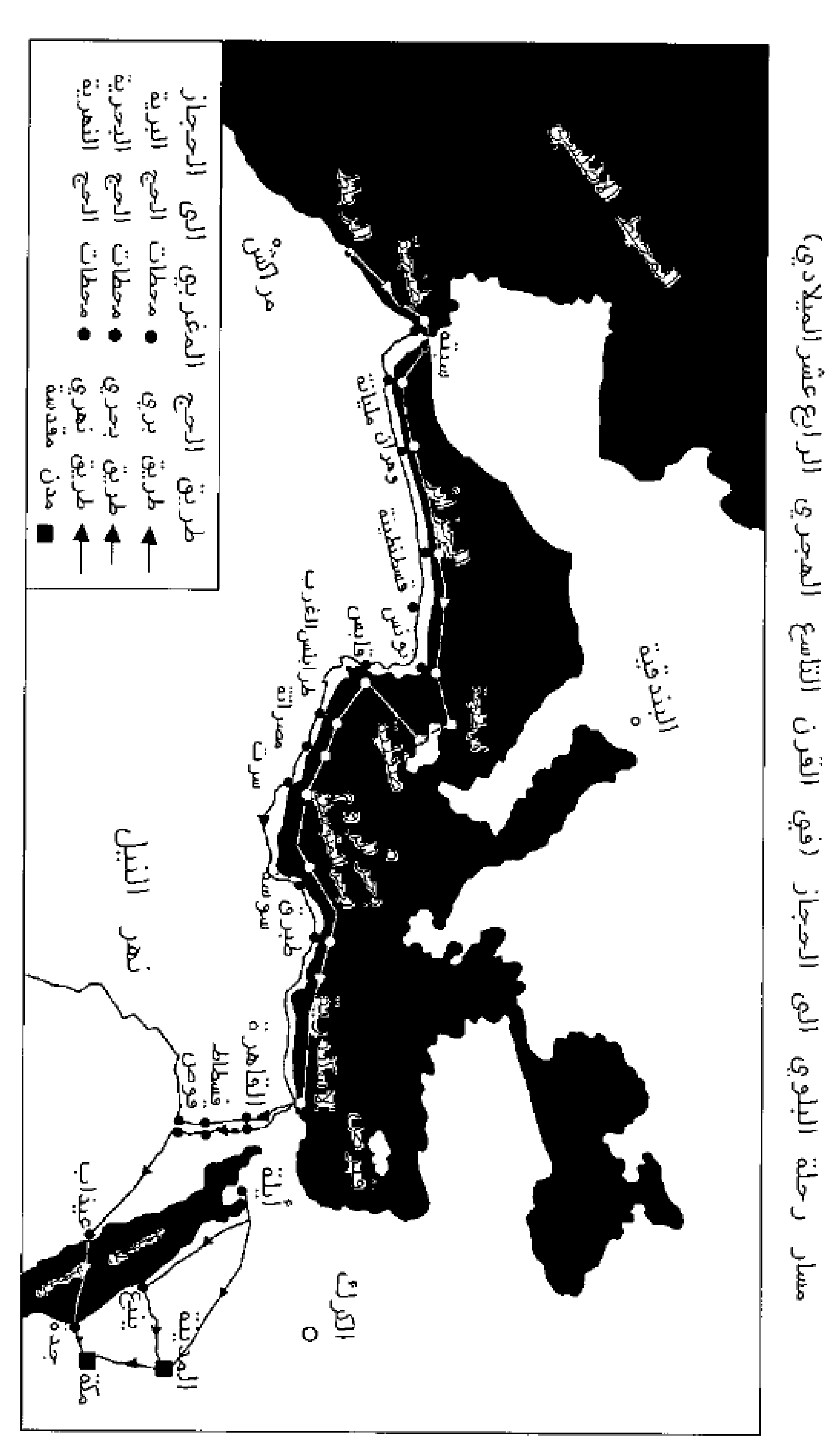
هذه أشهر منازل الطريق، وبينها منازل أخرى كثيرة[1]. وهذا هو طريق المحمل المصري ومنازله ودروب حجّاجه، طريق سارت فيه مرارًا وتكرارًا، بالذهاب والإياب، أخفاف الجمال، وأقدام الناشدين زيارة بيت الله الحرام.

(١) حمد الجاسر، المعجم الجغرافي (شمال المملكة)، ج٢، ص٨٣١.



بدران، شارل جورج ، **أطلس العالم**، مطابع فلاردي، ١٩٧٨، ص ٧٤-٧٥.

مسار رحلة البلوي الى الحجاز (في القرن التاسع الهجري الرابع عشر الميلادي)



البلوي، خالد بن عيسى (١٣٦٧/٧٦٨)، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، مقدمة وتحقيق الحسن بن محمد السائح، المغرب، صندوق إحياء التراث الإسلامي، لا ت.، ج١، ص ٥٢.

٢- الطريـــق الثانـــي

ويقسم هذا الطريق إلى ثلاثة أقسام:

- القسم الأوّل: يبدأ من القاهرة إلى قوص بطريق النهر أو البرّ.
- القسم الثّاني: يسير عبر الصحراء الشرقيّة إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر.
- القسم الثالث: يتّجه إلى جدّة .

- القســم الأوّل

يمتد من القاهرة إلى قوص عبر نهر النيل ويمر في المحطّات التالية:

(١)- أسكــر

تقع على الضفة الشرقيّة للنيل، وتُعَدُّ من القرى القديمة، والمسيرة إليهـا مـن الفسـطاط تستغرق يومين[١].

(٢)- منية أبي الخصيب

تستغرق المسيرة إليها عبر نهر النيل خمسة أيّام، ويوجد بالقرب منها مسجد النبيّ إبراهيم، وقد ذكر أنّ بفناء هذا المسجد أثر الدابة الّتي كان يركبها إبراهيم، كإحدى علاماته المميّزة، وبالطبع كان الأهالي يتبرّكون بهذا الأثر[٢].

(٣)- منفلــوط

قرية على مقربة من الشاطئ الغربي، اشتهرت بزراعة نوع جيد من القمح، كان التجّـار يحرصون على استجلابه منها، وكان بها سوق كبيرة يجد الحجّاج فيها مختلف الأشياء والبضـائع التي يحتاجون إليها[٣].

(٤)- أسيــوط

تقع على الشاطيء الغربي للنهر، وقد أشار إليها ابن جبير في رحلته، بقوله إنها كانت تُعَدُّ كأهم مدن الصعيد، ولا تزال كذلك حتى اليوم، وإنها تبعد عن نهر النيل مقدار ثلاثة أميال. وهـي جميلة المنظر، وحولها البساتين والنخيل، ولها سور عتيق[٤].

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج١، ص١٨٢.

(٢) ياقوت الحموي، م. ن.، مج ٥، ص٢١٨.

(٣) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص٣٣؛ ابن بطوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٢٨؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ١٤٩- ١٥١؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص١٢٣، ١٢٥.

(٤) ياقوت الحموي، م. س.، مج١، ص١٩٣.

(٥)- أبو تيــج

تقع على الشاطيء الغربي لنهر النيل، وفيها الأسواق، وسائر مرافق المدن[١].

(٦)- إخميــم

تقع على الجانب الشرقي لنهر النيل، قديمة الاختطاط وعامرة بالأسواق، تكثر بها الآثــار القديمة ذات الأعمدة الشاهقة، والّتي تسمى السواري[٢].

(٧)- البلينــا

قرية قديمة على الشاطيء الغربي للنيل وكثيرة النخل[٣].

(٨)- دشنــى

تقع دشنى على الشاطيء الشرقي للنيل، وكان يحيط بها سورعلى مقربة من قوص آخــر مدينة تصل إليها مراكب الحجّاج عبر النيل، قبل الدخول في مفاوز الصحراء الشــرقيَّة لمصــر، للوصول إلى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر[٤].

(٩)- قنــا

من المدن المهمَّة بصعيد مصر، وصفها ابن جبير بأنها بيضاء أنيقة المنظــر، ذات مبــان حافلة، وهي تقع على الشاطيء الشرقي للنيل[٥].

(١٠)- قفــط

مدينة شرقي النيل ذكر ابن جبير أنها ذات حسن ونظافة بنيان وإتقان[٦].

تلك المحطَّات الّتي سلكتها قوافل الحجّ المصري والمغربي من القاهرة إلى قوص عبر نهر النيل.

- القســم الثانــي

يمتدُّ من قوص إلى عيذاب عبر الصحراء الشرقيَّة المصريَّة، وتستعمل فيه الجمال والإبل، وينقسم هذا الطريق إلى دربين:

---

(١) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ١٢٥.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج١، ص١٢٣.

(٣) ياقوت الحموي، م. ن.، مج١، ص٤٩٣.

(٤) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٢، ٤٥٦ .

(٥) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٤، ص٣٩٩.

(٦) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ٣٤- ٣٥، ٤٠؛ ابن بطُّوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص ٢٨؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيَّة**، ص ١٥١- ١٥٢؛ إبراهيم حلمي، **م. س.**، ص ١٢٥- ١٢٦.

أحدهما يعرف بطريق العبدين، والآخر طريق دون قنا، ويلتقيان عند بئر دنقاش أو بئر شاغب. وقوص هي المحطّة النهائيّة للمرحلة النهريّة من طريق الحجّ وبداية المرحلة البريّة عبر صحراء عيذاب على البحر. ذكر ابن جبير أنها في أوج ازدهار طريق عيذاب (للحجّ والتجارة)، كانت مدينةً حافلةً بالأسواق، متّسعةً المرافق، ملتقى الحجّاج والتجّار من اليمنيين والهنود والأحباش[١].

وبعد مشاهدة ابن جبير لقوص بما يزيد على قرن من الزمان، ذكرها ابن بطّوطة سنة ١٣٢٧/٧٢٧ كمدينة عظيمة لها خيرات عميمة [٢]. وهكذا عمرت نهضة قوص ما يزيد على ثلاثة قرون، بفضل ازدهار طريق عيذاب للحجّ.

يمرُّ طريق هذا القسم في المحطّات الآتية:

(١)- المبرز

هو مكان بجنوب قوص، له ساحة فسيحة محاطة بالنخيل، وفي هذا المكان تجتمع رحال الحجّاج والتجّار، وكان يوزن فيه ما يحتاج الحجّ إلى وزنه من أحمال وأمتعة تُشَدُّ فوق ظهور الجمال[٣].

(٢)- بئر الحاجر

هو مكان به بئر ماء، كان يبيت به الحجّاج للتزوّد بالمؤن والمياه قبل الرحيل[٤].

(٣)- قلاع الضياع

من تسميتها فقط ينبعث الخوف في الأبدان، حيث كان المكان مقفرًا، تترامى منه على مرمى البصر كثبان الرمال والصخور، مما ينذر بالأخطار والمخاوف[٥].

(٤)- محطّ اللقيطة

لا يزال هذا الاسم يطلق حتى اليوم على المكان نفسه في شرقي قوص، وبه نخيل وآبار عذبة. واللقيطة واحة من أبهى مناظر الصحراء، وموضع كان يبيت فيه الحجّاج في الصحراء الموحشة، وهو على مسافة يوم سفر بالجمال[٦].

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص٤٠- ٤١؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص١٢٦؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص١٥٣.

(٢) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٢٩.

(٣) إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٢٦.

(٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص ٢٠٤.

(٥) إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٢٧ .

(٦) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص ١٢٧.

(٥)- بئـر العبدَيْن

سمي هذا المكان نسبةً إلى عبدين ماتا عطشًا قبل أن يرداه، وكان به قبراهما، وكأنه تحذير للحجّاج للتزوّد بما يكفي من الماء قبل الوصول إليه[١].

(٦)- بئـر دنقـاش

أشار إليها ابن جبير كمحطة رئيسيّة على مسيرة أربعة أيّام من اللقيطة، يتوافر بها المـاء، وعندها يلتقي طريق قنا_ عيذاب. ودنقاش هي بئر دنقاش حاليًا، وعند هذا الموضع تتجمّـع الإبـل والجمال بأعداد لا حصر لها، فالمسافة بين بئر العبدَيْن وبئر دنقاش، كانت تحتاج إلى مسير ثلاثـة أيّام في الصحراء، ما جعل الظمأ يشتدّ، سواء عند الدواب أو الحجّاج[٢].

(٧)- بئر شاغب

يصل الحجّاج إلى هذا الموضع بعد مسير يوم وليلة من سابقه، وكان به ماء زعاق غيـر سائغ[٣].

(٨)- بئر أمتان

كان الحجّاج يسلكون طريقًا وعراً للإبل للوصول إلى بئر أمتان، وكان يعتقد في هذه البئر أن الله قد خصّها بالبركة، وكانت أطيب مياه الطريق وأعذبها[٤] .

(٩)- بئر مجاج

كان موضع هذه البئر على الطريق الرئيسي للحجّاج، وكانوا يتزوّدون من الماء الذي فيها، بحيث يكفيهم لمسير مدة أربعة أيّام[٥].

(١٠)- بئر العشراء

هذه البئر على بعد يوم واحد من عيذاب، وكان في هـذا الموضـع كثيـر مـن شـجر العشر[٦][٧].

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص٤١؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص١٥٤،١٥٦؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص١٢٦-١٢٧.

(٢) ابن جبير، م. س.، ص ٤١ – ٤٢.

(٣) إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٢٧.

(٤) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص١٢٧.

(٥) إبراهيم حلمي، م. ن.، ص ١٢٨.

(٦) العشر: شجر له صمغ وفيه حراق مثل القطن يقتدح به. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٩، ص٢٢١، "عشر".

(٧) إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٢٨.

(١١)- بئر الخبيب

كانت على مرأى العين من عيذاب، وكانت القوافل تستقي منها وكذلك أهل البلد، وكانت بئرًا كبيرةً كأنها الجبُّ الكبير[١].

(١٢)- عيذاب

عيذاب مدينة ساحليّة عند آخر حدود مصر والبحر الأحمر، عرفت باسم سواكن القديمة يسكنها البجاة (البشارية). وكان أهمّ مصدر للرزق لأهلها يتمثّل بخدمة الحجّاج القادمين إليها من أجل عبورها بحرًا إلى جدَّة، وهي صحراء لا نبات فيها. برزت أهميّتها كميناء للتجارة والحجّ وصيد اللؤلؤ في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حتى القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وأشار إليها ابن جبير سنة ٥٧٩/١١٨٣[٢].

- القسم الثالث

هو الطريق البحري من عيذاب إلى جدَّة، يقطعه الحجّاج بالمراكب من الشاطىء الغربي للبحر الأحمر حيث ميناء عيذاب، إلى الشاطىء الشرقي في ميناء جدَّة، وكان أصعب المراحل مشقَّةً وصعوبةً، وكان عدد ضحاياه من الحجّاج لا يقارن بضحايا باقي مراحل الطريق[٣].

وقد وصف الرحّالة صعوبة اجتياز هذا الطريق البحري[٤].

وجدير ذكره أنّ أهل عيذاب اشتهروا باكتراء القوارب والمراكب للحجّاج لعبور البحر الأحمر إلى جدَّة بالحجاز، وكذلك العودة بهم بعد أداء مناسك الحجّ[٥].

وعندما يصل الحجّاج إلى جدَّة، يسافرون إلى مكّة، فيصلون إليها في يومين، وهكذا كانت الرحلة تستغرق من القاهرة إلى مكّة خمسة وأربعين يومًا في أفضل الأحوال[٦].

ج- وسائل تأمين الطريق للحجيج المصري والمغربي

١ - التجريدة العسكريّة المصاحبة لقافلة الحجّ

كانت قافلة الحجّ المصريّة تزوَّد كل سنة بحراسة قويَّة لحمايتها وحماية متعلّقاتها، وكذلك للتأمين على حجّاجها وحجّاج الدول الأخرى، حتّى لا يقلّ شأنها في نظر رعايا هذه الدول[٧].

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٨٦؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص١٢٧- ١٢٨ .

(٢) ابن جبير، م. س.، ص٤٥؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص١٥٩؛ إبراهيم حلمي، م. س.، ص ١٢٨.

(٣) سيد بكر، م. س.، ص١٦١.

(٤) ابن جبير، م. س.، ص٥٠ ، ٥٢.

(٥) الحميري، **الروض المعطار**، ص٤٢٤؛ إبراهيم حلمي، م. س.، ص١٢٩.

(٦) سيد بكر، م. س.، ص١٦٤.

(٧) J. Jomier, *Le Maḥmal*, p.74-75.

٢- ترميم القلاع وإنشاؤها في طريق الحجّ

اهتمَّ المماليك بتأمين طريق الحجّ بالقلاع والحصون، لتصبح محطّاتٍ لراحة قوافل الحجّاج، ومراكز لتخزين المؤن والمياه الّتي تحتاجها تلك القوافل، وقد اتخذت كمراكز للحفاظ على الأمن وقمع اعتداءات العرب على قوافل الحجّ[١].

ثانيًا- طريق الحجّ الشامي

ولما كانت بلاد الشام تحتل موقعًا جغرافيًّا مميّزًا، فإن طرق الحجيج أكسبتها أهميّةً إضافيّةً. ولم يقتصر اعتناء سلطنة المماليك على تنظيم شؤون البريد، والمحافظة على طريق التجارة البرّيّة، بل نالت طرق الحجّ اهتمامًا لا يقلُّ عن الاهتمام بالبريد والتجارة.

ولدمشق شهرة تاريخيَّة كبرى في ما يتعلّق بالحجّ؛ لأنها كانت ملتقى قوافل الحجّاج من العرب والفرس والمغول والأتراك، ولا تقلُّ أهميّتها عن القاهرة الّتي كانت مركزًا لقوافل الحجّ الآتية من أفريقيا، في حين كانت دمشق مركزاً لتلك القوافل الآتية من آسيا[٢].

ولا بدَّ من الإشارة، إلى أنّ طريق الحجّ الشامي شهد مراحل مختلفةً خلال العصور الإسلاميَّة، خصوصًا في عهد الأمويين، حيث كانت مواكب الحجيج تسير بانتظام. وفي عهد بني العباس، انصبَّ اهتمام الخلفاء العباسيين على طريق الحجّ العراقي، إلا أنَّ درب الحجّ الشامي استمرَّ كرافد ينقل الحجيج. وفي عصر الخلفاء العباسيين الضعفاء، اختلَّ زمام الأمن، ولاسيّما في فترة ظهور القرامطة، الذين امتدَّ عبثهم إلى طريق الحجّ العراقي "درب زبيدة"، فقطعوا الطريق، ونتيجة لذلك تحوّل حجّاج العراق إلى درب الحجّ الشامي، وهذا التبادل بين دروب الحجّ تكرر أكثر من مرة، وحدث كذلك أثناء احتلال الصليبيّين لبلاد الشام[٣].

وقد شهد ابن جبير، أثناء تأديته الفريضة، أن الحجّاج الشاميين كانوا يرافقون الحجّ العراقي في عودته من الحجّ سنة ٥٨٠/١١٨٤[٤].

وتجدر الإشارة إلى أنّ درب الحجّ الشاميّ مرّ بمرحلتين:

المرحلة الأولى: اضطرب فيها مسار درب الحجّ الشامي، حيث انقطع الطريق لفترة طويلة نتيجة قرصنة الصليبيين، ما جعل قوافل الحجّ والتجّار مهدّدةً، فاضطرَّ حجّاج الشام إلى تغيير مسارهم باتّجاه الداخل، بل كان الكثير منهم يعمد إلى رفقة ركب الحجّ العراقي، واستمرَّ هذا التوقف

---

(١) فؤاد الماوي، **العلاقات الاقتصادية**، ص ٣٦.

(٢) نقولا زيادة، **دمشق في عصر المماليك**، ص٤٥؛ R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.28.

(٣) سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص١٦٩.

(٤) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٨٥.

في دربي الحجّ الشامي والمصري قرابة قرنين من الزمن، وقد أشار إلى ذلك المقريزي فقال: إنّ طريق الحجّ الشامي انقطع من سنة٤٦٠/ ١٠٨٢ إلى سنة ١٢٦٦/٦٦٥[١].

المرحلة الثّانية: كانت تعرف بمرحلة استقرار الأوضاع في بلاد الشام بعد انتهاء الحروب الصليبيّة، وقد حجّ في هذه الفترة ابن رشيد[٢] الأندلسي، فذكر بعض منازل درب الحجّ الشامي، منها:

بصرى، الأزرق، جفار المعظّم، تبوك، ذات الحجّ، العلا، وكان ذلك سنة ١٢٨٥/٦٨٤[٣].

وكذلك سلك ابن بطّوطة في حجّه سنة ١٣٢٧/٧٢٧ الدرب نفسه، وأشار إلى بعض منازل درب الحجّ الشامي، فذكر الكسوة، صنمين، ذرعة، بصرى، حصن الكرك، معان، ذات حجّ، تبوك، الأخيضر "الأخضر"، بركة المعظّم، الحجر، العلا، وادي العطاس، وهديّة[٤].

ويظهر من المنازل الّتي ذكرها ابن بطّوطة في درب الحجّ الشامي، تعدُّد أسماء المحطّات، ما يضفي وضوحًا على معالم الدرب، وكانت رحلة ابن رشيد الأندلسي ورحلة ابن بطّوطة أثناء حكم المماليك لمصر والشام.

وتجدر الإشارة إلى أنّ طرق الحجّ الشامي إلى مكّة والمدينة وضعت في اتصال مع القاهرة، لكن ذلك لم يكن بواسطة الخيول، بل بواسطة الإبل، وكانت الجمال تسير من واحة إلى واحة. ولم تحظ طرق الحجاز بالتنظيم التقني الذي حظيت به بقية الطرق البريدية الأخرى، وإذا اعتبرت طرق الحجاز طرقًا بريديةً، فهذا جائز، ولكنها كانت خاليةً من المراكز[٥].

أ- طريق دمشق- المدينة

كانت قافلة الحجّ الشامي تتحرّك تحت رئاسة أمير الحجّ، فيخرج الركب من قبّة الحج قرب دمشق، والّتي تعدُّ نقطة البدء للقافلة، ومن هناك تتّجه إلى الكسوة، وينضم إليها الحجّاج الذين تجمّعوا في مزريب.

---

(١) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج١، ص٢٠٢.

(٢) ابن رُشيد، محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله، محب الدين بن رُشيد الفهري السبتي، رحّالة، وعالم بالأدب، وعارف بالتفسير والتاريخ. ولد بسبتة، وولي الخطابة بجامع غرناطة، وتوفي بفاس. رحل إلى مصر والشام والحرمين سنة ١٢٨٤/٦٨٣، وصنّف رحلةً سماها **ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكّة وطيبة**. الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٤، ص٢٨٤.

(٣) ابن رُشيد، **ملء العيبة**،ج٥، ص١- ٣.

(٤) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٦٧.

(٥) J. Sauvaget, *La Poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks*, p.24, No107.

١- الكســوة

بلدة قديمة، تبعد عن مدينة دمشق حوالى ميل وربع الميل، والكسوة أولى محطّات الطريق الّتي تلي دمشق ويبقى بها المحمل الشامي مدة يوم أو يومين للراحة(١).

٢- خــان ذي النــون (خان يونــس)

وهو خان يجري فيه نهر عذب، والمسافة بينه وبين الكسوة أربعة فراسخ، وطريقه محفوفة بالعقبات الطبيعيّة لحين الوصول إلى غباغب(٢) .

٣- غبــاغــب

بلدة غباغب لا تزال تحمل هذا الاسم، وموضعها على نهر الزريقية، في شرقي تلّ جعفــر بيك، وتبعد عن دمشق ثلاثة وأربعين ميلاً. ويواصل الطريق مسيرته نحو الجنوب بانحراف قليــل نحو الجنوب الشرقي، فيخترق أرض الوعرة، وأرض السلطانة، وأرض البعل، حتّى يصــل إلــى صنمين(٣)

٤- صنميــن

تقع صنمين غرب أرض البطمة، ويواصل الدرب مسيرته إلى الجنوب، فيصل إلــى تلــة الكتيبية وعين الكتيبية، ويمر قرب قنية وقرية محجة ثم أرض مسجلوت حتّى يصل إلى بلدة الشيخ مسكين. وتبعد بلدة محجة عن دمشق ثمانيةً وأربعين ميلاً(٤).

٥- الشيــخ مسكيــن (إشمكيــن)

بلدة الشيخ مسكين في وادي أبي اللبن، وموقعها في شرقي وادي الخرير، وعلــى طريــق دمشق عمان، ويواصل الدرب المسيرة نحو الجنوب حتى يصل إلى بصرى(٥).

٦- بصــرى

وهي (حوران)، بلد محكم الأسوار، قديم الآثار، أبواب دوره من منحوت الأحجار، وإلــى بصرى وصل رسول الله قبل البعث في تجارة خديجة، وبها مبرك ناقته، وقد بني عليــه مســجد عظيم. ويجتمع أهل حوران في هذه المدينة، حيث يتزوّد الحجّاج منها، ثم يرحلون(٦).

---

(١) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج ١، ص ٦٧.

(٢) سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ١٨٣.

(٣) سيد بكر، م. ن.، ص ١٨٣.

(٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٣، ص ٤٣١؛ ابن بطُوطة، م. س.، ج ١، ص ٦٧؛ سيد بكر، م. س.، ص ١٨٣.

(٥) سيد بكر، م. ن.، ص ١٨٤.

(٦) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص٢- ٣؛ ابن بطُوطة، م. س.، ج١، ص٦٧؛ السويدي، **النفحة المسكية**، ص٢٨٣- ٢٨٤؛ سيد بكر، م. س.، ص ١٨٣- ١٨٤؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص٣٠- ٣١؛

H. Seyric, "Postes romains sur route de Médine", *Syria*, vol.XXII, p.218.

٧- الميزريـــب

الميزريب يقع شمالي الحدود الأردنية الشاميَّة، وبه الأسواق العامرة، وكان الحجّاج يمكثون مدّةً على نهر عويرض أحد روافد نهر اليرموك ليلحق بهم المتخلفون.

وقد زارها فارتيما سنة ١٥٠٣/٩٠٨ أثناء توجهه إلى الحجاز، فقال: مكثنا فيها ثلاثة أيّـــام كي يشتري التجّار من الخيول ما يحتاجون، وفي الميزريب صادفنا شيخ أسرة الزعبـــي العربيّـــة، وكانت قافلته تضم خمسة وثلاثين جملاً وأربعين شخصًا، حرسهم ستون مملوكًا[١].

وبعد الميزريب، يتّجه درب الحجّ نحو الجنوب الشرقي إلى درعا.

٨- درعـــا

درعا جزء من إقليم حوران، وترتبط عبر طريق بجبل العرب، والمنطقة غنيَّـــة بمـــوارد المياه العذبة، وبعد درعا يتّجه الدرب نحو الجنوب الشرقي إلى الحدود الشاميَّة الأردنيَّـــة، وهـــي منطقة مهمَّة[٢].

٩- المفـــرق

وهو برٌّ لا عمارة فيه ولا ماء، سمي بذلك لأنّ الحجّاج إذا رجعوا تفرّقوا فيـــه. فـــالمفرق محطَّة لعدّة طرق، منها إلى الزرقاء، ومنها إلى جرش، ومنها إلى طريف بالحجاز، ومنهـــا إلـــى العراق[٣].

١٠- الزرقـــاء

اسم موضع في الشام، أُطلق فيما بعد على عين ماء هناك، وهذه العين جارية عذبة، علـــى حافة مجراها قصب كثير الالتفاف، تنعكس ظلاله علىالماء فيراها الناظر زرقاء لصفائها، فلـــذلك سميت بالزرقاء، ويقيم بها الركب يومًا[٤].

١١- البلقـــاء

اسم بلد في الشام لا ماء فيها، سمّيت بذلك لأنّ حجارتها متلوّنة بالسواد والبياض، أو كون

---

(١) السويدي، **النفحة المسكية**، ص ١٨٦؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيـــة**، ص ١٨٤؛ إبراهيم حلمي، **المحمـــل**، ص ٣٢؛ لو دوفيكو فارتيما (Ludovicodi Varthema)، **رحلات فارتيما** (الحجّ يونس المصري)، ص٣٦- ٣٧؛ R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.18.

(٢) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ٣٦٣.

(٣) سيد بكر، م. س.، ص ١٨٥.

(٤) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص٤٣؛ السويدي، م. س.، ص٢٩٠؛ سيد بكر، م. س.، ص١٨٥؛ إبراهيم حلمـــي، م. س.، ص٣٢.

أرضها خالية من النبات والشجر[١].

١٢- خان الزبيب

وهو منزل كان ينزل به حجّاج المحمل الشامي، ولعلّه كان يوضع فيه الزبيب[٢].

١٣- قطرانـــة

القطرانة نسبة إلى القطران، سميّت بذلك لكون حجارتها سوداء، وفيها قلعة صغيرة. وقد جرت العادة أن يضع الحجّاج أمتعتهم من زاد وغيره فيها ليأخذوها عند عودتهم. وحول القلعة بركة عظيمة مشرفة على الخراب تمتلىء من ماء المطر .

ولم تكن قوافل الحجّ الّتي لا تجد المياه اللازمة لها في بركة قطران، تتوقّف فيها، بل كانت تتابع سيرها حتى تحطّ رحالها عند جسر لجون الواقع في الطرف الغربي[٣] .

١٤- الحسـا (الأحسـا)

ذكرت كمحطّة على الدرب سنة ١٣٥٤/٧٥٥، وإليها يتّجه الطريق بعد قطرانة نحو الجنوب، فيمرّ بالعديد من الوديان؛ منها وادي المشاش، ثم يمر بقلعة الحسا، لكن الطريق صعبة العبور[٤].

١٥- عنيـزة (عنـزة)

قلعةٌ ينزلها ركب الحجّ الشامي، وفيها حرّاس وبركة تمتلىء من المطر، وجرت العادة أن يضع الحجّاج بعض أمتعتهم فيها ليأخذوها عند عودتهم. والظاهر أنها سمّيت بعنزة بن أسد بن ربيعة، كنية القبيلة المشهورة؛ لأن تلك الأرض كانت مسكنهم قديمًا[٥].

١٦- معـان

هو موضع بطريق حجّ الشام. وقبل الوصول إليه ثغر وعر وعقبة صعبة المسلك لما فيها من الجنادل والانحدار والارتفاع. وهي نقطة تلاقي العديد من الطرق البرّيّة إلى العقبة وعمان وتبوك بالحجاز وإلى الجفر والكرك. وكانت معان سوقًا مهمّةً للحجّاج في الذهاب والإياب، فسكانها كانوا يعملون طوال السنة في سبيل أيام موسم الحجّ، ويخزنون لهذا الموسم العلوف والمؤن ليحقّقوا بعض المكاسب في المقايضة؛ فكثير من الحجّاج كانوا يجمعون بين فريضة الحجّ والتجارة، فكانوا

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ١، ص ٤٨٩.

(٢) سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ١٨٧.

(٣) سيد بكر، م. ن.، ص ١٨٨- ١٨٩.

(٤) ياقوت الحموي، م. س.، مج٢، ص ٢٥٨.

(٥) ياقوت الحموي، م. ن.، مج ٤، ص ١٦٣.

يتزوّدون بسلع يستطيعون بيعها، فيحمّلون جمالهم من دمشق ثيابًا وقطنًا وأدويةً ويبادلونهـا بسـلع أخرى في معان[١].

١٧- العقبـة (عقبـة الصـوان)

هي وادٍ تحيطُ به الجبال من جوانبه الأربعة، ولا ماء فيها، يقال فيهـا: داخلهـا مفقـود، وخارجها مولود[٢].

١٨- المـدوّرة (سـرغ)

كانت تدعى قديماً "سرغ" وتسمى بالمدوّرة؛ لأنّ قربها جبل صغير مدوَّر، وفي تلك الأرض قلعة وتعرف بجغيمان، وفيها بركتان من عادة الحجيج وضع أمتعتهم فيها، وهي أوّل الحجاز آخر الشام[٣].

١٩- حالـة عمـار

تبعد عن المدوّرة أربعة عشر ميلاً، وبعد ذلك يتّجه الطريق نحو الجنوب الشرقي، فيصـل إلى ذات الحجّ [٤].

٢٠- ذات الحـجّ

أشار إليها ابن بطّوطة كمحطّة مهمّة، وتوجد على واد ينحدر من هضبة حسمى، وتـدخل في الطرف الشرقي لهذه الهضبة، وفيها قلعة صغيرة، محاطة بأشجار ونخيل قليلة، وفـي داخـل القلعة عين ماء، وحولها بركتان إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة [٥].

٢١- تبـوك

تبعد تبوك عن دمشق مائة وثلاثة وسبعين فرسخًا. وهي بلدة قديمة كانت محطّـة لراحـة الحجّاج والتجارة بين اليمن والشام. وأورد ذكرها كمحطّة على درب الحجّ الشـامي، ابـن رُشـيد الأندلسي في نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، فقال: "بها ماء عذب كثير، وبهـا العين المباركة، وكان الحجّاج يقيمون في تبوك أربعة أيّام للراحة والمتاجرة" [٦].

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٥، ص١٥٣.

(٢) ابن بطّوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص٦٧؛ ابن كنان، **المواكب الإسلامية**، قسـم٢، ص٣٥٣- ٣٥٤؛ السـويدي، **النفحـة المسكية**، ص٢٩٢- ٢٩٣؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص١٨٨- ١٩٠، ١٩٢؛ إبراهيم حلمـي، **المحمـل**، ص٣٣- ٣٤؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص١٩٥؛ R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.193.

(٣) ياقوت الحموي، م. س.، مج٣، ص٢١١.

(٤) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣، ص٢١٢.

(٥) ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص٦٨.

(٦) ياقوت الحموي، م. س.، مج٢، ص١٤- ١٥؛ ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص١٠؛ الفيروز آبادي، **القاموس المحـيط**، ج٣، ص٤٠٣؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص ١٣٠؛ **القرماني**، **أخبار الدول**، ج٣، ص٣٣٩.

وزار تبوك أيضًا ابن بطُوطة سنة ١٣٢٧/٧٢٧، ووصف مشاهداته بها فقال: "تبوك، وهو الموضع الذي غزاه رسول الله، وفيها عين ماء، ومن عادة حجّاج الشام إذا وصلوا منــزل تبــوك، نزل الركب على هذه العين، فيروي منها، ويقيمون أربعة أيّام للراحة وإرواء الجمال" (١)

كما شاهد حمد الجاسر تبوك سنة ١٣٩٠/١٩٧٠، وأشار إلى آبارها وغزارة مياهها(٢).

وتبوك محطة رئيسيّة مهمّة على درب الحجّ الشامي، لتوسّــطها بــين دمشــق والمدينــة، ولأهميّتها أقيمت بها قلعة لتأمين مسيرة الحجّاج(٣).

٢٢- وادي الأخضــر (الأخيضــر)

سمي هذا المنزل بهذا الاسم كما يقال، لأن الخضر قد زاره، ولذلك كــان مــزارًا للنّــاس يتبرّكون به. وقد شبّه ابن بطُوطة وادي الأخضر أو الأخيضر في رحلته الحجازيّة لتأدية مناســك الحجّ، بأنه يشبه واديًا في جهنّم، وقال: إنّ الحجّاج في بعض السنين أصابهم مشــقة بســبب ريــح السموم الّتي تهب، فغاض معين الماء، وأصبح ثمن شربة الماء في هذا الوادي ألف دينار، وقال: إنّ مشتريها وبائعها ماتا معًا(٤).

٢٣- قلعــة المعظّــم

أطلق عليها بركة المعظّم ؛ لأنّ بها بركة ماء كبيرة عند قلعتها الشهيرة، التي أمر ببنائهــا الملك المعظّم (عيسى بن العادل الأيوبي)، وهذه البركة كان يتجمّع فيها ماء المطــر فــي بعــض السنين، وكان يجف في بعضها الآخر(٥).

٢٤- الدار الحمــراء

سمّيت بذلك لكون رمالها وجبالها تزدان باللّون الأحمر، والبدو يسمونها الهضــب، لأنهــا محاطة بهضاب كثيرة. والدار الحمراء من أعلى المنــاطق الّتــي تعتــرض الــدرب بالأراضــي الحجازيّة، وتبعد عن قلعة المعظّم أربعة عشر ونصف الفرسخ، وهذه المرحلــة تعتبــر أصــعب المراحل(٦). وقد ورد ذكرها سابقًا في الحديث عن منازل الحجّ المصري والمغربي.

---

(١) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٦٨.

(٢) حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي** (شمال المملكة)، ج١، ص٢٤٩- ٢٥١، ٢٦٥.

(٣) سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص٢٠٠.

(٤) ابن بطُوطة، م. س.، ج١، ص ٦٨.

(٥) ابن بطُوطة، م. ن.،ج١، ص٦٨؛ السويدي، **النفحة المسكية**، ص٢٩٨؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص٣٦- ٣٧.

(٦) سيد بكر، م. س.، ص ٢٠٣.

٢٥- مبــرك الناقــة (المزحــم)

توجد على وادي الحمضة أحد روافد وادي العلا، ومبرك الناقة اسم مأخوذ من قصة ناقــة صالح مع قومه ثمود، وبعد المبرك يتّجه الطريق إلى الجنوب الشرقي متتبعًا مسار وادي العلا إلى العلا[١].

٢٦- العــلا

سمّيت بذلك لكون الجبلين اللّذين يكتنفانها عاليين مرتفعين. ووصف ابن بطّوطــة العــلا، بقرية حسنة، لها بساتين النخيل، والمياه العذبة، ويقيم بها الحجّاج أربعة أيّام، يتزوّدون ويغســلون ثيابهم، ويودعون بها ما يكون عندهم من فضل الزاد. ويعود سبب غنى العلا بالمياه الجوفيّة إلــى وجودها في حوض رسوبي في وادي العلا. أما أهل العلا فلا، يخرجون من بيوتهم إلا قليلاً، خوفًا على أنفسهم من عسكر الحج[٢].

ولم يغفل شاعر المحمل الشامي صلاح الدين الصفدي أن يصف تأجج أشواقه وحنينه إلــى الأهل عندما وصل إلى منزل العلاء، فقال:

خَرَجْنا نَحْوَ طيبةَ من دمشقٍ ... بأفــئدةٍ لِلُقــياها حِرَارِ
ولكنّ في العلا زِدْنَا اشتياقًا ... كأنّ قلوبَنا حُشــيتْ بنارِ
وأبرحُ ما يكونُ الشّوقُ يومًا ... إذا دنتِ الدّيارُ من الدّيارِ[٣].

٢٧- البئــر الجديــدة

توجد كمحطّة في طريق الحجاز قبل هديّة من ناحية الشمال، وهي بئر واحدة تستقي منهــا الحجّاج، وماؤها عذب، وليس فيها عمارة[٤] .

٢٨- هديّة

هديّة ذو ماء زُعاق كان كثيرًا ما يصيب حجّاج المحمل الشامي بالإسهال، وعلى الرغم من ذلك، قال شاعر المحمل عبد النبيّ النابلسي (١١٥٤/١٧٤١) فيه:

لقد أتَيْنا إلــى هديــّة ... ومــاءُ غدرانــها نديّة
وقد فرحْنَا بها نزولاً ... كفرحِ النّاسِ بالهديّــة[٥]

---

(١) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٦٨؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص ٣٧.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص١٤٤.

(٣) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٤٦٤؛ إبراهيم حلمي، م. س. ، ص ٣٨.

(٤) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص١٥؛ ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص٦٩؛ السويدي، **النفحة المســكية**، ص٣٠١- ٣٠٢؛ إبراهيم حلمي، م. س.، ص٣٧- ٣٨.

(٥) الجزيري، م. س.، ص ٤٥٨؛ إبراهيم حلمي، م. س.، ص ٣٨.

٢٩- إسطبـــل عنتـــر

يوجد إلى الشمال من جبل عنتر، وبه قلعة قديمة، ويبعد عـــن المدينـــة حـــوالي ثمانيـــة وعشرون فرسخًا. وفي هذه المرحلة كان يفترق المحملان المصري والشامي قرب آبـــار الحلـــو، المكان المشهور باللصوص الّذين كانوا يرصدون حركة المحمل الشامي فـــي الـــذهاب والإيـــاب، وينتهزون الفرصة لينتهبوا فيها جمال القافلة وحجّاجها[1]، على نحو ما تقدم عنـــد الحـــديث عـــن الطريق الأوّل للحجّ المغربي والمصري.

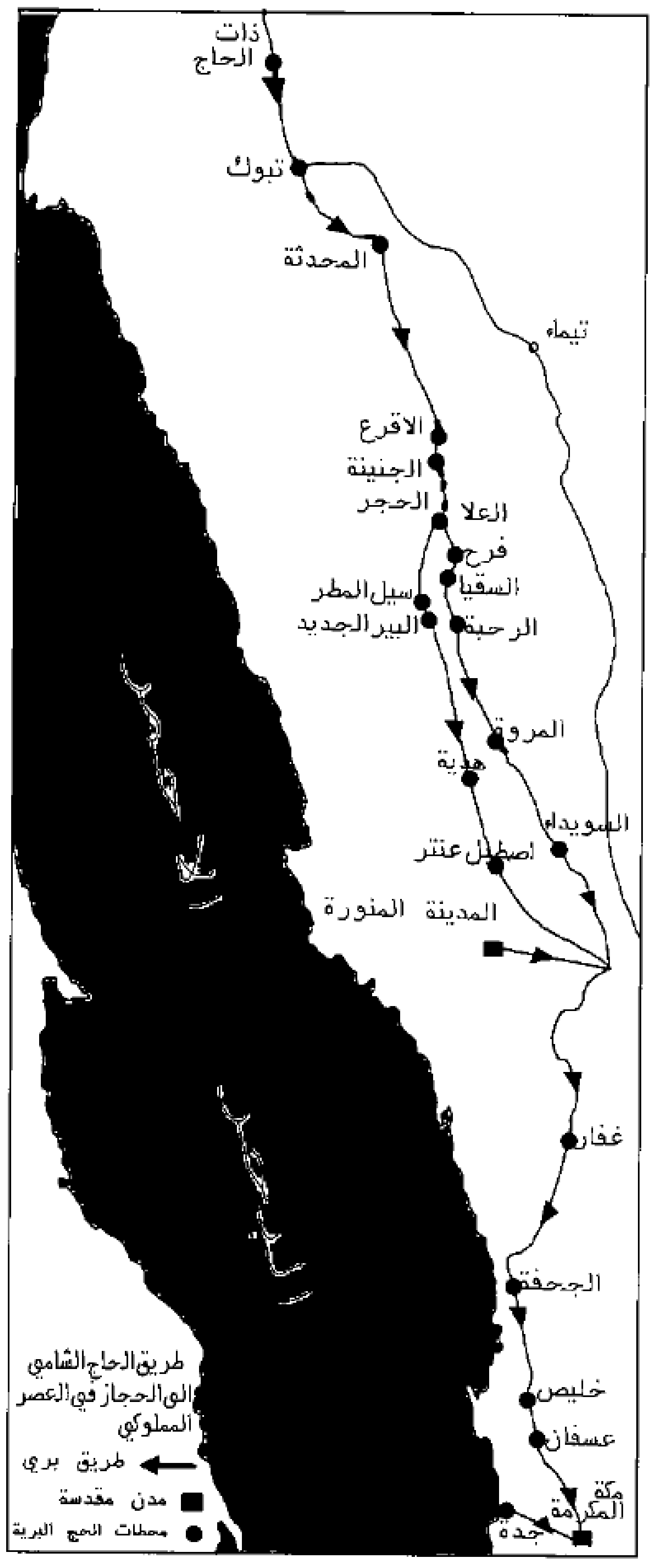
٣٠- وادي القـــرى

وقبل دخول المدينة، يصل ركب المحمل الشامي إلى منزل وادي القرى، وهو واد فسـيح يشتدُّ فيه الحرّ مع هبوب الريح، وبه كان بئر ماء لم يخل من الكدر[2]. وبعد الوصول إلى المدينـــة وزيارة قبر الرسول، يتّجه ركب المحمل الشامي إلى مكّة المكّرمة لأداء مناسك الحجّ.

---

(١) سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ٢٠٩- ٢١٠.

(٢) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص١٦؛ ابن كنان، **المواكب الإسلامية**، قسم٢، ص ٣٥٥؛ الســـويدي، **النفحـــة المســـكية**، ص٣٠٣- ٣٠٤؛ إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص٣٨- ٣٩؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص١٩٧.



بن حمد، فيصل عبدالله، "الآثار الثقافية والعلمية للحجّ الشامي"، **مجلة الحج والعمرة**، (الرياض)، السنة الحادية والستون، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤٢٧/٢٠٠٦، ص ٢٢.

ب- طريـق المدينــة - مكّــة

١- ذو الحليفــة

ذو الحليفة الذي أحرم منه رسول الله، وتبعد عنه المدينة المنوّرة خمسة أميال، وهو منتهى حرم المدينة، وهو لبني جشم. وتسمّيه الناس بآبار علي، وبالقرب من ذي الحليفة وادي العقيق، حيث أحرم منه ابن بطُوطة، وأشار إلى ذلك فقال: وهنالك تجرّدت من مخيط الثياب، واغتسلت ولبسـت ثوب إحرامي، وصلّيت ركعتين وأحرمت بالحجّ مفردًا(١).

٢- الروحــاء

الروحاء، وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم(٢).

٣- الصفــراء

هو واد معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر، يسكنه الشرفاء الحسنيون وسـواهم، وفيهـا حصن كبير وتواليه حصون كثيرة(٣).

٤- بــدر

بدر، وبها كانت الغزوة المشهورة الّتي أعزّ الله بها الإسلام، وهي قرية فيها حدائق نخـل متّصلة، وفيها حصن منيع. وفي بدر عين فوّارة يجري ماؤها، وفيها موضع القليب الّذي هو اليوم بستان(٤). وردت في طريق الحجّ المغربي والمصري الأوّل.

٥- قــاع البــزواء

البزواء بريّة يضلّ بها الدليل، ويذهل عن خليله الخليل، وفي منتهاها وادي رابغ. والقــاع الفضاء من الأرض، وقد جعل علمًا لمواضع أربعة، منها القاع، منزل في طريق مكّة يمكـث بـه الحجّاج(٥).

٦- رابــغ

ومنه يحرم حجّاج مصر والمغرب، وهو دون الجحفة. وواد بين الحرمين قـرب البحـر، وفيه قرية صغيرة ذات نخيل.

---

(١) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٧٨.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٣، ص ٧٦.

(٣) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥ ، ص٧١؛ ابن بطُوطة، م. س.، ج١، ص ٧٨؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٤٦٠؛ ابن كنان، **المواكب الإسلامية**، قسم٢، ٣٥٥؛ السويدي، **النفحة المسكية**، ص ٣١٤؛ R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.206

(٤) ياقوت الحموي، م. س.، مج١، ص ٣٥٧.

(٥) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٤، ص ٢٩٨.

وقد ذكر السويدي[١]: أنّ رابغ ليس هو الميقات، بل الميقات الأصلي الجحفة، وهي قرية كانت جامعةً على اثنين وثمانين ميلاً من مكّة، وكانت تسمى مهيعة[٢]. سبق ذكرها في طريق الحجّ المغربي والمصري.

٧- **خليص**

خُلَيْص، كزُبَيْر، وهي حصن بين قديد وعسفان فيها عين ماء، وعليها قبة كبيرة، وبجنبها قبة أصغر[٣].

٨- **عسفان**

حوت عسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد أوهنه الخراب، وبه من شجر المقل كثير. وعسفان قرية جامعة فيها منبر ونخيل ومزارع على ستة وثلاثين ميلاً من مكّة، وهي حدّ تهامة[٤]. وردت سابقًا عند الكلام على طريق الحجّ المغربي والمصري.

٩- **بطن مر**

بطن مرّ، ويسمى أيضًا مرّ الظهران، وهو واد مخصب، كثير النخل، ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك الناحية، ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضار إلى مكّة[٥].

هكذا يسير الركب الشامي إلى المدينة وبعدها إلى مكّة، وأكثر الأراضي الحجازيّة مؤلّفة من جبال وأودية وقليل من الواحات، فطريق الركب طريق صعبة، وفيها آبار متقطّعة وليست بجيدة، وهناك أيضًا درب آخر يقال له: الدرب السلطاني، وهو الدرب الأقصر طولاً والأشد خطرًا. فالحجّاج يعرضون عنه حينما تبلغهم ثورة البدو. تلك حال الطريق المؤدية إلى الدّيار المقدّسة[٦].

---

(١) السويدي، عبد الله بن حسين بن مرعي بن ناصر الدين البغدادي، أبو البركات السويدي (١١٧٤/١٧٦١)، فقيه، متأدب، من أعيان العراق. وهو أول من عرف بالسويدي من هذا البيت. ولد في كرخ بغداد، ورحل إلى بلاد الشام والحجاز، وعاد إلى بغداد فتوفي فيها له **الجمانة في الاستعارات والنفحة المسكية في الرحلة المكية**، وغير ذلك. المرادي، **سلك الدرر**، ج٣، ص٨٤.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص ١١.

(٣) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٢، ص٣٨٧؛ ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص٧٤؛ ابن بطُّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٧٨؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٤٦٠؛ ابن كنان، **المواكب الإسلامية**، قسم٢، ص٣٥٦؛ السويدي، **النفحة المسكية**، ص٣١٨-٣١٩؛ R. Tresse, *Le Pèlerinage Syrien*, p.234.

(٤) ياقوت الحموي، م. س.، مج ٤، ص ١٢٢.

(٥) الحربي، **المناسك**، ص٤٦٣- ٤٦٤؛ ياقوت الحموي، م. س.، مج٤، ص١٢٢؛ ابن رُشيد، م. س.، ج٥، ص٨٠؛ ابن بطُّوطة، م. س.، ج١، ص ٧٩؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص٤٢١؛ ابن كنان، **المواكب الإسلامية**، قسم٢، ص٣٥٦؛ السويدي، م. س.، ص٣١٩.

(٦) محمد كرد علي، **خطط الشام**، ج٥، ص١٧٠.

وتجدر الإشارة إلى أنّ بعض منازل الحجّ ومحطّاته تكرر ذكرها خلال الحديث عن طرق الحجّ المصري والشامي، وذلك منعًا للغموض، وتوضيحًا لمعالم الدرب الّتي يجب على قوافل الحجّ سلوكها، فلكلّ بلد مراكزه، وأماكن تجمع الحجّاج الّذين أرادوا أداء الفريضة.

أمّا حمد الجاسر، فحدَّد منازل طريق المحمل الشامي، كما ورد في كتاب المناسك للحربي[١]، على النحو الآتي:

طريق الحجّ من الشام:

من سرغ- وهي المدورة الآن- إلى تبوك، ثمّ إلى المحدثة، ومن المحدثة إلى الأقرع، ومن الأقرع إلى الجنينة، ثمّ إلى الحجر، ومن الحجر إلى السّقيا[٢].

واللافت في هذا السياق، أنّ ثمّة تطوّرًا حصل أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي عند خروج المحمل الحلبي للحجّ، وصار يحلّ مكان المحمل الشامي أحيانًا، أو يتلازم معه، بحيث يختلطان معًا في ركب واحد بمحمليهما، كما حدث في سنة ١٤٨٧/٨٩٢[٣].

وقد برزت أهميّة حلب بعد مجيء المماليك الذين استولوا عليها سنة ١٢٦١/٦٦٠ وأخرجوا الصليبيين منها، فسعوا إلى تنظيم طرقاتها، حيث امتدّت طريق حلب حتى وصلت إلى البيرة الّتي أخذت من المغول سنة ١٢٦١/٦٦٠.

وفي سنة ١٢٦٨/٦٦٧، تمّ تنظيم الطريق بين حلب وبغراس[٤] [٥].

وكان قراسنقر[٦] قد توّجه سنة ١٣١١/٧١١ إلى الحجاز لقضاء حجة الفرض فساعده السلطان محمّد بن قلاوون على ذلك، وسار على طرف بلاد حلب حتّى وصل إلى بركة زيزا، فحصل عنده الخوف من الركب المصري لئلا يقبضوا عليه في الحجاز، فعاد من بركة زيزا وسار

---

(١) الحربي، إبراهيم بن إسحق بن بشير الحربي، من أعلام المحدثين. أصله من مرو، اشتهر وتوفي ببغداد، كان حافظًا للحديث عارفًا بالفقه بصيرًا بالأحكام. صنف كتبًا كثيرة، منها **غريب الحديث، مناسك الحجّ، دلائل النبوة**. الزركلي، **الأعلام**، ج١، ص ٣٢.

(٢) حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي** (شمال المملكة)،ج٢، ص٨٢٨– ٨٢٩.

(٣) إبراهيم حلمي، **المحمل**، ص١٥.

(٤) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب في البلاد المطلة على نواحي طرسوس. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج١، ص ٤٦٧.

(٥) J. Sauvaget, *La Poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks*, p.26, No108-113.

(٦) قراسنقر، قراسنقر بن عبد الله الأمير شمس الدين الجوكندار المنصوري، صار إلى السلطان المنصور قلاوون، وترقى في خدمته إلى أن ولاّه نيابة السلطنة بحلب، فلم يزل فيها إلى أن مات المنصور. ولم يزل في صعود وهبوط وسفر وإقامة إلى أن توفي سنة ١٣٢٨/٧٢٨. علي باشا مبارك، **الخطط التوفيقية**، ج٦، ص ٣٣– ٣٤.

إلى إركة والسخنة، ثم إلى برّ حلب، واجتمع مع مهنأ بن عيسى أمير العرب واتفقا على العصيان[١].

وتجدر الإشارة إلى أنّ جان سوفاجيه (J. Sauvaget) شاهد خلال زيارته البلاد الشاميّة بقايا خانات في الطريق من جهة دمشق إلى حمص، وطريق حلب الرحبة[٢].

ويبدو أن الباعث على تشييد هذه الخانات وتزويدها بالنافورات المائيّة والحوانيت على طول الطريق، يعود إلى تغلّب النزعة الدينيّة على نفوس سلاطين المماليك بغية الحصول على الزعامة الدينيّة في الدّيار المقدّسة، وتسهيل أمر الحجّاج، وتخفيف مشقّة الطرقات.

وكانت مدينة حلب محطّةً وملتقى لكثير من الحجّاج والتجّار الّذين يجتازون دربها، حيث ينقسم الطريق إلى قسمين:

أحدهما يتّجه شرقًا، مرورًا بأريحا وسرمين قبل التحوّل ناحية خان تيمان، ثمّ التجمع في عاصمة الشمال، والآخر يتّجه ناحية الشمال الشرقي باتجاه كفتون، وهي قرية كبيرة، ومنها إلى خان العسل، والسفر من غزة إلى حلب يستغرق مدة عشرين يومًا[٣].

تلك صورة مفصّلة عن طريق الحجّ الشامي إلى مكّة أيّام المماليك، ندرك من خلالها مدى المشقّة التي كان يتكبّدها حجّاج بيت الله الحرام، وهي مشقة تبدو ضئيلةً بالنظر إلى ما يظفر به الحجّاج المؤمنون من مكاسب روحيّة ومعنويّة.

ثالثًا- طريق الحجّ العراقي

لم تكن طرق المواصلات في العراق منتظمةً بالمعنى الصحيح، سوى بعض طرق القوافل الّتي كان سيرها محدّدًا بين الأماكن الرئيسيّة، وقد ظهرت الحاجة الملحّة إلى إنشاء طرق جديدة، وبناء منارات لإيقاد النار عليها ليلاً كي يهتدي بها الحجّاج عبر مسيرهم إلى مكّة. ثمّ جدّدت ووسّعت جميع المباني الّتي أنشئت من قبل بين محطتي الكوفة وزبالة. وبلغ الاهتمام بالطريق شأنًا عظيمًا، ما أدّى إلى تسهيل سفر الحجّاج العراقيين إلى الحرمين الشريفين[٤].

---

(١) محمد الحلبي، **أعلام النبلاء**، مج٢، ص ٣١٨- ٣١٩.

(٢) J. Sauvaget, *La Poste aux chevaux dans l'empire de Mamlouks*, p.29, No 108-113.

(٣) Abdel Nour , *Le Réseau routier de la Syrie Ottomane*, p. 180 .

(٤) سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ١٨.

لكن الوضع تغير بعد الغزو المغولي الذي تسبّب في خراب الطرقـات ودمارهـا وقطـع الجسور وهلاك البشر وتعطيل الحجّ العراقي لسـنوات طويلـة، ليعـود مجـدّدًا وينطلـق سـنة ٦٦٦/١٢٦٧ إلى مكّة[١].

وتتنوّع المسالك والدروب التي كان ركب الحجّ العراقي يقطعها فقد يسير عبـر العـروق الرمليّة، أو يتوخّى السهول، أو يصعد الجبال، أو يهبط إلى القيعان. وربما يمرُّ في أرض تشـغلها السبخات[٢]، أو يتوخى مسارات الوديان، وذلك قد يدل على سهولة المسار أو صـعوبته، ومـدى توافر الماء العذب لأفراد القافلة وموظفيها وبعيرها، لتفي بالحاجة المطلوبة .

وجدير ذكره أنّ المسار تبدّل بين بعض المحطّات اختصارًا للمسافة، أو تلافيًـا للعقبـات المعترضة. وحدث هذا أكثر من مرّة، وفي أكثر من موضع. وصحب ركب الحجّ العراقي العديـد من الرحّالة، فشجّعهم سلوك الطريق على تدوين انطباعاتهم، وتركوا لنا تراثًا يصف قطاعًا أو آخر من شبه الجزيرة العربيّة في المواضع الّتي مرُّوا بها؛ أرضًا وسكانًا. ومن هؤلاء ابن جبير، وابـن بطُوطة، والسويدي وغيرهم، ممن كتبوا عن هذا الطريق خلال فترات زمنيَّة متعدّدة .

وكان ركب الحجّ العراقي يبدأ سيره إلى الدّيار المقدَّسة في اليوم الرابع مـن ذي القعـدة، ليصل مكّة في اليوم الخامس من ذي الحجّة، فيستغرق مسيره حوالى شهر[٣].

وتعدُّ بغداد مركزًا تلتقي فيه طرق مواصلات رئيسيَّة تؤدّي إلى مختلف أنحاء البلاد، ومنها إلى شبه الجزيرة العربيّة حتى تنتهي بالحجاز. أهم تلك الطرق خطّان:

- **خط الكوفـة– مكّـة.**
- **خط البصـرة– مكّـة.**

أ – منـازل طريق الحـجّ العراقيّ مـن الكوفـة إلى مكّـة

١– الكوفـة

اشتهرت الكوفة بمسجدها العتيق الّذي كان مزارًا للحجّاج، حيث قيل: إنّه كان به مصـلّى النبيّ إبراهيم الخليل، ومحراب الإمام علي بن أبي طالب، والكوفة أوّل منـازل الحـجّ العراقـي، وملتقى عدّة طرق ودروب ونقطة اتصال العراق بالحجاز[٤].

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٢٨١؛ J. Aubin, "ᶜIrāk", *EI₂* , vol. III, p.1288.

(٢) السبخات: المدينة في مستو من الأرض حارّة؛ R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.I, p.625.

(٣) سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص ٢٢– ٢٣.

(٤) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص١٣٧– ١٣٨؛ سيد بكر، م. س.، ص٣٤.

٢- النجـف

ازدهرت النَّجف كمحطةٍ رئيسيَّة على درب الحجّ العراقي، ووصفها ابن جبير بأنها حدٌّ بين الصحراء ووادي الفرات، وتوجد بأرض صلبة[١].

وعبّر ابن بطُوطة في بداية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي عن جغرافيَّة منطقة النجف الطبيعيَّة والبشريَّة، بأنها تقع في أرض فسيحة صلبة، وبأنها من أحسن مدن العراق وأكثرها سكانًا، عامرة بالأسواق والمدارس والزوايا، وهي متقنة البناء[٢].

٣- القادسيـة

تقع القادسية جنوب الكوفة والنجف، والمسافة بينهما تقدّر بخمسة عشر ميلاً. وهي محطَّة لطريق الحجّ العراقي، وسمَّاها ابن جبير واديًا خصيبًا فيه نخيل[٣].

٤- العذيـب

العُذَيْب تصغير العذب، وهو الماء الطيب، وهو من منازل الحجّ الكوفي على مسافة أربعة أميال من القادسية. والعذيب يقع بين عيون القصب وميناء المويلح[٤].

وأشار المستشرق ألوز موزل[٥] (Alois Musil) في كتابه **شمال نجد**، إلى أنّ الطريق تتجه من الكوفة إلى العذيب التي هي في نجد.

والمسافة من الكوفة إلى القادسية خمسة عشر ميلاً، ومن ثم إلى العذيب على تخوم الصحراء، ستة أميال[٦] .

٥- خـان الرَّحبـة

خان الرَّحبة بعد العذيب، على مسافة ثلاثة أيَّام من القادسية، ثم عين خفية[٧].

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٨٧.

(٢) ابن بطُوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص١٠٩؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص٣٥.

(٣) ابن جبير، م. س.، ص١٨٦.

(٤) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٩٢.

(٥) ألوز موزل (Alois Musil ١٢٨٥/١٩٤٤)، تخرَّج من جامعة براغ، واختير مشرفًا على الدراسات العربيّة، وأستاذًا للّغات الساميّة فيها، ورحل إلى الشرق الأوسط، وتعلّم في معهد الآداب الشرقية ببيروت، وعلَّم في مدرسة الكتاب المقدَّس للآباء الدومينيكيين بالقدس. آثاره: جغرافيّة البتراء، والجزيرة العربيّة، والعراق وسوريا، وشماليّ الحجاز، وشمالي نجد. نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ج٣، ص٢٣٩.

(٦) ألوز موزل (Alois Musil)، "طريق الحجّ العراقي القديم"، **مجلة العرب**، الجزء الثالث، ص١٩٤.

(٧) ياقوت الحموي، م. س.، مج٣، ص٣٣.

٦- منـــارة القـــرون

سمّيت هذه المحطّة بهذا الاسم نظرًا إلى ما كان بها من منارة مرتفعة ترى بوضوح، وعلى مقربة منها يوجد قصر ذو بروج مشيّدة، وبإزائه مصنع عظيم مملوء ماءً، ومنارة القـــرون علـــى طريق الحجّ الكوفي[١].

٧- المغيثـــة

منزل في طريق مكّة بعد العذيب، تقع جنوب بئر النصف على بعد عشرة أميال، والمنطلق من النجف (الكوفة) يمرُّ بخان الرحبة، فمنارة القرون، ثمَّ بئر النصف، حتّى يصل بركة المغيثة[٢].

٨- القرعـــاء

منزل في طريق الحجّ الكوفي بعد المغيثة، للمتوجه إلى مكّة، وبـــين كـــل مـــن المغيثـــة والقرعاء: الزبيدية، ومسجد سعد، والخبراء. وفي القرعاء بركة وركايا لبني غدانة[٣].

٩- واقصـــة

واقصة هي إحدى محطّات الحجّ العراقي المهمّة، وفيها كان الأهل من الكوفـــة ينتظـــرون قافلة الحجّ العائدة من الأراضي الحجازيّة للتهنئة بسلامة العودة، وكانت عامرةً بالعربان. ويوجـــد فيها الكثير من البرك والآبار، تقع داخل الحدود العراقيّة، على طريق زبيدة شمال بركة عثامين[٤].

١٠- العقبـــة

يعكس الاسم تصورًا خاصًا للمشاق التي كان يلاقيها حجّاج المحمل العراقـــي فـــي هـــذا المكان، نظرًا إلى وعورته الشديدة. تقع العقبة شمال زبالة علـــى طريـــق زبيـــدة قـــرب الحـــدود الشرقيّة[٥].

١١- القـــاع

يقع القاع بعد العقبة، ولا يزال معروفًا. وعند خروج الركب من القاع يسير فـــي منطقـــة منخفضة. وعلى مسافة قليلة إلى الشرق من القاع توجد بركة زبيدة الهيثمين[٦].

---

(١) ابن بطوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص١٠٩؛ حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي** (شمال المملكة)، ج١، ص١٢٥.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٥، ص ١٦٢.

(٣) ياقوت الحموي، م. ن.، مج ٤، ص ٣٢٥.

(٤) حمد الجاسر، م. س.، ج٣ ، ص١٠٨١، ١٢٥٠ ، ١٣٤٤.

(٥) ابن بطُوطة، م. س.، ج١ ، ص١٠٩؛ حمد الجاسر، م. س. ، ج٣، ص٩٢٢، ١٠٦٤.

(٦) الحربي، **المناسك**، ص٢٨٢- ٢٨٣؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص٤٠.

١٢- الهيثميـــن

الهيثمين تنسب إلى السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد، وبها آثار وقصـــر وبركة. وتأتي بعدها بركة الجريش فالجميمة[١] .

١٣- الجميمـــة

تقع شرق رفحا. قرب التقاء الحدود الحجازيَّة بالعراقيَّة. وهي منهل مأهول. وكان الاســم يطلق على بركة تقع في طريق الحجّ الكوفي بين زبالة جنوبًا والقاع شمالاً[٢] .

١٤- زبالـــة أو زمالـــة

يسير طريق الحجّ العراقي إلى الجنوب في الأراضي الحجازيَّة بعـــد مســافة قليلـــة مـــن الجميمة، فيصل بركة زبالة، والتي سماها ابن بطُوطة: زمالة، وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة، وزبالة أو زمالة من مناهل طريق الحجّ الكوفي، ويوجد فيها ســوق عظيمة من أسواق الطريق[٣] .

١٥- الشيحيـــات

تقع بعد أمّ العصافير شمالاً وبركة الحمراء جنوبًــا، علـــى درب زبيـــدة- طريـــق الحـــجّ الكوفي[٤].

١٦- البطـــان

البطان، وتعرف ببركة العشار أو قبر العبادي، وتقع جنوب الشيحيات وفيها برك[٥].

١٧- الثعلبيّـــة

سمّيت هذه المحطة بالثعلبيّة[٦] نسبةً إلى يوم من أيّام العرب في زمن الجاهليَّة، وبها منهل للماء وبرك وآبار، ويسير الركب إليها عبر منطقة خفيفة التضاريس تكثر فيها الوديان. والثعلبيّـــة ثلث الطريق من الكوفة إلى مكّة، ومحطَّة مهمَّة في طريق الحجّ العراقي. وقد زارها حمد الجاســـر سنة ١٣٩٥/١٩٧٤، وذكر أنّ الآثار لا تزال فيها. ويتابع الركب مساره بعد الثعلبيّة نحو الجنـــوب

---

(١) ابن بطُوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص١٠٩؛ حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي** (شمال المملكة)، ج٣، ص١٣٩٢- ١٣٩٣.

(٢) حمد الجاسر، م. س.، ج١، ص٣٤٠ .

(٣) ابن بطُوطة، م. س.، ج١ ، ص١٠٩؛ حمد الجاسر، "كتب المنازل من روافد الدراسات"، **مجلة العرب**، ج٥- ج٦، ص٣٣٠.

(٤) حمد الجاسر، م. س.، ج٢، ص٧٦٢.

(٥) سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص٤٣.

(٦) الثعلبيّة، من منازل طريق مكّة من الكوفة بعد الشقوق وقبل الخزيمية، وهي ثلثا الطريق، وإنما سميت بثعلبية بن عمـــرو مزيقياء بن عامر ماء السماء، لأنه لما تفرّقت أزد مأرب، لحق ثعلبة بهذا الموضع، فأقام به فسمي به. ياقوت الحموي، **معجم البدان**، مج٢، ص ٧٨.

الغربي عبر عرق المظهور في منطقة رملية نحو شاقة الأكباد، فعرق لزام، ثمّ شامة زرود حتّى يصل زرود[١].

١٨- الخزيمية

تقع الخزيمية جنوب الثعلبيّة، وبها قرية الوسيط وستة آبار غليظة الماء: بئر رغوة، بئر الحمام، بئر الواثقية، بئر البستان، بئر أخنشية، وبئر العروس. والخزيمية لا تزال معروفةً وهي من منازل الحجّ الكوفي[٢].

١٩- زرود

زرود منطقة رملية واسعة ومنبسطة، وفيها بئر وتعرف بشامة زرود، وتقع الهاشميّة إلى الشمال الغربي منها. وزرود والهاشميّة مواضع لا تزال قائمة، وتعدّ زرود أشهر منازل الحجّ العراقي إلى مكّة[٣].

٢٠- الأجفر

يجتاز الرّكب طريق الجنوب الغربي، فيقطع عرق الأبيتر ووادي الخوير حتّى يصل الأجفر ففيضة الأجفر، ثم يصادف مجموعةً عديدةً من الوديان الصغيرة. والأجفر يتبع إمارة البقعاء في منطقة حائل، ويعدّ منهلاً مشهورًا من مناهل البادية[٤].

٢١- آبار الأعراب

سمّي الموضع بهذا الاسم نسبةً إلى آبار كان يسكنها عرب البادية على طريق الحجّ الكوفي، يمرّ بها الحجّاج، فأطلقوا عليه هذا الاسم، وآبار الأعراب موقعها جنوب الأجفر[٥].

٢٢- فيد

فيد هو ميقات حجّاج أهل العراق، وكان الحجّاج في هذا الموضع يشربون الماء الكثير تاركين بهذه المحطّة بعض أزوادهم، فإذا عادوا وجدوها. وكان الركب العراقي يدخل ورجاله

---

(١) الحربي، **المناسك**، ص٢٩٧- ٢٩٨؛ ابن بطّوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص١٠٨؛ حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي (شمال المملكة)**، ج١، ص٢٨٥- ٢٨٦.

(٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٢، ص٣٧٠.

(٣) الحربي، م. س.، ص٢٩٩- ٣٠٠؛ ياقوت الحموي، م. س.، مج٢، ص٣٧٠؛ ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣ ، ص١٣٩.

(٤) ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص١٠٨؛ حمد الجاسر، "كتب المنازل من روافد الدراسات"، **مجلة العرب**، ج٥- ج٦، ص٣٣٠؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص٤٧.

(٥) حمد الجاسر، م. س.، ج١، ص١٩.

الموضع متأهّبين للحرب، إرهابًا للعربان الطامعين فيهم لتجمّعهم بالمكان. ويعيش أهل فيد من إدّخار العلف طوال السنة إلى أن يدخل الحجّاج عليهم فيبيعوه. وبها سوق لتجارة الغنم والجمال(١).

٢٣- تـوز

يسلك الركب إلى توز بعد فيد، فينحرف قليلاً نحو غرب الجنوب، حتّى يصل بئر السقيا، أي منتصف الطريق من الكوفة إلى مكّة(٢).

٢٤- سميـراء

تقع سميراء جنوب توز وشمال الحاجر. وهي محطّة مهمّة، ومنزل بطريق الحجّ العراقي، وسوق كبيرة للعربان، خصوصًا الغنم والسمن واللبن الّتي يستبدلونها بالثياب من الحجّاج(٣).

٢٥- حاجـر

تقع حاجر شمال قارورة، وبها مجموعة من الآبار وبركة ماء، وتتبع الحاجر البعايث في منطقة حائل حاليًا (٤).

٢٦- قارورة

تقع محطّة القارورة جنوب الحاجر، ولقد وصفها ابن جبير فقال: "ما أرى في المعمورة أرضًا أطيب نسيمًا، ولا أصحّ هواء، ولا أصفى جوًا منها"(٥). يدل اسمها على أنها كانت مكانًا لحفظ الماء بصورة جيدة.

٢٧- النقـرة " ملتقى الدروب "

يسلك ركب الحجّ العراقيّ من قارورة إلى النقرة في أرض سهلة شبه مستوية، ثمّ يتابع مسيره نحو الجنوب إلى مكّة، حيث توجد نقرتان، وهما منهلان: نقرة شماليّة، وأخرى جنوبيّة، وبينهما مسافة تقرب من ميلين، ويمر الركب من الكوفة إلى مكّة منهما شرقًا، ثمّ يسير من النقر إلى المدينة مجتازًا النقرة الجنوبيّة. وبعد تخريب النقرة، أصبح معدن القرشي حصن محطّة الطريق، ولاتزال النقرة تحمل اسمها إلى الآن. وتبعد عن المدينة تسعة وخمسين فرسخًا(٦).

---

(١) الحربي، **المناسك**، ص٣٠٩؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص٢٨٢؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص٤٤٣.

(٢) حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي** (شمال المملكة)، ج١، ص٢٦٥.

(٣) ياقوت الحموي، م. س.، مج ٣، ص ٢٥٥؛ ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ١٠٨؛ حمد الجاسر، "كتب المنازل من روافد الدراسات"، **مجلة العرب**، ج٥- ج٦، ص٣٣٠.

(٤) ياقوت الحموي، م. س.، مج ٢، ص ٢٠٤؛ حمد الجاسر، م. س.، ص٣٣٠.

(٥) الحربي، م. س.، ص٣١٨- ٣١٩؛ ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٨٢؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافيّة**، ص٥٣.

(٦) الحربي، م. س.، ص٣٢٢؛ ياقوت الحموي، م. س.، مج٥، ص ٢٩٨- ٢٩٩.

٢٨- مغيثـة المـاوان

مركز مغيثة الماوان جنوب النقرة، وبها قصر ومسجد وبركة تسمى الحبران، وهـي ثلثـا الطريق من الكوفة إلى مكّة. وتوجد بركة أريمة بالقرب من الماوان المعروفة بالمتعشى، وتسـمى أيضاً الكراع، وأريمة على يمين الطريق وبعدها قباب خربة [١].

٢٩- الرَّبـذة

يرجع سبب اندثار الرَّبذة إلى الحروب التي قامت بينها وبين أهل ضرية سنة ٩٤٠/٣١٩، وضرية إلى الشرق منها على طريق الحجّ البصري، وفي الربذة مجموعة من الآبار والبرك، ومن هذه الآبار بئر تنسب إلى أبي ذرّ الغفاري. ومن ثمّ يسير الركب في أرض منبسطة، حتّى يصل إلى السّليلة. وروي أنه بعد مجيء أبي ذرّ إلى المدينة ووقوفه على توسّع الصحابة في العمران، طلـب إلى عثمان أن يسمح له بالمسير إلى الرَّبذة، وفيها قبره[٢].

٣٠- السّليلـة

تقع السّليلة شمالي جبل فرقين، وشمال الجزء المارّ بوادي العقيق، وهي للزبير بن العوام. وبها قصر ومسجد وبركة مربّعة، ولها مصفاة، وآبارها غليظة الماء[٣].

٣١- العمـق

يسير الرّكب بعد عبوره وادي العقيق نحو الجنوب، فيصل بئر عمق، الّتي لا تزال معروفةً بهذا الاسم حتّى الآن. وبوصول القافلة إلى منطقة بئر عمق، تدخل في نطاق الحجاز الجنوبي[٤].

٣٢- معدن بني سليـم – مهـد الذهـب

يبعد مهد الذهب أربعين فرسخًا عن جنوب شرق المدينة، وبه تجمعات للخامات المعدنيـة التي تُعَدُّ من أشهر معادن شبه الجزيرة العربيّة، ويتابع الركب سيره ناحية الجنوب الغربي، فيمـرُّ في وادي سيلا حتّى يصل قرب جبل ريان، وفي هذا المكان تتشعّب عدّة طرق، فمنها إلى المدينـة أو إلى مكّة عبر طريق صفينة وحاذة، ويُعَدّ المعدن محطّةً مهمّةً على درب الحجّ العراقـي علـى جادة الكوفة[٥].

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٥، ص١٦٢.

(٢) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣، ص٢٤؛ حمد الجاسر، "كتب المنازل من روافد الدراسات"، **مجلة العرب**، ج٥- ج٦، ص٣٣٠.

(٣) ياقوت الحموي، م. س.، مج ٥، ص٣٢٩، ٣٣١- ٣٣٢؛ سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ٥٧- ٥٨.

(٤) الحربي، **المناسك**، ص٣٣٢؛ سيد بكر، م. س.، ص٥٩.

(٥) الحربي، م. س.، ص٣٣٤؛ سيد بكر، م. س.، ص٦٠.

٣٣- صفينــة

تسلك القافلة الطريق بعد جبل ريان إلى صفينة فجبل الزور، وهو جبل مستطيل يوجد إلى الشمال من بلدة صفينة الّتي لا تزال معروفةً بهذا الاسم [١].

٣٤- حــاذة

يتوجّه الركب بعد صفينة إلى حاذة، ويسير إليها عبر الطرف الشرقي لحرّة رهاط، ويعبر الطرف الجنوبي الغربي قرب جبل الحبيض. ومنطقة حاذة غنيّةٌ بمياهها الباطنيّة بسبب العديد مــن الوديان المتّجهة إليها. وكان الرّكب يذهب إلى الجنوب عبر فاضة الحرّة، فينحرف ناحية الشرق، ثمّ يسير إلى جهة الجنوب حتى يبلغ بلدة المسلح[٢].

٣٥- المسلــح

ينزل الحجّاج البعث أسفل المسلح، وبه قصر ومسجد وعدة برك والعديد من الآبـــار، ولا يزال المسلح معروفًا حتّى اليوم، وهو منزل يمر به طريق أفيعيّة وطريق صفينة[٣].

٣٦- أفيعيّــة

تقع أفيعيّة في نصف المسافة بين معدن سليم والمسلح، وفي هذه المنطقة يسلك الركب من حرة الكشب فحرة رهاط، ثمّ يمر شرق خبرة العرن وفاضة المسلح، ويقطع العديد من الوديان حتّى يبلغ المسلح ومنها يخرج الركب إلى غمرة، وعلى مسافة ثمانية أميال من غمرة توجد أمّ خرمـــان، ومنها يعدل أهل البصرة. وهذا يفسّر أنّ أمّ خرمان ملتقى طريق حجّاج البصرة بحجّاج الكوفة[٤].

٣٧- غمــرة

يصبُّ بغمرة واد عظيم، وهو وادي العقيق، وعلى مسافة من ذات عــرق يوجــد مســجد الرسول، وغمرة منهل من مناهل طريق مكّة ومنزل من منازلها[٥].

٣٨- ذات عــرق

سمّيت بهذا الاسم نسبةً إلى عرق أبيض في الجبل. وذات عرق ميقات أهل العراق، وهــو منزل كثير الأهل والشجر وفيه برك. ومكان الإحرام موضع مسجد للرسول. ولصعوبة التضاريس في هذا الجزء، يسير الطريق مع منابع وادي الشاميّة، ثمّ يتابع الطريق سيره في اتجــاه الغــرب،

---

(١) سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص ٦١- ٦٢.

(٢) سيد بكر، م. ن.، ص٦٢.

(٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٥، ص ١٢٨.

(٤) سيد بكر، م. س.، ص ٦٢.

(٥) الحربي، **المناسك**، ص٣٤٦؛ ياقوت الحموي، م. س.، مج٤، ص ٢١٢.

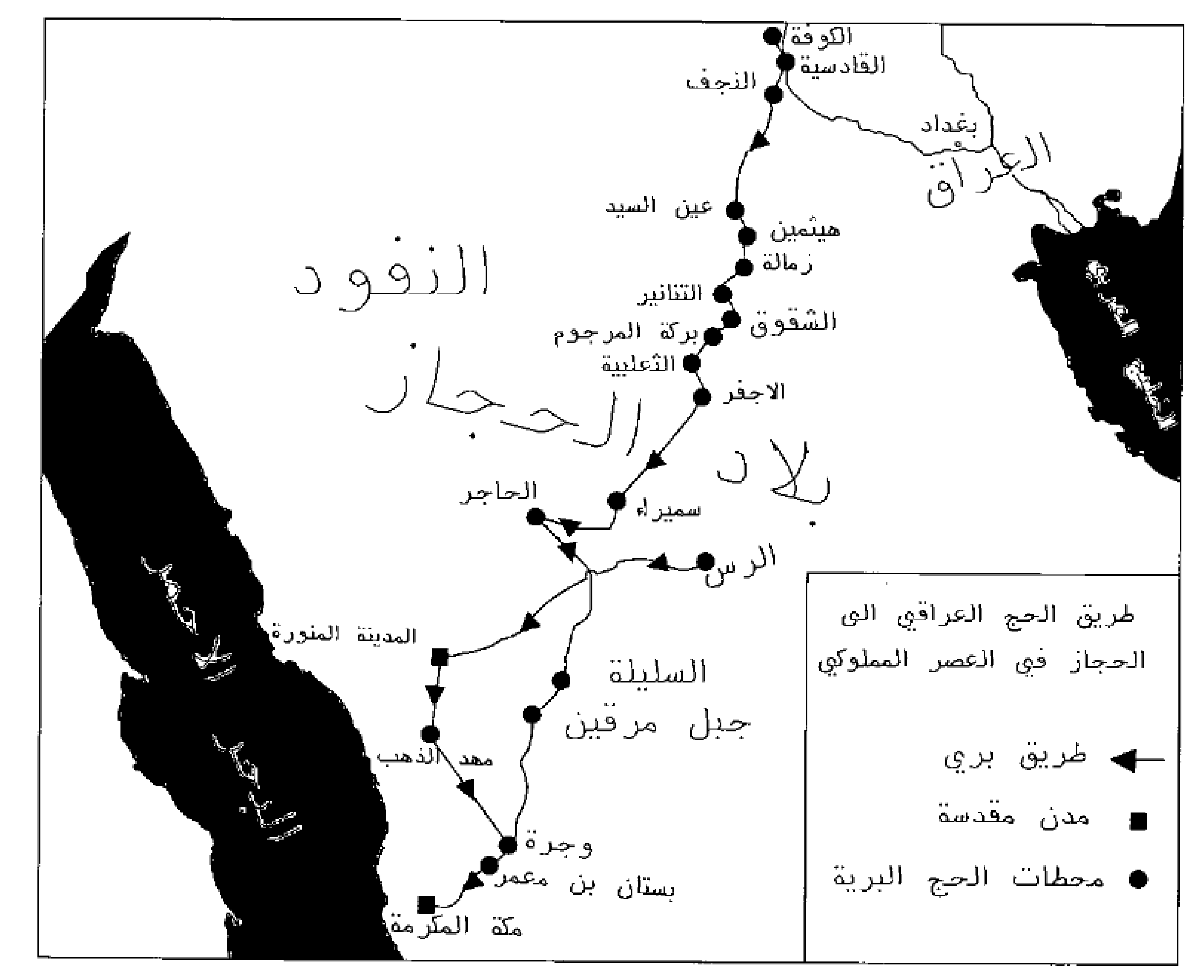
ويسلك غور وادي الشاميَّة حتى يتقابل مع وادي اليمنيَّة، ونقطة اللقاء هي موضع بستان ابن معمر (بستان بني عامر، أو ابن عامر)[١].

٣٩- بستـــان ابن معمــر

يسير الرَّكب عبر الغور متتبّعًا وادي الشاميَّة. وعلى يسار الطريق سولتين أو سولة، وعند سولة جنوبًا يلتقي وادي الشاميَّة مع وادي اليمنيَّة. وبهذا الموضع بستان ابن معمر، حيـــث تنتهـــي منازل درب الحجّ الكوفي إلى مكّة[٢].

(١) الحربي، **المناسك**، ص٣٤٩؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص ٢٥٦.

(٢) سيد بكر، **الملامح الجغرافية**، ص٦٩-٧٠ .



حلمي، إبراهيم، **المحمل**، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩٣، ص ٥٦.

ب- منـــازل طريق الحـــجّ العراقـــيّ مـــن البصرة إلى مكّة

١- المنجشانيـــة

أوّل طريق البصرة إلى مكّة. وإنما سميت المنجشانية نسبةً إلى منجشن عبد لكسرى. وهي على ثمانية أميال من البصرة، وتعدّ مركزًا لتجمّع النّاس[١].

٢ – الحفيـــر

الحفير بئر. من البصرة إلى الحفير مسافة واحد وثلاثين ميلاً، وهو أول منازل الحجّ فـــي البرّ[٢].

٣- الرحيـــل

المسافة من الحفير إلى الرحيل ثمانية وعشرون ميلاً. وبه آبار كثيرة، وهو منـــزل بـــين البصرة والنباج[٣].

٤- الشجـــي

سمي بهذا الاسم لإحاطة الماء به. ومن الرحيل إلى الشجي تسعة وعشرون ميلاً. وفيه آبار عذبة. وعلى مسافة خمسة وعشرين ميلاً من الشجي، بركة وآبار تعرف ببركة الرفيعـــي، وهـــو منزل من منازل طريق البصرة ـ مكّة[٤].

٥- الخرجـــاء

تقدّر المسافة من الشجي إلى الخرجاء بثلاثة وثلاثين ميلاً، وبها آبار فيها مـــرارة. ومـــن الخرجاء إلى الجفر بسبعة وعشرين ميلاً، وبه آبار ومسجد، ومنبر، وماء عذب. والخرجاء منـــزل من منازل الحجّ البصري إلى مكّة، وبه حجارة بيضاء وسوداء[٥].

٦- ماويّـــة

سميت بهذا الاسم لصفاء مائها، والمسافة بين الجفر وماويّة اثنان وثلاثون ميلاً، وهي فـــي العراق على جادة البصرة إلى مكّة[٦].

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٥، ص ٢٠٨.

(٢) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٢، ص ٢٧٦.

(٣) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣، ص ٢٧.

(٤) الحربي، **المناسك**، ص ٥٧٥- ٥٧٧، ٥٧٩؛ ياقوت الحموي، م. س.، مج٣، ص ٣٢٦.

(٥) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٢، ص ٣٥٦.

(٦) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٥، ص ٤٨.

٧- العشـــر

أطلق عليها ذات العشر لأنها منابت العشر. فالمسافة من الماويّة إلى العشر تسعة وعشرون ميلاً. وبها آبار، وعلى بعد ثلاثة عشر ميلاً رمل السبخة، فقف حتى الوصول إلى الينسوعة[١] .

٨- الينسوعـــة

تقدَّر المسافة من العشر إلى الينسوعة بثلاثة وعشرين ميلاً. وبها آبار، وهي موضع فـي طريق البصرة، وتوجد مرحلتان بينها وبين النباج[٢] .

٩- السُّمينـــة

المسافة من الينسوعة إلى السمينة تسعة وعشرون ميلاً. وتقع بين مصرط ومريخ[٣].

١٠- النبـــاج

سمِّيت بهذا الاسم لكثرة أهلها وكثرة الأصوات، يقال: رجل نباج إذا كان كثيــر الكـــلام. والمسافة من السمينة إلى النباج ثلاثة وعشرون ميلاً. ويوجد بها عين ونخل، وكثير من التجّـــار، ومسجد، ومنبر. ومنها تقصد المدينة. والنباج منزل لحجّاج البصرة[٤].

١١- العوسجـــة

تقدَّر المسافة من النباج إلى العوسجة بتسعة عشر ميلاً، وبها آبار، ثم إلى القـــريتين فـــي طريق البصرة إلى مكّة المنسوبتان إلى طسم وجديس، ومن العوسجة إلى القريتين تقـــدَّر المســـافة باثنين وعشرين ميلاً[٥].

١٢- رامـــة

رامة موضع بالعقيق، وقيل: تقع جنوب القريتين في طريق البصرة إلـــى مكّـــة، وتقـــدّر المسافة من القريتين إلى رامة بأربعة وعشرين ميلاً [٦].

١٣- إمـــرة

سمِّيت إمرة لارتفاع أرضها، وتقدَّر المسافة من رامة إلى إمرة بسبعة وعشرين ميلاً. وهي منهل في طريق مكّة من البصرة، وهي آخر بلاد بني تميم[٧].

---

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٣، ص٥٨٠ - ٥٨١ ؛ ياقوت الحموي، م. ن.، مج ٥، ص ٤٤٨؛ الفيروز آبادي، **القاموس المحيط** ، ج١، ص ٢٥٢.

(٢) ياقوت الحموي، م. س.، مج ٥ ، ص ٤٥١ .

(٣) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣، ص ٢٥٨.

(٤) ياقوت الحموي، م. ن.، مج ٥، ص ٢٥٥ .

(٥) الحربي، **المناسك**، ص٥٨٥- ٥٨٧؛ ياقوت الحموي، م. س.، مج٤ ، ص ١٦٨.

(٦) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣، ص ١٨.

(٧) ياقوت الحموي، م. ن.، مج١، ص ٢٥٣ .

١٤- طخفـــة

طخفة موقعٌ بعد إمرة في طريق الحجّ البصري إلى مكّة. وبها آبار وفيرة. وتبلغ المســـافة من إمرة إلى طخفة ستةً وعشرين ميلاً[١] .

١٥- ضريـــة

ضرية قرية عامرة في طريق مكّة من البصرة، وينسب إليها حمى ضرية، ينزلهـــا حـــجّ البصرة. وتقدر المسافة من طخفة إلى ضرية بثمانية عشر ميلاً. وبضرية بركة، وآبـــار كثيـــرة، ونخل. وبئر ماؤها عذب طيب[٢] .

١٦- جديلـــة

اسم مكان في طريق الحجّ البصري إلى مكّة. ومقياس المسافة من ضرية إلى جديلة اثنان وثلاثون ميلاً. وشمال جديلة موقع يعرف بأسود العين، فيه آبار قريبة الماء[٣].

١٧- فلجـــة

تقدّر المسافة من جديلة إلى فلجة بخمسة وثلاثين ميلاً. وفلجة ماؤها مالح، وهي منزل على طريق الحجّ البصري إلى مكّة[٤] .

١٨- الزُجَيْـــج

الزجيج منزل للحجّ بين البصرة ومكّة قرب سُوَاج[٥].

١٩- الدثينـــة

الدثينة منزل في طريق الحجّ البصري إلى مكّة، وهي لبني سليم. والمسافة من فلجة إلـــى الدثينة ستة وعشرون ميلاً. ومن الدثينة إلى قبا سبعة وعشرون ميلاً، وفي قبا آبار قريبة الماء[٦].

٢٠- مـــرّان

مرّان قرية غنيّة كبيرة، كثيرة العيون والآبار والنخيل والمزارع، وهي في طريق الحـــجّ البصري إلى مكّة. وبها حصن ومنبر وناس كثر. وتقدر المسافة من مرّان إلى مكّة بثمانية عشـــر ميلاً[٧] .

---

(١) الحربي، **المناسك**، ص٥٩٢- ٥٩٣؛ ياقوت الحموي، **معجم البلـــدان**، مج١، ص٢٥٢؛ الحميـــري، **الـــروض المعطـــار**، ص٢٦٣.

(٢) ياقوت الحموي، م. س.، مج٣، ص ٤٥٧.

(٣) الحربي، م. س.، ص٥٩٤، ٥٩٧؛ ياقوت الحموي، م. س.، مج٢، ص ١١٥.

(٤) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٤، ص ٢٧٢.

(٥) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٣، ص ١٣٣.

(٦) الحربي، م. س.، ٥٩٧، ٥٩٩ – ٦٠٠؛ ياقوت الحموي، م. س.، مج٢، ص٤٤٠.

(٧) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٥، ص ٩٥.

٢١- الشبيكـــة

تقدّر المسافة من قبا إلى الشبيكة بسبعة وعشرين ميلاً، وبالشبيكة آبار طيّبة، قريبة المـــاء. وهي في طريق التنعيم، ومنزل من منازل الحجّ البصري إلى مكّة[١].

٢٢- وجــرة

وجرة على جادة البصرة إلى مكّة بإزاء الغمر الّذي على جادة الكوفة، منها يحـــرم أكثـــر الحجّاج، بينها وبين ذات عرق العقيق. وتقدَّر المسافة من الشبيكة إلى وجرة بأربعين ميلاً، وفيهـــا ماء كثير وشجر[٢].

٢٣- ذات عـــرق

تبلغ المسافة من وجرة إلى ذات عرق سبعة وعشرين ميلاً، وتبعد أم خرمان سبعة عشـــر ميلاً عن وجرة، وهي ملتقى حجّاج الكوفة والبصرة بوادي العقيق. وذات عرق ميقات أهل العراق، وهو منزل كثير الأهل والشجر، وماؤه من البرك، ويبعد بستان ابن عامر أو معمر اثنين وعشرين ميلاً عن ذات عرق[٣]، وقد ورد ذكرها في السابق.

٢٤- بستان ابن معمر

تبلغ المسافة من ذات عرق إلى بستان ابن معمر أربعةً وعشرين ميلاً، ومن البستان إلـــى مكّة ثمانيةً وعشرين ميلاً، أمّا بين البصرة ومكّة فتبلغ أربعةً وعشرين منزلاً، عدد أميالها الصغار الأولى ستمائة وخمسة وسبعون ميلاً[٤].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الرحّالة ابن بطّوطة، عاد برفقة ركب الحجّ العراقي من مكّة إلـــى الكوفة في النصف الأوّل من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وجاء على ذكر المحطّات الّتي مرّ بها، وهي على النحو الآتي:

يبدأ الركب من مكّة إلى بطن مرّ، ثمّ إلى عسفان، ومنها إلى خليص، ثمّ إلى بدر، ومنهـــا إلى الصفراء، ثمّ إلى المدينة المنوّرة، ومنها إلى النقرة، ثمّ إلى القارورة، ومنها إلى نلّة المخروق، ثمّ إلى وادي الكروش، حيث لم يكن فيها ماء؛ ثم اجتاز قلعة فيد الواقعة في منتصف الطريق بـــين مكّة وبغداد، ثمّ توجّه إلى الكوفة، وكان الوصول إليها يتطلّب مدّة اثني عشر يومًا، بواسطة السّـــفر على طريق سهلة ومزوّدة بالمياه في برك كثيرة. وبعد استراحة في السهل الواسع المستوي، مـــرّ

---

(١) الحربي، **المناسك**، ص ٦٠١ – ٦٠٢؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٣، ص ٣٢٤؛ ياقوت الحموي، م. ن.، مج٥، ص ٩٥؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٤٢.

(٢) ياقوت الحموي، م. س.، مج٥، ص ٣٦٢.

(٣) ياقوت الحموي، م. ن.، مج٤، ص ١٠٧.

(٤) الحربي، م. س.، ص ٦٠٢– ٦٠٣؛ الحميري، م. س.، ص ٢٥٦، ٦٠٨.

المسافرون بزرود، فالثعلبيّة ثم بركة المرجوم، حيث كان قد أقيم مزار إلى جانب الطريق، يوجد على قمّته كومة كبيرة من الحجارة، إذ كان كل حاج يرمي حجرًا. وكان هناك أيضًا بِرْكة كبيرة تحتوي على مياه كافية. وفي محطّة "المشقوق"[١] بركتان كبيرتان من المياه النقيّة الجيدة. وبركة مملوءة بالمياه في التنانير وفي زبالة، ثمّ اتجهوا إلى الهيثمين، حيث هناك بركتان، ثمّ استراحوا إلى الجنوب من عقبة الشيطان، وهبطوا المنحدر الشاهق بدون صعوبة، وخيّموا في محطّة واقصة، ثمّ في لورة، فالمساجد، ثمّ منارة القرون، فالعذيب، وأخيرًا في القادسية. ومن هنا غادر ابن بطّوطة إلى مشهد علي(النجف)[٢].

وقد جاء حمد الجاسر على ذكر محطّات منازل الحجّ العراقي على النحو التالي:

يبدأ ركب الحجّ العراقي من الكوفة إلى القادسية، ثمّ يغادرإلى العذيب، ومن العذيب إلى المغيثة، ثم إلى القرعاء، ومن القرعاء إلى واقصة، ثمّ إلى العقبة، ومن العقبة إلى القاع، ثمّ إلى زبالة، ومن زبالة إلى الشقوق ثمّ إلى البطان، ومن البطان إلى الثعلبيّة، ثمّ إلى الخزيمية، ومن الخزيمية إلى الأجفر، ثمّ إلى فيد، ومن فيد إلى توز[٣].

واللافت في هذا السياق، أن الجزيري أشار في كتابه "**درر الفرائد المنظمة**" إلى اتفاق الصلح الّذي حصل بين السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون والإيلخاني أبي سعيد بهادر خان بن خدابنده، فكتب أبو سعيد يسأله فتح طريق العراق، وكتبت المراسيم الناصريّة إلى أمراء آل فضل وقبائل عنين طيء وسائر العربان بأن تفتح الطريق، ويسهّل السبيل للحجّ العراقي من بغداد إلى مكّة المعظّمة، فحوّلت القافلة طريقها إلى المدينة في عهد السلطان أبي سعيد بهادر خان بن محمّد خدابنده، وأصبحت تنطلق من أجفر إلى أسميرون في مرحلتين، ثمّ إلى النقرة مرحلتين، ومنها إلى وادي العروس خمس مراحل، المدينة الشريفة أربع مراحل، فبقي هذا الركب يسلك هذه الطريق حتّى انقطعت بوفاة السلطان أبي سعيد، ما أدّى إلى تعطيل هذا الدرب سنين[٤].

تلك المنازل والمحطّات كان سلكها الركب العراقي أيّام المماليك، رغم الظروف الصعبة الناتجة من الغزو المغولي، والّتي أدّت إلى تعطيله بضع سنين في أوقات مختلفة.

بعد التطرُّق إلى طرق الحجّ ما بين مكّة ومصر والشام والعراق، لا بدّ من ذكر المسافات في ما بينها، بدءًا بطريق مكّة إلى مصر، ثمّ طريق الشام، فطريق العراق.

---

(١) الشقوق وليس المشقوق كما ذكرها ابن بطّوطة.

(٢) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص١٠٧- ١٠٩، ١٣٧؛ ألوز موزل Alois Musil، "طريق الحجّ العراقيّ القديم"، **مجلة العرب**، الجزء الثالث، ص٢٠٣- ٢٠٤.

(٣) حمد الجاسر، **المعجم الجغرافي** (شمال المملكة)، ج٢، ص٨٣٠؛ ألوز موزل Alois Musil، م. س.، ص٢٠١.

(٤) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٤٦٧- ٤٦٨.

أما المسافة بالأميال، فهي على النحو التالي:

من مكّة إلى فسطاط مصر ثمانمائة وأربعة وخمسون ميلاً، أي مائتان وأربعة وثمانون فرسخًا وثلثا فرسخ.

من مكّة إلى دمشق- مدينة الشام- سبعمائة وثمانية وعشرون ميلاً، وهي مائتان واثنان وأربعون فرسخًا وثلثا فرسخ.

من مكّة إلى بغداد ستمائة واثنان وأربعون ميلاً، وهي مائتان وأربعة وعشرون فرسخًا[١].

وطريق الحجّ من بغداد إلى الموصل فحلب ودمشق وصولاً إلى الحرمين الشريفين- كما وصفه السويدي- يتألف من خمس وسبعين مرحلةً، ويمرُّ بأكثر من ثمانين مدينةً وقريةً ومحطّةً، ويتراوح طول المرحلة الواحدة بين ثلاثة فراسخ وعشرين فرسخًا، أي ما يقارب تسعة وستين كيلومترًا، ويستغرق قطع الفرسخ الواحد نحو ساعة أو أكثر بحسب استواء الطريق أو وعورته[٢].

وذكر إبراهيم رفعت باشا[٣] في كتابه **مرآة الحرمين**، أنّ طول المسافة من القاهرة إلى مكّة يبلغ ثمانمائة وأربعة وخمسين ميلاً، أي حوالى ثلاثمائة واثنين وستين فرسخًا ونصف فرسخ[٤]. ويلاحظ أنه قارب بنتائجه الجزيري في تقدير المسافات، إلا أنّ الاختلاف يأتي من تغير المسافات بين المحطّات.

هذه بعض الإطلالات على طرق الحجّ في العصر المملوكي. ولكن رغم مشقة رحلات الحجّ في العصور الوسطى. وبالرغم من جهدها الجهيد كان لها مذاقها الخاص، والّذي يستشعر فيه الإنسان المقبل على أداء فريضة الحجّ لذة التطهر منذ اللحظة الأولى الّتي يطأ فيها بقدميه تراب الطريق الّذي يشق فيه صعوباته مع الرفاق الناشدين للغفران وتضمهم رحلة في شهور عدة، سواء أكان ذلك من فوق ظهر جمل، إن كان الحاج ميسور الحال، أو بالسير على الأقدام إن كان ذا عسرة وخالي الوفاض.

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٤٤٢.

(٢) السويدي، **النفحة المسكية**، ص ٣٩، ٤٨.

(٣) إبراهيم رفعت باشا (١٢٧٣/ ١٨٥٧- ١٣٥٣/١٩٣٥)، إبراهيم رفعت باشا بن سويفي بن عبد الجواد بن مصطفى المليجي، مؤرخ مصري، من أمراء الحجّ العسكريين. ولي إمارة الحجّ ثلاث مرات في السنوات ١٣٢٠/١٩٠٣- ١٣٢١/١٩٠٤- ١٣٢٥/١٩٠٨، ومنح رتبة اللواء العسكرية، وصنف كتاب **مرآة الحرمين** يقع في مجلّدين يدلُّ على اطلاع واسع، وتوفي بالقاهرة. الزركلي، **الأعلام**، ج١، ص ٣٩.

(٤) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٣٦٧.

* * *

نستنتج ممّا تقدم، الأمور والنقاط التالية:

اعتبر حكم أسرة المماليك البحرية ٦٤٨/١٢٥٠- ٧٨٤/١٣٨٢ امتدادًا للأيوبيين الذين ظلّوا يمارسون حكمهم بوصول شجر الدّر إلى السلطنة. وقد حظي الحجّ والحجّاج باهتمام سلاطين المماليك، ولا سيّما لجهة إحياء الاحتفالات الرسميّة والشعبيّة الخاصّة بمغادرة ركب الحجّ إلى مكّة، علاوةً على تعيين العناصر البشريّة لقيادة قافلة الحجّ، وتكليف الموظّفين بالعمل، كلٌ ضمن اختصاصه ومهامّه، سواء في ما يخصّ الحجيج أو لجهة الإشراف على الإبل والدواب، وتأمين المستلزمات الضروريّة.

وقد استعمل المماليك الإبل وسيلةً أساسيّةً لنقل الحجّاج، ولا سيّما المحفّات والهوادج. كما برز نشاط المماليك واهتمامهم في إعداد قوافل الحجّ وتنظيمها وتجهيزها، حرصًا منهم على توفير الحماية والرعاية للحجّاج، وتمهيدًا لبسط سلطانهم على الحجاز. مع الإشارة إلى مغادرة الركب المصري إلى الحجاز كركب منفرد ومتميّز. وتفرّعت إمارة الحجّ في العصر المملوكي إلى أمير أوّل، وأمير ثانٍ، ويعرف الأوّل بأمير الركب الأوّل، ويعرف الثّاني بالأمير الّذي ينوب عن الأوّل. وكانت مراسم تعيين أمير الحجّ من الحفلات الأساسيّة في عصر المماليك. وقد كان تكليفه ينطوي على أمرين: أحدهما سياسي بإضفاء الصفة الشرعيّة، فهو يمثّل السلطان في الحجاز والآخر ديني، فهو قائد ركب الحجّ المصري.

حرص المماليك على الاهتمام بالركب المصري، فكانت مراسم التكريم تقام له قبل توجّهه إلى الحرمين الشريفين، وتشارك فيه فرقة الرمّاحة. واتّخذت سلطنة المماليك اجراءات محظورة على دوران المحمل نتيجة الممارسات الشنيعة الّتي كانت عناصر شاذّة تقوم بها عند إدارة المحمل الرجبي. إلاّ أنّ دوران المحمل توقّف في نهاية سلطنة خشقدم سنة ٨٧٢/١٤٦٧، ثمّ أعيد دورانه في شهر رجب سنة ٩٠٩/١٥٠٣ من قبل السلطان قانصوه الغوري. نالت مصر شرف إرسال كسوة الكعبة إلى الحجاز، حيث تصلّب المماليك بما اعتبروه حقهم في كسوة الكعبة رافضين أن ينال أحد غيرهم هذا الشرف. إضافة إلى الفرمان السلطاني والخطبة للسلطان المملوكي في عرفة. وسعى سلاطين المماليك إلى دفع أموال باهظة في تجهيز المحمل المصري ليكون متفوّقًا على غيره من المحامل.

وكان لملوك المغاربة، ولا سيّما بني زيان دور في نجاح موسم الحجّ، نظرًا لعلاقتهم الوطيدة مع المماليك، الّتي أدّت إلى إرسال الهدايا إلى الحرمين الشريفين، وتمهيد طرق الحجّ وتأمينها.

أما محمل الحجّ الشامي فنال نصيبه أيضًا من الرعاية المملوكيّة، وكان تجهيـزه بـدا بالبذخ والترف. إلاّ أنه تعرّض للتوقّف نتيجة حصول فتنة في دمشق سنة ١٣٩٤/٧٩٦. ثمّ أعيد دورانه في رجب٧٩٦/أيار ١٣٩٤، واستمرّ دوران محمل الحجّ الشامي طيلة القـرن التاسـع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ولم يستجد أي أمر في هذه الفترة. أما محمل الحـجّ الحلبـي فكان ظهوره في أواخر الفترة المملوكيّة.

وبرزت ظاهرة توقّف الركب العراقي نتيجة الزحف المغولي الّذي ترك آثـارًا سـلبيّة أدّت إلى انقطاعه لسنوات طويلة إضافة إلى دور العوامل الطبيعيّة والبشريّة والسياسـيّة الّتـي أحاطت بالركب العراقي وأعاقت خروجه إلى الدّيار المقدّسة. إلاّ أنّ هذه الظروف الصعبة لـم تستطع ايقاف المحمل العراقي عن التّوجه إلى الحجاز، حيث نال نصيبه من الرعاية والاهتمام في عهد الإيلخان أبي سعيد خدابنده، الذّي زوده بالهدايا الثمينة إلى الحرمين الشريفين، وكـان خروجه بمباهاة وافتخار.

وكان لدروب الحجّ أيام المماليك نصيب من العناية والاهتمام، ورغم قساوة الشتاء وحرّ الصيف، إلاّ أن الحجّاج لم يتلكّؤا عن أداء الفريضة. وكان طريق الحجّ يشهد سنويًا ازدحامًـا كثيفًا.

وقد رافق الرحّالة الجغرافيون قوافل الحجيج، ووصفوا انطباعاتهم الشخصيّة وتجربتهم الفرديّة .

وأصبح الحجّاج المصريون والمغاربة في العصر المملوكي يسـلكون أحـد طـريقين للذهاب إلى الحرمين الشريفين.

- الطريــق الأوّل: يتجه من القاهرة شمالاً عبر سيناء، ثمّ الأراضي الحجازيّة، وقد كـان الأكثر شهرة واستعمالاً عند قوافل الحجّ المصريّة عبر السنين.

- الطريق الثّاني: وينقسم هذا الطريق إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: يبدأ من القاهرة إلى قوص بطريق النهر أو البرّ.

القسم الثّاني: يسير عبر الصحراء الشرقيّة إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر.

القسم الثالث: يتّجه إلى جدّة.

أما طريق الحجّ الشامي في العصر المملوكي، فقد عرف مرحلتين مختلفتين:

- المرحلة الأولى: تعرّض طريق الحجّ الشامي إلى قرصنة الفرنج، ما أدّى إلـى ابتعـاد الحجّاج الشاميين عنه باتجاه الداخل، وكانوا أحيانًـا يرافقـون الرّكـب العراقي.

-المرحلة الثّانية: تميّزت باستقرار االأوضاع في بلاد الشام بعد خروج الصليبيّين، حيث سلك الرّكب الشامي طريق دمشق- المدينة ومن ثمّ إلى مكّة.

وفي ما خصّ طريق الركب العراقي، فقد تعطّل لعدّة سنوات، وفي أوقات مختلفة- كما أشرنا آنفًا- أمّا بشأن المسار، فقد تبدّل بين بعض المحطّات اختصارًا للمسافة، أو تلافيًا للصعوبات الّتي كانت تعترض الحجّاج. وقد حدث هذا أكثر من مرّة، وفي أكثر من موضع. ومن جهة أخرى، واكب العديد من الرحّالة ركب الحجّ العراقي، أما بداية محطّاته، فكانت تبدأ من الكوفة إلى مكّة، وهناك أيضًا طريق البصرة- مكّة.

تلك بعض الاستنتجات الّتي توصّلنا إليها في الباب الأوّل، وسوف ننتقل- إن شاء الله- إلى الباب الثّاني بعنوان **موسم الحجّ في الحجاز في العصر المملوكي**، حيث نتطرق في فصله الأوّل إلى مكّة والمدينة في العصر المملوكي.

الباب الثّاني

موسم الحجّ في الحجاز في العصر المملوكي

الفصل الأوّل: مكّة والمدينة في العصر المملوكي

الفصل الثّاني: دور أشراف مكّة والمدينة في موسم الحجّ في العصر المملوكي

الفصل الثالث: العلاقات الاجتماعيّة والثقافيّة في الحجاز في موسم الحجّ في العصر المملوكي

الفصل الرّابع: العلاقات التجاريّة في الحجاز فـــي موسم الحجّ في العصر المملوكي

الباب الثّاني

موسم الحجّ في الحجاز في العصر المملوكي

بعد أن عالجت في الباب الأوّل من هذه الدراسة قضايا تتعلّق باهتمام المماليك بتنظيم رحلة الحجّ إلى بلاد الحجاز، وأحوال الركب المتوجّه إلى الدّيار المقدّسة، وتعيين الطـرق والمحطّـات والمسالك التي يسلكها الحجيج أو يستريحون فيها من عناء السفر البرّي الطويل أو البحري المهدد بالأهوال، أتناول في الباب الثّاني ظواهر موسم الحجّ في الحجاز في العصر المملوكي ومسـيرته، وأحوال مكّة والمدينة ومعالمهما الدينيّة والتاريخيّة، وتأثير موسم الحجّ اجتماعيًّا وثقافيًّا وتجاريًّا في بلاد الحجاز، ومدى العلاقة بين سلاطين المماليك وأمراء الحجاز. في هذا الباب سنحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: كيف بدت العلاقة بين مكّة والمدينة في العصر المملوكي؟ ما هـي التجديـدات التي أدخلها المماليك على المراكز الدينيّة في الحرمين الشريفين؟ هل أثّر الصراع السياسي في مكّة والمدينة في موسم الحجّ ؟ هل كان للكوارث الطبيعيّة تأثيرٌ في توقُّف حركة الحجّ؟ هل انفردت مكّة والمدينة باجتذاب هجرات من آفاق العالم الإسلامي؟ هل أثّر تدفّق الحجّاج والتجّار والمجاورين في تركيبة مكّة والمدينة السكّانيّة؟ هل مثّل الأشراف الطبقة الحاكمة في الحجاز في العصر المملوكي؟ هل شهدت مكّة والمدينة حركةً عمرانيّةً من مدارس وأربطة وتكايا في العصر المملـوكي؟ هـل تأسّست عدد من المحطّات والمنشآت التجاريّة على طول الخطّ المؤدّي إلى الحجاز فـي عصـر المماليك؟ هل فرض المماليك رسومًا وضرائبًا على بعض السلع أو جرى احتكار سلع معيّنة؟ هـل انتعش ميناء جدَّة واستأثر بالتجارة أكثر من سواه؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، وزّعتُ هذا الباب على أربعة فصول، هي:

الفصل الأوّل: مكّة والمدينة في العصر المملوكي.

الفصل الثّاني: دور أشراف مكّة والمدينة في موسم الحجّ في العصر المملوكي.

الفصل الثالث: العلاقات الاجتماعيّة والثقافيّة في الحجاز في موسم الحجّ في العصر المملوكي .

الفصل الرّابـــع: العلاقات التجاريّة في الحجاز في موسم الحجّ في العصر المملوكي.

الفصـــل الأوّل

مكّة والمدينة في العصر المملوكي

نتناول في الفصل الأوّل من هذا الباب مكّة والمدينة في العصر المملوكي. فهما تمثّلان عند المسلمين مكانةً مرموقةً، فإنّ الله تعالى اختارهما مقرًّا للرسول محمّد، فاصطفى البلد الحرام بأن جعله مناسك لعباده، كذلك كرّم الله تعالى المدينة وحباها وشرّفها بكثير من الخصـــائص المميّـــزة. نحاول في هذا الفصل الإجابة على الأسئلة التالية: هل كان اهتمام سلاطين المماليـــك محصـــورًا بالحرمين الشريفين طيلة فترة تربعهم على كرسي الحكم؟ هل كان الهدف من أجل تثبيت سيطرتهم على بلاد الحجاز؟ وهل نجح سلاطين المماليك بالقيام بإصلاحات وتجديدات في الثـــروة المائيّـــة والمراكز الدينيّة في الحرمين الشريفين؟ من هذا المنطلق سأعالج أحوال مكّة والمدينة في العصـــر المملوكي من خلال المبحث الأوّل والثّاني من هذا الفصل .

أولاً- مكّـــة في العصـــر المملوكـــي

تمهيد- أحوال مكّة

ترتبط بداية نشأة مكّة وتطوّرها بتفجّر ماء زمزم لإسماعيل وأمّه هاجر، ومكّة هي البلـــد الأمين الذي شرّفه الله تعالى وعظّمه وخصّه بالقسم وبدعاء إبراهيم الخليل: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾[١]. وقد جعله الله مثابةً للنّاس، وأمنًا للخائف، وقبلةً للعبـــاد، ومنشـــأً لرسول الله[٢].

وكانت مكّة على صلات تجاريّة قديمة ببلاد الشام والعراق واليمن ومصـــر، تحوّلـــت بعدها إلى طريق لقوافل الشرق الأدنى، ثم إلى سوق رائجة في القرن السادس للميلاد، بفضل سيادة قريش عليها، حيث نظّمت تجارتها، وفرضت على أهل مكّة ضرائب، فحفلت سوقها بسلع الـــدول العربيّة والحبشة وأفريقيا وفارس والشرق الأقصى، وشاعت فيها الـــدنانير البيزنطيّـــة والـــدراهم الفارسيّة والعملة الحميريّة، وكانت الوحدة النقديّة بين العرب، وسيّرت القوافل في رحلتي الشـــتاء إلى اليمن والصّيف إلى الشام، وقد رجعت إحداها من غزّة، ولم تكن بأكبرها، وفيها ألـــف بعيـــر، ومعها خمسون ألف دينار[٣].

---

(١) سورة البقرة، ٢/١٢٦.

(٢) القزويني، آثار البلاد، ص١١٢.

(٣) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج١، ص ٣٥- ٣٦.

وزيادةً في علوّ مقام مكّة وقدسيّتها، قال رسول الله يوم فتح مكّة، إنّ الله حرّم مكّة يوم خلق السموات والأرض، وهي حرام إلى أن تقوم الساعة، لم تحلّ لأحد قبلي، ولا تحلّ لأحد بعدي، ولم تحلّ لي إلاّ ساعةً من نهار[١].

ومن خصائص مكّة أنها تحتضن الكعبة- بيت الله العظيم، وهي مهوى أفئدة العالمين، وقد جعلها الله بيتًا معظّمًا محجوجًا وحرمًا آمنًا، بُنِيَ على شرعة التوحيد الخالص، خاليًا من الأصنام والزخارف والصور، تخفق له القلوب، وتتوجّه إليه الوجوه وتعنو لعظمة الله. وهي مركز دائرة الإسلام، يدور حولها المسلمون، ويطوف بها عباد الله.

وقد بنيت الكعبة مرات عدة. وفي عدد بنائها خلاف؛ فقيل في ذلك: إنها بنيت عشر مرات، وهي: بناء الملائكة، وبناء آدم، وبناء أولاده، وبناء الخليل، وبناء العمالقة، وبناء جرهم، وبناء قصي بن كلاب وبناء قريش وبناء عبد الله بن الزبير، وبناء الحجّاج بن يوسف الثقفي. وقريش أوّل من رفع بابها. وابن الزبير أوّل من جعل لها بابين، ووضع الحجر الأسود في الكعبة عندما بنيت في زمنه. وقد بنى الحجّاج في الكعبة الجدار الذي يلي الحجر، أما الباب الذي صنعه ابن الزبير، فكان في دبر الكعبة، وما تحت عتبة الباب الشرقي. وقد عُمِلَت فيها أمور بعد ابن الزبير والحجّاج؛ فمن ذلك: عمارة الجزء الذي بناه الحجّاج، وعمارة الرّخام غير مرّة منها في سنة ٢٤٢/٨٥٦، ثم عمارة سقفها والدرجة التي بباطنها في سنة ٥٤٢/١١٤٧[٢].

وحوت مكّة كذلك المسجد الحرام، وكان أوّل من نصب أنصاب الحرم إبراهيم، وقد دلّه جبريل على حدوده، ومن ثم جدّد رسول الله سنة الفتح (فتح مكّة سنة ٨/٦٣٠) معالم الحرم؛ فبعث تميم بن أسد الخزاعي فجدّدها[٣].

---

(١) الكليني، **صحيح الكافي**، ج٢، ص١٠٦.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مج١، ج٥، ص١٤١؛ الحربي، **المناسك**، ص٤٨٤– ٤٨٥، ٤٩١؛ المسعودي، **مروج الذهب**، ج٢، ص١٦١، ١٦٤– ١٦٥؛ الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص٢٠٢ – ٢٠٣؛ العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٣٧٩– ٣٨٣؛ أبو الفدا، **المختصر في أخبار البشر**، مج١، ج١، ص١١٤– ١١٥؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، ج١، ص٦١، ٦٣– ٦٦؛ ابن الوردي، **تتمة المختصر**، ج١، ١٣، ١٥؛ اليافعي، **مرآة الجنان**، ج١، ص١٥٤؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج٢، قسم٣، ٧١٣– ٧١٤؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١، ص ٤٨٥؛ الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص٤٧– ٥٠؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص ٤٩٧– ٤٩٨؛ السراج، **أنس الساري والسارب**، ص٨٠– ٨١؛ النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٤٤٣– ٤٤٤؛ إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٢٦٨– ٢٦٩؛ علي فكري، **خلاصة الكلام**، ص٢٩٥؛ غلام مهر، **يوميات رحلة في الحجاز**، ص ٧٦؛

M. G. Demombynes, *Le Pèlerinage à la Mekke*, p. 27- 29, 33.

W. M. Watt, "Makka", *EI*$_2$, vol.VI, p.143.

(٣) الأزرقي، **أخبار مكّة**، ج٢، ١٣٠– ١٣١؛ العبدري، م. س.، ص٤١٥– ٤١٦؛ الحميري، م. س.، ص١٩٠؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص١٧١.

والراجح أنّ آدم هو أوّل من بنى البيت الحرام، دلّ على ذلك حديث الرسول، حيث سـألـه أبو ذرّ الغفاريّ فقال:- سألت رسول الله فقلت: يا رسول الله، أي مسجد وضـع فـي الأرض أوّل؟ قال: المسجد الحرام، قلت: ثم أيّ؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم بينهما ؟ قال أربعون سنة.(١).

ولم يكن على عهد الرسول وأبي بكر الصدّيق جدارٌ يحيط به، فضيّق النّاس على الكعبـة، وألصقوا دورهم بها. وعندما تولّى عمر وكثر النّاس، وسّع المسجد واشترى دورًا هدمها وزادهـا فيها، واتّخذ للمسجد جدارًا قصيرًا دون القامة توضع عليه المصابيح. وكان عمر أوّل مـن اتّخـذ جدارًا للمسجد، وعندما تلاه عثمان بن عفان ابتاع منازل أخرى، فوسع بها المسـجد، وبنـى فيـه أروقةً، وهو أوّل من قام بهذا الأمر. ثم وسّع الوليد بن عبد الملك المسجد، وحمـل إليـه أعمـدة الحجارة والرخام، وبعده زاد المنصور في المسجد، ثم زاد فيه المهـديّ أيضًـا، واسـتقرّ بنـاؤه يومئذٍ(٢).

تلك صورة المسجد الحرام زمن الرسول والخلفاء والملوك، وما أدخل عليه من تحسـينات وتوسّعات وزيادات، حتّى مجيء المماليك.

وقد تتبادر تساؤلات كثيرة إلى الذهن حول مكّة، منها: ما سرُّ هذه المدينة العجيبـة الّتـي تهوي إليها أفئدة المسلمين في جميع بقاع الأرض؟! هل هي إحدى المدن الرائعة الّتي شـيَّد فيهـا أثرياء الملوك قصورًا زاهرةً، وجمعوا فيها النفيس من كنوز الفن؟! وهل هي إحدى مدن التجـارة الكبرى الّتي تطلُّ على البحر وتمتدُّ في البرّ، وتتدفق عليها الثـروات العالميّـة، أو هـي قاعـدة إمبراطوريّة قويّة أخضعت جيوشها جميع الشعوب المجاورة؟!

الواقع، أنّ الأمر ليس كذلك، فمدينة مكّة هي أمحل بقاع الأرض وأكثرها حرمانًا، فلم تكن في غابر الدهر تملك أسباب الثراء والقوة، وإنما يكمن سرّ عظمتها في أنهـا تحتضـن بيـت الله الحرام، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ﴿٩٧﴾ ﴾(٣). وقـد علت منزلتها دون سواها، لأنها كانت أحبّ بقاع الأرض إلى قلب النبيّ محمّد.

هذا غيضٌ من فيض فضائل مكّة الّتي شرّفها الله وفضّلها على سائر البلاد.

---

(١) رواه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم الحديث ٥٢٠، ج١، ص ٣٧٠.

(٢) الماوردي، **الأحكام السلطانية**، ص٢٠٥– ٢٠٦؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٥، ص ١٢٤؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، ج١، ص٧٢؛ السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص٢٤١؛ النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص ٤٤٥.

(٣) سورة آل عمران، ٣/٩٦– ٩٧.

أما عن علاقة مكّة مع المدينة، فقد تأرجحت تبعًا للعلاقة بين أشراف المدينة وأشراف مكّة خلال العهد الأيوبي، فكانت أحيانًا تتّسم بالجفاء، وأحيانًا بالعداء وفي أواخر القرن السادس الهجري/الرابع عشر الميلادي، حدث تطوُّرٌ كبير في مكّة، حين استولى أحد أشراف ينبع، وهو الشريف قتادة بن إدريس الحسني، صاحب مكّة وينبع، عليها، غير أن الأمر لم يستتبّ له تمامًا إلا بعد وفاة مكثر بن عيسى سنة ٦٠٠/١٢٠٣[١].

وبعد أن استقرت له الأوضاع، بادر بمهاجمة المدينة سنة ٦٠١/١٢٠٤[٢] فخرج له أميرها سالم بن قاسم الحسيني وتصدّى له، غير أن شريف مكّة تمكّن من هزيمته ومحاصرة المدينة لعدّة أيّام، إلا أن ميزان القوى مال لصالح أمير المدينة بعد أن تمكّن من استمالة بعض قادة جيش قتادة، كما تلقّى مددًا من قبيلة بني لام[٣].

يتّضح أنّ المواجهة بين أمير المدينة وشريف مكّة لم تحسم لصالح أيٍّ منهما، وبعدها اتّسمت السنوات العشر التالية بالهدوء والاستقرار النسبي في العلاقة بين الطرفين، رغم ما شاب فترتها الأخيرة من توتّر، فقد أوضحت أحداث حجّ سنة ٦١١/١٢١٤ مدى توتّر العلاقات بين الطرفين، فحينما رافق أمير المدينة الملك المعظّم عيسى بن العادل الأيوبي أمير دمشق إلى مكّة في تلك السنة، عومل سالم بن قاسم معاملةً سيّئةً من قبل قتادة، كما حاول أمير مكّة القبض عليه فلم يفلح، لوجوده مع المعظّم عيسى الذي صحبه معه إلى دمشق[٤]. وفي السنة التالية ٦١٢/١٢١٥، انتهز قتادة فرصة وجود سالم في دمشق، فهاجم المدينة غير أن أهلها دافعوا عنها، ما اضطرّه لفك الحصار والعودة لمكّة، وحينما علم سالم بأمر الهجوم، بادر بطلب الدعم من الملك المعظم عيسى الذي أمدّه بقوّةٍ زحفت على مكّة ودخلتها ما اضطرّ قتادة للانسحاب إلى البادية[٥].

بعد هزيمة قتادة انسحب إلى مكّة، وحاول أمير المدينة في السنة التالية الاستيلاء على جدّة باعتبارها بوابة مكّة، غير أنه فشل في مهمّته بعد أن لحقت به الهزيمة في الحميمة[٦] سنة ٦١٣/١٢١٦[٧]، وفي السنوات التالية بين ٦١٥/١٢١٨- ٦١٧/١٢٢٠، أصبح زمام المبادرة بيد الشريف قتادة الّذي حاول الاستيلاء على المدينة، غير أنه فشل في تلك المحاولات، ثمّ اغتيل على

(١) الفاسي، **العقد الثمين**، ج٧، ص٤٠.

(٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٢، ص٢٠٥.

(٣) الفاسي، م. س.، ج٧، ص٤١.

(٤) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص٦٧؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٢١١.

(٥) الفاسي، م. س.، ج٧، ٤٢.

(٦) الحميمة: قرية ببطن مرّ من نواحي مكّة بين سروعة والبريراء فيها عين ونخل. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ٣٠٧.

(٧) الفاسي، م. س.، ج٧، ص٤٥.

يد ابنه الحسن سنة ١٢٢٠/٦١٧، فخلفه في منصب الإمارة، غير أنَّ مكّة دخلت مرحلة جديدةً من تاريخها تمثّلت بالصراع السياسي بين أبناء قتادة، كما كانت مكّة أيضًا مجالاً للتنافس السياسي بين الأيوبيين والرسوليين، ودخل أمراء المدينة طرفًا في ذلك التنافس بانضمامهم إلى الأيوبيين، ففي سنة ١٢٣٢/٦٢٩، تدخَّل أمراء المدينة في الصراع السياسي لصالح الأيوبيين ضدّ أحد أبناء قتادة المدعوم من الرسوليين حكّام اليمن[١]. ويظهر أن التنسيق والدعم الذي تلقاه أمراء المدينة من بني أيوب قد شجّعهم على مهاجمة مكّة في السنوات ١٢٣٩/٦٣٧– ١٢٤٠/٦٣٨– ١٢٤١/٦٣٩، فقد أرسل الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل الشريف شيحة بن هاشم أمير المدينة إلى مكّة على رأس جيش سنة ١٢٤٠/٦٣٨، فاشتبك مع عسكر الملك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن، فخرج عسكر المنصور، واستولى شيحة على مكّة، غير أنَّ ملك اليمن ما لبث أنْ أرسل جنده إلى مكّة وعليهم الشريف راجح بن قتادة، فأخرجوا العسكر الأيوبي منها[٢].

وفي أعقاب حوادث سنة ١٢٤١/٦٣٩، انشغل كلاهما بنزاعاتهما الداخليّة، كما اصطدم أشراف مكّة مع الرسوليين حكّام اليمن الّذين كانوا يحاولون مدّ نفوذهم إليها، مستغلّين ضعف الدولة الأيوبيّة ثمّ انهيارها سنة ١٢٥٠/٦٤٨.

وزيادةً في تعظيم مكّة وإجلالها، أعطى الرحّالة إيضاحات تفصيليّةً عن حدودها، ومنهم: ابن بطّوطة الذي وصل إليها حاجًا فقال: مكّة مدينة متصلة البنيان تمتدُّ في بطن وادٍ تحفُّ به الجبال، فلا يراها قاصدها حتّى يصل إليها، والأخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس، وجبل قعيقعان، وشمالها الجبل الأحمر. ولمكّة ثلاثة أبواب: باب المعلّى، وباب الشبيكة، وباب المسفل[٣] .

ثمَّ جاء بعده الجزيري، فرسم معالم مكّة على النحو الآتي: تقع مدينة مكّة بين جبال صمّاء، طولها من جهة الجنوب إلى الشمال نحو ميلين، حيث تدخل حدود الحرم منطقة مساحتها حوالى عشرة أميال، وقد تمَّ وضع علامات في كلِّ اتجاه تبيِّن حدود الحرم يقال لها:"علمين"[٤] .

أ- ثروة مكّة المائيّة في العصر المملوكي

قبل الحديث عن ثروة مكّة المائيّة في العصر المملوكي، لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ مياه هذه الآبار لا تنبع من الأرض، إنما يتمُّ جمعها من السّيول والأمطار، حيث تتفاوت كميَّة الأمطار من

---

(١) الفاسي،**العقد الثمين**، ج ٥، ص٦٤ – ٦٥.

(٢) عبد الرحمن مديرس المديرس، **المدينة في العصر المملوكي**، ٦٥ – ٦٦.

(٣) ابن بطوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص٨٠؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص٢١٤؛ فارتيما Varthema، **رحلات فارتيما**، ص٥١.

(٤) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٥٦٧؛ غلام مهر، **يوميات رحلة في الحجاز**، ص٦٣– ٦٤، W. M. Watt, "Makka", *EI₂*, vol. VI, p.142-143.

سنة إلى أخرى، ومن موقع إلى آخر. ولا توجد أنهار دائمة الجريان، بل توجد أودية سيلية تجري بالمياه عقب سقوط الأمطار، ثم لا تلبث أن تجف. وبسبب كثرة وفود الحجّاج لبيت الله الحرام. وقلة مياه الآبار بمكّة، فقد تضافرت مساعي أهل الخير ومدت يد المساعدة لدفع هذه الحاجة عن الحجّاج وعن أهل بيت الله. وحظيت مكّة والمشاعر المقدّسة باهتمام الخلفاء والملوك والسلاطين وأمراء المسلمين بل وأعيانهم بتوفير المياه، وحفر الآبار والبرك فيها خدمة لحجّاج بيت الله الحرام ولأهلها.

١- آبار مكّة

حرص المماليك على توفير الماء على طول الطريق إلى الحجاز وعملوا على حفر الآبار وصيانتها وجعلها صالحة لخدمة المسلمين، في المواضع الّتي كانت تصادف ركب الحجّ في أماكن ومحطّات استراحة الحجّاج للتزوّد منها بما يلزمهم من الماء العذب. ولعلّ في مقدّمة الآبار **بئر زمزم**. لا بد هنا من التطرق إلى الحديث عن بئر زمزم نظرًا إلى أهميّته الكبيرة لسكّان مكّة بصفة خاصة والحجيج بصفة عامّة، وهوعنصر مهم داخل المسجد الحرام في مكّة، وذلك لما يحمله من معان دينيّة، فنشأته تعود إلى أنه لما قدم النبي إبراهيم إلى مكّة مع زوجته هاجر وابنهما إسماعيل وانزلهما موضعًا قرب الكعبة الّتي لم تكن قائمة آنذاك ومن ثم تركهما لوحدهما في ذلك المكان ولم يكن مع هاجر سوى حافظة ماء صغيرة مصنوعة من الجلد سرعان ما نفدت وودعهما وغادر ولم يلتفت إلى هاجر بالرغم من ندائها المتكرر لكنه أخبرها أن ما فعله هو بأمر الله فرضيت وقرت ومضى إبراهيم حتى جاورهما مسافة وأدرك أنهما لا يبصرانه دعا ربه[1] فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾[2]. بعد نفد الماء استهل الطفل بالبكاء، ولم تكن أمه تطيق رؤيته يبكي فصدت عنه كي لا تسمع بكائه، وذهبت تسير طلبًا للماء فصعدت جبل الصفا ثمّ جبل المروة ثمّ الصفا ثمّ المروة وفعلت ذلك سبع مرات تمامًا كما السعي الذي شرع من بعدها، فلما وصلت المروة في المرة الأخيرة سمعت صوتًا فقالت أغث إن كان عندك خير، فقام صاحب الصوت وهو جبريل بضرب موضع البئر بعقب قدمه فانفجرت المياه من باطن الأرض ودلّت هاجر تحيط الرمال وتكوّمها لتحفظ الماء وكانت تقول: وهي تحثو الرمال زم زم، زم زم، فسميّت زمزم[3]، فظهور ماء زمزم جذب النّاس للاستيطان حوله لكن لما استخفت قبيلة جرهم بحرمة البيت العتيق، حبس ماء زمزم وطمرت موضع البئر لعدة قرون، نتيجة لتأثير بعض عوامل الطبيعة

---

(١) الأزرقي، أخبار مكّة، ج١، ص ٥٤.

(٢) سورة إبراهيم، ٣٧/١٤.

(٣) الأزرقي، م. س.، ج١، ص ٥٥- ٥٦.

كالسّيول وغيرها عبر العصور. حتى حفرها عبد المطلب جد الرسول وصيّرها سقاية للحجيج، ولما جاء الإسلام اهتمَّ المسلمون بأمر بئر زمزم، وخاصّةً بعد أن أقر الرسول لعمه العباس على سقاية النّاس والحجيج منها. وذلك بالاهتمام بتنظيفها، وإنشاء بناء عليها، يمكن عن طريقه تسهيل الحصول على الماء فضلاً عن تهيئة المكان الملائم لجلوس المشرف عليها، والعمل على زيادة حفر البئر وتعميقها[١]. وقد جرى بعد ذلك العديد من الإصلاحات والترميمات من أهم هذه الإصلاحات ما تم في عصر المماليك في عهد السلطان الناصر: فرج بن برقوق عقب حريق أصاب المسجد الحرام في ليلة الثامن والعشرين من شوال سنة ١٣٩٨/٨٠٢ كما عمّرت قبة زمزم سنة ١٤١٣/٨١٥ على يد قاضي مكّة جمال الدين محمد بن أبي ظهيرة[٢]. إضافة إلى بئر زمزم اشتملت مكّة وحرمها على جملة من الآبار، بلغ عددها ثماني وخمسين بئرًا، وكلّها مسيلة، إلا البئر الّتي في بيت المطيبين بأعلى مكّة، والبئر الّتي في بيت زين الدين شكر، مولى الشريف حسن بن عجلان، والبئر الّتي في بيت أحمد بن عبد الله الدوري الفراش، بالحرم المكيّ. ومن الآبار المعروفة بمكّة: البئر الّتي برباط السدرة، وتعرف بسجلة، وبئر ميضأة الّتي جدّدها السلطان الأشرف شعبان قبالة باب عليّ بالحرم سنة١٣٦٤/٧٧٦، وقد عمّرها جدّه الملك الناصر محمّد بن قلاوون سنة ١٣٠٦/٧٠٦، كما أنّ بأجياد عدّة آبار، وبالحزامية بأسفل مكّة عدّة آبار، وبالحجارية من المسفلة عدة آبار. كما أن بين باب مكّة المعروف بباب الشبيكة والتنعيم ثلاثًا وعشرين بئرًا، منها بئر المنصور ملك اليمن عند سبيله وتعرف بالزاكية. وقد حرص الظاهر برسباي على تجهيز العمّال وأهل المعرفة بالبناء في ربيع الآخر سنة ١٤٣١/٨٣٤،لإصلاح الآبار وأماكن المياه الّتي في طريق الحجاز، كما اهتمَّ القاضي عبد الباسط ناظر الجيش، بحفر بئرين في عيون القصب من طريق مكّة[٣].

تلك الآبار على الرّغم من كثرتها، إلا أنها كانت في موسم الحجّ أحيانًا لا تفي بالحاجة المطلوبة بسبب تعطّلها، أو عدم تنظيفها ممّا علق فيها من الرواسب أيام الشتاء، رغم حفر آبار جديدة من قبل سلاطين المماليك.

---

(١) الأزرقي، **أخبار مكّة**، ج١، ص ٢٦٧؛ عزة شاهين، **خدمات الحج في الحجاز خلال العصر العثماني**، ص ٢٦٢.

(٢) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ٩٢.

(٣) الفاسي، **شفاء الغرام**، ج٢، ص١٢٠– ١٢٣، ١٢٧؛ المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص٨٦٠؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٨، ص٢٢٧– ٢٢٨؛ ابن الضياء، **تاريخ مكّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، ص ٢٠٨– ٢٠٩؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٣٩– ١٤٠؛ راشد القحطاني، **أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين**، ص٥٧.

٢- سِقايــات مكّــة

السّقاية أصلها حياض من آجر كانت توضع على عهد قصي بن كلاب وتملأ ماء للحجّــاج وكان قصي يسقى اللبن المحيَّض. ويسقي الماء المنبوذ بالزبيب أيضًا حتّى مات فقام بالسقاية بعــده ابنه هاشم ثمَّ أخوه المطلب ثمَّ آلت من بعد المطلب إلى أخيه عبد المطلب. وكان يسقي لبنًا وعســلاً في حوض من آجر عند زمزم ثمَّ قام بها العباس بن عبد المطلب بعد أن ولاه الرسول عليها وبقيت مع أولاد العباس من بعده[١].

اشتملت مكّة على عدة سِقايات تسمى أيضًا سبلاً، وهي كثيرة، فمن ذلك السبيل الّذي يقــال له سبيل الستّ، وهو مشهور بطريق منى، والست المنسوب إليها عمارته، هي أخت الناصر حسن سلطان مصر، وتاريخ عمارتها له سنة ٧٦١/١٣٦٠. ومنها سبيل السيدة زينب بنت القاضي أحمد الطبري، أنشأته صدقةً عن أخيها سنة ٧٦٥/١٣٦٤، وهو الآن معطَّل، ومنها سبيل أنشأه القاضــي زين الدين عبد الباسط ناظر الجيوش سنة ٨٢٦/١٤٢٣ بالمعلاة. ومنها في خارج مكّة من أعلاها، سبيل عطيّة بن ظُهَيرة بأعلى مكّة، جدّده القاضي أبو السعادات بــن ظهيــرة فــي أوائــل ســنة ٨٥٦/١٤٥٢، والسبيل الّذي أنشأه الشريف حسن بن عجلان، سلطان الحجاز برباطه. وقد أصلحت السواقي في مناهل الحجّ، فعمّر ما فسد منها الأمير علاّن الدوادار الثّاني سنة ٩١٣/١٥٠٧[٢].

وقد برز اهتمام واضح بالسِقايات من قبل المماليك، حتّى شمل مشاركة النساء لعلَّ ذلك يسدُّ النقص الحاصل في الموسم. ويوجد في فجاج مكّة وشعابها من باب المسجد إلى منــى ونواحيهــا ومسجد التنعيم نحوٌ من مائة سقاية. ورغم هذا العدد من السقايات، إلا أنه كان أحيانًا لا يفي بحاجة الحجيج إذا حلَّ الموسم في فصل القيظ.

٣- بــرك مكّــة

أما عن أهميَّة البرك، فقد اقتضت الحاجة ببنائها لاستعمالها في الأغراض الدينيّة. وهــي: لتخزين مياه الأمطار في أطراف الأودية، ولسقاية الدواب الّتي كانت هي الوسيلة الوحيــدة للنقــل آنذاك[٣]، وتضم مكّة عدة برك يقال لها المصانع، منها: بركتان عند باب المعلاة متلاصقتان، جدّدتا في دولة سلطان مصر الناصر حسن سنة ٧٤٩/١٣٤٩، وعمّرتا بعد ذلك عدة مرّات، منها في سنة ٨٢١/١٤١٨، ومنها بركتان كانتا معطّلتين، فعمِّرت إحداهما بأمر من الشهاب بركوت بن عبد الله المكيني، في النصف الثّاني من سنة ٨١٣/١٤١١، وفسقية ماء برسم الحجّاج، وقد بناها القاضــي

---

(١) الأزرقي، **أخبار مكّة**، ج٢، ص ٤٤، ٤٤٦؛ عزة شاهين، **خدمات الحجّ في الحجاز خلال العصر العثماني**، ص ٢٥٣.

(٢) الفاسي، **شفاء الغرام**، ج٢، ص ١١٦- ١١٨؛ ابن الضياء، **تاريخ مكّة المشرّفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، ص ٢٠٦- ٢٠٧.

(٣) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص ٣٢٩.

عبد الباسط ناظر الجيش سنة ١٤٢٥/٨٢٨. وبأسفل مكّة بركة باب الماجن، وقد جدّدها السيد حسن ناظر الإسكندرية في سنة ١٤٤٥/٨٤٨، وبحرم مكّة مما يلي منى وعرفة، عدّة برك بعضها عُمّـر في دولة سلطان مصر الأشرف شعبان[1].

والرّاجح أنّ تجديد عمارة البرك وتشييدها، يكشف مدى رعاية سلاطين المماليـك لأمـور الحجّ والحجّاج، تجنّبًا لانتشار الأمراض، وتحسين الأوضاع الصـحيّة، وتسـهيل التحـرك لأداء الشعائر الدينيّة.

٤- عيـون مكّـة

تشتمل مكّة على عيون تُعَدُّ من الآثار الجميلة التي لم يكن في الإسلام مثلها، منها: العـين المعروفة بعين المشاش بالحجاز، حيث إن زبيدة زوجة هارون الرشيد حفرتها ومهّـدت الطريـق لمائها وأخرجتها من مسافة اثني عشر ميلاً إلى مكّة. وهذه العين في غالـب الظـنّ عـين مكّـة المعروفة بعين بازان. وقد عمَّر هذه العين جماعةٌ من الخلفاء والملوك، منهم المستنصر العباسـي عدّة مرات، منها في سنة ١٢٢٨/٦٢٥، ثم سنة ١٢٣٦/٦٣٤، وعمَّرها الأمير جوبان نائب السلطنة بالعراق عن السلطان أبي سعيد بن خرابنده ملك التتار سنة ١٣٢٦/٧٢٦.

وأُعيدت عمارتها عدّة مرات، فشيدها الشريف حسن بن عجلان سنة ١٤٠٩/٨١١، ثم قـلّ ماؤها، وبقي النّاس بمكّة في شدّة بسبب ذلك، فتطوّع السلطان المؤيد أبو النصر بألفي مثقال ذهبًـا لعمارة هذه العين، وأوفد القايد علاء الدين لعمارتها، حتى وصل الماء إلى مكّة سنة ١٤١٨/٨٢١.

ومن العيون الّتي أجريت بمكّة سنة ١٣٢٨/٧٢٨، عينٌ أجراها السلطان الناصر محمَّد بن قلاوون في مجرى عين بازان، ومنها عين أجراها الأمير المعروف بالملك نائب السلطنة بمصر في سنة ١٣٤٥/٧٤٥ من منى إلى بركة السلم بطريق منى.

وفي سنة ١٤٣٢/٨٣٥، أجريت العين حتّى دخلت إلى مكّة، بعدما ملأت البرك داخل باب المعلاة، ومرّت على سوق الليل فالصفا، وانتهت بباب إبراهيم وكثر الخير، لشدّة احتيـاج النّـاس والحجّاج بمكّة إلى الماء، وقلّته أحيانًا وغلاء سعره[2].

ويبدو أن سلاطين المماليك ساهموا في تشييد العيون وترميمها في نطاق واسع، من أجـل تخفيف عطش الحجيج، ومنع انتشار الأمراض والأوبئة الّتي قد تصيب الحجّاج من جـرّاء نقـص المياه، ولا سيّما أنّ العيون تُعَدُّ الشريان الحيوي لضيوف الرحمن، وكلّما كثر عددها ذهب الظمـأ،

---

(١) الفاسي، **شفاء الغرام**، ج٢، ص ١١٩- ١٢٠؛ المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص ٧٦٩؛ ابن الضياء، **تاريخ مكّة المشرّفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، ص ٢٠٧؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص ١٠١، ١٢٩.

(٢) الفاسي، م. س.، ج٢، ص ١٢٨- ١٣١؛ المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٢، ص٨٧٠؛ ابن الضياء، م. س.، ص ٢١٠- ٢١١.

وارتوت العروق، ونشط الحجّاج، ومهما زادت العيون وضخمت، فإنها قد لا تفي بالحاجة خـــلال الموسم إذا لم يتم تنظيفها، وإصلاح ما تهدّم منها.

٥- مطاهــر مكــة

ومن ثروة مكّة المائيّة أيضًا المطاهر فأعظمها نفعًا مطهرة الســلطان الناصــرمحمّد بـــن قلاوون، عند باب بني شيبة عُمّرت سنة ١٣٢٨/٧٢٨، ومطهرة الأمير صرغتمش الناصري، بنيت سنة ١٣٥٨/٧٥٩، وأديرت سنة ١٤٠٤/٨٠٨، وبعد ذلك عمَّرها الأميـــر مقبــل البديــدي ســـنة ١٤٣٠/٨٣٣، ومنها مطهرة السلطان الأشرف شعبان بن حسين بالمسعى قبالة باب المسجد الحرام سنة ١٣٧٤/٧٧٦. وعُمّرت مطهرة الأمير الطنبغا سنة ١٣٦٩/٧٧٠، وأما مطهرة الأميـــر زيـــن الدين بركة عثماني فشيدت سنة ١٣٧٩/٧٨١، ومطهرتان بالصفا: واحدة للرجال والأخرى للنســـاء أمرت بإنشائهما خوند بنت ابن خصبك زوجة السلطان الأشرف إينال في سنة ١٤٦١/٨٦٥(١).

إنّ بناء المطاهر وتجديدها وتنظيفها، بإزالة ما هو فاسد وملوَّث، والقضاء على الحشرات، ورفع ما ترسَّب وتجمَّع من الأوساخ، ازداد في عصر المماليك، ما يظهر مدى رعايـــة ســـلاطين المماليك لشؤون الحجّ، خصوصًا النواحي الاجتماعيَّة؛ فإزالة العوائق، وتوفير الســـلامة والصـــحة لأصحاب الفريضة، ينشر الاطمئنان في النفوس، ويشجِّع على الإقبال على الموسم بأعداد ضخمة.

ولعلَّ المماليك أدركوا أنَّ حفر الآبار، وإنشاء السقايات، وتجديد البرك وتشييدها، يؤدّي إلى نجاحهم في بسط السلطة الدينيّة والسياسيَّة على الحرمين، وتخفيف حدَّة المشكلات الّتـــي تحصـــل للحجّاج من جرّاء العطش أو النزاع الذي ينشب بين المماليك وأمراء مكّة والمدينة.

ب – مراكز مكّـــة الدينيّـــة في العصر المملوكي

تميّزت مكّة بمراكزها الدينيّة، ولا سيّما المسجد الحرام والكعبة اللّذان يقصدهما الحجّاج من كلّ حدب وصوب لقضاء مناسكهم، حيث يقفون بين يدي الله تعالى سواسيةً بالثياب البيضاء للظفر بمغفرته ورحمته ورضاه.

١- المسجد الحرام في العصـــر المملوكـــي

حرص سلاطين المماليك على الاهتمام بالمراكز الدينيّة الّتي يتوجَّه إليها الحجّـــاج خـــلال الموسم، وتوفير الراحة والطمأنينة لهم عن طريق إصلاح ما تهدَّم، وترميم الأماكن الّتي تســـتوجب زيارتها، وتأدية المناسك فيها، ولا سيّما المسجد الحرام.

---

(١) الفاسي، **شفاء الغرام**، ج٢، ص١٣١– ١٣٣؛ ابن الضياء، **تاريخ مكّة المشرّفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، ص ٢١٢؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٤، ص٥٢.

(١)- تجديدات المسجد الحرام في العصـــر المملوكـــي

جدَّد المظفَّر يوسف بن عمر بن علي بن رسول ملك الـيمن سـنة ١٢٨٤/٦٨٣ عمـارة العلمين اللّذين هما حدّ الحرم من جهة عرفة[١]، كما حظيت الأماكن الدينيّة بنصيبها مـن رعايـة سلاطين المماليك، ولا سيّما المسجد الحرام الّذي عمِّرت صفوفه بمكّة، وكـذلك الأبـواب، وشـيّد ظاهره مما يلي باب بني شيبة، وتمّ هذا الإنجاز فـي عهـد الناصـرمحمّد بـن قـلاوون سـنة ١٣٢٨/٧٢٨[٢].

وبعد ذلك، تمّ تجديد الحلقة العلميّة بالمسجد الحرام سنة ١٣٤٧/٧٤٧، حيـث درّس فيهـا الشيخ فخر الدين النويري المالكي، وأدخلت يوم عرفة تحسينات على طبلخانه خليلية، حيث تـركن زاوية باب المسجد الشرقي[٣].

وعمد سودون باشاه دوادار خلال إقامته في مكّة إلى بناء المسجد وتشـييد عـين عرفـة، وحصل ذلك في الثّامن عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٧٩/٧٨١[٤].

والرّاجح أنّ حركة بناء ما تدمّر من المسجد الحرام تواصلت من قبل المماليـك، فانـدفع الأشرف برسباي ليطلب من مقبل القديدي السفر إلى مكّة في جمـادى الأول سـنة ١٤٢٢/٨٢٥، للاضطلاع بهذه المهمّة النبيلة[٥].

واستمرّ نشاط المماليك في العمل من أجل ترميم المسجد الحرام وإصـلاحه، ففـي سـنة ١٤٣٥/٨٣٨، أمر برسباي أن تنقل من مصر إلى مكّة كميّات من الرّخام قدّرت بسـتين ذراعًـا لمرمرة الحجر وشاذروان البيت. وأُرسِلَ من الجبس خمسون حملاً، لبياض أروقة المسجد، وجُهِّـز من الحديد عشرة قناطير لتثبيت المسامير، وأربعون قطعة خشب لشدّ أروقة المسجد الحرام[٦].

وساهم السلطان قايتباي أيضًا سنة ١٤٦٩/٨٧٤ بتوسيع أعلام الحرم عمّا كان قبل ذلـك، وجعل في الوسط مصلّى الرسول، وبنى دارًا على جانبه يسكنها أمير الحجّ أيام منى[٧].

---

(١) عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، **الحرم المكّي الشريف والأعلام المحيطة به**، ص٥٣.

(٢) الجزري، **تاريخ حوادث الزمان**، ج٢، ص٢٦٢؛ المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم١، ٢٩٠؛ السـيوطي، **تـاريخ الخلفـاء**، ص٤١٨؛ القرماني، أخبار الدول، ج٢، ص٢٠٨.

(٣) ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج٢، ج١، ص ٤٨٣.

(٤) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم١، ص٣٥٧؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج١، ص٣٠١؛ ابن تغري بردي، **النجـوم الزاهـرة**، ج١١، ص١٧٠- ١٧١.

(٥) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص٤٨٤؛ ابن حجر، م. س.، ج٧، ص٤٥٥.

(٦) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٢، ص٩٣٦.

(٧) عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، م. س.، ص ٥٣.

وهكذا يبدو بوضوح، أنّ حركة البناء والترميم كانت متواصلة خلال العصر المملوكي من جرّاء الإنجازات والترميمات والإصلاحات الّتي أدخلها سلاطين المماليك، ولا سيّما الناصر محمّد بن قلاوون وبرسباي.

(٢)- أهميّة المسجد الحرام

أشار ابن تيميّة[1] إلى أنّ المسجد الحرام يُعَدُّ من أفضل المساجد، ويليه مسجد الرسول، فالمسجد الأقصى. وقد ثبت في الصحيحين عن الرسول أنه قال: "صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام"[2].

وهكذا، تبدو أهميّة المسجد الحرام واضحةً من خلال حديث الرسول الّذي فضّله وعظّمه على غيره من المساجد.

(٣)- مشيخة المسجد الحرام

عندما سقطت الخلافة في بغداد سنة ١٢٥٨/٦٥٦، وأعيد إحياؤها في مصر سنة ١٢٦٠/٦٥٩، حاول أوّل خلفاء هذا العهد ممارسة مهامّ أسلافه، فعيّن في مشيخة الحرم المكّي اثنين من أعيان مكّة، وعهد إليهما بالنظر في أمر الأوقاف والأربطة، وإظهار شعار الخلافة بمكّة. وظلّ منصب الحرم المكّي على أصله العباسي في أغلب الأحيان، ولكثرة الترميمات والتجديدات الّتي تمّت في المسجد الحرام طيلة العصر المملوكي، فقد اقترن منصب شيخ الحرم بمنصب ناظره الّذي كان من اختصاصه ما يلي:

- القيام بأعمال العمارة في الحرم المكّي، والإشراف على جميع الإصلاحات.
- إصلاح العيون والآبار الّتي يشرب منها أهل مكّة.
- عمارة الأسبِلة وترميمها.
- ترميم المساجد الكائنة بمشاعر الحجّ.
- ترميم الأربطة، والمطاهر، والمدارس.

---

(١) ابن تيميّة، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، الإمام شيخ الإسلام. ولد في حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر. وطلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعة من أهلها فسجن مدّة، ونقل إلى الإسكندرية. ثمّ سرّح فسافر إلى دمشق سنة ١٣١٣/٧١٢، واعتقل بها سنة ١٣٢٠/٧٢٠ وأطلق، ثمّ أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق. كان كثير البحث في فنون الحكمة، آية في التفسير والأصول. أما تصانيفه منها **الجوامع في السياسة الإلهية والآيات النبويّة**، ويسمى **السياسة الشرعيّة والفتاوى والجمع بين النقل والعقل**. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٢٧١؛ الزركلي، **الأعلام**، ج١، ص ١٤٤.

(٢) ابن تيمية، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، مج٢٧، ص ٧؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٥٧٠.

ومن الّذين شغلوا منصب الإمامة خلال موسم الحجّ عندما دخل الرحّالة ابن بطّوطة مكّة سنة ١٣٢٧/٧٢٧، أبو عبد الله محمّد بن أبي زيد، وهو من كبار أهل مكّة وقطبها بإجماع الطوائف. ومن صفاته الأخلاق الحسنة، والشفقة على الضعفاء.

أما خطيب مكّة ووحيد زمنه بمقام إبراهيم في عصر المماليك، فكان بهاء الدين الطبري، أحسنهم بلاغةً وبيانًا[١].

(٤)- أميـر مكّـة

وكان من يتولّى الإمارة يكتب له تقليد من قبل السلطان المملوكي.

وهذه نسخة تقليد بإمرة مكّة: كتب بها عن السلطان الناصر محمّد بن قلاوون لأسد الدين رميثة بن أبي نمي بإمرة مكّة عوضًا عن أخيه عطيفة سنة ١٣٣١/٧٣١، وهي:

الحمد لله الحكيم: فالشريف من اتّبع أوامره، العظيم: فالسعيد من اتّقى غضبه بأعماله الزاكية ونيّاته الطاهرة: فالفائز من سلك مراضيه في الدنيا ليأمن في الآخرة.

وكانت مكّة المعظّمة هي أمّ القرى، نشأ الإسلام في بطحائها، وحرّمهما الله، فلا ينفر صيدها، ولا يعضد شجرها...

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه إمرة مكّة، على عادة والده.

هذا تقليدنا لك أيّها الشريف فطب نفسًا بمراضينا، وصفحنا عمّا مضى، ومنحنا الرضا حقًّا يقينًا[٢] .

كانت إمرة مكّة خلال انتقال ابن بطّوطة إليها للسيدين الأخوين: أسد الدين رميثة، وسيف الدين عطيفة، ابني الأمير أبي نمي بن أبي سعد بن قتادة الحسنيين، من أتباع الحسن حفيد الرسول. ورغم أنّ رميثة كان أكبرهما سنًا، إلاّ أنّ اسم عطيفة هو الّذي كان يقدّم في الدعاء له في مكّة. وذلك لاستقامته وعدله[٣].

علاوةً على إمام مكّة وخطيبها وأميرها، فقد ضمّ المسجد مباشري عمارة الحرم، والفراشين، والسقّائين، والبوّابين، ووقّاد المشاعل، وهؤلاء جميعًا كانوا يتقاضون رواتب ومخصّصات يحدّد قيمتها السلطان المملوكي[٤].

وهكذا حظي المسجد الحرام باهتمام المماليك، فأنفقوا أموالاً كثيرة من أجل إصلاحه، وترميمه، وتشييده، حتّى أصبحت صورته مميّزة عن السابق، وذلك نتيجة التحسينات الّتي أدخلت

---

(١) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٩٢.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص ٢٢٨– ٢٣١.

(٣) ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص ٩١– ٩٢.

(٤) راشد القحطاني، **أوقاف السلطان شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين**، ص١٠٢– ١٠٣، ١٠٥.

عليه، ولا سيّما أيّام الناصر محمّد بن قلاوون. ونال المسجد الحرام أيضًا رعايةً من الرحّالة الذين قصدوا أمّ القرى لأداء الشعائر؛ فتناولوا موقعه، ومساحته، وشكله، وأبوابه، وصوامعه، وأساطينه، بدقّة رائعة، ما يظهر شغفهم ببلاد الحرمين وحبّهم الكبير لها.

وقد ترك هؤلاء الرحّالة إرثًا عظيمًا في أهميّة المقامات الدينيّة الّتي يتوافد إليها سنويًّا ضيوف الله، متجاوزين العوامل الطبيعيّة الصعبة إن حلّ الموسم صيفًا أو شتاءً، مندفعين بنشاط وإيمان ونيّة صادقة لإرضاء الله والحصول على شفاعة الرسول. وتجدر الإشارة، إلى أنّ المسجد الحرام على بساطة بنائه في ذلك الحين، كان عظيم الشأن، وليس في الدنيا قاطبةً ما يوازيه في ذلك. وكان للحرم الشريف شيخ وأئمّة وخطباء ومؤذّنون وخدم يقومون بشؤونه.

٢- الكعبة في العصر المملوكي

اهتمّ سلاطين المماليك بتجديد الكعبة وتحسينها، فكانت لهم فيها أعمالٌ جليلة، سوف نتطرّق إليها.

(١)- تجديد بناء الكعبة في العصر المملوكي

في العصر المملوكي، ارتسمت سنة ١٢٨١/٦٨٠ عمارة الرخام للكعبة المعظّمة من قبل الملك المظفّر يوسف بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن[١].

وجدير ذكره أنّه في سنة ١٣٣٢/٧٣٣، وصل إلى مكّة من جهة السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون بابٌ جديدٌ برسم البيت، من خشب السنط، وحلقة من الفضّة الموشّاة بالذهب زنتها توازي قيمة خمسة وثلاثون ألف درهم، وركب على الكعبة بعد إزالة بابها القديم الملكي اليماني، ونزعوا عنه حليته، وسرّ الحجّاج بوضع الباب الجديد، وتضاعفت الأدعية لمن أمر بعمله ورسم تجهيزه، وكنت (والكلام لابن حبيب) ممّن حضره وشاهده، ولاذ بالحرم، وطاف واستلم، وسعى بين المروتين، وظفر من منى وعرفات يجني الجنتين[٢].

وبعث المؤيد شيخ المحمودي في موسم الحجّ سنة ١٤١٣/٨١٦ إلى مكّة بابًا للكعبة حلاّه بالفضة وطلاه بالذهب.

وأعاد الأشرف برسباي سنة ١٤٢٣/٨٢٦ تجديد رخام الكعبة المعطوب. وحذا حذوه السلطان قايتباي فأمر سنة ١٤٧٩/٨٨٤ بإصلاح رخام الكعبة العتيق[٣].

---

(١) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص٥٠.

(٢) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص١٦٢؛ ابن حبيب، **درّة الأسلاك**، ج٢، ٢٣٤ ورقة؛ السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص٤١٩؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، قسم١ ص٤٦١- ٤٦٢؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص٢٠٨.

يوجد تطابق في السنوات بين المؤلفين ماعدا ابن إياس، إذ ذكر سنة ١٣٣٠/٧٣١ بدل سنة ١٣٣٢/٧٣٣.

(٣) الفاسي، م. س،، ج١ ، ص ٥٠- ٥٢.

ج- علاقة مكّـة مـع المدينة فـي العصر المملوكي

مع قيام سلطنة المماليك في مصر والشام سنة ٦٤٨/١٢٥٠، انشغل قادتها في بداية حكمهم بالصراعات على السلطة، وبتوطيد سلطانهم في مصر والشام، غير أنه في ظلّ الصراع بين أشراف مكّة على السلطة، جرت محاولة من جانب الرسوليين للقضاء على تلك الاضطرابات، ضمانًا لنفوذهم فيها، فأرسل السلطان الرسولي الملك المظفّر يوسف جيشًا إليها سنة ٦٥٢/١٢٥٤، وكان يحكمها أميران هما: أبو نمي وعمه إدريس بن علي، اللذان انتزعا السلطة من غانم بن راجح بن قتادة، ولعجز الأميرين عن صدّ الجيش الزاحف، فقد طلبا المساعدة من أمير المدينة الشريف جماز بن شيحة، الذي قاد جيشًا لدعم شريفي مكّة، غير أنّ الهزيمة لحقت به على يد ابن برطاس[١] قائد الجيش الرسولي أواخر سنة ٦٥٢/١٢٥٤، وفي أوائل سنة ٦٥٣/١٢٥٥، تمكّن الأميران من استعادة سلطتهما وطرد الجيش الرسولي[٢].

وابتداءً من سنة ٦٧٠/١٢٧١، بدأت العلاقات بين الطرفين بالتدهور، فقد طمع أمير المدينة جماز بن شيحة في السيطرة على مكّة وضمّها إلى نفوذه؛ فاستعان لهذا الغرض بأحد الأشراف المناوئين لأبي نمي، وهو غانم بن إدريس بن حسن بن قتادة، فتمكّنا من الاستيلاء على مكّة وطرد أبي نمي منها، غير أنه ما لبث أن عاد بعد أربعين يومًا واستعاد سلطته[٣].

غير أنّ السلطنة المملوكيّة حاولت توطيد نفوذها في الحجاز بمحاولة ضرب الأشراف أمراء المدينة ومكّة بعضهم ببعض، فقد أغضب السلطان المملوكي المنصور قلاوون الصالحي عدم وفاء أبي نمي باليمين الذي أقسمه على نفسه سنة ٦٨١/١٢٨٢ بالولاء والطاعة والإخلاص للسلطنة المملوكيّة، كما أحسّ بأنّ أبا نمي يطمح لتحقيق الاستقلال عن السلطنة، لهذا وافق على طلب أمير المدينة جماز بن شيحة بمحاربة أمير مكّة، فسيّر معه سنة ٦٨٧/١٢٨٨ جيشًا إليها حيث انتزعها منه، فحقّق أمير المدينة بذلك ما يطمح إليه من السيادة على مكّة، وخطب للسلطان فيها، وضربت السكّة باسمه، غير أنه ما لبث أن تركها بعد ما بلغه من المراسلات السرية بين قائد العسكر المملوكي وأبي نمي[٤].

---

(١) ابن برطاس، مبارز الدين علي بن الحسين أمير مكّة، وليها للملك المظفّر صاحب اليمن سنة ٦٥٢/١٢٥٤. تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، **تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن**، ص ٩٢.

(٢) ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، ج٢، ص ٦٦- ٦٧.

(٣) القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص ٣٤٣ .

(٤) ابن تغري بردي ، م. س.، ج٢ ، ٦٩ .

يبدو واضحًا من تطوّر الأحداث بعد استيلاء جماز والعسكر المملوكي على مكّة، أنّ السلطان المملوكي كان يهدف من تلك الحملة إلى تدعيم نفوذ السلطنة المملوكيّة بالحجاز دون المساس بسلطة أبي نمي.

وقد ظلّت العلاقات بعد ذلك بين الطرفين هادئةً ومستقرةً حتى وفاة كلٍّ من أمير مكّة أبي نمي سنة ١٣٠١/٧٠١، وأمير المدينة جماز سنة ١٣٠٤/٧٠٤[١].

وفي خلال الصراع بين أبناء أبي نمي حميضة[٢] ورميثة[٣] من جهة، وأبي الغيث[٤] وعطيفة[٥] من جهة أخرى، وما ذكر عن سوء معاملة الحجّاج والمجاورين من جانب أمراء مكّة؛ أرسل السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون سنة ١٣١٣/٧١٣ جيشًا لعزل حميضة ورميثة وإحلال أخيهما أبي الغيث مكانهما، واستعان خلال حملته بخمسمائة فارس أرسلهم أمير المدينة منصور بن جماز بن شيحة، واستطاع الجيش المملوكي الاستيلاء على مكّة بعد خروج أميريها إلى حلي بن يعقوب[٦]، ثم عاد حميضة إلى مكّة سنة ١٣١٤/٧١٤، فيما هرب أبو الغيث إلى أخواله من هذيل بوادي نخلة[٧].

وابتداءً من سنة ١٣٤٥/٧٤٦، دخلت العلاقات بين المدينة ومكّة طورًا جديدًا طابعه العام سلمي، فقد ورد أن ثقبة وعجلان ابني رميثة بن أبي نمي أميري مكّة، زارا المدينة وهما في طريقهما إلى مصر سنة ١٣٥١/٧٥٢، تلبيةً لدعوة السلطان المملوكي السلطان الناصر حسن، وكان أمير المدينة في تلك الفترة يدعى سعد بن ثابت بن جماز[٨].

وفي سنة ١٤٣٨/٨٤٢ في عهد إمارة إميان بن مانع على المدينة، كانت العلاقات بين الطرفين وثيّةً، حيث قام الشريف بركات بزيارةٍ إلى المدينة لزيارة المسجد النبوي. غير أنّ هذه

---

(١) عبد الرحمن مديرس المديرس، **المدينة المنوّرة في العصر المملوكي**، ٧٠.

(٢) حميضة بن أبي نمي، قام مشاركًا أخاه رميثة في منصب الإمارة بعد أبيهما سنة ١٣٠١/٧٠١، ولي إمرتها إحدى عشرة سنة ونصف السنة. إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ٣٦٢.

(٣) رميثة بن أبي نمي، شارك أخاه حميضة في الإمرة سنة ١٣٠١/٧٠١ لفترة، ويكنّى أبا عرادة، ويلقّب أسد الدين، ولي إمرة مكّة ثلاثين سنة. إبراهيم رفعت باشا، م. ن.، ج١، ص ٣٦٢.

(٤) أبي الغيث بن أبي نمي، الأمير عماد الدين أمير مكّة، ولي إمرتها في موسم الحجّ سنة ١٣٠١/٧٠١ شريكًا لأخيه عطيفة، توفي سنة ١٣١٤/٧١٤. إبراهيم رفعت باشا، م. ن.، ج١، ص ٣٦٢.

(٥) عطيفة بن أبي نمي، يلقّب بسيف الدين، وهو أمير مكّة، ولي إمرتها نحو خمس عشرة سنة، مستقلاً بها في بعضها، وشريكًا لأخيه رميثة في بعضها الآخر، ابتداء من سنة ١٣١٩/٧١٩. إبراهيم رفعت باشا، م. ن.، ج١، ص ٣٦٢.

(٦) حلي بن يعقوب، مدينة ساحلية تقع في تهامة، وهي عاصمة وادي حلي، تقع حاليًا إلى الشمال الشرقي من مدينة مخشوش، وإلى الجنوب من منطقة الصلب، وهي تتوسط قرى وادي حلي. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص ٢٩٧.

(٧) ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، ج٢، ص ٧٠ – ٧١.

(٨) عبد الرحمن مديرس المديرس، م. ن.، ص٧٢.

العلاقات تدهورت أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، حين تدخّل شـريف مكّـة محمّد بن بركات في شؤون المدينة سنة ١٤٧٨/٨٨٣، فقام بأمر من السلطان المملـوكي قايتبـاي بعزل ضيغم بن خشرم عن الإمارة، وعيّن بدلاً منه قسيطل بن زهير بن سليمان بن هبة[١] .

وفي أواخر العصر المملوكي، صدر تفويض من جانب السلطان المملوكي محمّد بن قايتباي للشريف بركات بن محمّـد بن بركات بولاية مكّة وأعمالها وجميع الحجاز بمرسوم صـدر سـنة ١٤٩٧/٩٠٣، مقابل مبلغ من المال يدفعه إلى السلطان. وفي سنة ١٥١٣/٩١٩، أصدر السـلطان الغوري مرسومًا كلّفه بالنظر في أمر تعيين أمير جديد للمدينة بالتعاون مع قضاة المدينـة وشـيخ الحرم النبوي، فاتفقوا على تولية ثابت بن ضيغم ثمّ عادوا إلى مكّة[٢].

ثانيًا- المدينة في العصـر المملوكـي

تمهيد- أحوال المدينة

مع بداية عهد الإسلام، وأثناء بناء النبي الدّولة الإسلاميّة، واجه الكثير من ظلم ذوي القربى وأذى المشركين، ومما زاد من حزنه وألمه، أنه ترك أحبَّ البقاع إلى نفسه- مكّـة- وهـاجر إلـى المدينة، فسأل ربه متأدبًا فقال: ‹أخرجتني من أحبِّ البقاع إليّ فأسكنّي أحبَّ البلاد إليك، فأسكنه الله المدينة›[٣]. تلك المدينة الّتي بعثت النور في أرجاء المعمورة[٤].

تألّقت المدينة بما احتوته من المعالم الدينيّة، كمسجد رسول الله المعظّم، الّذي نال اهتمـام الملوك والخلفاء والسلاطين، وتنافست الأقلام في التعبير عن مركزه، وخصائصه الماديّة والمعنويّة، نظرًا إلى مكانته الدينيّة عند المسلمين، منذ أن وضع فيه رسول الله حجر الأساس، ولهذا، نجد لزامًا علينا أن نتطرق إلى موقعه ونشأته التاريخيّة.

يتوسّط المسجد النبويّ المدينة. وهو رائع الشكل والزخرفة والتنسيق. وله خمسة أبـواب؛ الأوّل باب السلام، والثّاني باب الرحمة، والثالث باب جبريل، والرابع باب النساء، والخامس بـاب المجيدي. وبه خمس مآذن.

---

(١) ابن تغري بردي، **حوادث الدهور**، ج٢، ص ٧٥- ٧٦.

(٢) عبد الرحمن مديرس المديرس، **المدينة المنوّرة في العصر المملوكي**، ص ٧٦- ٧٧.

(٣) رواته مدنيون، لكنه موضوع، فقد ثبت أنّ أحبَّ البلاد إلى الله مكّة، وسعد بن سعيد المقبري ليس بثقة. الحاكم النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للذهبي**، ج٣، ص٣، قال ابن عبد البر: لا يختلف أهل العلم في نفيـه ووضـعه، وقال ابن حزم هو حديث لا يسند، وإنما هو مرسل من جهة محمّد بن الحسن بن زبالة، وهو هالك. الجراحي، **كشف الخفـاء**، رقم الحديث ٥٥٥، ج٢، ص١٨٦.

(٤) صالح إدريس، " فيض فضائل المدينة المنوّرة "، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد الثّاني، ص١٣.

وأما بناؤه وتأسيسه، فقد ذكر أنّ محمدًا قدم المدينة، فنزل على بني النجار بدار أبي أيوب الأنصاري، حتّى بنى مسجده ومساكنه، فعمل فيه رسول الله ليرغِّب المسلمين في العمل فيه، فلمّا استخلف أبو بكر، لم يحدث في المسجد النبويّ شيئًا. وفي زمن عمر بن الخطاب، حصلت زيادة في المسجد فأنزل أساطين الخشب، وجعل مكانها أعمدةً مربّعةً من اللّبن. ثمّ زاد فيه عثمان وباشره بنفسه. وبعده جاء الوليد بن عبد الملك، فوسّعه وحسّنه وبالغ في إتقانه وعمله بالرّخام. وكذلك أضاف فيه المهدي بن أبي جعفر المنصور، وكان طول المسجد في بناء الوليد مائتي ذراع، فبلغه المهدي إلى ثلاثمائة ذراع، وأمر بقلع المقصورة وتسويتها مع المسجد[1].

هكذا، كانت صورة المسجد النبوي حتّى مجيء المماليك.

لهذه المدينة أسماء كثيرة منها: يثرب، وأرض الله قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ (٩٧)﴾[2]. ومن أسمائها كذلك أرض الهجرة، وأكّالة القرى، والبارّة، والبحرة، وبيت الرسول، والحبيبة، لحبه لها، والحرم بمعنى الحرام لتحريمها، وحرم رسول الله، والخيرة، والدار، لأمنها والاستقرار بها، ودار الإيمان، ودار السلام، ودار الفتح، ودار الهجرة، ودار الحجرة لاشتمالها عليها، وذات الحرار لكثرة الحرار بها، وطابة، وطيبة... ومن أسمائها القاصمة، والعذراء، وقرية رسول الله، وقلب الإيمان، والمؤمنة، والمباركة، والمحبورة، من الحبور وهو السرور... ومدينة الرسول، والمرحومة، لأنها دار المبعوث رحمةً للعالمين، والمرزوقة، والمسكينة، ومهاجر رسول الله، ومضجع رسول الله[3].

إنّ كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى، ولهذه المدينة الطيّبة أسماءٌ كثيرةٌ قد تبلغ حوالى مائة وخمسة وتسعين اسمًا، ذكر جلّها ياقوت الحموي[4] في معجم البلدان.

---

(١) الحربي، **المناسك**، ص٣٦٣- ٣٦٤، ٣٧٠؛ ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج٦، ص٢٦٠- ٢٦١؛ المقدسي، **رحلة المقدسي**، ص ٩٨؛ العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٤٤١- ٤٤٥، ٤٤٧- ٤٥٠؛ اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٤، ص١٣٥؛ ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٧١- ٧٢؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٣، ٤٦٧- ٤٦٨؛ النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٣٤٤؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص ١٩٩- ٢٠٢؛ سليمان فضي، **التحفة الإيقاظية**، ص١٥١؛ محمّد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ٣٢٠، ٣٢٣- ٣٢٤.

(٢) سورة النساء، ٤/٩٧.

(٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٥، ص٨٣؛ ابن منظور، **لسان العرب**، ج٨، ص ٢٣٦؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٢٩٠- ٢٩١؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٦٢١- ٦٢٢؛ النابلسي، م. س.، ص ٣٣٧- ٣٤١؛ B.Winder, "Al-Madina", *EI*$_2$, vol.V, p.989

(٤) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله، مؤرخ ثقة، من أئمّة الجغرافيين، ومن العلماء باللُّغة والأدب. أصله من الروم. أُسر من بلاده صغيرًا، وابتاعه ببغداد تاجر اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي، فرباه وعلمه وشغله بالأسفار في متاجره، ثمّ أعتقه وأبعده فعاش من نسخ الكتب بالأجرة. ورحل إلى مرو، ثمّ انتقل إلى خوارزم. ونزل بالموصل وقد أعوزه القوت، فرحل

المدينة هي مدينة الرسول، وأرضها بريّة جبليّة، ولها الأخشبان: أحدهما أحد، والثّاني عير، ومن الجبال أيضًا: ورقان ورضوى، وحولها الجبال الآتية: الجمّا، الرّقود... ولها أربعة أودية: وادي قناة، ووادي بطحان، ووادي العقيق الأصغر، ووادي العقيق الأكبر. تأتي مياهها في أوقات الأمطار والسيول من حرّة بني سليم، وهناك أيضًا بركة بالحناطين، وبركة بالثنيّة، حيث إنّ النّاس يستسقون من هذه البرك بالمدينة (١).

وحرم مدينة رسول الله، هو ما بين لابتيها، واللابة هي الحرة، والأرض الّتي فيها حجارة سود، وجعل حمى كل ناحية من المدينة بريدًا، لا ينفر صيده، ولا يعضد شجره(٢).

وكفى المدينة فخرًا واعتزازًا ما ورد في فضلها ومنزلتها على لسان الرسول: إنّ مكّة حرم الله حرّمها إبراهيم، وإنّ المدينة حرمي ما بين لابتيها لا يعضد شجرها.

إنّ الحديث عن الأحوال السياسيّة الداخليّة في المدينة يقتضي الحديث عن أسرة بني مهنا الّتي حكمت المدينة ابتداءً من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، واستمرّت في السلطة طوال العصرين الأيوبي والمملوكي. إنّ أسرة بني مهنا تنسب إلى الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ومهما يكن من أمر، فإنّ الظروف الّتي جاءت ببني مهنا للإمارة في المدينة، ترتبط إلى حدّ كبير بالأوضاع السياسيّة للدولة الفاطميّة في مصر، وهذا يدعونا إلى التّساؤل عن طبيعة العلاقة الّتي ربطت بين هذه الأسرة والفاطميين، فمع تولي الفاطميين السّلطة في مصر، تطلّعت نفوس الهواشم، ومنهم الحسينيون، للاستئثار بالحكم في المدينة، مستغلّين الدعم المعنوي والمادي الّذي قد يكون الفاطميون أسبغوه عليهم، فأعلن طاهر المليح بن مسلم محمّد بن عبيد الله الحسيني السيطرة على المدينة سنة ٩٧٦/٣٦٦، وخطب للمعزّ الفاطمي(٣). ومن أمراء المدينة الذين حكموها بعد وفاة الشريف سالم بن قاسم سنة ١٢١٥/٦١٢، ابن أخيه قاسم بن جماز بن قاسم الحسيني، وقد حفلت فترته بحوادث كثيرة، خصوصًا فيما يتصل بعلاقته مع أمراء مكّة، واستمرّت إمارته حتّى سنة ١٢٢٦/٦٢٤، حيث اغتيل على يد أحد أفراد قبيلة بني لام. استغلّ أحد أفراد أسرة أشراف المدينة،

إلى حلب وأقام في خان بظاهرها إلى أن توفي. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٢١٠؛ الزركلي، **الأعلام**، ج٨، ص ١٣١؛ زكي محمد حسن، **الرحالة المسلمون**، ص ١٠٢.

(١) الحربي، **المناسك**، ص٤٠٦- ٤١٠؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٥، ص٨٢؛ القزويني، **آثار البلاد**، ص ١٠٨- ١٠٩؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٧، ص١٣؛ الجزيري، **درر الفرائد**، ص٦٢٠؛ النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٣٦٥؛
A.M.Turki, H. R. Souami, *Récits de Pèlerinage à la Mekke*, p.75-76.
M. Watt, "Madîna", *EI*2, vol.V, p.989.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مج١، ج٣، ص٢١؛ الحربي، م. س.، ص٤٠٥؛ ابن تيمية، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، مج٢٦، ص١١٧؛ الجزيري، م. س.، ص٦٢٠؛ محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٣١٢.

(٣) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٢٩٨- ٢٩٩.

وهو شيحة بن هاشم بن قاسم، الفراغ السياسي الّذي أعقب اغتيال القاسم؛ فاستولى على المدينة، ونصب نفسه أميرًا عليها، فانتقلت الإمارة من فرع جماز بن القاسم إلى فرع هاشم بن قاسم، ودام حكمه ثلاثًا وعشرون سنةً، وكان ينوب عنه في غيابه ابنه عيسى، وفي سنة ١٢٤١/٦٣٩ جمع الشريف عمير بن قاسم بن جماز، وهو من فرع الجمامزة، قوّةً من أتباعه وخلع شيحة بن هاشم الّذي اضطرّ للفرار إلى بعض التلال أو الجبال المجاورة للمدينة، غير أن عميرًا لم يتمكّن من الاحتفاظ بسلطته على المدينة بسبب معارضة الهواشم، وهم أحفاد هاشم بن قاسم بن مهنا، له، فتمكّن الشريف شيحة بن هاشم من استعادة سلطته على الإمارة، وقد اغتيل شيحة أيضًا عى يد قبيلة بني لام، حينما كان متوجّهًا إلى العراق سنة ١٢٤٩/٦٤٧[١].

أ – ثروة المدينة المائيّة في العصر المملوكي

نظرًا إلى أنّ المدينة بلدٌ زراعي، فقد وجد فيها عدد من مصادر المياه، وهي: الآبار- العيون- الأمطار.

١- الآبار

ونظرًا إلى أهميّة الآبار، كمرافق أساسيّة لخدمة مجتمع المدينة في الشرب والزراعة، فقد كثر استعمالها منذ العهد النبوي، واستمر اعتماد بعضها خلال العصر المملوكي، ومنها:

(١)- بئر رومة

تقع أسفل وادي العقيق، استمرّ استعمالها منذ عصر الرسول حتّى القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ثم خربت، وأعيد إصلاحها وتجديدها سنة ١٣٤٩/٧٥٠ على يد قاضي مكّة شهاب الدين أحمد بن محمّد الطبري الّذي قام برفع بنيانها عن الأرض نحو قامة، ونزحت فكثر ماؤها[٢].

(٢) – بئر أريس

تقع بقباء غربي المدينة، ويستسقى منها، وماؤها عذب، وفي سنة ١٣١٤/٧١٤، قام الشيخ صفيّ الدين أبو بكر بن أحمد السلامي بتجديدها، فبنى لها درجًا ينزل إليها من يريد الشرب والوضوء من الزوّار[٣].

---

(١) ابن شكر الكتبي، **عيون التواريخ**، ج٢٠، ص ٢٧– ٢٨؛ عبد الرحمن مديرس المديرس، **المدينة المنوّرة في العصر المملوكي**، ٢٩– ٣٠.

(٢) المراغي، **كتاب تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة**، ص ٢١٤– ٢١٥؛ ابن الضياء، **تاريخ مكّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، ص٢٤٧– ٢٤٨.

(٣) المراغي، م. س.، ص ٢٠٩؛ ابن الضياء، م. س.، ص ٢٤٤.

(٣)- بئــر حـــا

تقع شمال سور المدينة، وقد آلت في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي إلى بعض أهل المدينة وأصبحت وسط حديقة صغيرة تقع بالقرب منها نخيل ومزارع، ثم آلت في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي إلى نساء من النويّريين من مكّة، نسبةً إلى أسرة النــويّري خطبــاء مكّة، فأصبحت تعرف ببئر النويّريَّة، وأوقفت على الفقراء والمساكين والواردين والصادرين لزيارة الرسول، وظلت البئر مفتوحةً للنّاس إلى أوائل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[١].

(٤)- بئــر بضاعـــة

كانت البئر خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديـــين عامرةً، ثمَّ أصبحت في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي فـــي منطقـــة تنتشـــر فيهـــا المزارع والحقول التي يملكها أهل المدينة[٢].

(٥) – بئــر البصّـــة

كان أهل المدينة يستقون منها قبل أن يطمها السيل، ثم أعيد حفرها وتجديدها أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، لخدمة الفقراء والزائرين والواردين إلى المدينة، وقد أوقفهـــا الشيخ عزيز الدولة، ريحان البدري شيخ خدام الحرم سنة ١٢٩٧/٦٩٧[٣].

(٦) – بئــر غــرس

تقع شرقي مسجد قباء بين النخيل، وكانت أوائل القرن الثـــامن الهجـــري/الرابـــع عشـــر الميلادي ملكًا لبعض أهل المدينة ثمَّ خربت، فجدِّدت فأصبحت كثيرة الماء، ثم خربت للمرة الثّانية، فابتاعها خواجا حسين بن أحمد الكيلاني، فعمَّرها وأحاطها بحديقة، وجعل لها درجةً ينزل إليها من داخل الحديقة وخارجها، وأوقفها سنة ١٤٧٧/٨٨٢ فأصبحت تخدم أهل المدينة والقادمين إليها[٤].

٢ – العيـــون

تشكّل مصدرًا مهمًّا وأساسيًّا للمياه في المدينة، وبالرغم من قلة عددها، فقد أدّت دورًا مهمًّا لسكّانها باستعمالها في الريِّ والشرب. ومن تلك العيون.

---

(١) المراغي، **كتاب تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة**، ص ٢١١؛ ابن الضياء، **تاريخ مكّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، ص ٢٤٣.

(٢) المراغي، م. س.، ص ٢١٢.

(٣) المراغي، م. ن.، ص ٢١٠؛ ابن الضياء، م. س.، ص ٢٤٦– ٢٤٧.

(٤) المراغي، م. س.، ص ٢١٠؛ ابن الضياء، م. س.، ص ٢٤٥– ٢٤٦.

(١) – عيـــن النبـــي

تقع خارج المدينة، وتدعى أيضًا كهف بني حرام، وهي كانـــت عامـــرةً خـــلال القـــرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، غير أنها اندثرت خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، ولم يبق لها أثر[١].

(٢) عيـــن الأزرق أو العيـــن الزرقـــاء

هي أشهر عيون المدينة على الإطلاق، فقد قدّمت للمدينة خدمات كبيرة منـــذ أن أجراهـــا مروان بن الحكم والي المدينة بأمر الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، واستمرَّ الاهتمـــام بهـــا خلال القرون التالية، وتقع العين في قباء، وأصلها بئر في حديقة نخل غربي مسجد قباء[٢].

(٣) عيـــن الخيـــف

تقع في حديقة نخل، وتعرف عين الخيف بالغنيمية، ثمَّ عرفت بعد ذلك بالنقيبية، في بطـــن وادي بطحان غربي جبل سلع، تأتي من عوالي المدينة، وتسقي المزارع والنخيل الّتي حولها[٣].

(٤) عيـــن الشهـــداء

قام بحفرها مروان بن الحكم بأمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ويظهر أن العين اندثرت، فقام نور الدين زنكي بإجراء عين أخرى تحت جبل أحد عرفت أيضًا بعين الشهداء، ظلـــت قائمـــةً حتى أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي[٤].

٣- الأمطـــار

تعتمد الزراعة في الأودية بشكل أساسي على مياه الأمطار. ومن الأودية الزراعيَّة الّتي تعدُّ من أعمال المدينة، وادي ساية، وصف بأنه واد عظيم به أكثر من سبعين عينًا تجري، ومن الأودية الزراعيَّة، وادي ذي الهدى بحورة اليمانيَّة، ويقع إلى الغرب من المدينة، على طريق ينبع بناحيـــة الفقرا. ومن الأودية المهمَّة من أعمال المدينة، وادي الصفراء، ووادي يليل بناحية ينبع والصفراء، يصبُّ في البحر[٥].

---

(١) المراغي، **كتاب تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة**، ص ٢١٥؛ ابن الضياء، **تاريخ مكّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، ص ٢٥٠- ٢٥١.

(٢) المراغي، م. س.، ص ٢١٥.

(٣) المراغي، م. ن.، ص ٢١٥.

(٤) عبد الرحمن مديرس المديرس، **المدينة المنوَّرة في العصر المملوكي**، ص ٨٤.

(٥) عبد الرحمن مديرس المديرس، م. ن.، ص ٨٥.

ب- مراكز المدينة الدينيّة ومكانتها في العصر المملوكي

حظيت المدينة منذ هجرة رسول الله إليها بمكانة دينيّة مهمّة، ومنزلة رفيعة الشـأن عنـد المسلمين المقيمين فيها، والقاصدين زيارتها رغبةً في الحصول على شفاعة نبيّهم محمّـد، ونيـل الثواب والمغفرة من الله تعالى. علمًا بأنّ زيارتها لا تنحصر بالتوجّه إلى المسجد الشريف ورؤيـة روضة محمّد، بل تتعدى ذلك إلى مشاهدة قبور الصحابة والأولياء والصالحين، والأماكن الأثريّـة التاريخيّة المنتشرة في نواحي المدينة وضواحيها. ومن الرحّالة الّذين توافدوا لزيارتهـا، العبـدري الّذي برع في وصفها وتصويرها يوم دخلها، فقال: وصلنا سنة ١٢٨٩/٦٨٨ إلى معهـد الفضـائل المشهورة، ومعقد ألوية الدين المنشورة، ومنبع مفاخر العصرين، ومطلع سعادة الثّقلين، شرفت مكّة بمولده ومحتده، فدع عنك الشّام وحمصه، والعراق وواسطه، به تمسي القلوب مقسطةً، أترى لـي عودةً إليها قبل الممات؟

مَقَامٌ لِلعَلاءِ بِـــهِ مَقَامُ	وَفِيهِ انْجَابَ عَنْ ضَوْءٍ ظَلاَمُ
بِهِ قَالَ الكَمَالُ: نَظمْتُ سِلكًا	هَدَاهُمْ لِلْمَسَالِكِ فَاسْتَقَامُـوا
عَلَيهِ صَلاَةُ رَبِّي قَدْ حَبَاهُ	سِيادَةَ مَنْ عَلَيهَا وَالسَّلاَمُ[١].

تلك العبارات والمفردات الّتي استعملها العبدري وصاغها، تعطي صورةً واضحةَ المعـالم عن أهميّة المدينة التاريخيّة والدينيّة على مرّ العصور، ولا سيّما أيام المماليك.

وبعد انقضاء فترة نصف قرن من الزمن على رحلة العبدري، توجّه البلوي إلى الحـرمين الشريفين لأداء مناسكه، فوصف زيارته فقال: وحين وصلنا إلى ثنية المدينة النبويّة، فشاهدنا نـورًا خالف العادة إشراقه، وعزّ على ضوء النسرين لحاقه، عرفته البصائر قبـل الإبصـار، وأنكرتـه النواظر لعلو جوهر نزره على الأنوار، ففسحت لطرف طرفي في ذلك الأفـق مجـالاً، وأرسـلت دمعي سجالاً، ثم تحدّرنا من الهضاب، وقذفتنا بطون الأودية من أفواه الشعاب، ولاحت لنا الأنوار النبوية من تلك القباب، وشرّفنا الجباه بوطء ذلك التراب[٢].

يصوّر البلوي المدينة تصويرًا رائعًا وبديعًا، تستحقّ الاهتمـام والرعايـة مـن سـلاطين المماليك، وأمرائها، والقيّمين عليها للمحافظة على تراثها الغنيّ، ما يفتح المجال لطرح تسـاؤلات عديدة عن خصائصها الدينيّة.

---

(١) العبدري، رحلة العبدري، ص٤١٩- ٤٢٢.

(٢) البلوي، تاج المفرق، ج١، ص٢٨٠، ٢٨٢.

١ – مسجد رسول الله في العصر المملوكي

في عصر المماليك، قام المستعصم سنة ١٢٥٧/٦٥٥ بسقف الحجرة الشريفة وما حولها إلى الحائط القبلي والحائط الشرقي بباب جبريل المعروف قديمًا بباب عثمان، ومن جهة الغرب إلى المنبر الشريف، ثمّ قتل الخليفة المستعصم، فوصلت الآلات من مصر من الملك المنصور علي بن المعزّ الصالحي، ووصلت أيضًا من صاحب اليمن المظفّر يوسف بن عمر آلات وأخشاب، فعملوا إلى باب السلام المعروف قديمًا باب مروان[1].

وبعد ذلك، عزم السلطان الظاهر بيبرس على عمارة الحرم النبويّ سنة ١٢٦٤/٦٦٣، وجهّز إليه البنّائين والنجّارين، وراعى الأعمال على اختلافها، والآلات مع تباين أنواعها وأصنافها، وأرسل معهم أميرين وناظرًا وحسيبًا ومباشرين، وسائر ما يحتاجون إليه من المؤن والكلف والأشربة والأدوية والمعاجين. فشرعوا في بنيانه، وجدُّوا في تمكين رواقاته وجدرانه، واجتهدوا في رفع قواعده وسقوفه، ومهّدوه لحلول وفوده وضيوفه، وشيّدوا ما يحيط به من الأركان والأعلام. ولم يبرحوا إلى أن انتهت عمارته بعد أربع سنوات[2].

وإنما صنع السلطان الظاهر بيبرس ذلك تعظيمًا للبقعة الشريفة.

أما السلطان المنصور قلاوون، فأمر ببناء دار للوضوء عند باب السلام، فتولّى بناءها الأمير الصالح علاء الدين المعروف بالأقمر، وأقامها متّسعة الفناء، تستدير بها البيوت، وأجرى بها الماء، وأراد أن يبني بمكّة مثل ذلك فلم يتمّ له، فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة[3].

وتواصل اهتمام سلاطين المماليك في تجديد عمارة المسجد الشريف، ولا سيّما سنة ١٤٨١/٨٨٦، عندما شرع السلطان قايتباي في تجديد عمارة المسجد الشريف، فكلّف الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن بأن يتوجه إلى المدينة الشريفة لعمارة المسجد، وأرسل معه طاقمًا من البنّائين والنجّارين والمرخّمين وغير ذلك، وأمر بهدم القبّة الشريفة وإعادة إعمارها، وتغيير المقصورة وتركيب غيرها من الحديد المخرّم، وكانت من الخشب، وتغيير المنبر والمآذن التي كانت بالحرم، ثم توجّه ابن الزمن إلى هناك وشرع في البناء، حتّى انتهى من العمل في أواخر سنة ١٤٨٢/٨٨٧، فجاء غايةً في الحسن، ومن أجلّ الأبنية وأعظمها، حتى قيل: إن السلطان صرف على بنائه نحوًا

---

(١) اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٤، ص١٣٤.

(٢) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص٨٩؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج١١، ص٢– ٢٢؛ ابن الوردي، **تتمة المختصر**، ج٢، ص٢١٨؛ اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٤، ص١٦١؛ ابن حبيب، **درّة الأسلاك**، ج١، ٣٣ ورقة؛ ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، ج٦، قسم١، ٤٤ ورقة؛ المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص٥٠٢.

(٣) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٧٢؛ المراغي، **كتاب تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة**، ص ١١٤.

من مائة ألف دينار، وجدَّد سائر معالمه، وتناهى في زخرفته ورخامته إلى الغاية(١).

وجدير ذكره أنّ المسجد الشريف قد حظيَ بنصيب وافر من اهتمام الرحّالة الّذين أتوا الحجاز لتأدية الشعائر، ومنهم ابن بطُوطة حيث تطرَّق إلى هيئة المسجد وروضته المقدّسة فقال: تحفُّ المسجد المعظَّم من جهاته الأربع بلاطات دائرة به، ويفترش وسطه الحصى والرمل. ويلتفُّ حول المسجد الشريف شارع مبلَّط بالحجر المنحوت. وتقوم الروضة المقدّسة الصلاة على ساكنها، في الجهة القبليّة مما يلي الشرق من المسجد الكريم، وشكلها عجيب لا يتأتّى كمثيله. وهي منوَّرة بالرّخام البديع النحت. وفي الصفحة القبلية منها، مسمار فضة... وفي الجوفي من الروضة المقدّسة، زادها الله طيبًا، حوض صغير مرخَّم، في قبلته شكل محراب يقال: إنه كان بيت فاطمة بنت رسول الله، ويمقربة من باب السلام سقاية ينزل إليها على درج ماؤها معين، وتعرف بالعين الزرقاء(٢).

هكذا وصف ابن بطُوطة المسجد النبويّ بصورة مضبوطة ومألوفة، كشفت عن جوانب عديدة، منها: قوّة إحساسه في التعبير دون انتقاص أو تقصير، فجاء كلامه يثني على أهميّة المسجد الدينيّة والعلميّة عند السلاطين والزوّار والحجّاج، ويلقي الضوء على الاهتمام والاعتناء بشكل كبير وفعّال في بناء المسجد وتجديده وترميمه زمن المماليك.

ومن الرحّالة الّذين كانت لهم وقفة عزيزة أمام المسجد النبويّ، البلوي سنة ١٣٣٧/٧٣٧، عندما قام بزيارته فقال معبّرًا: أقبلت على المسجد الرفيع المنير، أتأمّل محاسنه، وأتخيّل فيه بين أصحابه الأبرار ساكنه، فمن أبدع ما رأيته وأبرعه، قصيدة فريدة كتبت بالخط المذهّب الرّائق البديع، وتشهد لناظمها بالقريحة الراجحة:

بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصلاة على سيدنا محمّد

فيا خيرَ أهلِ الأرضِ بيتًا وعنصرًا	وأشرفَ خلقِ اللهِ نفسًا ومحتدا
وأوسعَهم خلقًا وأزكى خلائقًا	وأطيَبَهم خيمًا وأطيبَ مولدا
ويا صفوةَ الرّحمنِ من خيرِ خلقِه	وأطولَهم طولاً وأعظمَ سؤددا
فصلّى اللهُ عليكَ يا خيرَ مرسلٍ	ويا خيرَ مَنْ بالمعجزاتِ تفرَّدا(٣)

---

(١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٨٨- ١٨٩؛ عبد الباسط بدر، **التاريخ الشامل للمدينة المنوَّرة**، ج٢، ص ٣٠٨- ٣٠٩.

(٢) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٦٨؛ العبدري، **رحلة العبدري**، ص٤٢٣- ٤٢٥؛ ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٦٩- ٧٠؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص١٩٨.

(٣) البلوي، **تاج المفرق**، ج١، ص ٢٨٤.

يتّضح أنّ الأبيات الشعريّة تعبّر بدقة رائعة عن صفوة الرسول الدينيّة والدنيويّة، وتـذكر معجزاته التي تفرّد بها، علاوةً على أنه أشرف خلق الله وأزكاهم وأطيبهم وأنبلهم، فتلـك منزلـة الرسول الرفيعة ومقامه العظيم، يعجز القلم عن الوفاء بها، مهما ارتقى سلّم الفصاحة والبلاغة.

واللافت في هذا السياق اسم سلطان المماليك الناصر قلاوون المدوّن على حائط المسـجد: اللهمّ أدم العزّ والتمكين والنصر والفتح المبين لعبدك المسكين، الذي أوليته أمور المسلمين، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الديار المصريّة والعراقيّـة والـبلاد الشـاميّة، ملـك البحرين، خادم الحرمين الشريفين. وكان ابتداء العمل في شهر ربيع الأوّل، وانتهاؤه في جمـادي الآخر سنة١٣٠١/٧٠١. أما طول المسجد، فبلغ مائةً وستًا وتسعون خطوةً، وسـعته مائـةً وسـتًا وعشرون خطوةً، وهو بالذراع ثلاثمائة ذراع طولاً، ومائتان عرضًـا، وتكسـيره مـن المراجـع المغربيّة أربعة وعشرون مرجعًا[1]. وفي سنة ١٣٢٩/٧٢٩، أصدر السلطان الناصر محمّـد بـن قلاوون أمرًا بإنشاء رواقين من جهة القبلة، فاتّسع السقف القبلي بها[2].

٧٠٠٨٧٩

تلك بصمات سلطان المماليك الناصر قلاوون وآثاره التي ظهرت بشكل واضح على شكل المسجد النبويّ، ما يدل على حرص الناصر وتمسّكه بإدخال إصلاحات وتحسينات علـى المسـجد زمن المماليك. والرّاجح أنّ الناصر قلاوون كانت له اليد الطولى في رعايـة شـؤون الحـرمين الشريفين.

وقد عرّف ابن منظور الذراع فقال: هو ما بين طرف المرفق إلى نهاية طـرف الإصـبع الأوسط، ومن ثم المقياس المعروف. والمقياس الذي يتألف من ستّ قبضات يسمى ذراع العامّة، أما الّذي يتألف من سبع قبضات فيسمى ذراع الملك، نسبةً إلى ذراع أحد ملوك الفرس الّذي كان مـن سبع قبضات[3].

أمّا عدد سواري المسجد، فهي ثمانمائة سارية، وتحفّه من جهاته الأربع بلاطات، ووسـطه كله مفروش بالحصى والرمل، وفي صحنه قبّة بيضاء كبيرة أمامها خمس عشرة نخلة. وللمسـجد الكريم أربعة أبواب كبار في الغرب، منها اثنان يسمى أحدهما باب الرحمة والثاني باب الخشـية، وفي الشرق اثنان يعرف أحدهما بباب جبريل، والثّاني بباب الرّخاء، وبإزاء المقصورة لجهة الشرق خزانتان كبيرتان تحتويان على كتب ومصاحف موقفة على المسجد المبارك... وللحـرم الشـريف أربع صوامع[4].

---

(١) البلوي، **تاج المفرق**، ج١، ص٢٨٣- ٢٨٥.

(٢) المراغي، **كتاب تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة**، ص ١١٨.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٥، ص ٣٤، " ذرع"؛ W. Hinz, "Dhirā^c", *EI*2, vol.II, p.238.

(٤) البلوي، م. س.، ج١، ص٢٨٧.

والرّاجح أنّ عدد سواري المسجد وحسن عمارته ورونقه يدل على مدى التطوّر الذي شهده ميدان البناء في عصر المماليك، وهو ما يسلّط الضوء على جهود السلاطين وأفعالهم الحسنة.

وزيادةً على ذلك، فإنّ قبلة مسجد رسول الله هي قبلة قطع[١]، لأن محمّدًا أقامها، وقيل: أقامها جبريل، وقيل: كان جبريل يشير له إلى سمتها وهو يقيمها، وروي أن جبريل أشار إلى الجبال فتواضعت، فتنحت حتّى بدت الكعبة، فكان يبني وهو ينظر إليها عيانًا. وبكل اعتبار، فهي قبلة قطع[٢].

يتّضح أنّ الرحّالة تناولوا مسجد الرسول بكامله، وجاؤوا على ذكر كلّ جزء منه بالتفصيل، وأبرزوا صورته كأنها لوحة مرسومة من قبل نحّاتين لهم معرفتهم وخبرتهم في شؤون الفن والبناء والتصوير، فذلك يكشف بوضوح حماس المماليك الديني وقيامهم بأعمال تستوجب الشكر والتقدير لتحسينهم المراكز الدينيّة في بلاد الحجاز.

ومن الأئمّة الّذين حواهم مسجد الرسول خلال عصر المماليك يوم دخول ابن بطُوطة إلى المدينة سنة ١٣٢٧/٧٢٧، الإمام بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر، وينوب عنه العالم الصالح عزّالدين الواسطي، وكان يخطب قبله ويقضي بالمدينة سراج الدين عمر المصري[٣].

تلك حال المدينة الدينيّة زمن المماليك، أمّا من يهجرها من سكّانها، فيبدو أنه كان يتعرّض لمهالك ومخاطر، ما يدل على علوّ مقامها الديني، وقد دعا رسول الله أن يبارك الله لها في مدّها وصاعها وأهلها.

(١)- مشيخة الحرم النبويّ

وردت الإشارة إلى شيخ الخدّام في العصر المملوكي سنة ١٢٦٨/٦٦٧، عندما أغدق السلطان المملوكي الظاهر بيبرس على الطواشي جمال الدين محسن الصالحي شيخ الخدّام بالحجرة الشريفة مائتي ألف درهم[٤]، وكانت العادة أن يعيّن شيخ الحرم النبويّ من فئة الخدام الطواشية، وكان أوّل خرق لهذا التقليد الذي دام قرنًا ونصف القرن في عهد الأشرف برسباي، إذ استقرّ الشرف بن قاسم في مشيخة الحرم النبويّ سنة ١٤٣٥/٨٣٩ بناءً على أمر السلطان برسباي. لكنّ تعيين الطواشية عاد كما كان أوّلاً، وقد جاء في وصف شيخ الحرم في العصر المملوكي أنه في

---

(١) قطع: من مباني المدينة قبلة قطع؛ R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.II, p.367.

(٢) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٧٢؛ الشربيني، **مناسك الحج**، ٥٤ ورقة؛ النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٤٠١؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص٢٠٢- ٢٠٣؛ علي فكري، **خلاصة الكلام**، ص٣٥٣- ٣٥٤.

(٣) ابن بطُوطة، م. س.، ج١، ص٧٣؛ راشد القحطاني، **أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين**، ص٩٩.

(٤) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص٥٨٥.

هيئة الأمراء الكبار، ومن مهامه استلام ما تحصّل من أوقاف الخدّام، وتدبير صرفها على الحـرم النبويّ وخدّامه، هذا فضلاً عن مخاطبة السلطان المملوكي في حال تعرّض المسجد النبويّ للتلف أو احتاج إلى الترميم والتجديد(١).

(٢)- خـدّام الحـرم النبـوي والمؤذّنـون بـه

تُعَدُّ خدمة الحرم النبوي والحجرة الشريفة من أجلّ الخدمات الّتي يطمح إليها الكثيـر مـن المسلمين، تقرّبًا إلى الله تعالى.

إلاّ أن تنظيم الخدمة بالشكل الذي أصبحت عليه في العصر المملوكي، لـم يبـدأ إلا فـي النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، حيث أصبح للخدّام شيخ يـأتمرون بأمره، ومشيخة تنظّم شؤونهم. وفي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، كان لخدّام مسجد الرسول نصيبهم في تسليط الضوء عليهم من قبل الرحّالة في عصر المماليك، حيث تنـاول ابـن بطُوطة في رحلته المسماة **تحفة النظّار** خدّام المسجد، فقال: "وخدّام هذا المسـجد... فتيـانٌ مـن الأحابيش وسواهم"(٢).

أما المؤذنون بالحرم النبوي فتعدُّ وظيفتهم أساسيّة؛ لكون الأذان إشعار بـدخول الصـلاة، ونظرًا إلى الأهميّة الدينيّة للمسجد النبوي، فقد كان اختيار القائمين بهذه الوظيفة يتمّ بشكلٍ دقيق؛ إذ كان لابدَّ من أن يكونوا من أهل التقي والصلاح، ومن العارفين بكتاب الله والمواقيت(٣).

وفي العصر المملوكي، لم يكن بالمدينة من يوثق به في معرفة الأوقات وتحرّيها، فبعثـوا من مصر ثلاثةً؛ أحدهم أحمد بن خلف بن عيسى الأنصاري الخزرجي، ثمّ انتقل أحمد إلى المدينة وصار رئيس المؤذّنين بالمسجد النبوي، وابنه جمال الدين أحمد بن خلف الّذي أصبح أيضًا رئيس المؤذنين. أما الثّاني، فهو إبراهيم بن محمد بن مرتضى الكناني العسقلاني الذي أصبح أيضًا رئيسًا للمؤذّنين. أما الثالث، فهو عزّ الدين المؤذّن الذي استمرَّ في وظيفته فـي الأذان حتـى كبـر فـي السن(٤).

ويبدو أنَّ الرحّالة ابن بطُوطة لم يترك شاردةً ولا واردةً خاصّةً في مـا يتعلـق بمسـجد الرسول وبنائه، وطاقمه البشري المكلّف بالإشراف على شؤون المسجد، إلا ذكرها وتحدّث عنهـا، بدءًا من بناء المسجد، وانتهاءً بالخدّام والمؤذّنين.

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص ٢٦٠؛ عارف عبد الغني، **تاريخ أمراء المدينة المنوّرة**، ص٣٠٣.

(٢) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٧٤.

(٣) عبد الرحمن مديرس المديرس، **المدينة المنوّرة في العصر المملوكي**، ص ٢١٨.

(٤) ابن بطُوطة، م. س.، ج١، ص ٧٤؛ عبد الرحمن مديرس المديرس، م. س.، ص ٢١٨-٢١٩.

(٣) – أميــر المدينــة

كان السلطان المملوكي يصدر تقليدًا بشأن تولية الإمارة في المدينة، على النمط نفسه الّذي عيّن فيه أمير مكّة كما ذكرنا في السابق. وهذه نسخة تقليد شريف بإمارة المدينة النبوية، كتب بــه للأمير بدرالدين ودي بن جماز بن شيحة عندما ولّاه الناصر محمّد بن قلاوون إمرة المدينــة ســنة ١٣٣٦/٧٣٦:

الحمد لله الّذي صرف أمرنا في أشرف البقاع، وشرّف قدرنا بملك ما انعقد علــى فضــله الإجماع، وعرّف أهل طيبة الطيّبة كيف طلع البدر عليهم من ثنيّات الوداع، نسيب أمير المؤمنين، ودي بن جماز الحسيني بمحضر القضاة الأربعة الحكام... وما ينتفع الشريف بحسبه، إن لم يكــن عمله بحسبه، ولا يرتفع بنسبه... والله تعالى يمتّع بدوام شرفه[1] .

وكان قد تولى الإمرة زمن المماليك أيام زيارة ابن بطّوطة المدينة، كبيش بن منصور بــن جماز بن قتادة، الذي قتل عمّه مقبل. ثمّ خرج سنة ١٣٢٧/٧٢٧ إلى الفلاة في شدّة الحــر ومعــه أصحابه، فتفرقوا تحت ظلال الأشجار، فما راعهم إلا وأبناء مقبل في جماعة من عبيــدهم ينادون: يا ثارات مقبل، فقتلوا كبيش بن منصور، وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور[2].

والرّاجح أنّ التنافس والنزاع من أجل الحصول على مقاليد إمرة المدينة، دفع البعض إلــى القتل، ولا ندري إزاء هذه الحادثة، ما الأسباب الّتي دفعت أمير المدينة إلى ارتكاب هذه الجريمــة النكراء؟! فلعله كان عديم الحكمة والخبرة في تدبير شؤون الإمارة، فهل كان كبيش قــادرًا علــى حماية الحجيج، والحفاظ عليهم من اللصوص والمعتدين أو أنّه تعرّض للفشل أيضًا؟!

وقد حوى مسجد الرسول أيضًا المادحين، والمكبّرين، وسقّاء المسجد النبــويّ، وبوّابيــه، والمبخّر، وحرّاس النعال، وكانت لهم مخصّصات سنويّة بدلاً عن الوظائف الّتي يشغلونها[3].

تلك صورة مسجد رسول الله، وقد تنافس الرحّالة في العصر المملوكي على رسمه وإبراز معالمه الدينيّة والتاريخيّة، حيث أشاروا إلى هندسته الرائعة والمنمّقة نتيجة عناية السلاطين؛ وكذلك ذكروا أصحاب المناصب الرفيعة الّذين كانوا يديرون شؤون المسجد الشريف، مما يظهــر العمــل المتواصل من قبل المماليك للحفاظ على المقامات الدينيّة وصونها احترامًا لقدسيتها وطهارتها.

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص ٢٣٧- ٢٣٩، ٢٤٣.

(٢) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٧٥؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص٣٤٠.

(٣) راشد القحطاني، **أوقاف السلطان الأشرف حسين بن شعبان على الحرمين الشريفين**، ص١٢٢- ١٢٣.

٢- الروضــة المقدّســة فــي العصــر المملوكــي

وممّن زار الروضة المقدّسة أيام المماليك، وبرع في وصفها بدقّة وشموليّة بعد ابن بطُوطة الرحّالة البلوي سنة ١٣٣٧/٧٣٧، فقال متحدّثًا عنها: وأمّا الروضة المقدّسة مع آخر الجهة القبليــة من المسجد، مما يلي الشرق، ولها خمسة أركان بخمس صفحات وشكلها عجيب... وفي الصــفحة الغربيّة منها صندوقٌ مصفّحٌ بالفضّة مكوكب بها، وطوله خمسة أشبار، وعرضه ثلاثة، وارتفاعــه أربعة أشبار، وفي الصفحة القبلية مسمار فضة، وأمام هذه الصفحة نحو العشرين قنديلاً معلّقًا مــن الفضة، وفيها اثنان من الذهب، حيث توقد كل ليلة مع غيرها من الشمع[١].

تلك كانت الزيارة التي قام بها البلوي إلى الروضة المقدّسة خلال العصر المملوكي، وقــد أجاد التّعبير والتصوير لإبراز شكل الروضة وموضعها ومنظرها، ما منحها زخمًا لزيادة الإقبــال على زيارتها من قبل الحجّاج والزوّار والتجّار، كي ينالوا شفاعة الرسول.

(١) - زيارة المسجــد النّبويّ وروضتــه الشريفــة

يفد الحجّاج إلى زيارة المسجد وروضته من كلّ فجٍّ عميق، ومن زاره وزارها ازداد تعلّقًا بهما، وشوقًا إلى رؤيتهما، فيكرّر المجيء إن استطاع، وإلاّ ظلّ توّاقًا إلى السفر إليهما. انطلاقًا من ذلك، سوف نتطرّق إلى الذين زاروا المدينة ووقفوا عند مسجدها الكريم وروضته الشريفة. فكيــف بدت زيارة المدينة آنذاك، ولا سيّما في عصر المماليك؟

قبل الحديث عن الرحّالة أيام المماليك، لا بدّ من التعرف إلى من سبقهم، ومنهم: ابن جبير الذي سجّل في رحلته كلّ ما رسخ في مخيّلته، وقد شرح ذلك فقال: وفي عشي ذلك اليــوم، وهــو الاثنين السادس عشر من شهر نيسان سنة ١١٥٤/٥٨٠، دخلنا الحرم المقدّس، لزيــارة الرّوضــة المطهّرة، فوقفنا بإزائها مسلّمين، ولتُرّب جنباتها المقدّسة مستلمين، وصلّينا بالرّوضة الّتي بين القبر المقدّس والمنبر، واستلمنا أعواد المنبر القديمة الّتي كانت موطيء الرّسول[٢].

تلك الزيارة الدينيّة والتاريخيّة لابن جبير، زوّدت المتأخّرين عنه بمعلومات قيّمــة، ظهــر أثرها في الحقبة اللاحقة.

وقد تواصلت زيارة المسجد الكريم والرّوضــة الشــريفة بعــد ذلــك، ولا ســيّما ســنة ١٢٨٥/٦٨٤، عندما توجّه ابن رُشَيد لزيارة الرسول الكريم، وأشار إلى ذلك بقولــه: ثــمّ دخلنــا

---

(١) البلوي، تاج المفرق، ج١، ص ٢٨٥- ٢٨٧؛ A. M. Turki, H. R. Souami, *Récits de Pèlerinage à la Mekke*, p.70- 72.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، مج١، ج٣، ص٢٣؛ ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص١٦٧- ١٦٨؛ الشربيني، مناسك الحــج، ٥٠- ٥٣ ورقة؛ علي فكري، خلاصة الكلام، ص٣٤٩- ٣٥١.

المدينة- شرّفها الله- للسلام على النبيّ، وقد ملأ السرور قلوبنا، واستعملنا سنّة السلام وحيّيناه بتحيّة الإجلال والإعظام. وقضينا المستطاع من أدب التحيّة، ثم قضينا حقّ السلام على خليفة رسول الله الصدّيق، ثانيه في الغار والعريش والطريق[١].

يظهر ابن رُشيد إجلاله ووقاره للمدينة الطاهرة ولرسول الله، ويصوّر طريقة التعاطي مع ضريح الرسول الأكرم بعنفوان وتعظيم، ما يدلُّ على الدور الديني والدنيوي الرفيع الشأن للرسول الأعظم.

أما الرحّالة العبدري، فأشار إلى الزيارة أيضًا بعد فترة وجيزة لا تتعدى الأربع سنوات من مشاهدة ابن رُشيد لروضة الرسول الأكرم فتحدّث عنها قائلاً: وعلى الرّوضة- زادها الله تشريفًا- كسوة رائقة، انسدلت عليها إلى قريب من القامة، تُكْساها في كل سنة كما تكسى الكعبة. وأخبرني الشيخ الأديب أبو الحسن التجاني[٢] بثغر تونس، أنه وقف على الرّوضة، وإذا في أستارها مكتوبًا:

سعدتم به يَا زَائرينَ ضَريحَهُ ... أمِنتم به يَوْمَ المَعادِ مِن الرّجْسِ

سَلِمتُمْ وأصبَحْتُم بأكنافِ طيبةٍ ... فَطوبَى لِمَنْ يَضْحَى بطيبة أو يُمسي

وأمّا الرّوضة فمصمتة لا باب لها، وفوقها قبّة بيضاء إلى الدّكنة مصمتةٌ أيضًا، يثير مرآها من ذي الوجد كامن الأشجان، ويهيج من القلب ساكن الأحزان... تضمّنت غير ناطقة ما لم يتضمن ديوان:

تُشيرُ إلى عُلومٍ قدْ حَوتْها ... إشارةَ عَالِمٍ فَطِنٍ لَبيبِ

وقدْ لَبِستْ بدُكنتِها حِدَادًا ... وَجَدَّ لَنا الأسى عريُ السَّليبِ

كَفَى بِتَواصُلِ العَبَراتِ شُغلاً ... يُعوقُكَ عَنْ مَديحٍ أو نَسيبِ[٣].

تلك لوحة معبِّرة ترسم مشاعر الحزن والأسى في التفجُّع على النبي محمَّد.

استمرَّ توافد الرحّالة إلى الدِّيار المباركة للتبرّك بزيارة الرسول، والمزارات الأخرى الدينيّة والتاريخيّة الّتي تميَّزت بها طيبة الطيّبة، في أرضها الطاهرة، فقام ابن بطُّوطة برحلته إلى الحرمين الشريفين بعد مضيِّ خمسة عقود على رحلة العبدري، وقد تحدَّث عن مدينة الرسول فقال ما نصّه: دخلنا الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم، فوقفنا بباب السلام مسلمين، وصلّينا بالرّوضة

---

(١) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص١٨.

(٢) أبو حسن التجاني، هو علي بن إبراهيم بن أبي القاسم التجاني: أديب وشاعر، راوية. كان مقصودًا لتعليم العربيّة والأدب، تخرَّج به جماعة منهم: عبد الله التجاني صاحب الرحلة، ومحمد بن جابر الوادي آشي. توفي بتونس سنة ١٣١٤/٧١٤. العبدري، **رحلة العبدري**، ص٤٢٦؛ ابن رُشيد، م. س.، ج٥، ص٢٧٣.

(٣) العبدري، م. س.، ص٤٢٦- ٤٢٨.

الكريمة بين القبر والمنبر الكريم، واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الّذي حنَّ إلى رسول الله، وهي ملصقة بعمود قائم عن يمين مستقبل القبلة، وأدّينا حق السلام... علىالنبيّ الهاشمي محمَّد، [١].

ومن الذين قاموا بزيارة الحرم الشريف أيام الناصر محمَّد بن قلاوون سنة ١٣٣٧/٧٣٧، البلوي، فقال متحدثًا عن زيارته تلك: ووصلنا إلى المدينة النبويَّة، ثمَّ ابتدرنا إلى الحرم الشريف... فاستعظمنا الإقدام على المقام، ووقفنا بين يدي ساكنه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام... لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾

وأخذت في تلاوة القرآن... ثم ختمت الختمة بالدعاء[٢].

تبدو عظمة المدينة وجلالتها وشموخها من خلال تعبير البلوي زمن الناصر قلاوون، فهو يبدو حريصًا على وصف أحاسيسه العميقة والجيَّاشة عند أداء الزيارة، فكفى المدينة كرامةً أنها ضمَّت جسد رسول الله الشريف.

وفي النصف الثَّاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وصل القلصادي[٣] إلى المدينة، وأشار إلى هذا الحدث فقال: ودخلنا الحرم الشريف، والمقام المنيف، فأشرقت أنواره، ولاحت أسراره، فسلَّمنا على الرسول والنفس في دهش [٤].

إنّ زيارة المسجد النبويّ والروضة الشريفة تُعَدُّ من أهم القربات وأربح المساعي وأفضل الطلبات، فإذا توجَّه الزائر إلى الزيارة، أكْثَرَ من الصلاة على الرسول في طريقه، وفي حال وقع بصره على أشجار المدينة وحرمها، وما يعرف بها، زاد من الصلاة والتسليم عليه، وسأل الله تعالى أن ينفعه بزيارته، وأن يسعده بها في الدارين، وليقل: اللهمَّ افتح عليّ أبواب رحمتك، وارزقني زيارة قبر محمَّدٍ[٥].

لقد حظيت زيارة رسول الله باهتمام الرحَّالة، فنظَّموا قصائد مدحوا بها محمَّدًا بالحجاز؛ ومن هؤلاء الرحَّالة العبدري: حضر لسماعه أناس، وسمعها أيضًا شيخ من أهل العراق كان

---

(١) ابن بطُّوطة، **تحفة النظَّار**، ج١، ص٦٩.

(٢) **سورة النساء**، ٦٤/٤؛ البلوي، **تاج المفرق**، ج١، ص٢٨٢- ٢٨٣.

(٣) القلصادي، أبو الحسن علي الأندلسي ويعرف بالقلصادي، ولد في مدينة بسطة قبل سنة ١٤١٢/٨١٥، وقرأ بها القرآن، دخل القاهرة سنة ١٤٤٧/٨٥٠ وفي التي بعدها حجَّ فيها وعاد إلى القاهرة وأقام بها فقرأ عليه الناس وكتبوا، من مصنفاته **رحلة القلصادي**. السخاوي، **الضوء اللامع**، ج٦، ص١٤- ١٥.

(٤) القلصادي، **رحلة القلصادي**، ص١٤٥.

(٥) النووي، **الأذكار النووية**، ص٢٣٦؛ السيوطي، **تاريخ الخلفاء**، ص٨١.

مجاورًا بالمدينة، معنيًّا بالعلم، وهو عفيف الدّين بن محمّد البصري، وذلك بحرم رسول الله، تجـاه الرّوضة، وأتى العبدري على ذكرها فقال:

هذي حِلاَلُ المُصْطَفَى ورُبوعُهُ　　　هذي مَنازِلُهُ فقُومسي واقْعُـــدِي
خيرِ الأنامِ نَبِيِّهِـمْ وَوَلِيِّهِـمْ　　　وَعَليْهِمْ، أعظِـمْ بِهِ مِنْ سَيِّـــدِ
يا خيرَ مَنْ قَرأَ الكتابَ مُرَتِّلاً　　　يا خيرَ مَنْ هَجَـــرَ الكَرَى لتَهجُّدِ
أنَا في حِمَى مَنْ لا يَخيسُ بذِمَّةٍ　　　فَخْرِ الوَرَى خَـيْرِ البَرِيَّةِ أحْمَـــدِ[١].

تلك بعض الأبيات من قصيدة العبدري، وقد تطرّقت إلى شمائل الرسول الدينيّة والدنيويّة، فالرسول كان أجود النّاس، وأحسن النّاس خلقًا وخُلقًا، وألينهم كفًا، وأطيبهم ريحًا، وأكملهم عقــلاً، وأحسنهم عشرةً وأشجعهم، وأعلمهم بالله، وأشدّهم لله خشيةً، لا يغضب لنفسه، ولا ينتقم لهــا، لقـد جمع الله فيه كمال الأخلاق ومحاسن الشيم، وآتاه علمًا واسعًا.

(٢)- زيــارة البقيــع والمقابــر

المدينة غنيّة بمزارات كثيرة، منها: البقيع الذي له عند المسلمين مكانة عظيمة، ويقال لــه: بقيع الغرقد، لأنه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر، ويه دفن نحو عشــرة آلاف مــن الصــحابة الكرام، وكثير من آل بيت محمّد[٢].

ويستحبُّ زيارة قبور أهل البقيع. ومن الرحّالة الّذين توجّهوا لزيارة البقيع ومقابر الصحابة والأولياء، ابن رُشيد سنة ٦٨٤/١٢٨٥، وقد تحدث عن ذلك فقال: ثم زرنا بالبقيع قبر ذي النورين. وقبره في طرف البقيع بقيع الغرقد، بالموضع المعروف بحُش كوكب. ودفنت معه في قبة واحــدة فاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين. وقرأنا على مهد قبرها منقوشًا: ما ضمّ قبر أمّ أحد، كفاطمة بنت أسد. وشهدها رسول الله وألبسها قميصه. وزرنا من عرف قبره من الصحابة والصحابيات، وقبــر إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس[٣].

وكذلك زار البقيع بالمدينة المنوّرة ومقابر الصحابة فيها القلصادي، عندما ذهب إلى الدّيار المقدّسة للحجّ سنة٨٥١/١٤٤٨ فقال معبّرًا عنها: زرنا بها ذّيار الصحابة، وكذلك البقيع، وفي مقابر المدينة المشرّفة، فزرنا به مقام العباس، والحسن، وحمزة، وإمام دار الهجرة مالــك، ومــا أمكننــا زيارته من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين. وبتنا تلك الليلة، وأقمنا صــبيحة اليــوم إلـــى الزوال. ثم دخلنا إلى الحرم الشريف، فسلّمنا على محمّد... والقلب من ألم الفراق يضطرب، فكــان الجواب بلسان الحال:

---

(١) العبدري، **رحلة العبدري**، ص٤٢٩، ٤٣١- ٤٣٥، ٤٣٧- ٤٤١.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٦٤٣؛ محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٣٤٧.

(٣) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص٤١٩؛ ابن تيمية، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، ج١٧، ص٤٧٠.

أحنُّ إلى الوادي ومَنْ فيه نـــــازلُ	ومن أجلِ مَنْ فيه تُحَبُّ المـــنازلُ
وأشتاقُ لمحَ البرقِ من نحوِ أرضِكُم	ففي البرقِ من تلكَ الثغورِ رسائلُ
يرنّحنـــي مـــــرُّ النسـيمِ لأنَّـــــه	بأعطافِ ذاكَ الرّندِ والبانَ مــائلُ
وإنْ مالَ بانُ الرّوحِ ملْتُ صبابــةً	فبين غصونِ البانِ مــنكم شمائلُ[١]

تلك الزيارة الّتي قام بها القلصادي إلى المدينة، وقد أحسن الكلام علـى البقيـع، واصـفًا شعوره وحنينه وعواطفه النبيلة تجاه المدينة وآثارها الدينيّة والتاريخيّة.

وزار البقيع أيضًا سنة ١٠٤٠/١٦٣٠ السرّاج، الّذي تناولها فقال: وبخارج المدينة المباركة بقيع الغرقد من جهة الشرق، فأول ما يلقى الخارج من باب البقيع على يساره روضة صفيّة عمـة النبيّ أم الزبير بن العوام، وأمامها روضة الإمام مالك بن أنس الذي كان إمـام دار الهجـرة فـي الأمصار[٢].

تلك لمحة عن زيارات المعالم الدينيّة الّتي قام بها الرحّالة في فترات متباعدة، حيـث دوّن كلٌّ منهم انطباعاته ومشاهداته، فجاءت رحلاتهم وثائق تاريخيّةً عن الملامـح الدينيّـة والأثريّـة للحرمين في عصر المماليك.

ج- المشــاهد الدينيّة خارج المدينـة في العصر المملوكي

تميّزت المدينة بتراثٍ عظيمٍ من الآثار التاريخيّة، فمنها:

١- بقيــع الغرقـد

بقيع الغرقد بشرقيّ المدينة، ويخرج إليه على باب يعرف بباب البقيع، فأوّل ما يلقى الخارج إليه على يساره، قبر صفية بنت عبد المطلب، وهي عمة رسول الله... وأمامها قبر أبـي عبـد الله مالك بن أنس، وأمامه قبر إبراهيم بن محمد وعليه قبّة بيضاء. وعن يمينها تربة عبد الرّحمن بـن عمر بن الخطاب، وهو المعروف بأبي شحمة. وبإزائه قبر عقيل بن أبي طالب، وقبر عبد الله بـن جعفر بن أبي طالب، وبإزائه روضة قبور أمّهات المؤمنين، ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب وقبرهما مرتفعان عن الأرض متّسعان، مغشّيان بألواح بديعة الالتصاق مرصّعة بصفائح الصّفر البديعة العمل. وبالبقيع قبور المهــاجرين والأنصار وسائر الصّحابة، إلا أنها لا تعرف بأكثرها.

---

(١) القلصادي، **رحلة القلصادي**، ص١٤٦- ١٤٧.

(٢) السراج، **أنس الساري والسارب**، ص١٠٧- ١٠٨؛ علي فكري، **خلاصة الكلام**، ص٣٥١- ٣٥٢.

وفي آخر البقيع قبر عثمان بن عفان، وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هشـــام أمّ علي بن أبي طالب[١].

تلك صورة بقيع الغرقد الغنيّة بمقابر الأولياء والصلحاء والصحابة ومدافنهم، حيث تحوّلت إلى مزارات وزيارات دينيّة وتاريخيّة من قبل الوافدين والمقيمين في طيبة.

٢- مسجـد قبــاء

ومن المناظر الكريمة قباء، وبه المسجد الذي أسّس على التقوى والرضوان. وهـو مسـجد مربّع، فيه صومعة بيضاء طويلة، وفي الجهة القبلية من صحنه محراب على مصـطبة هـو أوّل موضع ركع فيه محمّد.

وجدّد هذا المسجد سنة٦٧١/١٢٧٢، وطوله مائة وعشرون خطوة، وعرضه كذلك، ولـه باب واحد من جهة المغرب، ومئذنته عالية جدًا بيضاء تظهر عن بعد، وبإزائه بئر أريس... وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان[٢].

وهناك أيضًا المساجد الخمسة الّتي تعرف بمساجد الفتح، الأوّل: ويقال له مسجد الأحـزاب والمسجد الأعلى، ثم هناك المسجد الّذي في أسفل الجبل المعروف بمسجد أبي بكر الصدّيق، وكـان خراباً في الأصل، فجدّد بنيانه بعض الفقراء سنة٧٠٢/١٣٠٢، وبعده يوجد مسجد ينسب إلى سلمان الفارسي، فمسجد محمّد الذي بات فيه، وهو في مكان يقال له: شعب بني حرام[٣].

٣- حجـر الزّيـوت وحصن العـزّاب وجبـل أحـد

ومن الأماكن الأثريّة أيضًا، حجر الزّيوت بخارج المدينة. يُقال: إن الزّيت رشح من حجر هنالك للرسول، وإلى جهة الشمال منه بئر بضاعة، وبإزائها جبل الشّيطان[٤]. وعلى شفير الخنـدق الذي حفره رسول الله عند تحزّب الأحزاب، حصن خرب يُعرف بحصن العزّاب، وأمامه إلى جهة الغرب بئر رومية الّتي اشترى عثمان نصفها بعشرين ألفًا وتصدّق بها[٥].

---

(١) البلوي، **تاج المفرق**، ج١، ص٢٨٨- ٢٨٩؛ ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٧٥- ٧٦؛ الفيروز آبـادي، **القـاموس المحيط**، ج٣، ص٩؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٢٩٤؛ A.M. Turki, H. R. Souami, *Récits de Pèlerinage à la Mekke*, p.73.

(٢) الحربي، **المناسك**، ص٣٩٨؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، ج١، ص٩٠؛ البلوي، م. س.، ج١، ص٢٨٨؛ ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص٧٦؛ القلقشندي، م. س.، ج٤، ص٢٩٤؛ القرماني، **أخبار الـدول**، ج٣، ص٤٣٧؛ علـي فكـري، **خلاصة الكلام**، ص٢٥٢.

(٣) ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص٧٧؛ النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٤٠٢؛ مجهول المؤلف، **الحجّ والـدعاء**، ٢٣ورقـة؛ علي فكري، م. س.، ص٣٥٤.

(٤) ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص٧٦.

(٥) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٧٥؛ ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص٧٧.

ومن المشاهد الكريمة الّتي انفردت بها المدينة أحُد، وهو الجبل المبارك الّذي قال فيه رسول الله: إن أحُدًا جبل يحُبّنا ونحبه. وهو بجوار المدينة الشّريفة، على نحو فرسخ منها، وبإزائه الشّهداء المكرّمون. وهنالك قبر حمزة عم رسول الله، وحوله الشهداء المستشهدون في أحد، وقبورهم لقبلي أُحد[١].

٤- أبـواب المدينـة

وللمدينة أربعة أبواب، وهي تحت سورين؛ في كل سور باب يقابله باب آخر، الواحد منها حديد كله، ويعرف بباب الحديد، ويليه باب الشريفة، ثمّ باب القبلة، ثم باب البقيع[٢].

٥- العيـن المنسوبـة إلى الرّسـول

ومن المشاهد العظيمة عن يمين طريق المدينة، العين المنسوبة إلى الرّسول، وعليها حلق عظيم وبنيان مستدير، وتحته سِقايتان مستطيلتان، وماء هذه العين المباركة تستعملها أهل المدينة[٣].

تلك المشاهد الكريمة، والآثار التاريخيّة العظيمة، نالت اهتمام السلاطين والرحّالة العابرين، والحجّاج الزائرين في عصر المماليك.

* * *

نستنتج مما تقدم النقـاط التاليـة:

حظيت الآبار والسِقايات والبرك والعيون والمطاهر باهتمام سلاطين المماليك، ولا سيّما بئر ميضأة التي عمّرها الناصر سنة ٧٠٦/١٣٠٦. وفي سنة ٨٣٤/١٤٣١، تّم إصلاح جميع آبار مكّة لتخفيف عطش الحجّاج.

وتميّز العصر المملوكي بمشاركة النساء في حفر الآبار وتشييدها، حيث أنشأت الستّ أخت السلطان الناصر حسن صاحب مصر بئرًا سنة ٧٦١/١٣٦٠، وشيّد زين الدين عبد الباسط بئرًا سنة ٨٢٦/١٤٢٣ وجدّد أبو السعادات بئر عطيّة بن ظُهيرة سنة ٨٥٦/١٤٥٢، وعمل السلطان الناصر حسن على عمارة بركتين عند باب المعلاة سنة ٧٤٩/١٣٤٩، وساهم أيضًا عبد الباسط في بناء بركة الحجّ لوضعها برسم الحجّاج سنة ٨٢٨/١٤٢٥.

وكذلك انصبّ جهد سلاطين المماليك على ترميم وإصلاح ما تهدّم من المقامات الدينيّة الخاصة بالشعائر والزيارات، وعمد الناصر قلاوون إلى بناء صفوف المسجد الحرام.

---

(١) البلوي، **تاج المفرق**، ج١، ص٢٨٨؛ ابن بطُوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص٧٧؛ علي فكري، **خلاصة الكلام**، ص٣٥٣.

(٢) البلوي، م. س.، ج١، ص٢٩٠؛ القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٢٩٢؛ السراج، **أنس الساري والسارب**، ص١٠٢؛ النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٣٤٣.

(٣) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٧٤؛ البلوي، م. س.، ج١، ص٢٩٠.

كما ركّز المماليك اهتمامهم على هيكليّة الكعبة المعظّمة وشكلها، حيث رخّمت من قبل المظفر صاحب اليمن، وجدّدت عمارتها.

وبذل سلاطين المماليك جهدهم في إعادة بناء الأماكن الأثريّة والتاريخيّة، ولا سيّما مكان ولادة محمّد وتجديد بناء دار الخيزران.

وبرزت عناية المماليك أيضًا بمراكز المدينة الدينيّة والتاريخيّة، فأعيد بناء مسجد قباء سنة ١٢٧٢/٦٧١، وأنجز سقف الحجرة الشريفة سنة ١٢٥٧/٦٥٥.

وسعى الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٤/٦٦٣ إلى عمارة الحرم النبويّ الشريف. أما السلطان منصور قلاوون، فبنى دارًا للوضوء عند باب السلام.

وبعد ذلك، جدّد بناء المسجد الشريف سنة ١٤٨٢/٨٨٦ بإشراف السلطان قايتباي.

أمّا نشاط الرحّالة، فكان بالمراكز والمقامات الدينيّة والتاريخيّة خلال زياراتهم إلى بلاد الحجاز، فعبّروا عن انطباعاتهم، ومنهم: العبدري الّذي أثنى على فضل زيارة الرسول الكريم ومدحه.

تلك أحوال مكّة والمدينة ومعالمهما الطبيعيّة، إضافةً إلى مكانتهما الدينيّة والتاريخيّة في العصر المملوكي. وسوف نتكلم في الفصل الثاني- إن شاء الله- عن موسم الحجّ برعاية أشراف الحجاز أيام المماليك، لنقف على دور أمراء مكّة والمدينة، وشعائر الحجّاج وأدعيتهم بأرض المناسك.

الفصـــل الثّانــــي

دور أشراف مكّة والمدينة في موسم الحجّ في العصر المملوكي

بعد الكلام على أحوال مكّة والمدينة ومكانتهما الدينيّة في الفصل السابق. نعالج فــي هــذا الفصل دور أشراف مكّة والمدينة في موسم الحجّ في العصر المملوكي، ومع قيام السلطنة المملوكيّة في مصر سنة ١٢٥٠/٦٤٨، كان أمير مكّة راجح بن قتادة وليًا عليها بمساعدة علي بــن رســول صاحب اليمن، وقد انتزعت منه الإمارة ثماني مرّات، حتّى كانت وفاته ســنة ١٢٥٦/٦٥٤. أمّـا إمارة المدينة، فكان عيسى بن شيحة بن مهنا وليًا عليها. وقد اتّصفت العلاقات بين أشراف الحجاز والسلطنة المملوكيّة بالتذبذب وعدم الاستقرار؛ فتارةً تكون العلاقات جيدةً، وتــارةً تصــبح ســيّئةً، انطلاقًا من ذلك، سنحاول أن نعالج في هذا الفصل أمورًا: منها، هل اســتغلّ ســلاطين المماليــك الصراع بين الأشراف؛ للتدخّل في شؤونهم، وتوطيد نفوذهم في الحرمين الشريفين؟ وهــل كــان للصراع السياسي والكوارث الطبيعيّة تأثير على حركة الحجّ؟

هذا ما نتناوله في المبحث الأوّل من هذا الفصل. ثم ننتقل إلى المبحث الثّاني المخصّــص للحديث عن تأدية مناسك الحجّ برعاية أشراف الحجاز.

أولاً- دور أشراف مكّة والمدينة في ضمان سلامة الحجّاج ومشكلة الكوارث الطبيعيّة

تشير كلمة "أشراف"، وكذلك "شرفاء"، إلى الارتفاع والعلو، وتطلقان على الشخص الحــرّ الّذي له آباء متقدّمون في الشرف. ومن المفروض بطبيعة الحال، أنّ الصفات المحمودة في الآبــاء تنتقل بالوراثة إلى الأبناء[1]. وذكر ابن منظور في لسان العرب: الشرف: الحسب بالآبــاء، فهــو شريف، والجمع أشراف. والشرف والمجد لا يكونان إلا بالآباء. ويقال: رجل شريف ورجل ماجــد له آباء متقدّمون في الشرف. وقال أيضًا: الحسب والكرم يكونان وإن لم يكن له آباء لهم شرف[2].

والأشراف هم رؤساء القبائل ذوو الشأن والجاه، وبيدهم تدبير شؤون القبيلة أو شؤون أهل المدينة. ويرى الأشراف في أنفسهم أنهم "أهل الفضل". وتطلق كلمة "شريف" أيضًا على الشــخص ذي المكانة والجاه في مقابل الضعيف والوضيع من الناحية الاجتماعيّــة. وفــي الإســلام، صــار الانتساب إلى بيت النبيّ علامة شرف خاصّة[3]. بدأ حكم الأشراف بمكّة في بداية الحكم الفــاطمي سنة ٩٦٨/٣٥٨ فاستولى جعفر بن محمّد الحسني، وهو أحد الأشراف الحسنيّين، على مقاليد الأمور

---

(١) C.Van Arendonk, W. A. graham, "Sharif", *EI₂*, vol.IX, p.340.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٧، ص٩٠، "الشرف".

(٣) C. Van Arendonk, W. A. graham, *Op.Cit*, p.341.

في مكّة، وكان يقيم بالمدينة في عهد كافور الإخشيدي، ثم قدم إلى مكّة في أواخر عهد الدولة الإخشيديَّة واستولى عليها وأقام بها إمارة حسنية مستقلة[١].

إلاّ أنّ خطبة الفاطميين بمكّة ما لبثت أن قطعت عقب وفاة المعزّ في سنة ٩٧٥/٣٦٥. فلما خلفه ابنه العزيز بالله، بعث جيشًا إلى مكّة يقوده رجل علويّ حاصر مكّة ومنع وصول الغلال إليها، حتّى اشتدّ بها الغلاء، فاضطر أمير مكّة، في مقابل رفع الحصار وإطلاق الميرة، أن يقيم الخطبة للعزيز في موسم سنة ٩٧٥/٣٦٥[٢].

يمثّل انقطاع الخطبة العباسيَّة بمكّة تحولاً في موقف أمرائها تجاه الخلافة العباسيَّة، إذ يؤكّد ذلك أنّ مكّة أصبحت، في عهد الجعافرة، تعتمد على الفاطميين في مدّها بالمؤن. وقد شجّع الفاطميون، منذ زمن العزيز بالله، ذلك الاعتماد، لضمان الدعاء لهم بمكّة.

جدير ذكره أنه لم تتغير طبيعة العلاقة القائمة بين الجعافرة والفاطميين حتى نهاية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، فقد ظلّ الفاطميون يواصلون إرسال المساعدات إلى مكّة مع الكسوة برفقة ركب الحجّ سنويًّا منذ سنة ٩٩٥/٣٨٤ إلى سنة ١٠٠٧/٣٩٧[٣].

وفي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، برز فرع آخر من الأسرة الحسنية، هو فرع الهواشم. وقد دار القتال بين السليمانيين، والهواشم سنة ١٠٦٢/٤٥٤، فأوقع محمد بن جعفر الهزيمة بالسليمانيين وطردهم من الحجاز، فرحلوا إلى اليمن. وهكذا انتهى عهد بني سليمان بمكّة. وقد استقل محمد بن جعفر بإمرة مكّة، وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله[٤]، غير أنه ما لبث أن قطع خطبته، وأمر بأن يدعى للخليفة العباسي القائم بأمر الله في الخطبة. فلمّا علم المستنصر بذلك، أمر داعيته باليمن، علي بن محمد الصليحي، أن يسير بجيشه إلى مكّة ليعيدها إلى تبعية الدولة الفاطميَّة وللقضاء على النفوذ العباسي بها[٥].

قدم الصليحي إلى مكّة في سنة ١٠٦٣/٤٥٥، وأقام الخطبة بها للمستنصر بالله. وتمكّن من إعادة الأمن والاستقرار إلى مكّة. وقد عاد السليمانيون، وعلى رأسهم حمزة بن وهّاس، إلى مكّة بعد رحيل الصليحي منها، وحاربوا محمد بن جعفر، وكانت النتيجة أن انهزم وهرب إلى ينبع، وصار يقطع طريق القوافل المتّجهة إلى مكّة في محاولة لإجبار السليمانيين على مغادرة مكّة. ثم ما

---

(١) ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، ص١٤.

(٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج ٨، ص ٦٦٧.

(٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٤، ص٢١٥.

(٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٢٧٠.

(٥) ريتشارد مورتيل، م. س.، ص٢٤.

لبث أن تمكّن من العودة إلى مكّة وتولّى إمرتها مرةً أخرى. إلاّ أنّ الحرب ظلت سجالاً بين الهواشم والسليمانيين لمدة سبع سنين، إلى أن خلصت مكّة نهائيًا للأمير محمّد بن جعفر[١].

جدير ذكره، أنّ علاقة الأمير محمد بن جعفر مع كل من الخلافة العباسيّة والخلافة الفاطميّة، لم تستقر على حال، فكان يدعو تارةً للفاطميين، وتارةً للعباسيين[٢]. فقد أضحت الخلافة العباسيّة في عهد ألب أرسلان وملكشاه السلجوقيين، تنافس الدولة الفاطميّة في الخطبة بمكّة. فبينما سعت الدولة الفاطمية للحفاظ على الخطبة بمكّة، بذل السلاجقة أقصى جهودهم في تحويل الخطبة بمكّة إلى الخلافة العباسيّة. وقد أدرك الفاطميون والسلاجقة أن أفضل طريقة لتحقيق هذا الغرض، هي بذل الأموال وإرسال الغلاّت لأشراف مكّة. وحرص محمد بن جعفر على الإفادة من هذا التنافس، مع محاولة الحفاظ على استقلال مكّة، لكنه لم يوفّق في ذلك.

وفي موسم حجّ سنة ١١٧٦/٥٧١، دار قتال بالأبطح بين الأمير مكثر بن عيسى وأمير الركب العراقي، طاشتكين المستنجدي، وقد صحب طاشتكين في سفره إلى مكّة في تلك السنة عسكر كبير. وكان الغرض من ذلك إعادة الأمن والاستقرار إلى مكّة بعد اضطراب الأوضاع بها. ولما تيقّن مكثر بن عيسى من عجزه عن التغلب على أمير الركب العراقي، التجأ إلى الحصن الّذي بناه أبوه فوق جبل أبي قبيس وتحصّن به؛ فحاصره طاشتكين، واضطر مكثر إلى ترك الحصن والهرب من مكّة. ثمّ ولي طاشتكين قاسم بن مهنا الحسيني، وهو أمير المدينة، مقاليد الأمور بمكّة. وكان قاسم بن مهنّا هذا قد أتى إلى مكّة من المدينة صحبة طاشتكين وركب العراق، وقد مكث ثلاثة أيّام أميرًا على مكّة أيقن خلالها أنه لن يستطيع البقاء في منصبه بعد رحيل الحجّ، فطلب من طاشتكين إعفاءه من الإمارة. فرأى طاشتكين أن يعيد تولية داود بن عيسى أميرًا عليها، بعد أن اشترط عليه إسقاط المكوس[٣].

عاد الاضطراب إلى مكّة مرةً أخرى سنة ١١٩١/٥٨٧، لأنّ أمير مكّة، داود بن عيسى، أخذ الأموال الّتي كانت في خزانة الكعبة. فلما قدم أمير الحجّ إلى مكّة، عزل داود من إمرتها، وولّى أخاه مكثرًا مكانه[٤].

انفرد مكثر بإمارة مكّة حتّى عزله قتادة بن إدريس الحسني سنة ١٢٠٠/٥٩٧، وبذلك انقرضت ولاية بني فليتة المعروفين بالهواشم. ومع قيام السلطنة المملوكيّة في مصر والشام،

---

(١) ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، ص ٢٤.

(٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص١٤٠.

(٣) ريتشارد مورتيل، م. س.، ص٣١.

(٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٢، ص١٠٤.

كان راجح بن قتادة هو أمير مكّة، كما سبق ذكره، واستمرّ فيها حتّى وفاته سنة ١٢٥٦/٦٥٤[١].

وبذلك زالت دولة الهواشم بمكّة. ويبدو أنّ السبب الأساسي لزوال دولتهم، يكمن في ذلك الصراع المستمرّ حول وراثة الإمرة. وأصبحت الإمارة في مكّة بعد حوالى قرنين من الزمن محصورةً في بني قتادة.

ولمّا تمّت لقتادة السيطرة على مكّة وأعمالها، وأمن جانب الخلافة العباسيّة، شنّ هجومًا على المدينة في سنة ١٢٠٤/٦٠١. وخرج أمير المدينة سالم بن قاسم الحسيني إلى لقائه، فهزمه قتادة، وظلّ يحاصر المدينة عدّة أيام، غير أن سالم بن قاسم استطاع أن يستميل أصحاب قتادة، فخذله بعضهم، ما أدّى إلى انهزام قتادة وأسر بعض أصحابه، ثمّ عودته إلى مكّة[٢].

أما علاقة أشراف المدينة الحسينيين بمكّة، فدخلت في مرحلة ثانية من النزاع في سنة ١٢١٥/٦١١، ولم ينته النزاع هذه المرّة إلا بموت قتادة نفسه في سنة ١٢٢٠/٦١٧. وما استجدّ في هذه المرحلة، أنّ الأيوبيين بالشام تدخّلوا في النزاع إلى جانب أمراء المدينة[٣].

استمرّ حكم قتادة بن إدريس على مكّة وأعمالها مدّة عشرين سنة تقريبًا، استطاع خلالها أن يعيد الأمن والاستقرار إليها، بعد حال الفوضى والاضطراب الّتي سادت فيها في أواخر القرن السادس الهجري/الثّاني عشر الميلادي[٤]. وعقب مقتل قتادة، اجتمع ابنه الحسن بالأشراف في المسجد الحرام فبايعوه بإمرة مكّة[٥].

تولّى الحسن بن قتادة إمرة مكّة إثر وفاة أبيه في سنة ١٢٢٠/٦١٧، وكان له أخ اسمه راجح يقيم في بادية مكّة، ينازعه في الإمارة بحجة أنه الابن الأكبر لقتادة وصاحب الحق في وراثة إمارته. وفي موسم الحجّ من سنة ١٢٢٠/٦١٧، قطع راجح بن قتادة الطريق بين مكّة وعرفات، وكان أمير الحجّ العراقي في تلك السنة أقباش بن عبد الله الناصري، مملوك الخليفة العباسي الناصر لدين الله. وكان الناصر قد أرسل معه تقليدًا للحسن بن قتادة بولاية مكّة. ولما كان يوم عرفات، قدم راجح بن قتادة إلى أقباش الناصري بعرفة، ووعده ببذل المال له إن هو ساعده على الفوز بإمارة مكّة؛ لكن أقباش لم يجبه إلى طلبه[٦].

---

(١) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٣٦٠- ٣٦١.

(٢) ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، ص ٣٧.

(٣) المقريزي، **السلوك**،ج١، قسم١، ص١٨٠.

(٤) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٦، ص٢٤٩.

(٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٢، ص٤٠١.

(٦) المقريزي، م. س.، ج١، قسم١، ص٢٠٦.

ومما زاد في تدهور الوضع السياسي بمكّة، افتراق كلمة الأشراف الحسنيين، وتنازعهم حول ما تبقّى لهم من نفوذ بمكّة في ظلّ الحكم الرسولي أو الأيوبي. ففي أوائل سنة ١٢٣٤/٦٣٢، اختلف الشريف راجح بن قتادة، نائب الملك المنصور الرسولي بمكّة، مع أخويه قاسم وعلي اللذين أخذا مكّة منه قهرًا ومكثا فيها خمسة أشهر. وفي خلال إقامتهما بمكّة، عمد قاسم وعلي، ابنا قتادة، إلى الاستيلاء على قناديل الكعبة وحليتها؛ واستعانا بها على محاربة أخيهما راجح. ثمّ جمع راجح بن قتادة عسكرًا استعاد به مكّة. وقد تأثّرت العلاقات بين راجح بن قتادة والمنصور نور الدين الرسولي إثر هذا الحادث؛ فقد اتّهم راجح المنصور بمعاونة أخويه ضده، ما ترتب عليه انصراف المنصور عن الاعتماد على راجح[1].

وفي سنة ١٢٤٩/٦٤٦، عزل الملك المنصور الأمير فخر الدين بن الشلاح من ولاية مكّة، وعيّن مكانه محمّد بن أحمد بن المسيّب اليمني، ولم يلبث الأمير الجديد أن نقض الإصلاحات الّتي قام بها الملك المنصور خلال إقامته بمكّة سنة ١٢٤٢/٦٣٩، فأعاد المكوس والجبايات الّتي ألغاها المنصور[2].

كانت الخطوات الّتي اتّخذها ابن المسيّب كفيلةً بإثارة الشريف أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة. إضافة إلى ذلك، كان بعض شيوخ العرب قد حسّنوا له الاستيلاء على مكّة. فعزم الشريف أبو سعد على تحقيق ذلك، وهاجم الكتيبة الرسوليّة المرابطة بمكّة في أواخر سنة ١٢٥٠/٦٤٧ وهزمها، وبرّر ما فعله بخروج ابن المسيّب على الملك المنصور وعزمه على الهرب إلى العراق مع الأموال الّتي جمعها خلال إقامته بمكّة. ثمّ ما لبث أن وصل خبر وفاة المنصور نور الدين إلى مكّة، وبذلك أتيح للشريف أبي سعد أن يستولي على إمارتها[3].

ولما استقرّت قواعد الملك المظفر يوسف باليمن في تلك الفترة، قرر أن يتّخذ إجراءات حاسمةً للقضاء على اضطرابات الأشراف بمكّة ليضمن لنفسه الدعاء بها، فجهّز الأمير مبارز الدين علي بن حسين بن برطاس إلى الحجاز في ثلاثمائة فارس في سنة ١٢٥٤/٦٥٢، فوصلوا إلى مكّة[4].

ولمّا علم أميرا مكّة، إدريس وأبو نمي، بقدوم ابن برطاس، أرسلا إلى أمير المدينة، الشريف جمّاز بن شيحة، يطلبان منه النجدة. فاستجاب جمّاز وأتى إلى مكّة، وأوقع ابن برطاس

---

(١) ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، ص ٤٥.

(٢) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص٧٧.

(٣) ريتشارد مورتيل، م. س.، ص ٥٠.

(٤) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص٣٩٦.

الهزيمة بعسكر الأشراف، واستولى على مكّة، وظلّ مقيمًا بها إلى ما بعد موسم الحجّ من تلك السنة(١).

كان الأمير محمد أبو نمي يطمع في الانفراد بإمرة مكّة، فلما توجه إدريس بن علي بن قتادة إلى حيث يقيم عمّه راجح بن قتادة في سنة ٦٥٤/١٢٥٦، عمد إلى الاستئثار بالإمارة، غير أنه ما لبث أن صالح إدريس واشترك كلاهما في إمرة مكّة مرةً ثانيةً(٢).

وبعد وفاة أبي نمي سنة ٧٠١/١٣٠١، تنازع الإمارة أربعة من كبار أولاده، هم رميثة وحميضة وأبو الغيث وعطيفة، وقد دام نزاعهم من سنة ٧٠١/١٣٠١ إلى سنة ٧٣٧/١٣٣٧، أي نحوًا من ست وثلاثون سنة، انتهى الأمر في نهايتها إلى رميثة(٣).

وهكذا استقرّت إمارة مكّة للشريف رميثة بن أبي نمي، وظل يليها منفردًا بها إلى سنة ٧٣٤/١٣٣٣، ويظهر أن العلاقة بين رميثة والسلطنة المملوكيّة قد طرأ عليها تحسُّنٌ ملحوظ بعد عودته إلى الإمارة(٤).

وفي النصف الأوّل من سنة ٦٣٧/١٣٣٧، تصالح عطيفة مع رميثة، واتفقا على المشاركة في إمرة مكّة؛ غير أن هذه المشاركة لم تستمر أكثر من بضعة أشهر، لأنّ عطيفة ورميثة ما لبثا أن قرّرا اعتزال الحياة السياسيّة وترك الإمرة لولديهما. فعيّن عطيفة ابنه مباركًا أميرًا بمكّة، وأقام رميثة ولده مغامسًا بالجديد بوادي مرّ، ثم توجه عطيفة ورميثة إلى الواديين باليمن وأقاما هناك(٥).

وفي سنة ٧٣٧/١٣٣٧، ذاع بمكّة أنّ الشريف مبارك بن عطيفة يخطط لنهب بيوت التجار، فبادر مبارك إلى تكذيب ذلك، لاعتقاده أنّ معاداة التجّار له سيكون لها تأثير في إضعاف حكمه بمكّة(٦).

ومن الرّاجح أنّ السلطنة المملوكيّة كانت هي السلطة صاحبة النفوذ في إمارة مكّة منذ وفاة الشريف أبي نميّ سنة ٧٠١/١٣٠١، إذ عمل السلطان الناصر محمّد بن قلاوون على توطيد سلطته عليها عن طريق عزل الأشراف واستبدالهم بآخرين، حرصًا منه على استقرار الأمور فيها. إضافةً إلى أنّ الناصر محمّد عمد إلى إرسال العسكر إلى مكّة لمواجهة الأحداث الّتي تهدّد أمنها واستقرارها أو تزعزع السيطرة المملوكيّة عليها.

---

(١) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص ١١٥.

(٢) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ٤٥٩.

(٣) أحمد السباعي، **تاريخ مكّة**، ص ٢٦٢.

(٤) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص ١٠٤– ١٠٥.

(٥) ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، ص ٨٨– ٨٩.

(٦) الفاسي، م. س.، ج ٧، ص ١٢١.

وفي سنة ١٣٤٤/٧٤٤، تنازل الشريف رميثة عن حقوقه في إمرة مكّة إلى ابنيه عجلان وثقبة، اللذين عوّضا والدهما عن ذلك بمبلغ ستين ألف درهم. على أنّ رميثة ما لبث أن عاد إلى الإمرة في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة بمرسوم صدر من سلطان المماليك، الصالح إسماعيل بن الناصر محمّد بن قلاوون١٣٤٢/٧٤٢، ثمّ تقلّد إمرة مكّة ابنه عجلان، ودُعي له على قبّة زمزم في الثامن عشر من جمادي الآخرة سنة ١٣٤٦/٧٤٦. وتوفي رميثة بن أبي نمي في الثامن من شهر ذي القعدة من هذه السنة(١) .

وبوفاة رميثة بن أبي نمي، انتهت حقبة مهمّة من تاريخ مكّة كانت ملأى بالأحداث والتطوّرات، تمكّنت خلالها سلطنة المماليك من إحكام سيطرتها على إمارة مكّة عن طريق التدخّل العسكري المباشر. وكان ذلك التدخّل نتيجة طبيعيّة لتنازعات أولاد الشريف أبي نمي حول وراثة الإمرة، واستعانة بعضهم بالقوى المعادية لسلطنة المماليك في سبيل ارتقاء منصب الإمارة.

لكنّ الملاحظ في هذه الفترة، أنّ الوجود العسكري المملوكي لم يكن موجودًا بمكّة، وإنما كان يظهر حين تتأزم الأوضاع بالإمارة، أو تتعرّض السيطرة المملوكيّة عليها لأيّ تهديد.

ويمكن القول إنّ أشراف مكّة، وإن أصبح قرار تعيينهم وعزلهم في يد سلطان المماليك، ظلوا يتمتّعون بقدر كبير من حرية التصرف في الشؤون الداخليّة لإمارة مكّة. وكان للقواد، وخصوصًا "القواد العمرة"، تأثير في الحياة السياسيّة لإمارة مكّة، وأضحى تأييد القواد عاملاً مهمًّا من عوامل نجاح سياسة الشريف الحاكم وبقائه في إمارته.

تمكّن الشريف عجلان بن رميثة من إعادة الاستقرار إلى مكّة بعد انفراده بإمرتها، واتّبع سياسةً عادلةً في معاملة أهل مكّة، فألغى المكوس المفروضة عليهم، وتحسّنت معاملته للحجّاج. ثمّ عاد إخوته، ثقبة وسند ومغامس، بنو رميثة، وابن عمّهم، محمد بن عطيفة بن أبي نمي؛ إلى مكّة من مصر في سنة ١٣٤٨/٧٤٨، فتنازل الشريف عجلان عن نصف الإمارة لهم بغير قتال، بعد أن ظل يتولاها وحده مدة سنتين(٢).

شهدت مكّة فترةً من اضطراب الأمور فيها منذ عاد بنو رميثة إليها سنة ١٣٤٨/٧٤٨، حتّى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. ويلاحظ خلال هذه الفترة، تزايد نفوذ السلطنة المملوكيّة بمكّة، على الرغم من الضعف الّذي تعرّضت له بسبب صغر سن السلاطين وتنازع كبار الأمراء حول السلطة، فأصبح معارضو شريف مكّة يلجأون إلى السلطان بالقاهرة،

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، قسم٣، ص ٦٩٩.

(٢) ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي، ص ٩٤- ٩٥.

فيولّي ويعزل من يشاء، ما ترتّب عليه فقدان الأشراف الحسنيين سلطتهم في إمارة مكّة، ودخول هذه الإمارة في نطاق السلطنة المملوكيّة.

وقد أدّت المنازعات إلى أن يصبح سند ومغامس، ابنا رميثة، ومحمد بن عطيفة بن أبي نمي، سنة ١٣٤٩/٧٥٠، بدون أيّة قوة تمكّنهم من التأثير في سير الأحداث بمكّة، بينما عجلان وثقبة كانا طرفي النزاع حول ولاية الإمرة. ويبدو أنّ الشريف عجلان كان صاحب النفوذ الأكبر بمكّة حينئذٍ، إذ أقام بمكّة بينما أقام أخوه ثقبة في الجديد ببطن مرّ. فلمّا حدث خلاف بين عجلان وثقبة في سنة ١٣٤٩/٧٥٠، خرج عجلان من مكّة متوجّهًا إلى بطن مرّ لقتال ثقبة، لكن القوّاد، الّذين كانوا موالين لثقبة، حالوا دون وصوله إليه، ثمّ أصلحوا بينهما. لكنّ عجلان لم يعد إلى مكّة، وفضّل الإقامة في خيف بني شديد ببطن مرّ، ثمّ ما لبث أن سافر إلى مصر، فخلا الجوُّ لأخيه ثقبة للاستيلاء على إمارة مكّة وحده[1].

وبعد وفاة عجلان بن رميثة سنة ١٣٧٦/٧٧٧، ولّي ابنه أحمد شؤون الإمارة، وكان قد فوّض إليه الأمر في حياته، وقاسمه في أمره، فقام أحمد بأمر مكّة جاريًا على سنن أبيه في العدل وحسن السيرة، وتوفّي سنة ١٣٨٦/٧٨٨، في عهد الظاهر برقوق ٧٨٤- ١٣٨٢/٤٠١- ١٣٩٨، فولي مكانه ابنه محمّد، وكان صغيرًا في كفالة عمه كبيش بن عجلان، فبقي حتّى وثب عليه واحد من الإسماعيليّة عند ملاقاة المحمل فقتله؛ ودخل أمير الركب إلى مكّة، فولّى عنان بن مغامس بن رميثة مكانه[2].

لكنّ علي بن عجلان لحق بمصر، فولاّه الظاهر برقوق سنة ١٣٨٧/٧٨٩ شريكًا لعنان، وسار مع أمير الركب إلى مكّة، فهرب عنان ودخل علي بن عجلان مكّة، فاستقلّ بإمارتها؛ ثمّ وفد علي بن عجلان على السلطان بمصر سنة ١٣٩٢/٧٩٤، فأفرده بالإمارة، وأنزل عنان بن مغامس عنده وأحسن إليه؛ ثمّ اعتقله بعد ذلك، وبقي عليّ بن عجلان في إمارة مكّة حتّى قتل ببطن مرّ في سنة ١٣٩٤/٧٩٧، فولى السلطان ابن أخيه حسن بن أحمد مكانه، واستبدّ بإمرة مكّة[3].

ثم ولي مكّة بركات بن الحسن سنة ١٤٠٦/٨٠٩، وفي سنة ١٤٠٧/٨١٠، شارك أحمد بن الحسن أخاه بركات في إمرة مكّة، أما في سنة ١٤٢٤/٨٢٧، فولّى السلطان برسباي عليّ بن عنان بن مغامس، ثمّ أعاد السلطان جقمق بركات بن الحسن سنة ١٤٤٨/٨٥١، وبقي فيها حتّى توفي سنة ١٤٥٥/٨٥٩[4].

---

(١) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج١، ص ٣٩٠.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٢٧٩- ٢٨٠.

(٣) القلقشندي، م. ن.، ج٤، ص٢٨٠.

(٤) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص ٣٦٢- ٣٦٣؛ أحمد السباعي، **تاريخ مكّة**، ص ٣٠٢.

وبعد ذلك، عيّن محمّد بن بركات أميرًا على مكّة، وكان عالمًا فاضلاً حجّ في ولايته السلطان قايتباي سنة ١٤٧٩/٨٨٤، ثمّ شارك بركات بن محمّد أباه في الإمارة، واستقلّ بها بعد وفاته سنة ١٤٩٥/٩٠١، وتولّى سنة ١٥٠١/٩٠٧ كلٌّ من هزاع بن محمّد، وأحمد بن محمّد إمارة مكّة شهورًا، ثمّ تولاّها حميضة بن محمّد سنة ١٥٠٢/٩٠٨، فتغلّب عليهم أخوهم بركات حتّى صفا له الحكم سنة ١٥٠٢/٩٠٨، واستمرّ فيه إلى أن توفي سنة ١٥٢٥/٩٣١(١).

تميّز دور أشراف مكّة الحسنيين (من نسل الحسن بن علي) في بلاد الحجاز بأهميّة عظيمة ومقدرة فائقة على إدارة الشؤون الدينيّة، ومناسك الحجّ، وفضّ الخلافات السياسيّة، والحفاظ على النظم والمعايير والقيم الدينيّة. وأشار إلى ذلك القلقشندي في وصيّته إلى أمير مكّة الّذي كان يتولّى قيادة الإمارة، وأتى على ذكرها في كتابه **صبح الأعشى**، فقال: وليعلم أنه قد ولي حيث ولد بمكّة، وليعلم أنه أعطى الله عهده وهو بين ركن ومقام... وفي عقوة داره محطّ الرحال في كل سنة، وإليه تضرب التجّار البراري والبحار، وليتلقّ الحجّاج بالرحب والسعة، فهم زوّاره، وقد دعاهم إلى بيته، وليتلقّ المحمل الشريف والعصائب المنصورة، وليقم شعائر الشرع المطهّر، وأوامر أحكامه، وليتّقِ الله فإنه مسؤولٌ لديه عمّا استرعاه، وقد أصبح وهو له راع؛ وإيّاه أن يتّكل على شرف بلده، فإنّ الأرض لا تقدّس أحدًا(٢).

لقد تضمّنت وصيّة القلقشندي لأمير مكّة، أمورًا حدّدت مسؤولياته ومهامّه على أرض المناسك، وأوصاه فيها بتنفيذ ما أمره الله به، ليعرف حقّ هذه النعمة، ويعامل من ولي عليهم بالمحبة والرأفة، ويردع كل مفسد.

قبل الكلام على أشراف المدينة في العصر المملوكي، لا بدّ من الحديث عن أسرة بني مهنّا الّتي تنسب إلى الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حيث حكمت المدينة ابتداءً من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، واستمرّت في السلطة طوال العصرين الأيوبي والمملوكي. وأول من تولى الإمارة في المدينة، طاهر بن مسلم بن عبيد الله ٣٦٧/٩٧٧- ٣٨١/٩٩١، ثمّ خلفه ابنه الحسن بن طاهر بن مسلم ٣٨١/٩٩١- ٣٩٠/٩٩٩، وبعده كان الحسن بن جعفر بن محمّد أميرًا للحرمين ٣٩٠/٩٩٩- ٤٠١/١٠١٠، وبعد ذلك تسلّم الإمارة أبو عمارة المهنّا بن داود ٤٠١/١٠١٠- ٤٠٨/١٠١٧، ومن هنا أطلق على أمراء المدينة منذ ذلك التاريخ بنو مهنّا. وبنو مهنّا ينتسبون إلى أبي عمارة مهنا بن داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر.

---

(١) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص ٣٦٣؛ أحمد السباعي، **تاريخ مكّة**، ص٣١٣.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٢، ص٢٣٣- ٢٣٥.

وأبرز من اشتهر من أمرائهم، القاسم بن مهنّا بن حسين ٥٥٨/١١٦٣– ٥٨٣/١١٨٧، وهذا يرجع إلى صلته بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، وفي عهده بدأ تعيين شيوخ الحرم النبوي[١].

وبعد وفاة القاسم سنة ٥٨٣/١١٨٧، خلفه ابنه جمّاز بن القاسم بن مهنّا بن حسين ٥٨٣/١١٨٧– ٦١٢/١٢١٥ وهو جدّ الجمامزة أمراء المدينة وإليه يعود نسبهم. ثم استغلّ أحد أفراد أسرة أشراف المدينة، وهو شيحة بن هاشم بن قاسم، الفراغ السياسي الّذي أعقب اغتيال القاسم؛ فاستولى على المدينة ونصب نفسه أميرًا عليها، فانتقلت الإمارة من فرع جمّاز بن القاسم إلى فرع هاشم بن قاسم، ودام حكمه ثلاثًا وعشرين سنةً، وقد اغتيل شيحة على يد قبيلة بني لام حينما كان متوجّهًا إلى العراق سنة ٦٤٧/١٢٤٩ [٢]. فتولّى عيسى بن شيحة بن هاشم بن قاسم إمرة المدينة سنة ٦٤٧/١٢٤٩، وقد استغلّ الجمامزة فرصة مقتل والده، فهاجموا المدينة للاستيلاء عليها، فتصدّى الأمير عيسى للمهاجمين، وأقام بالولاية مدّة، ثم أظهر لأخويه منيف وجمّاز الكراهية لإقامتهما معه في المدينة، فاحتالا إلى أن استقرّ منيف سنة ٦٥٧/١٢٥٩، ثم استلم جمّاز بن شيحة إمرة المدينة في سنوات ٦٥٧/١٢٥٩– ٦٦٥/١٢٦٧– ٦٦٦/١٢٦٨– ٧٠٠/١٣٠٠، وفي سنة ٦٦٧/١٢٦٩، كان السلطان الظاهر بيبرس أمير المدينة[٣].

ثمّ تسلّم منصور بن جمّاز الإمارة من أبيه سنة ٧٠٠/١٣٠٠ في ظلّ صراع على السلطة بينه وبين إخوته الذين حسدوه على تفضيل أبيه له، وتفاقم النزاع بدخول أهل المدينة طرفًا فيه مما أدّى إلى القبض على منصور وابنه كبيش من قبل السلطان المملوكي الناصر محمّد بن قلاوون، وأحضرا إلى مصر، ثم أعيدا للمدينة بعد أن اشترط على منصور عدم التعرّض للمجاورين والخدّام. دخل منصور بعد عودته في صراعٍ مع أخيه ودي بن جمّاز وأولاد مقبل بن جمّاز، ثمّ استقرّت له الأمور سنة ٧١٧/١٣١٧، غير أنه قتل على يد ابن أخيه حريقة بن قاسم بن قاسم بن جمّاز سنة ٧٢٥/١٣٢. تولّى الإمارة من بعده ابنه كبيش بن منصور، وشهد عهده صراعًا على الإمارة مع عمّه ودي في سنة ٧٢٧/١٣٢٦، خرج على أثرها كبيش من المدينة، غير أنه لم يلبث أن عاد إلى الإمارة بأمر من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون بعد القبض على ودي[٤].

إنّ الصراع على السلطة كان سمةً بارزةً في تلك الفترة، واستمر من خلال تتبُّع الأوضاع السياسيّة في المدينة أواخر القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فقد خرجت الإمارة من يد جمّاز بن هبة عدة مرات، كما شاركه أبناء أعمامه في بعض الفترات، ففي سنة ٧٨٥/١٣٨٣،

---

(١) عارف عبد الغني، **تاريخ أمراء المدينة المنوّرة**، ص ٥٠٤– ٥٠٥.

(٢) عبد الرحمن مديرس المديرس، **المدينة المنوّرة في العصر المملوكي**، ص ٢٨– ٣٠.

(٣) عارف عبد الغني، م. س.، ص٢٦٢– ٢٦٤.

(٤) عبد الرحمن مديرس المديرس، م. س.، ص٣٢– ٣٣.

شاركه ابن عم أبيه محمَّد بن عطية بن منصور، ثمَّ خرجت الإمـــارة من يده فيما بعد، وأعيد إليها سنة ١٣٨٧/٧٨٩، وقبض عليه سنة ١٣٩٥/٧٩٨، وســجن بالإسكندرية ســبع سنوات، ثمَّ أطلق ســراحه وأعيد إلى الإمارة سنة ١٤٠٢/٨٠٥ بعد عزل أميرها ثابت بن نعير بن منصـــور بـــن جمَّاز بن شيحة، وعاد ثابت إلى الإمارة في تلك السنة [١].

إنَّ التصادم بين أشراف المدينة للاستحواذ على السلطة قد أدَّى إلى إضعاف مركز المدينة السياسي والعسكري في مواجهة القوى المحليَّة خصوصًا القبائل، وفي مواجهة أشراف مكَّة، وأدَّى ذلك إلى تعزيز دور السلطنة المملوكيَّة وسلطتها، فتدخَّلت في شـؤون أشـراف المدينـــة بـــالعزل والتَّعيين إذ إنَّ السلطان المملوكي كان هو صاحب الشأن بإصدار تقليد مكتوب من قبله يسمّي فيـــه أشراف مكَّة والمدينة الذين عيَّنهم لتولي الإمرة.

وأحيانًا كان السلطان المملوكي يعمد إلى جمع إمارة مكَّة والمدينة في يد أحد الأشراف، كما حدث سنة ١٤٠٨/٨١١ أيَّام الناصر فرج بن برقوق، إذ وسّع سلطة الشريف حسن بن عجلان أمير مكَّة فضمَّ إلى حكمه المدينة وخليص والصفراء وأعمالها[٢]. والرَّاجح أنَّ السلطان المملـــوكي أراد حصر السلطة في الحجاز في يد أمير واحد من الأشراف يسهل التعامل معه، ويوطِّد في الوقت ذاته نفوذ السلطنة المملوكيَّة في الحجاز.

وتجدر الإشارة إلى ازدياد نشاط عمل أمراء الحجاز أيام المماليك، ولا سيّما حين كان يحلُّ موسم الحجّ، حيث يتوافد الحجيج إلى أرض المناسك لأداء الشعائر. فكيف بدت مكَّة والمدينة فـــي ذلك الموسم؟ وهل أثَّرت الوقائع السياسيَّة والعسكريَّة على حركة الحجّ والحجيج؟

أ- الصراع السياسي في مكَّة والمدينة وتأثيره على حركة الحجّ

١- فـــي مكّـــة

تنوَّعت الوقائع والفتن السياسيَّة والعسكريَّة التي جرت أيَّام المماليك، واختلفت تبعًا للظروف المحيطة بها؛ فحصلت سنة ١٢٥٣/٦٥١ فتنة ذهب ضحيتها الشريف حسن أبو سعد الَّذي ينتمي إلى أسرة بني قتادة صاحب مكَّة بعد حكم استمرّ أربع سنوات إلاّ شهرًا، وقام بقتله ابن عمه حمَّاد بـــن حسن الَّذي حجّ بالنَّاس تلك السنة واستقرّ بمكَّة [٣].

والرَّاجح أنّ سعي حمَّاد بن حسن لقتل ابن عمه شريف مكَّة، كان الهدف منه تولّي منصب الإمارة مكانه، والاستيلاء على البيت العتيق، لتحقيق مكاسب ماديَّة ومعنويَّة في موسم الحجّ. فهـــل

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٣٠١.

(٢) عبد الرحمن مديرس المديرس، **المدينة المنوَّرة في العصر المملوكي**، ص ٧٢-٧٣.

(٣) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص١٠٢.

يعقل أن يكون المجرم ابن عمّ المغدور وصاحب النفوذ؟ وإذا كان كذلك، فأين حماية السلطة ودورها في الحفاظ على الأرواح، ولا سيّما أن المقتول قائد مكّة الّذي منحته السلطنة منصب الإمارة؟

وبعد ذلك، تعرّض أمير مكّة، رغم عظمته ومركزه الدينيّ، إلى الإهانة من قبل أمير الحجّ العراقي، بسبب المنافسة وفرض النفوذ في مكّة خلال الموسم، وكادت النزاعات والصراعات أن تتطوّر بينهما، سنة ٦٥٣/١٢٥٥، إلى حد وقوع فتنة بين أهل مكّة والركب العراقي، لكن تدخّل الناصر داود بن المعظّم عيسى ملك الكرك استطاع أن يخمد هذا العصيان، فاجتمع الناصر بأمير مكّة، وأحضره إلى أمير الحجّ مذعنًا بالطّاعة، وقد حمل صاحب مكّة عمامته في عنقه، فرضي أمير الحجّ وخلع عليه، وقضى الناس حجّهم، وهم شاكرون عمل الملك الناصر[١].

والرّاجح أن تدخّل الملك الناصر صاحب الكرك لفضّ النزاع القائم على أرض المناسك، أنقذ أمير الحجّ العراقي خوفًا على موسم الحجّ، والتسبّب في إلحاق الأذى بالبشر والحجر.

وتكرّرت تلك الحوادث والنزاعات والصراعات في مكّة، ولكن في إطار إمارة بني نمي وأفرادها. تجلّى ذلك عندما نشب سنة ٦٦٧/١٢٦٨ خلافٌ بمكّة بين الشريفين محمّد أبي نمي وعمه بهاء الدين إدريس أميري مكّة، فأخرج أبو نميّ عمّه إدريس من مكّة، وأقام الخطبة بها للظاهر بيبرس وحده. وفضلاً عن ذلك، كتب أبو نمي كتابًا إلى السلطان بيبرس، وضّح فيه أسباب طرده عمّه من إمرة مكّة، ومن تلك الأسباب، أنه شاهد من عمّه إدريس ميلاً إلى ملك اليمن، فتحيّن السلطان الظاهر بيبرس هذه الفرصة لإظهار هيبته ونشر نفوذه بالحجاز، فردّ على كتاب أبي نمي معربًا عن استعداده لتلبية طلبه، ووعده بمنحه منحةً سنويّةً مقدارُها عشرون ألف درهم نقرة[٢]، إذا التزم بالوفاء بالشروط الّتي أوردها في كتابه. وأبرزها قيام أمير مكّة برعاية مصالح الحجّاج، وسماحه للزائرين بدخول مكّة ليلاً أو نهارًا، وعدم التعرّض لتاجر أو حاجّ بسوء، وإلغاء سائر المكوس بمكّة، وإقامة الخطبة بها للظاهر بيبرس، وضرب السكّة باسمه. فبادر أبو نمي إلى قبول هذه الشروط، وبعث الظاهر بيبرس إليه تقليدًا بإمرة مكّة بمفرده[٣].

---

(١) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج١، ص١٧١؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج١٠، ص١٦؛ العيني، **عقد الجمان**، ج١، ص١٠٩.

(٢) نقرة: جمع أنقار، ويتبايع أهل السوق بالحلي أنقار الفضة؛ R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.II, p.710.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص٥٧٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي**، ص٣٠.

ولما علم إدريس بما فعله ابن أخيه أبو نمي، قدم مكّة وصالح أبا نمي، واتفقا على طاعة سلطان المماليك[١]. والرّاجح أنّ إدريس قد أيقن من عجزه عن مقاومة أبي نمي بعد فوزه بتأييد المماليك.

وهكذا أسفر النزاع بين أميري مكّة، إدريس وأبي نمي، عن فرض السيطرة المملوكيّة على إمارة مكّة، فقد اعترف إدريس وأبو نمي بوجود علاقة متميّزة تربط بين سلطنة المماليك وإمارة مكّة، وكانت هذه العلاقة مبنيّةً على المصلحة المشتركة؛ فظفر أميرا مكّة بحماية السلطنة المملوكيّة ويمنحة سنويّة، ونزلا عن استقلالهما الذاتي، وأصبحا نائبين للسلطنة المملوكيّة بمكّة، يحكمانها بموجب التقليد الممنوح لهما من قبل السلطان. أما الظاهر بيبرس، فقد حقّق لنفسه مكانةً فريدةً في العالم الإسلامي، وعزّز دعائم ملكه بمصر، بفضل إقامة الخطبة له بمكّة، وضرب السكّة فيها باسمه كما ذكرنا.

تجدر الإشارة إلى أنّ السلطنة المملوكيّة لم تبد أيّ اهتمام بتطورات الأمور بمكّة، فكان أميرا مكّة يتصرفان في شؤون الإمارة بحريّة تامّة. ومما يؤيد هذا القول: عدم تدخل الظاهر بيبرس في النزاعات الّتي نشبت بين أشراف مكّة والمدينة في سنة ١٢٧١/٦٧٠، والّتي استمرّت حتّى سنة ١٢٧٦/٦٧٥، واتّسمت الاشتباكات الّتي وقعت بين أشراف المدينتين المقدّستين بطابع الصراع المحلي للسيطرة على منطقة الحجاز بصورة عامّة.

ففي سنة ١٢٧١/٦٧٠، عمد جمّاز بن شيحة مع حليفه إدريس بن الحسن بن قتادة، صاحب ينبع، إلى إخراج أبي نمي من مكّة واستولى عليها جمّاز بن شيحة مدة أربعين يومًا، ثمّ عاد أبو نمي إلى مكّة وأنزل الهزيمة بجمّاز الذي ترك مكّة وعاد إلى إمارته[٢] .

غير أنّ جمّاز بن شيحة، أمير المدينة، ما لبث أن تحالف مع إدريس بن الحسن بن قتادة، أمير ينبع، في سنة ١٢٧٦/٦٧٥، فجهّز عسكرًا، وقصد مكّة. وكان أبو نمي قد خرج للقاء جمّاز على رأس جيش، ودار القتال بينهما بمرّ الظهران، وكانت النتيجة أن انهزم عسكر المدينة وأسر إدريس، بينما لاذ جمّاز بالفرار ولحق بالمدينة. وبعد انتصار أبي نمي على أمير المدينة، توقّف النزاع بين مكّة والمدينة لبضع سنوات، واستقرّت الأوضاع بمكّة لأبي نمي[٣].

تدلّ تلك الحادثة على مدى طمع صاحبي المدينة وينبع، وتدبيرهما المؤامرة للاستيلاء على إمارة مكّة، نظرًا إلى أهميّتها ولا سيّما في موسم الحجّ، علاوةً على العائدات والهبات والأموال الّتي كانا يحصلان عليها آنذاك.

---

(١) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص٤٥٩.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص٦٠٤.

(٣) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج١٢، ص٢٣.

لم يكن النزاع المتجدد بين أشراف مكّة من بني الحسن وأشراف المدينة من بني الحسين إلا مظهرًا من مظاهر تدهوّر الأوضاع بالحجاز في أواخر عهد السلطان الظاهر بيبرس[١].

أما عن الفترة الّتي تمتدُّ من سنة ١٢٧٧/٦٧٦ إلى سنة ١٢٨٢/٦٨١، فقد تجلّى فيها اضطراب الأمور في السلطنة المملوكيّة بمصر، في عهدي محمد بركة خان وسُلامِش، اللذين وليا السلطنة عقب وفاة بيبرس، ثمَّ استقرّت الأحوال بعد تسلطن الأمير قلاوون الألفي سنة ١٢٧٩/٦٧٨. وكان الأمير أبو نمي يتقرّب إلى المظفّر يوسف الرسولي، ملك اليمن، خلال تلك الفترة؛ فكان يخطب له بمكّة عقب الدعاء لسلطان مصر منذ حجّته سنة ١٢٦١/٦٥٩، وكان يكسو الكعبة في غالب السنين[٢]. لكن السلطان قلاوون أراد أن يعيد إلى السلطنة المملوكيّة المكانة المتميّزة الّتي كانت تتمتع بها في الحجاز بعد حجّة الظاهر بيبرس، فبادر إلى تحليف أبي نمي يمين الإخلاص له ولولده، وذلك في سنة ١٢٨٢/٦٨١، وقد جاء فيه:

"أخلصت نيّتي، وأصفيت طويّتي، في طاعة مولانا السلطان الملك المنصور، وولده السلطان الملك الصالح، وطاعة أولادهما وارثي ملكهما، لا أضمر لهم سوءًا ولا غدرًا في نفسي ولا ملكًا ولا سلطنةً. وإنني ألتزم ما اشترطته لمولانا السلطان وولده في أمر الكسوة الشريفة المنصوريّة الواصلة من مصر المحروسة، وتعليقها على الكعبة الشريفة في كلّ موسم، وأن لا يعلوها كسوة غيرها، وأن أقدّم علم المنصور على كلّ علم في كل موسم، وأن لا يتقدّمه علم غيره"[٣].

ومع أنَّ أبا نمي لم يشر إلى الدولة الرسوليّة في رسالته الّتي تعهّد فيها بطاعة السلطان المنصور قلاوون، فإنَّ هذا السلطان كان يرمي من وراء تحليف أبي نمي على الطّاعة والإخلاص له القضاء على النفوذ الرسولي الّذي تزايد بمكّة بعد وفاة الظاهر بيبرس، وأن يعيد إلى السّلطنة المملوكيّة هيبتها في بلاد الحجاز.

فطن الأمير أبو نمي أن يؤكّد الصلات الوديّة بين إمارة مكّة وسلطنة المماليك بمصر؛ فأنفذ، بعد حلفه يمين الإخلاص للسلطان قلاوون، أحد أولاده إلى مصر سنة ١٢٨٢/٦٨١ – ١٢٨٣، وبصحبته وفدٌ من أشراف مكّة وزعماء الحجاز الذين أحضروا معهم خيلاً وهدايا ثمينةً قدّموها إلى السلطان قلاوون الّذي استقبلهم بنفسه، وبالغ في إكرامهم، فوزّع الأموال والخلع على أعضاء الوفد، وأعرب عن استعداده لمدّ أهل مكّة بالأموال، وأمر بصرف النفقات لأشراف مكّة

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٣، ص٦٣٥.

(٢) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٢٨٠.

(٣) ابن عبد الظاهر، **تشريف الأيام**، ص٢١٢؛ ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، ج٧، قسم٢، ١٦٧ ورقة؛ المقريزي، م. س.، ج١، قسم٣، ص٧٠٦– ٧٠٧.

وعلمائها وقضاتها وأصحاب المناصب بها، وأجرى لهم الرواتب. ثم عاد الوفد إلى مكّة مع ركب الحجّ المصري[١].

لكن يظهر أنَّ أبا نمي لم يف بالعهود الّتي قطعها على نفسه وفقًا لما ذكره المؤرخ المعاصر، إذ قال: "وإنما أبو نمي أمير مكّة، قابل الإحسان بضده والنعم بكفرانها، فكاد يهلك ويتلف؛ فأذعن وأظهر الخدمة وشكر النعمة. وإنما حركاته ما خفيت على ملاحظ، وما شوهد في صورة محافظ"[٢].

ومن الرّاجح أنَّ ابن عبد الظاهر يعني بذلك سوء معاملة أبي نمي للحجّاج بوجه خاص. وقد جاء في اليمين الذي حلفه أبو نمي للمنصور قلاوون قوله: "وإنني أسبّل زيارة البيت الحرام أيّام مواسم الحجّ وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين والآمّين الحرم والحاجين والواقفين، وإنني أجتهد في حراستهم من كل عاثر بفعله وقوله: ومتخطّف للنّاس من حوله[٣]. ففي سنة ١٢٨٤/٦٨٣، جهَّز المنصور قلاوون ثلاثمائة فارس إلى مكّة صحبة أمير الحجّ علم الدين سنجر الباشقردي، وكان ما حمله على إرسال هذه الحملة، عودة أبي نمي إلى فرض المكوس والجبايات بمكّة[٤].

ولما بلغ أبا نمي قدوم العسكر المملوكي إلى مكّة، رفض الخروج لاستقبال الركب، واكتفى بإرسال بعض قوّاده. لكن أمير الحجّ باشقردي، أصرَّ على حضور شريف مكّة، واستعدَّ لمحاربته إذا هو لم ينفّذ طلبه. عندئذٍ أغلق أبو نميّ أبواب مكّة، ولم يستطع أحدًا من الحجّاج من دخولها، فلما كان يوم التروية، الثامن من شهر ذي الحجّة، قدم العسكر المملوكي من جهة الحجون، وأحرقوا باب مكّة في تلك الناحية، ونقبوا السور، ثم هجموا على البلد، فاضطر أصحاب أبي نمي إلى الهرب، ولم يبق إلا أولاده، وقام قاضي القضاة برهان الدين السنجاري بمصالحة أبي نمي مع الباشقردي، أمير الحجّ، وأرسل إليه خلعةً، فسمح للحجّاج بقضاء مناسكهم بمكّة[٥].

ولا شك في أنَّ هذا الحادث يوضح بعض جوانب شخصيَّة الأمير أبي نمي، فبالرغم من القوة العسكريَّة الضارية الّتي استطاعت أن ترسلها السلطنة المملوكيَّة بمصر إلى الحجاز، عمد أبو نمي إلى اتّباع سياسته الخاصَّة الّتي لا تتفق ورغبات السلطنة المملوكيَّة، لكنه سرعان ما عدل

---

(١) ابن عبد الظاهر، **تشريف الأيام**، ص١٨- ١٩.

(٢) ابن عبد الظاهر، م. ن.، ص ١٩.

(٣) ابن عبد الظاهر، م. ن.، ص ٢١٢.

(٤) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٢٨٥- ٢٨٦.

(٥) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٣، ص٧٢٤؛ العيني، **عقد الجمان**، ج٢، ص٣٣١؛ محمود سليم، **عصر سلاطين المماليك**، ج٢، ص١٤٩.

عنها عندما تأزمت الأوضاع. وغالبًا ما تم ذلك مقابل صرف الرواتب والجرايات له ولذويه، والإنفاق على أهل مكّة.

علمًا بأنّ هذه الأوضاع غير المستقرّة بالحجاز لم تؤثر في موقف السلطنة المملوكيّة منها. وكان السلطان المنصور قلاوون حريصًا، مثل الظاهر بيبرس، على تحقيق الاستفادة المعنويّة من علاقة إمارة مكّة مع سلطنة المماليك.

لم تستمرّ العلاقات وديةً بين الشريف رميثة بن أبي نمي والسلطنة المملوكيّة، فقد شابها بعض التوتر في سنة ١٣٣٠/٧٣٠، إذ لم يحضر لاستقبال أمير الحجّ المصري، وفي موسم الحجّ من تلك السنة، حدثت اضطرابات بمكّة أدّت إلى تأزّم العلاقات بين إمارة مكّة والسلطنة المملوكيّة. ويرجع سببها إلى أن شخصًا يعرف بمحمّد الحجيج، من خواص السلطان أبي سعيد، عُيِّن أميرًا على حجّ العراق في سنة ١٣٣٠/٧٣٠، وأعجب به السلطان الناصر محمّد، ثم ما لبث أن استاء منه حين بلغه أنّ محمّد الحجيج تعرّض لذكره في مجلس السلطان أبي سعيد بما يكره. فعزم الناصر محمّد على الانتقام منه، وكتب إلى الشريف عطيفة بن أبي نمي سرًا أن يعمل على التخلص منه في الموسم التالي، فلم يجد عطيفة بدًا من امتثال أمر السلطان المملوكي، وعهد لابنه مبارك بذلك[1].

اللافت في هذا السياق استمرار تأرجح أمن مكّة بين السلطنة المملوكيّة والأشراف. ففي موسم سنة ١٣٨٧/٧٨٩، ورد الخبر إلى مصر، بأنّ مكّة حاصرها كبيش بن عجلان بن رميثة من أسرة بني قتادة، وأنه أخذ ثلاثة مراكب من مراكب الكارم، وأنّ الشريف علي بن عطيفة دخل المدينة الشريفة، ونهب أهلها وأخذ كل ما للشريف جمّاز، فرسم السلطان بالإفراج عن الأمير ثابت بن نعير وردّه لإمرة المدينة[2].

تجدر الإشارة إلى أنّ الشريف حسن استغلّ ضعف رميثة داخل مكّة، وعدم تمكّنه من إحكام السيطرة عليها، فبعث ابنه بركات إلى القاهرة في شهر رجب سنة ١٤١٦/٨١٩ مع هديّة إلى السلطان المؤيّد شيخ، ووعده بأداء مبلغ مقداره ثلاثون ألف دينار، مقابل توليته إمرة مكّة، فوافق السلطان على ذلك في شهر رمضان من تلك السنة، وأرسل عددًا من المماليك السلطانيّة إلى الحجاز مع خلعة وتقليد بولاية إمرة مكّة لحسن بن عجلان [3].

---

(١) النويري، **نهاية الأرب**، ج٣٣ ص٣١٠؛ الجزري، **تاريخ حوادث الزمان**، ج٢، ص ٤٠١- ٤٠٢؛ المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم٢، ص٣٢٣؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص ٢٨٢- ٢٨٣؛ دحلان، **خلاصة الكلام**، ص٣٠.

(٢) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، مج٩، ج١، ص ١٨؛ المقريزي، **السلوك**، ج٣، قسم٢، ص ٥٦٦؛ ابن قاضي شهبة، م. س.، مج١، ج٣، ص ٢١٦؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج١، ص١٥٣.

(٣) ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية في العصر المملوكي**، ص ١٣١.

علمًا بأنّ حسن بن عجلان ما لبث أن واجه تخلي قوّاد العمرة عنه وانحيازهم إلى رميثة ابن محمّد الّذي قوي جانبه بهم. ولما بلغه نبأ عزله وتولية عمّه الإمرة، عزم على التصدّي له؛ واستقرّ رأي حسن بن عجلان على المسير إلى مكّة ومحاصرتها، فقدم إليها في الخامس والعشرين من شهر شوّال من سنة ١٤١٦/٨١٩، وبصحبته الأشراف من آل نمي، فضلاً عن مائة وعشرين فارسًا من المماليك[١]. لكن الحصار لم يطل، وسرعان ما تمكّن أتباع الشريف حسن من نقب أسوار مكّة في أماكن عديدة، وإحراق باب المعلاة، وبذلك تيسّر لهم دخولها. ثمّ استجاب الشريف حسن إلى المساعي الّتي بذلها قضاتها وفقهاؤها في وقف القتال، وأمر ابن أخيه، رميثة بن محمّد بمغادرة مكّة، فرحل إلى اليمن مع أتباعه[٢]. وهكذا عادت إمرة مكّة إلى حسن بن عجلان. وجدير ذكره في هذا الصدد، أنّ السلطان المؤيّد شيخ ولّى حسن بن عجلان إمرة مكّة بدون شريك، إلا أنه لم يولّه منصب نيابة السلطنة بالحجاز، ومن الرّاجح أنه ألغاه.

لم يمض وقت طويل بعد عودة الشريف حسن بن عجلان إلى مكّة، حتّى توتّرت العلاقة بينه وبين السلطان المؤيّد شيخ بمصر، ويرجع سبب هذا التوتّر إلى امتناع حسن بن عجلان عن إرسال المبلغ المتبقّي الّذي التزم به للسلطان مقابل إقراره بإمارة مكّة في سنة ١٤١٦/٨١٩. علمًا بأنّ حسن لم يكن يرغب في الاستمرار في إمارة مكّة، فسأل المؤيّد شيخ تفويضها إلى ابنيه بركات وإبراهيم، وأشار إلى أنهما سيؤدّيان المبلغ المطلوب[٣].

استمرّت الأحوال السياسيّة في مكّة طوال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي تتأرجح بين نشر الاستقرار والأمن في مكّة، ونشوب النزاع والقتال وبذل الأموال من أجل التفرّد بالإمارة.

لم تنعم إمارة مكّة بالاستقرار طويلاً عقب وفاة الشريف محمّد بن بركات، فسرعان ما نشب النزاع بين أولاده على الولاية، وبخاصّة بين بركات بن محمّد وأخيه هزّاع. وقد أبدى السلطان محمّد بن قايتباي، اهتمامًا ملحوظًا بتطوّر هذا الخلاف الّذي كان يمثل تهديدًا خطيرًا لحالة الأمن في الحجاز، وحاول السلطان محمّد بن قايتباي من ناحيته إزالة أسباب الخلاف بين الأخوين، فأمر بإشراك هزّاع مع أخيه بركات في الإمرة[٤].

غير أنّ الأحوال السياسيّة في إمارة مكّة ما لبثت أن اضطربت في موسم الحجّ سنة ١٥٠١/٩٠٦، بسبب التطوّرات السياسيّة الّتي حدثت بمصر في تلك السنة. ذلك أنّ السلطان العادل

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم١، ص٣٦٩- ٣٧٠.

(٢) المقريزي، م. ن.، ج٤، قسم١، ص ٣٦٩- ٣٧٠؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٩.

(٣) ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، ص ١٣٤- ١٣٥.

(٤) ابن اياس، م. س.، ج٣، ص٤٢٤.

طومان باي الّذي تولّى السلطنة المملوكيّة، نفى الأمير قانصوه المحمدي، أحد المقربين عند السلطان السابق الأشرف جان بلاط، فتوجّه قانصوه المحمدي إلى مكّة وأقام بها. لكن الشريف بركات بن محمَّد لم يلتفت إليه خشية غضب السلطان طومان باي. غير أن طومان باي سرعان ما خلع من السلطنة وخلفه السلطان قانصوه الغوري، وذلك في ليلة عيد الفطر سنة ١٥٠١/٩٠٦[١].

وبدأ السلطان الغوري عمله بتعيين الأمير قانصوه المحمدي في منصب نائب الشام. ولما بلغه خبر تعيينه، وهو ما زال مقيمًا بمكّة، في بداية شهر ذي القعدة، أخذ يتقرَّب إلى الشريف هزاع بن محمَّد، أخو أمير مكّة، ووعده بأن يبذل جهده ليوليه إمرة مكّة، بل سارع وأرسل إلى أمير الحجّ المصري، سودون بن جاني بك العجمي، يسأل مساعدته في ذلك، فاستجاب له الأمير سودون، وألبس الشريف هزّاع خلعة الولاية المجهّزة لأخيه بركات، ومنحه مرسوم الولاية الخاصة بإمرة مكّة، وذلك عندما التقى به بينبع في شهر ذي القعدة من سنة ١٥٠١/٩٠٦[٢].

لم تتوقَّف حوادث الانتقام والقتل من أجل الاحتفاظ بمنصب الإمارة والقضاء على الأعداء وترسيخ استمرار الزعامة الدينيَّة والسياسيَّة في مكّة، وهذا ما فعله الشريف بركات منذ أن توجّسه سنة ١٥٠٧/٩١٣ إلى مالك بن الرومي أمير خليص، وكبس عليه على حين غفلة فظفر به[٣].

٢- في المدينة

توسَّعت دائرة الوقائع والفتن السياسيَّة والعسكريَّة في العصر المملوكي لتشمل المدينة.

عزَّز الصراع السياسي والعسكري دور الهدايا على تبوّؤ مركز الإمارة على نحو ما حدث سنة ١٢٦٦/٦٦٥، عندما قام مالك بن منيف بن شيحة بزيارة السلطان بيبرس، وقدم له هديَّةً وطالبه بحقه في الإمارة الّتي انفرد بها الشريف جمّاز، فكتب تقليده بنصف إمرة المدينة ونصف الأوقاف[٤].

هكذا نجح مالك في الوصول إلى الحكم عبر تقديم الهدايا، وتمّ له ما أراد.

---

(١) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٣٤٩.

(٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص٤٢٤؛ ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، ص١٦٢- ١٦٣.

(٣) ابن إياس، م. س.، ج٤، ص١٢٢.

(٤) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج٢، ص٣٨٧؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٣، ص١٤٦- ١٤٧؛ ابن شاكر الكتبي، **عيون التواريخ**، ج٢٠، ص٣٤٩؛ عبد الباسط بدر، **التاريخ الشامل للمدينة المنوَّرة**، ج٢، ص٢٢٤.

ومن الوقائع، أنّ أمير الحجّ المصري سلاّر كان موجودًا في وادي سالم سنة ١٣٠٥/٧٠٤، عندما خرجت عليه العرب بقصد نهبه، فأحضر معه إلى المدينة خمسين نفرًا، حيث أفتى العلماء بقتل هؤلاء العرب، وتمكّن من التغلب عليهم(١).

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: أين كان أمير المدينة منصور بن جمّاز؟ وهل كانت سلطة أمير الحجّ ممثل سلطان المماليك بمصر أقوى من سلطته؟

وبعد ذلك، هاجم ماجد بن مقبل بن جمّاز الحسيني المدينة سنة ١٣١٧/٧١٧، واستولى عليها، لكنّ صاحبها جمّاز أعلم السلطان الناصر محمّد بن قلاوون، الّذي ساعده بعسكره، ففرّ ماجد، واستعادها منصور بن جمّاز في السنة نفسها(٢).

وهكذا، فإن زعزعة استقرار أمن المدينة استمرّ نتيجة أطماع حكامها من أجل اعتلاء منصب الإمارة وبدا ذلك واضحًا.

ثمّ ولّي جمّاز بن هبة أمر المدينة، ووصل إليها سنة ١٣٨١/٧٨٣، ومعه مرسوم بذلك، فامتنع نعير بن منصور من تسليمها له، فوقع بينهما قتال، فطعن نعير. وانهزم أصحابه، فدخلوا المدينة، وأغلقوا أبوابها، فأحرق جمّاز الأبواب ودخلها(٣).

ويبدو أنّ المناوشات تتابعت بين أمراء المدينة، نظراً إلى أهميّة المركز الديني فيها.

ومن حوادث سنة ١٣٨٧/٧٨٩، أنّ علي بن عطية نهب المدينة، وأهلك ناسها، وانتزع إمرتها، فأفرج السلطان عن ثابت بن نعير، وقلّده إمرة المدينة، وكان عقاب علي بن عطية الموت(٤).

غير أنّ عملية العنف استمرّت بشدة في المدينة، سعيًا وراء المكاسب، وبهدف السيطرة المحكمة عليها، والتفوّق على الآخرين دون منازع، حيث هلك جمّاز بن هبة بن منصور أمير المدينة سنة ١٤٠٩/٨١٢، بعد أن أخذ حاصل المدينة ونزح عنها، فقتل في حرب جرت بينه وبين بعض أعراب مطير إذ اغتيل وهو نائم (٥). ويبدو أنّ نهب محصول المدينة أدّى إلى قتل فاعله (جمّاز) والاقتصاص منه.

---

(١) عارف عبد الغني، **تاريخ أمراء المدينة المنوّرة**، ص٢٦٨.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم١، ص١٧٥؛ عارف عبد الغني، م. س.، ص٢٧١.

(٣) عارف عبد الغني، م. ن. ، ص٢٨٨.

(٤) ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج١، ج٣، ص٢٢٤؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٢، ص٢٥٢.

(٥) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم١، ص١٠٦؛ ابن حجر، م. س.، ج٦، ص١٧٩-١٨٠؛ السخاوي، **الضوء اللامع**، ج٣، ص٧٨.

وفي سنة ١٤٢٧/٨٣٠، ألقي القبض على أمير المدينة الشريف خشرم بن دوغان بن جمّاز؛ لأنه لم يقم بدفع المبلغ الذي وعد به، وعيّن مكانه الشريف مانع بن علي بن عطية بن جمّاز[1].

نستنتج من هذه الحادثة، أنّ تولي منصب الإمارة كان يقتضي الرشوة ودفع المال.

ومن الأخبار الّتي أشار إليها ابن إياس في بدائع الزهور، أنه في سنة ١٤٩٥/٩٠١، هجم أمير المدينة حسن بن زبيري على حواصل المال الّتي بها من قبل النذور، فاستولى على اثني عشر ألف دينار، وأخذ عدة قناديل ذهب كانت معلّقة بالحجرة الشريفة، وخرج إلى جهة العراق فلم يدرك[2].

وفي ضوء ما تقدّم، قد يتبادر إلى الذهن تساؤلات، منها: هل المال أصبح عنصرًا أساسيًا استعمله أمير المدينة لسدّ حاجاته المادية؟ وهل أصبح القتل والنهب وسيلةً لانتزاع إمرة المدينة دون أن يكون هناك رادع للقضاء على الفساد والشغب ونشر السلم والأمن؟! والسؤال الّذي يُطرح بإلحاح في هذا المقام: هل يؤتمن على مصير الدّيار المقدّسة والعباد، من لا تتوافر فيه الشروط الّتي تؤهّله تولّي منصب الإمارة؟

وقد يتبادر إلى الذّهن تساؤل آخر: هل استطاع أمير المدينة صون الأمانة الّتي كانت في عُهْدته؟ الظاهر أنّ أمير المدينة لم يصن الأمانة، بل سرقها دون أن يراعي أصول الشرع والأخلاق.

تلك كانت حال الحجاز في العصر المملوكي، وموقف أمرائها من الوقائع والحوادث الّتي حصلت نتيجة الصراعات والتنافس من أجل بسط الزعامة الدينيّة والسيطرة السياسيّة عليها، لما لها من أهمية عظيمة وقيمة سامية عند المسلمين الّذين يتوافدون إليها من الأقطار كافةً لأداء الفريضة. والرّاجح أنّ حلّ الخلافات والمنازعات والتعيينات بقي محصورًا بيد سلاطين المماليك، فقد كانوا أصحاب الشأن في التعيين والعزل، ودفع الأموال، وإرسال المساعدات من أجل حلّ الأمور المعقّدة الّتي قد تؤثر سلبًا على حركة الحجّ في مكّة والمدينة، ولا سيّما خلال تأدية الشعائر.

ب- الكوارث الطبيعيّة في الحجاز وتأثيرها على حركة الحجّ

الكوارث الطبيعيّة هي ابتلاء أو دمار كبير يحدث بسبب حدث طبيعي منطوي على مخاطر مثل ثورة البراكين، والزلازل، الأعاصير وغيرها من الظواهر الطبيعيّة الّتي تسبّب دمارًا كبيرًا للممتلكات والبشر، فكان للطبيعة دور مهمّ في تعرّض الحجّاج والدّيار المقدّسة لنكبات ناجمة

(١) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص ٧٥٦؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص ٣١١؛ عارف عبد الغني، **تاريخ أمراء المدينة المنوّرة**، ص٣٠٢.

(٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص ٣١٨.

عن كوارث الأمطار والسّيول، واندلاع النيران، واحتراق الأماكن الدينيّة، وغير ذلك من الأمــور الّتي أدّت إلى خراب المنشآت والطرقات وهلاكها، وتوسّع انتشار الأمراض والأوبئة، مــا ســاعد على عرقلة مسيرة الحجّ، وتعثّر قضاء المناسك في بعض الأحيان. نذكر من بين الكوارث الطبيعيّة والاجتماعيّة الّتي حصلت أيّام المماليك:

١- السّيــول والأمطــار

تشتهر بلاد الحجاز، رغم قلّة الأمطار، بشدّة السّيول عند نزول المطــر، ومــن السّــيول والأمطار الّتي عرفت في العصر المملوكي، سيلٌ كبير دخل الكعبة سنة ١٢٥٣/٦٥١، ومات بسببه كثير من النّاس، بعضهم حمله السّيل، والبعض تهدّمت الدور عليهم. وأتى سيلٌ لم يسمع بمثله، كان حصوله سنة ١٢٧٠/٦٦٩، وتدفق على البيت الحرام كالبحر، وألقى كلّ التراب الّــذي كــان فــي المعلاة داخل البيت، وبقي الحرم كالبحر يموج منبره فيه، ولم تصل النّاس تلك الليلة، ولم ير طائفٌ إلا رجل طاف سحرًا يعوم[١].

واستمرّ ضرر السّيول والأمطار يلحق الأذى بالحرم الشريف، ولا سيّما السيل الّذي حصل سنة ١٢٨٧/٦٨٦، فأدّى إلى وكف[٢] أكثر سطوحه، وأشدّها السقف الشمالي، حيث تسرّب المطــر بقوة إلى وسط الحرم والحجرة الشريفة، ثمّ وصل الماء إلى باطنها من جوانب القبة، وخُرِّبت عــدة دور، كما أتلف السّيل نخلاً كثيرًا[٣].

وأدت السّيول الغزيرة في أغلبها إلى حصول كوارث اجتماعيّة، مثل ما جرى عندما دخل سيل إلى البيت الحرام في سنة ١٣٧٠/٧٧١، وكان علوّ الماء إلى قفل باب الكعبة، وهو أكثر مــن قامتين، واستمرّ جريانه من العشاء إلى ظهر اليوم التالي، وقد نزل معه بَرَدٌ بحجم كبير، وهدم بيوتًا كثيرةً تربو على ألف بيت، ومات فيه خلقٌ كثير نحو ألف نسمة وحمل قافلة بأربعين جملاً، وجرف حيوانات وأمتعة لا تحصى.

وتكررت السيول محدثة مزيدًا من الخراب في البيوت وقتل الكثير من النّاس؛ خصوصًــا سيل سنة ١٣٩٩/٨٠٢، الّذي خرّب عمودين من الحرم الشريف عند باب العجلة بما عليهــا مــن

(١) الأزرقي، **أخبار مكّة**، ج٢، ص٣١٣- ٣١٤؛ الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ٢٠٧.

(٢) وكف: سال. وسحاب وكوف إذا كانت تسيل قليلاً قليلاً. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٥، ص ٣٨٥، "وكف".

(٣) ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، ج٨، ٤١ ورقة؛ المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٣، ص ٧٣٧؛ السيوطي، **حسن المحاضرة**، ص٤٨.

العقود، وخرب دورًا كثيرةً بمكّة، وسقط بعضها على سكانها فماتوا، وقد مكث النّاس مدة يومين لا يتمكّنون من الطواف إلا بالمشقّة[١].

وتغلّغل سيل سنة ١٤٢٤/٨٢٧ في المسجد الحرام حتى بلغ الماء إلى الحجر الأسود، وقرب باب البيت، قد مات في تلك السنة من أهل مكّة المشرّفة نحو من ثلاثة آلاف إنسان بعلّة البطن. وكذلك ولج سيل سنة ١٤٣٤/٨٣٧ المسجد الحرام حتى جاوز نحو أربعة أذرع من حيطان الحرم، وكاد أن يدخل البيت الشريف، وخرّب من مكّة نحو ألف بيت، وكانت حادثةً صعبةً مهولّةً[٢].

ومن السّيول الّتي تسبّبت بأذى الحرم، السيل الذي جرى سنة ١٤٦١/٨٦٦، فوصل الماء في الحرم إلى القناديل، وغطّى باب الكعبة مقدار ذراعين، وطاف المنبر في الماء، فاستمرّ هذا الحدث يومين[٣].

وأصاب سيل عظيم مكّة سنة ١٤٨٢/٨٨٧ تسبّب بهدم أعمدة المطاف، وأهلك أكثر من سبعين رجلاً ماتوا بالغرق داخل الحرم، كما هدّم حوالي ثلاثمائة بيت، وبلغ علوُّ السيل سبعة أذرع، حسب ما ذكر قاضي القضاة محب الدين[٤].

وباغت سيلٌ كبير الحرم سنة ١٥١٤/٩٢٠، اجتاح الماء عتبة البيت الشريف حتى غمر الحجر الأسود، ومقام إبراهيم، وهدّم عدة دور بمكّة، وغرق فيه العديد من النّاس وكان أمرًا مهولاً[٥].

تلك أبرز حوادث السّيول والأمطار الّتي وقعت أثناء حكم أسرة المماليك وسبّبت خرابًا كبيرًا في الأرواح والبناء.

---

(١) الأزرقي، **أخبار مكّة**، ج٢، ص٣١٤– ٣١٥؛ ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج٢، ص٢٣٥؛ الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ج٢، ص٢٥٣؛ الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص٢٠٧– ٢٠٨؛ المقريزي، **السلوك**، ج٣، قسم٣، ص ٩٩٨؛ ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج٤، ج٤، ص٨٠؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٤، ص١١٣؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٢، ص٤٤.

(٢) الأزرقي، م. س.، ج٢، ٣١٥– ٣١٦؛ الفاسي، م. س.، ج١، ص٢١٠–٢١١؛ **المقريزي**، م. س.، ج٤، ص٩٠٨– ٩٠٩؛ ابن حجر، م. س.، ج٨، ص٣٠٠– ٣٠١؛ ابن الصيرفي، م. س.، ج٣، ص٢٧٨– ٢٧٩؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص١٥٣.

(٣) القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص٣١٦.

(٤) ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج١، ص٥٨؛ القرماني، م. س.، ج٢، ص٢٢٣– ٢٢٤.

(٥) ابن إياس، م. س.، ج٤، ص ٣٧٥– ٣٧٦.

٢- نكبة الحرائق

ومن الكوارث الّتي كانت تلمّ بالدّيار المقدّسة، الحرائق الّتي ألحقت أضرارًا بالغةً في بناء المسجد النبويّ، وقد أدركته النيران سنة ١٢٥٣/٦٥١، فأحرقت سقوفه، وأتلفت سقوف الحجرة النبويّة، وخرّبت المنبر الّذي كان الرسول محمّد يخطب عليه، وأعجزت النّاس عن إطفائها[١].

وتكرر اضطرام النار في سنة ١٢٥٦/٦٥٤، فشبّت نيران في المدينة، أرجفت البنيان، وحرّكت الساكن من الجدران... واحترق مسجد المدينة بنارٍ سقطت من يد بعض الخدّام، فعلقت في آلة من آلات الحرم، وهبّت عليها الريح فنقلتها إلى الضرم[٢]. وأعجزت النّاس عن قطعها، واتصلت بالجدران والسقوف، وهدّمت بعض الأساطين وانتهكت حرمة الحجرة المعظّمة[٣].

ومن النكبات الّتي وقعت سنة ١٢٨٧/٦٨٦، أنّ صاعقةً نزلت من السماء على المسجد النبويّ فأحرقته بأسره، وأتلفت الحجرة النبويّة والمنبر والسقوف، ولم يبقَ سوى الجدران، كما تسبّبت بأذيّة جماعة من أهل الفضل والخير[٤].

وتواصل حبل المصائب فحدث حريقٌ عظيمٌ سنة ١٣٩٥/٧٩٨ خارج باب الفرج، عند مسجد النخلة، فانفطرت حجارته، ثمّ أخذ الحريق شرقًا إلى الطواقيين[٥]... فإنحرف الدخان ناحية المدينة، حتّى وقع بالجامع وعلى الأسطحة، واحترقت بعض الأماكن الّتي لم تدرك بالإطفاء[٦].

وفي سنة ١٤٨١/٨٨٦، نزلت صاعقةً قويّةً على المسجد النبويّ في المدينة، فاحترق منها المنارة تجاه القبر الشريف، وخربت سقوف المسجد جميعها، والمنبر والحيطان والأعمدة والأبواب.

---

(١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، قسم١، ص ٢٩١.

(٢) الضرم: مصدر ضرم ضرمًا. وضرمت النار وتضرّمت: اشتعلت والتهبت. والضرمة: السعفة والشيحة في طرفها نار. والضرام والضرامة: ما اشتعل من الحطب. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٨، ص٥٦، "ضرم"؛ R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.II, p.9.

(٣) اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج١، ص١٠؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٩، ص٤٥٤- ٤٥٥؛ ابن شاكر الكتبي، **عيون التواريخ**، ج٢٠، ص٩٢؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج١٠، ص٢٤؛ اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٤، ص١٣١- ١٣٢؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص١٩٣؛ ابن حبيب، **درة الأسلاك**، ج١، ص١١- ١٢؛ المقريزي، **السلوك**،ج١، قسم٢، ص ٣٩٨- ٣٩٩؛ العيني، **عقد الجمان**، ص١٢٣؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص ٣٦؛ السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج٢، ص٤٥؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص ١٩٩- ٢٠٠.

(٤) السيوطي، م. ن.، ص ٤٨.

(٥) الطواقيين: مفرد طائق، وكلّ شيء ما استدار به من حبل أو أكمة. ابن منظور، م. س.، ج٨، ص ٢٢٥، "طوق".

(٦) ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج١، ج٣، ص ٥٨٩.

وما سلم من ذلك سوى القبّة الشريفة، وبعض حيطان المقصورة، وقتل المؤذّن الّـذي كـان علـى المئذنة وقت نزول الصاعقة، وهلك أيضًا جماعةٌ ممّن كانوا بالحرم الشريف(١).

وبعد ذلك، وقعت صاعقةٌ بالمسجد النبويّ سنة ١٤٩٢/٨٩٨ أصابت المنـارة الرئيسـيّة، وتفطّرت خوذة هلالها، وسقط جانبٌ من الدور السفلي، ثمّ أعيد تشييده(٢).

تلك الحرائق الّتي أصابت المسجد النبويّ في عصر المماليك، أدّت إلى خرابـه وتصـدُّع جدرانه وسقوفه، لكنّ سلاطين المماليك حرصوا على إعادة بنائه بسرعة وهمّة، نظرًا إلى مكانتـه المرموقة عند المسلمين.

٣- الغــلاء

تجدر الإشارة إلى أنّ الحوادث السياسيّة الّتي حصلت والكوارث الطبيعيّة الّتي حلّـت قـد أثّرت كثيرًا في حركة الحجّ وأوضاع الحجّاج المعيشيّة، وارتفاع الأسعار، وبدا ذلك واضـحًا فـي سنتي ١٢٥١/٦٤٩ و١٢٦٦/٦٦٥، عندما بلغ غلاء المعيشة بمكّة حد الغلوّ، ونزل الخـوف علـى البادية لتمام قحط السنين عليهم وارتفع السعر بالطائف، حيث بلغ سعر الشعير في رمضان بمكّـة ربع وثلث دينار(٣). وتبع ذلك قحطٌ عظيمٌ حصل بأرض الحجاز في سنة ١٢٨٤/٦٨٣(٤).

وغلا سعر القمح بمكّة في عهد سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا، حتّى بلغ ثمـن كـل غرارة من القمح ألف درهم ومائة أو مائتي درهم، وبيع بمدينة طيبة كل غرارة من القمـح بـألف درهم، وكل غرارة من الشعير بسبعمائة درهم(٥).

وفي سنة ١٣٢٧/٧٢٧ ارتفعت الأثمان بالمدينة، حتّى بيع صاع القمح بثمانية عشر درهمًا، وصودرت الأرزاق، وافتقر النّاس وحوصروا ثمانية أيّام من شدّة الخوف والنهب والتجني، وأكـل الجراد كثيرًا من الثمار، وتغيّرت الأحوال(٦).

واللافت في هذا السياق، أنّ الغلاء بمكّة بلغ درجةً عظيمةً من الارتفاع، حتّى بيعت غرارة القمح، وهي مائة قدح مصري، بأربعمائة وثمانين درهمًا سنة ١٣٦٤/٧٦٦. فهلك جماعة كثيرون جوعًا، ونزح أكثر أهلها عنها، فجهّز الأمير يلبغا الأتابك في جمادى الأوّل إلى مكّـة ألفـي أردب

---

(١) ابن سباط، **تاريخ ابن سباط**، ج٢، ص٩٠٣؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص ١٨٧- ١٨٨؛ ابن طولـون، **مفاكهـة الخلان**، ج١، ص٥٠؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص٢٢٣.

(٢) القرماني، م. ن.، ج٢، ص ٢٢٤.

(٣) الفاسي، **شفاء الغرام**، ج٢، ص ٣١٢- ٣١٣.

(٤) السيوطي، **حسن المحاضرة**، ص ٤٨.

(٥) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، مج٨، ص ٢١١- ٢١٢؛ **تاريخ الدول والملوك**، ج٨، ١٧٢ ورقة؛ المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٣، ص ٨١٥.

(٦) الجزري، **تاريخ حوادث الزمان**، ج٢، ص ١٧٩.

قمحًا، وواصل الإرسال، حتى حمل من مصر إليها اثني عشر ألف إردب، فرّقت كلها في النّـــاس، وكُتب مرسوم بإسقاط ما يؤخذ من مكس الحجّ بمكّة في ما يحمل إليها من البضائع، خـــلا مكـــس الكارم تجار اليمن، ومكس الخيل، ومكس تجار العراق. وعُوّض أمير مكّة عن ذلك إقطاعًا بمصر، وحُمِلَ إليه مبلغ أربعين ألف درهم فضّة، تساوي يومئذٍ نحو الألفي مثقال ذهبًا[١].

وفي سنة ١٣٨١/٧٨٣ انكشفت علامات الغلاء بالحجاز، فشملت جميع الأصناف، وارتفع سعر القمح بالمدينة حتّى تجاوز الأربعمائة درهم، وعظمت المشقة في الرجعة إلى القـــاهرة مـــن زيادة الأسعار[٢].

واستمرّت ظاهرة انتشار الغلاء بأرض الحجاز وبوادي العرب وبلاد الشام، وبسبب كارثة الغلاء انطلق أهل البلاد الّتي حلت عليهم النكبة بأعداد كبيرة إلى أرض مصر لشراء القمح، فحملوا منه ما استطاعوا، وقد حصل ذلك في بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[٣].

وعاود الغلاء تفشّيه بمكّة سنة ١٤٩٣/٨٩٩، وكان غلاءً مهولاً، حتى مات من أهلها نحو من ألفين وخمسمائة إنسان من شدّة الجوع، وأكلوا الأجياف[٤].

هكذا تفاقم الغلاء، وازداد في مكّة خصوصًا في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/الرابـــع عشر والخامس عشر الميلاديين، وذلك يعود إلى تقصير أشراف مكّة وإهمالهم، وعدم اتّخاذ التدابير الضروريّة والفعّالة للقضاء على ظاهرة الغلاء المتفشّيّة بين السكّان، وتخاذلهم عن تأمين ما يكفـــي من موادّ غذائيّة.

٤- انتشـــار الوبـــاء والجـــراد

تسببت الكوارث الطبيعيّة في وجود القحط وانتشار الأوبئة والجراد، ففي سنة ١٤١٠/٨١٣ جاء جراد عظيم من مكّة إلى الشام لم يسمع بمثله[٥]. وفي سنة ١٤٣٤/٨٣٧ انتشر الوبـــاء بمكّـــة واشتدّ بها وبأوديتها، حتى بلغ عديد من يموت بمكّة في اليوم خمسين نفسًا، ما بين رجل وإمرأة[٦].

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج٣، قسم١، ص٩٧- ٩٨؛ ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج٣، ج٢، ص٢٦١.

(٢) المقريزي، م. س.، ج٣، قسم٢، ص٤٦٠؛ ابن قاضي شهبة، م. س.، مج١، ج٣، ص ٦٥؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٢، ص ٥٤.

(٣) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم١، ص ٣٣٠.

(٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص ٣٠١.

(٥) ابن إياس، م. ن.، ج١، قسم٢، ص٨٠٣.

(٦) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٢، ص ٩١٤؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج ١٥، ص٤٢.

وتسربت الأنباء في سنة ١٤٣٩/٨٤٣ بوقوع وباء عظيم بالطائف وبجبلة، على نحو من مرحلة من مكّة، بحيث صارت مواشيهم وأنعامهم في البراري شاردةً لا قاني لها، يأخذها من ظفر بها[1].

تلك صورة عن بلاد الحجاز وما حصل فيها من الوقائع السياسيَّة والفتن العسكريَّة والكوارث الطبيعيَّة في العصر المملوكي، وما رافقها من مواقف لأشراف مكّة والمدينة فيما بينهم أو مع الحجيج. وسوف ننتقل إلى تأدية مناسك الحجّ برعاية أشراف الحجاز.

ثانيًا- تأدية مناسك الحجّ برعاية أشراف الحجاز

أ- تعريف المناسك

نسك :النُسك والنُسُك، العبادة والطاعة، وكلّ ما تقرّب به إلى الله تعالى. فالمناسك مفردها منسك، وهو التعبّد والنسك، ويقع على المصدر والزمان والمكان، ثم سميت أمور الحجّ كلها مناسك[2]. والحجّ: القصد، وهو أحد أركان الإسلام، خصّه الشّرع بقصد البيت الحرام لأعمال مخصوصة في وقت مخصوص، وهو فرض على الجميع- بإجماع- مرّةً في العمر[3]. والحجّ هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وهو تأدية أفعال مخصوصة في أوقات معلومة. وقد فرض الله الحجّ على المسلمين مرة في العمر، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾[4].

تشير هاتان الآيتان الكريمتان إلى أمور عدة، منها:

- بيان ما للبيت الحرام من الفضائل والمزايا الّتي منها أنه أوّل بيت وضعه الله موضعًا للطاعات والعبادات، ومقصدًا للحجّ والعمرة، ومكانًا للطواف.
- بيان فريضة الحجّ، وكونه واجبًا على كل مسلم بالغ مستطيع.
- بيان جزاء تارك الحجّ، والتذكير بأن الله غنيٌّ عن العالمين

ب- مسلك الحجّاج ومشاكلهم برعاية أشراف الحجاز

أول ما يفعله من أراد الدخول في النسك إذا وصل إلى الميقات أن يحرم وهو عبارة عن نية الحجّ والدخول فيه. وللإحرام ميقاتان، زماني ومكاني، يبدأ الميقات الزماني من شهر شوّال

(١) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٣، ١١٨٤؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٢، ص٢٢٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب، ج١٢، ص١٢٧- ١٢٨، "نسك".

(٣) العبدري، **رحلة العبدري**، ص٣٩٤؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص ١٥٩.

(٤) سورة آل عمران، ٣/٩٦- ٩٧.

وذي القعدة وعشر ذي الحجة، أي خلال أشهر المعلومات، والميقات المكاني متعدد النواحي حسب الأماكن الّتي ينطلق منها الحجّاج، فذو الحليفة هي أبعد المواقيت، وهي ميقات الإحـــرام[١] لأهـــل المدينة، وتدعى وادي العقيق، ومسجدها يسمى مسجد الشجرة الّذي أحرم منه رسول الله[٢]، ومـــن ذي الحليفة أحرم ابن بطُوطة سنة٧٢٦/١٣٢٦ بالحجّ مفردًا[٣]، ومثله فعل البلوي سنة٧٣٦/١٣٣٦، فأحرم منها بحجّ مفرد[٤]، والجحفة ميقات لمن حجّ من ناحية المغرب كأهل الشام، ومصر وســـائر المغرب، وهي كانت معمورة، وتسمى مهيعة، وصارت خرابًا قبيل العهد المملوكي، فحلت رابـــغ ميقاتًا بدلاً منها وأضحى النّاس يحرمون من رابغ وهو دون الجحفة بنحو عشرة أميال إلـــى جهـــة المدينة[٥]، ومنهم ابن رُشيد الّذي سافر صحبة الركب الشامي، أحرم من رابغ بحجّة مفـــردة طبقًـــا لمذهبه المالكي في أواخر شهر ذي القعدة سنة٦٨٤/١٢٨٥[٦]، كذلك أحرم العبدري برفقة الركـــب المصري من رابغ سنة ٦٨٨/١٢٨٩[٧]، ومثله أحرم القلصادي من رابغ وسط النهـــار مـــن يـــوم الثلاثاء الثامن من شهر الله ذي الحجة سنة ٨٥١/١٤٤٨ لقدومه من مصر[٨]، ويلملم لأهل الـــيمن ومنه أحرم المجاهد علي ملك اليمن سنة ٧٤٢/١٣٤٢، وأمر بنصـــب الأحواض فنصبت وملئـــت ماء[٩]، وقرن المنـــازل لأهل نجد، وذات عرق لأهل العراق[١٠]. وســـمح للحجّاج أن يدخلوا مكّـــة والمســـجد الحرام من جميع الجهـــات، لكن يستـــحبّ، حســـب الســـنّة النبـــويّة، بـــأن يـــدخل الحجّاج إلى مكّـــة من النـــاحية العليا أي من ثنية كـــداء عـــند بـــــاب المعـــــلى، وذلـــــك اقتـــداءً بالرســـول الّذي دخـــل منـــها في حجـــة الـــوداع[١١]، واعتـــمدها أيضـــًا الركـــب

---

(١) الإحرام: تبدأ نية الحجّ بالصلاة ركعتين ينوي بهما الحاج الإحرام، مع ذكر أوجه الحجّ إذا كان إفرادًا، أو تمتعًا، أو قرانًا، وذلك من أجل التمييز بين الإحرام للحجّ أو للعمرة، أو للاثنين معًا. السراج، **أنس الساري والسارب**، ص ١٧٤؛ علي فكـــري، **خلاصة الكلام**، ص ٢٧٦. J. Jomier, A.J. Wensinck, "Iḥram", *EI*$_2$, vol.III, p.1079.

(٢) العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٤٤٠؛ ابن تيمـــية، **مجموع فتاوى شيخ الإســـلام**، مج٢٦، ص ١١٦– ١١٨؛ الســـراج، م. س.، ص ١٧٥؛ إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص ١٠١– ١٠٢؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظـــر الأندلســـيين والمغاربة**، ص ١٦٢؛ علي فكري، م. س.، ص٢٧٩؛ H. K. Zadeh, *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque*, p.58.

(٣) ابن بطُوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص ٧٨.

(٤) البلوي، **تاج المفرق**، ج١، ص٢٩٥؛ إبراهيم سعيد، م. س.، ص ٢٦٤.

(٥) العبدري، م. س.، ص ٣٤٩.

(٦) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص ٧٤.

(٧) العبدري، م.س.، ص ٣٤٩.

(٨) القلصادي، **رحلة القلصادي**، ص ١٤١.

(٩) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٣٠٧.

(١٠) العبدري، م. س. ، ص ٣٤٩.

(١١) ابن رُشيد، م. س. ، ج٥، ص٨٢.

المصري[١]، كما دخل من هذه الثنية ابن رُشيد[٢] والبلوي[٣] القادمان مع الركب الشامي، وإذا خرج الحجيج من مكّة فليخرج من ثنية كُدًى بأسفل مكّة[٤]، وبعد الإحرام يدخل الحجيج المسجد الحرام من باب بني شيبة استعدادًا لطواف القدوم حول الكعبة[٥].

وبعد تأدية عمل السعي بين الصّفا والمَروة، وهو لا يكون إلاّ إثر الطواف (طواف القدوم أو طواف الإفاضة) وقد أشار ابن رُشيد إلى ذلك فقال:" أكملت الطواف بسنته وختمت بالسعي بين الصفا والمروة، وامتلأ المسعى بسيله حتى كاد يمنع الإسراع بين الميلين الأخضرين"[٦] [٧] ومثله تحدث ابن بطُوطة عن السعي[٨] وكذلك فعل السراج[٩].

فإذا أتم الحجّ سعيه وكان متمتعًا، يحلق شعره أو يقصره. ويكون قد أدى العمرة. أما المفرد والقارن فلا يحلقان بعد الفراغ من السعي ولا يتحللان من إحرامهما[١٠].

ويبدو أنّ السعي بين الصفا والمروة يجري في زحمة شديدة التلاطم والاضطراب. وقد يتسبَّب بعض الحجّاج بأذى العجزة والمرضى والمسنين. وبالنسبة لغير القادرين على أداء السعي مشيًا بين الصفا والمروة، فإنّ هناك عربات لحملهم أعدت لهذا الغرض، ولها مسار خاص... وهذا يقتضي تدخّل أشراف الحجاز لرفع الضّرر وتنظيم حركة السعي بما يتلاءم وجوها القدسي والعبادة الخالصة. ثم يرد الحجّاج بئر زمزم للتضلّع من مائه، وبعد ذلك يمكثون مقابل الكعبة لجهة الحجر الأسود وباب البيت عند الملتزم، للدعاء، ثم ينصرفون إلى مواضع إقامتهم في مكّة. وفي يوم التروية[١١]، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة، أو يوم منى، يتوجه الحجّاج من مسجد الحرام في مكّة

---

(١) العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٤٠٠.

(٢) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص ٨٢.

(٣) البلوي، **تاج المفرق**، ج١، ص ٢٩٥.

(٤) ابن رُشيد، م.س.، ج٥، ص ٨٢.

(٥) ابن رُشيد، م.ن.، ج٥، ص ٨٤؛ البلوي، م. س.، ج١، ص ٢٩٧.

(٦) ابن رُشيد، م. س.، ج٥، ص ٨٦.

(٧) الميلين الأخضرين: بين الصفا والمروة، يستحب للحاج أن يهرول بينهما خلال السعي. العبدري، م. س.، ص ٣٨٨؛ الفاسي، **شفاء الغرام**، ص ١٠١.

(٨) ابن بطُوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص ٧٩.

(٩) السراج، **أنس الساري والسارب**، ص ٨٠.

A. M. Turki, H. R. Souami, *Récits de Pèlerinage à la Mekke*, p.83.

(١٠) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص ٢١٩.

B. Lewis, "Ḥadjdj", EI_2, vol. III, p.37.

(١١) التروية: سمي بالتروية لأنّ الحجّاج منذ عهد الجاهلية كانوا يروون إبلهم ومواشيهم بالماء ويرتوون هم أنفسهم منه، فلم يكن بعرفة ماء في ذلك العهد القديم، وبعض الحجّاج يفضل المبيت بمنى ليلة التاسع من شهر ذي الحجة تيمنًا بالرسول. عبد الله بوقس، **الرحلة المقدسة**، ص ١٣٢.

إلى منى بعد صلاة الصبح لأداء شعائر الحجّ[١]. علمًا بأنّ مغادرة الحجيج من مكّة إلى عرفات يكون من ثنية كُدى اقتداءً بالرسول الّذي خرج منها في حجة الوداع، وتقع بأسفل مكّة. فالواجب على جمهور النّاس المسير في الثامن من ذي الحجة، من مكّة إلى منى والمبيت في منى، حيث يرحلون في اليوم التاسع بعد صلاة الصبح إلى عرفات، ويكون الوقوف في عرفة عند الظهر، تجدر الإشارة إلى أنّ جمهور النّاس، في العصر المملوكي كان يذهب من مكّة إلى عرفات رحلة واحدة تركًا سنة المبيت في منى لمبررات، منها الوقاية من هجمات الأعراب الذين يتسلّلون بين شعاب منى ويتوغلون في الجبال[٢]. ما دفع علماء الشافعية إلى اعتبار هذا المسلك خطأً مخالفًا للسنة النبويَّة[٣]. في حين ذكر العبدري أنّ الإمام مالك لم يعترض على من لم يبت في منى في تلك الليلة[٤]. جدير ذكره أن بعض العامّة يجعلون الوقوف على جبل الرحمة[٥] أفضل من الوقوف على غيره[٦].

فالأصل حسب المذهب المالكي في الوقوف بعرفات دون باقي بقاعها، هو موقف النبي محمّد[٧] [٨]، فعنده يقف العلماء والحجّاج، وقد أشار ابن رُشيد في هذا المنحى أنّ أمير مكّة الشريف أبو نمي محمد بن أبي سعد الحسني جاء في جيشه، ووقف ما بين موقف الرسول ومصلّى الإمام، وله في نهاية الأمر احتفال يعجز عنه الوصف[٩].

---

(١) العبدري، **رحلة العبدري**، ص٤٠٣؛ ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص ٨٦.

(٢) ابن رُشيد، م. ن.، ج٥، ص٨٧.

(٣) ابن رُشيد، م. ن.، ج٥، ص٨٧– ٨٩.

(٤) العبدري، م. س.، ص ٤٠٣.

(٥) جبل الرحمة: هو جبل مرتفع قائم في وسط عرفات، عرف عند العرب القدماء بجبل إلال وليس الإل كما ذكره البعض، وجاء في الحديث تسميته حبل المشاة وضبطه البعض بجبل المشاة، ويسميه الناس جبل عرفة. ابن رُشيد، م.س.، ج٥، ص٨٧– ٩٤.

(٦) ابن رُشيد، م.ن.، ج٥، ص٨٩، الحاشية رقم٣٢٢.

(٧) موقف النبي محمّد: يقع موقف النبي بين الصخور القائمة في طرف جبل الرحمة من عرفات. ابن رُشيد، م. ن.، ج٥، ص٨٩.

(٨) العبدري، م. س.، ص٤٠٤؛ ابن رُشيد، م.س.، ج٥، ص٩٢– ٩٥.

(٩) ابن رُشيد، م.ن.، ج٥، ص١٠٠.

الواجب من الوقوف ما يطلق عليه اسم الحضور في جزء من أجزاء عرفات، لأن عرفات كلها موقف، سوى بطن عُرنة(١)، لأنه من الحرم، والوقوف لا يجوز إلاّ في الحل(٢).

إنّ أداء الحجّاج شعائر المناسك، من حين ترك عرفات والمبيت في مُزْدَلِفَة أو المزدلفة(٣) والوقوف بالمَشْعَر الحرام(٤)، في يوم النحر أو يوم الأضحى(٥)، فجر العاشر من ذي الحجة، ثمّ الدفع إلى منى إثر صلاة الصبح لرمي حصيات الجمار بها، يتمّ وفق المذاهب الأربعة، إلا في ما يتعلّق في كيفيَّة جمع حصيات الجمار. فالمالكية تلتقط الحصيات، والشافعية تكسره(٦)، ويستحبّ أن يصطحب الحجّاج الحصيات من المزدلفة، بينما يلتقطها بعض النّاس حول مسجد الخيف في منى(٧)(٨).

إنّ مناسك الحجّاج في منى تختلف كل الاختلاف عما سبقها، فعلى كل حاج في هذا اليوم أن يرمي جمرة العقبة الكبرى وهي إحدى الجمرات الثلاث. والجمرات الثلاث جمرة العقبة الكبرى والجمرة الوسطى، والجمرة الصغرى. ولكل جمرة مكان مخصوص ورميها واجب فيرمي الحجّ في أول أيّامه بمنى (يوم الأضحية) جمرة العقبة الكبرى وحدها، ويشترط أن يكون الرمي بعد طلوع الشمس إلى زوالها(٩). بعد رمي جمرة العقبة الكبرى يذبح الحاجّ هديه، وجرت العادة على حلق الرأس بعد النّحر وذلك وفق المذاهب الأربعة، ثم يتوجه الحجّاج إلى مكّة لأداء طواف الإفاضة ويبدأ وقته من منتصف ليلة النّحر(١٠). وبعد ذلك يعود الحجّاج إلى منى للإقامة بها أيّام، يقال لها

---

(١) عُرنة: موضع يقع في طرف عرفات من جهة منى ومكّة، وهو الموقع الذي يتحاشى الحجّاج الوقوف فيه، لاختلاف أقوال الفقهاء فيه، فقيل أن عُرنة من الحرم، وقيل أنها من عرفة، وبطن عُرنة هو واد بقرب عرفات، يقطعه من يجيء من مكّة إلى عرفات. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص١١١؛ ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص٩٧- ٩٩.

(٢) ابن رُشيد، م.ن.، ج٥، ص٩٧.

(٣) المزدلفة: تسمى جمع فعن علي بن أبي طالب أن الرسول لما أصبح بجمع أي مزدلفة أتى قزح وهو الجبل الذي فيه المشعر الحرام ووقف عليه وقال: "هذا قزح" وهو الموقف، ومزدلفة كلها موقف. رواه أبو داود، باب المناسك، رقم الحديث ١٩٣٥، ج٢، ص٤٤٧٨ الترمذي، **الجامع الصحيح**، باب ما جاء أن عرفة كلها موقف، رقم الحديث ٨٨٥، ج٣، ص ٢٣٢.

(٤) المشعر الحرام: المعروف في أُمهات الكتب الفقهية أن المشعر الحرام هو جبل صغير آخر المزدلفة يدعى قزح، وفي بعض كتب تفسير القرآن والحديث أن المشعر الحرام هو المزدلفة بجملتها. غداة يوم النحر، في صبيحة العاشر من ذي الحجة، يقف الحجاج عند المشعر الحرام للدعاء. العبدري، م.س.، ص ٤٠٥؛ ابن رُشيد، م.س.، ج٥، ص١٠٢- ١٠٤.

(٥) العبدري، م.س.، ص ٤٠٥.

(٦) العبدري، م. ن.، ص٤٠٥- ٤٠٦؛ ابن رُشيد، م. س.، ج٥، ١٠٤.

(٧) منى: تقع على بعد ثلاثة أميال من مكّة. الفاسي، **شفاء الغرام**، ص ٩٩؛ غلام مهر، **يوميات رحلة في الحجاز**، ص٨٢.

(٨) ابن رُشيد، م . س.، ج٥، ص ١٠٤؛ البلوي، **تاج المفرق**، ج٢، ص٦.

(٩) B. Lewis, "Ḥadjdj", *EI*₂, vol. III, p.37.

(١٠) عبد الله قوبس، **الرحلة المقدسة**، ص ١٧٦.

أيام التشريق، أي اليوم الحادي عشر واليوم الثّاني عشر واليوم الثالث عشر من ذي الحجة[١]، وفي اليوم الثّاني من يوم النّحر ترمى الجمرات الثلاث، ويبدأ بالّتي تلي منى، ثمّ بالوسطى، ثمَّ بجمرة العقبة، كل واحدة بسبع حَصَيات[٢]. إذا أتمّ الحاجّ المبيت في منى ليلتين أو ثلاثًا؛ يكون قد أنهى مناسك الحجّ. ولكن قبل أن يغادر الحاجّ إلى بلده وجب عليه أن يطوف طواف الوداع، وطواف الوداع واجب على الحاجّ لقول النبي محمَّد: "لا ينفرن أحد حتّى يكون آخر عهده بالبيت[٣]".

اللافت في هذا السياق تعرّض الحجّاج لمشاكل الطريق، إضافة إلى متاعبهم الكثيرة والمتعدّدة. فكانت عادة تبدأ ببداية السفر من مكّة أو بدخول الحاج إلى البلاد الحجازيَّة حتّى ينتهي من سفره. وكثيرًا من الحجيج فقدوا حياتهم في هذه الرحلة المباركة إلى بيت الله الحرام أو في رحلتهم إلى زيارة مسجد الرسول. وربما أدّى ذلك إلى عرقلة تأدية المناسك، كما حصل في المطاف وفي قبة زمزم[٤] وفي السعي بين الصفا والمروة[٥]، أو على الطريق بين مكّة وعرفات[٦]، وفي المسجد النبوي في المدينة المنوَّرة[٧]، نتيجة شدة الزحام وكثرة جمهور النّاس. من ذلك ما حدث، في موسم حجّ سنة ١٢٧٩/٦٧٧، فكان الحجّ المصري أربعين ألفًا سوى الشامي والعراقي، وحجّ نفر قليل من عصبة اليمن. وفي يوم الخميس الرابع عشر من ذي الحجة حصلت زحمة في الحجّاج عند خروجهم إلى العمرة من باب المسجد الحرام، فمات جمع كبير ما بين رجل وإمرأة[٨]. وقد اختلّ الأمن في الطريق بين جدّة ومكّة. وبين مكّة والمدينة وعدم الاستقرار الّذي كان سائدًا آنئذ لم يكن مقصورًا على الطريق وحده بل إن مكّة ذاتها نالت الكثير هي الأخرى بسبب ما كان يقع بين الأشراف من تنافس على الحجّاج إلى الدّيار المقدَّسة وإقرار أمن الحجيج. وحفظ ارواحهم ومتاعهم إلى أن يعودوا إلى ديارهم. ولم تكن هذه المهمَّة بالأمر اليسير. ففي موسم الحجّ سنة ١٢٧٣/٦٧١ نهب الحجّاج المغاربة، وكان بمكّة فناء عظيم بلغت الموتى في بعض الأيّام اثنتين وعشرين جنازة[٩]. أما في موسم الحجّ سنة ١٢٩٠/٦٨٩، فوقع اشتباك بين الأمير أبي نمي وحجّاج

---

(١) هاري فيلبي Harry Philby، **حاج في الجزيرة العربيّة**، ص ٦٤.

(٢) العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٤٠٦.

(٣) رواه مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الحجّ، رقم الحديث ١٣٢٧،ج٢، ص٩٦٣؛ أبو داود، **سنن أبي داود**، باب الوداع، رقم الحديث ٢٠٠٢، ج٢، ص٥١٠.

(٤) العبدري، م. س.، ص٣٧١؛ ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص٨٦.

(٥) ابن رُشيد، م. ن.، ج٥، ص٨٦.

(٦) ابن رُشيد، م. ن.، ج٥، ص١٠٠.

(٧) ابن رُشيد، م. ن.، ج٥، ص٢٧٤.

(٨) الجزيري، **درر الفرائد**، ص٢٨٤.

(٩) الجزيري، م. ن. ، ص ٢٨٤.

مصر والشام، والسبب المباشر لوقوعه، يرجع إلى أنّ أحد أعدائه من عرب الحجاز قدم إلى مكّة مع الركب الشامي، فلما علم أبو نمي بذلك، أغلق أبواب مكّة، ورفض أن يسمح بدخول أحد من الحجّاج، فصعد أهل الركب الشامي الجبال المحيطة بمكّة ودخلوها قهرًا. أما أهل الركب المصري، فدخلوا مكّة من جهة باب الشبيكة. غير أنّ الشريف أبا نمي وأهل مكّة تمكّنوا من إنزال الهزيمة بأهل الركبين وإخراجهم من مكّة، ثم جرت مفاوضات بين أبي نمي وأمير الركب المصري، واتفق أبو نمي مع أمير الركب المصري على إخلاء سبيل الحجّاج مقابل مبلغ من المال، واستمرّ الشريف أبو نمي منفردًا بمكّة إلى سنة ١٣٠١/٧٠١[١].

تجدر الإشارة إلى أنّ الرحّالة العبدري كان موجودًا بمكّة خلال وقوع الأحداث المذكورة[٢].

استطاع الشريف محمد أبو نمي، بفضل شخصيّته وحنكته السياسيّة، أن يحتفظ بالاستقلال المحلي لإمارة مكّة، ويداري مطامع كل من السلطنة المملوكيّة والدولة الرسوليّة. وفضلاً عن ذلك، فقد اتّسم عهده الطويل بالاستقرار والهدوء. ومما لا شك فيه، أنّ الشريف أبا نمي كان يودُّ أن يستمرّ ذلك الاستقرار، لذلك أولى مسألة ولاية العهد جانبًا من اهتمامه، رغبةً في عدم ظهور نزاع حول وراثة الإمرة بين أبنائه.

وما يلاحظ أيضًا، أنّ الشريف حميضة بن أبي نمي كان هو المسيطر على إمارة مكّة، وأنّ أخاه رميثة، وإن كان يشاركه رسميًا في الإمرة، لم يكن يتمتّع بشخصيّة قوية مثل أخيه. وقد اكتفى مؤرّخو هذه الحقبة بذكر دور حميضة في الاضطرابات الّتي قامت بمكّة خلال موسم الحجّ من سنة ١٣٠٧/٧٠٦، ولم يشيروا إلى أخيه رميثة، وركّزوا على دور حميضة في حوادث سنة ١٣١٣/٧١٣. ويشير النويّري، وهو مؤرّخ معاصر، إلى أنّ رميثة كان يشارك أخاه حميضة في إمرة مكّة في موسم سنة ١٣١٣/٧١٣، ويؤيده في ذلك بعض مؤرّخي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، مثل الخزرجي والمقريزي[٣].

جدير ذكره أنّ معاملة حميضة ورميثة للحجّاج والمجاورين لم تتبدّل بعد عودة السلطان الناصر محمّد بن قلاوون إلى مصر في أواخر سنة ١٣١٣/٧١٣، فكثرت شكاوى المتضررين من أعمالهما إلى الناصر محمّد، ما حمل السلطان على التدخل العسكري بمكّة لعزلهما من الإمرة وإحلال أخيهما أبي الغيث مكانهما. ففي سنة ١٣١٣/٧١٣، غادر القاهرة عسكر بلغت عدته

---

(١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ص٤٣؛ المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٣، ص٧٦٠؛ دحلان، **خلاصة الكلام**، ص٢٨.

(٢) العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٣٩٢- ٣٩٣.

(٣) ريتشارد مورتيل، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، ص ٧٢.

ثلاثمائة وعشرين فارسًا من المماليك يقودهم الأمير سيف الدين طقصبا، وانضمَّ إليه أمـراء مـن عسكر دمشق، فضلاً عن خمسمائة فارس من أشراف المدينة[١].

ولما بلغ أميري مكّة، حميضة ورميثة، اقتراب الجيش المملوكي من مكّـة، رحـلا عنهـا هاربين إلى اليمن، لذلك لم يواجه الأمير طقصبا صعوبةً في تولية أبي الغيث بن أبي نمـي أميـرًا على مكّة. ولم يلبث هذا الأمير أن تمكّن من إرساء قواعد حكمه، ووضع يده على موارد إمارة مكّة بوجه خاص[٢].

أما التعدّي والظلم على المجاورين والتجار فأصبح أمرًا خطيرًا ما استدعى تدخّل السلطان لفك النزاع، مثال ما حصل سنة ١٣٢٠/٧٢٠، عندما طلب المجاورون والتجّار بمكّة من الناصـر محمَّد خلال إقامته بها في موسم الحجّ، أن يخلف عسكرًا بمكّة لمنع الشريف حميضة من دخولهـا، فاستقر رأي السلطان على أن يبقى فيها الأمير شمس الدين آقسنقر، ومعه مائة فارس. ولمـا عـاد الناصر محمَّد إلى القاهرة، أمر الأمير سيف الدين بيبرس الحاجب بالتوجّه إلى مكّة، وأرسل معـه مائة فارس ليقيموا بها، بدلاً من آقسنقر وعسكره، وعند وصوله إليها في السادس من شهر ربيـع الأوّل سنة ١٣٢٠/٧٢٠، أصدر أمرًا بمنع أهلها من حمل السلاح [٣]. وهكذا صار الحفـاظ علـى الأمن بمكّة من مهامّ العسكر المملوكي المقيم بها.

جديرٌ ذكره أنَّ الوضع السياسي لإمارة مكّة خلال النصف الثّـاني مـن القـرن الثـامن الهجري/الرابع عشر الميلادي لم يظهر منافسًا لسلطنة المماليك حول بسـط السـلطة علـى هـذه الإمارة، فكان المماليك ينفردون بتجهيز المحمل إلى مكّة وإعداد كسوة الكعبة كل سنة. ولما بـادر الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل عباس باليمن، إلى إرسال محمل وكسوة للكعبة صحبة ركـب الحجّ اليمني في سنة ١٣٧٩/٧٨٠، منع أمير الحجّ المصري اليمنيين من دخول مكّة، ثم سمح لهـم بدخولها، كما أذن لهم بإيقاف محملهم بعرفات، وذلك بعد أن توسّط لديه الشريف أحمد بن عجلان، لكن الكعبة لم تكس بالكسوة اليمنية. وفي السنة التالية، حجّ الركب اليمني وبصحبته محمـلُ بنـي رسول[٤].

وكان التنافر والتناحر بين شريف مكّة وأمير الحجّ المصري سببًا في عرقلة مسيرة الحجّ، وتشتّت أهل مكّة، ولا سيّما سنة ١٤٠٩/٨١٢، عندما حدثت مناوشة بين الشريف حسن وأمير الحجّ

---

(١) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص ٣٣٣.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٠٦؛ الخزرجي، م. س.، ج١، ص٣٣٣؛ المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم١، ص١٢٨.

(٣) النويري، م. س.، ج٣٢، ص٣٢١– ٣٢٢؛ المقريزي، م. س.، ج٢، قسم١، ص٢٠٣؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص٦٢.

(٤) ابن قاضي شهبة، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، مج٣، ج٢، ص٥٨٠.

المصري، أدّت إلى قتل العديد من الحجّاج، ونهب الكثير منهم أثناء توجههم إلى عرفة ومنى، وتخلّف أكثر أهل مكّة عن الحجّ... وأصاب الحجّ مشقة بين المأزمين[١]، فحصل هناك قتل ونهب من غوغاء العرب[٢].

هكذا كانت مكّة عرضةً للحوادث والمناوشات الّتي استمرّت في عصر المماليك وخلال موسم الحجّ، وأدّى نشوبها إلى هلاك الكثير من أهل مكّة والزوّار والحجّاج والتجّار، وفساد الممتلكات، ونهب الخيرات، وكل ذلك حصل على أرض المناسك وعند تأدية الفريضة، ما يدلُّ على غياب الأحكام الشرعيّة وتجاوزها من قبل السلطنة وأصحاب مكّة، حبًا بالمال وبترسيخ النفوذ وبفرض السيطرة الكاملة على الحرمين الشريفين.

ج- الكعبة في موسم الحجّ

احتلّت الكعبة مركزًا مهمًا لدى المسلمين، وكانت تكسى أيام المماليك مرّةً واحدةً كل سنة، وتحمل صحبة الركب إلى مكّة، في موسم الحجّ وابتداءً من اليوم السابع والعشرين لشهر ذي القعدة تجرّد الكعبة في أيّام الحجّ من كسوتها إلى حدّ الحجر الأسود، وهو يوم إحرام الكعبة[٣]. وللكعبة احتفالان الأوّل ينظمه سكّان مكّة والمقيمون بها والزّائرون في العاشر من شهر محرّم عند فتحها، والثّاني عند غسلها في الخامس من شهر ذي الحجّة من كل سنة، حيث يقوم بغسل الكعبة حارسها الشيخ (الشيباني)، ويحضر هذه العمليّة شريف مكّة ومعه أمير الحجّ المعيَّن من قبل السلطان المملوكي في مصر، وأمين الصرّة وبعض الموظفين حسب المعتاد، ويجمع ماء الغسيل، وقيل: إنه من ماء الورد، في قوارير، تهدى مع المكانس إلى الحكّام[٤]. بعد الانتهاء من غسل الكعبة، ترفع الكسوة، فيقطع ذيل الكسوة القديمة على قدر قامة من جدار الكعبة، ويظهر من الجدار ما كان تحته، ويبقى أعلاها معلّقًا حتّى يكون (يوم النحر)، فتخلع الكسوة العتيقة وتعلّق الجديدة مكانها، ويكسى المقام من نسبة كسوة الكعبة، ويأخذ بنو شيبة (سدانة الحجبة) الكسوة العتيقة، فيهدونها للحجّاج. وقد زاد رفدهم فيها من حين حصلت المغالاة في كسوة الكعبة وبرقعها، وكان جدار الكعبة عزيز الرؤية حين كانت الكسوة تتراكم عليها [٥].

---

(١) المأزمين: موضع بمكّة بين المشعر الحرام وعرفة، وبه المسجد الذي يجمع فيه الإمام بين الصلاتين الظهر والعصر. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج ٥، ص٤٠.

(٢) دحلان، **خلاصة الكلام**، ص٣٧- ٣٨.

(٣) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص ٨٢.

(٤) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ص ١٤٠؛ علي فكري، **خلاصة الكلام**، ص ٢٩٥- ٢٩٦؛ هاري سانت جون فيلبي Harry Saint John Philby، **حاج في الجزيرة العربيّة**، ص ٤٨.

(٥) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٢٨٧.

وفي عصر السلطان الناصر محمَّد بن قلاوون كانت هناك كسوة مصريَّة للكعبة، استطاع الرحَّالة ابن بطُّوطة أن يرصدها في رحلته سنة ١٣٢٦/٧٢٦، فقال: وفي يوم النحر سنة ١٣٢٦/٧٢٦، بعثت كسوة الكعبة المعظَّمة من الركب المصري إلى البيت الكريم، فوضعت في سطحه، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر، أخذ الشيبيون (بني شيبة) في إسبالها على الكعبة الشريفة. والسلطان الناصر هو الّذي تولّى كسوة الكعبة الكريمة، وبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقوم واحتياجات الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل موسم[1].

وفي هذه الأيَّام، تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي، وهم يقيمون بمكّة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيَّام، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم[2].

يبدو أن التعلّق بأستار الكعبة من الأمور ذات الدلالة المهمَّة في موروث التدين الشعبي للمسلمين، فعند غالبية المسلمين يرتبط الدعاء بدرجة عالية من الإلحاح في الدعاء، ومن تتاح له الفرصة لزيارة بيت الله الحرام، وتؤاتيه القوة للوصول إلى الكعبة المشرفة سيجد أن هذا الموروث ما زال متصلاً، بل ربما شاهد بعضًا من آثار التعلّق بأستار الكعبة. وكما كان عامَّة المسلمين دومًا يحلمون بنيل شرف التعلّق أو حتّى التمسّح بأستار الكعبة، فإن الحصول على شرف القيام باعمار بيت الله الحرام وكسوة الكعبة، ظلّ يداعب خيال حكّام المسلمين على مر العصور، ومن هنا احتلّت كسوة الكعبة مكانًا خاصًا في وعي المسلم على المستوى الرسمي أو الشعبي.

جدير ذكره حرص المماليك على رعاية شؤون الحجّ والحجيج، ولا سيما المقامات الدينيَّة، وخصوصًا الكعبة لما لها من شأن رفيع لدى الحكّام والسلاطين والمسلمين، فتوجَّه السلطان المملوكي الظاهر بيبرس إلى بلاد الحجاز لأداء الفريضة سنة ١٢٦٩/٦٦٧، فقدم مكّة في الخامس من شهر ذي الحجّة، وغسل الكعبة بيده، وحمل لها الماء على كتفيه، وأباح للحجّاج دخولها، وأقام على بابها يأخذ بأيديهم[3]. وحذا حذوه السلطان الناصر محمَّد بن قلاوون في سنة ١٣١٩/٧١٩،

---

(١) ابن بطُّوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص ١٠٦.

(٢) ابن بطُّوطة، م. ن.، ج١، ص١٠٦.

(٣) ابن عبد الظاهر، **الروض الزاهر**، ص ٣٥٥؛ اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج ٢، ص ٤٠٩؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج ٣٠، ص ١٦٦؛ ابن شاكر الكتبي، **عيون التواريخ**، ج٢٠، ص ٣٨٠؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الأبصار**، ج ٢٧، ص ٣٣٦؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٣، ص ٢٥٥؛ ابن حبيب، **درة الأسلاك**، ج١، ٣٨ ورقة؛ ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، ج٦، قسم٢، ١٧٦ ورقة؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج٥، قسم٤، ص ٨٣٩؛ المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٢، ص٥٨١؛ العيني، **عقد الجمان**، ج٢، ص ٤٨؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص ١٤٧؛ السيوطي، **حسن المحاضرة**، ج٢، ص٧٤؛ ابن سباط، **تاريخ ابن سباط**، ج١، ص ٤٢٨؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، قسم١، ص ٣٣١؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص ٢٧١؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي**، ص ٢٣١.

وهي السنة الّتي حجّ فيها حجّته الثّانية، فقام بغسل الكعبة بيده، وصار يأخذ أزر إحـرام الحجّـاج ويغسلها لهم في داخل البيت بنفسه، ثمّ يدفعها لهم، وكثر الدعاء له[1].

تلك صورةٌ ترسم الممارسات الدينيّة لسلاطين العصر المملـوكي فـي الكعبـة المعظّمـة وعنايتهم بالحجّاج.

د- الاحتفـال بتـلاوة الفرمـان السلطانـي

من مراسم الاحتفال في موسم الحجّ كان تلاوة الفرمان السلطاني، حيث يذكر ابن بطّوطـة في رحلته إلى الحجاز سنة ١٣٢٦/٧٢٦، أنه جرى احتفال في الحادي عشر من شهر ذي الحجّـة من السنة المذكورة بمنى بتلاوة الفرمان السلطاني، وقد حضر الحفل شريفا مكّة سيف الدين عطيفة وأسد الدين رميثة ابنا أبي نمي بن قتادة، وأرغون الدوادار نائب السلطان الناصر أميـر المحمـل المصري، وسيف الدين الجوبان أمير المحمل الشامي، وأمين الصرّة والقضاة والفقهاء وأصـحاب المناصب العليا، وانتشرت الجموع الكثيرة من الحجّاج المختلفي الأجناس حول الخيمة المخصّصـة لهذا الحفل.

وكان يتقدّم الحرس أمين الصرّة، ويحمل بيده الفرمان السلطاني، وهو مغلّف بقماش مذهّب، ويقف خلفه حامل الخلع المرسلة من السلطان إلى أميري مكّة وأصحاب المناصب، ليتمّ توزيعهـا على الأشراف والعلماء والقبائل العربيّة. ويسلّم أمين الصرّة الفرمان السلطاني إلى أحد الأميـرين، حيث يكلّف شخصًا معيّنًا لهذا الأمر، فيبدأ بتلاوة الفرمان الّذي يتضمّن الثناء على شـريفي مكّـة والسلطان المملوكي، وحثّ الشّريفين على مساعدة الحجّاج وكفّ أذى العربان عنهم، وبعد الانتهاء من تلاوة الفرمان، يغلّف ويوضع أمام الأميرين، ثم يندفع الحجّاج من جنسيّات مختلفة لتقبيل أيدي شريفي مكّة[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّه منذ سنة ١٣٥٩/٧٦٠ وحتّى سنة ١٣٦٩/٧٧٠، كان عجلان بـن رميثة يدعو إلى السلطان المغولي في الخطبة، وقد استمرّ السلطان يرسل إليه صرّة المـال سـنويًا حتّىسنة ١٣٦٩/٧٧٠[3].

* * *

نستنتج مما سبق ذكره الأمور التالية:

---

(١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص ٥٩.

(٢) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٩١؛ إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ص ٤٩- ٥١؛ M. G. Demombynes, *Le Pèlerinage à la Mekke*, p.251.
H. K. Zadeh, *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque*, p.39- 42.

(٣) جيرالد غوري، **حكام مكّة**، ص ١١٠.

نشطت عمليّة التنسيق والتعاون الرعائي والاجتماعي بين قوافل الحجّ وأمراء مكّة والمدينة زمن المماليك، وقد ظهر ذلك في توفير حماية الحجّاج وتأمين سلامتهم على الطريـــق، ولا سـيّما أثناء تنقلهم بين مواضع المناسك من مكّة إلى مدينة الرسول، وذلك حرصًا على حمايتهم من غـــدر البدو وقطّاع الطرق، واستغلال اللصوص والتفرّد بهم في الصحراء وأثناء الليل.

وبذل أشراف الحجاز في العصر المملوكي جهودهم في إدارة الشـــؤون الدينيّـــة ومراقبـــة أعمال الحجّاج وأدعيتهم، نظرًا إلى أهميّة المنصب الديني الّذي يشغلونه، والمسؤوليّة الملقاة علـــى عاتقهم تجاه السلطان المملوكي وأمراء الحجّ، كما تصدّوا بشدة للوقائع العسكريّة الّتي كانت تنشـــب في بلاد الحرمين، مثل ما حدث سنة ١٣٣٠/٧٣٠ بين أمير الحجّ المصري وأهل مكّة.

وقد استمرّت رحلات الحجّ إلى الحجاز رغم حصول الكوارث الطبيعيّة، وذلك يعود إلـــى إجراءات السلطة المملوكيّة الفاعلة، حيث كانت تقوم بإعادة بناء ما تهدّم جراء السّـيول ونكبـــات الحرائق وتكافح الغلاء بإرسالها كميّة من القمح إلى أمير مكّة منعًا لتفاقم الوضع، وعالجت القحـــط الناجم عن انتشار الجراد، كما عمدت إلى إسقاط ما يؤخذ من مكس الحجّ بمكّة.

وانفرد الرّكب المصري بزيارة المدينة عند العودة، فرحلة العبدري إلـــى الحجـــاز كانـــت بصحبة الركب المصري، حيث زار المدينة بعد الانتهاء من شعائر الحجّ، بينما زار الركب الشامي مدينة الرسول ذهابًا وإيابًا، وقد فعل ذلك ابن رُشيد حين قصد الحجاز حاجًا برفقة المحمل الشامي.

تلك هي صورة الحجّ إلى الحجاز في العصر المملوكي برعاية أشراف الحرمين الشريفين وأمراء الحجّ. ولكن يبقى السؤال: كيف كانت صورة الحياة الاجتماعيّة والثقافيّة في موسم الحجّ أيّام المماليك من خلال مشاهدات الرحّالة الأندلسيين والمغاربة الّذين رافقوا المحامل؟ هـــذا مـــا ســـيتمّ معالجته في الفصل الثالث.

الفصـــل الثالـــث

العلاقات الاجتماعيّة والثقافيّة في الحجاز في موسم الحجّ في العصر المملوكي

نسعى في هذا الفصل إلى معرفة الأوضاع الاجتماعيّة والثقافيّة الّتي كانــت ســائدة فــي الحجاز في موسم الحجّ في العصر المملوكي، فمنذ انتقل الثقل السياسي من الحجاز عامّــة، ومــن المدينة خاصّة، بانتقال مركز عاصمة الخلافة منها إلى الكوفة والشام وبغداد، ثمّ إلى القــاهرة فــي العصر المملوكي؛ اتّسمت المدينة ومكّة بالهدوء والاستقرار، وغلــب عليهمــا الطــابع الروحــي والعلمي، حيث انصرف أهلهما للعلم والعبادة، من هذا المنظور نتناول فــي هــذا الفصــل نشــاط سلاطين المماليك في الحقلين الاجتماعي والثقافي في بلاد الحجاز، عن طريق معرفة الأجوبة على بعض الأسئلة: منها، هل اهتم المماليك بالصرف على شؤون الحرمين الاجتماعيّة ؟ وهل أكثر حكام المماليك من الإنفاق على الأهالي والمجاورين في الحجاز؟ وهل نالت الاحتفالات والأعياد نصــيبًا من رعاية المماليك؟ كيف بدت صورة المنشآت الثقافيّة من مدارس وأربطة وتكايــا وزوايــا فــي الحجاز في العصر المملوكي. هذا ما سنتناوله في المبحثين من هذا الفصل.

أولاً- العلاقــات الاجتماعيــة في موسم الحجّ في العصر المملوكي

أ- الوضع السكاني في الحجاز في العصر المملوكي

تشمل كلمة سكان معاني عدة، منها ما ذكره ابن منظور فقال: سكن بالمكان يسكن ســكنى وسكونًا: أقام. هو ساكن من قوم سكان وجمعها سكن. وأهل الحجــاز يقولــون مســكن، بــالفتح. والسكن: أهل الدار[١] .

١- ســكــان الحجــاز

ينقسم السكان في بلاد الحجاز إلى قسمين أساسيين هما:

القسم الأوّل: سكان المدن، ويطلق عليهم اسم الحضر، وهم أجناس متنوعة:

منهم العرب، ومنهم جماعات مختلفة من العالم الإسلامي، ويطلق عليهم اسم "المجاورون".

القسم الثّاني: القبائل "البدو": يقطنون منازل خاصةً بهم، وكل قبيلة تعرف حدود منطقتها[٢].

وقد انقسمت حياة السكّان في مناطق الحجاز إلى نوعين شأن باقي أجزاء شبه الجزيــرة العربيّــة، وهما حياة البدو، وحياة الاستقرار، ولما كانت معظم الأراضي صحراويّة، فإن نمط الحياة البدويّــة كان يطبع الحياة العامّة بطابعه. ولم تقم المدن والقرى إلا في الواحات الخصبة المنتشرة هنا وهناك

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج٦، ص٣١٢، "سكن".

(٢) حمد القحطاني، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، ص ٣٥؛ M. Katakura, "Some Social aspects of bedouin Settlements in wādi Fāṭima", *ORIENT*, vol.IX, p.69.

في أماكن متفرقة، أو في المحطّات التجاريّة الّتي تقوم في منازل اتخذها رجال القوافل موضعًا فنمت وصارت مدنًا، ولم تستطع مدن الحجاز وقراه أن تنفصل عن الحياة البدويّة القائمة حولها، بل إنها تأثّرت بها في نظم حياتها الّتي سيطر عليها النظام القبلي بأوضاعه السياسيّة والاجتماعيّة[١].

٢- توزُّع السكّان الجغرافي

سكنت منطقة الحجاز مجموعة كبيرة من القبائل، تنتمي في أصولها إلى أنساب العرب المعروفة؛ من عدنانية، وقحطانية، وقضاعية، أمّا أماكن الاستقرار فكانت مكّة، وكانت الطائف في يد قبيلة ثقيف، ويثرب كانت تسكنها قبائل الأوس والخزرج، وهما فرع من قبائل الأزد اليمانيّة، وكانت تعيش إلى جانبهما عشائر عربية صغيرة. وسكنت جاليات أجنبيّة في الحجاز، أهمها اليهود، وكانت جموعهم تعيش في مدن وادي القرى وقراه شمالي يثرب: خيبر، فدك، تيماء، أذرح. كما كانت تعيش في يثرب ثلاث قبائل يهوديّة هي: بنو قينقاع والنضير وقريظة. وكانت الجاليات غير العربيّة في مكّة متعدّدة الجنسيّات؛ منها الروم، والفرس، والأحباش، وكان منهم يهود كما كان منهم نصارى[٢].

وارتفع شأن الحجاز ارتفاعًا كبيرًا بعد ظهور الإسلام وتأسيس الدولة الإسلاميّة الّتي استطاعت أن توحّد شبه الجزيرة العربيّة كلها تحت سلطانها[٣].

ومع الضّعف الّذي أصاب الخلافة العباسيّة، بدأت الفوضى تنتشر في بلاد الحجاز، ورافق ذلك مجاعة ونقص في المواد الغذائيّة، وزاد من محنة الحجازيين غارات قرامطة البحرين الّذين أخذوا يتعرّضون لقوافل الحجيج. وشهد الحجاز في النصف الثّاني من القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي زيادة في نفوذ العلويين من الحسنيين، وظهرت سلالات حاكمة تنتهي كلّها في نسبها إلى موسى بن عبد الله بن أبي طالب، وارتبط ولاء هؤلاء الأمراء بحكّام مصر من فاطميين وأيوبيين[٤].

٣- القبائل القاطنة في الحجاز أيام المماليك

لم يكن وضع القبائل الحجازيّة في عصر المماليك إلا امتدادًا للوضع السياسي المتردّي في الحجاز الّذي كان سائدًا بعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين، وخصوصًا في المناطق الريفيّة القبليّة خارج المدن الرئيسيّة في الحجاز. ومن مظاهر ذلك الوضع، ضعف اهتمام الدولة الإسلاميّة

---

(١) M. Katakura, "Some Social aspects of Bedouin Settlements in wādi Fāṭima", *ORINT*, vol.IX, p.69.

(٢) نجدة خماش، "الحجاز"، **الموسوعة العربيّة**، ج٨، ص ٦٤.

(٣) نجدة خماش، "الحجاز"، م. ن.، ج٨، ص ٦٥؛ W. M. Watt, "Al-Madīna", *EI*$_2$, vol.V, p.992.

(٤) نجدة خماش، "الحجاز"، م. س.، ج٨، ص ٦٦.

بالمناطق الداخليَّة، ما أدَّى إلى تراجع الأمن وانتشار الفقر والجوع، ومن ثمَّ تفشّي الأميَّة في المجتمع القبلي.

وقد فرض هذا الوضع البائس على النَّاس حياةً جديدةً، لها مظاهرها، وأنظمتها الذاتيَّة، وقوانينها المحلية الَّتي تقوم في معظمها على التعاليم الإسلاميَّة، ثمَّ الأعراف والتقاليد العربيَّة الَّتي توارثها أبناء القبائل العربيَّة، والَّتي هدفها الأساس ضبط الحقوق، والمحافظة على المكارم والفضائل، ومنع المفاسد والرذائل(١).

اختلف توزُّع السكَّان في الحجاز من منطقة إلى أخرى، هذا الاختلاف قد يعزى إلى ظروف طبيعيَّة تتمثَّل في التضاريس، والمناخ، وتوافر المياه، والموارد الطبيعيَّة وغير ذلك، كما قد ينسبُ إلى عوامل بشريَّة كالعوامل الاقتصاديَّة والتاريخيَّة.

واللافت في هذا السياق، أنّ تاريخ الأسرتين الحاكمتين في مكَّة والمدينة في أوائل العصور الوسطى، لا يحتوي على أية أحداث مهمَّة. وجميع محاولات أشراف مكَّة الَّتي كانت تستهدف طرد أمراء المدينة، باءت بالفشل دومًا حتى نهاية العصور الوسطى، على الرغم من أنها كانت مدعومةً من السلطنة المركزيَّة الحامية. حيث إنَّ قتادة بن إدريس بن الحسن بن علي بن أبي طالب ١٢٢١/٦١٧، جدّ الفرع الحسني الذي حكم مكَّة حتى سنة ١٩٢٤/١٣٤٣، بعد أن انتزعها من الهاشميين، ثم جمع قومه بني مطاعن، وسالف بني أحمد وبني إبراهيم وتأمَّر عليهم، وملك ينبع، ثمَّ ملك الصفراء وخطب للناصر لدين الله العباسي ١١٨٠/٥٧٥– ١٢٢٥/٦٢٢ خليفة بغداد، وتعاظم أمره حتَّى ملك مع مكَّة وينبع أطراف اليمن وبعض أعمال المدينة وبلاد نجد(٢).

وأما قبائل الحجاز فتوزَّعت في مجموعتين تقاسمت مناطق الشمال والجنوب.

(١)– المجموعة الأولى: قبائل الشمال

– قبيلة بني عقبة

يقطن بنو عقبة على ساحل الحجاز الشمالي، في وسط حويطات التهمة. وتمتد منطقة بني عقبة من ساحل العقبة حتَّى وادي تهامة. وهم مسؤولون عن طريق الحجّ، وفي الداخل حتَّى طريق الحجّ الشامي، وإلى الشمال حتَّى الكرك. وكانوا مرتبطين بالقاهرة، إذ إنّ السّلطان الناصر محمَّد بن قلاوون، الَّذي عاش في الكرك عندما كان وليًّا للعهد، كان على علاقة حسنة مع أميرهم شطي بن عتبة. وقد أرسلت حملتان تأديبيتان ضد بني عقبة، بسبب هجومهم على قوافل الحجّ. وكانت نتيجة الحملة الأولى سنة ١٤٠١/٨٠٤ خفيفةً، فقد اكتفت باعتقال المسؤول، ونقله إلى القاهرة، وإبقائه

---

(١) فائز الحربي، **التنظيمات القانونية لدى قبائل الحجاز**، ج١، ص ٢٥.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص ٢٧٧.

معتقلاً، إلى أن أعيدت البضائع المسلوبة إلى أصحابها الحجّاج. أما الحملة الثّانية سنة ١٤٦٧/٨٧٢ الّتي شارك فيها حاكمًا غزة والكرك، إلى جانب التّجريدة المصريَّة، فقد أسفرت عن إعدام المهاجمين، الذين كانوا قد استولوا عند العقبة على القافلة البديلة المتوجّهة لملاقاة الحجّاج[١].

- قبيلة بني عطيّة

طرح تاريخ بني عطية- الذين يعيشون في حسما والحرة المجاورة لها مجموعةً من الألغاز. تظهر أوّلها في اسم القبيلة، إذ إنّ جيرانهم لا يسمّونهم "بني عطية"، وإنما "المعّازة"، أو في أحسن الأحوال "العطاونة". وكلا الاسمين يتضمّن شيئًا من الاحتقار يظهر في العطاونة في شكل الصياغة، وفي المعّازة في المعنى. وتنتشر قبيلة بني عطيّة في شمال الحجاز والأردن ومصر، ويعرفون في مصر بالمعّازة، وفي الأردن بالعطاونة، وفي الحجاز ببني عطيّة[٢].

تعود أخبار بني عطيّة سكان الحجاز إلى بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. حينما حارب الجيش المملوكي ضد السلطان سليم الأوّل، ففتك بنو عطية بالإقليم الشرقي من مصر. وفي سنة ١٥٢٠/٩٢٦، عندما نشب النزاع بين حاكمي دمشق والقاهرة، جان بردي غزالي وخاير بك، قاموا مجددًا بأعمال سلب ونهب في فلسطين والمحافظة الشرقيّة المصريّة. وكانت قبيلة بني عطية تتقاضى الصرَّة لقاء حماية الحجّاج من معان حتّى المعظم. وظلَّ بنو عطية في صراع طويل مع حويطات التهمة ومع عمران. أما مع جيرانهم الجنوبيين، بَلِيّ، فكانت علاقتهم جيدة، لكنهم كانوا يتعرّضون لغزوات القبائل الغربيَّة من دولة شمر (ولد سليمان، والفقرا). وكانوا هم أنفسهم يشنُّون غزواتٍ على حرب في نجد[٣].

- قبيلة عنزة

كان الحجّاج يجتازون محطّة المعظم على طريق الحجّ، ثمَّ يدخلون أرض عنزة، وهؤلاء هم الفقرا وولد علي. ويجاورهم من جهة الشرق ولد سليمان. ولا يمكن مقارنة عنزة الحجاز، لا من ناحية العدد ولا الأهميَّة، بإخوانهم في الشام والعراق. فالعناصر القويَّة هاجرت، ومن بقي من القبيلة يعيش حياةً فقيرةً في منطقة ضيقة وقليلة الخصوبة. وينطبق هذا بشكل خاص على الفقرا وولد سليمان. إلا أن الفقرا وولد علي يعدلون وضعهم بعض الشيء بتقاضيهم الصرَّة الّتي كانوا

---

(١) القلقشندي، **قلائد الجمان**، ص٦٥؛ **نهاية الأرب**، ص ٣٦٤؛ حمود القثامي، **شمال الحجاز**، ج٢، ص ٢٦٤؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، البدو، ج٢، ص ٤٧٩- ٤٨٠.

(٢) حمود القثامي، م. س.، ج٢، ص ٢٦٥- ٢٦٦.

(٣) ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، م. س.، ج٢، ص ٤٨٣- ٤٨٤، ٤٨٧.

يستحقّونها كونهم من سكّان طريق الحجّ. والقرى الثلاثة الّتي تشكل الواحة، تسمى باسمهم: قرية بشر، قرية ولد علي، قرية الفجير[١].

- الفقــرا

يحدُّ منطقة تنقُّل الفقرا من الشمال خطّ خشم- تيماء (بين المعظم ودار الحمــراء)، ومــن الغرب حرّة العويرض. وعلى طريق الحجّ، تمتدُّ منطقتهم في الجنوب حتى بئر غانم قرب العلا، ثمَّ حتى خيبر، وفي الشرق حتى جبل برد، وكانوا يتقاضون رشوةً عن كل بيت، ومن قافلــة الحــجّ مبلغًا، وذلك في واحتي تيما والعلا[٢].

- ولــد علــي

تتوافق منطقة ولد علي مع منطقة الفقرا في التنقّل، ففي الجنوب فقط، تمتدُّ منطقتهم بعيــدًا حتى قلعة السرا، المحطّة الثّانية على طريق الحجّ بعد العلا، كما أنّ الحياة الاقتصــاديّة للقبيلتــين متشابهة أيضًا، إذ تتقاضى قبيلة ولد علي رشوةً في العلا مثل الفقرا. وبما أنَّ ســكّانها مجــاورين لطريق الحجّ، كان لهم الحقّ في الحصول على الصرّة، ولا سيّما أنهم كــانوا يرافقــون الحجّــاج اعتبارًا من دار الحمراء. وعلى عكس الفقرا، وبشكل أخصّ ولد سليمان، يعدُّ أهل ولد علي بصورة عامّة غير محاربين، ويوصفون بأنهم جبناء[٣].

- ولــد سليمــان

يتألّف ولد سليمان من أجزاء مختلفة، منهم: الجعافرة الذين ينتسبون إلى جعفر بــن أبــي طالب، ابن عم النبيّ محمّد؛ إذ إن هؤلاء الجعفريون (بنو جعفر) كانوا فــي العصــور الوســطى منتشرين في هذه المنطقة. وولد سليمان يسمون غالبًا "بشر"، وهو تعبير يشمل عبيد والعمارات. وقد كان بشر- ولد سليمان أقوى قبائل عنزة في وسط شبه الجزيرة العربيّة، وحتّى شمر كانت تخشاهم. وبصرف النظر عن حصتّهم في واحة خيبر، حيث استوطن بعض أبناء القبيلة، فقد كانوا يعتمدون كليًا على تربية الماشية، إذ إنّ قطعان الإبل الّتي كانوا يملكونها، أكبر من القطعان الّتي كانت تملكها الفقرا وولد علي[٤]

---

(١) حمود القثامي، **شمال الحجاز**، ج٢، ص٢٩٠؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، **البدو**، ج٢، ص٤٩١.

(٢) ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، م. ن.، ج٢، ص٤٩٣.

(٣) القلقشندي، **قلائد الجمان**، ص٨٨؛ ماكس فرايهير فون أو بنهايم Max Freiherr von Oppenheim، م. س.، ج٢، ص٤٩٦.

(٤) القلقشندي، **نهاية الأرب**، ص١٦١؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، م. س.، ج٢، ص٤٩٨- ٤٩٩.

- بلـــيّ

ينتسب بنو بليّ إلى عمرو بن قضاعة، وكانت هذه الجماعة السكّانية تضمّ فـــي الحجـــاز، إضافةً إلى بلي، كلاً من جهينة وعذرة. وتسكن جهينة جنوب وادي إضم، وتقطن عذرة في الشرق على طريق الحجّ من حرّة العويرض حتّى خيبر. وعلى السّاحل، كان للحكومة المصريّة منذ عودة طريق الحجّ البريّة سنة ١٢٦٨/٦٦٧ قدر معيّن من السّلطة، على الأقلّ في نطاق محطّـــات الحـــجّ برّاً، وكان شيخ القبيلة يحصل على معونات من القاهرة. وكان مدرك بليّ في العهد المملوكي، يمتدُّ من وادي الداما حتّى أكرى، أي المقطع الّذي يتولّون فيه المسؤوليّة عن أمن القافلة. وكان بنو بليّ يتقاضون رشوة من تيماء والعلا[1].

- جهينـــة

تمتدُّ منطقة جهينة من وادي الحمض حتّى خط المدينة- ينبع، وقد نجح أشراف ينبع في أخذ مكان شيوخ جهينة. وتجدر الإشارة إلى أنّ قتادة خرج من عائلتهم، وأصبح بُعَيْد سنة ١٢٠٠/٥٩٧ سيد مكّة. وكانت جهينة في العصور الوسطى شيعةً مثل أسيادهم الأشراف. وينقسم أشراف ينبـــع، باعتبارهم شيوخ جهينة، إلى أسرتين، هما: العياشي (عيايشة) وذوي هجّار، كما أنّ بني إبـــراهيم هم أيضًا من أصل شريف، إذ إنه من الصعب فصلهم عن قبيلة تحمل الاسم نفسه كانت في العصور الوسطى تسكن في السويق قرب ينبع النخل، وكان بنو إبراهيم قد أرسلوا في ســـنة ١٥٠٢/٩٠٨- ١٥٠٣، بسبب خلافات داخل عائلة الشريف الأكبر، قوات تصرّفت في مكّة بصورة مخزية، وبعد ثلاث سنوات، أحدثوا اضطرابات في منطقتهم، أدّت إلى عدم مجيء قافلتي الحجّ المصريّة والشاميّة في تلك السنة[2].

- حـــرب

ينتمي جميع سكّان الشريط الواقع بين المدينة ومكّة، إلى حرب الّذين جاؤوا فـــي أواخـــر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي من جنوبي شبه الجزيرة العربيّة، وامتصُّوا القبائل الّتي كانت موجودةً في هذه المنطقة قبل ذلك ولم تكن سمعتهم على ما يرام، لأنهم يبتزون الحجّاج وينهبونهم. وكانت الشكاوى الّتي تصدر من تصرفات حرب تبدأ في المعابر الّتي كانت قوافل الحـــجّ الشـــاميّة والمصريّة تسلكها خلال العهد المملوكي، فلم تكن تمرّ في منطقة حرب، إلا في الســـهل الســـاحلي

---

(١) القلقشندي، **قلائد الجمان**، ص٤٥، **نهاية الأرب**، ص١٨٠؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max freiherr von Oppenheim، **البدو**، ج٢، ص٥٠٦، ٥٠٨، ٥١٠.

(٢) القلقشندي، م. س.، ص١٦٣؛ ماكس فرايهير فون أو بنهايم Max Freiherr von Oppenheim، م. س.، ج٢، ص٥١٤- ٥١٦، ٥١٨- ٥١٩.

من فوق رابغ، بينما كان المقطع الرئيسي منها يجتاز منطقة الإمارات الشريفيَّة الصغيرة: ينبع، صفرا، بدر، خليص.

وتملك قبائل من حرب طريق الحجّ إلى بلاد الشام حتّى مسافة قريبة من بيار (آبار) نصيف. و تسيطر حرب (زبيد) في السهل الساحلي على رابغ، وخليص، والخريبة. وتنقسم حرب إلى مجموعتين: بني سالم، وبني مسروح. وكلاهما مثبت وجوده منذ النصف الأوّل للقرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي[1].

(٢)- المجموعة الثانية: قبائل الجنوب (قبائل صغيرة عند مكّة والطائف)

استقرّ سكّان البدو في جنوبي الحجاز. فالقبائل الّتي كانت في الماضي تقيم حول مكّة، هم هذيل في الشمال والشرق، وكنانة في الغرب، وفهم وعدوان في الجنوب. وفي ضواحي مكّة والطائف، كانت تعيش قريش وثقيف. وبينما كان سكّان الشمال ينتمون إلى جذام وقضاعة، كان سكّان الجنوب خليطًا من أقوام مختلفة من هؤلاء؛ كانت هذيل وكنانة وقريش ينتسبون إلى خندف، وفهم وعدوان إلى قيس، وثقيف إلى إياد.

أمّا توزيع القبائل، فهو على النحو الآتي:

- هذيل

يعدُّ بنو هذيل في الحجاز من السكّان الأصليين؛ كانوا يسكنون شمال مكّة وشرقها، وبعضهم في جنوبها. وينتشر بنو هذيل أيضًا في الشمال الغربي حتى قرب عسفان، وفي الشرق حتّى غزوان قرب الطائف. ولعلَّ قربهم من الدّيار المباركة في مكّة، ومواقع الحجّ المجاورة، وفَّر لهم دخلاً إضافيًّا، مع مصدر آخر للدخل، وهو خطف النّاس؛ فقد كانوا يأخذون الأسرى، ثم يبيعونهم في مكّة. تمتدُّ منطقة هذيل حول مكّة. وهي تضم الواديين؛ وادي الشاميّة (وادي فاطمة) ووادي اليماني[2].

وتنقسم هذيل إلى مجموعتين: هذيل الشام، وهذيل اليمن.

---

(١) القلقشندي، **نهاية الأرب**، ص٢٦٨؛ ماكس فرايهيرفون أو بنهايم Max Freiherr von Oppenheim، **البدو**، ج٢، ص٥٢٤- ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٣٦- ٥٣٨؛ M. Katakura, "Some Social aspects of bedouin Settlements in wādi Fāṭima", *ORIENT*, vol.IX, p.69.

(٢) سمير القطب، **أنساب العرب**، ص٦٧؛ ماكس فرايهيرفون أو بنهايم Max Freiherr von Oppenheim، م. س.، ج٢، ص٥٥٢، ٥٥٧- ٥٥٩.

- بنـــو فهـــم

يقطن بنو فهم إلى الجنوب من مسكن جيرانهم بني هذيل، وهم موجودون منذ زمن قديم في الحجاز. وينتشر بنو فهم في أماكن تمتدُّ من الليث مرورًا بسراة وحتّى جنوبي الطائف. وهم بـــدو رحّل يزوّدون مكّة بالخراف والفحم الخشبي(١).

- عـــدوان

ينتسب بنو عدوان إلى الحارث بن عمرو بن قيس. وقيل: سمي عدوانًا، لأنه اعتدى علـــى أخيه فهم فقتله. وفي بداية الإسلام كانت مشتّتة بين جيرانها، ومن المتعارف عليه أيضًا، أنّ عدوان كانت في يوم من الأيّام تشغل أحد المناصب ذات العلاقة بأداء فريضة الحجّ. ولكن يبدو أنّ القبيلـــة تحسّن وضعها في العصور الوسطى(٢).

- ثقيـــف

يعود أصل بنو ثقيف إلى العدنانية، وهم بطن من هوازن، ويشكّلون سكّان الطائف. كـــانوا يعيشون من المنتوجات الزراعيّة الّتي يبيعونها في مكّة، وفي الأسواق المرافقة لموسم الحجّ، ومـــن صناعة الجلود. وكانت المدينة تعجُّ بالغرباء والزوّار. وبسبب موقعهـــا المناســـب علـــى طريـــق المواصلات، كانت الطائف محطّةًعلى طريق القوافل إلى جنوب شبه الجزيـــرة العربيّـــة، وكـــان العنصر الشريفي هو المسيطر عليها(٣).

- بنـــو سعـــد

بنو سعد بن بكر، الّذين تربطهم صلة قرابة مع فهم وعدوان، مشهورون جدًا فـــي العـــالم الإسلامي، لأن لهم صلةً بتاريخ الرسول منذ طفولته، إذ إنّ حليمة السعديّة مرضعة النبـــي محمّـــد تنتمي إلى هذه القبيلة. وكانت قبيلة بني سعد في الزمن القديم لم تبرز أهميّة، ولكنها حسّنت وضعها في مطلع العصور الوسطى، وكانت تسكن في الجبال جنوب الطائف(٤).

---

(١) سمير القطب، أنساب العرب، ص٦٥– ٦٦؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، البدو، ج٢، ص ٥٦٠.

(٢) القلقشندي، قلائد الجمان، ص١٢٨؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim ، م. س.، ج٢، ص٥٦١.

(٣) القلقشندي، نهاية الأرب، ص١٩٨؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، م. س.، ج٢، ص٥٦٣، ٥٦٥.

(٤) القلقشندي، م. س.، ص٢٠٢؛ سمير القطب، م. س.، ص ٦٢؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، م. س.، ج٢، ص٥٦٦– ٥٦٧.

- قريــش

كانت قريش فخذًا من كنانة، تقيم بين الساحل والشعاب والوديان المؤدية إلــى المرتفعــات الّتي تقع فيها مكّة. وبعد الفتح، بدأت تفرغ من سكّانها؛ فقد جذبت المدينة جميع العناصر الفعّالــة، وبدأ الوافدون إلى مكّة في موسم الحجّ بالتضييق على السكّان الأصليين. وفــي أواخــر العصــور الوسطى، عادت إلى مكّة دفعة كبيرة من أحفاد القريشيين القدامى بهيئة الأشراف. وفيما عداهم، لم يعد يوجد في مكّة إلا ما ندر من عائلات قريشيّة، منهم: بنو شيبة أحفاد عبد الدار الّذين ما زال في حوزتهم حتّى اليوم مفتاح الكعبة. وتتألف مكّة على الأرجح من أحفاد قريشيين حــلّ بهــم الفقــر، ففضّلوا حياة البداوة على حياة المدينة، شأنهم في ذلك شأن بعض عائلات الأشراف الّتي تحولّت في أوائل العصور الوسطى إلى بدو[1].

- الأشــراف

الأشراف في الحجاز قسمان:

سلالة الحسن والحسين أحفاد الرسول، ومنهم: الشيبيون سدنة البيت، وقــريش فــي منــى وأطرافها وأطراف الطائف، وهم غير قريش الثقفيّة.

وهناك العشائر، ومنهم: الشنابرة وذوو سرور، وذوو زيد، والعبادلة في عسير والحجــاز، وذوو بركات، وذوو حسن، وذوو حراز، وذوو عبد الكريم، والحرث، والمناعــة، وذوو جيــزان، وذوو جود الله، والمناديل، وذوو عمرو، وذوو إبراهيم، والجعافرة، وذوو حسين، والفعور[2].

ونظرًا إلى خصوبة أسرالأشراف وكثرة أبنائها، فقد انحدر كثير من أعضائها إلى مرتبــة العامّة، دون أن يفقدوا الاحترام الذي يتمتّعون به بسبب نسبهم. ومن هؤلاء: أسرة قتادة وفروعها، الّتي حكمت مكّة من سنة ٥٩٧/١٢٠٠ إلى سنة ١٣٤٣/١٩٢٤، وقد تحولّوا إلى قبائل يعيش جزء منها حياة البداوة. ويطلق عليهم اسم "أشراف". إلى جانب الشريف أو بدلاً منه، يطلق علىالحسنيّين والحسينيّين لقب "السيد" أيضًا، ففي الحجاز، يسمّى الرجل من أحفاد الحسين "سيد"، بينما يطلق لقب "شريف"على أحفاد الحسن. وعندما أصبحت مصر، بعد سقوط الخلافة في بغداد، القوّة المهيمنة في شبه الجزيرة العربيّة، صار يتعيَّن على الأشراف التماس مسعى القاهرة لتعيينهم أو لمساعدتهم ضدّ منافسيهم المحليين، ما دفع البعض أحيانًا إلى شراء مناصبهم بالمال. علاوةً على ذلــك، حصــلت مصر على عدد من حقوق السيادة داخل الإدارة الجمركية في جدّة ســنة ٨٢٨/١٤٢٥. وبــادىء

(١) القلقشندي، قلائد الجمان، ١٥٣؛ نهاية الأرب، ص٤٣٥؛ سمير القطب، أنساب العرب، ص٦٦؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim ، البدو، ٢، ص٥٧٣– ٥٧٤، ٥٨٠.

(٢) سمير القطب، م. س.، ص٦٣– ٦٤.

الأمر، كان مسؤول الجمارك واحدًا من طبقة الأشراف، ثمّ احتل هذا المنصب رجلٌ من المماليك، وكان حجم هذه الوظيفة يكبر ويصغر حسب الشخص الّذي يتولّاها؛ فكان جاني بك الظاهري، منذ سنة ١٤٤٥/٨٤٩ ممثلاً دائمًا للسلطنة المملوكيّة في جدّة، يسود ويمود كأنه نائب السلطان في الحجاز.

وفي العهد المملوكي أيضًا، لم يتحدّد الوضع القانوني لأمير مكّة بشكل واضح ودقيق، فكانت له مرتبة الأمراء البدو الكبار نفسها، وكان يعيّن مثلهم بموجب "تقليد"، ويحصل على حلّة فخريّة. وكانت الموارد الماليّة للأشراف تستند بصورة جوهريّة إلى الأموال الّتي يبذلها المسلمون انطلاقًا من الشعور بواجب تقديم الدعم للدّيار المباركة، ولسكان المنطقة وحكّامها الموجودين فيها.

وكان الأشراف يفرضون ضريبةً على جميع الأموال المقدّمة بدافع هذا الشعور، لخدمة المباني، ولتوسيع المقامات الدينيّة وتجميلها، ومساعدة الحجّاج، وتوفير الراحة لهم، وكذلك تقديم التبرعات النقديّة والعينيّة (حبوب)، لأهالي مكّة، كما كانوا يفرضون رسومًا عاليةً على فريضة الحجّ ذاتها[1].

هكذا توزّع سكّان بلاد الحجاز، والقبائل القاطنة فيها أيّام المماليك. وقد كانت معظم قبائل الشمال مسؤولة عن طريق الحجّ، ولا سيّما قبيلة بنو عطيّة الّتي كانت تتقاضى الصرّة لتأمين حماية الحجّاج، بينما كانت عنزة والفقرا وولد علي محطّاتٍ على طريق الحجّ، أمّا قبيلة بليّ، فقد تولّت درك الحجيج. وكثيرًا ما كانوا يحتجزون بعض الأفراد رهينةً لقاء دفع الأموال. أما قبائل الجنوب، فكان الدور فيها لطبقة الأشراف، الّذين فرضوا مكوسًا عاليةً على فريضة الحجّ ذاتها، وعلى جميع الأموال المقدّمة لتحسين المقامات الدينيّة، وخدمة الحجّاج.

٤- احتفالات السكّان

تُعَدُّ الاحتفالات بالمناسبات والأعياد مظهرًا مهمًّا من مظاهر العلاقات الاجتماعيّة، ومكّة كغيرها من المدن، تميّزت بعادات اجتماعيّة تجلّت في الأعياد والمناسبات الدينيّة، منها:

(١)- الاحتفال بالأعياد

للمسلمين عيدان: هما عيد الفطر، وعيد الأضحى. وقد كان أهل مكّة يحتفلون بهما احتفالاً دينيًّا رسميًّا يبلغ منتهى الروعة والأبّهة، إذ كان شريف مكّة يخرج لصلاة العيدين ويؤدّيها في المسجد الحرام، وبعد انتهاء الصلاة، يتبادل النّاس التهنئة بالعيد، ويلبسون أحسن الملابس

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٢٧٧- ٢٧٨؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص٣٤١، ٣٤٥؛ ماكس فرايهير فون أوبنهايم Max Freiherr von Oppenheim، **البدو**، ج٢، ص٥٨١- ٥٨٢، ٥٩٢- ٥٩٣، ٥٩٥؛ R. B. Winder, "Makka", *EI*$_2$, vol. VI, p.154.
W. M. Watt,"Al-Madîna", *EI*$_2$, vol.V, p.993.

ويتطيَّبون. وقد جرت العادة عند أهل مكّة أن تنصب القباب ليلة عيد الفطر، ويزيَّن السوق بين الصفا والمروة، ويضربون الدبادب[1] إلى الصباح، وإذا صلّوا الغداة، أقبلت الولائد مزيّنات وبيدهن المراوح يطفن بالبيت، ويختار خمسة أئمّة في التراويح يصلّون ترويحةً ويطوفون أسبوعًا، والمؤذّنون يكبّرون ويهلّلون، ثمّ تضرب الفرقاعيات كما تضرب عند الصلوات[2].

(٢)- الاحتفال بالحج

يستعدُّ سكّان مكّة في وقت مبكر لأعمال الحجّ، وما ينبغي تقديمه من خدمات لحجّاج بيت الله الحرام في أشهر الحجّ، سواء في مكّة نفسها أو في المشاعر المقدّسة، ولا سيّما توفير السكن في مكّة للحجّاج القادمين من مختلف أقطار العالم الإسلامي. وقد قال ابن بطّوطة بهذه المناسبة: إذا أقبل أوّل يوم من أيّام شهر ذي الحجة، تضرب الطبول في أوقات الصلوات بكرةً وعشيةً، إشعارًا بحلول الموسم المبارك، ولا تزال كذلك إلى يوم الصعود إلى عرفات، فإذا حلَّ اليوم السابع من ذي الحجّة، خطب الخطيب بعد صلاة الظهر في المسجد الحرام خطبةً بليغةً، يعلم النّاس فيها مناسكهم ويعلمهم بيوم الوقفة، وتقع المباهاة والمفاخرة بين أهل مصر والشام والعراق في إيقاد الشمع[3].

ولعلَّ الاحتفال بحلول شهر ذي الحجّة، كان يذكّر القوم بالاستعداد لأداء الفريضة، ويهيّىء السكّان والزوّار والحجّاج ذهنيًا ونفسيًا بوجوب التقيد بقواعد أصول هذا الركن المبارك.

ومن الطبيعي أنّ النّاس بعد يوم الوقفة في عرفات يحتفلون بعيد الأضحى، ولكن أداء المناسك، كالنّحر ورمي الجمار وما إلى ذلك، يطغى على سواه من مراسم العيد، إلاّ إنّ الرحّالة من أمثال ابن جبير وابن بطّوطة لم يوليّا هذه الناحية شيئًا من اهتمامهم. ومن الملاحظ أنّهما لم يصفا ملابس النّاس في العيد، فقد اكتفى ابن جبير بقوله: ولبس الناس أثواب عيدهم[4]. ولم يذكر شيئًا عن تبادل الزيارات أو إقامة الزينات وعزف الموسيقى، وما إلى ذلك.

وتجدر الإشارة إلى أنّه كان لأهل مكّة احتفال خاص برؤية هلال رجب يتميَّز عن غيره من الأشهر، إذ يرى أهل مكّة قدوم رجب موسمًا من المواسم العظيمة، فهو أحد الأشهر الحرم، فإذا أهلَّ هذا الشهر، أمر أمير مكة بضرب الطبول إشعارًا بدخول الشهر.

هكذا كان سكّان مكّة يحتفلون بالأعياد وبحلول أشهر الحرم، وهي احتفالات رسميّة وشعبيّة كان لها عاداتها وتقاليدها وطابعها المميَّز.

---

(١) الدبادب: ويقال لها: الطبول، والبوقات، والزمر المعروف بالصّهان الذي يضرب به عشيّة كل ليلة بباب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها، وهي المعبّر عنها بالطبلخانه. القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٢، ص١٤٢ .

(٢) المقدسي، **رحلة المقدسي**، ص١١٤.

(٣) ابن بطّوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص ١٠٤.

(٤) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٣٤ .

٥- أخـــلاق السكـــان وعاداتهـــم

واظب الرحّالة في عصر المماليك على وصف أهل الحجاز، كل منهم على طريقته، حيث ذكروا تصرّفات الحجيج مع سكان الحرمين، وأصحاب المناصب فيها، فجاءت صـــورهم متنوعـــةً بحسب انطباعاتهم وحماسهم المتدفّق، ومن هؤلاء ابن رُشيد، الذي أشار إلى استقبال أهل المدينـــة للحجّاج الوافدين، فقال: خلال توجّهنا إلى بلاد الحجاز لأداء الفريضة سنة ٦٨٤/١٢٨٥، تلقّانا أهل المدينة، مبشّرين بالوصول إلى الرسول، وجالبين من تمر المدينة ما يتحفون به القادمين ملتمســين رفدهم. فيعطي كلّ واحد ما تيسّر له من الرفد[١].

تلك صورة معبّرة عن استقبال أهل المدينة وتكريمهم وترحيبهم بالحجّاج الزائرين الـــدّيار المباركة.

ومن عادات أهل المدينة في أوّل شهر رجب إلى منتصفه من كل سنة، أنهم كانوا يقيمـــون مولدًا عند مشهد حمزة بحضور أهل المدينة رجالاً ونساءً، وأهل مكّة، والطائف، وجـــدّة، ورابـــغ، وسكّان البوادي، الذين يزورون المدينة كل سنة في رجب، ويحضر أرباب الطرق، وتذبح هنالـــك الذبائح، ويوزّع الطعام[٢]. ولعلّ أهل المدينة كانوا يبتغون مـــن وراء ذلـــك بركـــةً، أو يقصـــدون الصدقة.

هكذا جرى احتفال أهل الحجاز في شهر رجب؛ فقد كان لســـكّان المدينـــة عـــاداتهم فـــي المناسبات، وكذلك أهل مكّة. ومهما كانت كيفيّة الممارسات، فإنها تكشف أمورًا تتمثّـــل بـــاختلاط العلاقات الاجتماعيّة والتقاليد واندماجها، ولاسيّما خلال موسم الحجّ؛ وقد كان لكلّ عـــادة طابعهـــا المميز، ونهجها الحياتي المعين في المزاولة.

ومن اختلاط هذه الأجناس بعضها ببعض، بالمصاهرة، أو المعاشرة، صار سواد أهل مكّة خليطًا في خلقهم، فتراهم قد جمعوا إلى طبائعهم عظمة التركي، وكبرياء الفارسي، ولين المصري، وصلابة الشركسي، وسكون الصيني، وحدّة المغربي، وبساطة الهندي، ومكـــر اليمنـــي، وحركـــة الشامي، ولعلّهم جمعوا بين رقةً الحضارة وغلظة البداوة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الأمر قد وصل إلى أزيائهم؛ فالمكّي قد يرتدي عمامةً هنديـــةً، وقفطانًا مصريًّا، وجبةً شاميّةً. ويلاحظ غياب هذا الخليط عن طبقة الأشراف الّتي ترفّعت عنه، فلم يدخل في مادّتهم غريب، ولم يتغلّب عليهم خلق جديد، بل خلقهم هو بعينه العربي الأصـــيل الّـــذي ورثوه عن أجدادهم، وألفوه بما فطروا عليه من كريم العنصر وذكاء المحتد[٣].

---

(١) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص١٦.

(٢) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٤٤٣– ٤٤٤.

(٣) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص١٢١– ١٢٢.

والرّاجح أنّ أخلاق أهل مكّة كانت غاية في الكمال، وخصوصًا الطبقة العالية منهم؛ فلا يؤخذ على مجموعة خِسّة بعض السوقة منهم.

أما العبدري، فأشار خلال حجّه سنة ٦٨٨/١٢٨٩ إلى سكّان مكّة بطريقة مختلفة، حيث كشف أفعالهم، وعرض تصرّفاتهم، فقال: وفي أصحابها بعض جفاء وقلة ارتباط بالشرع، وهم في الغالب يؤذون الحجّاج، ويحيفون على المجاورين بها[١].

وتابع العبدري كلامه على أهل مكّة وتصرّفاتهم مع الحجّاج، فقال: كنت عازمًا على المجاورة بها، وبقيت مع الرّكب منتظرًا خروج السكّان من المنزل الذي اكتريته، وهم من أهل تونس الفضلاء، سكنوه مجاورين بمكّة، حتّى وقعت فتنة بين الرّكب وبين أمير مكّة، أدّت إلى تعارك أهل مكّة، فعزم شريف مكّة على أخذ الحجّاج الّذين قدّر عددهم بأربعة آلاف راحلة، ومن حسن حظهم أن كان بمكّة شخص من أتراك مصر، يقوم بخدمة أمير من أمرائها. فما زال به التركي حتّى فداهم بمالٍ منه، وسرّحهم[٢].

تلك الحادثة تكشف عن تدهور العلاقة الاجتماعيّة، وفقدان أسلوب التعامل الإنساني بين شريف مكّة وصاحب الركب، ما أدّى إلى انعكاس الوضع المتردّي على السكّان المحليين والحجّاج. فهل يعقل خلال إحياء الشعائر الدينيّة، ارتكاب الكبائر، كالقتل أو التعرض للحجّاج والبيت العتيق؟! إنّ هذا دلّ على شيء، فإنما يدلُّ على تجاوز القواعد الأخلاقيّة، والعلاقات الاجتماعيّة والدينيّة.

وقد تتبادر إلى الذهن تساؤلات عن صلاحيّات شريف مكّة، ودوره في حماية الحجّاج المنقطعين الّذين تخلّى عنهم للخادم التركي، حلّ محله دون تكليف شرعي من قبل سلطان المماليك.

تواصل عمل الرحّالة في وصف سكّان مكّة والمدينة، والوقوف على وضعهم الاجتماعي؛ فكان نصيب أهل مكّة وافيًا على لسان الرحّالة ابن بطّوطة الّذي ذكر أفعالهم ومكارمهم وأخلاقهم الحميدة سنة ٧٢٦/١٣٢٦، عندما ذهب لأداء مناسكه، فقال: ولأهل مكّة الأفعال الجميلة، والمكارم التامّة، وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنه متى صنع أحدهم وليمةً، يبدأ بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطّف. ومن أفعالهم الحسنة، أنّ الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفّتان كبرى وصغرى، وهم يسمون القفة[٣]مكتلاً[٤]؛ فيأتي الرجل من أهل مكّة

---

(١) العبدري، **رحلة العبدري**، ص٣٦٢– ٣٦٣؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص١٤٢.

(٢) العبدري، م. س.، ص٣٩١– ٣٩٣؛ إبراهيم سعيد، م. س.، ص١٥٨ – ١٥٩.

(٣) القفّة: جمعها قفف وعاء من خوص "ورق نخل" أو نحوه لحمل البضائع وغيرها. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص ٢٥٨، "قفف". R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.II, p.382.

(٤) مكتل: جمع مكاتيل، وهي سلة القطوف، وأهل مكّة يسمون القفة مكتلاً. R. Dozy, *Ibid*, vol.II, p.444.

إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي أغراضه للصبي ليوصلها إلى داره، ويذهب الرجل إلى طوافه[١].

ولعلّ الرحّالة ابن بطّوطة كان أكثر دقةً في وصف سكّان مكّة، حين بيّن أعمالهم الحسنة التي يؤدّونها للمجاورين والفقراء المنقطعين، حيث تحدّث عن كرمهم وأخلاقهم وأفعالهم، بما يظهر تقاليدهم، وعاداتهم من خلال ممارساتهم الطيبة في موسم الحجّ.

وزيادة في الحرص والحفاظ على سلامة الحجّاج والزائرين، كان أهل مكّة يوقدون ليلة هلال المحرم للحجّاج مخافة السرقة والنهب[٢].

تلك صورة حسنة عن سكّان أهل مكّة في العصر المملوكي خلال موسم الحجّ، ونمط التعامل الإنساني مع الفقراء والمنقطعين والضعفاء. ما يزيد في قيمهم الأخلاقيّة والسلوكيّة.

٦- طبقة المجاورين

المجاور بمعنى الجوار، يدلُّ هذا المصطلح على الشخص الّذي يستقرُّ مدةً قصيرةً، أو طويلةً، في مكان مقدّس ليعيش حياة الزهد، والتأمل الديني، وينعم ببركة ذلك المكان. ومن أكثر الأماكن المقدّسة الّتي كان يؤمُّها المجاورون، الكعبة في مكّة، والحرم النبوي في المدينة [٣].

وفي العصور الإسلاميّة المبكرة، نشأت الزوايا والمدارس في جوار مثل هذه الأماكن الّتي استقرَّ بها، أو بالقرب منها مجاورون، ليتلقّوا علم الدين من الأولياء والعلماء الّذين كانوا يعيشون هناك. والرسول مثال للمجاور، فقد كان يتعبد بغار حراء على دين إبراهيم؛ وقيل: بالتأمل في عجائب صنع الله[٤].

وكان هناك علاقة مشتركة في سلوك المجاور وتصرّفات الحجّاج. فقد أشار أهل مكّة إلى جميع الأشخاص الّذين كانوا يعيشون فترةً زمنيةً طويلةً في الحرمين، دون أن يكونوا قد ولدوا هناك، على أنهم مجاورون. وهؤلاء كانوا من الهنود، والمصريين، والعراقيين، والشاميين، والمغاربة، والأتراك، والأعاجم، وأهل اليمن، والحضارم (حضرموت)، والبخاريين إلى غير ذلك[٥].

---

(١) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٩١؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص ٢٢٨- ٢٢٩.

(٢) الأزرقي، **أخبار مكّة**، ج٢، ص١٧٢.

(٣) C. J. Lecerf, "Djiwār", *EI₂*, vol.II, p.572.

(٤) W. Ende,"Mudjāwir", *EI₂*, vol.VII, p.295 – 296.

(٥) سليمان فضي، **التحفة الإيقاظية**، ص٩٣؛ يغيم ريزفان، **الحجّ قبل مئة س**، ص١٤٥.

واللافت في هذا السياق، أنّ هؤلاء المجاورين كانوا من الحجّاج الّذين وفدوا من مختلف بقاع العالم الإسلامي على مرّ العصور واستقروا في مكّة، واختلطوا مع سكانها، والتحموا بالمجتمع عن طريق المصاهرة، وأصبحوا يشكّلون جزءًا أساسيًا من هيكلها الاجتماعي، إلا أنهم في الأصل من طبقة واحدة؛ فمنهم صغار الأمراء الّذين أبعدهم السلطان المملوكي، ومنهم أعيان النّاس والعلماء وطلبة العلم والزهّاد، ومنهم من وفد للاستقرار والموت بجوار الكعبة، ومنهم التجّار الّذين قدموا للمتاجرة، ثمّ فتحوا حوانيت لهم بمكّة واستقروا فيها طوال السنين، وتزوّجوا وأنجبوا فيها.

وينتمي هؤلاء إلى أجناس مختلفة، وكان لكل فريق منهم حي خاص به، حيث يعيش أفراده وفق عاداتهم وتقاليدهم الّتي جاؤوا بها، لكن ذلك لا يعني أنهم كانوا معزولين بعضهم عن بعض، أو عن بقية السكّان، بل كانوا يخالطون بعضهم بعضًا، ويتصاهرون ويتعايشون، حتّى انصهروا في بوتقة واحدة، كانت حصيلتها المجتمع المكي. واشتهرت من هؤلاء أسرٌ معروفةٌ بأسمائها، فمن الهنود "الدهليون" و"بنو عبد الحق"، ومن الجاوية "الزينيون"، ومن البخاريين "بنو كشك"، ومن الحضارم "با زرعة" "وبا حكيم"، ومن الشاميين "بنو هاشم" و"الجبري"، ومن الترك "القرملي"، ومن المصريين "النويريون" و"الفيومي" و"الأسيوطي"[(١)].

ومن هؤلاء المجاورين بمكّة يوم زارها الرحّالة ابن بطُوطة حاجًا، في الربع الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، الإمام الصوفي عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشهير باليافعي، الّذي كان كثير الطواف، ومنهم الشيخ العابد شمس الدّين محمّد الحلبي، من قدماء المجاورين، وكان كثير الطواف والتلاوة، وتوفي في مكة. ومن المجاورين أيضًا، أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت، الّذي كان كثير الطواف كذلك، وأقام بمكّة سنوات لا يتكلّم فيها. وهناك المجاور الصالح المجود برهان الدين إبراهيم المصري، وكان مقرئًا مجيدًا ساكنًا رباط الندوة، أهل مصر والشام يقصدونه بصدقاتهم، إضافةً إلى أنّه كان يعلّم الأيتام كتاب الله، وكان يقدّم لهم المؤونة والكسوة. والفقيه أبو الحسن عليّ بن رزق الله الأنجري، من أهل طنجة، جاور بمكّة سنينًا، وبها توفّي، وكان له بيت بالمدرسة المظفّرية يعلّم فيها نهارًا، ويأوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع[(٢)].

تلك طائفة من المجاورين زمن ابن بطُوطة، وكانت أعمالهم تكشف عن نيّاتهم في تعاطيهم المثابر والمتواصل من أجل تعليم الفقراء والأيتام والمعوزين، ما يدلُ على ضرورة وجودهم في هذا المكان المقدّس والمجاورة فيه.

---

(١) طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص٢٤٣– ٢٤٤.

(٢) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص١٩٤؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص٢٣٢– ٢٣٣.

وبعد مضيّ حوالى عشر سنوات على رحلة ابن بطّوطة إلى الدّيار المباركة، توجه البلوي إلى الحرمين، وقد أشار إلى المجاورين الّذين قابلهم هناك، ومنهم: أبو محمد بن أسعد بن علي اليافعي، الذي آثر الفقر على الغنى، واختار الآخرة على الدنيا... وهجر دياره إلى دار الهجرة، فاشتهرعلمًا وعقلاً، وقسم مجاورته بين الحرمين... وقد رفع العلم قدره. ومن المجاورين أيضًا جمال الدين أحمد بن خلف، وقد وعى صدره علمًا كبيرًا، وسقى زلال الحكمة، فأحيا الله به أنعامًا[١].

وقد شهد منتصف القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي على تعايش مجاورين بالحرم، وأورد ذلك القلصادي عندما خرج إلى مكّة لأداء المناسك، فذكر: نزح قاسم بن الحسين التلمساني عن طلب الدنيا، وفاز بالسعادتين، من المجاورة بالحرمين، وخصّني ببيته من رباط الموفق[٢].

ومن المجاورين في مكّة زمن المماليك: محمد بن مطرف الأندلسي (١٣٠٦/٧٠٦)، قدم مكة فأقام بها نحوًا من ستين سنةً ملازمًا للعبادة[٣]. ومنهم أيضًا الأمير عزّ الدين ازدمر الخازندار (١٣٥٤/٧٥٥)، جاور بمكة وأقام بها[٤].

وتجدر الإشارة إلى أنّ النساء حظين بالمجاورة، وتولّت مشيخة الرباط منهن: فائدة (١٤٦٧/٨٧٢)، نزيلة مكة، والملقّبة بالشيخة لكونها كانت شيخة رباط الظاهريّة بأسفل مكّة، وتذكر بين النسوة بالخير والحفظ والوعظ[٥].

أما في المدينة، فالمجاورون كانوا خليطًا من الأتراك، والجزائريين، والتونسيين، والمصريين. كانوا ذوي أخلاق حسنة، وصفات جميلة، يحبّون من هاجر إليهم، ويألفون الغريب ويكرمونه. فقد كان على من يريد الأجر والثواب أن ينفق جلّ صدقاته وخيراته في تلك البلدة الطيّبة على جيران نبيه وشفيعه ويراعي حقوق جيرتهم[٦].

ومن هؤلاء المجاورين في عصر المماليك: نصر الشمسي الطواشي (١٣٢٧/٧٢٧)، كانت له أوقافٌ جيّدة، ولِيَ مشيخة الخدّام بالمدينة، وجاور بها مدةً. ومهنّا بن سنان بن عبد الوهاب

---

(١) البلوي، **تاج المفرق**، ج١، ص٢٩١– ٢٩٢؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص٢٦١– ٢٦٢.

(٢) القلصادي، رحلة القلصادي، ص١٣٦؛ إبراهيم سعيد، م. س.، ص٢٩٦.

(٣) ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج٤، ص٢٦٠.

(٤) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٣، ص١٤٤.

(٥) السخاوي، **الضوء اللامع**، ج١٢، ص١١٤.

(٦) سليمان فضي، **التحفة الإيقاظية**، ص١٥٤؛ يغيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، ص١٦٤.

(١٣٥٣/٧٥٤)، وكان حسن الفهم، جيّد النظم، لأمراء المدينة فيه اعتقاد لا يقطعون أمـرًا دونـه، وكان كثيرالنفقة، متحبّبًا إلى المجاورين، ويحضر مواعيد الحديث[1].

وخلال زيارة الرحّالة ابن بطُوطة المدينة، كان فيها مجاورًا أبا العباس أحمد بن محمّد بن مرزوق، الّذي كان كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد الرسول. وأما أبو محمّد الشروي، فهو من القراء المحسنين. ومن المجاورين أيضًا، الفقيه أبو العباس الفاسي مدرّس المالكية بها[2].

تلك طائفة المجاورين الّذين سكنوا الحرمين وعاشوا حياةً زهيدةً بسيطةً يرجـون الآخـرة والثواب والمغفرة، مكرسين وقتهم للعبادة، وتعليم الفقراء والمحتاجين، ولعلّهـم يكونـون قـد أدّوا دورهم الجهادي في سبيل الله.

٧- الرّفادة في موسم الحجّ في العصر المملوكي

عرفت الرّفادة زمن الجاهلية، حيث كانت قريش تترافد به، فيخرج كل إنسان مـالاً بقـدر طاقته فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً أيّام الموسم، فيشترون به للحاج الجزر والطعام والزبيب، فلا يزالون يطعمون النّاس حتى تنقضي أيّام موسم الحجّ؛ وكانت الرّفادة والسّقاية لبني هاشم، والسّدانة واللّواء لبني عبد الدار، وكان أولّ من قام بالرّفادة هاشم بن عبد مناف[3].

اعتبرت مواسم الحجّ مناسباتٍ دينيّة خاصةً، كان السلاطين يولونها عناية كبيـرةً، حيـث يفرّقون الكثير من أموالهم وصدقاتهم وزكاتهم على فقراء البيت الحرام، إلى جانب حرصهم علـى إلغاء الضرائب والمكوس المقرّرة في تلك البقاع الطاهرة.

وبالإضافة إلى ذلك، بذلوا الخلع السنيّة على حكّام تلك الأماكن المباركة، تعويضًا لهم عن المكوس الّتي أسقطوها، إلى جانب توزيع الإقطاعات الواسعة ذات الأراضي الزراعيّة الخصبة في مصر والشام من أجل كسب رضاهم، فكانوا يتّبعون في معاملة رعايـا البيـت الحـرام، مـنهج السلاطين الحريصين على مساعدة الأهالي، ومدّ يد العون إليهم، كي يتيسّر لهم ولو شيء قليل من العيش الكريم، في ظلّ حكم السلاطين المماليك[4].

وقد اعتاد الحكّام على تخصيص بعض الأموال لتوزيعها بين أهل الحرمين، وهـي مـن الصدقات الّتي كانت تسدّ بعض احتياجاتهم. لذلك فإنّ ورودها أو انقطاعها كان له تأثير فعّال على أحوال سكّان مكّة. وظهرت هذه الاتجاهات الطيّبة عندما حجّ السلطان بيبرس في سنة ١٢٦٨/٦٦٧

---

(١) ابن حجر، الدرر الكامنة، ج٤، ص ٣٦٨، ٣٩٣.

(٢) ابن بطُوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٧٤- ١٧٥؛ إبراهيم أحمد سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص ٢٠٥-٢٠٦.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٣، ص ١٨١، "رفد".

(٤) حياة الحجي، **أحوال العامة في حكم المماليك**، ص ٢٢٣؛ B. Lewis, "Ḥādjdj", *EI*$_2$, vol.III, p.39.

فأحسن إلى من بمكّة والمدينة من الفقراء، وعلّق كسوة الكعبة بيده، وزود أميري مكّة والمدينة بالأموال والغلال لتسبيل الكعبة للنّاس، وذلك حتى لا يتعرضوا لأحد من الحجّاج، أو التجّار بشيء من المطالب[١]. واستمرّ اهتمام السلاطين المماليك بالحرمين بعد الظاهر بيبرس، ومن أبرزهم السلطان الناصر محمّد بن قلاوون الذي امتدّت أعماله الخيريّة طوال فترات حكمه الثلاث التي حكم خلالها الدولة المملوكيّة الأولى إلى الحرمين والطرق المؤدية إليهما، وقد أوردتها المصادر التاريخيّة متفرقة؛ فمن ذلك جدد المسجد النبوي في سنتي ٧٠٥/١٣٠٥- ٧٠٦/١٣٠٦، كما عمّر بئر زمزم وقبة الشراب المعروفة بقبة العباس في مكّة سنة ٧٠٦/١٣٠٦[٢]. وفي حجّته الثّانية سنة ٧١٩/١٣١٩. أشار الرحّالة ابن بطّوطة إلى أعمال البر والصدقات الّتي أدّاها الناصر، فقال: تميّز الناصر بالسيرة الكريمة، فساعد الحجّاج على تزويدهم بالجمال، وعمل على توفير الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء، وأعان من تأخّر أو ضعف على المشي في الدربين المصري والشامي[٣].

أمّا المقريزي، فتطرّق إلى صدقات الناصر، فقال ما نصّه: قدم السلطان مكّة بتواضع، وبلغه أن جماعةً من المغل قد حجّوا واختفوا خوفًا منه، فأحضرهم وأنعم عليهم، وأبطل المكوس من الحرمين، وعوّض أميري مكّة والمدينة عنها إقطاعات بمصر والشام[٤].

وفي سنة ٧٢٤/١٣٢٤ أوقف الناصر محمّد بن قلاوون سهمًا شاعها على المنقطعين بمكّة والمدينة، وتجهيزهم إلى أوطانهم[٥]. كما قام السلطان محمّد بن قلاوون في سنة ٧٢٨/١٣٢٨ بعدة إصلاحات منها إجراء عين بمكّة كانت تعرف بعين جبل ثقبة، فأنفق عليها خمسة آلاف درهم حتّى وصلت إلى مكّة[٦]. ومن حسناته سنة ٧٣١/١٣٣١ أنّه أمر أن يعمل للكعبة باب جديد من خشب السنط الأحمر وصفحه بالذهب، ولما خلع الباب العتيق المكسو بالفضة تصدّق السلطان بتلك الفضة على بني شيبة خدام الكعبة فتقاسموها[٧]. وقد أغدق السلطان النعم على الأمراء وأحسن إلى أهل مكّة. أما إصلاحاته في المدينة فشملت تجديد مسجد قباء سنة ٧٣٣/١٣٣٣[٨].

وتواصلت أعمال البرّ والإحسان الّتي تنافس سلاطين المماليك على القيام بها، من أجل راحة الحجّاج وتشجيع القيّمين على الحرمين، وتحسين الطرق، وتأمين الماء؛ فالظاهر برقوق أوقف

---

(١) الفاسي، **العقد الثمين**، ج١، ص ٤٥٩.

(٢) الفاسي، م. ن.، ج١، ص٩٣.

(٣) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص٢٣؛ وليم موير William Muir، **تاريخ دولة المماليك في مصر**، ص٨٣.

(٤) المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم١، ص١٩٥- ١٩٦؛ J. Jomier, *Le Maḥmal*, p.211.

(٥) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج٢، ص ٣٥٧.

(٦) الفاسي، **شفاء الغرام**، ج١، ص ٣٤٨.

(٧) الفاسي، م. ن.، ج١، ص ١٦٨.

(٨) راشد بن سعد القحطاني، **أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين الشريفين**، ص ٤٣.

سنة ١٣٩٧/٨٠١ ناحية الجيزة تجريدة تسير مع الركب إلى مكّة في كل سنة ومعها جمال تحمل المشاة من الحجّاج، ويصرف لهم ما يحتاجون إليه من الماء والزاد ذهابًا وإيابًا، ويبعث في كل سنة، إلى الحجاز ثلاثة آلاف أردب قمحًا تفرق بالحرمين. وعمّر أيضًا بركة برأس وادي بني سالم، في طريق المدينة، يرِدُها الحجّاج[1].

أما السلطان قايتباي، فقد سافر برسم الحجّ إلى الحجاز سنة ١٤٨٠/٨٨٥، وبدأ بزيارة قبر الرسول، ثم فرّق فيها ستة آلاف دينار، وغادر المدينة إلى مكّة ووزع فيها خمسة آلاف دينار[2].

والرّاجح أنّ أعمال الخير وتقديم المساعدات، تجاوزت نطاق تصرّفات السلاطين، وشملت سواهم من الأمراء والقيّمين على شؤون السكّان في الحجاز، ما يظهر اندفاعًا قويًّا للقيام بذلك. فكانوا يسارعون إلى تقديم المؤونات والمعونات، ولا سيّما خلال موسم الحجّ، أو عند حصول كوارث طبيعيّة، خوفًا من حصول نقص في الغلال، أو نشوب فتنة بين أشراف الحرمين وأمراء الحجّ.

ولم ينحصر فعل الخير في أثناء تأدية فريضة الحجّ على سلاطين المماليك، إنما شمل الأمراء، ومنهم الأمير سلاّر الّذي أدّى خدماتٍ جليلةً في الحجاز سنة ١٣٠٤/٧٠٤، فكتب أسماء المجاورين بمكّة، وأوفى عنهم الديون، وأعطى لكل منهم بعد وفاء دينه مؤونة سنة، ووصلت مراكبه إلى جدّة سالمةً، ففرّقها على سائر أهل مكّة، بقدر كفاية كل منهم سنة، فلم تبق امرأة ولا رجل، ولا صغير ولا كبير، ولا غنيٌّ ولا فقير، إلا وعمّه ذلك الخير. وعمّ أهل المدينة بالعطايا، كما فعل لأهل مكّة[3].

ومن الّذين قاموا بأعمال تستحقُ التقدير والثناء، سنة ١٣٨٥/٧٨٧، الأمير جركس الخليلي الّذي قدّم معروفًا عظيمًا في مكّة والمدينة، فجهّز إليهما قمحًا ليُخبَزَ منه في كل يوم خمسمائة رغيف إلى مكّة، ولأهل المدينة مثلها خمسمائة رغيف كلَّ يوم، تفرّق للمتسوّلين والفقراء، وأمر بألاّ يقرَّر منها لأحد راتبٌ، بل يأخذ من حضر ولا يراعى أحدٌ في التفرقة. فعمَّ النفع بها، ولم يبق بالحرمين من يسأل من جوع[4].

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج٣، قسم٢، ص٩٤٤- ٩٤٦؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٢، ص ١٠٨- ١٠٩؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، قسم٢، ص٥٣١.

(٢) القرماني، **أخبار الدول**، ج٢، ص٢٢٢.

(٣) المقريزي، م. س.، ج٢، قسم١، ص٥؛ ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٦، ص ٨- ٩.

(٤) المقريزي، م. س.، ج٣، قسم٢، ص٥٣٦؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج١، ص١٢٢؛ ابن إياس، م. س.، ج١، قسم٢، ص٣٦٦.

ودعمًا للقضاء على الفساد ورفع الظلم، أرسى السلطان برقوق اهتمامه إلى النظر بأوقاف الحرمين سنة ١٣٩٢/٧٩٤، فأمر الأمير زين الدين الدوادار، والقاضي بدر الدين كاتب السـرّ، أن ينظرا في أمر المباشرين بأوقاف الحرمين، وطلب القاضي من شمس الدين بن شـطية مسـتوفي المرتجع، أخذ الحسابات الديوانيَّة منهم، ومحاسبتهم، فألزمهم ابن شطية بأن يُحَضِّروا حساب عشر سنوات من أوقاف الحرمين، وفرض عليهم عمل حساب المودع[١]، والترك[٢] المهملـة[٣]، ووكّـل على كل مباشر من يحفظه، وكذلك الجباة، وأمين الحكم، والمباشرين بالمودع[٤].

ويبدو أنّ السلطان برقوق أراد تثبيت حكمه، ونشر نفـوذه سياسـيًا ودينيًـا؛ فقـام بهـذه الإجراءات للحدّ من الرشوة، وتأمين سلامة السكّان والحفاظ عليهم، وزرع الطمأنينة في نفوسهم.

وهكذا، تعاظمت المساعدات، وكثرت الهبات، حيث بادر السلطان برقوق إلى تقديم المـنح والأعطيات لأمراء مكّة، ومن هذه الإعانات، مساعدة عطيّة لشـريف مكّـة علـي بـن عجـلان سنة١٣٩٢/٧٩٤، وهي من الخيول أربعون فرسًا خاصَّةً، وعشرة مماليك من الأتراك، وثلاثة آلاف إردب قمحًا، وألف إردب شعيرًا، ومن الفول كذلك، وفرسان وجمل بقماش مـذهّب، ورسـم لـه باستخدام مائة فارس من الأتراك، يتوجه بهم صحبته إلى مكّة[٥].

ولعلَّ المعونة الّتي أعطيت لأمير مكّة، تنمُّ عن أشياء، منها: إعلان الولاء للسلطان، وتثبيت الأمن ونشر السلام في مكّة.

وواظب المماليك على تقديم الصدقات لأهل مكّـة، فوصـلت إلـى بنـدر جـدَّة سـنة ١٥١٧/٩٢٣، مراكب من السويس فيها سبعة آلاف إردب قمحًا، فكتب إلى جميع أهـل مكّـة، إلا السوقة والتجّار، ووزَّع عليهم ذلك الحبّ. وكان المتولّي ذلك الأمير مصلح، وقد تزايد هذا الحـبُّ، حتّى أصبح معاش أهل مكّة منه، ولما فرغ مصلح توجه إلى المدينة لدفع الصدقات[٦].

ومن الأعمال الّتي اعتنى بها سلاطين المماليك، المنشآت الطبيّة؛ فقام السـلطان الأشـرف شعبان بتجديد بيمارستان[٧] المستنصر بالله العباسي ١٢٢٦/٦٢٣- ١٢٤٢/٦٤٠ في مكّة، وهو من أوّل المستشفيات الّتي أنشئت فيها، وأنفق عليه وعلى الضعفاء، والمساكين داخله وخارجـه، وبلـغ

---

(١) حساب المودع: إنما سمي الحساب في المعاملات حسابًا، لأنه يعلم به ما فيه كفاية، ليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٣، ص ١٦٤، "حسب".

(٢) الترك: تركت الشيء تركًا، خلّيته. ابن منظور، م. ن.، ج٢، ص٣١، "ترق".

(٣) المهملة: الهمل، السدى المتروك ليلاً أو نهارًا. ابن منظور، م. ن.، ج١٥، ص ١٣٥، "همل".

(٤) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، مج٩، ج٢، ص ٣٠١.

(٥) ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج١، ص٣٤٧.

(٦) دحلان، **خلاصة الكلام**، ص٥١ .

(٧) بيمارستان: بيت المرضى وهو معرب. ابن منظور، م. س.، ج١٣، ص٧٩، "مرس".

قيمة ما صرف خمسة عشر ألفًا ومائتا درهم، وصرف لهم العلاج مجّانًا. وفي مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، خرب البيمارستان، فاستأجره أمير مكّة حسن بن عجلان سنة ٨١٦/١٤١٣، لمدّة مائة سنة من قاضي القضاة جمال الدّين بن ظهيرة، لعمارة ما تخرّب من البيمارستان.

ولم تنحصر جهود المماليك بمكّة، بل إنّ المدينة حظيت بالعناية الطبيّة أيضًا، حيث أعاد الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣/١٢٦٥ تجديد بيمارستان، كان قد أنشأه المستنصر بالله الخليفة العباسي، وبعث إلى المستشفى طبيبًا يدعى محيي الدّين أحمد بن أبي الحسين بن تمام، ونقل إليه سائر الأدوات والموادّ الطبيّة، من مراهم، وأشربة، وأكحال لمعالجة المرضى[١].

هكذا، قام سلاطين المماليك وأمراؤهم بأعمال البرّ والإحسان، والرعاية الصحيّة، لتسهيل أمور الحجّاج في بلاد الحجاز، وتدعيم قواعد حكمهم، لتلافي استقلال أمراء الحجاز، وتفرّدهم بالقرار السياسي، ما يضعف نفوذهم بأرض المناسك، ويفقدهم السيطرة على زمام الأمور.

ثانيًا- العلاقات الثقافيّة في الحجاز في العصر المملوكي

أثمرَتْ رحلة الحجيج فوائد دينيّةً ودنيويّةً، لعلّها كانت جزءًا من الحكمة من وراء تشريع الحجّ الّذي كان بأيّامه المعدودة، وأمكنته المحدودة، بمثابة منتدى عام يضمُّ المسلمين من شتّى بلادهم على اختلافهم، ليتدارسوا أحوالهم على مودّة ووفاق. وقد كانت دراستهم لأحوالهم مثمرةً وبناءةً، إذ كان يظلّهم موسم عظيم، تذوب فيه الفوارق على اختلافها. ومع هذا اللقاء الروحاني، لم يكن روّاد الحجّ ينسون المعارف والعلوم الّتي يسعون إلى كسبها، بل إنّ منهم من كان يريد الحجّ وينشط إليه، رغبةً في طلب العلم على يد عالم مشهور ذاع صيته في كل مكان[٢].

ولقد اهتمّ سلاطين المماليك بالحجاز علميًا، وقاموا برعاية المقامات الدينيّة، وحفظها وإعادة بناء ما يصيبه الوهن منها، وتنشيط الحياة العلميّة في الحرمين. ومن ثمّ عمد السلاطين إلى إنشاء معاهد الحركة العلميّة، والمراكز الدينيّة، ورصد الأوقاف، وتخصيص الرواتب على شؤونها. ولعلّ من أبرز تلك المؤسسات: المعاهد، والكتاتيب، والمدارس، والمكتبات، وذلك بالإضافة إلى مواقع التعليم المساعدة الأخرى: وهي التكايا، والأربطة، والزوايا، والبيمارستانات[٣].

---

(١) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج٢، ص٤٠٥؛ راشد القحطاني، **أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين**، ص١١٢؛ عايض الروقي، "المنشآت الطبيّة في الحرمين الشريفين خلال العهد العثماني"، **المجلة العربيّة للعلوم الإنسانية**، العدد الثامن والثمانون، ص ١٣- ١٥.

(٢) B. Lewis, "Ḥādjdj", *EI*$_2$, vol.III, p.39.

(٣) محمد بيومي، **دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز**، ص ٤- ٥.

وقد تعوّد المسلمون، منذ عهد النبوّة، أن يكون الحرم المكّي في موسم الحجّ موطنًا للقاء بين العَالِم والمُتَعلِّم، ومكانًا لتلقّي المعرفة والتفقّه في أمور الدين. وكان الرسول خلال حجّة الوداع قائمًا على التعليم والتثقيف، يُسأل فيجيب، ويتجمّع حوله النّاس، فيبلّغهم المعرفة. وكانت أولى المدارس العلميّة الّتي تأسست في مكّة، مدرسة أنشأها رجلٌ أدرك قيمته الرسول، فسمّاه خير هذه الأمة؛ إنه عبد الله بن عباس الّذي اضطلع بتفقيه المسلمين في مختلف عرصات[1] الحرم. ثمّ تتالت بعده الطبقات من أعلام المكّيين، فكانت طبقة مجاهد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وسعيد بن جبير، وفي زمن بني العباس: مسلم بن خالد الزنجي، والفضيل بن عياض، والأزرقي. فلم تعدم مكّة في عصرٍ من العصور الإسلاميّة العلماء والفقهاء النابهين والنابغين، سواء من أبنائها، أو من الوافدين إليها من أبناء العالم الإسلامي[٢].

أ- المــدارس

أمّا عن المدارس في مكّة، فإنّ ظهورها تأخّر، كما هو الحال في كثير من البلاد الإسلاميّة إلى الربع الأخير من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.

أخذت هذه المدارس على عاتقها نشر العلم والمعرفة بين المسلمين. وقد تسابق السّلاطين، والأمراء والأغنياء في تأسيسها حتّى كثر عددها. وكان هؤلاء المؤسسون من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فبعضهم من العراق، وآخرون من اليمن وغيرها من البلاد الإسلامية، بل كان بعضهم من أهل الحجاز أنفسهم. وهذه المدارس كانت قائمة ضمن الحرم، مثل دار زبيدة الّتي كان يدرّس فيها محمّد بن أحمد القسطلاني[٣].

واستمرّت المدارس في مكّة تؤدي دورها المنوط بها في إحياء العلوم ونشرها في عصر المماليك، فانكبّ السلاطين على تأسيس المدارس فيها، خوفًا من سيطرة العلماء الروحيّة على مقاليد الأمور، ما يجعل المماليك يتودّدون إلى العلماء، ويظهرون أمامهم بمظهر المدافعين عن الإسلام، والمشجّعين على العلم، بهدف إرضائهم، ولا سيّما أنّ إقليم الحجاز كان تابعًا لسلطنة المماليك في مصر. وكان من الطبيعي الاهتمام بالحرمين علميًا، ورعاية الأماكن الدينيّة وحمايتها، وإعادة بناء ما أصابه الوهن والخراب، وتنشيط الحياة الثقافيّة في مكّة والمدينة. وقد أُحدثت في مكّة مدارس عدة زمن المماليك، منها: المدرسة الغياثية، والكلبرجية، والكنبايتية، وهي المدارس الّتي شُيِّدت من

---

(١) عرصات: مفردها عرصة وهي ساحة الدار، والعرصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٩، ص١٣٥- ١٣٦، "عرص".

(٢) فؤاد عنقاوي، "الحركة الفكرية والعلمية في مكّة المكرمة"، **مجلة الحج والعمرة**، العدد العاشر، ص١٢- ١٣.

(٣) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج٢، ص٣٦٣؛ طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص٦٧؛ فؤاد عنقاوي، م. س.، ص١٣.

قبل ملوك الهند. ومنها المدارس الّتي بناها المماليك، كالمدرسة الباسطية، والعطيفية، ومدرسة الأشرف قايتباي. ومن هذه المدارس أيضًا:

مدرسة السلطان الناصر قلاوون، المعروفة باسم المدرسة المجاهدية، وقد أنشأها في مكّة سنة٧٤٠/١٣٤٠، إلى جانب كونها معهدًا من معاهد العلم الشرعي بمكّة، وكان فيها سكن يأوي إليه بعض العلماء والوافدين. وتولّى التدريس فيها بعض من مشاهير الأسر المكيّة الّتي عرفت بمركزها العلمي، أمثال عائلة النويّري، والفاسي، وآل ظهيرة[١].

ومن أبرز مدرّسي هذه المدرسة:

أحمد بن محمَّد بن إبراهيم قاضي مكّة، حيث درس بالمجاهدية بتفويض من المجاهد.

القاضي أحمد بن محمَّد العقيلي المشهور بمحبّ الدين النويري قاضي الحرمين وخطيبهما، حيث درّس وأفتى بالحرمين ودرّس بالمجاهدية واستمرّ في التدريس حتى وفاته (٧٩٩/١٣٩٥).

محمَّد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي (٨١٧/١٤١٥)، كان قاضي مكّة وخطيبها، تولّى التدريس في المدرسة المجاهدية سبع عشرة سنة، وكذلك تولّى التدريس في المدرسة الغياثية.

مدرسة الأفضلية، هي مدرسة الملك الأفضل عباس بن المجاهد صاحب اليمن، ابتدأ التدريس بها سنة ٧٧٠/١٣٦٩ على المذهب الشافعي، وتقع المدرسة في الجانب الشرقي من المسجد الحرام، وعيّن فيها مؤسسها مدرّسًا ومعيدًا وعشرةً من الطلبة وإمامًا ومؤذّنًا ومعلّمًا وأيتامًا يتعلّمون القرآن، وأوقف عليها الأوقاف الكافية. وممن تولّى التدريس فيها، محمَّد بن أحمد القرشي العقيلي (٨٢٠/١٤١٧)[٢].

مدرسة دار العجلة الّتي أنشأها الأمير أرغون النائب سنة ٧٧٤/١٣٧٢، وكان له اهتمام بالحرمين. تقع هذه المدرسة على يمين الخارج من باب المسجد المعروف بباب العجلة، بالجانب الشامي من المسجد الحرام. وأوّل من درّس في هذه المدرسة، يوسف بن علي بن يوسف، فقد درس بها عدة سنين[٣].

مدرسة الوزير الزيني عبد الباسط، ناظر الجيوش في أيام ططر، اشتهر بالأعمال الخيريّة الكثيرة، واهتمّ ببناء المدارس في كلّ من مكّة، والمدينة، والقدس، والقاهرة، وعرفت جميعها باسم المدارس الباسطية. أنجز تشييد مدرسة مكّة سنة ٨٣٦/١٤٣٢، وهي تقع على باب العجلة،

---

(١) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ج٢، ص٦٤؛ فواز الدهاس، **المدارس في مكّة**، ص١٠؛ صالح معتوق، **علم الحديث في مكّة المكرمة**، ص٤٣٤.

(٢) طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكة**، ص٧٤.

(٣) محمد بيومي، **دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز**، ص٥؛ فواز الدهاس، م. س.، ص١٧؛ طرفة العبيكان، م. س.، ص٧٢ – ٧٤.

باب العجلة، وعلى يسار الداخل إلى المسجد الحرام، كما كان يسكنها الأعيان الّذين يفدون إلى الحج، وعليها أوقاف في مصر. وممّن ولي مشيخة هذه المدرسة، شيخ الحجبة عمر بن محمّد الشيبي (١٤٥٧/٨٦١)، وممّن درّس فيها، القاضي جلال الدين أبو السعادات بن ظهيرة، وذلك سنة ١٤٣٢/٨٣٥ قبل أن يكتمل بناؤها[١].

مدرسة الجمالية اليوسفية، أنشأها بمكّة يوسف بن عبد الكريم السعدي سنة ١٤٥٣/٨٥٧، وقد ولي مشيختها في تلك السنة شرف الدين أبو الفتح المراغي، وولي نظرها وأوقافها أيضًا برهان الدين بن ظهيرة (١٤٨٦/٨٩١)، ثمّ باشر مشيختها من بعده ولده أبو السعود (١٥٠١/٩٠٧) مع مشيخة غيرها من المدارس. وممن باشرها عبد الله بن عبد الواحد اليصري[٢].

مدرسة السلطان قايتباي، أنشأها سنة ١٤٨٠/٨٨٥، وهي مشرفة على المسجد الحرام مقابل مقام إبراهيم، وبنى قايتباي المدرسة بالرخام الملوّن، وقرّر فيها أربعة مدرّسين على المذاهب الأربعة، وأربعين طالبًا، وجعل فيها خزانة كتب وقفها على طلبة العلم، وعيّن لها خازنًا وحدّد له راتبًا، وقرّر فيها فقيهًا يعلّم أربعين صبيًّا يتيمًا، وهي من أشهر مدارس مكّة، إذ أعدَّ فيها سبعين خلوةً للأيتام، وزوّدها بما يكفيها من قمح وغيره. ثمّ أصبحت المدرسة سكنًا لأمراء الحجّ أيام موسم الحجّ، ومحلّ إقامة لغيرهم من الأمراء الّذين يزورون مكّة خلال السنة[٣].

والرّاجح أنّ هذه المدرسة الجامعة صارت مأوى لأصحاب الجاه والسلطان، بعد أن كانت نبراساً للعلم، يستضيء بنوره كثير من الطلاب في مكّة، ولو سارت هذه المدرسة سيرتها الّتي بنيت لأجلها، لكان لها شأن عظيم في إحياء الجهود العلميّة بمكّة.

مدرسة السلطان قانصوه الغوري الّتي أنشأها سنة٩٢٢/١٥١٦.

المدارس الموقوفة بمكّة، منها: مدرسة المجاهد ملك اليمن بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام، وقد وقفت سنة ١٣٣٩/٧٣٩. المدرسة المجاهدية، وقفها السلطان الناصر سنة ١٣٤٠/٧٤٠، في ثلاثة مواضع من وادي زبيد. مدرسة عباس بن المجاهد ملك اليمن، وقفت سنة ١٣٦٩/٧٧٠، وهي تقع في الجانب الشرقي للمسجد الحرام. مدرسة السلطان المنصور غيّاث الدين أبي المظفّر، ملك بنجالة، المعروفة بالمدرسة البنكالية. كان وقفها سنة ١٤١١/٨١٤، وتولّى

---

(١) النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٤٥٢– ٤٥٣؛ محمد بيومي، **دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز**، ص٦– ٧؛ فواز الدهاس، **المدارس في مكّة**، ص١٦– ١٧ ، ٢٤؛ صالح معتوق، **علم الحديث في مكّة المكرمة**، ص٤٤٠، ٤٤٢.

(٢) صالح معتوق، م. ن.، ص٤٤٣.

(٣) ابن أجا، **العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك**، ص٢٠٦؛ ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج١، ص٣٢؛ النابلسي، م. س.، ص٤٥٣؛ صالح معتوق، م. س.، ص٤٤٧– ٤٤٨.

التدريس فيها قضاة مكّة الأربعة، وستّون فقيهًا. وجعلت المنازل الّتي تعلوها، وهي إحدى عشرة خلوةً، محلاً لسكن جماعة من الفقراء[١].

أما المدارس التي شيَّدها المماليك في المدينة، فأهمها:

مدرسة قايتباي، بناها سنة ١٤٨٠/٨٨٥، وقرَّر فيها أربعين طالبًا، فاستبدل الوكيل بعض الأربطة بين باب السلام وباب الرسول، واشترى دارًا من إحدى الشريفات، واتّخذ لها مستندًا إلى المسجد سمّي باب قايتباي، وأضاف فيها مئذنةً (منارة)، وأوقف عليها عدة قرى في مصر. وفي المدينة، جعل المدرسة بجوار الروضة المطهَّرة، على الهيئة والنظام نفسيهما، وأوقف عليهما دورًا وقرًى وضياعًا في مصر، كانت ترسل عوائدها في كل سنة نحو ألفي دينار ذهبًا، ظلّت تحمل إلى الحجاز حتّى القرن الثّاني عشرالهجري/الثامن عشر الميلادي[٢].

المدرسة البنكالية الّتي أنشأها مغيث أهل الحرمين، المنصور غيّاث الدين أبو المظفر، ملك بنجالة، ووقفت سنة ٨١٤/١٤١١[٣].

والرّاجح أنّ وجود هذا العدد الكبير من المدارس في الحرمين، يكشف عن مدى النهضة العلميَّة الّتي شهدتها مكّة والمدينة في العصر المملوكي.

ب- الأربطة

اشتقاقها من أصل "ربط"، وقد وردت تفاسير مختلفة لهذه الكلمة، غير أنّ أقرب هذه التفاسير إلى العقل هو ما جاء في القرآن، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[٤]. والرباط هو المكان الّذي يجتمع فيه الفرسان للقيام بحملة من الحملات، ويتّصل الرباط أيضًا اتصالاً وثيقًا بمعنى تجهيز نقلة البريد والقوافل بالخيل. وعند الفقراء، هو الانقطاع للجهاد وحماية الثغور، أمّا عند الصوفيّة، فهو يدلّ على المكان الّذي ينقطع فيه المرء لعبادة الله[٥].

---

(١) الفاسي، **شفاء الغرام**، ج٢، ص١٠٤– ١٠٥؛ **العقد الثمين**، ج١، ص ١١٨.

(٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٩٦؛ ابن طولون، **مفاكهة الخلان**، ج١، ص٣٣؛ النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٤٥٣؛ عبد الباسط بدر، **التاريخ الشامل للمدينة المنوَّرة**، ج٢، ص٣١١.

(٣) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٧، ص٣٣.

(٤) سورة **الأنفال**، ٨/ ٦٠.

(٥) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج٢، ص٤٢٧؛ R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.II, p.501.
N. Rabbat, "Ribāṭ", *EI2*, vol.VIII, p.511,513.

إنّ انشاء الرّباط في الحجاز، كان يختلف عن غيره في الأقاليم الأخرى، من حيث الـدّافع الّذي كان يبنى لأجله، إذ اعتمد للمجاورة، وتحصيل العلوم الإسلاميّة والعربيّة وغيرها.

ومن هنا، كان الهدف الأساس لإنشاء الأربطة المملوكيّة في الحجاز، تسهيل المجاورة فـي الحرمين، خصوصًا لغير القادرين من الفقراء الأيتام، وللصّوفيّة الّذين كانوا يحصلون علـى أجـر مقابل مجاورتهم وسكنهم، وتلقّيهم العلم فيها، فقد كان لكل صُوفي في الرباط راتب معيّن يحصـل عليه مقابل عمل يؤديه. وأغلبية أربطة الحجاز ملحقة بالمدارس، ويبيـت فيهـا الصـوفيون مـع الطلاب. أما الأربطة الأخرى، فكانت تخص الصوفيّة دون غيرهم، وكانت تعقـد بهـا الحلقـات العلمية[١].

١- أربطـة مكـة

الأربطة الّتي أنشئت في مكّة، كان لها علاقة بالحجّاج الوافدين لأداء مناسك الحجّ، بطلاّب العلم المجاورين في مكّة، وأدّى انشاؤها إلى توفير سبل الراحة لطلاّب العلم وللحجّاج الّذين يقيمون فيها خلال موسم الحجّ، إذ كانت تؤمّن لهم المسكن والمأكل، وقد أثّر هذا بدوره في المجاورين إلى الإقبال على طلب العلم والتفقّه في الدين، حيث كانت توفر لهم ما يرفع عنهم غائلة الفقر والعـوز. وعلاوةً على ذلك، فإنّ بعض الأربطة تلقّت أعدادًا غير قليلة من الكتب على سبيل الوقف، ما أتاح لنزلائها فرصة المطالعة والدراسة ضمن جدران تلك الأربطة[٢].

ومن الأربطة الّتي اشتهرت زمن المماليك في مكّة ما يلي:

ففي زقاق الحجر يوجد رباطان:

الأوّل: رباط المقرّ إبراهيم بن محمّد الأصبهاني، وقفه على الفقراء، والمساكين المجاورين بمكّة من أهل الدين والخير، من أيّ طبقة كانوا، سواء من العـرب أو العجـم، وتـمّ ذلـك سـنة ١٣٤٩/٧٤٩. الثّاني: رباط السيدة أم الحسين بنت قاضي مكّة شهاب الدين الطبري، وقفتـه علـى الفقراء والمساكين في شعبان سنة ١٣٨٢/٧٨٤.

الرباط الّذي شيّده السلطان شاه شجاع صاحب بلاد الفرس سنة ١٣٧٠/٧٧١، مقابل بـاب الصفا، والمعروف باسم رباط غياث الدين الطبيب، لتولّيه أمره وعمارته، وهو وقف على الأعاجم، من الفرس المجرّدين المتّقين دون الهنود. ومنها رباط الجمال محمّد بن فرج المعروف بابن بعلجد، وهو وقف على الفقراء المنقطعين، وقد شيّد سنة ١٣٨٥/٧٨٧.

---

(١) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ٣٥١؛ محمد بيومي، **دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز** ص ٢٣٠- ٢٣١.

(٢) طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص ٦٥- ٦٦.

وشارك الأمراء في بناء الأربطة، فأنشأ الشريف بدر الدين حسن عجلان نائب السلطنة بمكّة رباطًا على مقربة من المدرسة المجاهدية سنة ١٤٠٠/٨٠٣، وله عليه أوقاف بمكّة ومنى ووادي مرّ. ويعدُّ العمل الّذي أنجزه أمير مكّة جليلاً، بالمقارنة مع من سبقه من أمراء مكّة.

وشيَّد أيضًا رباط الشيخ علي البعداني لتوليه لأمره وعمارته، ووقف سنة ١٤٠٣/٨٠٦ على الفقراء المجرَّدين عن النساء، المستحقّين للسكن.

وعمل الوزير تقي الدين عبد الوهاب بن عبد الله المصري على إنشاء رباط قرب باب أجياد سنة ١٤١٣/٨١٥، ولكنّه توفّيَ قبل إنجاز عمارته، فقام حسن بن عجلان بإكماله ووقفَ على الفقراء.

وأمر شريف مكّة حسن بن عجلان سنة ١٤١٩/٨٢٢ ببناء رباط قرب رباط ربيع، وأدخل فيه البئر المعروفة ببئر عفراء.

وساهمت النساء أيضًا في بناء الأربطة، حيث أمرت خوند بنت بن خصبك زوجة السلطان الأشرف إينال ببناء رباط سنة ١٤٦١/٨٦٥، ولم يكمَّل، لأنّ ولدها المؤيّد بن الأشرف إينال خلع عن السلطنة بالقاهرة فبطلت العمارة[١].

ومن الأربطة الّتي تأسَّست في مكة عند باب السلام، رباط السلطان قايتباي سنة ١٤٧٩/٨٨٤، وكان للفقراء والطلاب، وكان يوزَّع فيه الخبز[٢].

٢- أربطة المدينة

نالت المدينة نصيبها من الأربطة، بسبب سكن المجاورين في رحاب الحجرة النبويَّة، وقد تأسّس معظمها قبالة الحجرة، منها: رباط السلطان قايتباي بجوار مدرسته مقابل الحجرة النبويَّة[٣].

ج- التكايا

التكايا مفردها تكية، وهي مأوى يحفظ الفقراء والمسافرين كانت تكايا الحجاز تقوم بدور اجتماعي وعلمي وكانت ترسل إليها الهبات والصدقات من صرّة أوقاف أصحابها في مصر. وكان الواقف يلتزم في بعض الظروف بإنشاء تكيتين في إقليم الحجاز؛ واحدة في مكّة، والأخرى في المدينة، وكان يلحق بكل تكية مجموعة من الصوفية تقرأ القرآن. ويشترط في كل تكيـة، وحسب شروط الواقفين، توفير من يقوم من المدرّسين بتعليم هؤلاء الطلاّب من المتصوّفة وغيرهم. وكان عدد الصوفيَّة يختلف من تكية إلى أخرى، حيث كانت التكية الواحدة تضمّ ما بين عشرة إلى خمسين

---

(١) الفاسي، **شفاء الغرام**، ج٢، ص ١١٠- ١١٣.

(٢) الفاسي، م. ن.، ج٢، ص ١١١- ١١٣؛ **العقد الثمين**، ج١، ص ١١٩- ١٢٠؛ محمد بيومي، **دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز**، ص٢٣٣.

(٣) محمد بيومي، م. ن.، ص ٢٣٥- ٢٣٦.

صوفيًا. ومن أشهر التكايا في الحجاز: تكية السلطان المملوكي جقمق، وتكيــة المدينــة، أو تكيــة الخاصكية القديمة[١].

د- الزوايـا

الزاوية هي في الأصل ركن البناء، ثمّ أطلقت على المسجد الصغير. وهي علــى الجملــة مدرسة دينيَّة، ودار مجانية للضيافة، يقصدها المؤمنون الذين يبحثون عن الكمال الروحي. وهي من المؤسَّسات الّتي أسهمت في الحياة العلميَّة، وقام العلماء المصريون بالتدريس فيها. ومنها: زاويــة السيد أحمد البدوي[٢] في مكّة، وأديرت بها الدروس العلميَّة الحافلة، وزاوية المتقي، الّذي رحل من الهند إلى الحجاز في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي وأنشأها، وقد قام بالتدريس فيها العديد من المصريين، منهم االشيخ السخاوي وغيره من العلماءالمصريين[٣].

هـ- حلقــات العلمــاء فــي الحرميــن

"الحلقة"، وجمعها "حلقات"، هي جماعة من النّاس تحيط بالأمير أو الشيخ. وقد أدّت حلقات العلم في الحرمين دورًا بارزًا في إنعاش الحركة الفكريَّة والعلميَّة والثقافيَّة. وكان من الطبيعــي أن يقوم المسجد الحرام والمسجد النبوي، بدور كبير في نهضة العلم والتعليم، ليس في عهد الرســول وحسب، بل في عهد خلفائه الراشدين أيضًا، ومن جاء بعدهم حتى العصور المتأخرة. وساعد على ذلك أنّ المسلمين كانوا يواصلون الحجّ إلى مكّة، والزيارة للرسول، حتّى صارت هذه المنطقة ملتقى للمسلمين من مختلف الأقطار، وينتج من هذا الالتقاء تقارب وتفاهم وتبادل فكــر واســتزادة علــم وامتداد لروافد المعرفة بين المناطق الإسلاميَّة كافةً[٤].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الدور المملوكي كان بارزًا في إثراء الحياة العلميَّة في الحــرمين؛ فأنفقت رواتب كثيرة في سبيل العلم والتعليم، كذلك حصل العلماء المقيمــون فــي الحجــاز علــى معاشات لا بأس بها، مكّنتهم من القيام بشؤون العلم. وقد تعدّدت أماكن الحلقات العلميَّة للعلماء فــي

---

(١) محمد بيومي، **دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز**، ص٢٣٨- ٢٣٩؛ R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.I, p.150.

(٢) البدوي، أحمد بن علي بن إبراهيم الحسيني، أبو العباس البدوي المتصوف، صاحب الشهرة في الديار المصرية، أصله من المغرب، ولد بفاس، وطاف البلاد وأقام بمكّة والمدينة. ودخل مصر في أيام الملك الظاهر بيبــرس، فخــرج لاســتقباله هــو وعسكره، وأنزله في دار ضيافته. ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج٥، ص٣٤٥.

(٣) محمد بيومي، م. س.، ص ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٧؛ R. Dozy, *Op.Cit*, vol.II, p.615.

S. Blair , " Zāwiya", *EI2*, vol.XII ,p. 505 -506 .

(٤) محمد بيومي، م. س.، ص٢٤٩- ٢٥٠؛ فؤاد عنقاوي،" الحركة الفكرية والعلمية في مكّة المكرمة"، **مجلة الحجّ والعمرة**، العدد العاشر، ص١٢؛ R. Dozy, *Op.Cit*, vol. I, p. 317.

الحرمين، ففي بيت الله الحرام كانت تعقد الحلقات العلميَّة داخل الكعبة، ومقـام إبـراهيم، وحجـر إسماعيل، وعند الأبواب الرئيسيَّة للبيت الحرام قبل باب السلام وبـاب إبـراهيم، وعنـد المنبـر، والأروقة، وصحن المسجد الحرام، وفي المسجد النبوي كانت تعقد عنـد أبـواب المسـجد، وفـي الروضة المطهَّرة، وخلف الأعمدة، وداخل الأروقة، وفي الحجرة النبويَّة، وعند المنبر[1].

أما أشهر حلقات العلم في الحجاز، فهي على النحو الآتي:

١- حلقـات العلـم فـي مكّـة

من أشهر حلقات العلم، حلقة الشيخ زكريا الأنصاري (٩٢٦/١٥٢٠)، الّتي كانـت داخـل الحرم المكّي، درَّس فيها الفقه، والحديث، والنحو، والفرائض، والجبر، وغيرها من العلـوم. ولـم يقتصر نشاط مكّة العلمي على حلقات الدرس الّتي كانت تعقد فيها، فقد رحل فقهاؤها إلى مختلـف البلاد، فنشروا علومهم هناك، وكانت مكّة في موسم الحجّ تزدحم بالمستفعين والمناقشين، وكانـت بعض المجالس تعقد في بيوت فقهائها علاوةً على حلقاتهم في المسجد[2].

واستمرَّ الحال على تلك الصورة في عهد المماليك، إذ ظلّت البيوت المتخصّصة بالعلم في مكّة تنشر الثقافة بين طلابها في الحلقات العامَّة في المسجد الحرام أو بيوتها الخاصة. وعلاوةً على ذلك، فقد كانت مجالس بعض الأمراء في عصر المماليك ندوةً لكبار العلماء، حيث حرص أولئـك الأمراء على المشاركة في النشاط العلمي، فجعلوا من مجالسهم مكانًا لالتقاء العلماء، حيث تسـود روح البحث العلمي. ومن أشهر تلك المجالس؛ مجالس حسن بن عجلان، وابنه بركـات، وحفيـده محمَّد، وكلُّهم من أمراء مكّة، وكانوا يمتازون بالإقبال على أهل العلم[3].

٢- حلقـات العلـم فـي المدينـة

كانت حلقة الشيخ نور الدين السمهودي (٩١١/١٥٠٥) بجوار الحجرة النبويَّـة المطهَّـرة، درَّس بها كتابيه تاريخ **الوفاء الوفا**، **والفتاوى**، **والشفا** للقاضي عيَّـاض. وحلقـة الشـيخ أحمـد القسطلاني(٩٢٣/١٥١٧)، حيث كان يقرأ القرآن ويعلّمه أهل الحجاز بالقراءات العشر في المحراب النبويّ[4].

و- مناهـج التعليـم

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه العلوم لم تنشأ دفعةً واحدةً، وإنما شهدت تطوّرًا مستمرًّا خـلال العصر المملوكي، وكان بعض الطلاّب يهتمون أحياناً بعدّة علوم ويبرعون فيها، وأهمها:

---

(١) محمد بيومي، **دور مصر في الحياة العلمية في الحجاز**، ص٢٥٠، ٢٥٤.

(٢) طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص ٥٥- ٥٧.

(٣) طرفة العبيكان، م. ن.، ص ٥٧.

(٤) محمد بيومي، م. س.، ص ٢٥٥، ٢٦١.

١- مناهـج العلـوم الدينيّـة

ينضوي تحت هذا العنوان مجموعة من العلوم ذات علاقة بالقرآن والحديث، منهـا علـم التفسير، حيث درّس عدد من الطلاّب التفسير في مكّة منهم:

أحمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي، وقد تلقّى دروسًا في التفسير والأصول والعربيّة.

وهناك محبّ الدين الطبري (٦٩٤ /١٢٩٥) الّذي كان رمزًا للحركة العلميّـة فـي بـلاد الحجاز، وقد خدم الطبري التفسير خدمات جليلة وأهمها كتابه **الجامع لتفسير القرآن**.

ومن العلوم الدينيّة أيضًا علم القراءات، حيث لقي هذا العلم اهتمامًا كبيرًا مـن المسـلمين، وبرز فيه عدد من العلماء الذين وضعوا مبادئه، ورسّخوا قواعده. ومن الّذين اهتمّوا بعلم القراءات:

محمّد بن عبد الله الدلاصي المكّي (١٣٢٣/٧٢٣).

عمر بن محمّد بن فتوح الدمنهوري (١٣٥٠/٧٥١) دَرّس علم القراءات في الحرمين.

أحمد بن محمّد الشهاب المصري المقرىء، ويعرف بالمسدي (١٤٦٠/٨٦٥)، قرأ القراءات على يد الزين بن عياش.

أما الحديث، فيأتي في الأهميّة بعد القرآن، وقد اهتم المسلمون بالحديث اهتمامًـا عظيمًـا، وكان لمكّة حظها من النشاط الحديثي، وعرف من علماء الحديث في العصر المملوكي:

عمر بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلّكان (١٣٠٦/٧٠٦)، وهو عمّ المـؤرخ ابـن خلكـان مصنّف كتاب **وفيات الأعيان**[1].

محبّ الدين الطبري (١٢٩٥/٦٩٤) الملقب بشيخ الحجاز، كان فقيهًا وإمامًا محـدثًا، لـه مصنفات في الحديث والفقه.

عبد الله بن محمّد بن أبي بكر العسقلاني (١٣٧٦/٧٧٧)، كان ممّن اشتغل بالحديث، وسمع في كل من مكّة ودمشق وحلب والقاهرة من كثيرين.

علي بن هاشم بن علي بن غزوان القرشي (١٤٢٣/٨٢٦)، كان ممن اشتغل بالحديث.

وفي ما خصّ الفقه، انتشرت المذاهب الإسلاميّة في أنحاء العالم الإسلامي، ومنها الحجـاز الّتي استقطبت في الحرمين عددًا غير قليل من علماء الفقه في تلك المذاهب. ويتجلّى ذلك في وجود أئمّة أربعة في الحرم، وكذلك قضاة أربعة.

وممن عاش في مكة زمن المماليـك:

محمّد بن محمّد نجم الدين الطبري (١٣٣٠/٧٣٠)، وقد كان مشهورًا بمعرفة الفقه، وكـان يقصد بالفتوى من بلاد الحجاز واليمن.

---

(١) طرفة العبيكان، الحياة العلميّة والاجتماعيّة في مكّة، ص١١٣- ١١٦ .

محمَّد بن أحمد الأنصاري الخزرجي (١٣٧٤/٧٧٦)، وكان من أهل الفقه.

محمَّد بن هارون إمام الفقه وأصوله وإمام علم الكلام في مكّة، وقد تتلمذ عليه أبو عبد الله البلوي صاحب الرحلة المشهورة **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**[(١)].

٢- مناهج العلوم الدنيويَّة

لم تقتصر العلوم في بلاد الحجاز على العلوم الدينيَّة، بل عُرِفت علوم دنيويَّة، منها: علم اللّغة الّذي يستهدف وضع قواعد من شأنها المحافظة على أصول اللّغة العربيَّة سليمةً، ويعدُّ النحو أبرز علومها. وقد اهتمَّ المسلمون بدراسته لاتّصاله الوثيق بعلوم الدين. ومن اللّغويين الّذين كانت لهم علاقة بمكّة:

الحسن بن محمَّد الصاغاني (١٢٥٢/٦٥٠)، هو من أهل بنجاب، وقد جاور بمكّة ورحل إلى بغداد في طلب العلم، وتتلمذ على أئمَّة علماء مكّة في اللّغة، وألَّف كتبًا عديدةً في النحو ومعاجم اللّغة.

أحمد بن محمَّد بن عبد المعطي الملقب بنحوي الحجاز (١٣٨٦/٧٨٨)، جاور بمكّة، وأصله من المغرب، وتولّى التدريس فيها، فاشتغل بتعليم العربيَّة والعروض.

أحمد بن موسى بن عليّ المعروف بابن الوكيل (١٣٨٩/٧٩١)، درس النحو بمكّة على يد أبي العباس بن عبد المعطي، والفرائض على يد القاضي شهاب الدين بن ظهيرة، وكان له حلقة في المسجد الحرام يشتغل فيها، وكان يحضر عند القاضي أبي الفضل النويري في دروسه العامَّة[(٢)].

كما عني المسلمون زمن المماليك أيضًا بالأدب العربي، ولا سيّما الشعر، فكان النّاس ينشدونه في المساجد، ومنها مسجد الرسول والمسجد الحرام. وقد نشط الشعر في الحجاز، وخصوصًا في مكّة الّتي كان فيها عدد كبير من الشعراء، حتّى إنّ أمراءها من الحسنيين أنفسهم كانوا يجيدون نظم الشعر والتغنّي به. وكان من المشتغلين بالأدب، عبد الصمد بن عبد الوهاب بن هبة الله الدمشقي المعروف بابن عساكر نزيل مكّة (١٢٨٧/٦٨٦).

أما قطب الدين القسطلاني المكّي (١٢٨٧/٦٨٦)، فكان يدرّس في دار زبيدة، وهو من المؤلفين الكبار، ويقول الشعر.

ومحمَّد بن يعقوب الفيروز آبادي (١٤١٥/٨١٧)، نزيل مكّة، كان يقول الشعر[(٣)].

---

(١) طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص١١٧- ١١٨.

(٢) طرفة العبيكان، م. ن.، ص١١٩-١٢١.

(٣) طرفة العبيكان، م. ن.، ص١٢١- ١٢٣.

وبما أنّ القرآن تضمّن إشارات تاريخيّة كثيرة، إذ تحدّث عن عدد من الأمم الّتي سادت ثمّ بادت، كما تحدّث عن الرسل والأنبياء وأقوامهم. لذلك احتاج المفسرون إلى معرفة الخلفيّة التاريخيّة لتلك الأمم والأقوام، لكي يأتي التفسير صحيحًا وافيًا بالغرض المنشود. ومن هنا، نشأ اهتمام المسلمين بالتاريخ. ومن أشهر الّذين اهتموا بالكتابة عن تاريخ مكّة زمن المماليك، الفاسي في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فألّف كتابه **شفاء الغرام**، ثم صنّف **العقد الثمين** الّذي يعدُّ من كتب التراجم المهمّة.

إضافةً إلى العلوم الّتي سبق ذكرها، عرف الحجاز علومًا أخرى، كالحساب، والهندسة، والفلك، والطبّ. ومن الّذين عملوا في هذا الحقل:

حسين بن علي بن محمّد بن داود البيضاوي الزمزمي (١٤١٨/٨٢١)، حيث كان من المهتمّين بالفرائض والحساب، وصنّف فيها بعض المؤلّفات، وكانت له خبرة بالهندسة والفلك وعمل التقاويم[١].

تلك تراجم الأشخاص الّذين اهتمّوا بالعلوم الدينيّة والدنيويّة، ولم يكونوا من أهل مكّة فقط؛ بل كان بينهم كثير من الوافدين على مكّة، الأمر الّذي يدلُّ بجلاء على إقبال النّاس من مختلف أقطار العالم الإسلامي على القدوم إلى البلد الحرام، لا لأداء الفريضة فحسب؛ بل لطلب العلم والتعليم أيضًا.

ز- طرائق التعليم

كانت طريقة التعليم ترتكز على أساليب تبدأ بالكتاب، حيث يتعلّم التلاميذ القراءة والكتابة والقرآن، ومن بعدها يتلقّون شيئًا من اللّغة والنحو والعروض، وإذا أتمّوا دراستهم في الكتّاب، انتقلوا إلى حلقات المساجد. وللمتعلّم أن ينضم إلى أية حلقة شاء، ويختار أي أستاذ أراد، ويقضي في تلك الدراسة والتحصيل سنين طويلةً.

أما المبتدئون والمنتهون، فيطالب كل منهم بما يليق بحاله وذهنه؛ فمراعاة الفرق بين تعليم المبتدئين والمنتهين كانت ملحوظةً في كل زمان، وقد اعتنى بذلك المدرّسون المتقدّمون وأكثر المتأخرين، لأنهم هم القدوة في تجديد أساليب التعليم وترسيخ العلوم في أذهان الطلاّب تدريجيًا بما يتناسب مع القدرات الذهنيّة والفكريّة للطالب[٢].

---

(١) طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص١٢٤- ١٢٦.

(٢) ابن جماعة، **تذكرة السامع**، ص٢٧٠.

١- طريقــة الإمـــلاء

هي الطريقة الفضلى لتدريس الفقه والحديث، حيث كان المدرّس يملي على الطلبـــة مـــن ذاكرته حصيلة أبحاثه، وخلاصة ما اطّلع عليه، معتمدًا حينًا مرجعًا نادرًا ومرتفـــع الـــثمن، لـــيس بمقدور المتعلّم اقتناؤه، معتمدًا، حينًا آخر على ملاحظات مدّونة يستعين بها في التدريس.

يبدأ المدرّس، وفق هذه الطريقة، بإملاء مقطع ما، ثمَّ يعمد إلى شرحه، وتفسير العبـــارات الواردة فيه، موضحًا معاني المرادفات العويصة، ثمَّ يطلب من المتعلّمين أن يـــدوّنوا الملاحظـــات المناسبة في هوامش النصّ الأصلي الّذي كتبوه.

بعد انتهاء المدرّس من الإملاء والشرح، يأتي دور المعيد، إذ قلّمـــا خلـــت مدرســـة فـــي العصرين الأيوبي والمملوكي من وجود منصب له. وعلى المعيد إعادة ما أملاه المدرّس وشرحه، وذلك لتصحيح بعض الأخطاء في النقل، أو لاستدراك ما يكون قد فات الطلبة فهمه من الدرس.

وكانت العادة أن يسمى معيد أو أكثر لكل مدرّس ممن يتبعون شيخهم في المـــذهب وفـــي اختصاصه، ويواظبون على حضور دروسه. ونظرًا إلى أهميّة دور المعيد في عملية التعليم، رأى ابن جماعة أن يختار المعيد من بين أكثر العلماء فضيلةً ونزاهةً، وأن يكون صبورًا على أخـــلاق الطلبة، حريصًا على فائدتهم وانتفاعهم به، قائمًا على وظيفة أشغالهم[1].

٢- طريقـــة الإلقـــاء

يضع الشيخ كتابًا معيّنًا بين أيدي الطلبة، ويطلب منهم أن يأتوا حجرة التـــدريس، بعـــد أن يكونوا قد قرأوا على أنفسهم الدرس الجيد.

يبدأ الشيخ محاضرته بتقديم فكرة عامة عن موضوع الدرس، ومن ثـــمَّ يعـــرض بإيجـــاز لأفكاره الرئيسيَّة، متجنّبًا التفاصيل المعقّدة، لينتقل، بعد ذلك، إلى قراءة الدرس، فيما الطلبة يتابعون النص في نسخ الكتاب خاصتهم.

وفي أثناء المحاضرة، يحقُّ للمتعلم طرح الأسئلة الاستيضاحيَّة،على أن يسأل تفقّهًا لا تعنّتًا ولا رياءً[2]، حسب رأي ابن جماعة، وأن يراعي قواعد آداب الحديث في المجالس، باختيار اللحظة المناسبة للكلام.

---

(١) ابن جماعة، تذكرة السامع، ص٢٧٠.

(٢) ابن جماعة، م. ن.، ص ٢٦٧؛ أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص٢٣١- ٢٣٢.

٣- طريقـــة المناظـــرة

هي من أهمّ طرائق التدريس في المراحل المتقدّمة من التعليم، لدورها في شـــحذ الـــذهن، والتدريب على سرعة التعبير والارتجال وتعزيز الثقة بالنفس. لذا كان المدرّسون يحرصون علـــى تشجيع المتعلّمين على المشاركة في المناظرات والمناقشات .

ح- الإجـــازات

الإجازة في التقليد الإسلامي هي إذن يمنحه الشيخ لأحد المتفقهين، يجيز له بموجبه رواية الحديث عنه. وعليه، فإن الإجازة، بهذا المعنى، مرتبطة باسم الشيخ الّذي يمنحها، وقد قام التعلـــيم العالي في عهد المماليك أساسًا، على الجهود الفرديّة للعلماء، وذلك حسب اختصاص كل منهم.

كانت الإجازة الّتي يمنحها الشيخ لمن نهل العلم على يديه على نـــوعين: إجـــازة علميّـــة، وإجازة بالمراسلة.

١- الإجـــازات العلميّـــة

كان الطلاّب يواظبون على حضور حلقات الدرس على أيدي الشيوخ، وقد جرت العادة، أنّ المدرّس إذا تحقّق من استيعاب الطالب للعلم، كتب له شهادةً على الورقة الأولى أو الأخيـــرة مـــن الكتاب الّذي قام بدراسته معه، وتسمّى تلك الشهادة "إجازة"، وهي دليل على أنّ حاملهـــا قـــد بلـــغ المستوى العلمي المقبول. والطلاّب في الحرم المكّي كانوا يحصلون على إجازات علميّة منفردة من أساتذتهم، وقد مارس هذا التقليد عدد من علماء مكّة خلال العصر المملوكي(١).

٢- الإجـــازات التحريريّـــة

(١) – الإجـــازة بعراضـــة الكتـــب

جرت العادة أن يحفظ المتعلّم كتابًا في الفقه، أو الحديث، أو النحو، أو الأدب، أو التـــاريخ، أو غير ذلك من المعارف المتصلة بعلوم الدين، ثمّ يعرضه على أحد مشـــايخ العصـــر لصـــاحب الاختصاص، " فيقطع الشيخ المعروض عليه ذلك الكتاب، ويفتح منه أبوابًا ومواضعًا، يستقرئه إياها من أيّ مكان اتّفق"، فإذا اطمأنّ الشيخ إلى استيعاب الطالب لمضمون الكتاب، يكتب له إجازةً فـــي عرضه، تكتب في ورق مربّع صغير، يذكر فيها عبارة: "وكذلك عرض عليّ فـــلان"، أو عبـــارة: "عرض عليّ وكتبه فلان"(٢).

---

(١) ابن جماعة، **تذكرة السامع**، ص٢٧٥؛ طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص١٠٢.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١٤، ص٣٦٤؛ أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص٢٣٤.

(٢) – الإجـازة بالمراسلـة

لا شك في أنّ ارتفاع عدد المجازين، يدلُّ على ازدهار الحركة العلميَّة والتعليميَّة، كما أنّ ظاهرة الاستجازة من الخارج تدلُّ على روح علميّة عالية، وطموح كبير حملا أصحابهما على عدم الاكتفاء باستجازة من يلقون بمكّة، بل تطلّعوا إلى الخارج، وحاولوا الحصول على الإجازات من علماء الأقطار الأخرى. وهذا التقليد عرفته مكّة. ومن هؤلاء الّذين نهجوا هذا المنهج:

محمَّد بن أحمد بن عطية بن ظهيرة (٧٤٩/١٣٤٨)، أجاز له من دمشق القاضي سليمان بن حمزة.

وظهيرة بن حسين القرشي (٨١٩/١٤١٦)، أجاز له من شيوخ مصر الجزائري، وابن القطرواني[١].

٣- إجـازات السمـاع

كثرت مجالس القراءة والسماع في الحجاز، واحتلّت مكانةً عاليةً في أوساط النخب من العلماء والمتعلّمين والنَّاس عامَّة، وبخاصَّة تلك الّتي يتصدّى للرواية والقراءة فيها شيوخ ثقة. كان الشيخ المسمع يدوّن في ذيل كتاب المتعلّم شهادةً يذكر فيها تواريخ المجالس وأمكنتها، وأسماء الحضور، وعناوين الرسائل والكتب الّتي سمعها الطالب أثناء حضوره جلسات السماع، كما يدوّن أسماء مصنِّفيها أو رواتها. والسماع نوعان: إجازة عامَّة تمنح بالسماع المباشر، وهي الأفضل، ومثال ذلك عندما جاء السخاوي إلى المدينة، فجلس إلى محمَّد بن عبد الله بن الشمس المدني العوفي، وطلب منه الإجازة فأجازه، وإجازة خاصَّة من غير سماع، تمنح دون اتصال مباشر بين الطالب وشيخه[٢].

ط- المكانـة الاجتماعـيَّة للعلمـاء

كان السلاطين يكنُّون للعلماء احترامًا كبيرًا، وكانوا يعاملونهم معاملةً خاصةً ويكرّمونهم، حتّى صار ذلك تقليدًا نلمسه في مختلف العصور. ومن مظاهر التقدير، تقديم العون المادّي إليهم من قبل الحكّام، علاوةً على اصطحابهم لهم في الحجّ، وفي غيره من الرحلات، ودعوتهم إلى مجالسهم الخاصَّة، محاطين بجميع مظاهر التكريم.

أمّا التدريس، فلم يكن للدولة فيه أيُّ تدخل، اللهمَّ إلا في بعض المدارس. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ موقف أكثر العلماء من أرباب الدولة كان غير ودّي. وتجدر الإشارة إلى أنّه

---

(١) طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص١٠٦.

(٢) السخاوي، **الضوء اللامع**، ج٧، ص٣٩؛ أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص٢٣٥-٢٣٦.

في العصر المملوكي، عدل العلماء عن موقفهم السابق، وصاروا أكثر اتصالاً بحكام زمانهم، وهناك شواهد تدلُّ على اتصال العلماء بالحكّام في مكّة، من أمثال:

أحمد بن جار الله بن زائد السنبسي (١٤٢٤/٨٢٧)، الّذي لازم الشريف حسن بن عجلان، شريف مكّة، وقد حصل على دور وسِقايات كثيرة بالوادي.

تقيّ الدين محمّد بن أحمد الفاسي، وكان إلى جانب القضاء يقوم بالتدريس والإفتاء والتحديث بالحرمين[١].

ي- دور المرأة في الحياة العلميّة في الحجاز

كانت النساء يرتدن المساجد، ويستمعن إلى ما يلقى فيها من خطب ومواعظ، فقد كان يسمح لهنّ في عهد الرسول بحضور الصلوات في المسجد.

وخلال العصر المملوكي، لم تختلف أحوال المرأة عمّا كانت عليه في القرون السابقة، واقتصر علم المرأة على علم الحديث، ومن أشهر النساء في ذلك الحين:

زينب بنت مكّي الحرازي (١٢٨٩/٦٨٨)، كانت مُحدِّثةً. قضت عمرها في طلب الحديث والرواية والعبادة وتلاوة القرآن.

فاطمة بنت قطب الدين أبي بكر محمّد القسطلاني (١٣١٢/٧١٢)، سمعت من كثيرين وحدّثت وأجاز لها ابن الخير وابن السيدي، وسمع منها جماعة من الأعيان، وأجازت للشهاب أحمد بن علي الحنفي[٢].

والرّاجح أنّ المرأة في الحرمين كان لها دورٌ مهمٌ في الحياة العلميّة خلال الفترة المملوكيّة، حيث شاركت الرجل في إنعاش الحركة الثقافيّة في بلاد الحجاز.

وقد حظيت دور التعليم والمدارس الثقافيّة في إقليم الحجاز باهتمام بالغ من الرحّالة والحجّاج القاصدين بيت الله الحرام لأداء المناسك، وزيارة النبيّ محمّد، ومن هؤلاء ابن رُشيد الّذي ذكر من التقى بهم بمدينة الرسول من العلماء والرواة، كالشيخة الكاتبة أم الخير فاطمة بنت إبراهيم المعروف بالبطائحي. قدمت في ركب الشام زائرةً وحاجةً، فقال: لقيتها بمسجد الرسول، كتبت لي بخطها بالإجازة هنالك في جميع مرويّاتها، وتمّ ذلك في الرابع والعشرين لذي القعدة سنة ١٢٨٥/٦٨٤. وممّن لقيناه بمدينة الرسول الفقيه إبراهيم بن يحي الفاسي، منسوب إلى مدينة فاس، إحدى قواعد المغرب. وقد أقعده الكبر عن التصرّف، قرأت عليه بداره جميع ثلاثيات البخاري في الرابع والعشرين لذي القعدة سنة ١٢٨٥/٦٨٤. وأجاز لي ما تجوز له روايته[٣].

---

(١) طرفة العبيكان، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة**، ص٩٠- ٩١.

(٢) طرفة العبيكان، م. ن.، ص١٥٧- ١٥٨.

(٣) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص٢١.

وتابع الرحّالة حديثه عن العلماء والفقهاء، فقال: وممَّن لقيت بمكّة الفقيه والمحدّث العالم، فقيه الحرم، محبّ الدين الطبري المكّي، وهو أحد العلماء الفضلاء. لقيته بالحرم الشريف، وطلبت منه السماع والإجازة، وأجاز لي بخطّه سنة ١٢٨٥/٦٨٤[١].

هكذا تطرق ابن رُشيد إلى ذكر العلماء والرواة، حيث تناول النساء الفاضلات أيضًا، ما يشير إلى أنّ المرأة المسلمة كانت تحظى بمكانة علميّة مرموقة زمن المماليك.

أمّا الرحّالة العبدري، فكانت مواقفه عن دور العلماء والفقهاء في مكّة مختلفًا عمَّن سبقه، وقد أشار إلى ذلك فقال: قضى الله بأنّي لم ألقَ بمكّة من يؤخذ عنه علمٌ، لشغلي في تلك الأيّام بأمور الحجّ، مع رجائي في الإقامة، فلم أُعطِ البحث حقَّه. وصادفت الشيخ محب الدين الطبري وهو باليمن، لم يحجّ في هذه السنة (١٢٨٩/٦٨٨)، وذَكَرَ لي بها شخصًا يعرف بالفاروثي، وفاروث قرية من قرى بغداد على ماحكي لي عنه، وهو ممَّن طالت صحبته للشيخ شهاب الدين أبي حفص السهروردي. فحرصت على لقائه ولم يقضِ لي بذلك، وسافر بعد انقضاء الموسم. وبالجملة، فقد ضعف العلم بتلك البلاد لضعف العيش بها[٢].

وتابع العبدري كلامه عن أهل العلم في المدينة فقال: ولم أر بالمدينة، مع شدّة البحث، وإلحاح الطّلب، وتكرار السؤال، من هو بالعلم موصوف، وقد لقيت إمام حرمها، وخطيب المنبر، فوجدت سماء شرفه من شياطين الجهل لم تحرس، وتربة قلبه لم تزرع بحبة من المعارف ولم تغرس، فاستفهمته عمّا يتلى ويدرس، وهو بأمثاله يعفى ويدرس، فكأني أنادي أو أكلّم أخرس[٣].

على هذا المنوال نعت العبدري العلماء في مكّة والمدينة دون أن يستثني أحدًا. ومن المرجّح أنّ العبدري صبَّ اهتمامه على أداء المناسك، وأمور الحجّ والحجّاج، وتناول المقامات ومواضع الشعائر، ما جعله يقصّر في البحث والتفتيش للاجتماع بالعلماء والفقهاء. علمًا بأنّ الحرمين كانا يغصّان بأهل الفكر والعلم والثقافة منذ عهد الرسول، وقد تتزايد النسبة خلال موسم الحجّ، ويتحوّل المسجد الحرام والمسجد النبويّ إلى ملتقى ثقافي شامل وعظيم.

ومن الّذين اجتمعوا بالعلماء منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، القلصادي وقد أورد ذلك فقال: وهناك عرفت الشيخ المرابط سيدي أحمد الزواوي... ثمّ أقمنا في تلك الأماكن الشريفة، والمواضع المنيفة، نرد من أعذب المصادر والموارد. وفي أثناء ذلك الوقت،

---

(١) ابن رُشيد، **ملء العيبة**، ج٥، ص٢٣٣.

(٢) العبدري، **رحلة العبدري**، ص ٤١٧؛ إبراهيم سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص١٧٢.

(٣) العبدري، م. س.، ص٤٢٨؛ إبراهيم سعيد، م. س.، ص ١٧٨.

شرحت فرائض ابن الحاجب، ورويت عن الشيخ العالم المحدّث الراوية المؤلّف سيدي: أبي الحسني الراغي المدني، وكتبت أسانيده على كتب الأحاديث وأجازني في ذلك، وكتب لي بخطّه[1].

ولقد تباينت آراء الرحّالة في ما خص أهل العلم والفكر والثقافة فأشار كلّ منهم إلى ذلك بطريقته الخاصّة، وعبّر كلّ واحد عن الحالة العلميّة الّتي كانت سائدةً آنذاك. ففي الربع الأخير من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، أثنى ابن رُشيد على النساء الفاضلات المتعلّمات زمن المماليك. في حين أظهر العبدري أنّ العلم كان قليلاً في الحجاز، وقد انصبَّ سخطه على أصحاب الوظائف الدينيّة، ولا سيّما خطيب المنبر، فنعته بشيطان حصل على إجازة الجهل. بينما كشف القلصادي عن لقائه العلماء والفقهاء بأرض المناسك والشعائر.

كما ضمّت بلاد الحجاز طائفةً من العلماء الذين تولّوا مناصب، أو ساهموا في التعليم والتدريس في الحلقات العلمية، ومن هؤلاء:

سنجر بن عبد الله البرنلي الدواداري (٦٩٩/١٣٠٠) الّذي سمع الحديث بالحرمين، وكان له مشاركة في الفقه والحديث، وهو من أمراء الألوف بالدّيار المصريّة[2].

وأحمد بن محمّد بن أبي بكر الطبري (٧٦٠/١٣٥٩) الّذي سمع على الفخر التوزري، وحدّث، وتفقّه على جماعة من أهل مكّة، وبرع في الفقه والأصول والعربيّة وغيرها، وأفتى ودرّس، وولي قضاء مكّة بعد أبيه، بولاية الشريف عطيفة بن أبي نمي أمير مكّة سنة (٧٣٠/١٣٣٠)، من قبل المجاهد علي ملك اليمن، ثمّ فوّض إليه السلطان الناصر محمّد بن قلاوون صاحب مصر القضاء سنة ٧٣٢/١٣٣٢، وأضيفت إليه بعد ذلك خطابة الحرم سنة ٧٥٦/١٣٥٥، فعارضه ضياء الدين محمّد بن عبد الله الحموي، ومنعه من الخطابة[3].

وأحمد بن علي بن أبي الفتح السجستاني المكّي الفقيه (٧٦٢/١٣٦٠)، نشأ في مكّة، وبرع في الفقه، فتفقّه على جماعة، وهو إمام المسجد الحرام[4].

سالم بن ياقوت المكّي (٧٦٣/١٣٦١). كان المؤذّن بالمسجد الحرام، وأجاز له في الكبر القاضي سليمان، وحدّث عنه بالإجازة أبو حامد بن ظهيرة[5].

وأحمد بن محمّد المخزومي النحوي عالم الحجاز (٧٨٨/١٣٨٦)، الّذي سمع على الحافظ صلاح الدين خليل العلائي بمكّة، وعلى جماعة من شيوخها والقادمين إليها، كثيرًا من الكتب، منها:

---

(١) القلصادي، **رحلة القلصادي**، ص ١٣٦؛ إبراهيم أحمد سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص٢٩٦.

(٢) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٦، ص ٦٨- ٦٩.

(٣) ابن تغري بردي، م. ن.، ج٢، ص ١٠٨- ١١٠.

(٤) ابن تغري بردي، م. ن.، ج١، ص ٤٢٣- ٤٢٤.

(٥) ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج٢، ص ١٢٥.

سنن النسائي على الزين الطبري، وسنن أبي داود على عثمان بن الصيفي، وتصدَّر في مكة للاشتغال في العربيّة والعروض. وكان له نظم ونثر، وكتب بخطه الحسن[١].

وأحمد بن ظهيرة (١٣٨٩/٧٩٢) الّذي ولد ونشأ في مكّة، وطلب العلم، وأصغى إلى قاضيها نجم الدين الطبري، ودرّس وأفتى بمكّة عدة سنوات، فانتفع به النّاس[٢].

وأحمد بن محمَّد النويّري (١٣٩٧/٧٩٩)، الّذي أجاز له جماعة من أهل مكّة وغيرها، وانصت، وقرأ، واشتغل، وبرع في الفقه وغيره، وأفتى، ودرّس، وناب في الحكم عن أبيه القاضي أبي الفضل، وفي الخطابة أيضًا سنة ١٣٧٢/٧٧٣، ثمّ ولي قضاء المدينة وخطابتها وإمامتها سنة ١٣٧٤/٧٧٥، بعد البدر بن الخشاب، ثمّ ولي قضاء مكّة وخطابتها بعد عزل القاضي شهاب الدين بن ظهيرة[٣].

وأحمد بن عليّ الفاسي (١٤١٦/٨١٩) الّذي ولد ونشأ في مكّة. هو ووالده المؤرّخ تقي الدين الفاسي، وكان ذا فضل، ومعرفة تامّة بالأحكام والوثائق، وله نظم كثير ونثر. درّس وأفتى كثيرًا، وأخذت عنه بمنى ومكّة، وسمع منه الطلبة[٤].

وعبد الملك بن سعيد البغدادي (١٤٢١/٨٢٤)، الّذي أجاز سنة (١٤٢٢/٨٢٣) للشيخ عفيف الجرهمي في مشيخته. ولازم الخلوة كثيرًا. وقد تردّد على مكّة مرارًا، وجاور فيها غير مرة، كما وقف رباط السدرة، وحدّث فسمع منه الطلبة. وكان عالمًا صالحًا خاشعًا ناسكًا، له إلمام بالفقه وطريق الصوفيّة[٥].

وأحمد بن جار الله بن زائد المكّي (١٤٢٤/٨٢٧) الّذي واظب على حضور دروس شهاب بن ظهيرة، فصارت له بعض مشاركات في الفقه وفي مسائل فرضيّة وحسابيّة. وقد لازم الشريف حسن بن عجلان أمير مكّة، ونظر له في أمواله ببطن مر[٦].

عليّ بن إبراهيم اليمني (١٤٥٥/٨٥٩) الّذي قدم مكّة سنة (١٤٠٢/٨٠٥)، ثم جاور فيها سنة (١٤٠٥/٨٠٨)، واجتمع بالزين أبي بكر المراغي، وفي المدينة، قابل مرةً ثانيةً المراغي[٧].

---

(١) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٢، ص١٥٥- ١٥٦.

(٢) ابن تغري بردي، م. ن.، ج١، ص٣٢٥- ٣٢٧.

(٣) ابن حجر، **الدرر الكامنة**، ج١، ص٢٤٤؛ ابن تغري بردي، م. س.، ج٢، ص٨٥- ٨٦.

(٤) ابن تغري بردي، م. ن.، ج١، ص٤٠٣- ٤٠٥.

(٥) السخاوي، **الضوء اللامع**، ج٥، ص٨٤ – ٨٥ .

(٦) السخاوي، م. ن.، ج١، ص٢٦٦- ٢٦٧.

(٧) السخاوي، م. ن.، ج٥، ص١٥٣- ١٥٤.

هكذا كانت العلاقات الثقافيّة في بلاد الحجاز، وقد تميّز العلم في العصر المملوكي باهتمام السلاطين والأمراء واعتنائهم.

* * *

نستنتج مما تقدم النقاط التالية:

إنّ سكّان الحجاز هم من قبيلة قريش، علاوةً على بعض القبائل والعشائر البدويّة الأخرى الّتي استقرّت في جوار قريش. وإنّ السكّان في العصر المملوكي توزّعوا على مجموعتين:

- مجموعة الشمال، وتتكوّن من القبائل الآتية:

قبيلة بني عقبة، وكانت تتقاضى الصرّة لقاء حماية الحجّاج، بينما كانت قبائل عنزة والفقرا وولد علي محطّاتٍ على طريق الحج.

- مجموعة الجنوب، وتتألف من القبائل الآتية:

قبيلة هذيل الّتي استقرّت عند مكّة والطائف. أمّا طبقة الأشراف فانحصرت مسؤوليتها في فرض الضرائب العالية على فريضة الحجّ، وعلى الأموال المخصّصة لتحسين المقامات، وخدمة الحجيج والمنقطعين والمحتاجين.

برع الرحّالة في العصر المملوكي خلال وصفهم الدّيار المباركة، فتركوا تراثًا غنيًّا بوجدانيّاتهم وانطباعاتهم الصادقة تجاه الحرمين الشريفين، اعتبر نبراسًا لكل زائر ووافد قصد الحجاز.

وقد تسابق سلاطين المماليك إلى أفعال الخير والإحسان، والاهتمام بالرعاية الصحيّة، وزيادة الصدقات، خوفًا من فقدان نفوذهم في بلاد الحجاز، وسيطرة أمراء مكّة والمدينة على الحرمين.

وكان لسكّان الحجاز احتفالاتهم بالأعياد والمناسبات الدينيّة والاجتماعيّة الّتي اتّخذت طابعًا مميزًا، ولا سيّما في عيدي الفطر والأضحى، كما كان لطبقة المجاورين دورٌ مهمٌّ، حيث كرّست وقتها لتعليم الفقراء والمحتاجين دون أجر، رغبةً في الحصول على الثواب، رغم الظروف المعيشيّة الضيّقة. علاوةً على تحوّل موسم الحج ملتقًى ثقافيًّا جامعًا، يضمُّ فئات من جنسيّات متنوّعة. وأدّى ذلك إلى تنافس سلاطين المماليك في إنشاء المدارس، والأربطة، والتكايا، والزوايا في الحرمين. وقد واكب الرحّالة العلماء والفقهاء خلال الفريضة، وفي المساجد وعلى الطريق.

كذلك قامت المرأة بدور فعّال في الحياة العلميّة خلال العصر المملوكي، فشاركت الرجل في إنعاش الحركة الثقافيّة في بلاد الحجاز.

تلك العلاقات الاجتماعيَّة والثقافيَّة في الحجاز في موسم الحجّ، وسوف ننتقل إلى الفصل الرابع لتسليط الضوء على التبادل التجاري والتطرّق إلى المنشآت والأسواق التّجاريَّة في العصر المملوكي.

الفصـــل الرابـــع

العلاقات التجاريَّة في الحجاز في موسم الحجّ في العصر المملوكي

عالجنا الناحيتين الاجتماعيَّة والثقافيَّة في الفصل السابق، وفي الفصل الرابع من هذا الباب، نتناول العلاقات التجاريَّة في الحجاز في موسم الحجّ في العصر المملوكي، حيث تمثّل التجارة أهميّةً كبرى لأيِّ مجتمع من المجتمعات، كما تعدُّ ركيزةً أساسيّةً لأيِّ سلطة سياسيّة. من هذا المنطلق سنحاول الوقوف على النشاط التجاري في تاريخ الحجاز، سواء ما يتصل بالمناشط التجاريَّة المختلفة في مكّة والمدينة، أو ما كان يتمُّ أثناء موسم الحجّ، وهل كان يرد إليهما صدقات وهبات وسلع مختلفة وغيرها؟ لذلك، سنتحدث عن التبادل التجاري في العصر المملوكي في المبحث الأوّل من هذا الفصل، ثمَّ ننتقل إلى المحطَّات التجاريَّة بين مصر والحجاز في العصر المملوكي في المبحث الثّاني، ومن ثمَّ إلى المنشآت التجاريَّة في المبحث الثالث.

أولاً- التبادل التجاري في الحجاز في العصر المملوكي

تمهيد- التجارة في الحجاز قبل العصر المملوكي

التجارة هي ما يتاجر به، إنها ممارسة أعمال البيع والشراء لغرض الربح. وفي الحديث: "إنّ التجّار يبعثون يوم القيامة فجّارًا، إلاّ من اتقى الله وبرَّ وصدق"[١]؛ قال ابن الأثير: سمّاهم فجّارًا، لما في البيع والشراء من الإيمان الكاذب، والغبن، والتدليس، والربا الّذي لا يتحاشاه أكثرهم أو لا يفطنون له. ويقال: ناقة تاجرة، أي تنفق في التجارة، إذا عرضت على البيع لنجابتها، وأخرى كاسدة غير مرغوب فيها[٢].

ومن المعلوم أنّ التجارة تقوم وتزدهر على مقوّمات؛ منها: الموقع الجغرافي، والاستقرار الداخلي والخارجي، ورعاية الحكام للتجارة، وتأمين الأسواق الداخلية والخارجية اللازمة لها. فكيف تمَّ تنظيم التجارة والعمل على ازدهارها بين الحجاز ومصر؟

تجدر الإشارة إلى أنَّ آراء الباحثين تضاربت حول الكارم، وكان أوّل ما اختلف فيه الدارسون بشأنه هو اسمه الّذي لم ينتهوا في تفسيره بعد إلى رأي قاطع؛ فهناك من يرى أنَّ تجارة الكارم تنسب إلى الكارمية، وهي التّجارة الّتي تحدّثت عنها وثائق الجنيزة فيما عرف بتجارة الكارم أو الكارمية، وهم مجموعة من كبار التجّار عملوا في تجارة الهند والشرق الأقصى في التوابل وغيرها، انطلاقًا من المحيط الهندي، وقد اختلف في أصل تسمية الكارمية، ونشأتهم أيضًا؛ فمن

---

(١) رواه القزويني، **سنن ابن ماجة**، باب كتاب التجارات، رقم الحديث ٢١٤٦، ج٢، ص ٧٢٦.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٢، ص ١٩، "تجارة"؛ C. E. Boswrth, "Tidjāra", *EI*$_2$, vol.X, p.499.

الباحثين أمثال القلقشندي من أشار إلى أنّ اسم الكارم اشتق من الكانم، وهي منطقة مـن السـودان الغربي، تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، فانتشر اسم الكارم بين المتداولين لتجارة التوابل[١].

أما ليتمان (Littmann)، فيعتقد أنّ كلمة الكارمية أو الكارم قد اشتقّت من نوع من التوابـل هو الحبهان، ويلفظ في اللّغة الأمهرية كاراريما (Kuararima). وهو نوع من التوابل التي تـاجروا بها، ثم صُحّفت هذه الكلمة، وأصبحت كارم، وأطلقت على هؤلاء التجّار[٢].

وجدير ذكره أنّ منطقة الحجاز قد شهدت بموانئها ومدنها المقدّسة حركةً تجاريّةً ملحوظةً، وأصبحت مكّة والمدينة أسواقًا تجاريّةً، قبل انتشار الإسلام وبعده. علمًا بأنّ المجتمع المكّي قام على التّجارة حتّى قبل الإسلام، وكذلك أصبح موسم الحجّ موسمًا تجاريًّا كبيرًا للمسلمين، واهتمّ الخلفـاء الراشدون بموانىء البحر الأحمر الحجازيّة، كالجار وجدّة في عهدي عمر وعثمان.

والواقع أنّ أيلة ازدهرت كثيرًا في العصر الفاطمي، فقد كانت تجلب لها السـلع الشـاميّة لتصديرها إلى مصر، وإلى داخل الحجاز وأفريقيا والهند والصين، فبنى فيهـا الفـاطميّون ديوانًـا للمكوس، بهدف أخذ الضريبة على السلع الصادرة والواردة من وإلى ميناء العقبة .

وخلال العصر الفاطمي، سارعت السلطة إلى العمل على تأمين الملاحة في البحر الأحمر، للحؤول دون تعرض قراصنة البحر للسفن التجاريّة، وحماية القوافل التجاريّة الّتـي كانـت تعبـر وديان الصحراء الشرقيّة من مخاطر التعرّض لغارات البدو. وقد أدّت السياسة الفاطميّة تجاه التجّار الشرقيين والغربيين إلى زيادة أهميّة التّجارة لثغر عيذاب ومدينة قوص، وتسابق التجّار إلى التعامل مع الأسواق التجاريّة بمصر[٣].

وعن اهتمام الفاطميين بالأساطيل وحفظ الثغور وتعقّب خطر القراصنة في البحر الأحمر، قال القلقشندي إنه كان للفاطميين أسطول بعيذاب يلتقي به الكارم فيما بين عيذاب وسـواكن ومـا حولهما خوفًا على مراكب الكارم من قومٍ كانوا بجزائر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحمـيهم الأسطول منهم[٤].

عُدّت عدن مركز تجّار الكارم ونقطة الانطلاق الرئيسيّة لهم في العصر الفاطمي، وكانـت توابل الهند تصل إلى عدن على أيدي تجّار الهند، حيث تجمع في عدن ومنها يصدّرها تجار الكارم إلى عيذاب، ويتم ذلك في مواسم معيّنة من السنة. وتجدر الإشارة إلى أنّ الفاطميين استفادوا مـن

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٥٢٠- ٥٢٤ .

(٢) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم٣، ص٨٩٩؛ أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص١٩١؛ شوقي عثمـان، **تجـارة المحيط الهندي**، ص٢٦٩.

(٣) عبد العزيز سالم، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، ص٨٢.

(٤) القلقشندي، م. س.، ج٣، ص٥٢٠- ٥٢٤.

ولاء بلاد الحجاز واليمن السياسي لهم، وذلك بتأمين مصالح تّجارة الكارم في البحر الأحمر، وتدعيم علاقاتهم التجاريّة مع الحجاز[١].

وفي سنة ١١١٦/٥١٠، احتلّ الصليبيون أيلة لضعف الحامية الفاطميّة فيها، وبذلك أصبح الصليبيون على ساحل البحر الأحمر، وسيطروا على ثغر تجاري مهمّ تفد إليه التّجارات المختلفة، وأصبح الاحتلال الصليبي مصدر خطر وتهديد لتّجارة البحر الأحمر وموانيء الحجاز، حتى حرّرتها الجيوش الأيوبيّة سنة ١١٧١/٥٦٦. وافتتح توران شاه أخو صلاح الدين اليمن سنة ١١٧٤/٥٦٩؛ لأنه لم يخف على صلاح الدين مدى أهميّة بلاد اليمن بالنسبة إلى تّجارة الكارم في البحر الأحمر، وأراد صلاح الدين بضمّه اليمن إلى مصر، أن يحمي مركز تجارة الكارم في عدن[٢].

وسعى الأيوبيون فيما بعد لتثبيت النفوذ المصري على بلاد الحجاز للحفاظ على مكانتها الدينيّة، ولحماية التّجارة المصريّة في البحر الأحمر الّذي ازداد فيه نشاط تجّار الكارم، إلا أن بني رسول في اليمن لم يكتفوا بالاستقلال بحكم اليمن، بل نافسوا الأيوبيين في سيادتهم على بلاد الحجاز، وكان عائد تّجارة الكارم في عدن قد أدّى إلى ثراء بني رسول وقوّتهم. وكان بنو رسول قد اهتموا بتّجارة الكارم في البحر الأحمر، وكانت لهم صلاتهم وقنصليّاتهم مع بلاد الهند وسيلان والصين. وبسط صلاح الدين نفوذه على الحجاز، وتمكّن من تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة إسلاميّة، وإحكام السيطرة المصريّة عليه[٣].

وخلال الحكم الأيّوبي، برز دور ميناء ينبع سنة ١٢٢٢/٦٢١ باتخاذ الأيوبيين له ميناءً رئيسيًّا للمدينة، فاشتروه من الأشراف الحسنيين أهل ينبع النخل بأربعة آلاف مثقال، وأقاموا فيه بعض الإنشاءات. وساهم هذا الميناء في تّجارة البحر الأحمر، حيث كانت السفن ترد إليه بأغلال كل سنة، وكانت قيمة تّجارته تقدّر كل سنة بحوالي ثلاثين ألف دينار[٤].

ومما يؤكّد ازدهار التّجارة عبر البحر الأحمر، ما ورد من خطابات ومراسلات في وثائق الجنيزة الّتي عثر عليها في الفسطاط بالقرب من القاهرة، مع العلم أنّ غالبية هذه الوثائق المتعلّقة بتّجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي، هي عبارة عن خطابات بعثت من عدن وجدّة وغيرهما من

---

(١) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص٤٧– ٤٨.

(٢) عبد العزيز سالم، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، ص٨٩.

(٣) عبد العزيز سالم، م. ن.، ص ٨٩؛ محمد الأشقر، م. س.، ص٥٣– ٥٤ .

(٤) نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة الدولية ومحطاتها**، ص١٤٠.

موانيء البحر الأحمر، وكذلك من موانيء الهند إلى مدينة الفسطاط بمصر، ورسائل متبادلة بين موانيء البحر الأحمر[(١)].

إنّ نشأة هذا النشاط التجاري كانت في العهد الفاطمي. ومع انطلاقة القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، شاعت كلمة الكارم في بيوت المصريين بالقاهرة، فقد سيطر الكارم على تّجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي في مجال تّجارة التوابل خاصّةً، وسلع أخرى جلبوها من عدن لينقلوها إلى المدن الإيطاليَّة، فكان الفلفل والبهار من أهم سلعهم، وكانا من أهم المطالب التجاريَّة في أوروبا، وكذلك المحصولات الزراعيَّة والملابس والحرير الخام، والخشب، والسكر، والأسلحة، وأدوات الزينة، ولكن التوابل بقيت تمثل الصدارة في تجارة الكارمية، مثل القرفة والقرنفل[(٢)].

ومن مراكز نشاط الكارمية التجاريَّة المهمَّة زمن الفاطميين عدن، وعيذاب، والقصير. وقد حقَّق الكارمية مكانةً كبيرةً في العصور الوسطى، خصوصًا في العهود الثلاثة: الفاطمي، والأيوبي، والمملوكي، وشكَّلوا طبقاتٍ اجتماعيَّةً بارزةً عرفت بثرائها واتصالها بالسلاطين والحكّام، وأسهموا في إقامة المنشآت الدينيَّة والمدنيَّة والعلميَّة، كبناء المساجد والمدارس والأربطة في مصر والحجاز وغيرهما، واشتغل بعضهم بالتدريس، والقضاء، إضافةً إلى التجارة[(٣)].

واستمرَّ نشاط الكارمية خلال الحكم الأيوبي، ولعلّ من بين أهداف صلاح الدين الأيوبي في السيطرة على الحجاز واليمن، أهميَّة موقعهما التجاري في تّجارة البحر الأحمر، ورغبته في بقاء التّجارة داخل عاصمة بلاده القاهرة.

وقد تعرَّضت موانيء الحجاز زمن الأيوبيين، بدءًا من أيلة، لغزو الفرنج، فتصدَّت له القوّات الأيوبيَّة بكلّ قواها، وعاد البحر الأحمر بحيرةً إسلاميَّةً[(٤)].

أ- تجارة الكارم في عهد المماليك البحريَّة

انكب اهتمام السلطان بيبرس على الأعمال التأسيسيَّة اللازمة، لحفظ كيان دولة المماليك الناشئة، وحمايتها من الأخطار الخارجيَّة والداخليَّة الّتي تهدّدها؛ في حين عمل السلطان المنصور قلاوون (٦٨٩/١٢٩٠) على تنشيط التّجارة في البحر الأحمر بمختلف الطرق، وذلك لجعل مصر حلقة وصل في النشاط التجاري بين الشرق والغرب.

---

(١) محمد الأشقر، **تجُّار التوابل في مصر**، ص ٤٦.

(٢) عبد العزيز سالم، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، ص ٣٠- ٣٢.

(٣) عبد العزيز سالم، م. ن.، ص٣٢.

J. W. Fischel, "The Spice Trade in mamlûks Égypt", *Journal of the Economic and Social History of the Orient (JESHO)*, vol.1, p.161,163.

(٤) عبد العزيز سالم، م. س.، ص٨٣.

وتطلب عمله أمرين:

– الأوّل: حرص السلطان قلاوون ومَنْ خلفه من سلاطين المماليك، على أن يضربوا بيد من حديد على العابثين والمعتدين كلّ قوافل التجارة بين النيل والبحر الأحمر، وبخاصّة قبائل الأعراب الذين سكنوا تلك الجهات، والّذين اعتادوا حياة السلب والنهب، حتّى إنّ قوافل الحجّاج نفسها لم تسلم من عبثهم.

– الثّاني: أرسل السلطان قلاوون إلى نوّابه بالثغور يأمرهم بحسن معاملة التجّار وملاطفتهم والتودّد إليهم وترغيبهم، ومراعاة العدالة فيما يجبونه، بحيث لا يأخذون منهم سوى الحقوق السلطانيّة(١).

وعلى أثر الغزو المغولي المدمّر لغرب آسيا سنة ١٢٥٨/٦٥٦، وتعطيل الطرق التجاريّة البريّة في وسط آسيا، تعزّزت أهميّة البحر الأحمر كوسيلة اتصال تجاري بين الشرق والغرب، لكونه بعيدًا عن ميادين القتال بين المغول والمماليك، وظلّ التجّار يعتمدون هذا الطريق الخاضع للسيطرة المملوكيّة، كصلة وصل بين الشرق الأقصى وأوروبا، لحين اكتشاف رأس الرجاء الصالح، في أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، على يد البرتغاليين(٢).

وإذا كان الأيوبيون قد حرصوا على بسط سيادتهم السياسيّة والتجاريّة على البحر الأحمر، فإنّ سلاطين المماليك، ولا سيّما في العصر المملوكي البحري، تابعوا نهج السياسة الأيوبيّة في الاهتمام بشؤون البحر الأحمر، وإنعاش الحركة التجاريّة فيه، وتخفيف الأعباء والمكوس المفروضة على الحجّاج، فقد ألزم السلطان الناصر محمّد بن قلاوون شريف مكّة بإلغاء تلك المكوس لقاء ما كان يرسله إليه من غلال، كما صدر في سنة ١٣٦٥/٧٦٦ مرسوم بإسقاطها خلا مكْس الكارم ومكس الخيل ومكس تجّار العراق، وعوّض أمير مكّة عن ذلك إقطاعًا بمصر، وحُمِلَ إليه مبلغ قدره أربعمائة ألف درهم فضة(٣).

١– تنظيم تجارة الكارم والتصدي لغارات القراصنة

كان لأهميّة الدور الّذي قام به تجّار الكارم، أن وجدوا كل رعاية وحماية من قبل سلاطين المماليك الّذين كرّسوا جهودهم لتّجارة الكارم وتأمين طرقها، حيث وضع بيبرس سياسة تّجارة الكارم الّتي صار عليها سلاطين المماليك من بعده في مصر، فقام بتوفير الأمن وتحسين الطرق إلى بلاد الشام، ليكون السفر آمنًا. وبسط بيبرس نفوذه على الحجاز، وأخضع أمراء مكّة في سنة ١٢٦٧/٦٥٥، وأنعم على أمير مكّة الشريف محمّد أبي نمي وأغدق عليه، على ألا يأخذ فلسًا من

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، **العصر المماليكي**، ص٢٨٦– ٢٨٧.

(٢) أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص١٩٥.

(٣) عبد العزيز سالم، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، ص٨٦– ٨٧.

التجّار، لتشجيع مرور التّجارة في مصر، وكثيرًا ما كانوا يوفّرون المساعدات لأمراء مكّة حتى لا يتعرّضوا لتجّار الكارم في موسم التّجارة في فترة الحجّ[١].

أمّا بخصوص نشر الأمن، وتأمين قوافل الكارم في بلاد النوبة، حيث كانت تمثّل أحد الموارد المهمّة وطريقًا لتجارة الكارم، خصوصًا عندما هاجم داود ملك النوبة عيذاب سنة ١٢٧٢/٦٧٠، لسلب تجّار الكارم، ثم انتهز فرصة انشغال السلطنة بحروبها مع التتار، فأرسل حملةً أخرى سنة ١٢٧٥/٦٧٤، تعرّضت لتجّار الكارم ما دفع السلطان بيبرس إلى وضع حدّ له، فأرسل حملةً بقيادة الأمير قراسنقر، أطلقت سراح الأسرى، وحملت أمتعة الملك داود وعبيده أسلابًا للسلطان[٢].

كذلك حرص السلطان النّاصر محمّد على مكانة تجّار الكارم، ففي سنة ١٣١٧/٧١٧ هدّدت قبيلة بني كنز، الطريق بين عيذاب على البحر الأحمر، وقوص على النيل، وسيطرت على عيذاب، بل هددت أسوان، وقطعت الطريق على رسول اليمن القادم إلى الأبواب السلطانيّة، وسلبت تجّار الكارم الوافدين على مصر في القافلة نفسها، ما دفع الناصر محمّد إلى تجريد حملة بقيادة الأمير مغلطاي، أقرّت السلام في المنطقة، وأخضعت بني كنز والقبائل التي كانت تهدّد تّجارة الكارم[٣].

ويعدُّ عصر أبناء الناصر محمّد، من أهم مراحل نشاط تّجارة الكارم، نتيجة للظروف الخارجيّة الّتي تمثّلت باضطراب الطريق البرّيّ الأسيوي الّذي كان ينافس طريق البحر الأحمر، فقد ظلّت سياسة مصر المتمثّلة بحماية الكارم مستمرّة لتأمين قوافلها، إذ أمر السلطان الأشرف شعبان في سنة ١٣٦٥/٧٦٦ الشريف عجلان بإلغاء المكوس الّتي يجبيها من تجّار الكارم، كما منعه من تحصيل أيّ مكسٍ على ما يباع في أسواق مكّة، وقد عوّضه عن ذلك بمبلغ مائة وستين ألف درهم، وألف أردب من القمح ترسلها مصر سنويًا، حتى لا يتعرّض للتجّار، وسجّل ذلك في وثيقة وقّع عليها كلاهما[٤].

وعلى الرغم من تحوّل طريق الحجّ منذ سنة ١٢٦٧/٦٦٦ إلى الطريق البرّيّ نحو الحجاز عبر سيناء، فإنّ مدينة عيذاب ظلّت عامرةً كميناء للحطّ والإقلاع، واستمرت السلع الشرقيّة ترد إليها عبر البحر الأحمر وتنقل منها إلى قوص، إلى أن أبطل ذلك بعد سنة ١٣٥٨/٧٦٠ بسبب خراب الصعيد، وكثرة قطّاع الطرق، فاتّجه التجّار إلى موانيء جدّة والطور والسويس. ومع ذلك،

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٢، قسم٣، ص٨٨٨؛ محمد الأشقر، تجّار التوابل في مصر، ص٦٨-٧١.

(٢) محمد الأشقر، م. ن.، ص٧٤- ٧٥.

(٣) المقريزي، م. س.، ج٢، قسم١، ص١٦٢.

(٤) المقريزي، م. ن.، ج٢، قسم٢، ص٣٤٠.

فقد احتفظت عيذاب بعد ذلك التاريخ ببعض أهمّيتها، واختصّت باستقبال الوفود الرسميَّة القادمة من اليمن[١].

لقد أدرك الكارمية أهميَّة اليمن في رحلاتهم التجاريّة بين المحيط الهندي ومصر، لذلك دعَّموا نفوذهم التّجاري والاجتماعي فيها، وتمكّنوا من الوصول إلى أعلى المناصب في حكومة اليمن، فاستوزر ملك اليمن، التاجر الكارمي يحي بن عبد الله بن محمَّد، وبلغ من ثرائهم أنهم كانوا يقرضون سلاطين مصر واليمن، كما كانت لهم شركات تجاريّة ومؤسَّسات ماليَّة، كما دخلوا في مساهمات وشركات لفترة محدَّدة أو لأعمال تجاريَّة معيَّنة، وقد امتلكوا مستودعات كبرى في الموانيء الرئيسيَّة، فضلاً عن أساطيل السفن المملوكة لهم[٢].

وجدير ذكره أنّ اهتمام سلاطين المماليك البحريَّة بالتجارة عبر البحر الأحمر بلغ ذروته في أيَّام السلطان المنصور قلاوون، الّذي ارتبط بعلاقات طيّبة ووثيقة مع حكَّام الأقطار المطلّة على هذا البحر، فبعث إلى يوسف بن عمر ملك اليمن يهاديه ويدعوه إلى التعاون والمودّة. وواصل المنصور قلاوون اهتمامه بتأمين الطرق الّتي كان يسلكها التجّار الوافدون إلى عيذاب من خطر التعرّض لاعتداءات العرب. غير أنّ الخطر الحقيقي الّذي كان يتهدَّد التجّار، كان يكمن في الاشتباكات الّتي كثيرًا ما كانت تنشب بين العرب أنفسهم، حيث تتعرّض التّجارة المارّة بهذه النواحي للنهب والسلب. ففي سنة ٦٨٠/١٢٨٠، دارت في صحراء عيذاب وقعة ضارية بين عرب جهينة اليمنيَّة وعرب رفاعة القيسيَّة، انتهت بسقوط عدد من القتلى من كلا الجانبين، ولجوء الكثير من أفراد القبيلتين إلى صاحب سواكن[٣].

وكان تجَّار الكارم يلجأون إلى السلطان المملوكي لعرض شكواهم، بسبب تصرّفات ملك اليمن السيّئة، حيث يجدون لديه كل استعداد لدعمهم، كما حصل ذلك أيَّام الناصر محمَّد بن قلاوون الّذي وفد عليه جماعة من التجّار الكارمية، سنة ٧٠٤/١٣٠٤، وشكوا من سوء معاملة المؤيّد، ملك اليمن، وإرهاقه إياهم بالضرائب والمكوس، فكتب إليه السلطان يهدّده ويتوعّده، طالبًا إليه الإقلاع عن فعلته، دون أن يلقى منه أذنًا صاغية، بل على العكس، عمد الملك المؤيّد إلى التمادي في ظلمه للتجَّار المصريين ونهب أموالهم[٤].

---

(١) عبد العزيز سالم، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، ص٨٧.

(٢) شوقي عثمان، **تجارة المحيط الهندي**، ص٢٧٠– ٢٧١.

(٤) عبد العزيز سالم، م. س.، ص٩٣.

(٣) أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص٢٠٠ .

وتابع الناصر محمَّد بن قلاوون سياسة أبيه في إحاطة التِّجارة الواردة إلى مصر عبر عيذاب، قوص، القاهرة، برعايته، وتأمين الطريق الَّتي تسلكها من مخاطر التعرّض لهجوم قطَّاع الطرق من العربان، والدليل على ذلك، أنّه عندما هاجم العرب الضاربون في بريّة عيذاب رسل اليمن القادمين إلى مصر، يحملون هديّة ملك اليمن إلى الناصر محمَّد سنة ١٣١٦/٧١٦، لم يتردَّد السلطان الناصر محمَّد، في تأمين طريق القوافل التجاريَّة في عيذاب، وحرصًا على سلامة تّجارة الكارم، قام بتجريد حملتين متتاليتين لتأديب العربان في المكان المذكور، وتطهيره من النهَّابة وقطَّاع الطرق، منعًا لاعتداءاتهم المتكرّرة وترصّدهم للتجّار المسافرين عبر عيذاب إلى قوص.

ظلَّ العرب يعترضون طريق التجَّار والوافدين إلى عيذاب، ففي سنة ١٣٢٠/٧٢٠، عاث العرب فسادًا في ثغر عيذاب، وأقدموا على قتل الشاد المقيم بها، ما دفع السلطان إلى تجريد حملة بقيادة الأمير آقوش المنصوري بهدف معاقبة المفسدين[١].

والرَّاجح أنّ العرب كانوا أكثر خطورةً على الأمن في بريَّة عيذاب من البجُة، واستمرَّت عيذاب رغم كلّ الإجراءات الّتي قام بها النَّاصر محمَّد لتأمين التجارة عبرها، مسرحًا للمعارك.

٢- الوظائف المتَّصلة بتجارة الكارم

حرص المماليك على الاهتمام بشؤون تجارة الكارم، بسبب المصالح التي ربطت تجَّار الكارم بالسلطنة، فقد اهتمّ الحكام بهم، وقدّموا إليهم التسهيلات، حتّى إنهم خصّصوا لخدمتهم بعض الوظائف لرعاية مصالحهم وشؤون التّجارة بين البحرين الأحمر والمتوسط. ولعل أهمها:

– وظيفة ناظر البهار: أو مستوفي البهار والكارم، وهي كما يقول القلقشندي: "وظيفة جليلة، تارةً تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعًا لها، وتارةً تضاف إلى ناظر الخاص وتجعل تبعًا لها، وتارة تنفرد عنها وذلك حسب ما يراه السلطان"[٢]. وقد ارتبطت هذه الوظيفة بتجّار الكارم لكثرة مصالحهم مع المماليك.

– وظيفة مستوفي البهار والكارم: هي عبارة عن إدارة يتولّى هو رئاستها تسمّى إدارة البهار والكارم، وقد وضع المماليك هذه الوظيفة لتتناسب مع توسّع تجّار الكارم ورعاية مصالحهم، ومن واجبات صاحبها مراقبة واردات متاجر الكارم من مستودعاتهم، وأن يلاحظ ويجرّد كل الوارد على أيدي تجّار الكارم من اليمن وعدن وجدَّة إلى مصر[٣].

---

(١) عبد العزيز سالم، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، ص٩٥- ٩٧.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٣٢؛ J.W.Fischel, "The Spice Trade in Mamlûks Égypt", *JESHO*, vol.I, p.161-162.

(٣) القلقشندي، م. س.، ج٤، ص٣٢.

- استدار الكارمي: وبجانب مستوفي البهار والكارم، فقد كان يعاونه موظّف، وهو استدار الكارمي، وكان يطلق عليه أيضًا اسم متحدّث الكارمي أو المراقب. ووظيفة الاستدار أساسًا من وظائف أرباب السيوف، ويتولّى صاحبها الإشراف على بيت السلطان، كما عهد إليه بمراقبة تحصيل الرسوم والعوائد على تجّار الكارم[1].

- مباشر الختم: ومن الوظائف الإشرافيّة الأخرى على تجارة الكارم، وظيفة "مباشر الختم"، وعامل هذه الوظيفة يتولّى ختم البضائع، والختم دليل على استيفائها الرسوم المطلوبة، لضمان استيفاء الرسوم على سلع الكارم الصادرة والواردة، ولمنع الغشّ في السلع، وهناك أختام أخرى تكون دليلاً على نقاوتها، وأنّها مرّت على رقيب فحصها[2].

ثم تصدر البراءة (المخالصة الجمركية)، الّتي يعقبها عمليّة النقل إلى الميناء وشحن السفن، وفي خلال ذلك، يتّصل نائب الإسكندرية ببلاط السلطان لإعلامه بإنهاء الأعمال المطلوبة، وتحديد موعد الرحيل، فإذا جاء التصريح يسمح للسفن بالسفر، ويكون جماعة "مباشري الختم" متواجدين في الجمارك والأسواق[3].

- وظيفة ناظر الخاص: ومنها أيضًا وظيفة "ناظر الخاص"، وهي وظيفة أحدثها السلطان الناصر محمّد عندما أبطل الوزارة[4]. وكان متولّيها يعرف بناظر الخاص الشريف بمعنى أنه يباشر الإشراف على أموال السلطان الخاصة به[5]، كما كان السلطان يوكله في شراء وبيع بعض ما يحتاج إليه[6]. وكان يساعد ناظر الخاص أربعة أتباع:

- استيفاء الخاص: ووظفيته ضبط كلّ ما يرد إلى ديوان الخاص وما يصدر عنه.

- ناظر ثغر الإسكندرية: ومهمّته التحدّث فيما يرد إلى الثغر وما يصدر عنه من أصناف المتجر برًّا وبحرًا، أو ما يصدر عن جهات الثغر، وأخذ المترتّب على ذلك وصرفه.

- ناظر مواريث الخاص: وكانت وظيفته التحدّث في مواريث الخاص، من أسماء الترك وأبنائهم، وتجّار الشرق والكارم ومواريث أهل بلاد الخاص.

- ناظر الكارم: ووظيفته ناظر البهار الكارمي، وهو من التجّار كانت بيده تّجارة البهار مما يجلب من الهند عن طريق ثغور اليمن، فعرف ذلك به. وكان في الأصل من بلاد الكانم

---

(١) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج١، ص ٣٦٦؛ J. W. Fischel,"the Spice Trade in Mamlûks Égypt", *JESHO*, vol.I, p.168.

(٢) المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم٢، ص٤٣٩.

(٣) نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص٤٠٧– ٤٠٨.

(٤) المقريزي، م. س.، ج٢، قسم٢، ص٦٧٠– ٦٧١.

(٥) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج٢، ص٣٦٦.

(٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١١، ص٢٢٠.

الإسلامية الّتي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد في السودان الغربي، فنسب إلى أصله الجغرافي بعد تحريفه إلى الكارم، ثمّ أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التّجارة في مصر [١].

إلا أن متولّي هذه الوظيفة لم يبلغ من جلال القدر ما بلغه في أسرة المماليك الثّانية، حيث أخذت هذه الوظيفة صفةً مهمّةً خلال حكم سلاطينها، ففي عهدها، تولّى ناظر الخاصّ (المتجر السلطاني)، أحد أجهزة السلطنة، وقد كان يتمّ اختياره من بين تجّار الكارم للاستفادة من خبرتهم في إدارة المتجر، كالتاجر الكارمي إبراهيم بن عمر، وبرهان الدين المحلي، في عهد السلطان برقوق وابنه السلطان فرج، والتاجر الكارمي شيخ علي الكيلاني الّذي جهّزه السلطان المؤيّد شيخ سنة ١٤١٣/٨١٦ بخمسة آلاف دينار ليشتري له الفلفل بغرض التّجارة[٢].

وصاحب هذه الوظيفة هو الوزير المقرّب للسلطان. وفي الشؤون الخارجيّة، كان يوكل إليه السلطان أمر مراعاة مطالب التجّار الأجانب وقناصلهم، فيعطي تعليمات على لسان السلطان بمنع الإضرار بهم، وتمكينهم من البيع والشراء من تجّار الكارم بحريّة، والتخفيف من شدّة القيود المفروضة عليهم، ويجوب الأسواق لمراعاة تنفيذ هذا [٣].

ومنها أيضًا وظيفة صاحب الزكاة: وكانت مهمّته جمع الزكاة من تجّار الكارم، إذ كانت قوانين السلطنة تقضي بأن يدفع تجّار الكارم زكاةً سنويّةً في كل موضعٍ يتاجرون فيه[٤].

ومن الوظائف الإداريّة، وظيفة متولّي شهادة الكارم: ومن مهام صاحبها أن يقوم بالشهادة عن تجّار الكارم في مجلس القضاء وإلى جانب هذه الوظيفة، كانت توجد وظيفة المشرف على ما يرد من تجّار الكارم، ومهمّة صاحبها الإشراف على ما يصل مع التجّار من السلع، وهي وظيفة اقتصاديّة[٥].

ومن بين هذه الوظائف الإشرافيّة أيضًا، وظيفة المحتسب: الّذي كان يعمل على منع التلاعب في الأسعار والموازين، أو غشّ سلع الكارم في الأسواق الموسميّة[٦].

وكان يراعى في اختيار المحتسب، أن يكون ذا صرامة في الدين، إذ إنّ سمعة المماليك في الخارج كانت ترتكز على سلامة التعامل في الأسواق الموسميّة، لذا حرصت السلطنة على ألا تتعارض الحسبة مع الأصول التجاريّة المرعيّة تجاه تجارة الكارم، وخصوصًا للأجانب الوافدين،

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٣٣؛ راجع ابن كنان، **حدائق الياسمين**، ص١٧٦.

(٢) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص١١٤– ١١٥.

(٣) القلقشندي، م. س.، ج٤، ص٣٢.

(٤) ابن عبد الظاهر، **تشريف الأيام والعصور**، ص٥٢؛ القلقشندي، م. س.، ج٤، ص٢٠؛ J. W. Fischel, "The Spic Trade in Mamlûk Égypt", *JESHO*, vol.I, p.168.

(٥) محمد الأشقر، م. س.، ص١١٦.

(٦) المقريزي، **الخطط المقريزية**، ج١، ص٤٦٤.

على أساس أن إيرادات الأسواق من تجارة الكارم أصبحت مصدرًا رئيسيًّا لمالية السلطنة. وجرت العادة أن يتولّى هذه الوظيفة أحد العلماء من رجال القلم، وأحيانًا يجمع بين الحسبة والقضاء، إلا أنه كان قد تولاها بعض الأمراء من رجال السيف[1].

ومنها أيضًا وظيفة ناظر الصادر، الّذي يتولّى جباية رسم الصادر على سلع الكارم. وأخرى تسمى ناظر الإسكندرية، يشغلها موظّف كبير يتولّى أمر جباية الرسوم على الوارد[2].

وأخيرًا، استحدث المماليك سنة ١٤٢٥/٨٢٨، وظيفةً سلطانيّةً، يخلع على متوليها ويسافر إلى جدّة بصحبة قوة عسكريّة، ويوجد بها وقت وصول المراكب الهنديّة إليها، وهو المكلّف بجمع الرسوم على بضائع الكارم، وهي وظيفة "نظارة جدّة"[3]، وذلك نتيجةً لتطور تجارة الكارم في البحر الأحمر. وأوّل من عيّن لهذا المنصب، إبراهيم بن المرّة، الّذي سافر إلى جدّة ليستقبل وصول أربعة عشر مركبًا مسوقةً ببضائع الكارم من الهند، فأخذ منها العشر، وعاد إلى السلطان برسباي في القاهرة سنة ١٤٢٥/٨٢٩[4].

وإلى جانب هذه الوظائف، استحدث السلطان برسباي هيئة "تحديد أسعار التوابل"، الّتي بدأت تمارس نشاطها بعد أن أعلن احتكاره للتوابل سنة ١٤٣٢/٨٣٥[5].

وكانت هذه الهيئة تتكون من أربعة من تجّار البنادقة، يختارهم القنصل بهدف تحديد أسعار التوابل الخاصّة بالسلطان، أي توابل الذخيرة الشريفة، وكان يصحب المذكورين والقنصل، مندوب السلطان الخاص، لحضور تقدير أسعار التوابل والبهار المشتراة من السوق بالأسعار الحرّة، وكانت هذه الهيئة لا تنهي مهمتها في مصر قبل أن تصل في الغالب إلى ما يريح الأطراف المعنيّة. وفي أواخر عهد المماليك، أصبح وجود هذه الهيئة غير ذي بال، وأصبح لكل من الطرفين الحريّة في وضع السعر المناسب وتحديد أسعار التوابل[6].

ومن ناحية أخرى، كانت توجد "هيئة القناصل التجاريين"، ومهمّتها الإشراف على تّجارة الكارم. وقد ظهرت الحاجة إليها في تّجارة شرق البحر المتوسط، نتيجة تركّز القناصل في مصر والشام لتغطية تسويق تّجارة الكارم والتّجارة الأجنبيّة وعبورها. ولما كانت ظروف التجّار تحتّم عليهم الإقامة في الموانيء المصريّة لفترة طويلة، أو ممارسة التّجارة في ظلّ القوانين المحليّة، لذا

---

(١) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص١١٦– ١١٧.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج١١، ص٤١٦، ٤١٩.

(٣) محمد الأشقر، م. س.، ص١١٧.

(٤) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٣٢٣.

(٥) محمد الأشقر، م. س.، ص١١٨.

(٦) نعيم زكي فهم، **طرق التجارة**، ص٤٠٧– ٤٠٨.

تحتم وجود هيئة تتولّى الاتصال بين هؤلاء التجّار والسلطات المحليَّة، هذه الهيئة وأفرادها هم "القناصل التجاريون"، وأطلق عليهم أيضًا "المندوبون التجاريون"، ولكل مجموعة تجاريَّة مندوب من هذا النوع يمارس وظيفته بعد موافقة السلطات المصريَّة[١].

وقد بلغ هؤلاء القناصل في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، منزلةً عظيمةً، حيث أصبحوا هيئةً رسميَّةً تمارس إشرافهاعلى تّجارة الكارم والتّجارة الأجنبيَّة. وكان يعاون القنصل، موثّق العقود وترجمان، قد يكون من الوطنيين الذين يتقنون لغة الأجانب، أو أجنبيًّا يتقن لغة السلطنة الّتي يعمل بها. ويحرم على القنصل الاشتغال بالتّجارة أولحساب غيره، أو يعمل مندوبًا لدولة أخرى إلا بإذنٍ من السلطات المحليَّة. ويرشّح لوظيفة القنصل أفراد من الأسر النبيلة، وتجدّد المدن قناصلها سنة بعد سنة، وقد يستقرُّ القناصل ثلاث سنوات، إذا زكّاه مواطنوه التجّار، وكان القنصل ممثلاً لدولته، وكان يُسمَح له بتحصيل رسوم إضافيَّة على التجّار لصالح القنصليَّة[٢].

ولدى وصول القنصل، كان يقدّم نفسه ومعاونيه للسلطان، ليتلقّى تعليمات السلطات المحليَّة، وكان عليه أن يطبّقها بدقّة. وكان للقناصل نوّاب في المدن والموانيء كافّةً، وهم مسؤولون عن مواطنيهم وعن رسوم الجمارك المطلوبة. كما كان القنصل أو نائبه يمثّل مواطنيه أمام السلطات في مجلس القضاء، ويرفع طلبات مواطنيه للسلطات[٣]. وكان القناصل يعقدون معاهداتٍ تجاريَّةً كلّما تولّى السلطنة حاكم جديد[٤].

ومن الرّاجح أنَّ المماليك قد اهتمّوا بهذه الوظائف لخدمة تجارة الكارم في أوّل الأمر، إلا أنه في أواخر عهدهم، كان اهتمامهم بها خدمة لمصالحهم فقط من دون تجّار الكارم.

٣- الرسوم الجمركيَّة

كان لكل ميناء نظام خاص في تعامله مع التجّار والسفن الواردة إليه، وقد قامت الموانيء بدور السوق، إلى جانب كونها موانيء تصدير واستيراد. أمّا عن تحصيل الرسوم من تجّار الكارم في مصر والشام، فمنذ تطوّر مركز مصر في تجارة الكارم بين الشرق والغرب، ظهر نظام المراصد، وهي قوائم الرسوم على الصادرات والواردات، وبوصول سلع الكارم إلى عيذاب، يبدأ دور سلاطين المماليك في تحصيل الرسوم الجمركيَّة. وكانت السلطنة تحصّل الأموال الّتي عرفت باسم المكوس، منذ العهد الفاطمي على متاجر الكارم الواصلة إلى عيذاب، فكان يُفرَضُ على متاجر

---

(١) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج١، ص٢٢٣؛ W. Heyd, *Histoire du commerce du levant*, vol.II, p. 20- 21.

(٢) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص١١٩- ١٢٠.

(٣) محمد الأشقر، م. ن.، ص ١١٨- ١٢٠.

(٤) نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص٣٢٧.

الكارم رسوم مقدارها ١٠%، وقد تصل أحيانًا إلى ٢٥% أو أكثر. ولم يثابر المماليك على نظـام ثابت في تقدير هذه الرسوم، بل كانت تخفَّض أحيانًا إلى أقلّ من ذلك تشجيعًا لتجارة الكارم[1].

وكان يتولّى مهمّة الإشراف على ميناء عيذاب والٍ من قبل سلاطين المماليك، ينظر فـي شؤون تحصيل الرسوم على تّجارة الكارم، وناظر من قبلهم أيضًا، ولقد تعمّد سلاطين المماليك أن يكون لهم نصيب في الإشراف على هذا الميناء، نظرًا إلى ما كان له مـن أهميّـة مـن الناحيـة التجاريّة. كذلك فرض سلاطين المماليك رسومًا على سلع الكارم الّتي تمرُّ بالحجاز في بدر وحنين وبويب والعقبة وجسر الحساء، وذلك بسبب تبعيّة الحجاز لهم، حيث كانت التّجـارة القادمـة مـن الحجاز تخضع للرسوم قبل دخولها إلى الموانيء المصرية[2].

لذلك استحدث السلطان برسباي نظارَة جدّة سنة ١٣٢٥/٨٢٨، وكـان مـن يتـولّى هـذا المنصب مكلّفًا بجمع الرسوم على سلع الكارم، ففي سنة ١٤٢٥/٨٢٩، عاد إبراهيم بن المرّة إلـى القاهرة، ومعه ما تمَّ تحصيله من العُشْر على أربعة عشر مركبًا محمّلة بمتاجر الهند وبلغ قيمة هذا العُشْر سبعين ألف دينار، وهذا أوّل ما أخذ من العُشْر للسلطان برسباي صاحب مصر بجدّة[3].

ومن ثمّ تعارضت مصالح السلطتين المركزيّة والمحليّة (حكّام الحجاز) في أحقّية كلٌّ منهما في هذا المورد المالي، فأصدرت السلطنة مراسيم بتنظيمات ماليّة جديدة تحقّق بها منفعتها الخاصّة. وقد تضرَّر التجّار من هذه الزيادة، فعاد أغلبهم إلى عدن سنة ١٤٣٣/٨٣٧، واضطرَّ برسباي إلى التخفيف عنهم[4].

ويلاحظ أنه منذ بداية العصر المملوكي، كان سلاطين المماليك يعملون على حماية تجّـار الكارم من الرسوم غير الشرعيّة الّتي تفرض عليهم في الحجاز، والّتي كانت تمنع تجّار الكارم من الذهاب إلى الحجاز، فقد تمكّن سلاطين المماليك من إلغاء بعض هذه الرسوم نظير تعويض سنوي يدفع للأشراف من حكّام الحجاز، وقد بدأ ذلك أيام السلطان بيبرس سنة ١٢٦٩/٦٦٧، الّذي كـان يدفع مائتي ألف درهم سنويًا لقاء عدول أمراء مكّة عن تحصيل الرسوم على أموال التجّار الواردين مع قوافل الحجّاج. وبعد موت بيبرس، عادت هذه الرسوم من جديد، وكانت هذه الرسوم تصل إلى خمسين درهمًا عن الجمل في القافلة المصريّة، وثلاثين درهمًا عن الجمل في القافلة اليمنيّـة سـنة

---

(١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣ ، ص ٤٥٩- ٤٦٠؛ محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص ٢٢٨، ٢٣١.

(٢) محمد الأشقر، م. ن.، ص٢٣٢- ٢٣٣.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم٢، ص ٣٧١.

(٤) المقريزي، م. ن.، ج٢، قسم٢، ص ٤٨٠؛ الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص٣٠٣.

١٢٨٦/٦٨٣. وقد أبطل السلطان الناصر محمَّد بن قلاوون سنة ١٣١٩/٧١٩ المكوس من الحرمين، وعوَّض عنها أميري مكّة والمدينة إقطاعًا بمصر والشام[١].

وكان تجّار الكارم يدفعون مكوسًا غير الرسوم التي يؤدّونها في المراكز الّتي يمرّون بها، بيد أنّ هذه المكوس لم يكن لها صفة الدوام، بل كانت تفرض لمواجهة خطر طارىء كهجوم خارجي، كما حدث في أيّام السلطان قطز الّذي فرض مكوسًا استثنائيّةً على تجّار الكارم بعيذاب سنة ١٢٥٩/٦٥٨، حتّى يتمكّن من التصدي للتتار[٢].

٤- السلع الكارمية

عُرفت مصر بأنها حلقة الاتصال بين الشرق والغرب، لذا أصبحت مركز تجمّع للسلع المتبادلة بين التاجر الكارمي والأجنبي، الأمر الّذي جعل سلع الكارم تصبُّ في القاهرة والإسكندرية والشام لينقلها التاجر الأجنبي إلى أوروبا، فازداد عدد الوسطاء من تجّار الكارم، الأمر الّذي أدّى بدوره إلى رفع سعر السلع، وقد كانت هناك ثلاث مناطق تبادلت منتجاتها فيما بينها عن طريق وسطاء على رأسهم تجّار الكارم، لاحتكارهم تجارة التوابل وسلع الشرق الغالية الثمن، وكانت دول المحيط الهندي أوّل هذه المناطق[٣]. ومن البضائع التي كانت تصدّرها ما يلي:

- التوابل والأفاوية[٤]، كالقرفة والقرنفل والخلنجان والحبّهان وجوز الطيب.
- العقاقير الطبية، كالكافور والعود الهندي والتوتيا.
- العطور والبخور، كعود النّدّ والمسك والعنبر وخشب الصندل واللبن الجاوي.
- موادّ الصباغة، كالنيلة والفرة وخشب البرازيل والصمغ.
- الأحجار الكريمة والمعادن النفيسة، كالفيروز واللازورد والياقوت والعقيق واللؤلؤ والعاج والماس والذهب والفضة.
- بالإضافة إلى سلع أخرى تمثّلت بالمنسوجات الحريريّة والخشب المحلّي والساج والأبنوس والخزف والبورسلين والقاشاني والحديد والنحاس والعبيد.

وكانت مصر تعدُّ ثاني هذه المناطق مرتّبة في تصدير البلسم وخيار شنبر والشب والزمرد والزبرجد والمنسوجات الكتّانيّة والقطنيّة والسكر. أما ثالث المناطق فكانت أوروبا الّتي كانت تقوم

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم٢، ص٥٨١؛ J. Jomier, *Le Mahmal*, p. 210- 211.

(٢) المقريزي، م. س.، ج٢، قسم٢، ص٤٣٧.

(٣) نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص١٨٩، ٢٧٢.

(٤) الأفاوية: من أنواع الشراب المطيّب بماء الورد، مبرّد ومحلّى، عرفه العرب منذ العصر الأيوبي. مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص٣٥.

بتصدير العفص والزعفران واللادن والمرجان والمنسوجات الصوفيَّة والجوخيَّة والحديد والأسلحة والشمع والفراء والملح[١].

أمَّا البضائع الأساسيَّة المصريَّة الَّتي كانت تصدَّر إلى الحجاز عن طريق مينائي جدَّة وينبع، فكانت تتمثَّل بالمواد التموينيَّة الأساسيَّة، كالأرَّز والعدس والقمح والسمن والسكر والشعير والفول والفريك والزيتون والحمّص واللوبية، وكانت هذه الأغراض والمواد ترسل من مينائي القصير والسويس إلى مينائي جدَّة وينبع، ومنهما إلى المدينة ومكَّة.

ونظرًا إلى حاجة سكّان الحجاز بصفة عامَّة إلى الأرَّز كغذاء أساس، فإن الكميَّات الَّتي تصدَّر من مصر إلى الحجاز سنويًّا، تقدَّر بخمسمائة أردب سنويًّا، أمَّا الكميَّات الأكثر، فكانت ترد إلى الحجاز من الهند [٢].

ولم يكن كبار التجّار يقومون بأمور التِّجارة بأنفسهم، بل كانوا يعتمدون على عدد من العمّال لمباشرة شؤون تجارتهم. فالتاجر ناصر الدين محمَّد بن مسلم كان لديه عدد من الحرفيِّين أرسل أحدهم إلى الهند، والثَّاني إلى ساحل الأطلنطي، والثالث إلى الحبشة، وغيرهم إلى جهات أخرى.

ومن أهم البيوتات التجاريَّة الكارمية، آل الخروبي والكوبك. وقد غلب على تلك البيوتات الطابع الأسري، بحيث كان كل جيل يرث نشاط الجيل السابق ومكانته التجاريَّة والماليَّة، فضلاً عن تجربته وخبرته. لذا كان الكارمي يدرِّب أولاده ومن يختاره من عبيده ذوي الفطنة على مباشرة أعماله التجاريَّة.

وقد أدَّى تجَّار الكارمية خدماتٍ عظيمةً لبعض الدول، فأقرضوا ملك اليمن سنة ٧٥٢/١٣٥١ قروضًا ضخمةً، كما أقرضوا سلاطين المماليك لمساعدتهم في تجهيز حملات عسكريَّة[٣].

وكان التجَّار يشكِّلون قوةً ضاغطةً على الحكام، ولا سيّما من خلال إعطائهم قروضًا ماليَّةً لمساعدتهم في دعم التجريدات العسكريَّة. وهذا يدلُّ على أنَّ نفوذ السلطان كان يتأرجح ويضعف أحيانًا، إذا لم يخضع لشروطهم الَّتي قد تكون غير متجانسة مع مصالح البلاد.

٥- دور تجار الكارم في تقديم القروض والخدمات العسكريَّة

ساعد تضخُّم أموال تجَّار الكارم، على تكوين مركز سياسي واجتماعي لهم لا يقلُّ أهميَّةً عن مكانتهم التجاريَّة، خصوصًا عندما قاموا بإقراض السلطنة لتمكينها من الاستعداد للحروب

(١) نعيم زكي فهمي، طرق التجارة، ص٢٠٠.

(٢) طارق بيومي، سياسة مصر في البحر الأحمر، ص٩٢- ٩٣.

(٣) شوقي عثمان، تجارة المحيط الهندي، ص٢٧٢- ٢٧٣.

والقيام بالمشاريع الداخليّة، والدليل على ذلك ما حدث في سنة ١٢٨٨/٦٨٧، على أثر تقديم التاجر الكارمي أبو بكر عتيق قرضًا إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، من أجل ملاقاة الفرنج[١].

جدير ذكره أنّ بعض تجّار الكارم سدّدوا القروض الّتي اقترضها بعض السلاطين من الفرنج، على أن يتمّ تحصيلها منهم فيما بعد. ففي سنة١٣١١/٧١١، سدّد تجّار الكارم مبلغ ستة عشر ألف دينار عن السلطان النّاصر محمّد لتجّار الفرنج[٢].

وفي سنة ١٣٥٢/٧٥٣، اقترض السلطان صالح بن محمّد بن قلاوون، من تجّار الكارم مبلغاً من المال ليستعين به على تجهيز حملة لتأديب بيبغاروس نائب حلب. كذلك تمّ أكبر قرض بين تجّار الكارم والسلطنة، عندما أقرض ثلاثة من تجّار الكارم، وهم إبراهيم بن عمر المحلي، وأحمد بن مسلم، وعلي نور الدين الخروبي، السلطان برقوق في سنة ١٣٩٣/٧٩٦ مبلغ ألف ألف درهم فضة. وقد ضمن محمود بن علي الإستادار وفاء الدّين[٣].

وبذلك ساهم تجّار الكارم في الدعم المالي للسلطنة، واعتبروا أنفسهم مسؤولين إلى حدٍّ كبير عن بقائها[٤]، ما دفع السلطان برقوق إلى أن يخلع على تجّار الكارم الثلاثة الخلع الرفيعة تشريفًا لهم وتقديرًا لفضلهم[٥]. كذلك أقرض التّاجر الكارمي عوض بن موسى البزاز السلطان جقمق مبلغ ثلاثين ألف دينارفي أثناء استعداده لغزو رودس سنة ١٤٤٠/٨٤٤[٦].

وقام تجّار الكارم بتقديم القروض لملوك التكرور واليمن والحجاز، فعندما حضر منسا موسى ملك بلاد التكرور إلى مصر سنة ١٣٢٥/٧٢٥، ونفد ما معه من الذهب، استدان هو ورفاقه من التّاجر الكارمي سراج الدين بن الكويك، لمواصلة رحلته إلى الحجّ[٧].

كما كان ملك اليمن يلجأ إلى تجّار الكارم إذا ما أعوزته الحاجة إلى المال، ففي سنة ١٣٥١/٧٥١، حاول الملك المجاهد علي منافسة سلطان مصر أبي المحاسن بن محمّد بن قلاوون، في الحجاز، إلا أنه وقع أسيرًا في يد الركب المصري، وأفرج عنه في سنة ١٣٥٢/٧٥٢[٨].

---

(١) المقريزي، **السلوك**، ج١، قسم١، ص٧٣- ٧٤.

(٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٩، ص١٣١؛ E. Ashtor, "Débat sur l'évolution économico- sociale de l'Égypte à la fin du moyen âge à propos d'un livre récent", *JESHO*, vol.XII, p.104.

(٣) الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج١، ص٤٤٣؛ ابن تغري بردي، م. س.، ج٦، ص٢٧٧، ٢٨٦؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج١، ص٣٦٦.

(٤) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ص٣٠٢.

(٥) ابن الصيرفي، م. س.، ج٢، ص٢٨٦.

(٦) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص٣٧٠.

(٧) محمد الأشقر، م. ن.، ص٣٧١- ٣٧٢.

(٨) المقريزي، م. س.، ج٢، قسم٣، ص٨٦٧.

كذلك كان أمراء الحجاز يقترضون من تجّار الكارم، على نحو ماحدث في سنة ١٣٨٧/٧٨٩، عندما اقترض علي بن عجلان من تجّار الكارم بسبب سيطرة عنان بن مغامس على جدّة[1].

ويذكر السّخاوي[2] أنّ التّاجر الكارمي حسن بن محمّد المعروف بالطّاهر، كان يقرض أهل الحرمين[3].

واقترض الشريف حسن من تجّار الكارم لخدمة أمراء الحجّ. ويبدو أنّ أمراء الحجاز كانوا لا يردّون هذه القروض.

وقام تجّار الكارم بإقراض تجّار الشام سنة ١٢٨٧/٦٨٧، وذلك عندما حجز السلطان الناصر محمّد بعض تجّار دمشق في القاهرة، وألزمهم بدفع غرامة كبيرة، ورفض إطلاق سراحهم إلا بعد الدفع[4].

أمّا عن دور تجّار الكارم في تقديم الخدمات العسكريّة، فمنهم من قدّم إلى السّلطنة الجند والمال والسلاح[5].

وجدير ذكره أنّ التّاجر الكارمي، ابن رواحة، كانت له قاعات معدّة للسلاح بالإسكندرية، وكان يمكنه أن يجهّز منها المائة أو المائتين من الرّجال وقت الخطر، وقد أبدى مقدرته لأمراء المماليك على ضمان الإسكندرية ودفع مرتّبات الجند والرجال من دون السلطان في سنة ١٣٢٦/٧٢٧، فاتّهمه الأمراء بالثورة على السلطان النّاصر محمّد، وقتلوه في السنة نفسها[6].

وهذا يعني أنّ تجّار الكارم كانوا يقدّمون المال والسلاح للدفاع عن البلاد بهدف المحافظة على مصالحهم وازدهار تجارتهم.

ب- تجارة الكارم في عهد المماليك البرجيّة

بنت السّلطنتان المملوكيّتان الأولى والثّانية قوّتهما وعظمتهما على أساسٍ من التميّز الاقتصادي الّذي حظيت به مصر، حيث كانتا تحقّقان من دور مصر الاقتصادي الوسيط بين تجارة

---

(١) ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٢٤٩.

(٢) السخاوي، شمس الدين محمّد بن عبد الرحمن السخاوي، مؤرخ حجة، وعالم بالحديث والتفسير والأدب. أصله من سخا من قرى مصر ومولده في القاهرة. ساح في البلدان سياحة طويلة، وصنف زهاء مئتي كتاب أشهرها **الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، والإعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ**. ابن العماد الحنبلي، **شذرات الذهب**، ج٨، ص١٥ ؛ الزركلي، **الأعلام**، ج٦، ص١٩٤.

(٢) السخاوي، **الضوء اللامع**، ج٣، ص١٢٧.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ج٢، قسم٣، ص٧٣٩.

(٤) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص٣٧٣- ٣٧٤.

(٥) محمد الأشقر، م. ن.، ص٣٧٤.

الشرق والغرب عبر أراضيهما أرباحًا ضخمةً، وأسهم ظهور المغول في أواسط آسيا وانتشار الصراعات العسكريَّة في هذه المناطق في تحوّل التجارة إلى طريق البحر الأحمر، وتبع ذلك تزايد الأرباح والعوائد والفوائد الاقتصاديَّة لمصر من جرّاء ذلك.

أما بداية التراجع التجاري عن الحالة السابقة، فقد نشأ زمن برسباي، أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة، حين احتكر التّجارة القادمة من الهند وشبه الجزيرة العربيّة عبر البحر الأحمر، وأصدر أوامره بأن تحمل إلى الإسكندرية والقاهرة كلُّ البضائع والتّجارات القادمة من أيِّ جهة عن طريق بلاد العرب أو الشام أو العراق، وذلك لجباية الضرائب عليها لصالحه، إضافةً إلى احتكاره تجارة التوابل الشرقيَّة، وخصوصًا الفلفل، وتوسع في تطبيق نظام الاحتكار حتى داخل مصر، فاحتكر صناعة السكّر[١].

ولم يكتف برسباي بما يحصّل لمصلحته من رسوم جمركيَّة على البضائع من غير السلع الخاضعة للاحتكار، والّتي بلغت العُشْر، إضافةً إلى احتكاره تداول سلع معيّنة كالتوابل، وإنما فرض رسومًا إضافيَّة أخرى على البضائع القادمة عبر طريق عدن. وكثرت الصادرات، وجعل ديوانًا خاصًا في جدّة لهذا الغرض، أطلق على متوليه شاد جدّة، وارتفعت أسعار السلع الشرقيَّة ارتفاعًا باهظًا، ما أدّى إلى احتجاج الجاليات الأجنبيَّة وحكوماتها[٢].

والرّاجح أنّ تلك السياسات الخاطئة من الاحتكار، ورفع قيمة الرسوم الجمركيسة بأسعار مبالغ فيها وزائدة إلى حدٍّ كبيرٍ، أدّت في نهاية المطاف إلى دفع الحكومات الأوروبيَّة إلى البحث عن طرق جديدة للوصول إلى الهند عبرها، وهذا ما انتهت إليه الكشوف الجغرافيَّة.

وإذا كانت السياسة الاحتكاريَّة الّتي اعتمدها سلاطين المماليك البرجيَّة قد وفّرت لهم في بادىء الأمر موارد ماليةً ضخمةً، إلا أنها لم تكن، على المدى البعيد، في صالحهم، ولا في صالح الاقتصاد المملوكي، إذ أدّت هذه السياسة إلى انهيار تِجارة الكارمية الّتي كانت ركيزةً أساسيَّة للتجارة المملوكيَّة، لما امتاز به تجّارها من خبرات واسعة، وثروات كبيرة، وعلم ومعرفة في ميدان التجارة الخارجيَّة، ما جعلهم موضع ثقة واحترام الشعوب الّتي تعاملوا معها[٣].

ثانيًا- المحطات التجاريّة في الحجاز في العصر المملوكي

حظيت مصر بموقع جغرافي، كان له عظيم الأثر في مكانتها ومركزها وعلاقاتها بالعالم، وعلى الرغم ممّا كان لحركة الكشوف الجغرافيَّة واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في أواخر

---

(١) عبد الحميد سليمان، **الموانىء المصرية في العصر العثماني**، ص ٣٨- ٣٩.

(٢) عبد الحميد سليمان، م. ن.، ص ٣٩- ٤٠.

(٣) أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص ٢٠٨.

القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي من آثار سلبيَّة على دور مصر في إدارة النشاط الاقتصادي التجاري العالمي، إلا أنها بقيت تساهم في حركة التجارة العالميَّة[١].

وقد أدَّت الطرق التجاريَّة الَّتي كانت تربط القاهرة بالعالم الخارجي دورًا كبيرًا في تنشيط حركة التجارة الخارجيَّة، ومن أبرز هذه الطرق: طريق البحر الأحمر الَّذي ربطها بالحجاز واليمن والهند، وطريق المغرب الَّذي ربطها بدول شمال أفريقيا. ولاشك في أن وجود هذه الطرق قد فتح آفاقًا واسعةً أمام تجّار القاهرة، وشجَّعهم على زيادة حجم التبادلات التجاريَّة[٢].

ومن أشهر الطرق البحريَّة المرتبطة بالحجاز:

طريق بحريّ يمتدُّ من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر، وله فرعان يأخذ أحدهما جهة الشمال، ويعبر سيناء إلى دمشق حتّى يصل موانىء البحر الأبيض المتوسط، وفرعه الآخر يتَّجه عبر صحراء سيناء إلى النيل فالقاهرة، ومنها إلى الإسكندريّة، ومنها إلى أوروبا[٣].

وطريق آخر ينطلق من الصين بحرًا إلى الهند متَّحدًا مع طريق الخليج العربي والطريق السابق الممتدّ من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر، ويقع على هذا الطريق عدة موانىء صينيّة وهنديَّة، من أشهرها خانفو (كانتون)، وزيتون، وكينساي بالصين.

وقد وصلت السفن الصينيَّة عبره إلى جدَّة في البحر الأحمر، ما أدَّى إلى تعزيز التبادل التجاري بين العرب والصين والهند حتى أوائل القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وازدادت رحلات العرب التجاريَّة إلى الصين[٤].

وتكاثر عدد التجَّار العرب إقبالاً على التجارة الشرق آسيويَّة، واتَّخذوا من خانفو قاعدةً لتبادلهم التجاري، منطلقين من مراكزهم الأساسيّة على الخليج العربيّ، ومن ثمَّ انتقل النشاط إلى البحر الأحمر مباشرةً، حيث أصبحت موانىء البحر الأحمر تتّصل مباشرةً بموانىء الصين، فكانت المراكب العربيّة تنطلق محمّلةً بالمنسوجات الحريريَّة والكافور والمسك والتوابل[٥].

وامتدادًا لهذا الطريق البحري عبر البحر الأحمر، كانت هناك عدة طرق من الناحية الأفريقية، فقد كان طريق عيذاب على ساحل البحر الأحمر الأفريقي يصل إلى قوص، ومنها إلى فندق الكارم بالفسطاط في نهر النيل، وكذلك طريق القصير في جهة الشمال من عيذاب، وكانت تصل إليه بعض المراكب لقربه من قوص، ومنها تنقل البضائع إلى قوص، ثمَّ فندق الكارم

---

(١) عبد الحميد سليمان، **الموانئ المصرية في العصر العثماني**، ص ١٧– ١٨.

(٢) سليمان حسانين، **تجّار القاهرة**، ص ٢٠٩.

(٣) نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص ١٦١– ١٦٢.

(٤) نعيم زكي فهمي، م. ن.، ص١٦١– ١٦٢.

(٥) نعيم زكي فهمي، م. ن.، ص ١٦٢.

بالفسطاط، ثمّ في نهر النيل إلى موانىء البحر المتوسط (الإسكندريّة ورشيد ودمياط)، وطريق ثالث يعرف بطريق الطور، وهو ساحل جانب الرأس الداخل في بحر القلزم بين عقبة أيلة وبرّ الأراضي المصريّة، ومال إليه أصحاب السفن لقربه من برّ الحجاز، وكثرة المراسي فيه.

وطريق رابع هو طريق السويس بالقرب من بلدة القلزم، وهو أقرب السواحل إلى القاهرة والفسطاط[١].

وأصبحت بذلك منطقة الحجاز بموانئها ومدنها المقدّسة مستقطب التجارة الشرقيّة، وصارت مكّة والمدينة أسواقًا تجاريّةً، وكذلك تحول موسم الحجّ موسمًا تجاريًا كبيرًا للمسلمين.

أمّا أهمّ المحطّات التجاريّة بين الحجاز والمماليك فهي:

أ- مكّـة

لا شك في أن للطرق علاقةً وثيقةً بالعوامل الاقتصاديّة، إذ يتوقف ازدهارها على حال تلك الطرق وورود الميرة ووصول الحجّاج، لذلك لا بدّ من التطرق إلىأحوال الطرق المؤدّية إلى مكّة، إذ تعتمد مكّة في حياتها على الحجّاج بالدرجة الأولى، ثمّ على الميرة الّتي تأتيها من الخارج. فقد كانت مكّة مركزًا لتجارة الكارم الواردة بطريق البرّ من عدن وجدّة والشام، ومنفذها إلى البحر الأحمر ميناء جدّة، وكان الطريق البرّي بمكّة تحرسه الدوريّات لوقوع معظمه في نطاق سلطنة المماليك[٢].

وكان يصل إلى مكّة، علاوةً على سلع الهند وشرق أفريقيا، سلع أوروبا من مصر ودمشق. وكان يردها أيضًا ما لا يقل عن ثمانين ألف جمل عندما تصل سفن الهند إلى عدن، ويتمّ دخول معظم السلع إلى مكّة في مواسم الحجّ [٣].

وفي سنة ١٣٨٧/٧٨٩ جاءت جماعةً من السرو بقافلة شعير، لكن الشريف عنان قطع عليهم الطريق، ومنعهم من الوصول إلى مكّة حتّى يدفعوا إليه نصف ما معهم، ولكنهم عرضوا عليه أن يدفعوا إليه ربع ما معهم فامتنع، ثمّ قدموا له الثلث فرفض، فتحايلوا عليه إلى أن صاروا في مكان حصين بين تلك الجبال، فحاربوه ومن معه. ولمّا وصل الخبر إلى مكّة، أرسل الأمير قرقماش أمير المحمل المصري جماعةً من الترك بصحبة علي بن عجلان، فتمكن جماعة السرو

---

(١) توفيق اليوزبكي، **تاريخ تجارة مصر البحرية**، ص ٧٨.

(٢) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص ٣١٢.

(٣) سليمان الغنّام، **فصول من تاريخ الجزيرة العربيّة**، ص ٩١- ٩٢؛ وليم موير William Muir ، **تاريخ دولة المماليك في مصر**، ص ١٣٦؛ J. Jomier, *Le Maḥmal*, p.209.

من دخول مكّة مع الترك والشريف علي، وباعوا ما معهم، ورخصت الأسعار إلى أن بيع كل ويبة[١] من الشعير بعشرة دراهم[٢].

وفي سنة ١٣٥٦/٧٥٧، نهب الشريف ثقبة قافلة الفقيه البركاتي، وأخذ ما كان مع القافلة من البضائع والقماش[٣].

هذه مجرّد أمثلة لما كان يمكن أن يقع في الطرق ويؤدّي إلى انقطاع الميرة.

أما أسباب قيام بعض الأشراف بمثل تلك الأعمال، فيعود في الغالب إلى خلافات عائليّة حول تولّي إمرة مكّة، واعتقاد البعض أنهم أحق بها ممّن تولاها فعلاً، وقد أدّت تلك الخلافات إلى انفراط حبل الأمن ووقوع اصطدامات مسلّحة بين أبناء البطون الهاشميّة. وكان أمراء الحجّ وسلاطين المماليك كثيرًا ما يتدخّلون لحسم الموقف، وعزل بعض الأشراف، وقيام أمراء الحجّ بتنفيذ أمر العزل.

ب- جــدّة

تقع جدّة على بعد مرحلتين من مكّة، وبين جدّة وعدن نحو شهر، وبينها وبين ساحل الجحفة خمس مراحل. وسمّيت بذلك لأنّها حاضرة البحر، والجدّة من البحر والنهر ما يلي البرّ. فإذا وصلت الباخرة ثغر جدّة، نزل فيها قاصد الحجّ، ومكث يومين أو ثلاثةً يجهّز فيها مؤونة سفره إلى مكّة[٤].

وقد أصبحت جدّة أهم ميناء على سواحل البحر الأحمر في القرن التّاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي؛ وكانت تمرُّ عبرها حركة الحجّاج الرئيسيّة، سواء عند نزولهم على ساحل الجزيرة العربيّة أو في طريق العودة إلى الوطن، وكانت محطَّ إرساء السفن من الهند، وعدن، واليمن، وعيذاب، والقلزم. وكانت جدّة تعدُّ المنفذ التّجاري الذي يزوّد مكّة بما تحتاج إليه .

وكان ميناء جدّة يستقبل الحجّاج القادمين بطريق البحر، فكانت أسواق جدّة تزدهر في موسم الحجّ، كما أنّ التّجّار القادمين من بلاد الأندلس والمغرب، كانوا إذا لم يتوافر لهم النجاح في مصر والشام، توجّهوا بتجارتهم إلى جدّة، ووجدوا فيها السوق الرائجة لتجارتهم. وقد ساعد على

---

(١) ويبة: من المكاييل، قدره أربعة وعشرون مدًّا. مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص ٤٤٤.

(٢) ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**، مج٩، ج١، ص ٢١- ٢٢.

(٣) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٥٨٤.

(٤) الحربي، **المناسك**، ص ٦٥٥؛ ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ١٥٣؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٢، ص ١١٤ – ١١٥؛ الفاسي، **شفاء الغرام**، ج٢، ص ٧٥؛ القرماني، **أخبار الدول**، ج٣، ص ٣٤٨؛ محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ٧٠؛ علي فكري، **خلاصة الكلام**، ص ٣٠٩؛ H. K. Zadeh, *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque*, p.19.

ازدهار هذا الميناء، ما ينسب إلى حكّام اليمن من سوء معاملة التجّار، ففي سنة ١٤٢٥/٨٢٩، قدم من المراكب الهنديّة إلى جدّة أكثر من أربعين مركبًا، تحمل أصناف المتاجر والسلع، ويعبّر ذلك عن المعاملة الطيّبة التي كان يعامل بها التجّار في هذا الميناء، وشعورهم بالاطمئنان والراحة، بخلاف ما كانوا يلقونه ببندر عدن. وقد اتخذوا بندر جدّة عوضًا عنه، فاستمرّ بندر جدّة عظيمًا، وبالمقابل تلاشى دور بندرعدن نتيجة الفرق بينهما في طريقة معاملة التجّار. وقد بلغت العشور التي يأخذها المماليك في تلك السنة على الوارد إلى جدّة نحو سبعين ألف دينار، كما بلغت في زمن برسباي مائتي ألف دينار، ما جعل سلاطين المماليك وأمراء مكّة من الأشراف يدخلون في عدّة صراعات بسبب عشور هذا الميناء ومكوسه[1].

والرّاجح أنّ جدّة أصبحت مركزًا تجاريًا مهمًّا، وخصوصًا بعد تحوّل البواخر من ميناء عدن إلى جدّة. ولقد اهتمّ أشراف مكّة بجدّة لقربها من مكّة، ولمركزها المرموق في تجارة الكارم، علاوة عن أهميّتها كبوّابة الحجاز للوافدين إليها من مصر وبلاد السودان والمغرب.

ج- ينبع

ومن الموانيء التي أسهمت في تجارة البحر الأحمر خلال العصور الوسطى، ميناء ينبع، وهو ميناء كبير كثير العمائر والأسواق له بندر. وكان له أمير يتبع سلطان مصر، ونشطت ينبع حتّى أصبحت من موانيء الحجاز الرئيسيّة سنة ١٢٢٤/٦٢١، إذ جعلها الأيوبيون ميناءً للمدينة، كما كانت ينبع أيضًا محطّةً على الطريق البرّي لتجّار الكارم الذي يبدأ من القاهرة إلى السويس، ثم ينتقل منها تجّار الكارم إلى العقبة، وينزلون إلى البرّ، فيمرّون بينبع في طريقهم إلى المدينة ومكّة، حيث ظلّ هذا الطريق معتمدًا في مجال تجارة الكارم زمن سلاطين المماليك[2].

وساهم هذا الميناء في تجارة البحر الأحمر، حيث كانت ترد إليه السفن بالغلال كلّ سنة. وبلغت ينبع أوج ازدهارها زمن سلاطين المماليك الجراكسة، وذلك نتيجة الإصلاحات الكثيرة التي أدخلت على طريق الحجّ، ما أدّى إلى تدفّق الحجّاج؛ فكانت ينبع محطةً بريّةً وبحريةً في آن واحد لحجّاج مصر والشام، وشهدت ينبع ازدهارًا عظيمًا، فقد بلغت الضرائب المحصّلة من التجارة في كلّ سنة حوالى ثلاثين ألف دينار. وكان سكانها يتعاطون التجارة زمن الحجّ. وكان التجّار القادمون من مصر وجدّة والمدينة، خلال تدفّق الحجّاج، أكثر من تجّار ينبع. وكانت تصدّر التمور والأصداف على أنواعها. وظلّت ينبع مزدهرةً كمحطّة بريّة للقوافل، وبحريّة للسفن، طوال القرن

---

(١) الحميري، **الروض المعطار**، ص ١٥٧؛ سليمان الغنام، **فصول من تاريخ الجزيرة العربيّة**، ص ٩٢؛ نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص ١٣٩؛ يغيم ريزفان، **الحجّ قبل مئة سنة**، ص ١٧٩.

(٢) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص ٣١٤.

التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، لحين حول البرتغاليون التجارة الدولية، نحو رأس الرجاء الصالح مع بداية القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي[١].

والرّاجح أنّ ينبع صارت الميناء الثّاني في الحجاز بعد جدّة، إلا أنّ الصراعات السياسيّة بين المماليك والأشراف في ينبع ساهمت في الحدّ من دور ينبع، خصوصًا السنوات الأخيرة من حكم المماليك في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

د- القاهرة

كان لها أهميّة كبرى لوقوعها عند التقاء الطرق التجاريّة، حيث بقي التنافس شديدًا بين القاهرة والإسكندرية في بيع سلع الشرق وبضائع الغرب وتوزيعها حتى نهاية العصور الوسطى، ولكنّ القاهرة ظلّت نقطة تجميع الموادّ ومركز توزيعها شرقًا؛ للسلع الغربيّة، وغربًا للبضائع الشرقيّة والمحليّة، نظرًا لتوسط مركزها، وافتتحت بالمدينة أحياء معيّنة خصّصت لتجارة التوابل والعطور، وكان للتجّار فيها مخازن وقياسر، ووكالات، وأماكن خاصة لدوابّهم، ولا سيّما الوافدين من الشام، أو بلاد العرب، أو السودان، وأحيانًا من فارس[٢].

هـ- الإسكندرية

كان للإسكندرية، بحكم موقعها على البحر المتوسط، مرسى عظيم، حيث قال ابن بطّوطة: لم أر في مراسي الدنيا مثله[٣]. ويرد إليه التجّار برًّا وبحرًا، ويجلبون إليه البضائع، فكانت الإسكندرية زمن سلاطين المماليك هي الّتي تحدّد أسعار السلع للعالم[٤].

وكانت الإسكندرية تفوق القاهرة في اتّصالها بأوروبا مباشرة، وتزدحم طوال السنة بالأجانب الوافدين إليها للتّجارة، أو للعبور في سيناء وفلسطين إلى الدّيار المباركة للحجّ. وكانت تزخر بمعامل النسيج التي تحوّل قسم منها في مطلع القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي إلى حساب المتجر السلطاني[٥].

والرّاجح أنّ الإسكندرية كانت تعدّ ميناء مصر الأوّل زمن العصر المملوكي الجركسي.

---

(١) سليمان الغنّام، **فصول من تاريخ الجزيرة العربيّة**، ص٩٣؛ نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص١٤٠؛ يغيم ريزفان، **الحج قبل مئة سنة**، ص١٧٧.

(٢) نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص ١٢٧– ١٢٨؛ J. Jomier, *Le Maḥmal*, p.209.

(٣) ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ٩.

(٤) محمد الأشقر، **تجار التوابل في مصر**، ص ٣٢٧.

(٥) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص ٤٠٤؛ نعيم زكي فهمي، م. س.، ص١٣٠.

و- الطــور

يقع جنوبي غربي سيناء، وكانت السلع تأتيه من عدن وجدَّة بــالقوارب. واعتبــارًا مــن سنة ١٣٥٩/٧٦٠، أصبح للطور أهميَّة ملحوظة، بعد أن تحوَّلت السفن عن مرفأي عيذاب والقصير نحو ميناء قوص، ثمَّ أصبح مركزًا جمركيًا للسلع الآتية من الهند. وكانت السلع تنقل من ميناء جدَّة بحرًا إلى ميناء الطور، فازدهرت الطور بازدهار جدَّة، وأصبحت الميناء المصري الرئيســي فــي البحر الأحمر، وسوقًا يتجمَّع فيه التجّار(١).

وظلَّ الطور على هذا النحو من الأهميّة والازدهار حتّى نهاية العصور الوســطى، حــين انتشر الأسطول البرتغالي في مياه الهند، وسدَّ مدخل البحر الأحمر(٢).

وقد أخذت قوافل الكارم البحريَّة تتَّجه من عدن إلى الطور أو السويس أو من جــدَّة علــى سفن صغيرة، بعد انهيار عيذاب في سنة ١٤٢٧/٨٣١(٣).

ز- عــدن

تشكِّل عدن مدخل البحر الأحمر الجنوبي، وأكبر المراكز التجاريَّة، ويتمُّ فيها تبادل الســلع الشرقيَّة والغربيَّة. وعدن تتبع لملوك اليمن الّذين كانوا يظهرون التعسف مع سفن التجّــار أحيانًــا، فمنذ ازدهار طريق البحر الأحمر التجاري في القرن التاسع الهجري/الخــامس عشــر المــيلادي، وسياسة المماليك قائمة على تحطيم المركز التجاري لعدن، وإحلال جدَّة محله؛ لذلك حذَّروا الســفن التجاريَّة، من الرسوّ في عدن، وحرَّموا على تجَّار مصر والشام دخول الميناء، كما خفَّضوا الرسوم الجمركيَّة في موانيء جدَّة، وينبع، وفرضوا رسومًا عاليةً على السفن الّتي يثبت أنها تمرُّ بعدن، أو ترسو فيها. وكانت تعتمد من عدن أحيانًا الطرق البرّيّة، عبر بلاد العرب المارَّة بمــكّة والمدينــة، ولا سيّما في مواسم الحجّ، وهي تتصل بالشام وموانئه(٤).

علمًا بأنَّ ملوك اليمن كانوا يسيئون معاملة التجّار الوافدين، فلم يكتفوا بما يفرضونه عليهم من ضرائب باهظة، بل كانوا يعمدون إلى تعطيل قلاع سفنهم الراسية في ميناء عدن حتّى لا تتمكّن من الإبحار، وبعد أن ينتهي التاجر من إنزال بضاعته، ويدفع ما يترتّب عليها من ضرائب، ويبيعها

---

(١) عبد الحميد سليمان، **الموانيء المصرية في العصر العثماني**، ص ٢٤- ٢٥؛ عبد العزيز سالم، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، ص١٠٧.

(٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص ٥٣٧.

(٣) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص ٢٩٤.

(٤) عبد العزيز سالم، م. س.، ص ٣٢؛ نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص ١٣٦- ١٣٨؛ J.Jomier, *Le Maḥmal*, p. 213- 214.

ويتأهَّب للعودة، يطوف مناديًا في أزقَّة عدن داعيًا من له دَيْنٌ أو مال ليطالبه به، وإذا لم يظهر للتاجر دائن يسمح له بالرحيل(١).

لذلك حذَّر سلاطين المماليك في سنة ٨٢٨/١٤٢٥، أصحاب سفن الكارم من الرسوّ بسفنهم في عدن، وطُلِب منهم الرسوّ مباشرةً في جدَّة. وإذا رست السفينة في عدن ضاعفوا عليها الرسوم، بل إنهم كانوا يصادرونها أحيانًا، كذلك حرم سلاطين المماليك سفن البحر الأحمر وتجّار الكارم من التوجّه إلى عدن. ونتيجة لتلك السياسة التجاريَّة التي اتَّبعها المماليك في مصر، قلَّت أهميَّة عدن التجارية بدءًا من النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، خصوصًا أن دورها اقتصر على الوساطة التجاريَّة(٢).

ثالثًا- المنشآت التجاريّة على طريق الحجّ وفي الحجاز في العصر المملوكي

خدمت المنشآت التجاريَّة الّتي قامت في مصر منذ الفتح الإسلامي حركة التجارة الخارجيَّة، كما خدمت التجارة الداخليَّة أيضًا؛ فكانت سلع الكارم تجلب إلى هذه المنشآت، كالوكالات والخانات والقياسر(٣). وقد اهتمّ سلاطين المماليك بالأسواق والمنشآت التجاريَّة، وعملوا على النهوض بها لتحقيق الأغراض الاقتصاديَّة الّتي قامت من أجلها، كما أنّ بلاد الحجاز استحوذت على القسط الأكبر من نشاط التجّار في مجال التجارة الخارجيَّة. وقد قامت الأسواق في مدن مصر وتطوَّرت. وقد عرفت مصر في زمن سلاطين المماليك أنواع من الأسواق خدمت تجارة الكارم، منها: الأسواق الموسميَّة والأسواق السنويَّة(٤).

- الأسواق

الأسواق جمع مفردها سوق، موضع تباع فيها البضائع والسلع. وقد عرّف ابن منظور السوق فقال: موضع البياعات. وتسوّق القوم إذا باعوا واشتروا. ويقال سويقة: أيّ تجارة، وهي تصغير السوق، سمِّيت بها لأنّ التجارة تجلب إليها وتساق المبيعات نحوها(٥).

والأسواق الموسميَّة، كانت تعقد في مصر والشام وجدَّة ومكَّة، وتخضع في ذلك لمواعيد هبوب الرياح الموسميَّة، ووقت ورود التوابل من الهند والصين. وفي الوقت نفسه، كانت السفن الأوروبيَّة تصل من الغرب لحملها في مواعيد ثابتة. ويفهم من المصادر، أنّ التجّار الأجانب كانوا

---

(١) أحمد حطيط، **قضايا من تاريخ المماليك**، ص١٩٩.

(٢) سليمان حسانين، **تجّار القاهرة**، ص٢١٥؛ محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص٣١٠- ٣١١.

(٣) القياسر: قياسر: مفردها قيسارية: الخان الكبير الذي يشغله التجار والمسافرون، قد يشتمل على سوق مسقوفة، معروف من العصر المملوكي. مصطفى الخطيب، **معجم المصطلحات**، ص٣٥٧؛ R. Dozy, *Supplément aux Dictionnaires Arabes*, vol.II, p.432.

(٤) سليمان حسانين، م. س.، ص٢٢٩، ٢٣٢؛ محمد الأشقر، م. س.، ص١٩٩- ٢٠٠.

(٥) ابن منظور، **لسان العرب**، ج٦، ص ٤٣٥- ٤٣٦، "السوق".

كثيرًا ما يتذمّرون بسبب إجبار عمال الجمرك لهم على الرحيل قبل شراء كلّ ما يلزمهم، لذا طالبوا بمدّ فترة الأسواق الموسميّة. وقد أجيبوا إلى طلبهم في كثير من الأحيان. وكانت العادة أن تتمّ في هذه الأسواق صفقات البيع؛ فقد كان ورود التوابل بكميّات هائلة في العصر المملوكي سببًا في اتساع نطاق المعاملات التجاريّة، وكان من أهمّ مراكز البيع، سوق خان الخليلي، وكان الدلاّل مكلّفاً بالإعلان عن السلع وإرشاد من يريد إلى مكان البيع[1].

أما عن الأسواق السنويّة، فكانت محليّةً وعالميّةً، واشتهرت بها مدن العصور الوسطى وموانئها عامّةً في الشرق والغرب، وكانت تعقد في مناسبات معيّنة؛ ففي مكّة والحجاز وجدّة، كانت تعقد في مواسم الحجّ، حيث يصلها أعداد كبيرة من تجّار الشرق والغرب أثناء وصول بضائع الشرق الأقصى، فيقبل على شرائها حجّاج وتجّار مصر والشام وغيرهم. وقد كان الحجّاج والتجّار يسيرون مع المحمل المصري ومعهم بضائعهم إلى الحجاز، ويعودون ومعهم بضائع الكارم. وكانت مكّة تصلها التّجارة الواردة عن طريق جدّة بحرًا أو برًا في موسم الحجّ، حيث تُعَدُّ مركزًا لتجارة الكارم الواردة بطريق البحر من عدن، وكان يصل مكّة في مواسم وصول السفن الهنديّة إلى عدن ما لا يقل عن ثمانين ألف جمل حدّد وصولها في مواسم الحجّ[2].

أ- الأسواق على طريق الحجّ المصريّ في العصر المملوكيّ

كان للحجّ المصري في العصر المملوكي أسواق تنصب عند منازله، ابتداءً من بركة الحج، أوّل منازل الحجّ المصري، ومرورًا بأيلة (العقبة) إلى الحجاز، إذ كان يفد إلى أيلة بعض حجّاج جنوب الأردن، وحجّاج فلسطين، ومصر وشمال أفريقيا والأندلس، فكان يعقد لهم أسواق تجاريّة كبيرة، عُدّت من أضخم الأسواق الموسميّة الّتي نشرت للحجّاج في تلك المناسبة، حيث كانت أعداد الركب النازلة في هذه المدينة قد وصلت في العصر المملوكي إلى ثمانين ألف راحلة من الجمال، عدا الحيوانات الأخرى، ما يدلُ بوضوح على ضخامة تلك الأسواق الّتي كانت تقام في هذه المدينة؛ إذ يقصدها التجّار من غزّة، والكرك، والشوبك، والقدس، والطور، وغيرها من الأنحاء.

وكان يصلها من غزّة الدبس والدقيق والشعير والزيت وغيرها من السلع، ومن الكرك والشوبك والقدس مختلف أنواع الثمار، مثل الزبيب واللّوز والرمّان والعنب والتفّاح والجوز وغيرها من البضائع، علاوةً على الجبن الخليلي والكركي.

كما كان يفد إليها البدو، جالبين الإبل والغنم والسمن والعسل والعلف للدوابّ، كل ذلك من أجل البيع والشراء.

---

(١) نعيم زكي فهمي، **طرق التجارة**، ص ٢٨٣- ٢٨٤.

(٢) محمد الأشقر، **تجّار التوابل في مصر**، ص ٢٠٣- ٢٠٤.

وفي الغالب، كانت تلك الأسواق تستمرُّ ما بين يومين إلى خمسة أيّام، بحسب إقامة الحجّاج في أيلة. وقبيل رحيل الركب عنها إلى حقل، كان الحجّاج يودعون أثقالهم وبضائعهم في أيلة إلى حين رجوعهم من أداء فريضة الحجّ[1].

ب- الأسواق على طريق الحجّ الشامي في العصر المملوكي

في أواسط العهد المملوكي، كان الحجّ الشامي يجتمع في دمشق بين صفوفه حجّاج فارس والعراق وحلب وديار بكر، ثمّ يخرج إلى الكسوة، فينزل بها يومًا أو يومين، ليواصل بعدها رحلته إلى الصنمين، ثمّ إلى أزرع، فيقيم بها يومين، ثمّ يرحل عنها إلى بصرى، فينزل الحجيج بها ثلاثة أيّام أو أربعة حتّى يلحق به من تخلّف من الحجّاج بدمشق، فيتزوّد الحجّاج منها، ثمّ يرحل إلى الزرقاء، فيقيم فيها الركب يومين، ثمّ يتجه إلى زيزا، حيث ينزل فيها ثلاثة أيّام أو أربعة، وفي هذه البلدة (زيزا) كان ينتصب للحجيج سوقًا تجاريّة كبيرة، ويشترك في إقامتها تجّار المناطق المجاورة، وبخاصّة تجّار عمّان بسبب قربهم من هذا المنزل. كما كان يفد البدو إلى هذه السوق ليشاركوا في عملية البيع والشراء الّتي كانت تتمّ بواسطة المقايضة، فيبيعون ما لديهم من الغلال والأجبان والبسط والماشية، ويشترون ما يلزمهم من السلع المختلفة.

بعد ذلك، كان الحجّاج يكملون رحلتهم إلى اللجون، فالكرك، حيث يستقرُّون في مكان يعرف بالثنية، خارج الكرك، فيقيمون به عدة أيّام، وينضمُّ إليهم الحجّ الكركي، ثم يسيرون جميعًا إلى الحسا، فيتزوّدون منها، ثمّ ينتقلون بعدها إلى مدينة معان آخر بلاد الشام، وكان الحجيج ينزلون فيها حوالى ثلاثة أيّام، فتعقد لهم خلالها سوق تجاريّة كبيرة كانت تلبّي حاجة الركب من السلع التجاريّة، ثمّ يتجهّز الحجّاج منها لدخول البريّة باتجاه عقبة الصوان، ثمّ إلى ذات الحجّ، ومنها إلى تبوك، وهكذا إلى المدينة المنوّرة، فمكّة المكرّمة[2].

وهكذا يتّضح أنّ موسم الحجّ المصري والشامي لم يكن دينيًّا فحسب، بل كان تجاريًّا أيضًا، حيث اعتاد التجّار مرافقة الرّكب عند خروجه إلى الحجّ، فمثلاً عند خروج الحجّ الشامي من دمشق، كان يصحب معه التجّار، وكان البدو يستغلّون هذه الفرصة الثمينة لمقايضة منتجاتهم، ولا سيّما أنّ أعداد الحجّاج الشاميين القادمين من دمشق قد قدّرت وحدها في العصر المملوكي بين ستة عشر وعشرين ألف حجّ، كانوا يتّجهون في كل سنة لأداء هذه الفريضة؛ ما يدلُّ على الربح الهائل الّذي كان يجنيه أولئك التجّار والباعة والبدو ومن شارك في تلك الأسواق عامّةً.

---

(١) فيصل بني حمد، "الأسواق الشامية على طريق الحج في العصر المملوكي"، **مجلة العرب**، ج٣- ج٤، ص ٢٥٨- ٢٦٠.

(٢) فيصل بني حمد، م. ن.، ص ٢٥٤- ٢٥٥.

وعند عودة قوافل الحجّاج الشاميين من الدّيار المقدّسة بعد أداء فريضة الحجّ، كانوا يصطحبون معهم سلعًا تجاريّةً متنوعةً كالجواهر مثل: الأزورد، إضافة إلى العسجد والورق والنحاس، علاوةً على التوابل والبهارات. وكانت هذه السلع تجلب من الهند والصين إلى جدّة، ثمّ إلى مكّة والمدينة، ومن هناك كانت تنقل بواسطة قوافل الحجّاج إلى الشام.

ج- الأسواق على طريق الحجّ العراقي في العصر المملوكي

المعروف أنّ طريق الحجّ عبر بلاد العراق قد تغيّر عدّة مرّات خلال العصور الإسلاميّة، كما تبدّلت منازله، وأماكن استراحاته، لارتباطه بالأوضاع السّائدة في كل عصر. لكنّ الاهتمام الّذي كانت تلقاه طرق العراق إلى الحجاز، لم يدم طويلاً، لأنّ الحجّ العراقيّ تعطّل مدةً طويلةً عن المسير إلى الحجاز، ولا سيّما في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، والثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، والتاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي[١]. وتلك الطرق الّتي تربط مدن العراق بالحجاز، لم تكن تقتصر على البصرة، أو الكوفة أو بغداد، وإنما كانت تربط أجزاء بلاد الشرق الإسلاميّ جميعًا مع المدن الحجازيّة، فنجد أنّ الحجّاج والتجّار كانوا يأتون من خراسان وفارس وبلاد النهرين عبر طرق عديدة إلى البصرة أو الكوفة، ثم يواصلون السير إمّا برًّا وإمّا بحرًا، ليصلوا إلى المدن الحجازيّة[٢]. وقد أدّى ذلك إلى قيام العديد من الأسواق الموسميّة الّتي خصّصت لتلك المناسبة، ولا سيّما أثناء استراحة الحجيج في بعض المنازل الّتي كانوا يقيمون فيها يومين أو أكثر، وقد شارك في عقد تلك الأسواق أهالي البلاد القريبة من تلك المنازل، كما حضرها البدو الّذين بادلوا بضائعهم بما يلزمهم من تلك السلع التجاريّة. ففي زبالة، كانت هناك سوق عظيمة على طريق الحجّ الكوفي إلى الحجاز يتجمّع فيها الحجّاج[٣]، وفي الثعلبيّة كان يصل إليها جمع كثير من الحجّاج والعرب رجالاً ونساءً، واتّخذوا بها سوقًا عظيمةً تضمّ الجمال والكباش والسمن واللبن وعلف الإبل، فكانت تقام بها سوقًا مزدهرة[٤]. وكان الحجّاج يتجمّعون أيضًا في فيد، وهو نصف الطريق من بغداد إلى مكّة، ومعمور بسكان من الأعراب، ينتعشون مع الحجّاج في التجارات والمبايعات، وغير ذلك من المرافق. وأمّا السمن والعسل واللبن، فلم يبق إلا من تحمّل أو استعمل

---

(١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص ٢٥.

(٢) غيثان بن علي بن جريس، "الطرق التجاريّة والبحريّة المؤدّية إلى الحجاز خلال القرون الإسلاميّة المبكرة"، **مجلة العرب**، ج٧- ج٨، ص٤٥٢.

(٣) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص١٨٥؛ ابن بطّوطة، **تحفة النظّار**، ج١، ص ١٠٨.

(٤) ابن جبير، م. س.، ص ١٨٤؛ ابن بطّوطة، م. س.، ج١، ص ١٠٨.

منها بقدر حاجته [١]. وفي سميراء، كان العرب يتبايعون فيها مع الحجّاج فيما أخرجوه من لحم وسمن ولبن وكانوا يستبدلونها بالثياب، وكان الحجّاج يستريحون فيها يومًا واحدًا [٢].

إنّ إقامة الأسواق التجاريّة على درب الحجّ العراقي ارتبطت بذهاب النّاس إلى الحجّ، وقد توقفت بانقطاع الحجّ. وحدث ذلك أكثر من مرّة، مثلما حدث في سنة ٦٣٩/١٢٤١، إذ انقطع بعدها حوالى عشر سنوات، ثمّ توقّف من سنة ٨١٣/١٤١٠ إلى سنة ٨١٥/١٤١٣، وتوقّف أيضًا سنة ٨٢١/١٤١٨، فلم يذهب الحجّ العراقي إلى الحرمين الشريفين [٣].

وبهذا تكون أهمّية مصر والشام والعراق التجاريّة من العوامل المساعدة المهمّة الّتي ساهمت بقدر وافر في زيادة الحركة التّجاريّة في العصور الوسطى.

د- الأسواق في الحجاز في العصر المملوكي

من الثّابت أنّ نسبةً كبيرةً من التجّار كانوا يفضّلون الذهاب إلى الحجاز بصحبة ركب الحجّ، لما كان يوفّره لهم من الحماية من اعتداءات العربان في أحيان كثيرة، علاوةً على تمتّعهم بالإعفاءات الجمركيّة الّتي كان يتمتّع بها الحجّاج، ناهيك عن أدائهم مناسك الحجّ. وقد حفّز هذا الكثير من التجّار على شراء كمّياتٍ كبيرةٍ من السّلع المتوافرة بأسواق القاهرة لبيعها في أسواق الحجاز، وشراء أنواعٍ مختلفة من البضائع الهندية بدلاً منها ممّا كان يرد إلى الحجاز. وهذا الأمر كان يتطلّب من تجّار القاهرة تأجير أعداد معيّنة من الجمال القادرة على حمل بضائعهم خلال رحلة الذهاب والإياب. وعلى أية حال، فقد شكّلت قافلة الحجّ المصريّة معبرًا رئيسيًّا للتجارة مع الهند وشبه الجزيرة العربيّة، وساهم إعفاء الحجّاج من الرسومِ الجمركيّة في تزايد الدور التجاري الّذي شكّلته القوافل [٤].

وقد تعدّدت الأسواق في الحجاز في العصر المملوكي، وكانت تعرض فيها المنتجات والبضائع المحليّة والمستوردة، وقد انتشرت هذه الأسواق في المدن الكبرى، مثل مكّة، وجدّة، والمدينة.

١- أسواق مكّة

وجدت الأسواق في مكّة زمن الجاهليّة؛ منها: عكاظ، الّتي كانت معرضًا عربيًّا عامًّا أيّام الجاهليّة، بكلّ ما لكلمة معرض من مفهوم، بل كانت مجمعًا أدبيًّا لغويًّا رسميًّا، له محكّمون تضرب عليهم القباب، فيعرض شعراء كل قبيلة عليهم شعرهم وأدبهم، فما استجادوه فهو الجيّد. وحول هذه

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ١٨٣.

(٢) ابن بطّوطة، **تحفة النظار**، ج١، ص ١٠٨.

(٣) الجزيري، **درر الفرائد**، ص ٢٧٧ ، ٣١٩، ٣٢١.

(٤) سليمان حسانين، **تجّار القاهرة**، ص ٢١٠- ٢١١.

القباب يتجمَّع الرواة والشعراء من عامَّة الأقطار العربيّة، فما إن ينطق الحكم بحكمه، حتَّى يتناقـل أولئك الرواة والشعراء القصيدة الفائزة، فتسير في أغوار الجزيرة وأنجادها، وتلهج بها الألسن فـي البوادي والحواضر. وكان يحمل إلى هذه السوق التهامي والحجازي والنجدي والعراقي واليمـامي واليمني والعماني، كل عبارات حيّه ولغة بلاده[1].

وكانت تباع في سوق عكاظ الحراير والأحذيَّة والمسيّر والعدني، يحملها إليها التجَّار مـن مستودعاتها، وفيها من زيوت الشام وزبيبها وسلاحها ما اعتادت قريش أن تحمله أثناء قفولها إلـى مكَّة. وكان يعرض فيها كثير من الرقيق الّذي ينشأ من الغزو وسبي الذراري فيباع فيها بيع المتاع التجاري. وكانت عكاظ معرضًا لكثير من عادات العرب وأحوالهم الاجتماعيَّة .

فهناك خالد بن أرطاة الكلبي زعيم قضاعة يومئذ ومعه قبيلته، وقد جاء لينافر جريـر بـن عبد الله البجلي ومع عشيرته أيضًا، وقد ساق كلٌّ منهما مالاً عظيماً ينافر عليه، وعرضا الحكومـة على رجالات قريش، فأبوا أن يحكموا خوف الفتنة بين الحيّين. وفيها أناس من غواة الشهرة، هـذا يمدُّ رجله وينشد شعرًا ويقول: من كان أعزّ العرب فليقطع رجلي، وآخر يأتي عكاظ ببناته توخّيًـا لزواجهن، وأناس قدموها ليختاروا من يتزوّجون إليه. وفي عكاظ أشياء ليست في أسواق العـرب، فكان ملك من ملوك اليمن يبعث بالسيف الجيّد، والحلّة الحسنة، فيقف وينادي، ليأخذه أعزُّ العـرب، يريد بذلك معرفة الشريف والسيد، فيأمره بالوفادة عليه ويحسن صلته وجائزته[2].

وكانت سوق عكاظ تقام في هلال ذي القعدة، حيث كان السكّان يصبحون بها، ثمَّ يـذهبون منها إلى مجنَّة، بعد مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجَّة تركوا مجنَّة إلى ذي المجاز قرب عرفة، فلبثوا بها ثماني ليال حتّى يوم التروية، فيبدأ الحجّ، وبعد ذلـك يقصـدون عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيَّام منى، فلمَّا جاء الإسـلام، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴿١٩٨﴾ ﴾[3]. يعني منى وعرفة وعكاظ ومجنَّة وذي المجاز، وكانت هذه الأسواق لعكاظ ومجنَّة وذا المجاز قائمةً في الإسلام[4].

---

(١) سعيد الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ٢٧٧.

(٢) سعيد الأفغاني، م. ن.، ص ٢٧٨، ٢٨٠- ٢٨١.

(٣) سورة البقرة، ٢/ ١٩٨.

(٤) الجزيري، درر الفرائد، ص ٦٦- ٦٧.

وقد تحفل عكاظ بالنّاس في شوّال ويتم تقاطرهم إليها في ذي القعدة، الزمن الرسمي للسوق. وحين تذهب جماعاتهم إلى مجنّة في العشرين من ذي القعدة، يتخلّف كثير ممن لم يكن أنهى بيعه وشراءه، فلا يتمّ خلوّ السوق تمامًا إلا في غرّة ذي الحجّة عند اقتراب الحجّ.

وسوق عكاظ أيضًا ندوة سياسية عامّة، تُقضَى فيها أمور كثيرة بين القبائل، فمن كانت له إتاوة على قبيلة، نزل عكاظ فجاؤوه بها، ومن أراد تخليد نصر لحيّه فعل فعل عمرو بن كلثوم، فيرحل إلى عكاظ ويخلّدها فيها شعرًا، ومن أراد إجارة أحد هتف بذلك في عكاظ حتّى يسمع عامّة النّاس، ومن أراد إعلان حرب على قوم أعلنه في عكاظ[١].

وتبدو الصورة واضحةً عن سوق عكاظ، حيث تظهر أهمّ الأحداث الّتي جرت فيها، وقد بقيت هذه الشهرة لسوق عكاظ بعد الإسلام.

وقد جاء على ذكر هذه الأسواق طائفةٌ من المؤرّخين، منهم: الحميري في **الروض المعطار**، فقال: سوق عكاظ قرية، كالمدينة جامعة، لها مزارع ونخيل، ومياه كثيرة، وتقام سوقها يوم الجمعة، فيقصدها النّاس بأنواع التّجارات، فإذا أمسى المساء، انصرف كلٌّ واحد إلى موضعه. وقيل: هي على ثلاث مراحل من تبالة. ومجنّة ماء بإزاء عكاظ، وهي على ثلاثة أميال من مكّة بناحية مرّ الظهران. وهي في الجاهليّة سوق من أسواق العرب مثل "عكاظ، وذي المجاز"، وكان الرسول أوّل مبعثه يأتي هذه الأسواق، يعرض نفسه على القبائل، ويدعو إلى الله تعالى، وأقام على ذلك سنوات، فمنهم من كان يحسن الردّ، ومنهم من كان يسيئه، إلى أن أظهر الله دينه[٢].

وفي مكّة تعدّدت الأسواق، الّتي كان أهمّها سوق سويقة الخاصة بالقمّاشين، وباعة العطور، والبخور، والصناعات المعدنيّة المزخرفة، كأدوات القهوة والأباريق والصحون، الّتي كانت ترد مع التجّار من الهند، بالإضافة إلى سوق الصغيرة، وهي تجاه باب إبراهيم الخاصة بالأطعمة والخبز الّتي يؤتى بها من الأوديّة المحيطة بمكّة، كوادي فاطمة شمالاً، ووادي الليمون شرقًا، ووادي العبيدية والحسينيّة جنوبًا، ومنها ما يجلب بها مع الفاكهة من جهة الطائف وجبل كرا، وفي شرق المسجد سوق الليل وهي سوق كبيرة فيها جميع احتياجات الحجّ. وفي جميع هذه الأسواق تدبُّ حركة لا تنقطع، يجنى من ورائها ربح عظيم[٣].

---

(١) سعيد الأفغاني، **أسواق العرب**، ص ٢٨٢.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مج١، ج٣، ص ٦٢؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، مج٤، ص ١٤٢؛ القلقشندي، **نهاية الأرب**، ص ٤٦٤؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص ٤١١، ٥٢٣؛ السويدي، **سبائك الذهب**، ص ١١٩– ١٢٠.

(٣) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص ٢٠٦– ٢٠٧؛ محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ١٣٥؛ سعد بدير الحلواني، **تجارة الحجاز**، ص ٢٤؛ يغيم ريزفان، **الحجّ قبل مئة سنة**، ص ١٥٠؛ R. B. Winder, "Makka", *EI*$_2$, vol.VI, p.156.

ونالت سوق المسجد الحرام حظوةً كبيرةً من الاهتمام والوصف، وقد عبَّر عن ذلك الرحّالة ابن جبير خلال موسم الحجّ فقال: في أيّام الموسم، عاد المسجد الحرام سوقاً عظيمةً يباع فيها من الدقيق إلى العقيق، ومن البرّ إلى الدر، إلى غير ذلك من السلع. فكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة باب بني شيبة، وتقام معظم السوق ناحية الغرب، وجهة الشرق إلى الشمال من بلاط المسجد[١].

وكانت معظم تجارة مكّة في يد الأجانب، خصوصًا الهنود، وغالبها من صنف السبح والسجاجيد، والأقمشة الحريريّة الهنديّة والشاميّة. أما الأهالي، فأغلبهم يعيش من مهنة التطويف. ولا تروج تجارتهم إلا زمن الحجّ، وما يأتيهم فيه من رزق، يعيشون منه طوال عامهم، غير أنّ كثيرًا منهم كانوا يبرحون مكّة بعد الموسم إلى الجهات التي بها أناس ممن سبقت معرفتهم بهم في الحجّ، فيفدون عليهم ببعض الهدايا، ويعودون وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم[٢].

وبرع في مكّة عددٌ من التجّار منهم: عطيّة بن خليفة الزين المكّي ١٤٢٤/٨٢٧، اعتنى بالتجارة، فتموّل من النقد، وأصناف متاجر البهار وغيره، وكان يكسب في الدرهم ستة أضعافه. ولم يعتن بالزكاة[٣].

ورغب في الإقامة بمكّة التاجر عبد الغني بن محمد القليوبي الأصل القاهري (١٤٦٤/٨٦٩)، الذي سافر إلى هرمز، فدخل بلاد العجم، ثمّ عاد إلى مكّة، وبعدها غادر إلى القاهرة، ليعود مجدّداً إلى أم القرى الّتي قطنها، بل كان متفوقًا في تجارتها، وابتنى دورًا بمكّة، وأنشأ سبيلاً بمنى. وقد تميَّز بسكونه وتواضعه، وتودّده إلى العلماء، والصالحين، وكان كثير البرّ لهم[٤].

ومن الّذين مارسوا التّجارة في مكّة زمن المماليك، حسن بن أحمد التاجر الكبير بدر الدين الصعدي اليمني (١٤٦٦/٨٧١)، الّذي نزل مكّة، ثمّ سافر في التّجارة إلى عدن فالدّيار المصريَّة، وكذلك القصير، وسواكن، ومكّة غير مرة، وعمَّر بها دورًا، واستأجر رباطًا بباب السويقة أحد أبواب المسجد الحرام وشيَّده، ووقف منافعه على الفقراء سنة ١٤٣٩/٨٤٣، وكان متصدّقًا لأهل الحرمين، ومتفوقًا بأمور التّجارة حتّى صار كبير التجّار بمكّة ومرجعهم[٥].

---

(١) ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص ١٦٠؛ إبراهيم أحمد سعيد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة**، ص ١٠٩.

(٢) محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص ١٣٤– ١٣٥؛ فارتيما Varthema، **رحلات فارتيما**، ص ٥٣؛ H. K. Zadeh, *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque*, p. 35.

(٣) السخاوي، **الضوء اللامع**، ج٥، ص ١٤٨.

(٤) السخاوي، م. ن.، ج٤، ص ٢٥٧.

(٥) السخاوي، م. ن.، ج٣، ص ١٢٣.

٢- أســواق جــدَّة

اشتهرت في جدَّة السوق الكبيرة الّتي يملكها الأشراف، وكانت تحتوي على محلاّت تجاريَّة عديدة خصوصًا تجارة الأقمشة وغيرها، بالإضافة إلى مخازن البضائع الّتي كان التجّار يجعلونهـا أمام مكاتبهم، وكان بعضهم يسكن أعلاها. يلي السوق الكبيرة، السوق المعروفة بشارع قابـل، ثـم سوق الحراج، وسوق الندى، وسوق العلوي الّتي تصل إلى باب مكّة، وكان يتجمّـع فيهـا تجّـار الأرزاق والحبوب والسمن وبعض بائعي الخبز والطعام، ثم سوق الجامع الّتـي امتـازت بوجـود المحلات الصغيرة بها والحلاقين. وكانت هناك سوق البدو، وأخيـرًا سـوق الخاسـكية وسـوق الخراطين[١].

وكان سكّان جدَّة يتعاطون التّجارة مع مصر، وسواكن، والهند، واليمن، وأوروبا، وآسـيا. ومن السلع الّتي كانوا يستوردونها: البن، وأنواع العطور، والحنطة، والأرز، والصابون، والسكر، بينما يصدِّرون اللؤلؤ، والصدف، والمرجان، والسمك. وإضافةً إلى صيد السـمك، كـان سـكّانها يعملون في استخراج اللآلىء، والملاحة الساحليّة، وبناء السفن [٢].

والرّاجح أنّ المماليك كانت لهم عائدات ومكوس يحصلون عليها من ناظر جدَّة، وقد كشف هذا الأمر في شهر جمادى الآخرة سنة ١٤٣٣/٨٣٦، عندما توجَّه إسـنبغا الطيـاري إلـى جـدَّة لتحصيل المكوس الهنديَّة، وأرسل معه إبراهيم بن المرة كاتبًا لمزاولة عمله، وعين إسـنبغا شـادًا عليه، وسافر معه جماعة من تجّار قصدوا المجاورة[٣].

ومنذ منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كانت نسبة من عائدات ميناء جدَّة من القيمة الجمركية ترسل إلى مصر، والنسبة المقتطعة تختلف من وقت إلى آخر من ربع إلى نصف من المجموع الكلي. وإذا مات غريب في مكّة دون أن يكون له وريث، كانت ثروته تعـود إلى الشريف. ونصيبه من الإيرادات الشعبيَّة هذه يعادل النصف، ويقوم بـدوره بتوزيعهـا علـى المسؤولين من أسرة الأشراف. ووضعت مع الوقت ضرائب أخرى على الحجّاج، إما عند الوصول إلى ميناء جدَّة، أو في الطريق البرّي إلى مكّة[٤].

---

(١) الحميري، **الروض المعطار**، ص١٥٧؛ سعد الحلواني، **تجارة الحجاز**، ص٢٤؛ H. K. Zadeh, *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque*, p. 22.

(٢) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٢٤؛ يغيم ريزفان، **الحجّ قبل مئة سنة**، ص١٧٩.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص ٨٦٧؛ ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٨، ص ٢٨٥؛ الصيرفي، **نـزهة النفوس**، ج٣، ص ٢٣٢.

(٤) جيرالدي غوري، **حكام مكّة**، ص ١١٩.

وعلى الرغم من هذا النجاح الكبير الّذي أحرزته مدينة جدّة أيّام المماليك، ولا سيّما بعد التخلّي عن عدن وتحوّل السفن إلى مينائها، إلا أنها كانت عرضةً للنهب والكوارث الطبيعيّة والفتن. ففي شهر شوال سنة ١٤٣٦/٨٤٠، نزلت صاعقة بجدّة، فأتلفت شيئًا كثيرًا لبعض التجّار، ومن العجائب أنّ البضاعة المتعلّقة بالسلطان قد سلمت، واحترق أيضًا مركبان بما فيهما من البضاعة. وهلك نحو مائة وخمسين نفسًا، وحصلت فتنة أيضًا بين القواد والأمير جاني بك أمير المماليك، ولم يتوقّف العنف حتّى قدوم الشريف بركات[١].

ومن مظاهر التعسف، أنّ السّلطان كان يعمد أحيانًا إلى احتكار بعض السلع، كما حصل سنة ١٤٦٢/٨٦٧، عندما أرسل السلطان الظاهر خشقدم إلى مكّة مرجانًا كثيرًا، ورمى بمرسوم على التجّار بالثمن الذي يريده، فلمّا خرج الحجّاج، طلب جاني بك نائب جدّة، تجّار مكّة الحضور إلى جدّة لأخذ المرجان المذكور، فأخذوه واقتسموه برضى خواطرهم، وامتنع البعض، وبلغ الخبر بركات شريف مكّة، الذي كان نازلاً بوادي إمبار على مقربة من مكّة، فأرسل بركات كتابًا يقول فيه: من كتب بحق جاني بك محضرًا شنقته[٢].

ولعلّ هذا التصرف الّذي مارسه خشقدم بحقّ التجّار، من تحديد السعر، وفرضه عليهم دون أيّ مبرر، أو حتّى سماع شكوى المعترضين، يكشف مدى سعي سلطنة المماليك للسيطرة على الوضع برمّته، خوفًا من نفوذ التجّار واحتكارهم السلع، أو إقامتهم علاقات مباشرة مع شريف مكّة.

وقد أدّى تفاقم الظلم على التجّار، إلى عدم دخولهم بندر جدّة، وكان حسين نائب جدّة يقبض العُشْر من تجّار الهند، فامتنع التجّار من دخول بندر جدة، فأصبح خرابًا. وتمّ هذا الحدث سنة ١٥٠٠/٩٠٦[٣].

والمرجّح أن فرض المكوس على التجّار، أدّى إلى إضعاف دور جدّة التجاري بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي.

٣- أسواق المدينة

امتازت أسواق المدينة بتجمّعها في شارع طويل يسمى شارع العينية، يبدأ من الساحة الّتي كانت أمام باب السلام، ويمتد إلى شارع المناخة، حيث أقيمت الحوانيت على جانبيه لمختلف أنواع البضائع[٤].

---

(١) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج ٨، ص ٤٢٨؛ ابن الصيرفي، **نزهة النفوس**، ج٣، ص ٣٨٤.

(٢) ابن تغري بردي، **المنهل الصافي**، ج٤، ص ٢٤٤– ٢٤٥.

(٣) ابن أجا، **العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك**، ص ٢١٥.

(٤) سعد الحلواني، تجارة الحجاز، ص ٢٤– ٢٥.

وأشهر أسواق المدينة سوق باب السلام، وتمتدُّ من هذا الباب بالمسجد النبويّ إلى الباب المصري في شارع ضيّق، وكانت الحركة محصورةً تقريبًا بموسم الحجّ، وبهذه السوق الأشياء الثمينة، وتليها سوق البلاط على يسار المتّجه إلى باب السلام، ثم سوق الساحة، فسوق المناخة، وفيها الحبوب، واللحوم، والخضراوات، والفواكه، والأشياء القديمة في مكان يقال له: سوق الحراج[١].

وكانت تجارة المدينة ترتكز على وارداتها الخارجيّة، ولا سيّما واردات الهند، والشام، ومصر، وخصوصًا الأقمشة القطنيّة والصوفيّة والحريريّة، والسبّح، واللّيف الأبيض، والحنّاء، وأثمانها أغلى ممّا كانت في مكّة وفي مصر، وإنما الحجّاج يبتاعونها على سبيل البركة. وكانت المدينة تستورد من فارس وبغداد والبصرة، السجادات والبسط. وتّجارة التمر فيها هي أكبر التّجارات وأوسعها، لأنّ ضواحيها فيها كثير من المزارع والبساتين، وفيها نخيل كثير تنتج نحو سبعين صنفًا من التمر، وأحسنها البلح العنبري، ثمَّ الجلبي، فالسكري، وهو أكثرها حلاوةً، ثمَّ بلح السبح، ويكثر نخله في جهة الخيف بين المدينة والحمراء، وكيفية تجهيزه: هي أن ينظّم في خيط، ثمَّ يلقى به في الماء المغلي زمنًا ما، ثمَّ يجفَّف في الشمس[٢].

هكذا كانت أسواق الحجاز زمن المماليك. وقد أدّت دورها التجاري بنجاح كبير، حيث انعكست آثاره على السلطة والتجّار، وسكّان الحرمين والحجّاج.

وتعاظمت الأعمال التجاريّة، واتّسع نطاقها، لتقوم بتأدية الصدقات للحرمين. ومن الّذين أنجزوا مثل هذا الفعل سنة ١٣٠٣/٧٠٣، عبد العزيز بن منصور الحلبي، وهو تاجر وصل على طريق الصين إلى الحرمين ومعه من الحرير والمسك والفخار الصيني جملة مستكثرة، ومن الأواني المطعّمة بالذهب، ومن المماليك والجواري، شيء كثير، ومن الفضّة والماس خمسة أرطال، زعم أنها صدقة على يديه من تجّار تلك الناحية. فتقرر عشور ما وصل به إلى عدن ثلاثمائة ألف درهم[٣].

---

(١) إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص ٤٤١– ٤٤٢؛

H. K. Zadeh, *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque*, p.83.

(٢) النابلسي، **الحقيقة والمجاز**، ص٣٧٠– ٣٧١؛ إبراهيم رفعت باشا، **مرآة الحرمين**، ج١، ص٤٤٠؛ محمد لبيب البتنوني، **الرحلة الحجازية**، ص٢٤٠؛

B. Winder, "Al-Madîna", *EI_2*, vol.V, p.998.

(٣) الخزرجي، **العقود اللؤلؤية**، ج١، ص ٢٩٠.

ومن الأمور الّتي ساعدت على ازدهار التجارة في الحجاز، أنه في سنة ١٣٦٦/٧٦٧، عمد يلبغا إلى إبطال المكوس من مكّة والمدينة، ورتّب عوض ذلك من بيت المال، ومقداره مائتان وستون ألفاً[١].

وتجدر الإشارة إلى أنّ السلطان برسباي كان متفوقاً سنة ١٤٣٢/٨٣٥ في التشديد على التجّار، وإلزامهم بعدم بيع بضائعهم إلا بإذنه، ثمّ أجبرهم على بيع ما عندهم من الفلفل بسعر خمسين للحمل، فاضطروا إلى الإذعان لهذا المطلب على مضض. وكانوا قد باعوا الحمل من قبل بسعر ثمانين. ثمّ أصدر مراسيم أرسلت إلى بلاد الشام والحجاز والإسكندرية، مفادها أن لا يبيع أحد البهار ولا يشتريه إلا السلطان[٢].

ومن المعروف أنّ التّجارة قد تدرُّ أرباحًا على أربابها، وأحيانًا تعرّضهم للخسارة، وذلك حسب الوكلاء والمعتمدين في الوكالات التجاريَّة الّذين يتولون حلّ المشكلات الّتي قد تنشب نتيجة فرض رسوم جمركيَّة جديدة أو عدم استتباب الأمن. وهذا ما حدث عندما توجّهت عدة مراكب زنكية من الصين إلى سواحل الهند سنة ١٤٣٣/٨٣٦، فرسا منها اثنان بميناء عدن، فلم تنفق بها بضائعهم من الصيني، والحرير، والمسك، وغير ذلك، لاختلال الأمن اليمني، فكتب كبير هذين المركبين الزنكيين إلى الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكّة، وإلى إبراهيم بن المرة ناظر جدَّة، يستأذن في قدومهم إلى جدَّة. وبعد أن أخبر السلطان برسباي بالأمر، وافق على مجيئهم إلى جدَّة وإكرامهم[٣].

وكانت العادة قد جرت أنّ يتولّى نظارة الحرم قاضي مكّة، فبذل داود الكيلاني سنة ١٤٣٤/٨٣٨، وهو تاجر فارسي مجاور فيها، مالاً إلى السلطان جقمق، حتّى ولاه نظارة الحرم، وعزل عنها أبا السعادات جلال الدين محمَّد بن ظهيرة قاضي مكّة، لكن الشريف بركات أنكر ذلك، وراجع السلطان في كتابه إليه، بأنّ الفقراء وغيرهم من أهل الحرم، لم يرضوا بولاية داود[٤].

هكذا بدت صورة بلاد الحجاز التجاريَّة خلال موسم الحجّ في العصر المملوكي، فتميَّزت بنمطها الاقتصادي وتعاملها التجاري. وكانت مكّة، وجدّة، والمدينة، والإسكندرية، والطور، أهمّ المراكز التجاريَّة. ومن المرجّح أنّ ذلك يعود إلى عدة أسباب، منها: موسم الحجّ الّذي كان له الدور الأكبر والفعّال على الصعيدين الديني والدنيوي، وما كانت تقوم به السّلطنة وأشراف الحجاز من تقديمات ومساعدات وتسهيلات لدخول الحجّاج، والزائرين، والتجّار، والوافدين إلى ديارها المباركة

---

(١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١١، ص ٣٤.

(٢) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج ٨، ص ٢٥٤.

(٣) المقريزي، **السلوك**، ج٤، قسم٢، ص ٨٧٢– ٨٧٣؛ ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٣٦٢.

(٤) المقريزي، م. س.، ج٤، قسم٢، ص٩٣٠؛ أحمد عبد الرازق أحمد، **البذل والبرطلة**، ص٩٣.

في موسم الحجّ، إلى جانب حرصهم على إلغاء الضرائب والمكوس المقرّرة في تلك البقاع الطاهرة، والّتي كانت تشكّل عبئًا ثقيلاً يعاني منه السكّان، وبشكل خاصّ أولئك الذين يقاسون الفقر المدقع، والحاجة الماسّة إلى المال، والطعام والمأوى.

وكان السلاطين يبذلون الخلع السنيّة على أشراف بلاد الحجاز، تعويضًا لهم عن المكوس التي أسقطوها، علاوةً على توزيع الإقطاعات الواسعة، ذات الأراضي الزراعيّة الخصبة في مصر والشام، من أجل كسب رضاهم، فكانوا يتبعون في معاملة رعايا البيت الحرام، منهج السلاطين الحريصين على مساعدة الأهالي، ومدّ يد العون إليهم، كي يتيسّر لهم ولو شيء قليل من العيش الكريم، في ظلّ حكم سلاطين المماليك[١].

* * *

نستنتج مما تقدم الأمور التالية:

اهتمّ سلاطين المماليك بحفر الآبار وإصلاحها وترميمها، بهدف تنشيط رحلة الحجّ والعمل على حدّ مشكلة العطش عند الحجّاج.

انكبّ المماليك على إعادة بناء ما تهدّم من المراكز الدينيّة والمقامات المقدّسة الخاصة بأداء فريضة الحجّ، ولا سيّما الكعبة المعظّمة، كما كان للمسجد النبويّ نصيبه من اعتناء سلاطين المماليك خلال تعرّضه للحريق.

وبرز دور الرحّالة الذين واكبوا قوافل الحجّ في العصر المملوكي، وقد عبّروا عن انطباعاتهم الوجدانيّة وأحاسيسهم العميقة تجاه الدّيار المقدّسة، كالعبدري الّذي أثنى على مكانة المقامات الدينيّة وشمائل الرسول.

وواكب أمراء الحجاز حركة الحجّ بصورة واضحة، وكانوا على استعداد لفضّ المشكلات الّتي قد تنشأ على أرض المناسك، على نحو ما حدث بين أمير الحجّ وأهل مكّة.

واستمرّ توافد الحجّاج إلى الدّيار المباركة لأداء شعائر الحجّ، رغم حصول النكبات والكوارث الطبيعيّة، إيمانًا منهم واحتسابًا لله تعالى.

وتوزّع سكّان الحجازعلى مجموعتين في العصر المملوكي:

- مجموعة الشمال، منها قبيلة بني عقبة التي حملت مسؤوليّة طريق الحجّ.
- مجموعة الجنوب، منها الأشراف، وقد اقتصرت مهمّتهم على فرض مكوس عالية على فريضة الحجّ.

---

(١) حياة الحجي، **أحوال العامة في حكم المماليك**، ص ٢٢٣؛ B. Lewis, "Hādjdj", *EI*₂, vol.III, p.39.

وازدهرت الثقافة في موسم الحجّ من خلال روّادها من العلماء الأجـلاّء وطـلاّب العلـم النجباء الّذين قدّروا العلم حقّ قدره، فأحبوه وأحبوا سماعه على أئمّتهم المشهورين بنبوغهم، وعلوّ قدرهم، وسعة علومهم، وكثرة معارفهم. وقد حصل هذا النشاط في المـدارس والمسـجد الحـرام والمسجد النبويّ، ما يدّل على كثرة السامعين لعلم الحديث في مكّة المكرمة في العصر المملوكي، وزيادة رصيد مكّة والمدينة سنويًّا من العلماء الّذين حجّوا وفضّلوا المجاورة للحرمين الشريفين.

واعتنى المماليك بالتجارة، وقد شكّلت تجارة الكارم أحد المصادر الرئيسيّة لثرائهم وقوّتهم، بعد أن بذلوا جهدهم لتأمين قوافل الكارم والتصدّي لغارات القراصنة، وإصدار جـوازات المـرور ووصاية الولاة والنظّار بتجّار الكارم، كما اهتم المماليك بالوظائف الّتي كانت تخدم تجارة الكـارم ومنشآتها التجاريّة، ونظمها الماليّة وسلعها.

الخاتمـة

استغرقت رحلات الحجّ في العصر المملوكي، ما يزيد على سنتين ذهابًا وإيابًا، وذلك وفق ما ذكره الرحّالة الذين رافقوا ركب الحجّاج، أمثال ابن جبير، والعبدري، وابن بطُّوطة، والقلصادي وغيرهم. وكان الحجّاج يتّفقون قبل سنة على موعد الرحلة، حتى يتيسَّر لهم تجهيز أنفسهم بشـراء احتياجاتهم لرحلة طويلة، وأهم هذه الاحتياجات تحضير الزاد والمـاء، وتـأمين الراحلـة الّتـي سيسافرون على ظهرها لنقلهم وحمل أغراضهم، بينما كان بعض الحجّاج يسـافرون بحـرًا مـن الموانيء البحريَّة صوب ينبع أو جدَّة حسب وجهة سفر المحمل، وحسب مكان مغادرتهم.

فالاستعداد لرحلة الحجّ كانت تبدأ قبل شهر رمضان وبعـد عيـد الفطـر، حيـث تتّخـذ الإجراءات اللازمة لانطلاق القافلة، ويجرى للحجّاج وداع مؤثر من القيّمين على الدولة من نخـب السلطنة المملوكيَّة والأهالي.

وكانت قوافل الحجّ المغادرة من كلّ البلاد، تحمل الفرحة والشّوق إلـى الـدّيار المقدّسـة، وكانت القلوب تختزن الكثير من الدموع للمودّعين والمودّعات.

لقد كان الحجّ في العصر المملوكي رحلةً يكتنفها الكثير من الأهوال والأخطار، لوعـورة الطريق وخطر العصابات الّتي كانت تهاجم قوافل الحجّ، إضافةً إلى شحّ المياه في الصحاري الّتي كانت القوافل تقطعها، ما كان يعرّضها إلى العطش المميت في حال ضلّت أو تفرّقت. لـذا، كـان الاحتفاء بالحجّاج المغادرين إلى أداء الفريضة كبيرًا على قدر مخاوف الوداع.

وقد حرصت سلطنة المماليك على رعاية أمور الحجّ والحجّاج، فأقامت الاحتفالات الرسميَّة والشعبيَّة لقوافل الحجّ خلال مغادرتها إلى بلاد الحجاز، ولا سيّما محمل الحجّ الشـامي ومواكبـه المختلفة، من موكب السنجق، وموكب الزيت والشمع، وموكب المحمل. أما المحمل المصري، ففاق في تجهيزه وإعداده ونظامه واحتفالاته وتقاليده قبل المغادرة إلى الحـرمين الشّـريفين، المحامـل الإسلاميَّة.

وكان للسلطنة دورها في تعيين طاقم قافلة الحجّ، حيث كان الاختيار يتمُّ ضـمن معـايير محدَّدة، ومن بين الشخصيَّات المعروفة بالصلاح والقدرة على حسن التصرف، بدءًا بأمير الحـجّ، المسؤول الأوّل عن ركب الحجيج وتأمين الطريق، فضلاً عمّا كان يناط به مـن مهـامّ إداريَّـة وقضائيَّة ودينيَّة واجتماعيَّة وعسكريَّة.

وكان أمير الحجّ يمثل الحضور السياسي للسلطنة في بلاد الحجاز عن طريق أمرين اثنين: المحمل وكسوة الكعبة، اللّذين يرسلهما السلطان المملوكي سنويًا إلى الحرمين الشريفين، وتوزيـع الهدايا وتسليم الصرّة والفرمان السلطاني إلى شريف مكّة. لذا، كان أمراء المماليك يتنافسون في ما بينهم للحصول على هذه الوظيفة. فقد استغلّ سلاطين المماليك منصب إمارة الحجّ، ونـال مركـز

أمير الحجّ حظوة سلاطين المماليك، واعتبرت وظيفته من أعظم المناصب الدينيّة وأجلّها، ذلك لأنّ الأمراء في هذا العصر يملكون قدرةً أو نفوذًا بين العلماء.

وكان أمراء الحجّ يتحمّلون مسؤوليّة قافلة الحجّاج وطاقمها البشري ذهابًا وإيابًا، وكان واحدهم يمثل أمام السلطان إذا أخلّ بواجباته وأهمل حماية الحجّاج. وكانت قيادته للركب تكشف مدى نجاح الرحلة أو فشلها. وقد اعتمد سلاطين المماليك على أمراء الحجّ لدعم سياستهم الرامية إلى تحقيق نفوذهم التدريجي على الحجاز، وهو النفوذ الّذي كان يرمز إليه المحمل وتسليم الأعطيات والصرر النقديّة. كما حدّدت مهامّ الموظّفين المرافقين لركب الحجّ وصلاحيّاتهم؛ فمنهم من يختصّ بمعاونة أمير الحجّ، ومنهم من يقوم بتأدية الخدمات للقافلة. ويصحب ركب الحجيج موظّفون مختصّون بأمور الجمال، علاوةً على توجيه الحجّاج وإرشادهم إلى الواجبات، والشروط الّتي يجب عليهم التقيد بها وتنفيذها حفاظًا على سلامة أداء الفريضة.

وتميّز العصر المملوكي بإقامة محطّاتٍ لتجمّع الحجيج، منها: محطّة تجمّع الحجّ الشامي في العسال جنوب دمشق، وتمركز الحجّ العراقي في الكوفة، والحجّ اليمني في تعز. أما تواجد الحجّ المصري وشمالي أفريقية، فكانت طرابلس الغرب والقاهرة تمثّلان أكبر محطّتين في رحلة الحجّ المغربي.

وقد استعمل المماليك الإبل كوسيلة رئيسيّة لنقل الحجيج؛ فمنها المحفّات، والهوادج، والمحامل. وكان الجمل هو الوسيلة المريحة للنقل عبر دروب الحجّ المتعدّدة. لذا، عرف من أنواع الجمال: النفر، والشعارة، والمحمل، والسحابة، وحدّد لكل نوع عمله. وهناك نوعان من المحامل: المحارة ويحمل شخصين، ومحمل الحجّ، و شعار القافلة، ويعرف بالهودج.

وتسهيلاً لرحلة الحجّ الّتي كانت تتطلّب راحة الجمال في محطّات الحجّ أو استبدالها بغيرها، منعًا لأيّ تأخير قد يطرأ على مسيرها، أنشأ المماليك سوقًا للجمال والخيل.

وحرص سلاطين المماليك على بذل جهودهم واهتمامهم بقوافل الحجّاج، وتقديم العون إليهم في الطريق ذهابًا وإيابًا، وتوفير الحماية العسكريّة لهم، كما أنهم لم يتغاضوا عن اعتداءات البدو على قافلة الحجّ، وذلك للمحافظةعلى هيبة السلطان المملوكي كحام للحرمين الشريفين على بلاد الحجاز، كما ظهرت عناية أمراء الحجّ واهتمامهم بشؤون الحجّاج والعمل على راحتهم.

وانحصر اهتمام سلاطين المماليك بمراسم محامل الحجّ في مدينتي القاهرة ودمشق فقط. وتأرجح الاحتفال بالمحمل المصري بين الاستعداد والنداء للحجّ والإبطال، وذلك أيّام المحن الناتجة من تغيير السلاطين، وما كان يرافق ذلك من حوادث أثناء الاحتفال بالمحمل ولعب الرمّاحة الّذي كان يتسبّب أحيانًا بأذيّة النّاس والممتلكات. وكان هناك محامل تقصد الحجاز لأداء المناسك، منها: العراقي، والمغربي، واليمني.

واللافت للنظر، تفوّق القافلة المصريّة زمن المماليك في الإعداد والاهتمام، حيث أصبحت كسوة الكعبة تبعث من مصر، وأوّل من كساها السلطان الظاهر بيبرس. وصارت الخطبة في مكّة، خلال الموسم، للسلطان المملوكي. وإنْ كانت كسوة الكعبة قد تشابهت مادّةً وزخرفةً علـى مـرّ العصور، إلا أنها اختلفت من حيث جودة الصنع، فتميَّزت الكسوة في العصر المملوكي، حسب مـا أورده ابن بطُوطة خلال أداء الفريضة، بأنها كانت تحاك من الحرير الحالك السواد، وتبطَّن بنسيج الكتّان السميك، ويزدان أعلاها بشريط كتّاني مطرّز بخيوط من الفضة يقرأ فيه آيات من القـرآن. وكانت الكسوة تصنع في مدينة تنيس المصريّة شمال دمياط.

وبالإضافة إلى الكسوة، كان يصنع أيضًا: ستارة باب الكعبة (البرقع)، وستارة باب التوبة، وكيس مفتاح الكعبة، وكسوة مقام إبراهيم، وستارة باب منبر الحرم المكّي، وكان يتم رعاية جملـي المحمل، حيث كان بمدينة تنيس مكان مخصص لإيواء الجملين ورعايتهما طوال السـنة. كمـا أنّ عملية تسليم الكسوة، وصرّة المحمل، كانت تتمُّ بمقتضى إشهاد شرعي رسمي.

وتألّفت قافلة الحجّ المصري من حجّاج مراكش والجزائر وطرابلس وتونس، فكانت خليطًا من الحجيج ظهرت آثاره في التقاليد المتّبعة الّتي كان الحجّاج يحملونها من بلادهم، ويمارسونها في الحياة اليوميّة على الطريق، وأثناء اللقاءات العلميّة والثقافيّة وخلال تأدية المناسك. ولطالما عبّـر عن تلك الممارسات الرحّالة المرافقون لوفود الله. وكان الحجّاج المغاربة عند وصولهم إلى مصر، ينزلون بركة الحجّ مركز انطلاق قافلة الحجّ المصري.

وتفرّدت مصر بتجهيز محامل سلاطين المماليك، منها: محمل الظاهر بيبـرس والناصـر محمّد بن قلاوون. وقد ظهر ذلك في هيئة المحمل والاحتفال في دورانه وتجهيزه ومغادرتـه إلـى الحرمين، بل سعوا إلى إبراز محمل السلطان بأبهى صورة، لكي يتفوّق على غيره من المحامـل، ولا سيّما الشامي والمغربي والعراقي. ولكن المحمل الشامي حظي أيضًا برعاية المماليـك، وبـدا البذخ والترف في تجهيزه، إلاّ أنّ المحمل المصري ظلّ الأفضل والمتفوّق في العصر المملوكي.

أمّا الركب العراقي، فقد انقطع عدة سـنوات عـن التوجّـه إلـى الحـرمين، ولاسـيّما سنة٦٤١/١٢٤٣، وقد استمر انقطاعه حتّى سنة ٦٥٠/١٢٥٢، وعطّله أيضًا الغزو المغولي سـنة ٦٥٨/١٢٦٠، وساعدت العوامل الطبيعيّة والكوارث الاجتماعيّة (الأمراض، المجاعات) في ذلـك. ولكن رغم تفاقم العراقيل، إلاّ أنّ القافلة العراقيّة شاركت في رحلة الحجّ وتميَّزت بمظاهر التـرف والبذخ.

وحفاظًا على نجاح رحلة الحجّاج وضمان سلامتهم وأمنهم علـى الطريـق وفـي أرض المناسك، اتّخذ المماليك عدة إجراءات لحفظ مسيرة الحجّ، فاهتمُّوا بتوفير الأمن على طريق الحجّ، وأقاموا الكثير من المنشآت لخدمة الحجّاج، وعيّنوا العساكر الأشدّاء لصحبتهم والدفاع عـنهم، وإن

كانت هذه الطريق تتعرض، في مواسم كثيرة، للإهمال، فتصبح غير مأمونة ومخيفة، حيث لا يأمن الإنسان على نفسه أو ماله، إلا أنّ ذلك لم يقف عائقًا أمام الشوق الجارف للسفر إلى الحجاز لقضاء الواجب الديني.

وعمد سلاطين المماليك إلى إبراز دور القاهرة في تفعيل ركن الحجّ، واعتبرت الإسكندرية محطة الحجّاج الأولى نحو الحجاز، وبرع الرحّالة المسلمون في كشف أهميّة محطّات الرحلة ودروبها؛ فمن طنجة إلى الإسكندرية، حسب ما ذكره ابن بطّوطة، كان هناك عدد من المدن المستعدّة لاستقبال الحجّاج وتكريمهم وتزويدهم بمختلف الوسائل الّتي تساعدهم على التنقّل من محطّةٍ إلى أخرى، دون أن يتعرّضوا إلى ما قد يهدّد أمنهم.

ومن الإسكندرية إلى ساحل البحر الأحمر عبر القاهرة وأسيوط وقوص وأسوان، تتوزع شبكة من المراكز الّتي كان الرحّالة يزورونها، نظرًا إلى ما تحويه من زوايا وخانقات، حيث كانت تتسابق الى إرضاء الحجّاج والسهرعلى راحتهم.

وكان موقع مصر الاستراتيجي همزة وصل بين جيران سكان شبه الجزيرة العربيّة، فساحلها بالقلزم يحمل منه إلى الحرمين وجدّة واليمن والهند والصين وعمان.

وكان للبحر الأحمر دورًا مهمًّا في نقل الحجّاج، نظرًا إلى اهتمام سلاطين المماليك بتأمين سلامة الحجّاج، وتسهيل الطرق الّتي كانت قوافل الحجّ تجتازها في طريقها إلى الحجاز، فاشتهرت منازل ومحطّات مستمدة من أسماء المواضع الّتي كانت القافلة تمر بها، وأصبحت هذه المنازل مع الوقت معروفةً لدى أمراء الحجّ ورجال القوافل والرحّالة وعلماء البلدان والجغرافيّة، حتّى أصبح يقال، مثلاً، منازل الحجّ العراقي، أو منازل الحجّ الشامي، بمعنى المحطّات، أو مواضع الطريق الّتي تمرُّ بها قافلة الحجّ أو تستريح بها.

ولعلَّ من أشهر هذه المحطّات والمنازل طريق الحجّ المغربي والمصري، إذ تميَّزت مدينتا طرابلس الغرب والقاهرة بأنهما مركز تجمّع الحجّاج الآتين من المغرب والأندلس وسائر المناطق المصريّة، والمغادرين منها إلى الأراضي الحجازيّة.

واعتنى سلاطين المماليك بمنطقة البحر الأحمر، وأسّسوا سياسةً ثابتةً تقوم على تأمين سلامة الحجّاج، وكان طريق الحجّ البرّي دربًا لحجّاج المغرب، حيث كان يلحق بالركب المصري خلال هذا الطريق، كلّ ركب بأميره؛ الركب التونسي، والجزائري، والمغربي، حيث يصلون إلى مصر قبيل رحيل الركب المصري، وينضوون تحت لواء أمير الحجّ المصري، وبعضهم كان ينتظر في القاهرة مدة سنة لتلقّي العلم في رحاب الأزهر حتّى موعد رحيل قافلة الحجّ؛ وكان الحجّاج يقيمون في عيذاب نحو شهر أو أكثر في انتظار المراكب الّتي تحملهم إلى جدّة.

وكان للحجّ الشامي منازل معروفة أيضًا، من دمشق حتّى المدينة، وكان هاجس القوافل في هذه المحطّات والمنازل، هو مياه الشرب والخوف من الهلاك عطشًا؛ فمنازل الحجّ الشامي كثيرة، ومن أشهرها معان، وتبوك، والمعظم، والعلا، وهديّة، وهذه الأخيرة من أهم المنازل بين المدينـة والشام؛ لأنّ ركب الحجّ الشامي يستريح فيها بضعة أيّام قبل مواصلة سيره باتّجاه المدينة. وإضافة إلى أهميّة هديّة لدى الحجّ الشامي، كان يؤمّها في الوقت نفسه حجّاج مصر وشمال أفريقيا من مرفأ الإسكندرية على ساحل البحر الأحمر، ما جعلها أشبه ما تكون بملتقى الطرق؛ طريق قادمـة مـن الشام، وأخرى قادمة من مصر وأفريقيا.

والأمر نفسه يقال عن الحجّ العراقي من الكوفة إلى مكّة، المعروف بدرب زبيدة، حيـث لا تزال آثار منازله ومحطّاته من برك وآبار موجودة حتّى اليوم.

واشتهرت قوافل الحجّاج بصحبة الرحّالة الّذين وصفوا انطباعـاتهم وأحاسيسـهم الدينيّـة وتجاربهم الخاصّة؛ وشكّلت هذه كلها، الدافع الأوّل لخروج الرحّالة، أمثال ابن جبير، والعبـدري، وابن رُشيد، والبلوي، وابن بطُوطة، والقلصادي، وغيرهم.

وبذل سلاطين المماليك جهودهم لتوزيع الكثير من أموالهم وصدقاتهم وزكاتهم على فقراء البيت الحرام، كما عمدوا إلى إسقاط الضرائب والمكوس المقرّرة في الديار المقدّسة، والّتـي كـان السكّان يعانون منها، علاوةً على تقديم الإقطاعات الواسعة في مصر والشام، من أجل الفوز برضى أشراف الحجاز وولاتهم. وكان سلاطين المماليك ينتهزون فرصة ذهابهم إلى الحجاز لأداء فريضة الحجّ، كي يحرصوا على عمل كلّ ما يستطيعون من أفعال الخير، ومساعدة الضـعفاء، ومعاونـة المحتاجين، وتفريق الغلال، وتوزيع الهبات، كما اجتهد المماليك في بنـاء الخوانـق، والأربطـة، والتكايا، كنوع من الصدقة لإيواء المحتاجين والمعوزين.

وقد حظي الفقهاء والصوفيّة بجزء من رعاية السلاطين والأمراء والمماليك، فكـان لهـم نصيب من التبرّعات والمنح الماليّة الّتي تعينهم على مواصلة العيش.

ومن الأعمال الّتي أنجزها المماليك، حفر الآبار والسقايات والعيون والمطاهر وتجديـدها، ولا سيّما بئر ميضأة الّتي بناها السلطان الناصر محمَّد بن قلاوون سنة ١٣٠٦/٧٠٦. وفـي سـنة ١٤٣١/٨٣٤، تمّ إصلاح جميع آبار مكّة، لتخفيف مآسي الحجيج وعطشهم على الطريق.

وتميّز العصر المملوكي بدخول المرأة ميدان المشاركة في تشييد الآبار، منهن الستّ أخت السلطان حسن صاحب مصر، الّتي أنشأت بئرًا سنة ١٣٦٠/٧٦١، كما بنى زين الدين عبد الباسط سبيلاً سنة ١٤٢٣/٨٢٦. وجدّد أبو السعادات بئر عطية بن ظهيرة، سـنة ١٤٥٢/٨٥٦. وسـاهم السلطان حسن في عمارة بركتين عند باب المعلاة، سنة ١٣٤٩/٧٤٩، ووسّع عبد الباسط نشـاطه ليبني بركة الحجّ ووضعها برسم الحجّاج سنة ١٤٢٥/٨٢٨.

وظهر عمل سلاطين المماليك في ترميم ما تهدّم من المقامات الدينيّة الخاصّة بالشعائر والزيارات، وأعادوا بنائها؛ فاهتمّوا بالمسجد الحرام، واعتنوا به، ووالوه بالإصلاح والتجديد، فأوقفوا عليه الأراضي الزراعيّة والعقارات في مصر وبلاد الشام، وكان ذلك في عهد السلطان بيبرس البندقداري، والمنصور قلاوون، والناصر محمّد بن قلاوون، والأشرف شعبان. وتبوّأ المسجد الحرام في مكّة المنزلة الرفيعة المتميّزة في التراث الضخم، إذ أفسح جميع الرحّالة دون استثناء الحيّز المهم في رحلاتهم للحديث عنه تاريخيًّا ووصفًا، معتذرين عن القصور اللّغوي في التعبير، عمّا يعتري النفس من أحاسيس وعواطف، وهم يتملّون بمشاهدته والتعبد فيه.

ولم تتخلّف بواكير الرحلات المغربيّة المدوّنة عن إبراز المكانة العظيمة للمسجد الحرام ومرافقه، في ما وصفته من معالم، وسجّلته من ملاحظات ومواقف، ما جعل هذه الكتابات الرحليّة مصدرًا لا يستغنى عنه في التعرّف إلى أحوال مكّة عامّةً، ووضع المسجد الحرام على وجه الخصوص في العقدين الأخيرين من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ونعني بذلك رحلات ابن رُشيد عام ٦٨٣/١٢٨٤، والعبدري الّذي قصد الحجاز سنة ٦٨٨/١٢٨٩، إضافةً إلى ابن بطُّوطة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي.

وركّز سلاطين المماليك جهدهم على هيكليّة الكعبة وهيئتها، فجرى ترخيمها من قبل المظفّر يوسف ملك اليمن، وأعاد المماليك عمارة الأماكن والمواضع الأثريّة والتاريخيّة، خصوصًا موضع الرسول، وجدّدوا تشييد دار الخيزران، حيث يقبل الزوّار والحجّاج على زيارة تلك المراكز.

وحصلت المراكز الدينيّة والتاريخيّة في المدينة على عناية سلاطين المماليك واهتمامهم، وبصورة خاصة المسجد النبوي؛ فالصلاة فيه تُعادل ألف صلاة فيما سواه عدا المسجد الحرام... وإليه تشدُّ الرحال. ويعتبر مسجد الرسول أوّل مسجد ثابت المعالم والتاريخ. وقد أعيد عمارة مسجد قباء سنة ٦٧١/١٢٧٢، كما أنجز سقف الحجرة الشريفة سنة ٦٥٥/١٢٥٧، واندفع الظاهر بيبرس إلى بناء الحرم النبوي سنة ٦٦٣/١٢٦٤، كما أقام السلطان منصور قلاوون دارًا للوضوء عند باب السلام. وبعد ذلك، جدّد بناء مسجد الرسول من قبل السلطان قايتباي نتيجة الحريق المدمّر الّذي اجتاحه. وتميّزت مدينة الرسول بتراث عظيم من الآثار التاريخيّة، فمنها، بقيع الغرقد، الّذي تحوّل إلى مزار من قبل الوافدين والقاطنين في طيبة، إضافةً إلى مسجد قباء وحجر الزيوت وحصن العزاب وسواها.

وتجلّت صورة التعامل الرعائي والاجتماعي في العصر المملوكي، فبرزت عمليّة التنسيق بين أمراء الحجّ وأشراف مكّة والمدينة، في سعيهم للحفاظ على الحجّاج وضمان سلامة تنقلهم وتحرّكهم خلال تأدية الفريضة، أو عند قصدهم المدينة، مخافة تعرُّضهم لغدر اللصوص واستغلال موسم الحجّ والتفرّد بهم في الصحراء، خاصّة أثناء الليل.

وقام أشراف الحرمين بدور مهمّ في إدارة الشؤون الدينيّة، والسهر على مسلك الحجيج، خوفًا على مناصبهم السياسيّة والدينيّة من جهة، وكسبًا لثقة السلطان المملوكي وأمراء الحجّ من جهة ثانية. واستمرّت العلاقات بين أشراف الحجاز والمماليك تتجاذب بين المدّ والجزر، حيث عمد سلاطين المماليك بين الفينة والفينة إلى عزلهم وتعيين البديل منهم، من أجل تثبيت سلطانهم وتوسيع نفوذهم، أو إرسال الأموال وتوزيع الإقطاعات للحصول على ولائهم. ومهما تكن تصرّفات المماليك نحوهم، فإن أشراف الحجاز شكّلوا زعامةً فعليّةً في موسم الحجّ.

لقد تواصلت رحلات الحجّ إلى الحجاز واستمرّت، نظرًا إلى الإجراءات الّتي مارستها السلطنة المملوكيّة في الحرمين، من إسقاط الضرائب أو تخفيفها، وإرسال الغلال إلى مكّة والمدينة، ومكافحة القحط؛ بالرغم من حصول الكوارث الطبيعيّة (سيول، مجاعات، أمراض، جراد).

وتميّزت قافلة الحجّ المصري في العصر المملوكي بانفرادها بزيارة المدينة بعد انتهاء المناسك؛ إذ كان العبدري بصحبة الركب المصري، وقام بزيارة المدينة، في حين توجّه الركب الشامي ذهابًا وإيابًا إلى المدينة وفي عداده ابن رُشَيد.

أما فيما خصّ سكّان الحجاز في العصر المملوكي، فتوزّعوا على مجموعتين:

القبائل الشماليّة، وتتكوّن من قبيلة بني عقبة، الّتي كانت تتقاضى الصرة مقابل توفير الحماية اللازمة للحجيج، في حين تمركزت قبائل عنزة والفقرا وولد علي على طريق الحجّ.

القبائل الجنوبيّة، وتتألف من قبيلة هذيل الّتي سكنت عند مكّة، والطائف. واستغل الأشراف نفوذهم لفرض الضرائب الباهظة على فريضة الحجّ، وعلى الأموال المرصدة لتحسين المقامات وحالات الحجّاج والضعفاء والمحتاجين والمنقطعين.

وبرز تنافس السلاطين وتسابقهم في توزيع الصدقات، والقيام بأعمال البرّ والإحسان، والاعتناء بالرعاية الصحيّة، لما لها من انعكاس على سلامة الحجّاج، ولا سيّما العجزة والمرضى. وقد سارع أولئك السلاطين إلى زيادة أعطياتهم، وتنشيط جهودهم، وسعيهم المتواصل لإرضاء أمراء مكّة والمدينة، خوفًا من خسارة نفوذهم السياسي والديني في الحجاز.

واتّخذت احتفالات سكّان الحجاز بالأعياد والمناسبات الدينيّة والاجتماعيّة طابعًا مميّزًا، خصوصًا في عيدي الفطر والأضحى. وحوت بلاد الحجاز طبقة المجاورين من جنسيّات متنوّعة، لازمت الحرمين، وأدّت دورًا عظيمًا في تعليم المحتاجين والفقراء دون مقابل. فقد كانت المجاورة بمكّة والمدينة من أسمى الغايات التي يصبو إليها الحجّاج العلماء لما ورد من الآثار النبويّة في فضائل المدينة وعظم ثواب السكن فيها.

أما النظام التعليمي بمكّة خلال حكم المماليك، فيكاد يتشابه مع نظم التعليم في البلاد الإسلاميّة الأخرى في ذلك الوقت، لأنها تركّز على تدريس العلوم الشرعيّة واللّغوية. فيبدأ الطالب،

وهو صبي، بتعلّم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، مع بعض المواد الأخرى في الكتاتيب، وبعد إتقانه حفظ القرآن، يمكنه الاستزادة من العلم بالالتحاق بحلقات العلم بالمسجد الحرام أو المدارس، الّتي يقوم بالتدريس فيها عادةً، كبار علماء مكّة، إما تطوّعًا أو بأجر، على أن بعض طلبة العلم المكّيين لم يقتنع بما درسه في بلده، فرحل لطلب العلم في البلاد الإسلاميّة الأخرى.

وقد بذل سلاطين المماليك جهودهم لتنشيط إقليم الحجاز علميًا، وقاموا برعاية المقامات الدينيّة، والاهتمام بتفعيل الحركة الثقافيّة والفكريّة في الحرمين الشريفين، ولا سيّما خلال موسم الحجّ، حيث تحوّل المسجد الحرام إلى حلقات علميّة، تضم الفقهاء والقضاة، والمحدثين وسواهم من أهل العلم والمعرفة.

وتميّز العصر المملوكي بدخول المرأة ميدان العلم والمشاركة فيه إلى جانب الرجل في إنعاش الحياة الثقافيّة، ما وفّر صورةً واضحةً عن المكانة العلميّة للمرأة في تلك الفترة، ولا سيّما في علم الحديث.

ولقد هيأ موسم الحجّ تلاقحًا فكريًا وثقافيًا بين كثير من الأدباء والمفكّرين الرموز ممن قصدوا الدّيار المقدّسة من مختلف الأقطار لأداء شعائر الحجّ، وعادوا إلى بلدانهم يحملون مشاعل العلم والإيمان، فكان يتعيّن على صفوة الزائرين من العلماء والكتاب والشعراء، أن يسجّلوا تفاصيل رحلاتهم بحلوها ومرها بأسلوب أدبي راق، يخاطبون فيه شعوبهم بلغاتهم، وينقلون إليهم تفاصيل حلقات الدروس داخل الحرم المكّي.

وعلى الصعيد التجاري، اشتهرت أسواق مكّة، وبخاصة سوق الليل، الّتي كانت تتوافر فيها جميع احتياجات الحجّاج، وازدهرت في جدّة السوق الكبيرة الّتي إمتلكها الأشراف وتحتوي على محلات تجاريّة خاصّة بتّجارة الأقمشة، والسوق المعروفة بشارع قابل، وسوق العلوي الّتي تصل إلى باب مكّة، بينما تمركزت أسواق المدينة في شارع العينية، وأشهر أسواقها سوق باب السلام.

وبالنتيجة، فقد مثّل الحجّ مؤتمرًا إسلاميًا يلتقي فيه الفقير والغني في مشهد إيماني رائع يتجرّدان فيه من كلّ متاع الدنيا وزخرفها، ليجمعهما مكان واحد وزمان واحد وزيٌّ واحد وقبلة واحدة ونداء واحد.

وأخيراً، بعد إنجاز هذا العمل المتواضع، آمل أن أكون قد قدّمت شيئًا جديدًا للمكتبة العربيّة، يمكن الإفادة منه مستقبلاً، تاركةً المجال أمام الباحثين للإضاءة على جوانب أخرى، ربما فاتني الحديث عنها، من رحلة الحجّ إلى الحجاز في العصر المملوكي.

قائمة المصـــادر والمراجــع

أولاً- المصــادر المخطوطــة

- ابن جماعة، بدرالدين محمد بن إبراهيم (١٣٣٣/٧٣٣)، **تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام**، لا ناســخ، ١١٤٤/١٧٣١، مكتـبة البلدية في الإسكندرية، رقـم ٣٦٣٨ ج، ٥٠ ورقة، ٢٣× ١٨، ٢١ سطرًا.

- ابن حبيب، حسن بن عمر بن حسن (١٣٧٧/٧٧٩)، **درة الأسلاك في دولة الأتــراك**، لا ناسخ، مكتبة ياني كامي في الآستانة، رقم ٨٤٩، مصورة في مكتبة جامعة دمشق، جــزءان، ٣٤٥ ورقة، ٢٣×١٧،٥سم، ٢٧سطراً.

- ابن الفرات، ناصر الدين محمَّد بن عبد الرحيم (١٤٠٥/٨٠٧)، **تاريخ الدول والملــوك**، لا ناسخ، مكتبة دار الكتب المصريّة، مصورة على الفوتوستات، الأجزاء السادس، السابع، الثامن، التاسع، ٣٢١، ١٩٦، ١٨٨، ٢٣٢ورقة، ٢٣،٥×١٨،٥سم، ٢٥- ٢٧ سطرًا.

- الشربيني، محمَّد بن أحمد (١٥٦٩/٩٧٧)، **مناسك الحجّ**، لا ناسخ، مكتبة المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة (المقاصد) بيروت، رقم٢٧٧/١، ٧٤ ورقة، ١٧×١١ سم، ٩ أسطر.

- **مجهول المؤلف**، **الحجّ والدعاء**، ناسخ إبراهيم عبد القادر بكداش البيروتي، ١٢٧٤هــ، مكتبة المعهد العــالي للدراســات الإسلاميــّة (المقاصد) بــيروت، رقــم١٠١/١، ٣٣ ورقـــة، ٢٤× ١٦،٥سم، ١٣ سطرًا.

ثانيــاً- المصـــادرالمنشــورة

- ابن الأثير، علي بن محمد بن عبد الكريم (١٢٥٢/٦٣٠)، **الكامل في التاريخ**، بيــروت، دار بيروت، ١٤٠٢/١٩٨٢، ثلاثة عشر جزءاً.

- ابن أجا، محمَّد بن محمود الحلبي (١٤٧٦/٨٨١)، **العراك بين المماليــك والعثمــانيين الأتراك**، صنعة محمَّد دهمان، الطبعة الأولى، دمشق، دار الفكر، ١٤٠٦/١٩٨٦.

- ابن إياس، محمَّد بن أحمد (١٥٢٤/٩٣٠)، **بدائع الزهورفي وقائع الدهور**، تحقيق محمَّد مصطفى، الطبعة الأولى، بيروت- القاهرة، فرانز شتاينر، ١٩٧٤- ١٩٩٢، ستة أجزاء.

- ابن بطُوطة، شمس الدين محمَّد بن عبد الله (١٣٧٧/٧٧٩)، **تحفة النظار فــي غرائــب الأمصار وعجائب الأسفار**، الطبعة الثّانية، القاهرة، مطبعة التقدم، ١٣٢٢/١٩٠٤، جزءان.

- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (١٤٧٠/٨٧٤)، **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، تحقيق محمَّد كمال الدين عز الدين، الطبعة الأولى، بيروت، عــالم الكتــب، ١٤١٠/١٩٩٠، جزءان.

– **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، حققه ووضع حواشيه محمد محمد أمين، تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤– ١٩٩٤، سبعة أجزاء.

– **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (مصورة عن طبعة دار الكتب)، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، ١٣٨٣/١٩٦٣– ١٣٩٢/١٩٧٢، ستة عشر جزءًا .

– ابن تيميّة، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (٧٢٨/١٣٢٨)، **مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمّد بن قاسم العاصمي النجدي، الطبعة الأولى، الرياض، مطابع الرياض، ١٣٨١/١٩٦١– ١٣٨٣/١٩٦٣، ثلاثون مجلدًا.

– ابن جبير، محمد بن أحمد (٦١٤/١٢١٨)، **رحلة ابن جبير**، بيروت، دار صادر– دار بيروت، ١٣٧٩/١٩٥٩.

– ابن جماعة، بدر الدين محمد بن إبراهيم (٧٣٣/١٣٣٣)، **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، حققه وعلق عليه محمد هاشم الندوي، الطبعة الثّانية، الرياض، رمادي للنشر، ١٤١٦/١٩٩٥.

– **مختصر صحيح البخاري**، تحقيق علي حسين البواب، الطبعة الأولى، بيروت– الرياض، المكتب الإسلامي– دار الخاني، ١٤١٢/١٩٩٢.

– ابن حبيب، حسن بن عمر بن حسن (٧٧٩/١٣٧٩)، **تذكرة النبيه في أيّام المنصور وبنيه**، حققه ووضع حواشيه محمّد محمّد أمين، راجعه وقدم له سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٧٦–١٩٨٢، جزءان.

– ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أحمد بن علي (٨٥٢/١٤٤٩)، **إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ**، الطبعة الأولى، الهند، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٧/١٩٦٧، تسعة أجزاء.

– **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، الطبعة الأولى، الهند، دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن، ١٣٤٨/١٩٢٩–١٣٥٠/١٩٣١، أربعة اجزاء.

– ابن الحريري، أحمد بن علي بن المغربي (٩٢٦/١٥٢٠)، **كتاب منتخب الزمان في تاريخ الخلفاء والعلماء والأعيان**؛ حققه عن نسخة يتيمة وعلق عليه عبده خليفة، الطبعة الأولى، بيروت، دار عشتار،١٩٩٣– ١٩٩٥، جزءان.

– ابن حنبل، أحمد (٢٤١/٨٥٥)، **مسند أحمد بن حنبل**، الطبعة الثّانية، بيروت، دار الفكر، ١٣٩٨/١٩٧٨، ستة مجلدات .

– ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمَّد المغربي (١٤٠٥/٨٠٨)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨، سبعة مجلدات.

– ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمَّد (١٢٨٢/٦٨١)، **وفيات الأعيان وأبناء أنباء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٨– ١٩٧٢، ثمانية أجزاء.

– ابن رُشيد السّبتي، محمَّد بن عمر (١٣٢١/٧٢١)، **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة**، تقديم وتحقيق محمَّد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨/١٤٠٨، سبعة أجزاء .

– ابن سباط، حمزة بن أحمد بن عمر (١٥٢٠/٩٢٦)، **تاريخ ابن سباط**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، طرابلس، جروس برس ، ١٩٩٣/١٤١٣، جزءان.

– ابن شاكر الكتبي، أبو عبد الله محمَّد (١٣٦٣/٧٦٤)، **عيون التواريخ**، (الجزء العشرون)، تحقيق فيصل السامر، نبيلة عبد المنعم داود، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠.

– ابن شداد، محمَّد بن علي بن إبراهيم الحلبي (١٢٨٥/٦٨٤)، **تاريخ الملك الظاهر**، تحقيق أحمد حطيط، فيسبادن، فرانز شتاير، ١٩٨٣/١٤٠٣.

– ابن صصرى، محمَّد بن محمَّد (١٣٩٧/٨٠٠)، **الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية**، تحقيق وترجمة ونشر وليم م. برينر، كاليفورنيا، مكتبة بوندليان، ١٩٦٣.

– ابن الصيرفي، علي بن داود (١٤٩٤/٩٠٠) **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، تحقيق حسن حبشي، القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٠– ١٩٩٤، أربعة أجزاء .

– ابن الضياء، أبي البقاء محمَّد بن أحمد بن محمَّد المكّي (٨٥٤ / ١٤٥١)، **تاريخ مكّة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، تحقيق أيمن نصر الأزهري، علاء إبراهيم الأزهري، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧/١٤١٨.

– ابن طولون، شمس الدين محمَّد (١٥٤٦/٩٥٣)، **أعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى**، تحقيق وتقديم عبد العظيم حامد خطاب، القاهرة، مطبعة جامعة عين شمس، ١٩٧٣.

– **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، حققه وكتب المقدمة والحواشي والفهارس محمد مصطفى، القاهرة، دار احياء الكتب العربيّة،١٩٦٢/١٣٨١– ١٩٦٤/١٣٨٤، جزءان.

– ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (٩٣٩/٣٢٨)، **العقد الفريد**، شرح وضبط وصحح وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين وآخرون، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٠/١٣٥٩– ١٩٥٣/١٣٧٢، سبعة اجزاء.

– ابن عبد الظاهر، محيي الدين بن عبد الظاهر (١٢٩٢/٦٩٢)، **تشريف الأيّام والعصور في سيرة الملك المنصور**، حققه مراد كامل، راجعه محمَّد علي النجار، الطبعة الأولى، القاهرة، الشركة العربيّة، ١١٩٦.

– **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الطبعة الأولى، الرياض، ١٩٧٦/١٣٩٦.

– ابن عبد المجيد اليماني، تاج الدين عبد الباقي (١٣٤٣/٧٤٣)، **تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن**، تحقيق مصطفى حجازي، القاهرة، مطبعة مخيمر، ١٩٦٥/١٣٨٤.

– ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس بن اهرون الملطي (١٢٨٦/٦٨٥)، **تاريخ الزمان**، نقله إلى العربيّة إسحق أرملة، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٦.

– ابن العماد الحنبلي، عبد الحي (١٦٧٨/١٠٨٩)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ثمانية أجزاء.

– ابن الفرات، ناصر الدين محمَّد بن عبد الرحيم (١٤٠٥/٨٠٧)، **تاريخ ابن الفرات**، حققه وضبط نصه قسطنطين زريق، نجلاء عزالدين، بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٣٥٥/ ١٩٣٦– ١٣٦١/ ١٩٤٢، ثلاثة أجزاء.

– ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحي (١٣٤٩/٧٤٩)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، إصدار فؤاد سزكين وآخرون، فرانكفورت، شتراوس– هير شبرج، ١٩٨٨/١٤٠٨– ١٩٨٩/١٤٠٩، سبعة وعشرون جزءاً .

– ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد (١٤٤٨/٨٥١)، **تاريخ ابن قاضي شهبة**، حققه عدنان درويش، دمشق، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربيّة، ١٩٧٧– ١٩٩٧، أربعة مجلدات،أربعة أجزاء.

– ابن كثير، أبو الفدا إسماعيل (١٣٧٢/٧٧٤)، **البداية والنهاية في التاريخ**، الطبعة الأولى، بيروت– الرياض، مكتبة المعارف– مكتبة النصر، ١٩٦٦، أربعة عشر جزءًا.

– ابن كنان، محمَّد بن عيسى (١٧٤٠/١١٥٣)، **حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين**، تحقيق عباس صباغ، الطبعة الأولى، بيروت، دار النفائس، ١٩٩١/١٤١٢.

– **المواكب الإسلامية في الممالك والمحاسن الشامية**، تحقيق ودراسة حكمت إسماعيل، مراجعة محمد المصري، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٢– ١٩٩٣، جزءان .

– ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (١٣١١/٧١١)، **لسان العرب**، نسقه وعلق عليه ووضع فهارسه علي شيري، الطبعة الأولى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨/١٤٠٨، ثمانية عشر جزءًا.

– ابن هشام، أبو محمَّد عبد الملك (٢١٣/٨٢٥)، **السيرة النبوية**، ضبط وتحقيق محمد علي القطب، محمَّد الدالي بلط، بيروت- صيدا، الدار النموذجية- المكتبة العصريّة، ١٤١٨/١٩٩٨، أربعة أجزاء.

– ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر (٧٤٩/١٣٤٩)، **تتمة المختصر في أخبار البشر**، القاهرة، مطبعة الوهبية، ١٢٨٥/١٨٦٨، جزءان .

– أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (٦٦٥/١٢٦٧)، **كتاب الرّوضتين في أخبار الدولتين النووية والصلاحية**، تحقيق إبراهيم البيق، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٨/١٩٩٧، خمسة أجزاء.

– أبو العلاء المعري، أحمد بن عبد الله بن سليمان (٤٤٩/١٠٥٧)، **اللزوميَّات**، الطبعة الثانية، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦/١٩٨٦، جزءان.

– أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمَّد (٧٣٢/١٣٣١)، **المختصر في أخبار البشر**، الطبعة الأولى، القاهرة، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٥/١٩٠٧، مجلدان، أربعة اجزاء.

– الأزرقي، محمَّد بن عبد الله بن أحمد (٢٥٠/٨٦٥)، **أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار**؛ تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الثالثة (جديدة ومنقحة)، بيروت، دار الأندلس، ١٣٨٩/١٩٦٩، جزءان.

– البخاري، أبو عبد الله محمَّد بن إسماعيل (٢٥٦/٨٧٠)، **صحيح البخاري**، القاهرة، المطبعة الأميرية ببولاق، ١٣١٤/١٨٩٦، مجلدان، تسعة أجزاء.

– البلوي، خالد بن عيسى (٧٦٨/١٣٦٧)، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، مقدمة وتحقيق الحسن بن محمَّد السائح، المغرب صندوق إحياء التراث الإسلامي، لا ت.، جزءان.

– الترمذي، أبو عيسى بن سورة (٢٧٩/٨٩٢)، **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي**، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٥٧/١٩٣٨، خمسة أجزاء.

– الجراحي، إسماعيل بن محمَّد العجلوني (١١٦٢/١٧٨٤)، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، الطبعة الثالثة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨/١٩٨٨، جزءان.

– الجزري، شمس الدين محمَّد بن إبراهيم (٧٣٩/١٣٣٨)، **حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى (عن نسخة المكتبة الوطنيّة بباريس رقم ٦٣٧٩)، صيدا- بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٩/١٩٩٨، ثلاثة أجزاء.

– الجزيري، عبد القادر بن محمَّد (١٥٤٦/٩٥٣)، **درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكّة المعظمة**، القاهرة، مكتبة المطبعة السلفيّة، ١٣٨٤ هـ.

– الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله (١٠١٤/٤٠٥)، **المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للذهبي**، تحقيق يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، أربعة أجزاء.

– الحربي، إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم (٨٩٨/٢٨٥)، **المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، تحقيق حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة، ١٩٦٩/١٣٨٩.

–الحميري، محمَّد بن عبد المنعم (١٤٩٥/٩٠٠)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار القلم، ١٩٧٥.

– الخزرجي، علي بن الحسن (١٤٠٩/٨١٢)، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، تحقيق محمَّد بن علي الأكوع الحوالي، تصحيح وتنقيح محمَّد بسيوني عسل، الطبعة الثانية، صنعاء- بيروت، مركز الدراسات والبحوث اليمني- دار الآداب ، ١٩٨٣/١٤٠٣، جزءان .

– دحلان، أحمد بن زيني (١٨٨٣/١٣٠٠)، **خلاصة الكلام في بيان الأمراء البلد الحرام**، الطبعة الأولى، القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٣٠٥هـ.

– الذهبي، شمس الدين محمَّد بن أحمد (١٣٨٤/٧٨٤)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العربي، ١٩٩٨-٢٠٠٠، ثلاثة عشر جزءًا .

– السخاوي، شمس الدين محمَّد بن عبد الرحمن (١٤٩٧/٩٠٢)، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، بيروت، دار مكتبة الحياة، لا ت.، اثنا عشر جزءًا.

– السراج، محمَّد بن أحمد بن عبد العزيز (١٦٣٢/١٠٤٢)، **أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب**، حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي، فاس، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافيّة والتعليم الأصلي، ١٩٦٨.

– السويدي، أبو البركات عبد الله بن حسين (١٧٦١/١١٧٤)، **النفحة المسكية في الرحلة المكّية**، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ٢٠٠٣.

– السويدي، محمَّد أمين البغدادي (١٨٣٠/١٢٤٦)، **سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب**، بغداد، دار المثنى، ١٩٧٨.

– السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمَّد (١٥٠١/٩١١)، **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، القاهرة، مطبعة الموسوعات صاحبها إسماعيل حافظ، ١٣٢١هـ، جزءان.

– الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (١٣٦٣/٧٦٤)، **الوافي بالوفيات**، تحقيق عدة محققين، فيسبادن، فرانز شتايز، ١٩٦٢/١٣٨١- ٢٠٠٤/١٤٢٥، ثلاثون جزءاً.

- العبدري، محمَّد بن محمَّد بن سعود (٧٠٠/١٣٠٠)، **رحلة العبدري**، تحقيق علي إبراهيم كردي، تقديم شاكر الفحام، الطبعة الأولى، دمشق، دار سعد الدين، ١٤١٩/١٩٩٩.

- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (٣٨٢/٩٩٢)، **الأوائل**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٧/١٩٨٧.

- العياشي، عبد الله بن محمَّد بن أبي بكر (١٠٩٠/١٦٧٩)، **ماء الموائد (الرحلة العياشية)**، تحقيق سعد زغلول عبد الحميد وآخرون، الإسكندريّة، منشأة المعارف بالإسكندريّة، ١٩٩٦.

- العيني، بدر الدين (٨٥٥/١٤٥١)، **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، حققه ووضع حواشيه محمَّد محمَّد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامَّة للكتاب، ١٤٠٧- ١٤١٢/١٩٨٧-١٩٩٢، أربعة أجزاء.

- الفاسي، تقي الدين محمَّد بن أحمد الحسين (٨٣٢/١٤٢٩)، **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، بيروت، مكتبة خياط، ١٩٦٤، أربعة أجزاء.

- **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق محمَّد حامد الفيقي، الطبعة الثّانية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٦/١٩٨٦، ثمانية أجزاء.

- الفيروز آبادي، مجد الدين محمَّد بن يعقوب (٨١٧/١٤١٤)، **القاموس المحيط**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠/١٩٩٩، أربعة أجزاء.

- القرماني، أحمد بن يوسف (١٠١٩/١٦١٠)، **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ**، تحقيق أحمد حطيط، فهمي سعد، بيروت، عالم الكتب، ١٤٢٠/١٩٩٢، ثلاثة أجزاء .

- القزويني، زكريا بن محمَّد بن محمود (٦٨٢/١٢٨٣)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت، دار صادر- دار بيروت، ١٩٦٠ .

- القزويني، محمَّد بن يزيد (٢٧٥/٨٨٨)، **سنن ابن ماجة**، حقق نصوصه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، جزءان، ١٣٩٥/١٩٧٥.

- القشيري، مسلم بن الحجاج (٢٦١/٨٧٥)، **صحيح مسلم**، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه وعد كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٣/١٩٨٣، خمسة مجلدات.

- القلصادي، أبو الحسن علي(٨٩١/١٤٨٦)، **رحلة القلصادي**، دراسة وتحقيق محمَّد أبو الأجفان، الطبعة الثّانية، تونس، الشركة التونسيّة للتوزيع، ١٣٩٨/١٩٧٨.

– القلقشندي، أحمد بن علي (١٤١٨/٨٢١)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرحه وعلق عليه محمّد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٧– ١٩٨٨، خمسة عشر جزءاً.

– **قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان**، حققه ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣/١٣٨٣.

– **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، تحقيق إبراهيم الأبياري، الطبعة الأولى، القاهرة، الشركة العربيّة، ١٩٥٩.

– الكليني، محمّد بن يعقوب (٩٤٠/٣٢٨)، **صحيح الكافي**، صحاح الأحاديث محمّد الباقر البهبودي، الطبعة الأولى، بيروت، الدار الإسلامية، ١٩٨١/١٤٠١، ثلاثة أجزاء.

– الماوردي، أبو الحسن علي بن محمّد (١٠٥٨/٤٥٠)، **الأحكام السلطانية والولايات الدينيّة**، بيروت، دار الكتب العلمية، لا.ت.

– المرادي، أبو الفضل محمّد خليل بن علي (١٧٩١/١٢٠٦)، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**، الطبعة الثالثة، بيروت، دار ابن حزم– دار البشائر الإسلامية، ١٩٨٨/١٤٠٨، أربعة مجلدات.

– المراغي، زين الدين أبي بكر بن الحسين (٨١٦ / ١٤١٣)، **كتاب تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة**، تحقيق سعيد عبد الفتاح، الطبعة الأولى، مكّة المكرمة– الرياض، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٩٩٧/١٤١٧.

– المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (٩٥٧/٣٤٦)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، عني بتنقيحها وتصحيحها شارل بلا، بيروت، طبعة بربيه دي مينار– بافيه دي كرتاي، ١٩٦٥– ١٩٧٩، ستة أجزاء.

– مسلم، ابن الحجاج القشيري (٨٧٥/٢٦١)، **صحيح مسلم**، وقف على طبعه وتحقيق نصوصه وتصحيحه وترقيمه وعدّ كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٣/١٤٠٣، خمسة مجلدات.

– المقدسي، أبو عبد الله محمّد بن أحمد (٩٩٠/٣٨٠)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، الطبعة الأولى، بيروت، المؤسسة العربيّة، ٢٠٠٣.

– المقري، أحمد بن محمّد بن أحمد بن يحي (١٦٣١/١٠٤١)، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق راينهارت دوزي وآخرون، أمستردام، المطبعة الشرقية، ١٩٦٧، جزءان.

– المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (١٤٤٢/٨٤٥)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تصحيح محمَّد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، الطبعة الثَّانية، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦– ١٩٧٣، أربعة أجزاء.

– **المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقريزية)**، (طبعة جديدة بالأوفست)، بيروت، دار صادر، لا ت.، جزءان.

– النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل (١١٤٣/١٧٣٠)، **الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز**، تقديم وإعداد أحمد عبد المجيد هريدي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

– النَّووي، يحي بن شرف (١٢٧٧/٦٧٦)، **الأذكار النَّووية**، تحقيق محيي الدين مستو، الطبعة السادسة، دمشق– بيروت، دار ابن كثير– دار الكلم الطيب، ١٩٩٢/١٤١٣.

– النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (١٣٣٣/٧٣٣)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٢٣– ١٩٩٧، ثلاثة وثلاثون جزءًا.

– اليافعي، أبو محمَّد عبد الله بن أسعد (١٣٦٦/٧٦٨)، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، الطبعة الثَّانية، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧٠/١٣٩٠، أربعة أجزاء.

– ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (١٢٢٩/٦٢٦)، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر– دار بيروت، ١٩٥٥/١٣٧٤– ١٩٥٧/١٣٧٦، خمسة مجلدات.

– اليونيني، قطب الدين موسى بن محمَّد (١٣٢٦/٧٢٦)، **ذيل مرآة الزمان**، الطبعة الأولى (تصحيح عن النسختين القديمتين المحفوظتين في أوكسفورد وإستانبول رقم ٣١٤٦ –٣١٩٩)، الهند، دائرة المعرف العثمانية حيدر آباد الدكن، ١٩٥٤/١٣٧٤– ١٩٥٥/١٣٧٥، جزءان.

ثالثًا– المراجع بالعربيَّة والمعرَّبة

– ابن جريس، غيثان بن علي، "الطرق التجاريّة البريّة والبحريّة المؤدية إلى الحجاز خلال القرون الإسلاميّة المبكرة"، **مجلة العرب** (الرياض)، ج٧–ج٨، محرم– صفر/حزيران– آب ١٩٩١/١٤١٢، صفحة ٤٤٧– ٤٥٩.

– ابن دهيش، عبد الملك بن عبد الله، **الحرم المكّي الشريف والأعلام المحيطة به**، مكّة المكرمة، ١٩٩٥/١٤١٥.

– أبو زيد، صلاح محمَّد، "رحلة الحجّ المباركة ودورها في تطور أدب الرحلات"، **مجلة الحجّ والعمرة** (الرياض)، السنة الحادية والستون، العدد الثَّاني، ٢٠٠٦/١٤٢٧، صفحة ٥٤– ٥٦.

- أحمد، أحمد عبد الرازق، **البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك**، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٧٩.

- إدريس، صالح موسى، "فيض فضائل المدينة المنوّرة"، **مجلة الحجّ والعمرة** (الرياض)، السنة الحادية والستون، العدد الثّاني، صفر ١٤٢٧/مارس ٢٠٠٦، صفحة ١٣– ١٥.

- أرسلان، شكيب، **الارتسامات اللطاف في خاطرة الحاج إلى أقدس مطاف**، حررها وقدم لها أيمن حجازي، الطبعة الأولى، بيروت، المؤسّسة العربيّة، ٢٠٠٤.

- الأشقر، محمَّد عبد الغني، **تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي**، القاهرة، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٩.

- الأفغاني، سعيد، **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، الطبعة الثّانية، دمشق، دار الفكر، ١٣٧٩/١٩٦٠.

- إقبال عباس، **تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتّى قيام الدولة التيمورية**، ترجمة عبد الوهاب علّوب، أبو ظبي، ١٤٢٠/٢٠٠٠.

- البتنوني، محمَّد لبيب، **الرحلة الحجازية**، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥/ ١٩٩٥.

- بدر، عبد الباسط، **التاريخ الشامل للمدينة المنوَّرة**، الطبعة الأولى، المدينة المنورة، ١٩٩٣، ثلاثة أجزاء.

- البدوي، عبد الرحمن، **مناهج البحث العلمي**، الطبعة الثالثة، الكويت، ١٩٧٧.

- بكر، سيد عبد المجيد، **الملامح الجغرافية لدروب الحجيج**، الطبعة الأولى، تهامة- جدّة، لاناشر، ١٤٠١/١٩٨١.

- بني حمد، عبد الله محمَّد، "الأسواق الشامية الموسمية على طريق الحجّ في العصر المملوكي"، **مجلة العرب** (الرياض)، ج٣- ج٤، رمضان- شوال/تشرين الثّاني- كانون الأول ١٤٢٥/٢٠٠٤، صفحة ٢٥٣- ٢٦٨.

- بوقس، عبد الله عبد المطلب، **الرحلة المقدسة إلى بيت الله الحرام**، الطبعة الثّانية، الرياض، وزارة المعارف، ١٤٠٦/١٩٨٦.

- البيطار، عبد الرحمن، "العثمانيون"، **الموسوعة العربيّة السورية**، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٨– ٢٠٠٥، اثنا عشر جزءًا.

- بيومي، طارق عبد العاطي غنيم، **سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.

- بيومي، محمَّد علي فهيم، **دور مصر في الحياة العلميّة في الحجاز إبان العصر العثماني**، القاهرة، دار القاهرة ، ١٤٢٦/٢٠٠٦.

– **مخصصات الحرمين الشريفين في مصر إبان العصر العثماني**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار القاهرة للكتاب، ١٤٢١/٢٠٠١ .

– ترنفال، جيرار Tranval, Gerard، **رحلة إلى الشرق**، ترجمة كوثر عبد السلام، القاهرة، ١٩٦٦، جزءان.

– التونجي، محمد، **المعجم الذهبي**، (طبعة مزيدة ومنقحة)، دمشق، المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق،١٩٩٣.

– الجاسر، حمد، 'كتب المنازل من روافد الدراسات'، **مجلة العرب** (الرياض)، ج٥- ج٦، ذو القعدة وذو الحجة/تشرين الثّاني وكانون الأوّل ١٣٩٧/١٩٧٧، صفحة ٣٢١- ٣٤٥.

– الجاسر، حمد، **المعجم الجغرافي للبلاد العربيّة السعوديّة** (شمال المملكة)،الطبعة الأولى، الرياض، منشورات دار اليمامة، ١٣٩٧/١٩٧٧، ثلاثة أجزاء.

– الجميل، مكي، **البدو والقبائل الرّحالة في العراق**، الطبعة الأولى، بيروت،دار الرافدين، ١٤٢٦/٢٠٠٥.

– الحجي، حياة ناصر، **أحوال العامة في حكم المماليك**، الطبعة الأولى، الكويت، شركة كاظم، ١٩٨٤.

– الحربي، فائز بن موسى البدراني، **التنظيمات القانونيّة لدى قبائل الحجاز قبل العهد السعودي**، راجعه وقدم له منصور بن إبراهيم الحازمي، الطبعة الأولى، الرياض، دار البدراني، ١٤٢٠/٢٠٠٠، ثلاثة أجزاء.

– حسانين، سليمان محمد حسين، **تجار القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر**، القاهرة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ٢٠٠٣.

– حسن، زكي محمد، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، بيروت، دار الرائد العربي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ثمانية أجزاء.

– حطيط، أحمد، **قضايا من تاريخ المماليك**، الطبعة الأولى، بيروت، دار الفرات، ٢٠٠٣.

– الحلبي، محمّد راغب الطباخ، **أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء**، الطبعة الثّانية، حلب، المطبعة العلمية في حلب، ١٣٤٢/١٩٢٣- ١٣٤٥/١٩٢٦، سبعة مجلدات.

– حلمي، إبراهيم، **المحمل**، القاهرة، مكتبة التراث الإسلامي، ١٩٩٣.

– **كسوة الكعبة المشرّفة وفنون الحجّاج**، الطبعة الأولى، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٤.

– الحلواني، سعد بدير، **تجارة الحجاز** (١٨١٢/١٨٤٠)، القاهرة، ١٤١٤/١٩٩٣.

- الخطيب، مصطفى عبد الكريم، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٦/١٩٩٦.

- خماش، نجدة، "الحجاز"، **الموسوعة العربيّة**، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٨- ٢٠٠٧، تسعة عشر جزءاً .

- الدهاس، فواز علي بن جنيدب، **المدارس في مكّة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار القاهرة ، ٢٠٠٦.

- رفعت باشا، إبراهيم، **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحجّ ومشاعره الدينيّة**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤/١٩٢٥، جزءان.

- الروقي، عايض بن خزّام، "المنشآت الطبيّة في الحرمين الشريفين خلال العهد العثماني"، **المجلّة العربيّة للعلوم الإنسانيّة** (الكويت)، السنة الثّانية والعشرون، العدد الثامن والثمانون، ٢٠٠٤، صفحة ١١- ٢٣.

- ريزفان، يغيم، **الحجّ قبل مئة سنة**، الطبعة الأولى، بيروت، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٤١٣/١٩٩٣.

- الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، الطبعة العاشرة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٢، ثمانية أجزاء.

- زيادة، نقولا، **دمشق في عصر المماليك**، بيروت، الأهلية، ٢٠٠٢.

سالم، عبد العزيز، **البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٣.

- السباعي، أحمد، **تأريخ مكّة**، مكّة المكرمة، دار مكّة، لا ت.، جزءان.

- سرور، محمَّد جمال الدين، **دولة بني قلاوون في مصر**، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٣٦٦/١٩٤٧.

- السرياني، محمَّد محمود، "لود فيكو فارتيما أوّل رحالة أوروبي يدخل مكّة المكرمة"، **مجلة الحجّ والعمرة** (الرياض)، السنة الحادية والستون، العدد الثامن، شعبان ١٣٢٧هـ، صفحة ٤٨-٥١.

- سعداوي، نظير حسان، **صور وظالم من عصر المماليك**، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٦.

- سعيد، إبراهيم أحمد، **الحجاز في نظر الأندلسيين والمغاربة في العصور الوسطى**، الطبعة الأولى، دمشق، دار الأوائل، ١٤٢٥/٢٠٠٤.

– سليم، محمود رزق، **عصر سلاطين المماليك**، الطبعة الثانية، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٣٨١/١٩٦٢– ١٣٨٥/١٩٦٥، ثمانية مجلدات.

– سليمان، عبد الحميد حامد، **المواني المصرية في العصر العثماني**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

– سوسة، أحمد، **فيضانات بغداد في التاريخ**، بغداد، مطبعة الأديب البغدادية، ١٩٦٣– ١٩٦٥، قسمان.

– سيد، أحمد فؤاد، **تاريخ مصر الإسلامية**، القاهرة، مكتبة مدبولي، ٢٠٠٢.

– شاهين، عزة بنت عبد الرحيم بن محمّد، **خدمات الحج في الحجاز خلال العصر العثماني**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار القاهرة، ٢٠٠٦.

– شهاب، مظهر، "الجلائريون"، **الموسوعة العربيّة**، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٨ – ٢٠٠٧، تسعة عشر جزءًا.

– الصوري، وليم، **الحروب الصليبية**، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١– ١٩٩٥، أربعة أجزاء.

– ضومط، انطوان خليل، **المماليك والعثمانيون وعهد السلطان سليم الأوّل**، الطبعة الأولى، مكتبة حبيب، ١٩٩٥.

– طقوش، محمّد سهيل، **العثمانيون من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة**، الطبعة الأولى، بيروت، دار بيروت، ١٤١٥/ ١٩٩٥.

– عاشور، سعيد عبد الفتاح، **الأيوبيون والمماليك**، طبعة جديدة (مزيدة معدلة)، القاهرة، دار النهضة العربيّة، ١٩٩٢.

– **العصر المماليكي في مصر والشام**، الطبعة الأولى، القاهرة، دار النهضة العربيّة، ١٩٦٥.

– **مصر في عصر دولة المماليك البحرية**، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٣٧٨/١٩٥٩.

– العاملي، يوسف رغدا، **معالم مكّة والمدينة بين الماضي والحاضر**، الطبعة الأولى، بيروت، دار المرتضى، ١٤١٨/١٩٩٧.

– العاني، نوري عبد الحميد، **العراق في العهد الجلائري**، الطبعة الأولى، بغداد، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، ١٩٨٦.

– العبادي، **قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام**، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، لا ت.

– عبد الغني، عارف أحمد، **تاريخ أمراء المدينة المنوّرة**، دمشق، دار كنان، ١٤١٧/١٩٩٦.

– العبيكان، طرفة عبد العزيز، **الحياة العلمية والاجتماعية في مكّة في القرنين السابع والثامن للهجرة**، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنيّة، ١٤١٦هـ.

– عثمان، شوقي عبد القوي، **تجارة المحيط الهندي في عصر السّيادة الإسلاميّة**، الكويت، عالم المعرفة، ١٤١٤/١٩٩٠.

– العزاوي، عباس، **تاريخ العراق بين احتلالين**، بغداد، شركة التجارة والطباعة المحدودة، ١٢٥٣/١٩٣٥– ١٣٧٦/١٩٥٦، ثمانية أجزاء.

– العقيقي، نجيب، **المستشرقون**، القاهرة، دار المعارف، ثلاثة أجزاء.

– العلي، صالح أحمد، **العراق في التاريخ**، بغداد، دار الحرية،١٩٨٣.

– علي، عرفة عبده، "طريق الحجّ المصري"، **مجلة الحجّ والعمرة** (الرياض)، السنة الحادية والستون، العدد الثّاني، صفر ١٤٢٧/مارس ٢٠٠٦، صفحة ٧٦– ٧٨.

– "الفنان الفرنسي (الحاج ناصر الدين) في مكّة المكرّمة"، **مجلة الحجّ والعمرة** (الرياض)، السنة الحادية والستون، العدد السادس، جمادي الآخر١٤٢٧هـ، صفحة ٣٨– ٤١.

– "كسوة الكعبة"، **مجلة الحجّ والعمرة** (الرياض)، السنة الحادية والستون، العدد الثالث، ربيع الأوّل ١٤٢٧/ أبريل ٢٠٠٦، صفحة ٥٤– ٥٧.

– "الوظائف الرسميّة بركب المحمل المصري في عصر سلاطين المماليك"، **مجلة الحجّ والعمرة** (الرياض)، السنة الستون، العدد الثالث، ربيع الأوّل ١٤٢٦/ أبريل مايو ٢٠٠٥، صفحة٧٠– ٧٣.

– علي، محمّد كرد، **خطط الشام**، الطبعة الثّانية، بيروت، ١٣٨٩/١٩٦٩– ١٣٩٢/١٩٧٢، ستة أجزاء.

– علي، يوسف الأمير، "إمارة"، **الموسوعة العربيّة**، الطبعة الأولى، دمشق، ١٩٩٨– ٢٠٠٧، تسعة عشر جزءاً.

– عمر، سميرة فهمي علي، **إمارة الحجّ في مصر العثمانية**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

– العمري، آمال، "دراسة لبعض وثائق تتعلق ببيع وشراء خيول من العصر المملوكي"، **مجلة معهد المخطوطات العربيّة** (القاهرة)، مج١٠، ج٢، رجب١٣٨٤/نوفمبر ١٩٦٤، صفحة ٢٢٣– ٢٧٢.

– عنقاوي، فؤاد، "الحركة الفكريّة والعلميّة في مكّة المكرمـــة"، **مجلـــة الحـــجّ والعمـــرة** (الرياض)، السنة الستون، العدد العاشر، شوال ١٤٢٦/ نوفمبر ديسمبر٢٠٠٥، صفحة١٢– ١٥.

– عوض، محمَّد مؤنس، **الجغرافيون والرحّالة المسلمون في بلاد الشام زمـــن الحـــروب الصليبية**، الطبعة الأولى، القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٥.

– الغنام، سليمان، **فصول من تاريخ الجزيرة العربيّة وجوارها الإقليمي**، الطبعة الأولـــى، بيروت، المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥.

– الغنيمي، عبد الفتاح مقلد، **موسوعة تاريخ المغرب العربي**، الطبعة الأولـــى، القـــاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٤/١٩٩٤، ستة أجزاء.

– غوري، جيرالدي، **حكام مكّة**، ترجمة محمَّد شهاب، الطبعة الأولـــى، القـــاهرة، مكتبـــة مدبولي، ١٤٢٠/٢٠٠٠.

– فارتيما، لودوفيكو Varthema, Ludovico ، **رحلات فارتيما (الحاج يـــونس المصـــري)**، ترجمة وتعليق عبد الله الشيخ، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.

– فرايهيرفون أوبنهايم، ماكس Freiherr von Oppenheim , Max وآخرون، **البدو ما بين النهرين العراق الشمالي وسورية**، ترجمة محمود كبيبو، تحقيق وتقديم ماجد شبر، الطبعة الأولى، لندن، دار الورق، ٢٠٠٤.

– فضل الله، محمَّد حسين، "الحجّ عبادة وحركة سياسة"، **مجلة المنطلق** (بيروت)، العـــدد السادس عشر، ذو القعدة ١٤٠١هــ، صفحة ١٣– ٢٣.

– فضي، سليمان، **التحفة الإيقاظية في الرحلة الحجازية**، الطبعة الأولـــى، بيـــروت، دار الساقي، ١٩٩٨.

– فكري، علي، **خلاصة الكلام في أركان الإسلام**، تحقيق محمَّـــد الحســـيني الظـــواهري، الطبعة الثّانية (منقحة ومهذبة)، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٦٧/١٩٤٨.

– فلبي، هاري سانت جون Philby , Harry Saint John، **حاج فـــي الجزيـــرة العربيّـــة**، ترجمة عبد القادر محمود عبد الله، الطبعةالأولى، الرياض، مكتبة العبيكان، ١٤٢١/٢٠٠١.

– فهمي، نعيم زكي، **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٣/١٩٧٣.

– قاسم، عبده قاسم، **عصر سلاطين المماليك**، الطبعة الأولى، القاهرة، عـــين للدراســـات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨.

– القاسمي، ظافر، **نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي**، الطبعة الثالثة، بيـــروت، دار النفائس، ١٤٠٧/١٩٨٧، جزءان.

– القثامي، حمود بن ضاوي، **شمال الحجاز**، الطبعة الثالثة، بيروت، العصر الحديث، ١٤١٣/١٩٩١، جزءان .

– القحطاني، حمد محمَّد، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية**، الكويت، مركز دراسات الخليج والجزيرة العربيّة، ٢٠٠٥.

– القحطاني، راشد بن سعد، **أوقاف السلطان الأشرف شعبان بن حسين على الحرمين الشريفين**، الطبعة الأولى، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤١٤/١٩٩٤.

– القزاز، محمَّد صالح داود، **الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية**، النجف، مطبعة القضاء، ١٣٩٠/١٩٧٠.

– القطب، سمير عبد الرزاق، **أنساب العرب**، الطبعة الأولى، منشورات دار مكتبة الحياة، ١٣٨٨/١٩٦٨.

– كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلفين**، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤/١٩٩٣، أربعة أجزاء.

– الكندري، فيصل عبد الله، "الفرمانات السلطانية"، **حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية (الكويت)**، الحولية الحادي والعشرون،١٤٢١– ١٤٢٢/٢٠٠٠– ٢٠٠٢، صفحة ٢٦– ٥٣.

– لبيب، حسني سيد، "حمام الحِمى"، **مجلة الحجّ والعمرة** (الرياض)، السنة الحادية والستون، العدد السادس، جمادي الآخرة ١٤٢٧ هـ، صفحة ٧٤– ٧٥.

– ماجد، عبد المنعم، **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٤– ١٩٦٧، جزءان.

– الماوي، فؤاد، **العلاقات الاقتصادية والمالية بين مصر والحجاز من الفتح العثماني حتى الاحتلال الفرنسي**، الكويت، شركة كاظم، ١٩٨٠.

– مبارك، علي باشا، **الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة**، (طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠– ١٩٨٧، سبعة أجزاء.

– المديرس، عبد الرحمن مديرس، **المدينة المنوَّرة في العصر المملوكي**، الطبعة الأولى الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٢/٢٠٠١.

– معتوق، صالح يوسف، **علم الحديث في مكّة المكرمة**، الطبعة الأولى، بيروت، مؤسسة الريان، ١٤٢١/٢٠٠٠.

– المنوني، محمَّد، **من حديث الركب المغربي**، مكناس، تطوان مطبعة المخزن، ١٩٥٣.

- مهر، غلام رسول، **يوميات رحلة في الحجاز ١٣٤٨/١٩٣٠**، ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم، الرياض، إصدارات دارة الملك عبد العزيز، ١٤١٧هـ.

- مورتيل، ريتشارد، **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكّة في العصر المملوكي**، الرياض، جامعة الملك سعود، لا ت.

- موزل، ألوز Musil, Alois ، "طريق الحجّ العراقي القديم"، **مجلة العرب (الرياض)**، ج٣، رمضان/تشرين الأول ١٣٩٢/١٩٧٢، صفحة ١٩٢– ٢٠٥.

- الموصلي، ياسين، **غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد**، بغداد، دار السلام، ١٩٨٨.

- موير، وليم Muir, William ، **تاريخ دولة المماليك في مصر**، ترجمة محمود عابدين، سليم حسن، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٤١٥/١٩٩٥.

- النفيسي، محمّد، "الخبر المنيف في المنبر الشريف"، **مجلة الحجّ والعمرة (الرياض)**، السنة الحادية والستون، العدد الحادي عشر، ذو القعدة ١٤٢٧هـ، صفحة ٥٤– ٥٩.

- وهيبة، عبد الفتاح محمّد، **جغرافية الإنسان**، الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٧٦.

- ياسين، عبد الناصر، **وسائل السفر عند المسلمين تاريخها وآثارها**، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠٥، قسمان.

- اليوزبكي، توفيق، **تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي**، الموصل، مؤسسة دار الكتب، ١٣٩٥/١٩٧٥.

رابعًا– المراجع بالفرنسية والإنكليزية

-Abdel Nour, A., "Le réseau routier de la Syrie Ottomane", *Arabica*, Brill-Leiden, 1983, vol.XXX, p.170- 189 .

- [C]Arafat,W.,"Bilāl b.Rabāh", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leyde-Paris, Brill- Maisonneuve et Larose, 1960, vol.I, p.1251.

-AL-rasheed, M., "Shammar", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden - Brill,1998, vol.IX, p.298 .

-Ashtor, E.,"Débat sur l'évolution économico- sociale de l'Égypte à la fin du moyen āge à propos d'un livre récent", *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Brill- Leiden, 1969, vol. XII, p.102- 109.

-Aubin, J.,"[C]Irāk", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leyde-Paris, Brill-Maisonneuve et Larose,1971, vol.III, p.1288.

-Boswrth,C.E.,"Tidjāra", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden-Brill, 2002 , vol.X, p. 499- 510.

-Buhl, F.R., Jomier .J,"Maḥmal", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden- Paris ,Brill- Maisonneuve et Larose, 1991, vol.VI, p.43.

-Cahen, Cl.,"Ayyûbides", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leyde- Paris, Brill- Maisonneuve et Larose,1960, vol.I, p.820 .

-Canard, M.,"Fāṭimides", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leyde-Paris, Brill- Maisonneuve et Larose,1965, vol.II, p. 870.

-Demombynes, M. G., *Le Pèlerinage à la Mekke,* Paris, Paul Geuthner,1923.

- Dozy, R., *Supplément aux Dictionnaires Arabes* , 3ème édition , Leyde-Paris, Brill- Maisonneuve et Larose, 1967,vol.II .

-Ende,W.,"Mudjāwir", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden-Paris, Brill-Maisonneuve et Larose, 1993, vol.VII, p.295-296.

- Fischel,W. J.,"The Spice Trade in Mamlûk Égypt" , *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Brill-Leiden, 1959, vol.I, p.157-174 .

-Heyd, W., *Histoire du commerce du levant* , Amsterdam, Adolf Mhakkert, 1959, volII.

-Hinz, W.,"Dhirā^{C}", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Paris, Brill- Maisonneuve et Larose, 1965, vol.II, p. 238 – 239.

-Holt, P.M.,"Mamlûks", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden– Paris, Brill - Maisonneuve et Larose, 1991 , vol.VI, p. 305 – 315.

-Jomier, J., "Amîr al-Ḥādjdj", *Encyclopédie de l'Islam (nouvelle édition*), Leyde-Paris, Brill -Maisonneuve et Larose, 1960, vol.I, p.456 .

-Jomier , J.,Wensinck, A.J., "Iḥrām", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition) Leyde- Paris, Brill- Maisonneuve et Larose,1971, vol.III, p.1078 – 1079.

- "Ka^{C}ba", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden - Paris, Brill - Maisonneuve et Larose, 1978, vol.IV, p. 331 – 337 .

-Jomier , J., *Le Maḥmal et la* caravane *égyptienne des pèlerins de la Mecque,* Le Caire, Imprimerie de l'institut français d'Archeologie Orientale,1953.

-Katakura, M.,"Some Social aspects of Bedouin Settlements in Wādi Fāṭima", *Orient,*1973, vol.IX, p. 67 -107 .

-King, D.A.,"Makka", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden-Paris Brill - Maisonneuve et Larose , 1991, vol.VI, p.164 – 170.

-Kister, M .J.,"Some reports concerning Mecca", *Journal of the Economic and Social History of the Orient* , Brill -Leiden, 1972, vol.XV, p.61.

-Lecerf, C.J.,"Djiwār", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leyde-Paris, Brill- Maisonneuve et Larose, 1965, vol.II, p.572.

-Lewis, B.,"Ḥādjdj", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leyde-Paris, Brill-Maisonneuve et Larose,1971, vol.III, p. 33 – 40.

- Miquel, I . A., "Ibn Baṭṭûṭa", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), vol.III, Leyde-Paris , Brill- Maisonneuve et Larose, 1971, p.758.

-Orhonlu, C.,"Kārwān"(Caravane), *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden- Paris , Brill-Maisonneuve et Larose, 1978 , vol.IV, p.704- 707.

-Rabbat, N.,"Ribāṭ", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle edition), Leiden-Brill, 1995, vol.VIII, p.511-513.

-Sauvaget, J., *La Poste aux chevaux dans l'empire des Mamlouks*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1979.

-Savory, R.M.,"Ṣafawides", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden-Brill, 1995 , vol.VIII, p.791.

-Seyrig, H.,"Postes romaines sur la route de Médine", *Syria*,1941,vol.XXII, p.218-223.

-Tresse, R., *Le Pèlerinage Syrien aux Saintes de l'Islam*, Paris, Imprimerie Chaumette, 1937.

-Turk, A., Souami, H. R., *Récits de Pèlerinage à la Mekke*, Paris, Maisonneuve et Larose, 1979 .

- Van Arendonk, C., Graham W.A. , "Sharîf",*Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Paris, Leinden-Brill, 1998, vol.IX, p. 340 – 348 .

-Watt,W.M.,"Al-Madîna",*Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden-Paris, Brill- Maisonneuve et Larose, 1986, vol.V, p. 989-993 .

–"Makka", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Leiden-Paris, Brill-Maisonneuve et Larose,1991, vol.VI, p.142- 146.

-Winder, B.,"Al-Madîna", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), vol.V, Leiden- Paris ,Brill- Maisonneuve et Larose , 1986, p.993-1003.

-Winder, R. B.,"Makka", *Encyclopédie de l'Islam* (nouvelle édition), Paris, Maisonneuve et Larose, 1991, vol.VI, p. 151-164 .

-Yver,G.,"Al-Maġrib", *Encyclopédie de l'islam* (nouvelle édition), Leiden-Paris, Brill- Maisonneuve et Larose , 1986 , vol.V, p.1179-1180 .

-Zadeh , H.K. , *Relation d'un Pèlerinage à la Mecque*, Paris, Ernest Leroux, 1912.

الفهارس

فهرس الأعلام والقبائل

(أ)

ح

غ

(ف)

فهرس الآيـــات القرآنيـــة

الأنفال ٨/٦٠ — ٢٧٥

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

إبراهيم ١٤/٣٧ — ١٨٢

قَالَ تَعَالَى: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

الحج ٢٢/٢٦ — ٢١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾

الحج ٢٢/٢٧ — ٣، ٢١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحج ٢٢/٢٨ — ٢١

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ ﴿٢٨﴾ ﴾

فهرس الأحاديث النبويّة

فهـرس الأشعـار

(ل)

أحن	تحب المنازل	الطويل	القلصـــادي	٢١٠
وأشتاق	الثغور رسائل	الطويل	القلصـــادي	٢١٠
يرنحني	والبان مـــائل	الطويل	القلصـــادي	٢١٠
وإن	منكم شمـــائل	الطويل	القلصـــادي	٢١٠

(م)

مقام	ضوء ظـــــــلام	الوافر	العبـــدري	١٩٩
به قال	للمسالك فاستقاموا	الوافر	العبـــدري	١٩٩
عليه	من عليها والسلام	الوافر	العبـــدري	١٩٩

(ي)

لقد أتينا	غدرانها نـــدية	مجزوء البسيط	النابلســـي	١٤٩
وقد فرحنا	الناس بالهديـــة	مجزوء البسيط	النابلســـي	١٤٩

فهرس المحتويات